تعريف الدارسين

بمناهج المفسرين

الدكتور صلاح عبد الفتاح الخالدي

دار القلم
دمشق

تعريف الدارسين بمناهج المفسرين

الطَّبْعَةُ الثَّالِثَةُ
١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

تُطلب جميع كتبنا من:
دار القلم - دمشق هاتف: ٢٢٢٩١٧٧ فاكس: ٢٤٥٥٧٣٨ ص.ب: ٤٥٢٣
الدار الشامية - بيروت هاتف: ٨٥٧٢٢٢ (٠١) فاكس: ٨٥٧٤٤٤ (٠١) ص.ب: ١١٣/٦٥٠١
www.alkalam-sy.com

توزّع جميع كتبنا في السعودية عن طريق:
دار البشير - جدّة: ٢١٤٦١ ص.ب: ٢٨٩٥ هاتف: ٦٦٠٨٩٠٤ / ٦٦٥٧٦٢١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـدّمـة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه، ونتوب إليه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، مَنْ يهده الله فلا مضلَّ له، ومَن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إلـه إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فإن من المتفق عليه أن المسلمين اعتنوا بالقرآن عناية كاملة، فأقبلوا عليه قارئين وحافظين ومتدبرين، وأقبل عليه العلماء يفسِّرونه ويحلِّلون آياته، ويستنبطون منها أحكامه، ويستخرجون منها حقائقه. ونجزم أنه لم يتحقق لأي كتاب على الإطلاق ما تحقق للقرآن الكريم من دراسات ونظرات وتفسيرات وتحليلات.

وإن (المكتبة القرآنية) هي أضخم مكتبة في التاريخ الإسلامي، و(المكتبة التفسيرية) من أهم أقسام المكتبة القرآنية، ويستحيل حصر المكتبة القرآنية والتفسيرية، وتسجيل كل ما صدر عن القرآن وتفسيره وعلومه من كتب ودراسات وأبحاث، منذ الصحابة وحتى الآن!

ولقد صدق الإمام الزمخشري عن كثرة التفاسير، رغم تحفظنا على ثنائه على كشافه:

إنَّ التفاسيرَ في الدُّنيا بلا عددٍ ... وليسَ فيها لَعَمْري مثلُ كشَّافي
إنْ كنتَ تبغي الهُدى فالزمْ قراءتَه ... فالجهلُ كالدَّاءِ والكشَّافُ كالشَّافي

وتعدّدت مناهج التفسير ومدارسه واتجاهاته، على مدار التاريخ الإسلامي، ومن أهم مناهج التفسير: التفسير بالمأثور المجرد، والتفسير الأثري النظري،

والتفسير بالرأي المحمود، والتفسير بالرأي المذموم.

وأفضل هذه المناهج هو منهج التفسير الأثري النظري، الذي يجمع بين اعتماد الأقوال المأثورة من آيات وأحاديث، وأقوال صحابة وتابعين، ولغة وشواهد شعرية ـ وبين النظر في الآيات، واستخراج بعض ما فيها من دلالات ولطائف وأحكام، وكثير من المفسرين في القديم والحديث فسّروا القرآن بقواعد هذا المنهج الأثري النظري!.

وبعض الدارسين لا يستطيع التعرّف على قواعد وملامح هذه المناهج التفسيرية، ولا يتمكن من ملاحظة هذه القواعد في التفاسير المشهورة، و(توزيع) هذه التفاسير على تلك المناهج.

والدراسات عن (مناهج المفسرين) قليلة، وما زالت في بداياتها، وأول من كتب معرِّفاً بالتفاسير وأصحابها هو الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله، حيث نشر كتابه (التفسير والمفسرون) في نهاية الأربعينيات، ثم أعاد طباعته في الستينيات، وقد استعرض فيه أهم التفاسير ومناهج أصحابها، منذ الصحابة وحتى العصر الحديث، وكان استعراضاً سريعاً، وجاء كتابه في ثلاثة أجزاء كبيرة!

ورأيت الحاجة ماسة إلى تعريف الدارسين ـ من طلاب جامعيين أكاديميين، ومثقفين إسلاميين، وطلبة علم حريصين عليه ـ بأهم مناهج المفسرين، وعرض لأهم قواعد كل منهج، وتعريف بأشهر التفاسير التي تحقق فيها هذا المنهج، ولهذا أعددت هذه الدراسة (تعريف الدارسين بمناهج المفسرين) مستعيناً بالله ربّ العالمين.

وجاءت هذه الدراسة بثمانية فصول، وفي كل فصل عدد من المباحث:

الفصل الأول: عرضت فيه بعض المقدمات التمهيدية الضرورية لمعرفة مناهج المفسرين، وجاء في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: عرَّفت فيه بمصطلح (مناهج المفسرين)، وبيّنت أهمية معرفة مناهج المفسرين.

المبحث الثاني: تحدّثت فيه عن مصطلحي: (التفسير) و(التأويل)، وعرضت بعض الأقوال في التفريق بينهما، وذكرت الراجح واستدللت له.

المبحث الثالث: استعرضتُ فيه استعراضاً سريعاً جداً حركة التفسير في مسيرتها التاريخية، منذ الصحابة وحتى العصر الحديث، وقسمت هذه المسيرة إلى أربع مراحل أساسية، ومثّلت لكل مرحلة بأهم التفاسير التي تمثّلها!

الفصل الثاني: تحدّثت فيه عن أهم الشروط والضوابط والعلوم والآداب والتوجيهات التي لابد أن تتحقق في المفسرين، وتتمثل في تفاسيرهم، لتكون صحيحة صائبة. وجاء هذا الفصل في ستة مباحث:

المبحث الأول: ذكرت فيه أهم العلوم الضرورية للمفسر.

المبحث الثاني: عرّفت فيه بأهم الصفات والآداب التي لابد أن تتوفر في المفسر.

المبحث الثالث: عرضت فيه أحسن طرق التفسير بمراحلها المتدرجة.

المبحث الرابع: ذكرت فيه أهم أسباب اختلاف المفسرين، بعد أن قسمت هذه الأسباب إلى أقسام أساسية، ومثّلت لكل سببٍ بأمثلة.

المبحث الخامس: تحدّثت فيه عن أهم الأخطاء التي قد يقع بها بعض المفسرين، وصنّفتُ هذه الأخطاء تصنيفاً موضوعياً مطرداً.

المبحث السادس: تحدّثت فيه عن أهم الضوابط التي لابد من وجودها عند دراسة التفاسير وتقويمها، والحكم لها أو عليها، ليكون التقويم صحيحاً، والحكم عادلاً.

الفصل الثالث: تحدّثت فيه عن تفسير القرآن بالقرآن والسنة، لأن هذا هو الأساس في التفسير، ولابد لكل مفسرٍ منهجي من أن يتعرّف عليه وينطلق منه في تفسيره. وجاء الفصل في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تفسير القرآن بالقرآن، عرضت فيه صور وأنواع بيان القرآن للقرآن، كما استخلصها العلماء من تدبّرهم للقرآن.

المبحث الثاني: تفسير القرآن بالسنة: بيّنت فيه العلاقة الوثيقة بين القرآن والسنة، وأهمية اعتماد السنة الصحيحة في تفسير القرآن، وقدّمت صور وأنواع بيان السنة للقرآن.

المبحث الثالث: تحدّثت فيه عن تفسير الرسول ﷺ للقرآن، باعتباره أول مفسّر للقرآن، وأكثر الناس فهماً وإدراكاً لمعاني القرآن وأحكامه. وبيّنت فيه المقدار الذي فسّره رسول الله ﷺ، وصور تفسيره، ومكان وجوده في كتب السنّة والتفسير!.

الفصل الرابع: خصّصته للحديث عن التفسير بالمأثور، باعتباره أول منهج من مناهج التفسير ظهر في حياة الصحابة والتابعين وتابعيهم، وجاء هذا الفصل في سبعة مباحث:

المبحث الأول: تحدّثت فيه عن مفهوم التفسير بالمأثور، ومصادره التي نأخذه منها.

المبحث الثاني: عرضت فيه أهم قواعد وضوابط التفسير بالمأثور.

المبحث الثالث: تابعتُ فيه خطوات واتجاهات التفسير بالمأثور، من الصحابة إلى التابعين إلى تابعيهم، وكيف كان التفسير بالمأثور ضمن الحديث، ثم انفصل ليكون علماً مستقلاً قائماً بذاته.

المبحث الرابع: تحدّثت فيه عن التفسير بالمأثور زمن الصحابة، وعرّفت بأشهر المفسّرين من الصحابة، وأشهر تلاميذهم من التابعين. وتحدّثت عن منهج عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في التفسير، باعتباره أشهر المفسرين من الصحابة، وخير مَنْ يتمثّل فيه منهج التفسير بالمأثور.

المبحث الخامس: تحدّثتُ فيه عن التفسير بالمأثور زمن التابعين، وعرّفت

فيه بأعلام المفسّـرين من التابعين، واختـرت الحديث عن منهج إمام التابعين الحسن البصري في التفسير.

المبحث السادس: تحدّثت فيه عن التفسير بالمأثور زمن أتباع التابعين، وعرّفت فيه بأعلام المفسّرين ما بين التابعين ومحمد بن جرير الطبري. واخترت الإمام سفيان الثوري ممثلاً لهذه المرحلة، وتحدّثتُ عن منهجه في التفسير.

المبحث السابع: طويت فيه عدة قرون من القرن الثالث إلى القرن التاسع، حيث تحدّثت عن تفسير بالمأثور المجرّد ظهر في أواخر القرن التاسع، هو (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) لجلال الدين السيوطي.

الفصل الخامس: تحدّثت فيه عن المنهج الثاني من مناهج المفسّرين، وهو التفسير الأثري النظري، أهم منهج من مناهج المفسرين. وجاء هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: عرفت فيه تعريفاً مجملاً موجزاً بأشهر ثمانية تفاسير تمثّل فيها المنهج الأثري النظري: تفسير يحيى بن سلام البصري، وتفسير بقي بن مخلد، والتفسـير الوسيط للواحدي، وتفسير البغوي، وتفسير ابن عطية الأندلسـي، وتفسير ابن الجوزي، وتفسير القرطبي، وتفسير الشوكاني.

المبحث الثاني: خصصته للحديث عن أشهر تفسير بالمنهج الأثري النظري ـ بل أشهر تفسير على الإطلاق ـ هو تفسير الطبري، عرّفت فيه تعريفاً مجملاً بالإمام الطبري، إمام المفسّرين، وعرّفت بتفسيره، وفصّلت الحديث عن منهجه في التفسير.

المبحث الثالث: تحدّثتُ فيه عن تفسير تمثل فيه المنهج الأثري النظري خير تمثيل، وكتب الله له الانتشـار والقبول، هو تفسـير ابن كثير، ترجمت فيه ترجمة مجملة لابن كثير، وعرضت قواعد منهجه الأثري النظري في التفسير.

الفصل السـادس: انتقلت فيه للحديث عن المنهج الثـالث من مناهج

المفسرين، وهو التفسير بالرأي المحمود، أو التفسير العقلي المنضبط بالضوابط والشروط المطلوبة. وجاء هذا الفصل في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تحدّثت فيه عن مفهوم التفسير بالرأي المحمود، واختلاف العلماء فيه، والشروط التي لابد من تحققها فيه، ليكون محموداً مقبولاً.

المبحث الثاني: عرفت فيه بأشهر سبعة تفاسير تمثل فيها الرأي المحمود، هي: تفسير البيضاوي، وتفسير النسفي، وتفسير القمي النيسابوري، وتفسير أبي حيان الأندلسي، وتفسير برهان الدين البقاعي، وتفسير أبي السعود، وتفسير الآلوسي.

المبحث الثالث: تحدثت فيه عن أشهر تفسير يمثل التفسير بالرأي المحمود، هو تفسير (مفاتيح الغيب) للإمام الرازي، ترجمت ترجمة مجملة لفخر الدين الرازي، ثم تحدثت عن قواعد منهجه في التفسير.

الفصل السابع: رصدت فيه أهم الاتجاهات المنحرفة في التفسير، والتي يصح أن نسمي منهجها التفسيري: (التفسير بالرأي المذموم)، وكان رصداً سريعاً لأشهر الانحرافات في التفسير. وجاء الفصل في أربعة مباحث:

المبحث الأول: سجلت فيه أهم أسباب الانحراف في التفسير.

المبحث الثاني: ذكرت فيه أهم الفرق المنحرفة في التفسير: المعتزلة، والشيعة، والخوارج، والصوفية، والفلاسفة، ومدعو التجديد المعاصر.

المبحث الثالث: عرفت بأشهر ستة تفاسير تمثل فيها الانحراف في التفسير، هي: تفسير مجمع البيان للطبرسي الإمامي الشيعي، وتفسير هميان الزاد لمحمد أطفيش الإباضي الخارجي، والبرهان في تفسير القرآن لهاشم البحراني الشيعي الإمامي، وحقائق التفسير للسلمي الصوفي، والتأويلات النجمية لنجم الدين داية الصوفي، والهداية والعرفان للدمنهوري الإلحادي.

المبحث الرابع: عرفت فيه بتفسير مشهور متداول يمثّل منهج المعتزلة في

التفسير، هو تفسير الكشاف للزمخشري، وقد ترجمت للزمخشري ترجمة مجملة، ثم عرفت بالكشاف تعريفاً مجملاً، وعرضت فيه قواعد منهج الزمخشري المعتزلي في التفسير.

وختمت هذه الدراسة بالفصل الثامن، الذي خصصته للحديث عن التفسير في العصر الحديث. وجاء في أربعة مباحث:

المبحث الأول: تحدَّثت فيه عن طبيعة العصر الحديث.

المبحث الثاني: عرضت فيه أهم اتجاهات التفسير في العصر الحديث: الاتجاه الأثري، والاتجاه العلمي، والاتجاه العقلي، والاتجاه التوفيقي، والاتجاه الدعوي.

المبحث الثالث: عرفت فيه بأشهر خمسة تفاسير معاصرة: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، ومحاسن التأويل للقاسمي، وأضواء البيان للشنقيطي، والتحرير والتنوير لابن عاشور، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي ـ الذي ما زال حياً ـ.

المبحث الرابع: خصصته للحديث عن تفسير العصر، وهو (في ظلال القرآن) عرفت فيه بسيد قطب تعريفاً مجملاً، ثم تحدّثت عن قصة تأليفه لتفسير (الظلال) والمراحل التي تم بها تأليفه، ثم تحدثت عن منهجه التفسيري، الذي يصح أن يسمى (التفسير الحركي التربوي الدعوي)، وعرفت فيه على أهداف سيد قطب من الظلال، وقواعد منهجه في التفسير، وبيَّنت أن الظلال يعتبر نقلة بعيدة جديدة رائدة في التفسير، وعرضت مظاهر هذه النقلة البعيدة التي توفرت في (الظلال).

وختمت هذه الدراسة بالحديث عن المفسر الرائد الشهيد المجاهد سيد قطب، وعن تفسيره المتفرد (في ظلال القرآن)، ونرجو أن تكون الخاتمة خاتمة مسك، إن شاء الله.

أقدّم هذه الدراسة التفسيرية المنهجيـة المجملة للدارسين، من الطلبـة

الجامعيين، وطالبي العلم الآخرين، من المسلمين الصالحين والمسلمات الصالحات، راجياً أن يجدوا فيها بعض النفع، وأن يتعرفوا منها على موجز حركة التفسير، وأشهر مناهج المفسرين.

ولعلني بهذه الدراسة أقدّم حافزاً لإخواني وأخواتي للقراءة في التفاسير التي عرّفت بها وبأصحابها فيها، ليُقبلوا على فهم كتاب الله وتدبّره.

وأختم هذه المقدمة بالدعاء الذي كان يدعو به رسول الله ﷺ كثيراً: «اللهمّ اجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وذهاب همومنا، وجلاء أحزاننا، وارزقنا تلاوته آناء الليل وآناء النهار، وعلِّمنا منه ما جهلنا، وذكّرنا منه ما نُسِّينا، واجعله حجّةً لنا يوم القيامة...». اللهمَّ آمين.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

٨/ ٥/ ١٤٢١هـ
٨/ ٨/ ٢٠٠٠م

الدكتور صلاح عبد الفتّاح الخالدي

الفصل الأوّل

مُقدّماتٌ تمهيديّة في مناهج المفسّرين

المبحث الأول

مناهج المفسرين

تعريفها وأهمية معرفتها

تعريف مصطلح (مناهج المفسرين):

(مناهج المفسرين) مركَّب إضافي، مكوَّن من مضاف ومضاف إليه، وهي خبرٌ لمبتدأ محذوف، تقديره: «هذه مناهجُ المفسرين».

و(مناهج) جمع (مَنْهَج). فما معنى هذه الكلمة؟

(مَنْهَج) مشتقّةٌ من الكلمة الثلاثية (نَهْجٌ).

قال ابن فارس في (مقاييس اللغة) عنها: «النَّهْجُ: الطريق. ونَهَجَ لي الأمْرَ: أوضَحَه. وهو مستقيمُ المنهاج. والمَنْهَجُ: الطريق. والجمع: المناهج»[1].

وقال الراغب الأصفهاني في المفردات: «النَّهْجُ: الطريق الواضح. ونَهَجَ الأمْرُ وأَنهجَ: وَضَحَ. ومنهجُ الطريق ومنهاجُه. قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]»[2].

وورد في (المعجم الوسيط) عن الكلمة: «نَهَجَ الطريقُ، يَنْهَجُ، نَهْجاً ونهوجاً: وَضَحَ واستبان. ونهجَ الإنسانُ الطريقَ: سلكه وبيّنه.. وأنهجَ الطريقُ: وَضَحَ واستبَان.

والمنهاج: الطريق الواضح. قال تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾.

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس، ص١٠٠٠.
(٢) مفردات ألفاظ القرآن للراغب، ص٨٢٥.

والمنهاج والمنهج: الخُطَّة المرسومة. ومنه: مِنهاج الدراسة، ومِنهاج التعليم، وجمع المنهج والمِنهاج: مناهج»[1].

وخلاصةُ الأقوال السابقة أن مادةَ (نَهْج) تقوم على: توضيحِ الأمرِ وبيانِه، وتُستعمَلُ في الطريق الذي يكون واضحاً مستقيماً معروفاً بَيِّناً، بحيث تمكنُ معرفتُه وتمييزه، ويَسهلُ سلوكُه والسيرُ فيه.

أما المنهج والمِنهاج فهو الطريقُ الواضحُ البَيِّنُ المستقيم.

ويُستعملُ (المنهج) في استعمالين:

الأول: استعمالٌ ماديٌّ حسّيّ، حيث يُطلَقُ على الطريق الواضحة المستقيمة، التي يعرفُها الإنسان، ويتمكَّنُ من سلوكها والسيرِ عليها بقدميه.

الثاني: استعمالٌ معنوي نظري. حيث يطلَقُ على الخُطة العلمية الموضوعية المحددة المرسومة الدقيقة، التي يتعرَّفُ عليها الباحث أو الدارس، ويقفُ على قواعدِها وأُسسها، ويلتزمُ بها، لتكونَ دراستُه علميةً منهجيةً موضوعيةً صحيحةً.

والاستعمالان الماديُّ والمعنويُّ لمصطلح (المنهج) متكاملان متوافقان، وليسا متناقضين، وهما يقومان على الوضوح والبيان.

ويهمُّنا في دراستنا الاستعمالُ الثاني لمصطلح (المنهج)، وهو الاستعمالُ النظريُّ المعنوي.

إذن: (منهجُ الدراسة) هو: الخُطَّةُ المرسومة المحدَّدة للدراسة، هذه الخطةُ لها قواعد وأسس ومنطلقات، ولها طرقٌ وأساليب وتطبيقات.

ينطبقُ هذا على كلِّ دراسةٍ علميةٍ منهجية، إسلامية أو غير إسلامية، تقول: مناهجُ الدراسات الإسلامية، ومناهج التعليم العام، ومناهج التفسير، ومناهج الحديث والفقه، وغير ذلك.

---

(١) المعجم الوسيط، ص٩٥٧.

فمعنى (مناهج المفسرين) هو: الخُطَطُ العلمية الموضوعية المحددة التي التزم بها المفسرون في تفاسيرهم للقرآن الكريم، هذه الخطط الموضوعية لها قواعد وأسس منهجية مرسومة، ولها طرق وأساليب وتطبيقات ظهرت في تفاسيرهم.

(منهج المفسر): هو الخُطّةُ المحدّدةُ التي وضعها المفسر عند تفسيره للقرآن الكريم، والتي انعكستْ على تفسيره الذي كتبه، وصارتْ واضحةً فيه. هذه الخُطةُ تقومُ على قواعدَ وأسس، وتتجلّى في أساليب وتطبيقات.

بين المنهج والطريقة:

معظمُ الباحثين والدارسين لم يفرِّقوا بين المنهجِ والطريقة في أبحاثهم ودراساتهم، فهم يخلطونَ بينهما، ويجعلونَهما كلمتيْن مترادفتيْن بمعنى واحد، فالمنهجُ عندهم هو الطريقة، والطريقةُ هي المنهج.

وهذا الخلطُ والترادفُ بين المنهج والطريقة عندهم جعل دراساتهم غيرَ واضحة ولا محدَّدة، ولاتُعَرِّفُ على الأشخاص الذين تتحدّثُ عنهم، ولا على المناهج التي تعرضُها.

إنني أرى وجوبَ التفريق بين المنهج والطريقة، في الدراسات الإسلامية أو الأدبية أو العلمية أو الفكرية أو غيرها.

وإذا كان هذا التفريقُ ضرورياً في مختلف الدراسات النظرية، فإنه أكثرُ ضرورةً في الدراساتِ الإسلامية التي تتحدث عن علمائنا ومفكرينا في مختلف ميادين العلوم الإسلامية، من تفسيرٍ وحديثٍ وفقه وعقيدة.

لابدَّ أنْ نفرِّقَ بين المنهجِ والطريقة عند: المفسرين، والمحدثين، والفقهاء، وعلماء العقيدة، وعلماء النحو، والمؤرخين، وغيرهم.

المنهج هو: الخُطَّةُ المرسومةُ المحددةُ الدقيقة، التي تتمثَّلُ في القواعدِ والأسس والمنطلقات، التي تعرَّفَ عليها المفسر، والتي انطلق منها في فهمه

للقرآن الكريم، والتي التزمَ بها في تفسيرِه له، هذه القواعدُ والأسسُ كانت ضوابط له ولتفسيرِه، حَكَمَتْهُ وهو يتعاملُ مع كتاب الله ويفهمه ويفسّره، فلم يخالفْها، ولم يخرجْ عنها.

أمَّا الطريقةُ: فهي الأسلوبُ الذي سلكه المفسِّرُ أثناء تفسيرِه لكتاب الله، والطريقُ التي عرضَ تفسيرَ كتابِ الله من خلالها.

وبعبارةٍ أُخرى: الطريقةُ هي تطبيقُ المفسِّرِ للقواعدِ والأسس المنهجية التي كانت منهجَه في فهم القرآن. تطبيقُ تلك القواعد في مختلفِ ألوان علوم التفسير: كتفسيرِ آيات العقيدة، وآياتِ الأحكام، وآيات الأمثال، وآيات القصص، وغير ذلك.

وبالمثال يتضح المقال:

من قواعدِ منهجِ الإمام الطبري في التفسير: ذكْرُ الأقوالِ المأثورة للصحابة والتابعين في التفسير، التي وصلَتْ إليه ووقفَ عليها، بأسانيدها المختلفة المكرَّرة.

هذا كلامٌ ضمنَ الحديثِ عن (منهج الإمام الطبري في التفسير)، ويُعرضُ ضمنَ التعريف على قواعد منهجه فيه.

أما (طريقةُ الطبري في التفسير) فتعنى بتطبيق الطبري للقاعدة السابقة، وذكْرِ أمثلةٍ ونماذجَ لها من تفسيره، إذ يبينُ الباحثُ كيف طبقَ الطبريُّ هذه القاعدةَ المنهجيةَ على أسلوبه في عرض الروايات المختلفة المسندة.

ومن قواعدِ (منهج الإمامِ الزمخشري في التفسير): الانتصارُ لمذهبِ المعتزلة في تفسيرِ آيات العقيدة، والدفاعُ عنهم، وذمُّ الأقوالِ الأخرى المخالفةِ لهم.

وعند حديثِ الباحث عن (طريقة الزمخشري في التفسير) فإنه يذكُرُ أمثلةً وتطبيقات من تفسير الزمخشري، تظهرُ القاعدةُ المنهجيةُ السابقة واضحةً من خلالها: تفسيرُ الزمخشري لآياتِ رؤية الله في الآخرة، وتفسيرُه لآياتِ الوعد

والوعيد، وآياتِ الهدى والضلال . . .

وحتى يتضحَ الفرق بين المنهجِ والطريقة نتذكّرُ هذا (المثال الهندسي)! .

عندما يريدُ الإنسانُ أن يبنيَ عمارةً حديثةً جيدة، فإنه يذهبُ إلى مهندس خبير، ويشرحُ له تصوُّرَه للعمارة التي يريدُها، ويطلبُ منه أن يرسمَ له (مخطَّطاً هندسياً) للعمارة. فيقومُ المهندسُ برسمِ ذلك المخطط على الورق، ويحدِّدُ فيه كلَّ شيء يتعلقُ بالعمارة، من حيثُ مساحتها وشققها وغرفها ومنافعها ومرافقها.

ثم يأخذُ صاحبُ العمارة هذا (المخطط المتقن) إلى مهندسٍ آخر، لينفِّذه له على أرضِ الواقع، فيقول له: أريد منك أن تبنيَ لي عمارةً حديثةً وفقَ هذا المخطط، بحيث لا تخالفُه ولا تخرجُ عنه!

فيتولَّى (المهندس المنفِّذُ) بناءَ العمارة على أساسِ المخطَّطِ الدقيقِ الموجودِ بين يديه!

منهجُ المفسِّر في تفسيره أشبهُ ما يكون بالمخطط الهندسيِّ الدقيقِ على الورق. وطريقةُ المفسرِ في تفسيره أشبهُ ما تكون بالتزامِ المهندس المنفِّذِ بالمخططِ الهندسي الذي سُلِّمَ له.

وبهذا نعرفُ الفرقَ بين قواعدِ ومنطلقات المنهج، وبين طريقةِ تطبيقها في التفسير. وبهذا نعرفُ أنَّ (المنهجَ) و(الطريقةَ) ليسا مترادفين!

كيفية معرفة المنهج والطريقة:

بعدَ تعريفِنا لمنهجِ المفسِّر، وتفريقِنا بين منهجِه وطريقتِه في التفسير، نُشيرُ إلى كيفيةِ معرفةِ الدارس لمنهجِ المفسر، واستخراجِه لقواعدِه وأسسه.

بعضُ المفسرين القدماء والمعاصرين يُريحون الباحثَ الراغبَ في التعرفِ على مناهجهم التفسيرية، فيذكُرون له ذلك، وبعضُهم يُتعبونه وهو يبحثُ في صفحاتِ التفسيرِ لاستخراج تلك القواعد.

وأعتقدُ أنَّ الأمرَ ناتجٌ عن مدى وضوحِ الخُطَّةِ المنهجية عند المفسّر

أو عدمه، فمن كانت خُطتُه التفسيريةُ واضحة، ومَنْ كان يعرفُ ماذا يريدُ أنْ يفعلَ في تفسيره بالضبط، فإنه يذكرُ هذا ويبيِّنُه، ومَنْ كان الأمرُ ملتبساً عنده (غائماً) غير واضح أمامه، فإنه لا يذكُره ولا يبينه.

إنَّ الوضوحَ في العرضِ والصياغةِ مبنيٌّ على الوضوحِ العقليِّ والتصوريِّ والنظريّ، وكلما كان الأمْرُ واضحاً في تصورِ وذهنِ وإدراكِ المفكِّرِ أو المفسِّرِ أو الكاتب، كانت كتابتُه واضحةً محدَّدة، متسلسلةً مترابطة، وإذا كان الموضوع (مُشَوَّشاً) في ذهنِ صاحبه، كانت كتابتُه مشوَّشَةً مضطربةً متداخلةً غير متناسقة!!

وحتى يتعرَّفَ الدارسُ على قواعد منهجِ المفسّر في تفسيره لابدَّ أنْ يقومَ بما يلي:

١ ـ الدراسةُ الفاحصةُ لمقدمةِ المفسر في تفسيره، واستخراجُ القواعدِ المنهجيةِ التي أشارَ لها المفسّر فيها، وفهمُ تلك القواعدِ والأسس.

٢ ـ الدراسةُ الفاحصةُ للتفسير، للوقوفِ على توضيحِ القواعد التي أشار لها المفسر في مقدمته، والوقوف على قواعدَ أخرى ذكَرَها المفسرُ أثناءَ التفسير.

بعضُ المفسرين ـ أو معظمُهم بتعبيرٍ أدقّ ـ لا يكتفون بالحديثِ عن منهجهم في التفسير في مقدمته، وإنما يُشيرون إلى قواعدَ أُخرى أثناء التفسير، فأثناءَ تفسيرِ أحدِهم لسورةٍ ـ أو آياتٍ منها ـ يخطرُ له أنْ يذكرَها قاعدةً من قواعدِ فهمه للقرآن، أو واحداً من أُسس تعامله معه، ويكونُ هذا في جملةٍ أو جُمَلٍ قصيرة.

وعلى الدارسِ المنتبهِ أنْ يحسنَ ملاحظةَ والتقاط هذه الجُمَلِ القصيرة، التي تكونُ معالمَ هاديةً كاشفةً تُعَرِّفُ على منهجِ المفسر في فهم القرآن وتفسيره!

وإذا لم ينتبه لها ولم يلاحظها، فسيبقى جانبٌ كبيرٌ من فهمه للقرآن خافياً على الباحث!

أما معرفةُ (طريقةِ) المفسر في تفسيره فهي أسهلُ من معرفةِ قواعد منهجه. فعلى الدارسِ أنْ يتعرَّف على طريقةِ المفسر في تفسير السور، وتقسيم آياتِها إلى وحدات ودروس، وأنْ يتعرَّفَ على طريقتِه في تفسيرِ مختلفِ موضوعات (علوم

التفسير)، كآياتِ الأحكام، وآياتِ العقيدة، وآيات القصص، ليتعرَّفَ على موقفِ المفسّرِ من مختلفِ موضوعاتِ التفسير، التي اختلف فيها المفسّرون والعلماء، ورجالُ الفرق الإسلامية.

على الدارسِ أنْ (يُسَجِّلَ) القواعدَ المنهجية التي وقف عليها، وأن يسجّلَ طريقـةَ المفسـر في تطبيق تلك القواعد، وفهمِ آياتِ وموضوعاتِ القرآن على أساسها!!

أهمية معرفة مناهج المفسرين:

نعتقدُ أنَّ (معرفةَ مناهج المفسرين) ضروريةٌ للدارسين المتخصصين في الدراسات الإسلامية، وضروريةٌ للراغبين في العلم، والحريصين على الثقافة الإسلامية.

إنَّ مدارسَ التفسير عديدة، وتياراتِه واتجاهاتِه منوَّعة، منذُ عهدِ الصحابةِ الكرام، وحتى العصـر الحاضر، حيث ظهرَ مئـاتُ المفسـرين، وكُتبت مئاتُ التفاسير، واختلفتْ مناهجُ المفسرين في فهم القرآن وتفسيره.

وأشارَ الإمامُ الزمخشريُّ إلى كثرةِ التفاسير، وإلى موقعِ تفسيره (الكشاف) بينها، فقال:

إنَّ التفـاسيـرَ فـي الـدُّنيـا بـلا عَـدَدٍ ... وَلَيْـسَ فيهـا لَعَمْـري مِثْـلُ كَشَّـافـي
إنْ كُنْتَ تَبْغي الهُدىٰ فَالْزَمْ قِراءَتَهُ ... فَالجَهْلُ كالدَّاءِ والكَشَّافُ كالشَّافي

وإذا كانَ هذا حتى منتصفِ القرنِ السادس، فماذا نقولُ في التفاسيرِ الأُخرى التي أُضيفَتْ خلالَ أكثرَ من ثمانيةِ قرون، أَعقبتْ كلامَ الزمخشريِّ السابق؟

وإذا كانت التفاسيرُ بهذه الكثرةِ وهذا التنوُّع والتشعُّب، فلابدَّ من معرفةِ اتجاهاتِها ومدارسِها، والوقوفِ على مناهجِ أصحابها، وحُسْنِ ترتيبِها وتصنيفها.

من الـواجبِ على الدارس في (التفسـير والمفسـرين) معرفةُ المفسرين وتفاسيرِهم ومناهجِهم وطرائقهم معرفةً مجملة: المفسِّرِ ونسبِه، وعصرِه وعلمِه،

والتزامِه ومنهجيتِه، ونتاجِه وجهودِه، وهدفِه من التفسير، ومنهجِه فيه، وتقويمِ ذلك التفسير، ومعرفةِ ما فيه من خيرٍ وفائدة، وجِدَّةٍ وإضافة، ومعرفةِ ما عليه من مآخذ.

غيرُ مقبولٍ من دارسٍ في علم (التفسير والمفسرين) أنْ لا يعرفَ عن الإمام (محمد بن جرير بن يزيد الطبري) ـ مثلاً ـ إلاَّ أنه (الطبري) فقط. وأنْ لا يعرفَ تفسيرَه: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) إلاَّ أنَّه (تفسير الطبري) فقط! وهكذا باقي الأئمةِ المفسرين وتفاسيرِهم!.

إنَّ (مناهج المفسرين) تقدمُ للدارسِ القواعدَ والآدابَ والضوابطَ والتوجيهات التي لابدَّ منها في عالم التفسير، كما تقدمُ له الأسسَ والأصولَ المنهجيةَ الموضوعيةَ التي لابدَّ من الانطلاقِ منها في عالم التفسير، وهي تُحَدِّثُ الدارسَ عن نشأةِ علم التفسير، ومدارسِ التفسير واتجاهاتِه في التاريخ الإسلامي، وتُعَرِّفُه على أشهرِ التفاسير وأئمةِ المفسّرين، وتحدِّدُ له مناهجَهم وطرائقَهم في التفسير.

وبذلك يكونُ الدارس (مُلِمّاً) إلماماً موجزاً بحركةِ التفسير ورجالها وتراثها ومناهجها، ويكون هذا الإلمامُ حافزاً له على الدراسةِ المفصَّلةِ للتفاسير الأساسية التي أُعجبَ بها، ووجدها أكثرَ دقةً وعلميةً ومنهجيةً!!

* * *

المبحث الثاني

التفسير والتأويل
معناهما والفرق بينهما

معنى (التفسير) في اللغة والاصطلاح:

(التفسير)؛ مصدر على وَزْن (تفعيل)، فعلُه الماضي رباعي مضعَّف: (فَسَّرَ). تقول: فَسَّرَ، يُفسِّر، تفسيراً.

ومادةُ الكلمة ـ جذرها الثلاثي ـ (فَسْرٌ).

قال ابن فارس: «الفَسْـرُ: كلمةٌ تدلُّ على بيانِ الشـيء وإيضاحِه. تقول: فَسَرْتُ الشيء، وفَسَّرْتُه»[1].

وقال الراغبُ الأصفهاني: «التفسير: إظهارُ المعنى المعقول. والتفسيرُ في المبالغة كالفَسْر»[2].

وقالَ ابنُ منظور في لسان العرب: «الفَسْر: البيان. يقال: فَسَرَ الشيءَ، وفسَّرَه، أي: أبانَه. والفَسْرُ: كشفُ المغطَّى.

و: التفسير: البيان، وهو كشفُ المرادِ عن اللفظ المشْكِل»[3].

وقـال أبو البقاء الكَفَوِيّ: «التفسـير: الاستبانةُ والكشـف، والعبارةُ عن الشيء بلفظٍ أيسرَ وأسهلَ من لفظِ الأصل.

---

(١) مقاييس اللغة، ص٨٣٧.
(٢) المفردات، ص٦٣٦.
(٣) لسان العرب: ٥/ ٥٥.

وقال أهلُ البيان: التفسير: هو أن يكون في الكلام لَبْسٌ وخفاء، فيُؤتى بما يزيلُه ويفسِّرُه»[1].

إنَّ تصريفاتِ واشتقاقات كلمة (الفَسْر)، تقوم على: الكشفِ والبيان، والتوضيحِ والإظهار.

ومعنى (تفسيرُ الكلام): بيانُ معناه، وإظهارُه وتوضيحُه، وإزالةُ الإشكالِ واللَّبس عنه، والكشفُ عن المرادِ منه.

وإضافةُ المصدر (تفسير) إلى القرآن تجعلُ لهذا المركَّبِ الإضافي (تفسير القرآن) معنى خاصاً، يتعلَّقُ بالقرآن الكريم.

قال الإمامُ الزركشيُّ في تعريف علم التفسير: «التفسير: علمٌ يُفهمُ به كتابُ الله، المنزَّلُ على نبيِّه محمد ﷺ، واستخراجُ أحكامِه وحِكَمِه»[2].

ووردَ في (المعجم الوسيط) مايلي: «التفسيرُ: الشرحُ والبيان. وتفسيرُ القرآن: يُقْصَدُ منه: توضيحُ معاني القرآن، وما انطوتْ عليه آياتُه من عقائدَ وأسرار، وحِكَمٍ وأحكام»[3].

ويعجبني تعريفُ الإمامِ محمد الطاهر بن عاشور لعلم التفسير: «التفسير: اسمٌ للعلمِ الباحث عن بيان معاني ألفاظِ القرآن، وما يُستفادُ منها، باختصارٍ أو توسُّع»[4].

والخلاصة في تعريفِ علمِ التفسير هي:

تفسيرُ القرآن: علْمٌ يتمُّ به فهمُ القرآن، وبيانُ معانيه، والكشفُ عن أحكامِه، وإزالةُ الإشكالِ والغموض عن آياته.

---

(١) الكليات لأبي البقاء، ص٢٦٠.
(٢) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ١/ ١٣.
(٣) المعجم الوسيط، ص٦٨٨.
(٤) التحرير والتنوير لابن عاشور: ١/ ١١.

معنى (التأويل) في اللغة والاصطلاح:

التأويل مصدر، على وزن (تفعيل). وفعْلُه الماضي رباعي مضعَّف: (أَوَّلَ). تقول: أَوَّلَ، يُؤَوِّل، تَأْويلاً.

ومادةُ الكلمة هي: (أَوْل).

قال ابن فارس: «أَوْل: أَصْلان. هما: ابتداءُ الأمر، وانتهاؤه.

من استعمالِه في الابتداء قولُك: الأَوَّل. وهو مبتدأُ الشيء.

ومن استعماله في الانتهاء قولهم: الأَيِّل. وهو الذَّكَرُ من الوعول، وسمي أَيِّلاً لأنه يَؤُولُ إلى الجبل وينتهي إليه، ليتحصَّنَ فيه.

وقولهم: آلَ. بمعنى: رَجَعَ.

والإيالة: السياسة، لأنَّ مرجعَ الرعيةِ إلى راعيها.

وآلُ الرجل: أهلُ بيته. سُمّوا بذلك لأن مآلَهم ومرجعهم وانتهاءَهم إليه، كما أنهم هم ابتداؤه.

والأَوْل: بمعنى الانتهاءِ والمرجع.

وتأويل الكلام: عاقبتُه، وما يؤولُ وينتهي إليه»[1].

وقال الراغب الأصفهاني: «الأَوْلُ: الرجوعُ إلى الأصل».

والتأويل هو: رَدُّ الشيء إلى الغاية المرادة منه، علماً كان أو فعلاً:

ومِن ردِّ الشيء إلى غايته في العلم قولُه تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

ومِن ردِّ الشيء إلى غايته في الفعل قولُه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَآءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٥٣].

---

(١) مقاييس اللغة، ص٩٨ ـ ١٠٠ باختصار.

إن المعنى الجامع الأصلي للتأويل هو: الرد والرجوع إلى الأصل.

وعلى ذلك يكون معنى (تأويل الكلام): رد وإرجاع معانيه إلى أصلها الذي تحمل عليه، ويجب أن تنتهي إليه.

وانطلاقاً من تقسيم الإمام الراغب الردَّ والتأويلَ إلى قسمين: رد إلى الغاية في العلم، ورد إلى الغاية في الفعل؛ فإن تأويلَ الكلام وردَّه إلى غايته المرادة منه له صورتان:

الصورةُ الأولى: ردٌّ علمي. وهو ردُّ الكلامِ إلى حقيقتِهِ العلمية، وذلك بإعادةِ الكلامِ المشتبهِ الملتبس إلى أصلِه الواضح، لحسنِ فهمِه.

الصورة الثانيةُ: ردٌّ عملي. وهو ردُّ الكلامِ إلى حقيقته العملية، وذلك بأداءِ المطلوب منه، وفعلِه وتطبيقه.

وإضافةُ المصدر (تأويل) إلى القرآن تجعلُ لهذا المصدر الإضافي: (تأويل القرآن) معنى خاصاً محدَّداً، يتعلقُ بالقرآنِ الكريم، ويُحققُ حسنَ فهمه.

ويمكنُ أنْ نعرِّفَ (تأويل القرآن) قائلين:

تأويلُ القرآن: علْمٌ يتمُّ به حُسْنُ فهمِ القرآن، وإزالةُ اللبس والإشكال عن بعضِ آياته، بردِّها إلى الغايةِ المرادة منها، وحملِها على الآياتِ الأُخرى الواضحة، التي لا لَبس فيها ولا إشكال، واستنباطُ لطائف الآيات ودلالاتها وحقائقها!

و(تأويل القرآن) يتعلقُ بالصورةِ الأُولى من صورتَيْ تأويلِ الكلام، وهي الردُّ والتأويلُ العلمي، للوقوفِ على حقيقته العلمية، وإزالةِ اللبس عنه.

أقوال في الفرق بين التفسير والتأويل:

اختلف العلماءُ في الفرقِ بين التفسير والتأويل، وتعدَّدتْ أقوالُهم في ذلك وتضاربت.

ومن أشهرِ تلك الأقوالِ في التفريقِ بينهما:

١ ـ التفسيرُ والتأويلُ مصطلحان مترادفان بمعنى واحد، وهو تفسيرُ القرآن وبيانُ معانيه، وهذا قولُ أبي عبيدة معمر بن المثنى، ومَنْ معه.

وهذا قولٌ مردود، لأنَّ التفسير والتأويل مصطلحان قرآنيان، ولابدَّ من فَرْقٍ بينهما، لأنه لا ترادفَ بين كلمات القرآن.

٢ ـ التفسير: بيانُ معاني القرآن من بابِ الجزم والقطع، لوجودِ دليلٍ لدى المفسر، يعتمدُ عليه في الجزم والقطع.

والتأويل: بيانُ معاني القرآن من بابِ الاحتمال وغلبةِ الظن والترجيح، لعدمِ وجود دليلٍ لدى المُؤَوِّل، يعتمدُ عليه في الجزم والقطع.

وهذا قولُ أبي منصور الماتريدي.

٣ ـ التفسير: بيانُ معاني الألفاظِ القرآنية الظاهرة. والتأويل: بيانُ معاني الألفاظِ القرآنية الباطنة، والإخبارُ عن حقيقةِ المراد بها.

ومثالٌ على قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، فهذه الآية لها تفسيرٌ وتأويل.

تفسيرُها: المرصادُ من الرصد والمراقبة. أي: إنَّ الله مطَّلعٌ على كلِّ ما يعملُ الظالمون، يراها ويعلمها ويرصدُها، ويسجلُها عليهم ليحاسبهم عليها.

وتأويلُها: التحذيرُ من التهاونِ بأمر الله. والغفلةِ عن التأهبِ والاستعدادِ للعرضِ والحساب يوم القيامة.

وهذا قولُ أبي طالب الثعلبي.

٤ ـ التفسير: فهمُ الآياتِ على ظاهرها، بدونِ صرفٍ لها عنه. والتأويل: صرفُ الآياتِ عن ظاهرها إلى معنى آخر، تحتملُه الآيات، ولا يخالفُ الكتابَ والسنّة.

وهذا قول البغوي والكواشي.

٥ ـ التفسير: الاقتصارُ على الرواية والسماع، والاكتفاء بما وردَ من أقوالٍ مأثورة في تفسير الآيات.

والتأويل: استنباطُ المعاني والدلالاتِ من الآيات، عن طريقِ الدرايةِ والتدبّر، وإعمالِ الفكر والنظر.

وهذا قولُ أبي نصر القشيري. واختاره ورجَّحه الدكتورُ محمد حسين الذهبي في كتابه (التفسير والمفسرون).

٦ ـ التفسير: بيانُ المعاني القريبة التي تؤخَذُ من الآيات، عن طريقِ الوضعِ واللغة، والمتعلقةِ بكلماتها وجملها وتراكيبها.

والتأويلُ: بيانُ المعاني البعيدة التي تُلحظ من الآيات، وتوحي بها كلماتُها وجملُها عن طريقِ الإشارةِ والإيماء.

وهذا قولُ الآلوسي(١).

٧ ـ وللإمام الراغب الأصفهاني قولٌ جامعٌ لطيفٌ في الفرق بين التفسير والتأويل، نوجزه فيما يلي:

التفسيرُ أعمُّ من التأويل.

وأكثرُ ما يستعملُ التفسيرُ في الألفاظ. والتأويل في المعاني.

والتأويل: يُستعملُ أكثره في الكتب الإلـٰهية. والتفسيرُ يُستعملُ فيها وفي غيرها.

والتفسيرُ: أكثره يُستعملُ في مفردات الألفاظ. والتأويلُ: يُستعملُ أكثره في الجُمَل.

والتفسير: يستعملُ في غريب الألفاظ. مثل (البحيرة والسائبة والوصيلة). أو في وجيزٍ يُبَيَّنُ ويُشرَح، كقوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [البقرة: ٤٣]. أو في كلامٍ مضمَّنٍ بقصة، لا يمكن تصوُّره إلاَّ بمعرفتها، كقوله تعالى:

---

(١) انظر (التفسير والمفسرون) للذهبي: ١/ ١٩ ـ ٢١.

﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾ [التوبة: ٣٧].

والتأويل: يستعملُ مرةً عامّاً، ومرةً خاصّاً، مثل الكفر والإيمان.

والتأويل نوعان: مستكرهٌ ومُنْقاد. فالمستكرهُ هو ما يُستبشعُ إذا سُبِرَ بالحجة، ويُستقبَحُ بالتدليسات المزخرفة. والمنقادُ من التأويلِ هو ما لا تَعرضُ فيه البشاعة المتقدمة»(١).

وخلاصةُ قولِ الراغب في التفريق بين التفسير والتأويل: التفسيرُ أعمُّ من التأويل، وأكثر استعماله في بيانِ معاني الألفاظ والمفردات، وفي تفسيرِ الكتب الإلـهية وغيرها. أما التأويلُ فهو أخصُّ من التفسير، وأكثرُ استعمالِه في بيان معاني الجملِ والتراكيب، وفي تأويلِ الكتب الإلـهية.

التفسير والتأويل: مرحلتان متتابعتان:

خرجْنا مما سبق في معنى التفسيرِ والتأويلِ بنتيجةٍ قاطعة:

تفسيرُ آياتِ القرآن: فهمُها وشرحُها، وبيانُ معانيها.

وتأويلُ آياتِ القرآن هو: فهمُها فهماً صائباً، وتأويلُها تأويلاً صحيحاً، وإزالةُ ما فيها من غموضٍ ولبسٍ وإشكالٍ، واستنباطُ لطائفها ودلالاتها، واستخراجُ حقائقِها وإشاراتها.

ويجبُ أنْ نستحضرَ هذا المعنى لكلٍّ منهما، ونحن نحاولُ التفريق بينهما.

* الراجحُ في التفريقِ بين التفسيرِ والتأويلِ أنَّ حُسْنَ فهمِ القرآن وفقْهَ معانيه، لابدَّ أنْ يكونَ على مرحلتيْن متتابعتيْن:

المرحلةُ الأولى: تفسيرُ القرآن.

المرحلةُ الثانية: تأويلُ القرآن.

في مرحلةِ التفسيرِ يقومُ المفسرُ بتفسيرِ ألفاظِ وجملِ القرآن، ويعتمدُ في

---

(١) انظر مقدمة (جامع التفاسير) للأصفهاني، ص٤٧ ـ ٤٩.

تفسيرِه على الرواياتِ والأقوالِ المأثورة، ويـوردُ ما في معنى الآيةِ من آيـاتٍ أُخرى، وأحاديثَ صحيحة، وأقوالٍ للصحابة والتابعين، وأسباب نزول، وناسخٍ ومنسوخ، وتوجيهِ قراءات، وإعرابٍ، وشواهدَ شعرية.

وهو في عملِهِ هذا يفسِّرُ ظاهرَ الآية، ويوردُ المعنى القريبَ المتبادرَ منها، ويعتمدُ على العلمِ والنقلِ في ذلك، وهو لذلك يفسِّرُ الآية من بابِ الجزمِ والقطع.

وعملُه في هذه المرحلة يحققُ معنى التفسير الذي سبق أنْ أوردْناه، لأنَّهُ يقدّمُ المعنى الظاهريَّ للآية.

وهذه خلاصةُ أقوالِ السابقين التي سبقَ أنْ أوردْناها في معنى التفسير.

فإذا أرادَ أنْ ينتقلَ إلى المرحلة الثانية، ويقومَ بتأويلِ القرآن، فإنه ينظرُ في القرآن على ضوءِ معلوماتِه التفسيرية السابقة.

عندما يُـؤَوِّلُ القرآن، فإنه يمعنُ النظر في الجملِ والتراكيب القرآنيـة، ويعتمدُ في هذا النظرِ على تدبّرِه وإعمالِ عقله... وتنفذُ نظراتُه إلى باطن الآية، ويلتفـتُ إلى لطائفِها وإشـاراتِها وإيحاءاتها، ويسـتخرجُ حقائقَها ودلالاتِها، ويلحظُ المعنى البعيدَ غيرَ المتبادرِ للذهن، ويُزيلُ ما حولَ الآيةِ من لبسٍ أو اشتباهٍ أو إشكال!

وعملُ المؤوِّلِ في هذه المرحلة عملٌ ذاتي، وتأويلاتُه التي يقدّمُها هي ثمرةُ تدبّره للقرآن.

وهو في هذه المرحلة يحققُ معنى التأويل الذي سـبقَ أنْ أوردْناه، لأنّـه عندما يقدم تأويلاته، فلابدَّ أنْ يردَّها إلى معلوماتِه التفسيرية، وأن يرجعَ بها إليها، فإنْ تعارضَتْ تأويلاته مع معلوماتِه التفسيرية أَلْغاها، لأنها تكونُ تأويلاتٍ خاطئةٍ.

إنَّ المؤوِّلَ يصححُ لنفسِه بعدما يُؤَوِّل، ويَنظرُ في تأويله على ضوء تفسيره، ويعيدُ تأويله إلى تفسيره.. ولهذا اعتبرْنا التأويلَ مرحلةً ثانية، تأتي بعد التفسير، وتُبنىٰ عليه، ولا تُعتمدُ إلاّ إذا رُدَّتْ إليه، باعتباره الأصلَ والمرجع.

إننا لا نجيزُ لأحدِ القيامَ بتأويلِ القرآن قبلَ أنْ يُحسنَ الاطّلاع على تفسيره! وإلاّ فكيف يحققُ المرحلةَ الثانية التأويلية قبلَ المرحلةِ الأولى التفسيرية؟ إنه إنْ فعلَ ذلك يكون قد هجمَ على تأويلِ القرآن بدون علمٍ منه بتفسيره!!

والخلاصةُ في التفريقِ بين التفسير والتأويل، القائمِ على القولِ بالمرحلية المتتابعة:

التفسيرُ يعتمدُ على الاطّلاعِ والمعرفة، والقراءةِ والرواية.. والتأويلُ علمٌ يفتحُ اللهُ به على أصحابه، وفهمٌ يؤتيه الله لهم، ويعتمدُ على الموهبةِ والملكةِ والتدبّر، وهذه لا تتحققُ في كلِّ مفسِّر، ويتفاوتُ أهلُ التأويل فيها تفاوتاً بيّناً!.

وكلُّ مُؤَوِّلٍ لابدَّ أنْ يكون مفسّراً ليصحّ تأويلُه، ولا يستطيعُ كلُّ مفسّرٍ أنْ يكونَ مُؤَوِّلاً!! أي: كلُّ مُؤَوِّلٍ مفسِّرٌ، وليس كلُّ مفسِّرٍ مؤَوِّلاً!!

الدليل على القول بالمرحلية بينهما:

قلنا: إنَّ التفسيرَ والتأويلَ مرحلتان متتابعتان، وإنَّ تأويلَ القرآن لا يجوزُ قبل التمكُّنِ من تفسيره، والتفسيرُ يقومُ على الدراسةِ والاطّلاع، والتأويلُ موهبةٌ ومَلَكَة، يَهَبُها اللهُ لمن يشاء من العلماء الربّانيين.

والدليلُ على هذا: تفاوتُ الصحابةِ الكرام رضوانُ الله عليهم في فهم معاني القرآن، فمنهم مَن كان يكتفي بالوقوفِ مع ظاهرِ الآيات، ويقدِّمُ معناها القريبَ المتبادرَ للذهن، ومنهم مَنْ كانَ يتدبَّرُ فيها، ويقفُ على إشاراتها، ويقدِّمُ المعنى البعيدَ اللطيفَ غيرَ المتبادرِ للذهن.

وفي مقدمةِ الصحابةِ المؤَوِّلين للقرآن عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما، الذي دعا له رسولُ الله ﷺ بتعلُّمِ التأويل، فاستجابَ اللهُ دعاءَ رسوله ﷺ، وحازَ ابنُ عباس لقب (ترجمان القرآن).

روى الإمامُ أحمد في مسنده عن عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كانَ رسولُ الله ﷺ في بيتِ ميمونة. فوضَعْتُ له وَضوءاً من الليل، فقالَتْ ميمونة:

يارسولَ الله: وَضَعَ لك هذا عبدُ الله بن عباس!

فقال ﷺ: «اللهمَّ فَقِّهْهُ في الدين، وعَلِّمْهُ التأويل»[1].

كان الصحابةُ مفسّرين للقرآن ـ مع تفاوتٍ بينهم في العلم بتفسيره ـ ولم يكونوا جميعاً مؤوِّلين له، والمؤوِّلون للقرآن منهم قلائل، وكان عبد الله بن عباس رضي الله عنهما مفسّراً مؤوِّلاً، من السابقين السابقين الذين تميَّزوا في تفسير القرآن وتأويله.

وقصته مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه في (تأويل) سورة النصر أوضحُ مثالٍ على هذا!

روى الإمامُ البخاريُّ في كتاب التفسيرِ من صحيحه: عن سعيدِ بن جبير، عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: كان عمرُ يدخلُني مع أشياخِ بدر، فكأنَّ بعضَهم وَجَدَ في نفسه، فقال: لِمَ تُدْخِلُ هذا مَعَنا، ولنا أبناءٌ مثلُه؟

فقال عمر: إنه مَن قد علمتم.

فدعاهُ ذاتَ يوم، فأدخلَه معهم.

فما رُئيتُ أنه دعاني يومئذٍ إلاّ ليريهم!

قال: ما تقولون في قول الله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ [الفتح: ١].

فقالَ بعضُهم: أُمِرْنا: أنْ نحمدَ اللهَ ونستغفرَه، إذا نَصَرَنا وفَتَحَ علينا. وسكتَ بعضُهم فلم يقل شيئاً.

فقال لي: أكذاكَ تقولُ يا ابن عباس؟

فقلت: لا.

قال: فما تقول؟

قلت: هو أَجَلُ رسولِ الله ﷺ، أَعْلَمَهُ اللهُ له، فقال له: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ

(١) مسند أحمد، بتحقيق شعيب الأرناؤوط وفريقه: ٤/ ٢٢٥، حديث رقم (٢٣٩٧).

وَٱلْفَتْحُ﴾: فذلك علامةُ أجلِك: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾.

قال عمر: ما أعلمُ منها إلاّ ما تقول»[1].

لقد أجرى عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه امتحاناً لابنِ عباس وبعض الصحابة، في تفسيرِ وتأويلِ سورة النصر، وذلك ليريهم تفوُّقَ ابنِ عباس عليهم في العلم بتأويلِ القرآن.

وقد قامَ الصحابةُ المسؤولون بتفسيرِ سورةِ النصر تفسيراً ظاهرياً، حيث ذكروا معناها المتبادر للذهن، فالله عزّ وجلّ يأمرُ رسولَه ﷺ بالتحميدِ والتسبيحِ والاستغفار، عندما يمنُّ اللهُ عليه بالنصر والفتح.

وكلامُهم في تفسيرِ السورةِ صحيح تماماً، وابن عباس رضي الله عنهما يعلَمُ هذا التفسير، ولكنه لم يقف عند هذا المعنى الظاهري، وإنما انتقل منه إلى المرحلةِ الثانية، وهي تأويلُ السورة.

تشيرُ سورةُ النصر إلى ارتباطِ حياةِ رسول الله ﷺ على الأرض بهذا الدين، فهو رسولُ الله ﷺ، ومهمتُه هي تبليغُ الإسلام وجهادُ أعدائه، وبما أنّ هذا الدينَ لم يتمّ انتصارُه وانتشارُه في بقاعِه الأولى في جزيرة العرب، فما زال في عمره ﷺ بقية!

أما وقد حققَ اللهُ لدينه النصرَ والفتح، وانتشرَ في بقاعِ جزيرة العرب، فقد انتهتْ مهمتُه التبليغيةُ ﷺ، وبهذا ينتهي عمرُه في هذه الدنيا.

وبما أنَّ سورةَ النصر نازلةٌ بعد مجيء نصرِ الله والفتح، وقدومِ الوفود مبايعين لرسول الله ﷺ، فإنها تخبرُ رسولَ الله ﷺ أنَّ عمرَه على الأرض قد انتهى.

هذه النظرةُ التأويليةُ الفاحصة، غابتْ عن باقي الصحابة، بينما أحسنَ التقاطَها ابنُ عباس وأميرُه عمر بن الخطاب رضي الله عنهم.

---

(١) صحيح البخاري، حديث رقم (٤٩٧٠).

إنَّ الصحابة الكرامَ رضوانُ الله عليهم كانوا مجردَ مفسرين لسورةِ النصر، بينما كان ابنُ عبـاس رضي الله عنهما مُؤَوِّلاً لها! وقد جمعَ في ذلك بين تفسـيرِ السورة وتأويلها، وبذلك جمعَ بين المرحلتيْن المتتابعتيْن السابقتيْن: التفسير، ثم التأويل[١].

* * *

(١) انظر ـ إن شئت ـ: دراستنا القرآنية المفصّلة: (التفسير والتأويل في القرآن).

المبحث الثالث

مع حركة التفسير
في مسيرتها التاريخية

أنـزلَ اللهُ القرآنَ الكريمَ بلسـانٍ عربيٍّ مبين، وجَعَله ميسَّراً للذكرِ والفهمِ والتلاوةِ والحفظ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

ولهذا كان الصحابةُ يَعرفون معظمَ معاني القرآن. وما خفيَ عليهم معناه، وغمضَ عليهم تفسيرُه، كانوا يسألونَ عنه رسولَ الله ﷺ، فيجيبُهم على سؤالِهم، ومعظمُ القرآنِ لم يكن بحاجةٍ إلى تفسيرِ زمن الصحابةِ، لفهمِهم له!

وقامَ علماءُ الصحابة والتابعين يُبيِّنون للناس معانيَ القرآن، ويفسرونَه لهم!

واستمرَّتْ حركةُ التفسيرِ في مسيرتها التاريخية على مدارِ القرونِ والأجيال، وامتلأتْ مكتبةُ التفسيرِ بالتفاسيرِ المختلفة، على اختلافِ مدارسها واتجاهاتها.

ولقد مرَّتْ حركةُ التفسيرِ في مسيرتها التاريخية ـ منذُ الصحابةِ الكرام وحتى العصر الحاضـر ـ بأربعِ مراحلَ بارزة، تَمَيَّزَ التفسيرُ في كلٍّ واحدةٍ منها بمزايـا خاصة.

هذه المراحل هي: التفسيرُ في طورِ التأسيس، والتفسيرُ في طورِ التأصيل. والتفسيرُ في طورِ التفريع، والتفسير في طورِ التجديد.

وفيما يلي حديثٌ مجمل ـ في غايةِ الإيجازِ والإجمالِ ـ عن كلِّ مرحلة، وعن طبيعةِ التفسيرِ فيها، والمنهجِ الذي برزَ واضحاً فيها!

المرحلة الأولى ـ التفسير في طور التأسيس:

هذه هي المرحلة الأساسية، التي نشأ فيها التفسيرُ نشأةً علميةً صحيحة، وتأسَّسَ فيها علمُ التفسير تأسيساً قوياً متيناً، واتصف فيها بالعلميةِ والمنهجيةِ والموضوعية.

وامتدَّتْ هذه المرحلةُ على مدارِ القرونِ الخيريةِ الثلاثة الأولى، التي شهدَ لها رسولُ الله ﷺ بالفضلِ والخير، وتُمَثِّلُ هذه القرونُ الثلاثةُ الأجيالَ الثلاثةَ الأولى الفاضلةَ في هذه الأمة: جيلَ الصحابة، وجيلَ التابعين، وجيلَ أتباع التابعين.

بدأتْ هذه المرحلةُ التأسيسية على يدِ رسولِ الله ﷺ، حيثُ كان ﷺ أولَ مَنْ فَسَّرَ القرآن، فرغم أنه لم يُفسر القرآنَ كاملاً، لكنه فسَّرَ منه ما احتاجَ الصحابةُ إلى تفسيره، وما سألوه عنه.

ولهذا يُعتبرُ الرسولُ ﷺ المؤسِّسَ لعلمِ التفسير، ويكفي هذا فضلاً ومزيةً لعلمِ التفسيرِ الشريف.

وبعدَ رسولِ الله ﷺ قامَ الصحابةُ بتفسيرِ القرآن، وكان الصحابةُ متفاوتين في فهمِ القرآن وفي تفسيره.

وأشهرُ المفسرين من الصحابة عشرة، وهم: أبو بكر الصديق، وعمرُ بن الخطاب، وعثمانُ بن عفان، وعليُّ بن أبي طالب، وعبدُ الله بن مسعود، وعبدُ الله بن عباس، وأُبيُّ بن كعب، وزيدُ بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبدُ الله بن الزبير، رضي الله عنهم أجمعين[1].

وأشهرُ المفسرين العشرة: ابنُ مسعود وابنُ عباس وأُبيُّ بن كعب رضي الله عنهم.

(١) انظر: الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، طبعة البغا: ٢/ ١٢٢٧.

واشتهرتْ ثلاثُ مدارس للتفسير زمنَ الصحابة:

١ ـ مدرسـةُ التفسير بمكة: وقد تأسَّسـتْ على يـدِ حَبْرِ الأمـة وترجمانِ القرآن، عبدِ الله بن عباس رضي الله عنهما.

ومن تـلاميذِ ابن عباس في هذه المدرسة: مجاهدُ بن جبر، وسـعيدُ بن جبير، وطاووسُ بن كيسان اليماني، وعكرمةُ البربري، وعطاءُ بن أبي ربـاح، وأبو الشعثاء جابر بن زيد الأزدي[١].

٢ ـ مدرسةُ التفسير بالمدينة: وقد تأسَّستْ على يدِ الصحابيِّ أُبيٍّ بن كعب الأنصاري رضي الله عنه.. ومن أشهرِ رجال هذه المدرسة: أبو العالية: رفيع بن مهران الريـاحي، ومحمدُ بن كعب القرظي، وسـعيدُ بن المسـيب، وزيدُ بن أسلم[٢].

٣ ـ مدرسةُ التفسير بالكوفة: وقد تأسَّستْ على يدِ الصحابي عبدِ الله بن مسعود رضي الله عنه.. ومن أشهرِ رجال هذه المدرسة: علقمةُ بن قيس النخعي، ومسروقُ بن الأجدع، وزرُّ بن حُبَيْش، وأبو عبد الرحمن: عبد الله بن حبيب السلمي، والأسودُ بن يزيد النخعي، وعامرُ الشعبي، والحسنُ البصري، وقتادةُ ابن دعامة السدوسي. وعبيدة السلماني[٣].

والمفسرونَ من أعلامِ علماءِ التابعين في التفسير هم الذين ذكرناهم من تلاميذِ أئمة المدارس الثلاثة: تلاميذِ ابنِ عباس في مكة، وتلاميذِ أُبَيٍّ بن كعب في المدينة، وتلاميذِ ابنِ مسعود في الكوفة.

وجـاءَ جيلُ (أتبـاع التابعين)، وظهرَ علماءُ الطبقـة الثالثـة من طبقـات المفسرين، وهم تلاميذُ التابعين، وبعضُهم دَوَّنَ تفاسيرَ مستقلّة للقرآن الكريم.

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ١٠١ ـ ١١٤.
(٢) انظر: المرجع السابق: ١/ ١١٤ ـ ١١٧.
(٣) المرجع السابق: ١/١١٨ ـ ١٢٧.

ومن أعلامِ المفسرين في هذه الطبقة: يزيدُ بن هارون السلمي، وشعبةُ بن الحجاج، ووكيعُ بن الجراح، وسفيانُ بن عُيينة، وإسماعيلُ بن عبد الرحمن السدي الكبير، ومقاتلُ بن سليمان البلخي، وعبدُ الملك بن جريج، وأبو بكر بن أبي شيبة، وعبدُ الرزاق بن همام الصنعاني، وآدمُ بن أبي إياس، ويحيى بن سلام البصري، وعبدُ بن حميد[1].

وقد جُمعتْ أقوالُ بعضِ التابعين وأتباعهم في التفسير في كتب. ومن أشهر التفاسير التي ظهرت مطبوعةً جامعةً لأقوالِ هؤلاء: تفسيرُ مجاهد، وتفسير ابن عباس برواية علي بن أبي طلحة، وتفسيرُ الحسن البصري، وتفسيرُ قتادة، وتفسيرُ سفيان الثوري، وتفسيرُ السدي الكبير، وتفسيرُ عبد الرزاق الصنعاني.

ونلاحظُ أنَّ التفسير في مرحلة التأسيس كان يتصفُ بالإيجازِ والاختصار، ولم يتمّ تفسيرُ القرآنِ كاملاً من سورة الفاتحة إلى سورة الناس، وإنما كان المفسرُ يفسّرُ الآياتِ التي يُسألُ عنها، أو التي تدعو الحاجة إلى تفسيرها.

وقد برزَ في مرحلة (التأسيس) اتجاهان واضحان بارزان في التفسير:

الاتجاه الأول ـ اتجاهُ التفسير بالمأثور: كان يعتمدُ أصحابُه على إيرادِ الأقوال المأثورة في تفاسيرهم، من أحاديثَ مرفوعة للرسول ﷺ، ومن أقوالٍ للصحابةِ أو التابعين، يوردونَها مسندةً مكررة، وقد يوردونَ أكثرَ من طريقٍ للرواية الواحدة!

ومن التفاسير المطبوعة التي تمثّلُ هذا الاتجاه الأثري: تفسيرُ مجاهد، وتفسيرُ الحسن البصري، وتفسير السدي الكبير، وتفسيرُ قتادة، وتفسيرُ مقاتل، وتفسير سفيان الثوري، وتفسيرُ عبد الرزاق الصنعاني.

الاتجاه الثاني ـ الاتجاهُ اللغويُّ البياني: وكان أصحابُه يفسّرونَ بعضَ كلماتِ القرآن تفسيراً لغوياً بيانياً، حيث يذكرونَ معنى الكلمة القرآنية في اللغة،

---

(١) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٢٣٥؛ والتفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ١٤١.

واشتقاقَها وتصريفها، ويوردون الشواهدَ الشعرية على ما يذكرون.

ومن التفاسيرِ اللغويةِ المبكرةِ التي تمثلُ هذا الاتجاه: مجازُ القرآن لأبي عبيدة مَعْمَرِ بن المثنى، ومعاني القرآن لأبي زكريا الفراء، ومعاني القرآن للأخفش، وتأويل مشكل القرآن لابن قتيبة.

لقد أرسى أصحابُ الاتجاهِ الأثري في التفسير معالمَ هذا المنهج في تفيسرِ القرآن، وكان هؤلاء المفسرون الأعلام ـ كابن عباس ومجاهد وابن جبير وقتادة والحسن ـ مؤسسي المنهجِ الأثري في التفسير، لأنهم كانوا روّادَ هذا الاتجاهِ في مرحلةِ التأسيس.

وأرسى أصحاب الاتجاه اللغوي معالمَ المنهجِ البيانيِّ اللغوي في التفسير، وكان هؤلاء المفسّرون الأعلام ـ كأبي عبيدة والفراء والكسائي والأخفش وابن قتيبة والزجاج ـ مؤسسي المنهجِ اللغوي في التفسير، لأنهم كانوا رواد هذا الاتجاه في مرحلة التأسيس.

وهكذا نشأ (علم التفسير) نشأةً علمية موضوعية، في القرون الخيرية الثلاثة الأولى، في تاريخ هذه الأمة! وعلى هذا الأساسِ القويِّ المتين تمَّ بناءُ الصرحِ الشامخِ المنيرِ لعلم التفسير في القرون والأجيال اللاحقة!!

المرحلة الثانية ـ التفسير في طور التأصيل:

انتقلَ (علمُ التفسير) انتقالاً موضوعياً إلى المرحلة الثانية، وهي مرحلةُ (التأصيل)، وهذه المرحلةُ مبنيةٌ على ما قبلَها بناءً سليماً، ومرتبطةٌ بها ارتباطاً وثيقاً، فمن المنطقيِّ أن يأتيَ التأصيلُ بعدَ التأسيس.

وتمَّ في مرحلةِ (التأصيل) ترسيخُ المنهجِ الأصيلِ لعلم التفسير، المنهجِ الذي يقوم على أسس وقواعدَ متينة، وهذه القواعدُ والأسسُ (قَعَّدَتْ) لعلمِ التفسير القاعدةَ الصلبة، التي أعقبتْ تأسيسَ ونشأةَ هذا العلم!

وكانتْ مرحلةُ التأصيلِ في نهايةِ القرنِ الثالث، وأرسى أُسسَ وقواعدَ علمِ

التفسير في هذه المرحلة إمامُ المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري.

وصل إلى الإمامِ ابن جرير الاتجاهانِ السابقانِ البارزانِ في مرحلةِ التأسيس، اتجاهُ التفسيرِ الأثريّ، واتجاهُ التفسير اللغوي.

صاحبُ التفسير اللغوي ـ كالأخفش والفراء ـ كان لا يكادُ يذكرُ الأقوالَ المأثورة في التفسير، ولا يكادُ يقدِّمُ اجتهاداته واستنباطاته، وصاحبُ التفسيرِ الأثري ـ كالسدي الكبير وعبد الرزاق ـ لا يكادُ يتعرَّضُ للغةِ في تفسيره، ولا يكادُ يقدمُ اجتهاداته أيضاً.

فلما جاءَ الإمامُ الرائدُ ابنُ جرير الطبري جمعَ بين الاتجاهيْن الأساسيين: التفسيرِ الأثري، والتفسير اللغوي، وأضافَ لهما استنباطاته وترجيحاته.

وكان المنهجُ الذي (أصَّلَ) فيه الطبريُّ لعلم التفسير منهجاً متفرداً، ويمكنُ أنْ نسميه (المنهج الجامع) في التفسير، وفَسَّرَ القرآن كلّه، سورةً سورة، وآيةً آية، وجملةً جملة، على أساسِ هذا المنهج الجامع، وتحققَ هذا المنهجُ في تفسيره: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن).

وقامَ هذا (المنهجُ الجامعُ) على ثلاثِ أُسسٍ منهجيةٍ موضوعية:

الأول ـ تفسيرُ القرآنِ باللغة: حيثُ كانَ يقدمُ معاني الكلماتِ والجمل القرآنيـة، ويذكرُ تحليلاتٍ وتوجيهاتٍ بيانية لغوية، ويوردُ شـواهدَ شـعرية، ويُجري نقاشاتٍ بيانية ونحوية.

واسـتفادَ الإمامُ الطبري من التفاسير اللغوية التي سـبقَتْه، مثل: (مجاز القرآن) لأبي عبيدة، و(معاني القرآن) للفرّاء، و(معاني القرآن) للأخفش الأوسط، و(تأويل مشكل القرآن) لابن قتيبة.

الثاني ـ تفسيرُ القرآن بالمأثور: حيث كانَ الطبريُّ يوردُ الأقوالَ المأثورة في تفسـير الآية أو الجملة أو الكلمة، سواء كانت تلك الأقوالُ المأثورةُ أحاديـثَ مرفوعةً للرسول ﷺ، أو أقوالاً للصحابة، أو التابعين، أو أتباعِ التابعين.

وكان يوردُ هذه الأقوالَ المأثورةَ بأسانيدِه العديدة المكررة، وجعلَ تفسيرَه

(مستودعاً) لهذه الأقوال.

واستفادَ مِن التفاسير التي سبقتْه، والتي اعتمدَت الاتجاه الأثريَّ في التفسير، كتفسير مجاهد، وتفسير السدي الكبير، وتفسير قتادة، وتفسير سفيان الثوري، وغيرهم.

الثالث: تقديمُ استنباطاتِه واجتهاداته وتأويلاتِه، حيث كان الطبريُّ يتدبَّرُ الآيات، ويمعنُ النظر فيها، ويستخرجُ منها بعضَ ما توحي له به من معانٍ ودلالات.

ونلاحظُ أنّ هذه الخطوةَ الثالثة منه تأتي في ترتيبها المناسب، حيثُ كانَ يسبقها تفسيرُهُ اللغوي، وتفسيرُه الأثريّ.

وهذا يتفقُ مع ما سبقَ أنْ قلناهُ من التفريقِ بين التفسيرِ والتأويل، حيث جعلنا التأويلَ مرحلةً ثانية، مبنيةً على التفسير الذي يجبُ أن يكونَ أولاً.

هذه الأسسُ الثلاثةُ: (اللغة، والأثر، والاستنباط) هي التي أصَّلَ بها الإمام الطبريُّ دعائمَ منهجه الأصيل الفريد: (المنهج الجامع في التفسير).

وبذلك كان الإمامُ الطبري هو رائد المنهج الجامع في التفسير، وبهذا استقرّت القواعدُ الأساسيةُ في التفسير، لتبقى معلماً بارزاً، لكلِّ مَنْ أراد أنْ يحققَ المنهجَ الجامع في التفسير: اللغة، والأثر، والاستنباط.

المرحلة الثالثة ـ التفسير في طور التفريع:

انتقلَ المفسرون بعد الطبري بالتفسير إلى خطوة ومرحلةٍ أُخرى، وهي الانطلاقُ من التأصيل إلى التفريعِ والتنويع.

صارَ المفسرون يتوسَّعون ويستطردون في تفاسيرهم، ويوردون الكثيرَ من المسائلِ والمباحثِ والقضايا، وبعضُها لا يتصلُ بالتفسيرِ اتصالاً وثيقاً، وبهذا انتقل المفسرون بالتفسير من (التأصيل المنهجي) إلى (التفريعِ التثقيفي)!

وبينما كان الطبريُّ يفسِّرُ القرآن على أساسِ (المنهج الجامع)، القائمِ على

اللغة والأثرِ والاستنباط، كان المفسِّرون اللاحقون يفسِّرونه على أساسِ (المنهج الغالب) في التفسير.

لقد كان كلُّ واحدٍ من هؤلاء المفسرين يفسِّر القرآنَ وفقَ العلم الذي مَهَرَ فيه وغلب عليه، فالمتخصصُ في اللغة غلبَ على تفسيره مباحثُ اللغة والبيان، على حسابِ باقي المباحث التفسيرية، والمتخصصُ في الفقه والأحكام غلبَ هذا اللونُ على تفسيرِه، والمتخصصُ في المأثورِ والروايات غلب هذا اللونُ على تفسيره، والمتخصصُ في المباحث العقلية والكلامية غلبتْ هذه المباحثُ على تفسيره، وهكذا.

وبذلك تحوَّلَ التفسيرُ من (المنهجِ الجامع) إلى (المنهج الغالب)، وبذلكَ انتقلَ التفسير من طورِ التأصيل إلى طور التفريع.

قال الدكتورُ محمد حسين الذهبي وهو (يَرْصُدُ) هذه المرحلةَ التفريعية للتفسير: «وإنَّا لنلحظُ في وضوحٍ وجلاء: أنَّ كلَّ مَنْ برعَ في فَنٍّ من فنون العلم، يكادُ يقتصرُ تفسيرُه على الفَنِّ الذي برعَ فيه:

فالنحويُّ: تراهُ لا هَمَّ له إلاَّ الإعراب، وذكْرُ ما يُحتملُ في ذلك من أوجه، وتراهُ ينقلُ فروعَ النحوِ وخلافياته، وذلك كالزَّجّاج، والواحدي في البسيط، وأبي حيان في البحر المحيط...

وصاحبُ العلوم العقلية: تَراهُ يَعني في تفسيره بأقوالِ الحكماء والفلاسفة، كما تراهُ يعني بذكْرِ شبههم والردِّ عليها، وذلك كالفخر الرازي في مفاتيح الغيب.

وصاحبُ الفقه: تَراهُ قد عنى بتقريرِ الأدلةِ للفروع الفقهية، والردِّ على مَنْ يخالفُ مذهبَه، وذلك كالجصّاص، والقرطبي...

وصاحبُ التاريخ: ليس له شغلٌ إلاَّ القصص، وذكْرُ أَخبارِ مَنْ سلف، ما صحَّ منها وما لا يصح، وذلك كالثعلبي والخازن.

وصاحبُ البدع: ليس له قصْدٌ إلاَّ أنْ يُؤَوِّلَ كلامَ الله، ويُنزلَه على مذهبه الفاسد، وذلك كالرّمّاني، والجبائي، والقاضي عبد الجبار، والزمخشري،

وهؤلاء من المعتزلة، وملاَّ محسن الكاشي من الإمامية الإثني عشرية. . .

وأصحابُ التصوّف: قصدوا إلى ناحيةِ الترغيب والترهيب، واستخراجِ المعاني الإشارية من الآياتِ القرآنية، بما يتفقُ مع مشاربهم، ويتناسبُ مع رياضاتهم ومواجيدهم، ومِنْ هؤلاء ابنُ عربي وأبو عبد الرحمن السلمي. . .

وهكذا فسَّرَ كلُّ صاحبِ فنٍّ أو مذهبٍ بما يتناسبُ مع فنِّه أو يشهدُ لمذهبه»[1].

وقد استمرّتْ هذه المرحلةُ قروناً عديدة، من القرنِ الرابعِ حتى نهاية القرن الثالث عشر.

وظهرتْ في هذه المرحلة عدةُ اتجاهاتٍ للتفسير المفرَّعِ، على أساسِ المنهج الغالب، من أشهرها:

١ ـ التفسير بالمأثور: كان يغلبُ على تفاسيرِ مفسري هذا الاتجاهِ التفسيريِّ إيرادُ الأقوالِ المأثورة في تفسير الآيات، من أحاديثَ نبوية، أو أقوالٍ للصحابة أو التابعين، أو مَنْ بعدَهم من أئمة المفسّرين.

ومن أشهرِ التفاسير المطبوعة التي تمثّل هذا الاتجاه: (بحر العلوم) لأبي الليث السمرقندي، و(الكشف والبيان) لأبي إسحاق الثعلبي، و(الدر المنثور في التفسير بالمأثور) لجلال الدين السيوطي، و(فتح القدير) للشوكاني.

٢ ـ التفسير البياني: كان يغلبُ على تفاسيرِ مفسري هذا الاتجاه التحليلاتُ اللغويةُ والبلاغيةُ والبيانية، وكان أصحابُها يتوسَّعون في هذه المباحث البيانية، ويستطردونَ في المناقشاتِ والترجيحاتِ حولها.

ومن أشهرِ التفاسيرِ المطبوعة التي تمثلُ هذا الاتجاه: (الكشاف) للزمخشري، و(البحر المحيط) لأبي حيان الأندلسي، و(الدر المصون في علوم الكتاب المكنون) للسمين الحلبي.

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ١٤٧ ـ ١٤٨.

٣ ـ التفسير العقلي: كان يغلبُ على تفاسيرِ مفسري هذا الاتجاه المباحثُ العقلية، والمسائلُ الكلامية، والاستنباطاتُ والدلالات الناتجة عن إعمالِ الرأي وإنفاذِ النظر، وكان مفسرو هذا الاتجاه يُفَرِّعون ويُنَوِّعون ويستطردون ويتوسَّعون في هذا الميدان العقلي، على حسابِ الميادين الأخرى.

ومن أشهرِ التفاسير المطبوعة التي تمثّل هذا الاتجاه: (مفاتيح الغيب) ـ أو: التفسير الكبير ـ لفخر الدين الرازي، و(غرائب القرآن ورغائب الفرقان) للقمي النيسابوري، و(أنوار التنزيل وأسرار التأويل) للبيضاوي، و(مدارك التنزيل وحقائق التأويل) للنسفي، و(لباب التأويل في معاني التنزيل) للخازن، و(إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم) لأبي السعود العمادي، و(روح المعاني) للآلوسي.

٤ ـ التفسير الفقهي: كان يغلبُ على تفاسير مفسّري هذا الاتجاه المباحثُ الفقهية، والمسائلُ المتعلقة بالأحكام والتشريعات، حيث كان المفسرون يقفونَ طويلاً أمامَ الآياتِ التي تتضمن أحكاماً وتشريعاتٍ، ويستنبطون منها الأحكامَ والتشريعاتِ التي توحي بها، وكان كلُّ مفسّرٍ ينتصرُ لاختيارات وترجيحات مذهبه الفقهي.

ومن أشهرِ التفاسير المطبوعة التي تمثّل هذا الاتجاه الفقهي: (أحكام القرآن) للجصّاص الحنفي، و(أحكام القرآن) لِلْكِيَاالهَرَّاسي الشافعي، و(أحكام القرآن) لأبي بكر بن العربي المالكي.

٥ ـ التفسيرُ القريبُ من المنهج الجامع: كان مفسِّرو هذا الاتجاه قريبين من المنهجِ الجامع الأصيل، الذي أرسى معالمَه الإمامُ الطبري، وكان هؤلاء المفسرون يقتدون بالإمامِ الطبري، ويحاولون أنْ يقتربوا منه.

فظهرتْ في تفاسيرهم الأسسُ الثلاثةُ للمنهج الجامع، وهي: اللغة، والأثر، والاستنباط، على تفاوتٍ بينهم في تحقيقِ هذه الأسس الثلاثة، وكانوا في هذا (دونَ) مستوى الإمام الطبري، لكنهم استفادوا من ذلك المنهج الرائد.

ومن أشهرِ التفاسيرِ المطبوعة التي كانت قريبةً من المنهج الجامع، والتي سارَ أصحابُها على طريقِ الإمام الطبري: (التفسير الوسيط) للواحدي النيسابوري، و(المحرر الوجيز في تفسير القرآن العزيز) لابن عطية الأندلسي، و(الجامع لأحكام القرآن) للقرطبي الأندلسي، و(تفسير القرآن العظيم) لابن كثير الدمشقي.

المرحلة الرابعة ـ التفسير في طور التجديد:

بقي المفسرونَ منذُ القرنِ الرابع حتى القرنِ الرابع عشر يُفَرِّعون ويُنَوِّعون في تفاسيرهم، كلٌّ حسب الاتجاهِ الذي مَهَرَ فيه، والعلمِ الذي غلبَ عليه، حتى جاءَ العصرُ الحديث.

ويبدأُ العصرُ الحديثُ من بدايةِ القرنِ العشرين الميلادي، أو القرن الرابع عشر الهجري.

وتميَّزَ التفسيرُ في العصر الحديث بمزية (التجديد)، ولهذا أطلقْنا على هذه المرحلة اسم (التجديد).

ونَعني بالتجديد في التفسير: التجديدَ الصحيحَ السليم، المنضبطَ بالضوابطِ العلمية، الملتزمَ بالأسسِ المنهجية، التجديدَ القائم على الإبداعِ والتحسين والجدَّة، والاستفادةِ من العلوم والمعارف والثقافات المعاصرة، وتوسيعِ أبعادِ معاني الآيات القرآنية، وإحسانِ تنزيلها على الواقع الذي تعيشُه الأمة، والعملِ على حلِّ مشكلات الأمة على هدي حقائق القرآن الكريم.

ولا نعني بالتجديدِ الخروجَ على القواعدِ والضوابطِ والأسسِ العلمية المنهجية، والانفلاتَ والفوضى، والقولَ في القرآن بدون علم، وتحريفَ معاني الآيات ودلالاتها، لتوافقَ أهواءَ هؤلاء، وتتفقَ مع مقرراتِ الغربيين أو الشرقيين، المخالفةِ لكتابِ الله!!

بدأتْ مرحلةُ التجديدِ في العصر الحديث بالشيخِ محمد عبده، الذي أرسى

معالمَ مدرسةٍ خاصةٍ في التفسير وفهم القرآن، وله فيها تلاميذٌ وأتباعٌ يوافقونَه ويقتدون به، ومعالمُ منهجِ هذه المدرسة منها ما هو صحيحٌ طيبٌ مقبول، ومنها ما هو مردودٌ مرفوض، وقدَ أصابَ مفسِّرو مدرسة محمد عبده كثيراً في تفاسيرهم، كما أنهم أخطؤوا في مواضعَ عديدة فيها، ومن تلك الأخطاء ما كان أساسياً جذرياً خطيراً!!.

ولكن من المسلَّمِ به أنَّ محمد عبده وتلاميذَه أحدثوا هزةً وتجديداً في فهمِ القرآن وتفسيره، غَيَّروا بها النظرةَ التقليدية الرتيبة التي طغَتْ على قرونٍ عديدة سابقة!

وفي مقدمة رجال محمد عبده الذين قدموا جهوداً طيبة في تفسير القرآن الشيخ محمد رشيد رضا، صاحب (تفسير القرآن الحكيم) المشهور باسم (تفسير المنار)، ولكنه توفي رحمه اللهُ قبل إكماله.

ومن أهم مظاهر التجديد الإيجابي للتفسير في العصر الحديث إنشاء (العملِ الحركيِّ الدعوي الإسلامي)، المتمثل في (جماعة الإخوان المسلمين) التي أسسها الإمام حسن البنا، والتي انتشرتْ في مختلف بقاع العالم العربي والإسلامي، والتي برزَ فيها دعاةٌ وعلماء كبار خدموا القرآن والإسلام والدعوة، وتركوا آثاراً ملحوظة في فهم القرآن والإسلام.

من العلماءِ الذين أصدروا دراساتٍ قرآنيةً نافعةً، وكانوا من المنتمين لحركة الإخوان المسلمين: البهي الخولي، ومحمد الغزالي، وسعيد حوى صاحب (الأساس في التفسير)، وعبد المتعال الجبري، والدكتور عدنان زرزور، والدكتور أحمد فرحات، والدكتور محمد الصباغ.

وفي مقدمةِ هؤلاءِ العلماء والمفكرين سيد قطب، الذي انتقل بالتفسير نقلةً بعيدة فريدة، عندما كتب تفسيرَه الرائد (في ظلال القرآن)، الذي اعتبره الدارسون والباحثون مَعْلَماً بارزاً هادياً في عالمِ فهمِ القرآن وتفسيره والحركة به، على مدار التاريخ الإسلامي.

ومن أشهرِ التفاسير المعاصرة: (محاسن التأويل) لجمال الدين القاسمي، و(تفسير القرآن الحكيم) ـ تفسير المنار ـ لمحمد رشيد رضا، و(في ظلال القرآن) لسيد قطب، و(أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن) لمحمد الأمين الشنقيطي، و(الأساس في التفسير) لسعيد حوى، و(التحرير والتنوير) لمحمد الطاهر بن عاشور، و(التفسير الموضوعي للقرآن الكريم) لمحمد الغزالي، و(تفهيم القرآن) لأبي الأعلى المودودي، و(التفسير الحديث) لمحمد عزة دروزة، و(التفسير المنير) للدكتور وهبة الزحيلي.

وأهمُّ التفاسير المعاصرة: تفسير المنار، لكنه لم يكتمل، وتفسير (التحرير والتنوير) لابن عاشور، و(في ظلال القرآن) لسيد قطب.

هذا استعراضٌ موجزٌ لحركةِ التفسير في مسيرتها التاريخية، منذ عهدِ الصحابة حتى العصر الحاضر، وهذه هي المراحلُ الأساسيةُ الأربعةُ التي مرّت بها.

وفي ختام الحديث عن هذه المسيرة التاريخية نشيرُ إلى أهمِّ كتب التفسير، التي لا يستغني عنها دارسٌ للتفسير، راغبٌ في فهم القرآن:

١ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، للإمام الطبري.

٢ ـ الكشاف عن غوامض حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للإمام الزمخشري.

٣ ـ مفاتيح الغيب ـ أو التفسير الكبير ـ للإمام الرازي.

٤ ـ تفسير القرآن العظيم، للإمام ابن كثير.

٥ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي.

٦ ـ تحرير المعنى المفيد وتنوير العقل الجديد في تفسير القرآن المجيد ـ التحرير والتنوير ـ لمحمد الطاهر بن عاشور.

٧ ـ في ظلال القرآن، لسيد قطب.

* * *

الفصل الثاني

المُفَسِّرُونَ وَتَفَاسِيْرُهُمْ
شُرُوْطٌ وَضَوَابِطُ وَتَوْجِيهَاتٌ

المبحث الأول

العلوم الضرورية للمفسر

علمُ التفسير علمٌ شريفٌ عظيم، لأنَّ ميدانَه هو كتابُ الله، وموضوعَه هو كلامُ الله، وشرفُ العلم يكون بشرفِ موضوعه، ولا كلامَ أفضلُ من كلام الله، ولا علمَ أشرفُ من العلم بكتابِ الله وفهمه، ولا عملَ أفضلُ من تفسيرِ كتاب الله والعملِ به والدعوة إليه!

وقد أوجبَ الله ُعلينا تدبُّرَ كتابه، وفهمَ آياته.

قال تعالى: ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ﴾ [سورة صٓ: ٢٩].

وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ [الزمر: ٢٧ ـ ٢٨].

وكان الصحابةُ يحضُّون على العلم بكتاب الله، ويحثُّون على فهمه وتفسيره والعمل به.

قالَ عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: كان الرجلُ منّا إذا تعلّمَ عشرَ آياتٍ لم يجاوزهنَّ حتى يعرفَ معانيهنّ، والعملَ بهنّ!

وقال ابنُ مسعود رضي الله عنه أيضاً: والذي لا إلـه غيره، ما نزلَتْ آيةٌ في كتابِ الله إلاّ وأنا أعلمُ فيمَ نَزلتْ، وأينَ نَزَلَتْ، ولو أعلمُ مكانَ أحدٍ أعلمَ بكتابِ الله مني تَنالُه المطايا لأتيتُه!

وقال التابعيُّ مسروق: كان عبدُ الله بن مسعود يقرأُ علينا السورة، ثم يحدّثُنا فيها، ويفسّرها عامة النهار.

وقال سعيدُ بن جبير: مَنْ قرأَ القرآن ثم لم يفسّرْه كان كالأعمى.

ومع أهميّـةِ علمِ التفسـير وفضْلِه وشـرفِه وعلوِّ منزلةِ صاحبه، فقد كـان الصحابةُ والتابعون يحذِّرون من القول في القرآن وتفسيره بدون علم.

قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: أيُّ أرضٍ تُقلُّني، وأي سماءٍ تُظلُّني، إذا قلتُ في القرآن بما لا أعلم!

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: مَن تكلّم في القرآن برأيه فليتبوّأ مقعده من النار!

وقالَ عبيدُ بن عمير: لقد أدركتُ فقهاءَ المدينة، وإنهم ليغلِّظون القولَ في التفسير: سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وسعيد بن المسيب، ونافع مولى ابن عمر.

وقال يحيى بنُ سعيد: سمعتُ رجلاً يسألُ سعيدَ بن المسيب عن آيةٍ من كتابِ الله؟ فقال: لا أقولُ في القرآنِ شيئاً.

وقال محمدُ بن سيرين: سألتُ عبيدةَ السليماني عن آية؟ فقال لي: عليك بالسَّداد، فقد ذهب الذين علموا فيم أُنزلَ القرآن.

وقالَ ابنُ أبي مليكة: سُئِلَ ابنُ عباس عن آية، لو سُئِلَ عنها بعضُكم لقال فيها، فأبى أن يقولَ فيها.

وجاءَ طَلْقُ بن حَبيب إلى جُنْدُبِ بن عبد الله، فسأله عن آية من القرآن؟ فقال له: أُحَرِّجُ عليك ـ أي: أُقسمُ عليك بالقرآن ـ إنْ كنتَ مسلماً لما قمتَ عني!

وقال عامرُ الشعبي: واللهِ ما من آيةٍ إلاّ وقد سألتُ عنها، ولكنها الروايةُ عن الله(١).

وهذه الأقوالُ التحذيريةُ محمولةٌ على ذَمِّ مَنْ قال في التفسيرِ بدون علم، أما

---

(١) انظر هذه الأقوال وغيرها في تهذيبنا لتفسير الطبري: ١/ ٤١ـ٤٦.

إذا كان المفسّرُ محقِّقاً للشروطِ المطلوبة، محصِّلاً للعلوم الضرورية، وكان كلامُه في التفسيرِ علمياً موضوعياً فهذا مأجورٌ على ما يقومُ به، محمودٌ في ما يفعلُه.

ومن المعلوم أنَّ كلَّ مَنْ أرادَ أن يقولَ في علمٍ من العلوم فلابدّ أنْ يكونَ عالماً به، دارساً لأصوله، متمكّناً من مباحثِه ومسائله، فإذا لم يكن محقِّقاً لذلك كان كلامُه مرفوضاً مردوداً، وكان عملُه منكراً مذموماً، وكانت أخطاؤُه عديدة، يشملُ هذا كلَّ العلومِ الإسلامية والأدبية والتاريخية والإنسانية والمادية!

فإذا كان هذا ضرورياً في العلوم البشرية، فهو أكثرُ ضرورةً وأهميةً لمن أرادَ تفسيرَ وتأويلَ القرآنِ الكريم، لأنه يخوض في كتابِ الله، ويروي عن الله!

إنَّ العلومَ الضروريةَ التي يحتاجُها المفسر، والتي لابدَّ أنْ يكونَ مُلِمَّاً بها، هي:

١ ـ العلم بالقرآن:

على مَنْ أرادَ تفسيرَ القرآن أنْ يكونَ عالماً به، يكثرُ من تلاوته ـ بأنْ يقرأَ كلَّ يومٍ جزءاً منه على الأقل ـ ويتقنُ أحكامَ ترتيله، ويَعرفُ سياقَ وموضوعاتِ كلِّ سورة منه، ويتصوَّرُ شخصيةَ كلِّ سورة وخطوطَها واتجاهاتِها وحقائقها، ويستحضرُ في ذهنه المواضعَ المتفرقةَ في القرآن عن الموضوعِ الواحد!

إنَّ مَن أمضىٰ مع القرآن سنواتٍ عديدةً من عمره، تلاوةً وتدبّراً وفقهاً وفهماً، يكونُ عالماً بالقرآن (معجوناً) به ـ إذا جازَ التعبير ـ مؤهَّلاً لتفسيره!!

٢ ـ العلم بالسنّة:

السنّةُ مرتبطةٌ بالقرآن ارتباطاً وثيقاً، ولابدّ لكلِّ مفسرٍ منْ أن يكونَ عالماً بالسنةِ النبوية، والحديثِ الشريف، بأنْ يطلعَ على كتابٍ في علمِ مصطلح الحديث، وعلى كتابٍ في أصولِ تخريجِ الحديث وأحوال الرجال، وأنْ يطلعَ على أمهاتِ كتب الحديث من الصحاحِ والسنن والمسانيد، وأنْ تكونَ في مكتبته، وأنْ يُحسنَ التعاملَ معها.

من الكتبِ المناسبة في هذا الموضوع: أصولُ الحديث للدكتور محمد عجاج الخطيب، وأصولُ التخريج ودراسةُ الأسانيد للدكتور محمود الطحان، وصحيحُ الجامع الصغير لمحمد ناصر الدين الألباني، وصحيحُ البخاري ـ أجودُ طبعاته طبعة دار الأرقم في لبنان في مجلدٍ واحد مفهرس ـ وصحيحُ مسلم بعنايةِ محمد فؤاد عبد الباقي، وصحيح الكتب الأربعة: صحيح سنن أبي داود، وصحيح سنن النسائي، وصحيح سنن الترمذي، وصحيح سنن ابن ماجه، وهي لمحمد ناصر الدين الألباني.

٣ـ العلمُ بالسيرةِ وحياة الصحابة:

السيرةُ النبويةُ تفسيرٌ عمليٌّ من الرسول ﷺ للقرآن، لأنه ﷺ كان خُلُقُهُ القرآن، وكانت حياةُ الصحابةِ حركةً عمليةً منهم بالقرآن، فلابدَّ لمفسرِ القرآن منْ أنْ يكونَ عالماً بالسيرة وحياة الصحابة.

ومن الكتبِ المناسبة في السيرة: صحيحُ السيرة النبوية للشيخ إبراهيم محمد العلي، وحياة الصحابة لمحمد يوسف الكاندهلوي.

٤ ـ العلم بتاريخ القرآن:

أنْ يعلمَ المفسرُ الموضوعاتِ والمباحثَ والمسائلَ المتعلقةَ بتاريخ القرآن، من حيثُ نزولُ جبريل على رسول الله ﷺ، وصور الوحي ومعانيه وحالاته، والمكي والمدني، والناسخ والمنسوخ، والأحرف السبعة، وأسباب النزول.

وأنْ يعلمَ مراحلَ وكيفيةَ جمع القرآن وحفظِه وتوثيقِه، زمنَ رسول الله ﷺ، وزمن الصدِّيق وعثمان رضي الله عنهما، ومزايا المصحف العثماني الإمامِ على المصاحف حتى قيام الساعة.

هذه المباحثُ والموضوعاتُ متوفرةٌ في كتب علوم القرآن، ومن أشهرِ وأجودِ الكتب السابقة في ذلك كتاب (البرهان في علوم القرآن) للزركشي، و(الإتقان في علوم القرآن) للسيوطي.

ومن أجـودِ الكتب المعاصرة في ذلك: (علوم القرآن) للدكتور عدنـان زرزور، و(إتقان البرهان في علوم القرآن) للدكتور فضل عباس.

ومن أجودِ الكتب في النسخ: كتاب (الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه) لمكي بن أبي طالب القيسي.

ومن أجودِ الكتب في أسباب النزول: كتاب (أسباب النزول) للواحدي النيسابوري على مالَنا عليه من تحفُّظ.

٥ ـ العلم بقواعد تفسير القرآن:

على المفسرِ أنْ يكونَ عالماً بأصولِ فهمِ القرآن، وقواعدِ تدبّره وتفسيره، لأنَّ تدبُّـرَ القرآنِ وتفسـيرَه علمٌ شـريفٌ أصيل، له قواعدُ ومبادئ وأسس، وله ضوابط وشروط.

فإذا لم يطَّلع المفسرُ على قواعدِ فهمِ القرآنِ وأصولِ تفسيره، أخطأَ في نظرِه له وحديثِه عنه، واستنباطاته منه.

ومن أجودِ الكتب التي تحدّثَتْ عن قواعدِ تدبرِ القرآن وتفسيره: (القواعد الحسان في تفسير القرآن) لعبد الرحمن بن ناصر بن سعدى، و(قواعد التدبّر الأمثل لكتاب الله عزَّ وجلّ) لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، و(قواعد التفسير) لخالد بن عثمان السبت، والأخير أجودُ الكتبِ الثلاثة!

٦ ـ العلم باللغة العربية:

اللغةُ العربيـة لغةُ القرآن، وهي لغةٌ جميلةٌ شـاعرة، تقومُ على أسسٍ في الاشتقاق والتصريف والمعنى.

فلا بدّ للمفسرِ منْ أنْ يكونَ عالماً بهذه اللغةِ وفقهها واشتقاقها وتصريفها، ومطَّلعاً على أصول كلماتها، وجذورِ ألفاظها، ودارساً في أشهرِ كتبِ (المعاجم) التي تخصصت في هذا.

وكتبُ المعاجم الأساسية في هذا المجال هي: (معجم مقاييـس اللغة)

لأحمد بن فارس بن زكريا، و(مفردات ألفاظ القرآن) للإمام الراغب الأصفهاني، و(الكليات) لأبي البقاء الكفوي، و(لسان العرب) لابن منظور، و(المعجم الوسيط) الذي أصدرَهُ مجمعُ اللغةِ العربية في القاهرة.

٧ ـ العلم بالنحو والصرف:

العلمُ بالنحوِ والإعرابِ ضروريٌّ لحسنِ الكلام، لأن معنى الكلام يتغيرُ ويختلفُ باختلافِ وجوهِ الإعراب، لأنَّ الإعرابَ تابعٌ للمعنى. وكذلك العلمُ بالصرفِ وصيغِ بناءِ الكلمة وتصريفاتها.

إن العلمَ بالنحوِ والصرف يقودُ المفسرَ إلى حسنِ فهمِ الجملة القرآنية، من حيث بناءُ كلماتها الصرفي، ومن حيثُ موقعُ كلماتها من الإعراب، وهذا يقودُه إلى حسنِ فهمِ القرآنِ وتفسيره.

ومن الكتب المناسبة في ذلك: (التطبيق النحوي) و(التطبيق الصرفي) كلاهما للدكتور عبده الراجحي. ومن أشهرِ الكتب النحوية (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب) لابن هشام الأنصاري، و(النحو الوافي) لعباس حسن.

ومن الكتبِ الجيدةِ التي اهتمّتْ بإعرابِ القرآن: (الدر المصون في علوم الكتاب المكنون) للسمين الحلبي، و(الجدول في إعراب القرآن) لمحمود صافي.

٨ ـ العلم بالبلاغة العربية:

معلومٌ أنَّ علومَ البلاغة في اصطلاح البلاغيين ثلاثة: المعاني، والبيان، والبديع. وعلى المفسّرِ أنْ يكونَ مطَّلعاً على هذه العلومِ البلاغية الثلاثة، عارفاً بمباحثها وموضوعاتها ومسائلها.

وذلك ليتعرّفَ على ألوانِ وآفاقِ البلاغة القرآنية المعجزة، ويتعرف على موضوعات علمِ المعاني القرآني، وأساليبِ البيان في القرآن، والبديعِ على ضوء القرآن، والتصوير الفني في القرآن، وخصائص التعبير القرآني.

ومن الكتب المناسبة في ذلك: (التطبيق البلاغي) للدكتور عبده الراجحي، و(البلاغة العربية) لعبد الرحمن حبنكة الميداني، و(البلاغة فنونها وأفنانها) للدكتور فضل عباس.

ومن الكتب البلاغية القرآنية: (البيان على ضوء أساليب القرآن) للدكتور عبد الفتاح لاشين، و(خصائص التعبير القرآني) للدكتور عبد العظيم المطعني، و(التعبير القرآني) للدكتور فاضل السامرائي.

٩ ـ العلم بالقراءات القرآنية:

لابدّ للمفسر من أنْ يتقنَ تلاوةَ القرآن، مراعياً أحكامَ الترتيلِ المعروفة، بأنْ يتلقى أحكامَ الترتيل وتطبيقَها من إمامٍ متقن للترتيل، ومعلومٌ أنَّ الترتيلَ لا يؤخَذُ إلا بالتلقّي المباشر من عالم متقن.

وبعدَ إتقانِ المفسرِ لأحكام ترتيل القرآن لابدّ أن يكونَ عالماً بالقراءات القرآنية الصحيحة.

والقراءاتُ الصحيحةُ عشرُ قراءات، هي: قراءة عاصم، وقراءة نافع، وقراءة ابن كثير، وقراءة ابن عامر، وقراءة أبي عمرو، وقراءة حمزة، وقراءة الكسائي، وقراءة أبي جعفر، وقراءة يعقوب، وقراءة خلف.

والقراءاتُ الشاذّةُ أربعُ قراءات، هي: قراءة الحسن البصري، وقراءة اليزيدي، وقراءة الأعمش، وقراءة ابن محيصن.

ومن أجودِ الكتبِ في توجيه القراءات السبع كتاب (حجة القراءات) لعبد الرحمن بن زنجلة. وفي توجيه القراءات العشر كتاب (البدور الزاهرة في القراءات العشر المتواترة) لعبد الفتاح القاضي. وفي توجيه القراءات الصحيحة والشاذة كتاب (إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر) للبنا الدمياطي.

١٠ ـ العلم بالعقيدة الإسلامية:

لابدَّ للمفسّر من أنْ يكونَ عالماً بالعقيدةِ الإسلامية وأسسها ومباحثها،

وموضوعاتِ الإيمان وقضاياه ومسائله، لأنها هي أساسُ قبولِ الأعمال عند الله.

وعليه أنْ يأخذَ مباحثَ العقيدة ومسائل الإيمان من آياتِ القرآن، والأحاديث الصحيحة لرسول الله ﷺ، وأن يلتزمَ بفهمِ الصحابة والتابعين للآيات والأحاديث. وعليه أنْ لا يتأثرَ باختلافِ رجال الفِرَق المختلفة في مسائل العقيدة وفرعياتها، بل يحرصُ على أنْ يفهمَ عقيدتَهُ وإيمانَه قبل حدوث الخلاف المذهبي والكلامي بين فرق المسلمين المختلفة.

ومن أنسبِ كتبِ العقيدةِ: (شرح العقيدة الطحاوية) لابن أبي العز الحنفي، طبعة شعيب الأرناؤوط، و(الإيمان) للدكتور محمد نعيم ياسين، و(منهج القرآن في عرض عقيدة الإسلام) لجمعة أمين عبد العزيز، و(ركائز الإيمان) لمحمد قطب، و(خصائص التصوير الإسلامي ومقوماته) لسيد قطب.

١١ ـ العلم بأصول الفقه:

أصولُ الفقه يبينُ كيفَ تُستنبَطُ الأحكامُ الشرعية من النصوص، ويذكرُ القواعدَ والأسس في ذلك، وقواعدُ أصولِ الفقه مرتبطةٌ بقواعدِ التفسير ارتباطاً وثيقاً، ومباحثُ أصولِ الفقه مرتبطةٌ بمباحثِ أصولِ التأويل، والأسلوبُ القرآنيُّ فيه الإجمالُ والتبيين، والعمومُ والخصوص، والإطلاقُ والتقييد، ودلالةُ النص وإشارته، ودلالةُ الأمر والنهي. وهذه مباحثُ وموضوعاتُ أصول الفقه.

ومن الكتبِ المناسبةِ في أصولِ الفقه: أصول الفقه لمحمد أبو زهرة، وأصول الفقه لعبد الوهاب خلاف، وأصول الفقه للدكتور عبد الكريم زيدان، ولعلَّ الأخيرَ أجودُ كتبِ أصول الفقه المعاصرة.

١٢ ـ العلم بتاريخ العرب الجاهلي:

العلمُ بأحوالِ العرب قبل الإسلام ضروري، لأنَّ القرآنَ أشار إلى مختلفِ مظاهر حياتهم، وبيَّنَ ما في حياتهم من أخطاءٍ وانحرافات، ولمَّا أسلموا انتقلوا نقلةً بعيدة، من عالم الانحدارِ الجاهلي إلى عالم السموِّ الإيماني.

ولابدَّ للمفسِّرِ أنْ يتعرَّف على معالمِ حياةِ العرب في الجاهلية ليعرفَ الجوَّ

الذي تنزّل فيه القرآن، والموضوعَ الذي تتحدّثُ عنه آياته، ويقفَ على نعمةِ الله على هذه الأمة في إرسالِ الرسول ﷺ إليها، وإنزالِ القرآن عليه لتربيتها وبعثها.

يتعرّفُ على حياةِ العرب الدينية القائمةِ على الشركِ بالله وعبادة الأصنام والأوثان، وعلى حياتهم الاجتماعية والأخلاقية والسياسية والاقتصادية.

ومن الكتب المناسبة في ذلك: (المفصَّل في تاريخ العرب قبل الإسلام) للدكتور جواد علي، وتاريخ الطبري وتاريخ ابن كثير، القسم الذي يتحدّث عن ذلك.

١٣ ـ العلم بتاريخ السابقين:

تحدَّثَ القرآنُ عن أممٍ سابقة، سادَتْ ثم بادَتْ، وعن أقوامٍ بعثَ اللهُ لهم رسلاً فكذّبوهم فأهلكهم، كقومِ نوح وعاد وثمود، وكقومِ فرعون، واليهودِ الذين حاربوا عيسى عليه الصلاة والسلام، وغير ذلك.

وعلى المفسّرِ أنْ يتعرّفَ على تاريخِ الأمم السابقة كالفراعنة والآشوريين والبابليين والفرس واليونان والرومان، ومظاهرِ حياتهم، وأنْ يتعرّفَ أكثر على أحوال اليهود والنصارى المختلفة، ومظاهرِ الانحراف عندهم، وذلك ليُحسنَ فهمَ الآيات التي تتحدّثُ عنهم، وتعالج انحرافاتهم، وتقيمُ الحجةَ عليهم.

ومن الكتبِ المناسبةِ في ذلك: تاريخ الطبري، وتاريخ ابن كثير ـ مع الانتباه لما فيهما من روايات غير ثابتة أحياناً ـ.

١٤ ـ العلم بالمذاهب الفكرية المختلفة:

على المفسّرِ أن يكونَ على علمٍ بالمذاهبِ الفكرية السابقة الكافرة، التي قامتْ على الكفرِ بالله والشركِ به، كالفكر اليوناني، والفكر الروماني، والفكر الفارسي، والفكر الهندوسي.

وأن يكونَ على علمٍ بالمذاهبِ الفكريةِ الجاهلية المعاصرة، التي تنتشرُ في العالم المعاصر، مثل: الشيوعية، والرأسمالية، والوجودية، والديمقراطية،

والاشتراكية، والإنسانية. ليعرفَ كيف يواجهُها بحقائق القرآن.

وأنْ يكونَ على علمٍ بأحوالِ العالم المعاصر، العالمِ الجاهلي بشقّيه: العالمِ الغربي، والعالمِ الشرقي، وأنْ يقفَ على مظاهر الانحراف المختلفةِ في هذا العالم: الانحراف الفكري، والسلوكي، والسياسي، والاقتصادي، والاجتماعي، والعلمي، والأخلاقي، والمادي. وذلك ليحسنَ فهمَ الآياتِ التي تتحدّثُ عن الانحرافات، وتنزيلَها على الواقع المعاصر.

ومن الكتب المناسبة في ذلك: (كواشف زيوف) لعبد الرحمن حبنكة، و(مذاهب فكرية معاصرة) و(واقعنا المعاصر) و(جاهلية القرن العشرين) و(رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر) أربعتُها لمحمد قطب.

١٥ ـ الثقافة العلمية المعاصرة:

على المفسّرِ أنْ يلمَّ بالعلومِ الحديثة، وأن يكونَ مثقفاً ثقافةً علميةً منوّعةً شاملة، وذلك ليعرفَ المعاني التي تتحدّثُ عنها الآياتُ العلمية وغيرها، ويوسّعَ معاني وأبعادَ هذه الآيات.

عليه أنْ يكونَ مطّلعاً على علوم: الفلك، والطب، والاقتصاد، والاجتماع، والسياسة، والزراعة، والتجارة، وعلم النفس، والإعلام، والاتصال.. وأنظمة الحكم، ومناهج الفكر، ومظاهر السلوك.. ومتابعاً للأحداثِ السياسية والفكرية والاجتماعية، من خلالِ الصحفِ والمجلات والإذاعات والفضائيات. وكلما ازدادَ ثقافةً بهذه الجوانب ازدادَ إدراكاً للأبعادِ العلمية للآيات القرآنية[١]!

* * *

---

(١) ذكر بعض هذه العلوم: السيوطي في الإتقان: ٢/ ١٢٠٩ ـ ١٢١٢؛ والدكتور الذهبي في التفسير والمفسرون: ١/ ٢٦٥ ـ ٢٧٣.

المبحث الثاني

صفات وآداب المفسّر

كان الكلامُ في المبحثِ السابق عن العلومِ الضروريةِ للمفسر، وسجَّلْنا خمسة عشر علماً منها.

وهذه العلومُ يمكنُ تحصيلُها بالكسبِ والدراسةِ والاطّلاعِ على الكتبِ والمراجع.

ولكنَّ هذه العلومَ وحدها لا تكفي، فلا بدَّ للمفسّرِ من أنْ يتصفَ بصفاتٍ أساسية، وتظهرَ عليه آدابٌ ضرورية، ويتخلّق بأخلاقٍ ربانية، وأنْ تتحقق فيه شروطٌ لا بدّ منها.

هذه الصفاتُ والآدابُ والأخلاقُ ضرورية لأنه يتعامل مع كتابِ الله العظيم، الكتابِ التربويِّ المعجز، ولابدّ أن تتحقق فيه حقائقُ القرآنِ التربويةِ الدعوية، وأنْ يتخلّق هو بأخلاقِ القرآن، التي يدعو إليها.

أوردَ الإمامُ السيوطي في (الإتقان) فقرةً من كلامِ (أبي طالب الطبري) فيها بعضُ صفاتِ المفسّر وآدابه: «قالَ الإمامُ أبو طالب الطبريُّ في أوائلِ تفسيره: القولُ في آداب المفسر:

اعلم أنَّ مِنْ شرطِه: صحةُ الاعتقاد، ولزومُ سنة الدين.

فإنَّ مَنْ كان مغموصاً عليه في دينه [مطعوناً عليه في دينه]، لا يُؤتمنُ على الدنيا، فكيفَ على الدين؟ ثم لا يؤتمَنُ من الدين على الإخبار عن عالم، فكيفَ يؤتمَنُ في الإخبار عن أسرار الله؟ ولأنه لا يُؤمَنُ ـ إن كانَ متّهماً بالإلحاد ـ أنْ يبغيَ الفتنة، ويَغُرَّ الناسَ بليِّهِ وخداعِه، كدأبِ الباطنية وغلاة الرافضة، وإنْ كانَ متّهماً بهوى لم يؤمنْ أنْ يحملَه هواه على ما يوافقُ بدعتَه، كدأبِ القدريةِ، فإنَّ

أحدهم يصنفُ الكتاب في التفسير، ومقصودُه منه الإيفاع [الإفساد] خلال المساكين، ليصدَّهم عن اتّباع السلف، ولزوم طريق الهدى . . .

. . . ومن شرطه صحةُ القصدِ فيما يقول، ليَلقى التسديد، فقد قال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

وإنما يخلصُ له القصدُ إذا زهدَ في الدنيا، لأنه إذا رغبَ فيها لم يُؤمَنْ أن يتوسَّلَ به إلى غرضٍ يصدُّه عن صوابِ قصدِه، ويُفسدُ عليه صحة عمله»[1].

ويمكنُ أن نستخرجَ من كلامِ أبي طالب الطبري الصفاتِ والآدابَ التالية:

١ ـ أنْ يكونَ المفسرُ صحيحَ العقيدة، وهو لن يكون كذلك إلاّ إذا أخذَ عقيدتَه من القرآن والسنة.

٢ ـ أنْ يكونَ ملتزماً بسنةِ رسول الله ﷺ، مقتدياً به، سائراً على طريق الصحابة والتابعين والسلف الصالح.

٣ ـ أنْ يكونَ سليمَ التصور، صائبَ الفكر، من أهلِ السنّة السائرين على طريق رسول الله ﷺ.

٤ ـ أنْ لا يكونَ متأثراً بأفكارِ الفرق والطوائف التي خرجتْ عن فهمِ أهل السنّة والسلف الصالح، كالقدرية والرافضة، والخوارج والمعتزلة، والشيعة والجهمية.

٥ ـ أنْ يكونَ عدلاً ثقةً عند المسلمين، مشهوداً له بالعدالة والعلمِ والالتزام، مُؤْتَمَناً في دينه وعلمه وعمله.

٦ ـ أنْ لا يكونَ صاحبَ هوى أو غرضٍ خبيث، وأن لا يكونَ صاحبَ بدعة، لئلاّ يحرف معاني آيات القرآن كي توافقَ هواه، أو تتفقَ مع بدعته.

٧ ـ أنْ يكونَ مخلصاً لله في عمله، يتوجَّهُ به إليه، ويبتغي به الأجرَ منه وحده، ليمنحهُ اللهُ التوفيقَ والسداد، ويفتحَ عليه فهمَ كتابه. وأنْ لا يكونَ بعملِه

---

(١) الإتقان للسيوطي: ٢/١١٩٨ ـ ١١٩٩ باختصار.

مرائياً مفتخراً، يريدُ أنْ يرى الناسُ علْمَه.

٨ ـ أنْ يكونَ زاهداً في الدنيا، عازفاً عنها، غيرَ متهالكٍ عليها، ولا منافسٍ لأصحابها، ولا راغبٍ في زهرتها وحطامها ووظائفها ومراكزها.

٩ ـ أنْ يكونَ طالباً للآخرة، راغباً فيها، ناظراً إليها، فهذه الرغبةُ في الآخرة تُعينُه على حسنِ فهم القرآن، الذي يدعوهُ إلى الحرصِ على الآخرة، والسعي إليها، والتنافس عليها.

وتحدّثَ السيوطي في موضعٍ آخر من (الإتقان) عن صفاتٍ وآداب أخرى للمفسر:

(علمُ الموهبة، وهو علمٌ يورثُه اللهُ لمن عملَ بما علم، وإليه الإشارةُ بقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ بما عَلِم، ورَّثَهُ اللهُ علْمِ ما لمْ يعلم»[1].

. . . ولعلّكَ تستشكلُ علمَ الموهبة، وتقول: هذا شيءٌ ليسَ في قدرةِ الإنسان! وليس الأمرُ كما ظننتَ من الإشكال، وطريقُ تحصيلِه ارتكابُ الأسبابِ الموجبةِ له، من العملِ والزهد.

قال في البرهان: اعلم أنه لا يحصلُ للناظرِ فهمُ معاني الوحي، ولا تظهرُ له أسرارُه، وفي قلبه بدعةٌ أو كِبْرٌ أو هوى، أو حبُّ الدنيا، أو هو مُصِرٌّ على ذَنْب، أو غيرُ متحققٍ بالإيمان، أو ضعيفُ التحقيق، أو يعتمدُ على قولِ مفسرٍ ليس عنده علم، أو راجعٌ إلى معقوله، وهذه كلُّها حجبٌ وموانعُ بعضُها آكَدُ من بعض!

قلت: [القائل السيوطي معقّباً على كلام صاحب البرهان] وفي هذا المعنى قوله تعالى: ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦].

قال سفيان بن عيينة: المعنى: أَنْزَعُ عنهم فَهْمَ القرآن)[2].

---

(١) ذكر صاحب (كشف الخفاء) أنه أخرجه أبو نعيم عن أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٢) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٢١٢.

ونستخرجُ من هذه الفقرةِ الصفات والآدابَ التالية ونضيفها إلى الآداب والصفات السابقة:

١٠ ـ العملُ بأحكام القرآن وتوجيهاته، والتخلُّقُ بأخلاقه وإرشاداته. فهذا العمل يزيدُ علمَه بكتاب الله، ويعينه على استخراجِ أحكامه.

١١ ـ الابتعادُ عن الذنوب والمعاصي والمحرَّمات والمنكرات، التي تُبْعدُه عن الله، وتحجبُ عنه فهمَ كتابِ الله.

١٢ ـ الحرصُ على موهبته التي وهبه الله إياها، وتوجيهُها إلى القرآنِ الكريم، لتدبّرِه وفهمِه، واستخراجِ دلالاتِه وأحكامه، وعدمُ تضييعِ هذه الموهبةِ فيما لا نفعَ فيه، وعدمُ تبديدِها في الأمور غير المناسبة.

١٣ ـ الحذرُ من الموانعِ التي تحولُ بينه وبين القرآن، والحجبِ التي تحجبُ عنه حقائقَ القرآن، كالكبر والهوى والرياء وحب الدنيا.

١٤ ـ الفطنةُ والذكاءُ واليقظةُ والانتباه، والوعيُ الدائم، وحضورُ الذهن والعقل، والحيويةُ والإيجابية، ونفاذُ النظرة، والالتفاتُ للَّمحةِ والإشارة، فهذا كلّه ضروريٌّ له للتعاملِ مع القرآن وحُسن فهمه.

ونضيفُ إلى الفقرتين السابقتين عباراتٍ رائعةً رائدة لسيد قطب، تُضيفُ صفاتٍ وآداباً أخرى للمفسّر، وتحددُ له الطريقَ العمليَّ الإيجابيَّ لحسنِ فهمِ القرآن:

يقول عن معنى الحياة في (جو القرآن) ومعايشته: «الحياةُ في جَوِّ القرآن لا تعني مدارسةَ القرآن وقراءتَه والاطّلاعَ على علومه. . إنَّ هذا ليس (جوَّ القرآن) الذي نعنيه. إنَّ الذي نعنيه بالحياةِ في جوِّ القرآن هو: أنْ يعيشَ الإنسانُ في جوٍّ، وفي ظروف، وفي حركة، وفي معاناة، وفي صراع، وفي اهتمامات. . كالتي كان يتنزّلُ فيها هذا القرآن، أنْ يعيشَ الإنسانُ في مواجهةِ هذه الجاهلية التي تعمُّ وجْهَ الأرض اليوم، وفي قلبه وفي همِّه وفي حركته أنْ (يُنشئ) الإسلامَ في نفسه، وفي نفوس الناس، وفي حياتِه وفي حياة الناس.

.. هذا هو الجوُّ القرآني الذي يمكنُ أنْ يعيشَ فيه الإنسان، فيتذوقَ هذا القرآن، فهو في مثلِ هـذا الجوِّ نزل، وفي مثل هذا الخضمِّ عَمِل.. والذين لا يعيشونَ في مثل هذا الجوِّ معزولون عن القرآن، مهما استغرقوا في مدارستِه وقراءته، والاطّلاعِ على علومه»[١].

ويدلُّنا سيد قطب على الطريقةِ الصحيحةِ لفهم القرآن والوقوف على أسراره وكنوزه، فيقول: «إنَّ هذا القرآنَ ينبغي أنْ يُقْرَأ، وأنْ يُتَلَقّى من أجيالِ الأمة المسلمة بوعي. وينبغي أنْ يُتَدَبَّرَ على أنه توجيهاتٌ حية، تتنزّل اليوم، لتعالجَ مسائل اليوم، ولتنيرَ الطريقَ إلى المستقبل، لا على أنه مجردُ كلامٍ جميلٍ يُرَتَّل، أو على أنه سجلٌّ لحقيقةٍ مضَتْ ولن تعود.

ولن ننتفع بهذا القرآن حتى نقرأَه لنلتمس عنده توجيهاتِ حياتنا الواقعة في يومنا وفي غدنا، كما كانت الجماعةُ الإسلامية الأولى تتلقاه، لتلتمسَ عنده التوجيهَ الحاضرَ في شؤون حياتها الواقعية.

وحين نقرأ القرآنَ بهذا الوعي سنجدُ عنده ما نريد، وسنجدُ فيه عجائبَ لا تخطرُ على البالِ الساهي! سنجدُ كلماته وعباراته وتوجيهاته حية، تنبضُ وتتحرّك...»[٢].

ويقول في موضعٍ آخر من الظلال: «إنَّ النصوصَ القرآنيةَ لا تُدرَكُ حقَّ إدراكها بالتعاملِ مع مدلولاتها البيانية واللغوية فقط.. إنما تُدْرَكُ أولاً وقبلَ كل شيء بالحياة في جوِّها التاريخي الحركي، وفي واقعيتها الإيجابية، وتعاملِها مع الواقع الحي..

وهي لا تتكشَّفُ عن هذا المعنى البعيدِ إلاَّ في ضوءِ ذلك الواقع التاريخي، ثم يبقى لها إيحاؤُها الدائم، وفاعليتُها المستمرة، ولكن بالنسبةِ للذين يتحركون بهذا الدين...

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ١٠١٦ ـ ١٠١٧.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٦١.

. . . ولن تتكشف أسرارُ هذا القرآن قط للقاعدين، الذين يُعالجون نصوصَه في ضوءِ مدلولاتها اللغوية والبيانية فحسب. . وهم قاعدون. . . »[1].

مَن هو الذي يُحسنُ فهمَ القرآن، ويَقدرُ على تذوقِه ومعايشته؟ يحددُ سيد قطب ذلك بعباراتٍ واضحة: «إنَّ هذا القرآنَ لا يتذوقُه إلاَّ مَنْ يخوضُ مثلَ هذه المعركة، ويواجهُ مثلَ تلك المواقفِ التي تنزَّلَ فيها ليواجهَها ويوجِّهها . .

والذين يلتمسونَ معانيَ القرآن ودلالاتِه وهم قاعدون، يدرسونه دراسةً بيانيةً أو فنية، لا يملكون أنْ يجدوا من حقيقته شيئاً، في هذه القعدة الباردة الساكنة، بعيداً عن المعركة، وبعيداً عن الحركة.

إنَّ حقيقة هذا القرآن لا تتكشفُ للقاعدين أبداً، وإنَّ سرَّه لا يتجلَّى لمن يُؤْثِرون السلامةَ والراحةَ مع العبودية لغير الله، والدينونة للطاغوت من دون الله . . . »[2].

ونختمُ هذه العبارات الكاشفةَ الرائدةَ بهذه العبارةِ التي يبينُ بها الطبيعةَ الحيةَ للقرآن، التي لابدَّ أنْ تنعكسَ على مَنْ يريدُ فهمَ القرآن وتفسيره: «ونحن نؤكدُ على هذه السمةِ في هذا القرآن. . سمةِ الواقعية الحركية. . لأنها في نظرنا مفتاحُ التعاملِ مع هذا الكتاب، وفهمِه وفقهِه، وإدراكِ مراميه وأهدافه.

إنه لابدَّ من استصحابِ الأحوال والملابسات والظروف والحاجات والمقتضيات، الواقعيةِ العملية التي صاحبتْ نزولَ النصِّ القرآني. . لابدَّ من هذا لإدراكِ وجهةِ النص وأبعادِ مدلولاته، ولرؤيةِ حيويتِه وهو يعملُ في وسطٍ حيٍّ، ويواجه حالةً واقعة، كما يواجهُ أحياءً يتحركون معه أو ضدَّه. .

هذه الرؤيةُ ضروريةٌ لفقهِ أحكام القرآن وتذوقها، كما هي ضروريةٌ للانتفاع بتوجيهاتِه، كلما تكررَتْ تلك الظروفُ والملابساتُ في فترةٍ تاريخية تالية»[3].

* * *

---

(١) في ظلال القرآن: ٣/ ١٤٥٣.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ١٨٦٤.
(٣) المرجع السابق: ٤/ ٢١٢١.

المبحث الثالث

أحسن طرق التفسير

بيَّنَ العلماءُ أحسنَ طرقِ التفسير، واعتبروها طريقاً مرحلية، تقومُ على عدةِ مراحلَ متعاقبةٍ متتابعة.

ومن الذين تحدّثوا عن أحسن طرق التفسير: الإمامُ ابنُ تيمية في رسالته القيّمة (مقدمة في أصول التفسير)، ونقلَ كلامَه الإمامُ ابنُ كثير في مقدمة تفسيرِه (تفسير القرآن العظيم)، والإمام السيوطي في (الإتقان)، وغيرهما.

إنَّ أحسنَ طرقِ التفسير تلك الطريقُ المنهجيةُ الموضوعية، التي تقومُ على ستِّ مراحل متتابعة:

تفسير القرآن بالقرآن، ثم تفسيره بالسنة، ثم تفسيره بأقوال الصحابة، ثم تفسيرُه بأقوال التابعين، ثم تفسيرُه باللغة العربية، ثم استنباطُ معانيه ودلالاته وأحكامه.

وفيما يلي بيان لهذه المراحل:

المرحلة الأولى ـ تفسير القرآن بالقرآن:

قال الإمامُ ابنُ تيمية: «إنّ أصحَّ الطرق في ذلك: أنْ يُفَسَّرَ القرآنُ بالقرآن، فما أُجملَ في مكانٍ فإنه قد فُسِّرَ في مكانٍ آخر، وما اختُصرَ في مكانٍ فقد بُسِطَ في موضعٍ آخر»[1].

---

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، تحقيق الدكتور عدنان زرزور، ص٩٣.

يجبُ على المفسر ـ عندما يريدُ أن يفسِّرَ الآية من القرآن ـ أنْ يتذكَّرَ الآياتِ الأخرى في موضوعها، وأنْ يستحضرَها، فقد يحتاجُ إلى بعضها، لتوضيحِ معنى الآية التي بين يديه.

وهذا يتطلّبُ منه أنْ يكونَ متمكِّناً من القرآن، وتعبيرِه عن الموضوع الواحدِ في عدةِ سور، وقد تحدَّثْنا عن هذا في (العلوم الضرورية للمفسر). ويمكنُه أنْ يستعينَ بكتاب (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن) الذي أعدَّه محمد فؤاد عبد الباقي.

إنَّ طبيعة القرآن في عرضِ موضوعاته أنه لا يعرضُ الموضوعَ الواحدَ في موضعٍ واحد، وسورةٍ واحدة، وإنما (يُوزِّعُه) على سورٍ ومواضعَ عديدة، لحكَمٍ تربويةٍ وتشريعيةٍ وإعجازية وبيانية، ليس هذا موضعَ الحديثِ عنها!

من الأمثلة على ذلك:

١ ـ قال تعالى في سورة النساء: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٠].

يحرمُ اللهُ في هذه الآية على المسلمين القعودَ مع الكافرين والمنافقين عندما يخوضون في آياتِ الله، ويكفرون ويستهزؤون بها. ويخبرُهم أنه سبَقَ أنْ أنزلَ عليهم آيةً في تحريم ذلك، وهذا في قوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ﴾.

وهذه الآية في سورة النساء، وسورةُ النساء مدنية، وعلى المفسِّرِ أنْ يبحثَ عن الآيةِ الأخرى التي سبقَ أنْ حرَّمَ اللهُ فيها ذلك.

إنها في سورةِ الأنعامِ المكية، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: ٦٨].

فحتى يفهم المفسرُ آية سورةِ النساء المدنية، لابدَّ أنْ يعودَ إلى آيةِ سورة الأنعام المكية.

٢ ـ وقال تعالى عن توبةِ آدم عليه السلام في سورة البقرة: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٖ فَتَابَ عَلَيۡهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧].

وهذه الكلماتُ التي تلقاها آدمُ عليه السلام من ربه (مبهمةٌ) في سورة البقرة المدنية، لكنها (مبيَّنَةٌ) في سورةِ الأعراف المكية التي نزلَ قبلها، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمۡنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمۡ تَغۡفِرۡ لَنَا وَتَرۡحَمۡنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

المرحلة الثانية ـ تفسير القرآن بالسنة الصحيحة:

بعدَ أنْ يفسِّرَ المفسرُ الآيةَ بالآياتِ الأخرى في موضوعِها ومعناها، عليه أنْ ينتقلَ إلى السنَّةِ الصحيحةِ الثابتةِ عن رسول الله ﷺ، ويبحثَ عن أحاديثِ الرسول ﷺ في موضوع الآية.

قال الإمامُ ابنُ تيمية عن هذه المرحلة: (فإنْ أعياكَ ذلك فعليكَ بالسنَّة، فإنها شارحةٌ للقرآن، وموضحةٌ له. بل قد قالَ الإمامُ أبو عبد الله محمدُ بن إدريس الشافعي: «كلُّ ما حكمَ به رسول الله ﷺ، فهو مما فهمه من القرآن!».

قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

ولهذا قال رسولُ الله ﷺ: «ألا إنني أُوتيتُ القرآنَ ومثْلَه معه»(١).

---

(١) أخرجه أبو داود عن المقدام بن معديكرب الكندي رضي الله عنه في كتاب السنة، حديث رقم (٤٦٠٤) وهو صحيح.

والغرضُ: أنك تطلبُ تفسيرَ القرآن من القرآن، فإنْ لم تجدْهُ فمن السنَّة)[1].

على أنه يجبُ على المفسِّرِ أنْ يكونَ حذراً في اعتمادِه على أحاديثِ رسول الله ﷺ، وذلك بأنْ لا يأخذَ منها إلاَّ الصحيحَ الثابت، وأنْ يُخَرِّجَ تلك الأحاديث، ويذكرَ مَنْ رواها من الصحابة، ومَن أخرجها من علماء الحديث. وعليه أنْ يتجنَّبَ الأحاديثَ الموضوعة أو الضعيفة، وينزِّهَ تفسيرَه عنها، فلا يجوزُ أنْ يُفسَّرَ كلامُ الله الثابتُ بأحاديثَ موضوعةٍ أو ضعيفة لم تثبتْ عن رسول الله ﷺ.

ومن الأمثلةِ على وجوبِ تفسير القرآن بالسنّة الصحيحة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٢٣].

ظاهرُ الآيةِ أنَّ اللهَ يجزي الإنسانَ على أيِّ سوءٍ يعمله، وعلى أيِّ خطأ يصدرُ عنه، لكن متى وأينَ وكيف يجزيه؟ وضَّحَ هذا رسولُ الله ﷺ:

روى الإمامُ أحمد في مسنده: أنَّ أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: يارسولَ الله: كيفَ الفلاحُ بعد هذه الآية: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾؟ فكلُّ سوءٍ عملناهُ جُزينا به؟

فقالَ النبيُّ ﷺ: «غفرَ الله لك يا أبا بكر، ألستَ تمرض؟ ألستَ تنصَب؟ ألستَ تحزن؟ ألستَ تُصيبك اللأْواء»؟ قال: بلى. قال: «فهو مما تُجزونَ به»[2].

وروى مسلمٌ والترمذي عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: لما نزل قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ شقَّ ذلك على المسلمين، فأتوا رسولَ الله ﷺ فسألوه، فقال: «قاربوا، وسدِّدوا، ففي كلِّ ما يصابُ به العبدُ كفارة، حتى النكبةُ يُنْكَبُها، والشوكةُ يشاكُها»[3].

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص٩٣ ـ ٩٤.

(٢) مسند أحمد: ١/ ١١، وهو صحيح؛ انظر تهذيبنا لتفسير الطبري: ٣/ ٣٧، حديث رقم (٣٥٥).

(٣) أخرجه مسلم برقم (٢٥٧٤)؛ والترمذي برقم (٣٠٣٨).

فالرسـول ﷺ أخبرَ أنَّ ما يصيبُ المؤمنَ من ابتلاء في الدنيا ـ كالمرض والنصب والحزن والشدة ـ هو مما يُجزئ به على السوءِ الذي يعملُه، ويكون هذا كفارةً لذلك السوءِ والذنب، فلا يحاسَبُ عليه يوم القيامة!

٢ ـ قوله تعالى: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾ [الانشقاق: ٧ـ٨].

ظاهرُ الآية أنّ المؤمنَ يُحاسَبُ حساباً يسيراً، حتى لو نوقشَ الحساب نقاشاً مفصَّلاً. ولكن الرسول ﷺ وضَّحَ المرادَ بالحساب اليسير، وأزالَ ذلك الاحتمال.

روى البخاريُّ ومسلم والترمذي عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ حوسِبَ يوم القيامة عُذِّب»!!

قالت: قلتُ: قال اللهُ عزَّ وجلّ: ﴿ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾؟

فقال ﷺ: «ليسَ ذلك بالحساب، إنما ذلك العَرْضُ، ولكن مَن نُوقِشَ الحساب يوم القيامة عُذِّب»[1].

لقد أزالَ رسولُ الله ﷺ الإشكالَ الذي عند عائشةَ رضي الله عنها، وحملَ الآية التي استدلَّتْ بها على حالةٍ خاصة.

الحسابُ اليسيرُ يكونُ بالعَرْض، فإذا أرادَ اللهُ بالمؤمن الرحمة، فإنه يَعرضُ عليه أعمالَه عَرْضاً، ويقررُه بذنوبه، فيعترفُ المؤمنُ بها نادماً، فيسامحُه اللهُ بها، ويغفرها له، ويعطيه كتابَه بيمينه، ويدخلُه الجنة برحمتِه، وهذا معنى الآية: ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴾.

أما الذي يريدُ اللهُ أنْ يعاملَه بعدلِه، فإنه يناقشُه الحساب، ويحاسبُه حساباً عسيراً دقيقاً مفصَّلاً، على الصغيرة والكبيرة، وهذا سيهلكُ ويُعذَّبُ، ويدخلُه اللهُ النارَ بعدلِه!!.

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٩٣٩)؛ ومسلم برقم (٢٨٧٦)؛ والترمذي برقم (٣٣٣٧).

المرحلة الثالثة ـ تفسير القرآن بأقوال الصحابة:

بعدَ تفسيرِ الآيةِ بالآياتِ الأُخرى في موضوعها، وبما صحَّ من أحاديثِ رسول الله ﷺ، فعلى المفسِّرِ أنْ ينتقلَ للخطوةِ الثالثة، وهي البحث في الأقوالِ المنقولةِ عن الصحابة رضوانُ الله عليهم، فإنْ وجدَ منها أقوالاً صحيحةً قالَ بها، واعتمدها في تفسير الآية.

قال ابنُ تيميـة عن هذه المرحلة: «إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنّة، رجعْتَ في ذلك إلى أقوالِ الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لِما شاهدوه من القرائنِ والأحوال التي اختُصُّوا بها، ولِما لهم من الفهمِ التامِّ والعلمِ الصحيح، لاسيما علماؤُهم وكبراؤهم...»[1].

وسبقَ أنْ أوردْنا أسماءَ أعلمِ عشرةٍ من الصحابة بالتفسير، منهم: الخلفاءُ الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وأُبيُّ بن كعب، رضي الله عنهم.

لكنْ على المفسِّرِ أنْ يكون حذراً وهو يعودُ إلى أقوالِ الصحابة في التفسير، فلا يعتمدُ إلاَّ ما صحَّ منها، لأنَّ بعضَ تلك الأقوالِ لم تصحّ، وهي تتعارضُ مع ظاهر القرآن والسنّة، وماقلناهُ في حذرِه واحتياطِه في أخْذِ وقبولِ حديثِ رسول الله ﷺ، بحيث يرفضُ الأحاديثَ الموضوعةَ والضعيفة، ولا يقبلُ إلاَّ ما صحَّ منها، نقولُه عن أخذِه لأقوال الصحابة، فلا يعتمدُ إلاَّ ما كان منها صحيحاً، وموافقاً لظاهرِ القرآن.

ومن الأمثلة على وجوبِ تفسير القرآن بأقوال الصحابة:

١ ـ قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ ﴾ [البقرة: ١٢١].

ما معنى «يتلونه حق تلاوته»؟

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص٩٥.

للصحابةِ ثلاثةُ أقوالٍ في المرادِ بالتلاوة، وأنها بمعنى الاتباعِ الحقِّ الصادقِ الدقيقِ للكتاب.

قالَ عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما: «يتلونه حق تلاوته» أي: يتَّبعونَه حقَّ اتباعِه، فيحلُّون حلالَه، ويُحرِّمون حرامه، ولا يُحرفونَه عن مواضعِه.

وقال عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه: والذي نفسي بيده، إنَّ «حقَّ تلاوته» أنْ يُحِلَّ حلالَه، ويُحرِّمَ حرامَه، ويقرأَه كما أنزلَه الله، ولا يُحرفَ الكلمَ عن مواضعه، ولا يتأوَّلَ شيئاً على غير تأويله.

وقد فسَّرَ (قيسُ بنُ سعد) رضي الله عنهما هذه الآية بآيةٍ أُخرى، توضحُ أنَّ معنى التلاوةِ الاتّباع، ولهذا قال: «يتلونه حق تلاوته» أي: يتبعونه حقَّ اتباعه. ألم ترَ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾ [الشمس: ٢]. أي: إذا تبعَ القمرُ الشمسَ»[(١)].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٨٨].

من هم الذين يفرحون بما أَتَوْا، ويُحبون أنْ يُحمدوا بما لم يفعلوا؟ والذين توعَّدهم اللهُ بالعذاب؟ وهل هي عامةٌ أم خاصةٌ في أُناسٍ مخصوصين؟ الجوابُ عند الصحابة الذين عرفوا سببَ ومناسبةَ نزولها!

روى البخاري ومسلم والترمذي عن حميدِ بنِ عبد الرحمن بن عوف أن مروانَ بن الحكم قال لبوّابِه رافع: اذهبْ يا رافعُ إلى ابنِ عباس، فقل له: لئن كان كلُّ امرىءٍ منّا فرح بما أتى، وأحبَّ أنْ يُحمَدَ بما لم يفعل، مُعَذَّباً، ليعذّبنّا الله أجمعين!

فقال ابنُ عباس: ما لكم ولهذه الآية؟ إنما أُنزلتْ في أهل الكتاب. . دعا النبيُّ ﷺ يهودَ، فسألهم عن شيء، فكتموه إيَّاه، وأخبروه بغيره، فخرجوا، وقد

---

(١) انظر هذه الأقوال في (تفسير الطبري: تقريب وتهذيب): ١/ ٤٢٨.

أروهُ أنْ قد أخبروه بما سألهم عنه، فاسْتَحْمَدوا بذلك، وفَرِحوا بما أَتوا، من كتمانهم إيَّاه ما سألهم عنه!»[1].

المرحلة الرابعة ـ تفسير القرآن بأقوال التابعين:

بعدَ تفسيرِ الآيةِ بالقرآنِ والحديثِ الصحيحِ وما صحَّ من أقوالِ الصحابة، ينتقلُ المفسرُ إلى أقوالِ التابعين، فيعتمدُ ما صحَّ منها في تفسير الآية.

قال الإمامُ ابن تيمية عن هذه المرحلة الرابعة: «إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنّة، ولا وجدْتهُ عند الصحابة، فقد رجعَ كثيرٌ من الأئمةِ في ذلك إلى أقوالِ التابعين: كمجاهد بن جبر، الذي كان آيةً في التفسير... وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم...»[2].

والأخـذُ بأقوالِ التابعين الصحيحـة، لأنهم أعلمُ النـاسِ بالتفسـير بعد الصحابة، ولأنَّ أئمتهم تتلمذوا على كبارِ الصحابة في التفسير.

قال ابنُ تيمية في مقدمته في أصول التفسير: «وأما التفسيرُ فإنَّ أعلمَ الناسِ بـه أهلُ مكة، لأنهم أصحابُ ابن عبـاس، كمجاهد، وعطـاء بن أبي ربـاح، وعكرمـة مولى ابن عبـاس، وغيـرهم من أصحاب ابن عبـاس، كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير. وكذلك أهل الكوفة من أصحاب عبد الله بن مسعود، وعلماء أهل المدينة في التفسير، مثل زيد بن أسلم...»[3].

ومن الأمثلة على تفسير القرآن بأقوال التابعين:

---

(١) أخرجه البخاري برقم (٤٥٦٨)؛ ومسلم برقم (٢٧٧٨)؛ والترمذي برقم (٣٠١٤)؛ وانظر (تفسير الطبري: تقريب وتهذيب): ٢/ ٤٦٨ ـ ٤٦٩، حديث رقم (١٨٦).

(٢) مقدمة في أصول التفسير، ص١٠٢ ـ ١٠٤ باختصار.

(٣) المرجع السابق، ص٦١.

لما فسَّرَ الإمامُ ابنُ جرير الطبري قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة: ٢٥]، أوردَ أقوالَ بعضِ علماءِ التابعين في معنى (مطهرة): في قوله: ﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾: قال مجاهد: «ولهم فيها أزواج مطهرة»: لا يَبُلْنَ، ولا يَتَغَوَّطْن، ولا يُمْذين، ولا يُمْنين، ولا يَحِضْن.

وفي روايةٍ أُخرى عن مجاهد: «ولهم فيها أزواج مطهرة»: مطهرةٌ من الحيضِ والغائطِ والبولِ والنخامِ والبزاقِ والمنيِّ والولد.

وقال قتادة: «ولهم فيها أزواج مطهرة»: طَهَّرهنَّ اللهُ من كل بولٍ وغائطٍ وقذر، ومن كلِّ إثمٍ وأذى.

وفي روايةٍ أُخرى عن قتادة: «ولهم فيها أزواج مطهرة»: مطهرةٌ من الحيض، والحبَل، والأذى.

وقالَ الحسنُ البصري: «ولهم فيها أزواجٌ مطهرة»: مطهرةٌ من الحيض.

وقال عطاء: «ولهم فيها أزواجٌ مطهرة»: مطهرةٌ من الولدِ والحيضِ والبولِ والغائط[1].

المرحلة الخامسة ـ تفسير القرآن باللغة:

ينتقلُ المفسرُ في المرحلةِ الخامسةِ إلى اللغةِ العربية، يفسرُ بها الآياتِ التي يريدُ تفسيرها، بعد أنْ يقفَ على الآياتِ الأخرى بمعناها، وتفسيرِ رسول الله ﷺ لها أو يستأنسَ بتفاسيرَ الصحابةِ والتابعين لها.

إنَّ معرفـةَ اللغة ـ نحواً وصرفـاً وإعراباً وبلاغـةً وبيانـاً ومعاني كلمات واشتقاقات وتصريفات ـ ضروريةٌ للمفسر، ليُحسنَ فهمَ القرآن وتفسيره.

---

(١) انظر تفسير الطبري: ١/ ١٧٥ ـ ١٧٦، طبعة دار الفكر.

قال السيوطي في الإتقان: «معرفة هذا الفنِّ للمفسر ضروريةٌ. .

قال في البرهان: ويحتاجُ الكاشفُ عن ذلك إلى معرفةِ علمِ اللغة، أسماءً وأفعالاً وحروفاً، فالحروفُ لقلّتها تكلم النحاةُ على معانيها، فيؤخَذُ ذلك من كتبهم، وأمَّا الأسماءُ والأفعالُ فتؤخذُ من كتبِ علم اللغة. . .»[١].

وقال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «الشعْرُ ديوان العرب، فإذا خفيَ علينا الحرفُ من القرآن ـ الذي أنزله اللهُ بلغة العرب ـ رجَعْنا إلى ديوانها، فالتمسنا معرفةَ ذلك منه»[٢].

وقال ابنُ عباس أيضاً: «إذا سألتموني عن غريبِ القرآن، فالْتَمسوه في الشعر، فإنَّ الشعْرَ ديوانُ العرب»[٣].

وقال يحيى بنُ عتيق: قلتُ للحسنِ البصري: يا أبا سعيد: الرجلُ يتعلّمُ العربيةَ يلتمسُ بها حسْنَ المنطق، ويقيمُ بها قراءته؟

فقال الحسنُ البصري: حسنٌ يا ابنَ أخي، تعلَّمْها، فإنَّ الرجلَ يقرأُ الآيةَ فيعيا بوجهها، فيهلكُ فيها!

وقال الإمامُ مالك بن أنس: «لا أُوتىٰ برجلٍ غيرِ عالمٍ بلغة العرب يفسرُ كتابَ الله. إلاَّ جعلْتُه نَكالاً!»[٤].

من الأمثلة على تفسير القرآن باللغة:

١ ـ لما فسَّرَ الإمامُ الطبريُّ قولَه تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، فسَّرَ معنى (رب) في اللغة.

وذكرَ أنَّ كلمةَ (الرب) تردُ في اللغةِ على ثلاثةِ معانٍ:

---

(١) الإتقان للسيوطي: ١/ ٣٥٥.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٣٨٢.
(٣) المرجع السابق نفسه.
(٤) المرجع السابق: ١/ ٥٧٥.

١ ـ الربّ : السيدُ المطاع ، واستشهدَ على ذلك بشعرٍ للَبيد بن ربيعة .

٢ ـ الربّ : المصلح . واستشهد على ذلك بشعرٍ للفرزدق ، ولعَلْقَمة بن عبدة .

٣ ـ الربّ : المالك .

واعتبرَ هذه المعانيَ الثلاثة تشملُها كلمة (الرب) التي هي اسم الله سبحانه .

قال : «فالله رب العالمين» بمعنى أنه السيدُ المطاعُ فيهم ، والمصلحُ لهم بشريعته ودينه ، والمالك لهم ، لأنه بيده الخلقُ والأمر»[1] .

٢ ـ ولما فسَّرَ الإمامُ الطبري قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود : ٤٠] ، ذكر اختلافَ أهلِ التأويل في معنى التّنور ، وكيف يفورُ التنّور؟ وما المرادُ بفورانه؟

١ ـ فقال بعضُهم : التنور وجهُ الأرض .

٢ ـ وقال آخرون : هو تنويرُ الصبح وطلوعُ الفجر .

٣ ـ وقال آخرون : هو أشرفُ مكانٍ على الأرض .

٤ ـ وقال آخرون : هو التنور ـ الفرن ـ الذي يُخبَزُ فيه .

قال ابن عباس : معنى قوله : «وفار التنور» : إذا رأيتَ يا نوحُ تنّورَ أهلك يخرجُ منه الماء ، فإنه هلاكُ قومك .

وبعد أنْ أوردَ الإمامُ الطبريُّ الأقوال الأربعة رجَّح القول الرابع ، واحتكمَ في هذا الترجيح إلى اللغة العربية ، وذكَرَ قاعدةً في وجوبِ تفسيرِ القرآن باللغة!

قال : «والراجحُ هو القولُ الرابع ، فالتنورُ هو الذي يُخبزُ فيه ، لأنَّ هذا هو معناهُ في لغة العرب .

---

(١) تهذيب تفسير الطبري : ١/ ٧١ ـ ٧٢ .

وكلامُ اللهِ لا يُوَجَّهُ إلاَّ إلى الأغلبِ الأشهرِ من معانيهِ عند العرب، إلاَّ أنْ تقومَ حجةٌ على شيء منه بخلافِ ذلك فيُسَلَّمُ لها، لأنَّ اللهَ خاطبَ العربَ بلغتهم»[1].

المرحلة السادسة ـ استنباط المعاني واللطائف والدلالات:

بعدما يطلعُ المفسرُ في معنى الآية على العلوم التي تحدَّثنا عنها في المراحلِ الخمسِ السابقة، يكون قد حقَّقَ العلمَ بتفسيرِ الآية، ووقفَ على المعنى الصحيح لها، وينتقلُ بعد ذلك في المرحلةِ السادسة إلى (تأويل) الآية ـ على ما قلناهُ في الفصلِ الأول من التفريقِ المرحليِّ بين التفسير والتأويل ـ.

إنَّ المفسرَ في هذه المرحلة يُعملُ رأيَه، ويُعمقُ نظرتَه، ويُطيلُ تدبُّره، ليُحسِنَ استنباطَ المعاني والدلالات، واللطائف والإشارات، والحقائق والتوجيهات، التي توحي بها الآية، وهو في استنباطه ينطلقُ من العلمِ التفسيريِّ المتين، الذي حققَه في المراحلِ السابقة.

ومن الأمثلة على ذلك:

١ ـ لما فسَّرَ الطبريُّ البسملةَ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾. وقفَ يستعرضُ أقوالَ السابقين في التفريق بين «الرحمن الرحيم»:

قال: «يمكنُ جمعُ الأقوالِ المأثورة عن الصحابة والتابعين في الفرقِ بين «الرحمن الرحيم» في قوليْن:

الأول: الرحمن: يشملُ جميعَ الخلق، من مؤمنين وكافرين، والرحيم: خاصٌّ بالمؤمنين.

الثاني: الرحمن: عامٌّ لرحمةِ الله في الدنيا والآخرة، والرحيم: خاصٌّ برحمةِ الله في الآخرة.

---

(١) تهذيب تفسير الطبري: ٤/ ٣٦١.

ولم ينفِ الطبريُّ أياً من القولين السابقين، ولكنه سجَّلَ رأياً فريداً له في التفريقِ بينهما.

إنَّ الرحمن عنده أعمُّ من الرحيم، وهذا العموم يشملُ المؤمنين والكافرين، ويشمل الدنيا والآخرة.

وَصْفُ اللهِ بالرحمةِ في (الرحمن) يشملُ عمومَ الرحمةِ لعموم الخلق في الدنيا والآخرة، وَوَصْفُهُ بالرحمةِ في (الرحيم) يشملُ خصوصَ الرحمةِ لخصوص الخلق في الدنيا والآخرة.

اللهُ رحمنٌ في الدنيا والآخرة للمؤمنين والكفار: رحمتُه للفريقَيْن في الدنيا رحمةُ إنعامٍ ورزق، يعطي اللهُ المؤمنين والكافرين المالَ والمتاعَ والصحةَ والعافية.

ورحمتُه في الآخرة للفريقين رحمةُ عدل، فهو يحاسبُهم بعدلِه، فلا يظلمُ أحداً منهم شيئاً، فلا يُنْقِصُ المؤمنَ شيئاً من أجره، ولا يَزيدُ على الكافرِ شيئاً من ذنوب ومعاصٍ لم يعملها!

واللهُ رحيمٌ في الدنيا والآخرةِ للمؤمنين فقط.

اللهُ رحيمٌ بالمؤمنين في الدنيا رحمةَ توفيقٍ وإعانةٍ، حيث يوفقهُم للإيمانِ والطاعةِ والعملِ الصالح، ويعينُهم على ذلك، والكفار لا ينالونَ هذه الرحمةَ في الدنيا.

واللهُ رحيمٌ بالمؤمنين في الآخرة رحمةَ إدخالهم الجنة، وحصولُهم على ما فيها من نعيم[1].

ورأيُ الإمامِ الطبري في التفريق بين «الرحمن الرحيم» فريدٌ رائعٌ لطيف، لم يقل به أحد ـ فيما أعلم ـ.

---

(١) تهذيب تفسير الطبري: ١/ ٦٥ ـ ٦٦.

٢ ـ ولما فسَّرَ الإمامُ الطبري قوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، تساءَلَ عن الحكمةِ من إسنادِ التعذيبِ لآل فرعون: ﴿نَجَّيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾ مع أنَّ آلَ فرعون كانوا يعذبون بني إسرائيل بأمرِ فرعون! فلماذا أُسندَ التعذيبُ إليهم في الآية؟ وما الدلالةُ التي تؤخَذُ من ذلك؟

يرى الطبريُّ أنَّ الحكمةَ من ذلك، هي أنهم هم الذين قاموا به ونفَّذوه، وباشروه بأيديهم، ولذلك أُسند إليهم.

«وهذا يدلُّ على أنَّ كلَّ مَنْ تولَّى قتلَ إنسانٍ أو تعذيبَه، فهو المسؤولُ عن تلك الجريمة، والمباشـرُ في تنفيذها، ولذلك تُسـندُ إليه، حتى ولو فعلَها بأمرِ غيرِه، سواء كان سلطاناً أو لصّاً أو ظالماً.

ولذلك قُرِّرَ في الفقهِ الإسلامي أنَّ كلَّ مَنْ قامَ بقتلِ نفسٍ ظلماً بأمرِ غيره، فهو المقتولُ قصاصاً، مع أنه كان منفذاً لأمرِ غيره!»[١].

هذه هي أحسنُ طرق التفسير بمراحلِها الستة، وكلُّ مَن التزمَ بها يكون تفسيرُه صحيحاً علمياً منهجياً!.

* * *

---

(١) تهذيب تفسير الطبري: ١/ ٢٢١.

المبحث الرابع

أسباب اختلاف المفسرين

وقع اختلافٌ بين المفسرين في تفسير القرآن، وكان الخلافُ بين السلف أقلُّ منه بين المفسرين اللاحقين، وازدادَ الاختلافُ بينهم فيما بعد، بعدَ نشوءِ الفرقِ والمذاهبِ المختلفة بين المسلمين، حيث كانت كلُّ فرقةٍ أو طائفةٍ تلجأُ إلى آياتِ القرآنِ لتنصرَ مذهبَها، وتنقضَ مذهبَ الفرقِ المخالفة لها، وأدّى هذا إلى (تحريف) الفرقِ المختلفة لمعاني القرآن.

وقامَ بعضُ العلماء برصْدِ أسبابِ اختلاف المفسرين وتصنيفها وبيانها والتمثيل لها.

وأجودُ مَنْ صنَّفَ في أسبابِ الاختلافِ الإمامُ ابن تيمية، حيثُ رصدَها وسجَّلَها في رسالتِه (مقدمة في أصول التفسير)، التي حققها الدكتور عدنان زرزور.

ونقلَ تلك الأسبابَ الذين جاؤوا بعدَ ابن تيمية، كالإمامِ الزركشي في (البرهان في علوم القرآن)، والإمامِ السيوطي في (الإتقان في علوم القرآن)، والدكتور محمد حسين الذهبي في (التفسير والمفسرون)، وخالد العك في (أصول التفسير وقواعده) وغيرهم.

وجعلَ الباحثُ الدكتور سعود الفنيسان أسباب اختلافِ المفسرين موضوعاً لرسالتِه لنيلِ درجةِ الدكتوراه في التفسير، ونشرَ تلك الرسالة (اختلاف المفسرين: أسبابه وآثاره) في مجلد، عام ١٩٩٧م.

اختلافُ السلف اختلافُ تنوُّع:

أشارَ الإمامُ ابنُ تيمية إلى أنَّ الخلافَ بين الصحابة والتابعين في التفسير قليل.

وقررَ حقيقةً قاطعة وهي أنَّ النبيَّ ﷺ بَيَّنَ لأصحابه معاني القرآن، كما بيَّنَ لهم ألفاظه، انطلاقاً من قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وكان الصحابةُ إذا تعلَّموا من رسول الله ﷺ عشرَ آيات، لم يجاوزوها حتى يتعلّموا ما فيها من علم وعمل.

قال التابعيُّ الجليلُ أبو عبد الرحمن السلمي ـ عبدُ الله بن حبيب ـ: حدَّثَنا الذين كانوا يُقْرِئوننا القرآن، كعثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود، وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلَّموا من النبيِّ ﷺ عشرَ آيات، لم يُجاوزوها حتى يتعلَّموا ما فيها من العلمِ والعمل. قالوا: فتعلَّمْنا القرآنَ والعلمَ والعملَ جميعاً! ولهذا كانوا يبقون مدةً في حفظِ السورة[١].

وقال ابنُ تيمية: «ولهذا كان النزاعُ بين الصحابةِ في تفسير القرآن قليلاً جداً، وهو في التابعين أكثرُ منه في الصحابة، لكنه قليلٌ بالنسبةِ إلى مَن بعدهم.. وكلما كان العصرُ أشرفَ كان الاجتماعُ والائتلافُ والعلمُ والبيانُ فيه أكثر»[٢].

وذكر ابنُ تيمية أنَّ الخلافَ بين السلفِ من الصحابة والتابعين في الأحكام أكثرُ من خلافهم في التفسير[٣].

وانتقلَ بعدَ ذلك للحديث المنهجي الموضوعي عن حقيقةِ الخلافِ بين السلفِ في التفسير، ولاحظَ أنَّ الخلافَ بينهم من حيثُ حقيقتُه وطبيعتُه هو:

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص٣٥ـ٣٦.

(٢) المرجع السابق، ص٣٧ـ٣٨ باختصار.

(٣) المرجع السابق نفسه.

«اختلافُ تنوُّع لا اختلافَ تضادّ!».

ما معنى هذه العبارة المنهجية؟

التَّنَوُّعُ قائمٌ على التنويعِ والتمثيلِ والتقسيم، ويمكنُ الجمعُ بين الأنواعِ والأقسام والأمثلة، واعتمادُها كلِّها، واعتبارُها محتملةً ومقبولةً.

أما التضادّ فإنه بمعنى التعارضِ والتناقضِ، بحيث يُذكرُ أمران، ويكونان متعارضيْن متناقضين متضادّين، فلايمكنُ الجمعُ بينهما، لأنَّ الضديْن لايجتمعان! فإذا أخذْنا أحدَهما فنحن ملزمون برفضِ وتركِ الآخر.

لم يكن اختلافُ السلفِ في التفسير اختلافَ تضاد، بمعنى أنَّ الصحابةَ والتابعين لم يذكروا في التفسير أقوالاً متناقضةً متضادة، كأَنْ يأخذَ أحدُهم من الآيةِ حكماً بالوجوب، فيأتي آخر ويأخذُ منها حكماً بالتحريم! هذا تضادٌّ وتناقض، وهو غيرُ موجودٍ بين السلف في التفسير.

كان اختلافُهم في التفسير اختلافَ تنوُّع، بحيثُ يذكرُ أحدهم قولاً في تفسير الآية، ويذكر الآخرُ قولاً ثانياً. فالقولان مختلفان، لكنهما ليسا متضادّين، وإنما متكاملان، فكلٌّ منهما ينطبقُ على جزءٍ من معنى الآية، ويحققُ نوعاً من أنواعِ دلالتها، والجمعُ بينهما ممكن، والقولُ بهما معاً في تفسيرِ الآية مطلوب.

ومن الأمثلة على اختلافِ التنوُّع بين السلف: تفسيرُهم لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥].

فقد اختلفَ الصحابةُ والتابعون في الشُّغُلِ الذي يُشْغِلُ المؤمنين في الجنة: ما هو؟

أوردَ الإمامُ ابنُ كثير بعضَ أقوالهم في ذلك:

١ ـ قال الحسنُ البصري وإسماعيل بن أبي خالد: هم في شُغُلٍ عما فيه أهلُ النار من العذاب.

٢ ـ وقال ابن عباس ومجاهد وقتادة: هم في نعيمٍ فرحون معجبون به.

٣ ـ وقال ابن مسعود وابن عباس وسعيد بن المسيب وعكرمة والحسن وقتادة والأعمش وسليمان التيمي والأوزاعي: شُغُلُهم في الجنة افتضاضُ أبكارِ العذارى من الحورِ العين[١].

فهذه ثلاثةُ أقوالٍ مختلفةٌ في تحديدِ الشغل الذي فيه المؤمنون في الجنة، لكنها مختلفةٌ من باب التنوعِ وليس التضاد:

فالقولُ الأول يذكرُ نوعاً من أنواع الشغل: وهو اشتغالُهم عن عذاب أهل النار. لكن ما هذا الشغل؟ يذكر القولُ الثاني أنه النعيمُ العظيمُ الذي يتنعَّمون ويتفكَّهون ويفرحون به! ويأتي القول الثالث ليذكرَ نوعاً من ألذِّ وأمتعِ صورِ ذلك النعيم، وهو الاستمتاعُ بالحور العين، وافتضاضُ أبكارهن، ومعاشرتهن!

فالأقوالُ الثلاثةُ صحيحةٌ ومعتمدة، وهي متكاملةٌ ومجتمعةٌ في الدلالة على المعنى، والقولُ بها كلها مطلوب!

اختلاف التنوُّع صنفان:

ذكر الإمامُ ابنُ تيمية صنفيْن لاختلاف التنوّع بين السلف في التفسير:

الصنف الأول ـ التعبيرُ عن المعنى بالألفاظ المتقاربة المتكافئة:

قالَ ابنُ تيمية: «وذلك صنفان: أحدُهما: أنْ يعبِّـرَ كلٌّ واحدٍ منهما عن المراد بعبارةٍ غير عبارةِ صاحبه، تدلُّ على معنى في المسمى غير المعنى الآخر، مع اتحادِ المسمّى، بمنزلةِ الأسماءِ المتكافئة التي بينَ المترادفةِ والمتباينة»[٢].

وحتى نعرفَ هذا الصنف، ومعنى الألفاظ المتقاربة المتكافئة. فلا بدَّ أن نتعرَّفَ على الصلةِ بين الألفاظ. فقد ذكرَ ابنُ تيمية ثلاثة مصطلحات حول هذا الموضوع: «الأسماء المتكافئة، التي بين المترادفة والمتباينة».

---

(١) انظر هذه الأقوال في (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير: ٣/ ٥٥٢.
(٢) مقدمة في أصول التفسير، ص٣٨.

ما الفرقُ بين الترادفِ والتباينِ والتكافؤ؟ أو بعبارة أخرى: ما الفرقُ بين الترادفِ والتضادِّ والتقارب؟

الترادف: هو وجودُ لفظيْن أو أكثر، مختلفيْن في الاشتقاق، لكنهما متفقان في المعنى، بحيث يدلأن على معنى واحد رغم اختلافِ مادةِ اشتقاقهما.

قالوا: من الترادفِ قولُهم: قعد وجلس، وقولهم: سكت وأنصت. وقولهم: المرأة والزوجة، وقولهم: السكين والمدية، وقولهم: السيف والمهنّد... وهكذا.

ونحن لا نقول بهذا القول، لكننا أردْنا التمثيلَ للترادف ـ عند مَن يقول به ـ.

أما التضادُّ ـ أو التباين كما قال ابن تيمية ـ فهو عكسُ الترادف، وهو: وجودُ لفظيْن أو أكثر مختلفيْن في الاشتقاق، مختلفيْن متضاديْن في المعنى، مثل: الليل والنهار، والأبيض والأسود، والرجل والمرأة، والمؤمن والكافر.

والتقارب ـ أو التكافؤُ كما قال ابن تيمية ـ هو وسطٌ بين الطرفيْن السابقيْن المتقابليْن: الترادف والتضاد. والتقارب هو: وجودُ لفظيْن أو أكثر مختلفيْن في الاشتقاق، ولكنهما يدلاّن على معظم المعنى ـ لايدلُّ كلٌّ واحدٍ منهما على كل المعنى كما في الترادف، ولا يتبايناِن ويختلفانِ في الدلالة كما في التضاد ـ وبين اللفظيْن المتقاربيْن فروقٌ دقيقةٌ قليلة بينهما.

مثل: الرسول والنبي: لفظان يُطلقان على مَنْ أوحى الله له بوحي، ولكن بينهما فروقٌ دقيقة، فمتى يسمى هذا المبعوث رسولاً؟ ومتى يسمّى نبياً؟

ومثل: القرآن والكتاب، لَفظان يطلقان على كلامِ الله الذي أنزله على نبيه محمد ﷺ، وهما ليسان مترادفيْن، ولا متباينيْن، فإذا سميناه (قرآناً) فقد لاحظْنا فيه جانباً، وإذا سميناه (كتاباً) لاحظنا فيه جانباً آخر، وهما متكاملان في الدلالة على كلام الله!

فكان السابقون من الصحابة والتابعين ينوِّعون في كلامِهم في تفسير الآية،

من باب التعبير بالألفاظِ المتقاربة المتكافئةِ في الدلالة على معنى الآية، ولابدَّ من الجمع بين ألفاظهم المتقاربة لمعرفة معنى الآية!

ولما مَثَّلَ ابنُ تيمية للألفاظِ المتكافئةِ المتقاربة قال: «كما قيل في اسم السيف: الصارم والمهند. وذلك مثْلُ أسماءِ الله الحسنى، وأسماءِ رسوله ﷺ، وأسماءِ القرآن. فإنَّ أسماء اللهِ كلَّها تدلُّ على مسمى واحد، وليس دعاؤُه باسمٍ من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر. . »[1].

أسماءُ الله عند الإمام ابن تيمية متقاربةٌ في المعنى، وهي (مترادفةٌ في الذات، متباينةٌ في الصفات) ـ كما يقول المحققُ الدكتور عدنان زرزور في تعليقه على هذه المسألة[2]!.

من الأمثلةِ على هذا الصنف من اختلاف التنوّع اختلافُ الصحابةِ والتابعين في المرادِ بالصراط المستقيم، في قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦].

قال الإمامُ الطبريُّ في تفسير «الصراط المستقيم»:

«أجمعتِ الأمةُ من أهلِ التأويلِ جميعاً على أنَّ الصراطَ المستقيم هو: الطريقُ الواضحُ الذي لا اعوجاجَ فيه. . . ثم تستعيرُ العربُ الصراط، فتستعملُه في كلِّ قولٍ وعمل وُصِفَ باستقامةٍ أو اعوجاج، فتصفُ المستقيمَ باستقامته، والمعوجَّ باعوجاجه.

والذي هو أَوْلى بتأويل قوله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ عندي: اللهمَّ وفِّقْنا للثباتِ على ما ارتضيتَه ووفَّقتَ له مَنْ أنعمتَ عليه من عبادك، من قولٍ وعمل.

وذلك هو الصراطُ المستقيم، لأنَّ مَنْ وُفِّقَ لما وُفِّقَ له مَن أنعمَ اللهُ عليه من

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص٣٨.
(٢) المرجع السابق، ص٣٩. حاشية رقم (١).

النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، فقد وُفِّق للإسلام، وتصديق الرسل، والتمسكِ بالكتابِ، والعملِ بما أمَرَهُ اللهُ به، والانزجار عما زجرَهُ عنه، واتّباع منهجِ النبي ﷺ، ومنهاجِ أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، وكلِّ عبدٍ صالحٍ لله. وكلُّ ذلك من الصراط المستقيم...»[1].

إنَّ ابنَ جرير الطبريَّ في كلامه السابق يجمعُ بين مختلفِ الأقوال المتقاربة المتكافئة في بيانِ معنى الصراط المستقيم، حيث يعتبرُ الصراط المستقيم شاملاً لها كلها.

وانتقلَ ابنُ جرير الطبري بعد ذلك لذكرِ اختلافِ الصحابة في معنى ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾. ومن الأقوال التي أوردَها:

١ ـ قال علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود: الصراطُ المستقيم هو: القرآن الكريم.

٢ ـ وقال ابن عباس: الصراط المستقيم: هو الإسلامُ، دينُ الله الذي لا عوج له.

٣ ـ وقال ابن عباس في رواية أخرى: الصراط المستقيم: هو الطريق.

٤ ـ وقال أبو العالية ـ رفيع بن مهران الرياحي ـ الصراط المستقيم: هو رسولُ الله ﷺ، وصاحباه من بعده: أبو بكر وعمر رضي الله عنهما[2].

إنَّ الصحابةَ قد اختلفوا في المراد بالصراط المستقيم، ولكنه اختلافُ تنوُّع وليس اختلاف تضادّ، بأنْ ذكرَ كلُّ واحدٍ قولاً يقاربُ ويكافىءُ ما قاله الآخرون، ومجموع الأقوالِ يدلُّ على معنى الصراط المستقيم. وكلُّ قولٍ تناولَ نوعاً من أنواع الصراط المستقيم، كما جمعَ بينهما الإمامُ ابنُ جرير الطبري في قوله السابق.

ومن بابِ استكمالِ هذا المثال نوردُ ما قالَه الإمامُ ابن تيمية حول اختلافِهم

---

(١) تفسير الطبري ـ طبعة دار الفكر ـ: ١/ ٧٣ ـ ٧٤ باختصار.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٧٤ ـ ٧٥ باختصار.

في ﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ وجَمْعَه بين أقوالهم :

«مثال ذلك تفسيرُهم للصراط المستقيم :

١ ـ فقالَ بعضهُم : هو القرآن ـ أي اتباعُه لقولِ عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه في القرآن : «هو حبلُ اللهِ المتين ، والذكرُ الحكيم ، وهو الصراط المستقيم» .

٢ ـ وقال بعضُهم : هو الإسلامُ لقولِ رسول الله ﷺ ـ في حديث النوّاسِ بن سمعان رضي الله عنه ، الذي رواه الترمذي وغيره ـ : «ضربَ اللهُ مثلاً : صراطاً مستقيماً ، وعلى جَنَبَي الصراط سوران ، وفي السورَيْن أبوابٌ مفتَّحة ، وعلى الأبواب ستورٌ مرخاة ، وعلى بابِ الصراطِ داعٍ يقول : يا أيها الناس ، ادخلوا الصراط جميعاً ، ولا تَعْوجّوا ، وداعٍ يَدعو من فوقِ الصراط ، فإذا أرادَ الإنسانُ أنْ يفتحَ شيئاً من تلك الأبواب قال : ويْحك ، لا تفتَحْه ، فإنكَ إنْ تفتحْهُ تلِجْه !

فالصراطُ الإسلام . والسوران حدودُ الله . والأبوابُ المفتحةُ محارمُ الله . وذلك الداعي على رأسِ الصراط كتابُ الله . والداعي فوقَ الصراط واعظُ الله في قلبِ كلِّ مؤمن»[1] .

فهذان القولان متّفقان ، لأنَّ دينَ الإسلام هو اتّباعُ القرآن ، ولكنَّ كلَّ واحدٍ منهما نبَّه على وصفٍ غيرِ وصفِ الآخر .

كما أنَّ لفظَ الصراطِ يشعرُ بوصفٍ ثالث . ـ لعلَّ ابنَ تيمية يعني قولَ أبي العالية من أنَّ الصراط هو رسولُ الله ﷺ وأبو بكر وعمر ، الذي أورده الطبري ـ .

وكذلك قولُ مَنْ قال : الصراط : هو السنةُ والجماعة . وقولُ مَنْ قال : هو طريقُ العبودية . وقول مَنْ قال : هو طاعةُ الله ورسولِه ﷺ .

فهؤلاء كلُّهم أشاروا إلى ذاتٍ واحدة ، لكن وَصَفَها كلٌّ منهم بصفةٍ من صفاتها !»[2] .

---

(١) أخرجه أحمد : ٤/ ١٨٢ ؛ والترمذي برقم (٢٨٥٩) ؛ والحاكم في المستدرك : ١/ ٧٣ ؛ وانظر تهذيب تفسير الطبري : ١/ ٨٥ ، حديث رقم (١٠) .

(٢) مقدمة في أصول التفسير ، ص٤١ ـ ٤٣ .

لقد أوردَ ابنُ تيمية ستةَ أقوالٍ متقاربةٍ متكافئة في تفسير السلفِ للصراط المستقيم، والصراطُ يشملُها كلَّها، فهي من بابِ التنوُّع في التفسير.

الصنف الثاني ـ التعبير بالجزء من باب التمثيل لا الحصر:

قال ابنُ تيمية: «الصنف الثاني: أنْ يذكرَ كلٌّ منهم من الاسمِ العام بعضَ أنـواعِه، على سـبيل التمثيل، وتنبيهِ المستمع على النوع، لا على سـبيل الحدِّ المطابقِ للمحدودِ في عمومِه وخصوصِه.

مثلُ سائلٍ أعجميٍّ عَنْ مسمًّى لفظ (الخبز)؟ فأُري رغيفاً، وقيل له: هذا! فالإشارةُ إلى نوعِ هذا الخبز، لا إلى هذا الرغيفِ وحده»[1].

قد يكون اللفظُ عاماً، ينطبقُ على أفرادٍ وأنواعٍ عديدة، فيذكرُ كلُّ عالمٍ نوعاً من أنواعه، من بابِ التوضيحِ والتفسير والتمثيل، وهو لا يقصدُ أنْ يخصصَ العامَّ بهذا النوع، ولا أنْ يقصرَهُ عليه. ويجبُ جمعُ الأقوالِ كلِّها لمعرفة ما دلَّ عليه اللفظ العام.

والمثالُ الذي ذكره ابن تيمية يوضحُ هذا. فلفظُ (الخبز) عامٌّ ينبطقُ على أفرادٍ وأمثالٍ عديدة، منها: الرغيف، والكعك والبسكويت والأقراص، وغيرها.

ومثَّلَ ابنُ تيمية على هذا الصنف بقوله: «مثال ذلك: ما نقل في قوله: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٣٢].

ومعلـومٌ أنَّ الظـالـمَ لنفســه يتنـاولُ المضيِّـعَ للـواجبـات، والمنتهـكَ للمحرمات، والمقتصدَ يتناولُ فاعلَ الواجبات، وتاركَ المحرمات. والسابقَ يدخلُ فيه مَن سبق، فتقرَّبَ بالحسنات مع الواجبات. فالمقتصدون هم أصحاب اليمين، والسابقون السابقون أولئك المقربون.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص٤٣.

ثم إنَّ كلاًّ منهم يذكرُ هذا في نوعٍ من أنواعِ الطاعات:

كقول القائل: السابق: الذي يُصلّي في أول الوقت. والمقتصد: الذي يصلّي في أثنائه، والظالمُ لنفسه: الذي يؤخرُ العصرَ إلى الاصفرار.

وقد يقول قائل آخر: السابقُ والمقتصدُ والظالمُ لنفسه قد ذكرهم اللهُ في آخرِ سورةِ البقرة، فإنه قد ذكَر المحسنَ بالصدقة، والظالمَ بأكل الربا، والعادل [المقتصد] بالبيع [الآيات ٢٧٠ ـ ٢٨٠ من سورة البقرة].

والنـاسُ في الأموال: إمَّا محسـنٌ [سابق]، وإما عَدْلٌ [مقتصد]، وإمَّا ظالم. فالسابق: المحسنُ بإداءِ المستحبات مع الواجبات. والظالمُ آكل الربا، أو مانعُ الزكاة.. والمقتصد: الذي يؤدي الزكاة المفروضة، ولا يأكلُ الربا...

فكلُّ قول: فيه ذِكْرُ نوعٍ دخلَ في الآية، ذُكِرَ لتعريفِ المستمع بتناول الآيةِ له، وتنبيهِه به [بالمثال] على نظيره، فإنَّ التعريف بالمثال قد يسهلُ أكثرَ من التعريفِ بالحدِّ المطابق»[١].

إنَّ آية سورة فاطر، قد قسمتْ أمة محمد ﷺ ثلاثة أقسام: الظالمُ لنفسه، والمقتصد، والسابقُ بالخيرات، وهذا تقسيمٌ عام. وعندما يُرادُ توضيح هذا العموم تُذكرُ بعضُ النماذج باعتبارها أمثلة، ولكن تلك النماذجَ لا يُرادُ بها الحصر!!

وتصلحُ أنْ تكونَ هذه الآية (ميزاناً) للمسلم، يشملُ جميعَ الواجبات والمحرمات والمستحبات والمكروهات، والمسلمُ مع هذه الأمور إمَّا ظالم لنفسه، وإمَّا مقتصد، وإما سابقٌ بالخيرات بإذن الله.

وأذكرُ أنني رأيتُ لوحةً كبيرةً بعنوان (ميزان المسلم) وفيها ثلاثُ (خانات): خانةُ الظالم لنفسه، وخانة المقتصد، وخانةُ السابق بالخيرات، وجميعُ الواجبات والمحرّمات والمستحبات والمكروهات مذكورةٌ في تلك الخانات!!

ونضيفُ إلى ما ذكرهُ ابنُ تيمية مثالاً آخر:

---

(١) مقدمة في أصل التفسير، ص٤٣ ـ ٤٤.

اختلفَ السلفُ في المرادِ بالأمانةِ التي حَمَلَها الإنسانُ الظلومُ الجهول، التي أشار لها قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

من أقوالهم فيها:

١ ـ قال ابنُ عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك والحسن البصري: الأمانة هي: الفرائض.

٢ ـ وقال أُبيُّ بن كعب: من الأمانةِ ائتمانُ المرأةِ على فرجها.

٣ ـ وقال مسروق: الأمانة: الطاعة.

٤ ـ وقال قتادة: الأمانة: الدينُ والفرائضُ والحدود.

٥ ـ وقال عبدُ الله بن مسعود: الأمانة في الصوم، وفي الوضوء، وفي الحديث، وأشدُّ ذلك الودائع.

٦ ـ وقال زيد بن أسلم: الأمانةُ ثلاثة: الصلاة، والصوم، والاغتسال من الجنابة»[١].

ونلاحظُ أنَّ أصحابَ كلِّ قولٍ من الأقوال الستة السابقة ذكروا مثالاً من الأمثلةِ ينطبقُ عليه معنى الأمانة، وقَصْدُهم من ذكرِ المثال التمثيلُ وليس الحصر.

ويجبُ أخْذُ الأقوالِ كلِّها، واعتبارُها مندرجةً ضمن الأمانة.

ولهذا قال الإمامُ ابنُ كثير بعدَ أنْ أوردَ تلك الأقوال: «وكلُّ هذه الأقوال لا تَنافي بينها، بل كلُّها متفقة، وراجعةٌ إلى أنَّ الأمانة هي: التكليف، وقَبولُ الأوامر والنواهي بشرطها، وهو أنه إنْ قامَ بذلك أُثيب، وإنْ تركها عوقب، فَقَبِلَها الإنسان، على ضعفه وجهله وظلمه، إلاَّ مَنْ وفَّقَهُ الله...»[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير: ٣/ ٥٠١ ـ ٥٠٢.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ٥٠١.

والخلاصة: إنَّ اختلافَ المفسرين من الصحابة والتابعين اختلافُ تنوُّعٍ وتمثيل، وليس اختلافَ تضادّ وتناقض، سواء كان ذلك الاختلافُ بالتعبيرِ بالألفاظ المتقاربة عن المعنى الواحد، أو كان بالتعبير بالجزء والمثال، من باب التمثيلِ وليس من باب الحصر.

وحلُّ هذا الخلاف يكون بجمعِ الأقوال المتقاربةِ التي رُويتْ عنهم، واعتبارُ الكلمةِ أو الآيةِ شاملةً لها كلِّها، كما يكون بقَبول ما وردَ عنهم من أقوال في تفسير الكلمة أو الآية، واعتبارِها من باب التمثيل في تفسير الآية، وليسَ من باب الحصر. وعندما نجمعُ بين أقوالِ الصحابة والتابعين لم يَعُدْ للاختلافِ بينهم وجود!!

أهم أسباب اختلاف المفسرين:

لم يكن بين الصحابةِ والتابعين اختلافٌ حقيقيٌّ كما عرفْنا، والاختلافُ إنما وقعَ بعد الصحابةِ والتابعين، ونسجِّلُ فيما يلي أهمَّ أسباب اختلافهم، مع بيانها والتمثيل لها.

١ ـ اختلاف القراءات:

القراءاتُ نوعان: قراءات صحيحة، وقراءات شاذة.

والقراءاتُ الصحيحةُ هي القراءات التي توفَّرَتْ فيها شروطُ القراءة الصحيحة، وهي ثلاثة:

١ ـ صحةُ سندِ القراءةِ إلى رسول الله ﷺ.

٢ ـ موافقةُ العربية ولو بوجهٍ واحد.

٣ ـ موافقةُ المصحف العثماني ولو احتمالاً.

وقد جمعَ العلماءُ القراءاتِ الصحيحة التي توفّرتْ فيها الشروط الثلاثة، وهي عشرُ قراءات، لعشرةٍ من أئمةِ القرّاء وأعلامهم.

والقراءاتُ العشرُ الصحيحةُ هي: قراءة ابن كثير المكي، وقراءة نافع المدني، وقراءة ابن عامر الشامي، وقراءة أبي عمرو البصري، وقراءة عاصم الكوفي، وقراءة حمزة الكوفي، وقراءة الكسائي الكوفي، وقراءة أبي جعفر المدني، وقراءة يعقوب البصري، وقراءة خلف البغدادي.

وهذه القراءاتُ الصحيحةُ كلُّها كلامُ الله، وليستْ من تأليفِ الصحابةِ ولا التابعين، ولا أئمةِ القرّاء الذين نُسبتْ لهم.

وبين هذه القراءاتِ اختلافٌ في شكل الكلمة القرآنية أو حروفها، ويترتبُ على ذلك اختلاف في معنى الكلمة القرآنية وتفسيرِها، ومن ثم يختلفُ المفسرون في تفسيرها، بناء على الاختلاف في قراءاتها.

وموقفُ المفسرِ من القراءات الصحيحة هو نسبةُ القراءة لصاحبها الذي قرأ بها، وإحسانُ النطقِ بها، ثم معرفةُ معناها، ثم توجيهُ القراءة والاستشهادُ لها، ثم الجمعُ بينها وبين القراءاتِ الأُخرى الصحيحة، لأنها كلَّها كلامُ الله، وبعضُ كلامِ الله ليس بأرجحَ من بعضِ كلام الله!

ومن الأمثلةِ على الاختلافِ في التفسير المبنيِّ على اختلاف القراءات:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤ ـ ١٥].

في قوله (سُكِّرَتْ) قراءتان عشريتان صحيحتان:

الأولى: قراءةُ ابن كثير المكي: (سُكِرَتْ): بتخفيف الكاف المكسورة. ومعنى (سُكِرت) ـ بالتخفيف ـ سحرت.

أي: يقول الكفار: لقد سُحِرَتْ أبصارنا، وحُبِسَتْ عن الرؤية، ومُنعت من النظر، بسبب السُّكْرِ، وهو الحبس والسحر.

الثانية: قراءةُ التسعة الباقين ـ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب وخلف ـ: (سُكِّرَتْ) بتشديد الكاف المكسورة.

ومعنى (سُكِّرَتْ) ـ بالتشديد ـ سُدَّتْ وغطيَتْ وأُغشيت.

أي: يقول الكفار: لقد سُدَّتْ وأُغلقت أبصارنا، فنحن لا نرى بسبب إغلاقها وسَدِّها وتسكيرها.

ونتيجةً لاختلاف القراءات في الكلمة اختلفَ المفسرون في معناها:

١ ـ قال ابن عباس: «سُكِرَتْ أبصارنا»: سُحِرَت أبصارنا.

٢ ـ وقال مجاهد والضحاك: «سُكِّرت أبصارنا»: سُدَّتْ أبصارنا ومنعت النظر.

٣ ـ وقال ابن زيد: «سُكِّرت أبصارنا»: غشي على أبصارنا، فلا ترى شيئاً.

٤ ـ وقال الكلبي: «سكرت أبصارنا»: عميت أبصارنا[1].

وسببُ اختلافِ المفسرين في معنى (سُكِّرت) ورودُ قراءتيْن صحيحتيْن للكلمةِ كما رأينا.

والجمعُ بين القراءتين ممكن: فإذا كانت الأبصارُ قد سُكِرَتْ وسُحرت، على قراءة التخفيف (سُكِرت) فإنها قد تعمَّقَ فيها السحر وتمكَّن منها، حتى سدَّها وأغلقها، على قراءة التشديد، فالأبصار سُكِرَتْ حتى سُكِّرَت، أي: سُحرتْ حتى سُدَّتْ وأُغلقتْ!

٢ ـ اختلاف وجوه الإعراب:

اختلاف وجوه الإعراب مبني على اختلاف القراءات، فإذا كان في الكلمة أكثر من قراءة، فقد يكون لها أكثر من إعراب. ومن هنا يختلف المفسرون في تفسيرها.

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

---

(١) انظر تفسير الآية وقراءتيها واختلاف المفسرين فيها في تهذيب تفسير الطبري: ٤/ ٦٢٥.

في هذه الآية قراءتان عشريّتان صحيحتان:

الأولى: قـراءة ابن كثير المكي: ﴿فتلقى آدمَ من ربـه كلماتٌ﴾ بنصب (آدمَ)، ورفع (كلماتٌ). على أن (آدمَ) مفعولٌ به مقدَّم، و(كلماتٌ) فاعل مؤخر. أي: تلقتْ كلماتٌ أدمَ.

والمعنى على هذه القراءة وهذا الإعراب: الكلماتُ هي التي تلقَّتْ آدمَ عليه السلام، لما أكلَ من الشجرة، وتوجَّهتْ إليه لتحميهِ من الشيطان والهلاك، بأمر الله، وأخذَتْهُ برحمتها وكانت له حصناً من الشيطان!

الثانية: قراءةُ التسعة الباقين: ـ نافع وعاصم وحمزة والكسائي وابن عامر وأبو عمرو وأبو جعفر ويعقوب وخلف ـ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ برفع (آدمُ)، ونصب (كلماتٍ) ـ منصوبةٌ بالكسرة بدلَ الفتحة، لأنها جمع مؤنث سالم ـ على أنّ (آدمُ) فاعل، و(كلماتٍ) مفعول به.

والمعنى على هذه القراءةِ وهذا الإعراب: آدمُ عليه السلام تلقى كلماتٍ طيبة، أوحى الله له بها، ليقولَها تائباً نادماً على ما فعل، عندما أكلَ من الشجرة، وأخذ آدمُ عليه السلام تلك الكلمات، وقالها تائباً، فتاب الله عليه.

وهذه الكلماتُ مذكورةٌ في سورة الأعراف، قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

اختلف معنى الآيـة على اختلافِ إعرابِ كلماتِها، وعلى تحديـدِ الفاعلِ والمفعول به، بين (آدم) و(كلمات)!

فمَنْ الذي تلقّى الآخر؟ عند ابن كثير المكي: الكلماتُ هي التي تلقَّتْ آدمَ واستقبلَتْه واتصلَتْ به! وعنـد القرّاء الآخرين: آدمُ هو الذي تلقَّى الكلمـاتِ وأخذها ونطق بها[1]!

ولا بدَّ أنْ نجمعَ بين القراءتيْن الصحيحتين، وبين الإعرابيْن الصحيحين،

---

(١) انظر تهذيب تفسير الطبري: ١/ ١٩٩.

فنقول: لعلَّ القرآنَ يشيرُ إلى مرحلتيْن في هذا الأمر ـ أكلُ آدمَ من الشجرة وما نتج عنه ـ.

المرحلة الأولى: رحمَ اللهُ آدمَ لما أكلَ من الشجرة، ولم يتركْه للشيطان، فأوحى اللهُ له بكلماتٍ طيبة، وتوجّهتْ هذه الكلماتُ إليه، واتصلَتْ به، واستقبلَتْه، وتلقتْه، ودعتْه إليها! وهذا على قراءة ابن كثير. فالكلماتُ هي الفاعل، الذي ذهبَ إلى (آدمَ) المفعول به!

المرحلة الثانية: فرحَ آدمُ عليه السلام بالكلمات التي تلقتْه، وفهم ماذا تعني له، وأنها هبةٌ ورحمةٌ من الله، فتجاوبَ معها، وأخذها وتلقّاها وقالها ونطق بها! وهذا على قراءة القرّاءِ الآخرين، فآدمُ هو الفاعلُ الذي تلقّى الكلمات واستفاد منها!!

٣ ـ الاختلاف في المعنى اللغوي للكلمة:

قد يختلفُ المفسرون في معنى كلمةٍ من كلماتِ القرآن، للاختلافِ اللغويِّ في معنى الكلمة.

مثال ذلك: أطلقَ القرآنُ على أنصارِ عيسى عليه الصلاة والسلام لقبَ (الحواريّين). قال تعالى: ﴿۞ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢].

فما معنى الحواريين؟ ولماذا سُمُّوا بذلك؟

اختلف المفسِّرون في سبب تسميتهم بالحواريين:

١ ـ فقال بعضهم: سُمُّوا بذلك لبياضِ ثيابهم.

٢ ـ وقال آخرون: كانوا قصَّارين يبيِّضون الثياب.

٣ ـ وقيل: كانوا صيَّادين.

٤ ـ وقيل: هم خاصةُ الأنبياء الذين نصروهم.

وقد رجَّح ابنُ جرير الطبري أنهم سموا بذلك لبياض ثيابهم.

لأنَّ (الحواريين) ـ أصحاب عيسى عليه الصلاة والسلام ـ مشتقةٌ من (الحَوْر). وهو عند الطبري شدةُ البياض.

يقال (الحُوّارىٰ): من الطعام هو شديدُ البياض، وهو لبابُ الدقيق. ويقال: رجلٌ أَحْوَرُ: وهو شديدُ بياضِ العينين. وامرأةٌ حوراء: شديدةُ بياض العينين[1].

بينما رجَّحَ الإمامُ ابن كثير أنهم سُمّوا بذلك لأنهم نَصروا عيسى عليه الصلاة والسلام، لأن الحواريَّ عنده هو الناصر.

واستدلّ ابنُ كثير على هذا بحديثِ رسول الله ﷺ: «إن لكلِّ نبيٍّ حَوَارياً، وحواريَّ الزبير»[2].

كما استدلّ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ﴾ [الصف: ١٤][3].

(الحواريّون) مشتقةٌ من مادةِ (حَوْر). فما معنى هذه المادة في اللغة.

قال الإمامُ الراغب في المفردات: «الحَوَرُ: التردُّد. إمَّا بالذات، وإمّا بالفكر. و(حورٌ عين): جمعُ حوراء. والحَوَرُ: هو ظهورُ قليلٍ من البياض في العينِ من بين السواد. وذلك نهايةُ الحسنِ من العين. وحَوَّرْتُ الشيء: بيَّضْتُه ودوَّرْتُه.

والحواريّون: أنصارُ عيسى عليه الصلاة والسلام. قيل: كانوا قصّارين. وقيل: كانوا صيّادين.

وقالَ بعضُ العلماء: إنما سُمّوا حواريّين لأنهم كانوا يطهِّرون نفوس الناسِ بإفادتهم الدين والعلم.

---

(١) تهذيب تفسير الطبري: ٢/ ٢٧٩ ـ ٢٨٠.

(٢) أخرجه البخاري برقم (٢٨٤٦)؛ ومسلم برقم (٢٤١٥)؛ والنسائي برقم (١٠٧)؛ والترمذي برقم (٣٧٤٥)؛ وابن ماجه برقم (١٢٢)؛ وأحمد في المسند: ٣/ ٣١٤.

(٣) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٤٥.

وقـال بعضُ العلماء: إنما كانـوا صيّادين لاصطيـادِهم نفوسَ النـاس من الحيرة، وقيادتهم إلى الحق.

وقوله ﷺ: «لكلّ نبيٍّ حَواريّ، وحوارِيَّ الزبير»، هو تشبيهٌ بالحواريين في النصرة»[1].

وورد في (المعجم الوسيط) عن مادة (حَوَر) مايلي:

«حارَ، يَحُورُ، حَوْراً: رجع.

و: حَوِرَت العينُ، حَوَراً: اشتدَّ بياضُها وسوادُها، واستدارتْ حدقتُها، ورقَّتْ جفونُها...

و: حَوَّر الدقيقَ أو الثوبَ: بيَّضَه.

و: الحَواريُّ: مبيِّضُ الثوب. والذي أخلصَ واختير ونُقِّيَ من كلِّ عيب. والصاحبُ الناصر. وجمعُه: حوارِيّون. والحواريّون: أنصار عيسى عليه الصلاة والسلام.

و: الحَوَرُ: شدّةُ بياضِ العين، مع شدة سوادِ سوادِها»[2].

والخلاصة: أصلُ مادة (حَوَر) في اللغة هو التردّدُ والرجوع، الذي يقودُ إلى الصفاءِ والنقاءِ والحُسن والجمال، وهذا يتحقق في (تحوير) الخبز والثوب: تبييضُه الذي يعني المبالغة في صفائه ونقائه. والحَوَاريُّ هو الناصر، لأنه انْتُقِيَ من بين الآخرين، وهو لن يكون حوارِيّاً ناصراً إلاَّ إذا بلغَ الذروةَ من النقاءِ والصفاءِ والطهارة.

ونرى أنَّ هذه المعاني كلِّها متحققةٌ في (الحواريين) أنصارِ عيسى عليه الصلاة والسـلام: فأساس حياتهم قائمٌ على الخلوصِ والصفاءِ والنقاء، فهم لصفاءِ نفوسهم وقلوبهم رجعوا إلى الحقِّ المتمثّلِ في دينِ عيسى عليه الصلاة

---

(١) المفردات للراغب، ص٢٦٢ ـ ٢٦٣.

(٢) المعجم الوسيط، ص٢٠٥.

والسلام. وكانوا موصوفين بالصفاءِ في مظهرِهم الخارجي، المتمثلِ بملابسهم البيضاء الصافية، وهم نصروا عيسى عليه الصلاة والسلام، وبذلكَ كانوا أنصارَ الله، واختيروا من بين الناس لهذه المهمةِ العظيمة، التي لا يختارُها إلا أصفى الناس وأطهرهم!!

٤ ـ الاختلاف في المشترك اللفظي:

(المشْتَرَكُ) في اللغة هو: أنْ يدلَّ اللفظُ الواحدُ على أكثرَ من معنى، كأنْ يدلَّ على معنيينِ أو ثلاثةٍ أو أكثر.

وقد يكون المعنيان متوافقيْن متكامليْن، وقد يكونان مختلفيْن متضاديْن.

من المشترك المتوافق في المعنى: (النكاح).

فالنكاحُ قد وردَ في القرآن بمعنى عقْدِ الزواج، كما في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

فمعنى: (نكحتم المؤمنات): عقدتُم عقدَ الزواجِ على المؤمنات. ولا يصحُّ أنْ يكونَ معنى الجملة: الجماعَ والوطءَ والمعاشرةَ الزوجية، لأنه قال في الآية: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾.

ووردَ النكاحُ في القرآنِ بمعنى الوطءِ والجماع والمعاشرة الزوجية. كما في قوله تعالى: ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، لأنَّ الآية تتحدَّثُ عن الزوجةِ بعدَ أنْ يطلقَها زوجُها الطلقةَ الثالثة، فإنها لا تحلُّ له إلاَّ بعد أن ﴿تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ بأنْ يتزوجَها هذا الرجلُ الثاني وينكحَها ويعاشرَها ويجامعَها.

فالنكاحُ في القرآنِ مشترك، يطلقُ على عقدِ الزواج، ويطلقُ على الجماع، والذي يحددُ أحدَ المعنيين هو السياقُ ومعنى الآية التي وردَتْ فيها الكلمة[1].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٨٧.

ومن المشتركِ بين معنيين مختلفين متقابلين في القرآن: القُرْء.

القرءُ مشتركٌ بين الطهرِ والحيض. فيسمّى الطهرُ قُرْءاً، ويسمى الحيض قرءاً أيضاً. والطهرُ والحيضُ معنيان متقابلان مختلفان؛ لأن المرأةَ إمّا طاهرةٌ وإما حائض!

وبناءً على الاشتراك اللفظي للقرء، واستعمالِه في الحيض والطهر، اختلفَ المفسرونَ في القروء التي تعتدُّ بها المرأةُ المطلقة، والتي نصّ عليها قولُه تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

تنصُّ الآيةُ على أنَّ المرأةَ الحرة المطلَّقةَ التي تحيض، تعتدُّ بعد طلاقِها ثلاثَةَ قروء.

واختلفَ المفسرون في الثلاثة قروء: هل هي ثلاثة أطهار أم ثلاثُ حيضات؟

ونلخصُ اختلافَهم في ذلك من تفسير الإمام ابن كثير:

قال ابن كثير: اختلفَ السلفُ والخلفُ والأئمةُ في المرادِ بالإقراءِ على قولين:

الأول: المرادُ بها الأطهار، لأنَّ القرء هو الطهر.

وهذا قولُ عائشة وعبد الله بن عمر وزيد بن ثابت وعبد الله بن عباس، رضي الله عنهم.. وهو قول سالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، وعروة بن الزبير، وسليمان بن يسار، وعطاء بن أبي رباح، وقتادة، والزهري.. وغيرهم.

وهو مذهب مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأبي ثور، وداود الظاهري.

واستدلّوا لهذا القول بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ﴾ [الطلاق: ١]، أي: طلّقوهنَّ في وقتِ عدتهن. ولمّا كان الطهرُ الذي تُطَلَّقُ فيه محسوباً في العدة، دلّ على أنه أحدُ الأقراءِ الثلاثة؛ فالمعتدةُ تنقضي عدتُها عندما تبدأ في الحيضةِ الثالثة مباشرة.

الثاني: المرادُ بها الحيضات، لأن القرءَ هو الحيض.

وهذا قول أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وأبي الدرداء وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك وعبد الله بن مسعود ومعاذ بن جبل وأبي بن كعب وأبي موسى الأشعري، رضي الله عنهم. وهو قول سعيد بن المسيب وعلقمة والأسود وإبراهيم ومجاهد وطاووس وسعيد بن جبير وعكرمة وابن سيرين والشعبي والربيع والضحاك... وغيرهم.

وهو مذهبُ أبي حنيفة، وأحمد في إحدى الروايتين عنه، والثوري، والأوزاعي، وإسحاق بن راهويه، وابن أبي ليلى، وابن شبرمة[1]!

فالقرءُ مشتركٌ بين الطهرِ والحيض، ولذلك اختلفَ المفسرون والفقهاءُ في تفسير الآية.

قال ابنُ كثير بعد ذكْرِه للاختلاف في تفسير الآية: «وقال ابنُ جرير: أصْلُ القرءِ في كلام العرب: الوقتُ لمجيءِ الشيءِ المعتادِ مجيئه في وقتٍ معلوم، ولإدبار الشيء المعتاد إدبارُه لوقتٍ معلوم!

وهذه العبارةُ تقتضي أنْ يكونَ القرءُ مشتركاً بين الطهر والحيض. قال الأصمعي: القرء هو الوقت.

وقالَ الشيخ أبو عمر بن عبد البر: لا يختلفُ أهلُ العلمِ بلسان العرب والفقهاءُ أنَّ القرءَ يُرادُ به الحيض، ويرادُ به الطهر، وإنما اختلفوا في المراد به في الآية...»[2].

والراجحُ ـ والله أعلم ـ أنَّ المرادَ بالقروء في الآية الأطهار، لأنَّ دليل أصحابِ هذا القول ـ الشافعي ومالك ومَنْ معهما ـ قوي، حيثُ اعتمدوا على ظاهر القرآن، وعلى التشريعِ الإسلامي في الطلاق، لأنَّ الإسلامَ يطلبُ من الزوجِ

---

(١) انظر تفسير ابن كثير: ١/ ٢٥٥ـ٢٥٦؛ وتهذيب تفسير الطبري: ٢/ ٦ـ٨.
(٢) تفسير ابن كثير: ١/ ٢٥٦.

أنْ يطلِّقَ زوجتَه طلاقاً سُنِّياً، وهو أنْ يُطلّقها في طهرٍ لم يجامعْها فيه، وهذا هو أولُ القروء الثلاثة.

ونقدِّمُ هذا المعنى اللطيفَ للقرءِ عند ابن فارس في المقاييس:

قال ابنُ فارس: «يقال: أَقْرَأَتِ المرأة. إذا كانتْ في حالِ طهرها. كأنَّها جمعَتْ دَمَها في جوفها، فلم تُرْخِه!

ويقولُ أُنـاسٌ آخرون: إنما إقراؤُها خروجُها من طهرٍ إلى حيض، ومن حيضٍ إلى طهر»[1].

ونختمُ كلامَنـا عن الاشتراكِ في القرء بين الحيضِ والطهر بهذا التحقيقِ اللغويّ الفريدِ للإمام الراغب الأصفهاني:

«قَرَأَت المرأة: رأت الدم. وأَقْرَأَتْ: صارَتْ ذاتَ قُرء..

والقُرْءُ في الحقيقة: اسمٌ للدخولِ في الحيض عن طُهر! ولما كانَ اسماً جامعاً للأمرين: الطهرِ، والحيضِ المتعقِّبِ له، أُطلِقَ على كلِّ واحدٍ منهما، لأنَّ كلَّ اسمٍ موضوعٍ لمعنييْن معاً يُطلَقُ على كلِّ واحدٍ منهما إذا انفرد!

وليس القرءُ اسماً للطهرِ مجرَّداً، ولا للحيضِ مجرّداً!! بدليل أنَّ الطاهرَ التي لم ترَ أَثَرَ الدَّمِ لا يُقالُ لها: ذاتُ قُرْءٍ. وكذلك الحائضُ التي استمرَّ بها الدم، والنفساء، لا يقال لها: ذاتُ قُرْء!

فمعنى قوله: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ ثلاثةُ دُخولٍ من الطهرِ في الحيضِ!!»[2].

٥ ـ الاختلاف بسبب احتمال الإطلاق والتقييد:

قد يَرِدُ لفظٌ في القرآن مطلقاً في سورة، ويَرِدُ مقيَّداً في سورةٍ أُخرى، وهو

---

(١) مقاييس اللغة لابن فارس، ص٨٨٤.

(٢) المفردات للراغب، ص٦٦٨.

في حالةِ التقييدِ يُفهمُ على ما فيه من القيد، وهذا بإجماعِ المفسّرين، لكنّ الخلاف بينهم في الحالة الثانية التي وَردَ فيها مطلقاً، فهل يبقى على إطلاقِه، أم يُحمَلُ على التقييدِ الواردِ في السورةِ الأُخرى؟

تحدَّثَ القرآنُ عن الكفّارات، وجعل من بعضِ الكفّارات عتق رقبة. وهذه الرقبةُ مطلقةٌ في موضع، ومقيّدةٌ في موضعٍ آخر.

جعلَ اللهُ الخصلةَ الأُولى من خصالِ كفارة الظهار عتقَ رقبة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّاۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦۚ﴾ [المجادلة: ٣].

والرقبةُ في هذه الآية مطلقة، لم توصَفْ بأيِّ وصف، ليكونَ قيداً لها.

وجعلَ اللهُ كفّارةَ القتلِ الخطأ عتقَ رقبةٍ مؤمنة، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔاۚ وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْۚ﴾ [النساء: ٩٢].

فالرقبةُ هنا مقيّدةٌ بالإيمان: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

ولا خلاف بين المفسرين في أنَّ الرقبةَ المعتقةَ في كفارةِ القتل لابدَّ أنْ تكون مؤمنةً، لأنَّ الآية صريحةٌ بذلك، فلو أعتقَ القاتلُ عبداً كافراً لم يجز!

واختلافُهم كان في عتق الرقبة في كفارة الظهار، فهل يُشترَطُ فيها أنْ تكونَ مؤمنةً؟ أم يجوزُ أنْ تكونَ الرقبةُ كافرة؟

١ ـ ذهبَ الشافعيُّ ومَنْ معه إلى أنه لا بدَّ أنْ تكونَ الرقبةُ في كفارة الظهار مؤمنة، ولا يجوزُ للمظاهرِ أنْ يعتقَ رقبةً كافرة. ودليله على هذا: حملُ المطلقِ في كفارةِ الظهار: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ على المقيدِ في كفارة القتل: ﴿فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ﴾.

وحجّةُ الشافعيِّ في هذا اتّحادُ الكفارتيْن في الحكم الواجب، وهو عتقُ الرقبة، وبما أنَّ الحكمَ فيهما واحد، فلابدَّ من حملِ المطلقِ على المقيّد.

٢ ـ وذهبَ أبو حنيفة ومَنْ معه إلى أنه لا يشترطُ الإيمانُ في الرقبةِ المعتقة في كفارةِ الظهار، ويجوز للمظاهر أنْ يعتقَ رقبة كافرة[1].

وهو لم يحمل الإطلاقَ في الرقبةِ هنا على التقييدِ في كفارة القتل، لاختلاف السبب في الحالتين: الظهار، والقتل. ولذلك يبقى الإطلاقُ في كفارةِ الظهار على إطلاقه، ويبقى التقييدُ في كفارةِ القتلِ على تقييده!!

ولعلَّ من حكمةِ تقييدِ الرقبةِ بالإيمان في كفارةِ القتلِ الخطأ، أنَّ القتيل مؤمن، ومعناه أنَّ المؤمنين نقصوا واحداً، والعبدُ المؤمنُ لا يملكُ حريةَ التصرف والقتال، لأنَّه ملْكٌ لسيده، فلا بدَّ أنْ يُعتَقَ هذا العبدُ المؤمنُ، ليكون حرّاً، ويقفَ مكان ذلك المؤمن القتيل.

وهذا المعنى غيرُ مرادٍ في كفارة الظهار، فلذلك لم تُقيّد الرقبة بالإيمان فيها! والله أعلم!

٦ ـ الاختلاف بسبب احتمال العموم والخصوص:

بعضُ ألفاظِ القرآن عامة، وبعضها خصص، وبعضُها بقيَ على عمومه، وكلامُنا عن تخصيص العام سيكون فيما بعد إن شاء الله.

لكن كلامَنا هنا عن العامِّ في ظاهره، هل يُرادُ به العموم أم يرادُ به الخصوص؟ كان هذا سبباً من أسبابِ اختلاف المفسرين.

ومن صيغِ العموم في القرآن اللفظُ المعرَّف بأل التعريف، مثل: الإنسان، الناس، المؤمنون، الكافرون.

وبعضُ ألفاظِ العامِّ في القرآن باقٍ على عمومه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ ٱلنَّاسَ شَيۡـًٔا﴾ [يونس: ٤٤]، فهذا يشملُ الناس جميعاً، ومعلومٌ أنَّ اللهَ لا يظلمُ أحداً، لقوله تعالى أيضاً: ﴿وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير: ٤/ ٣٢٢.

وبعضُ ألفـاظِ العامِّ يُـرادُ بها الخاص، ولا تبقى علـى عمومها. كمـا في قوله تعالى: ﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ ﴾ [آل عمران: ٣٩].

فلفظُ «الملائكة» عامّ، لكنّه يرادُ به الخصوص، فالذي نادى زكريا عليه السلام هو جبريل عليه السلام.

وهناكَ لفظٌ عامٌّ في القرآن، اختلفَ فيه المفسّرون: هل بقيَ على عمومه، أم يُرادُ به الخصوص؟ وإذا كان يُرادُ به الخصوص فما المرادُ به؟

قال تعالى عن اليهود: ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ﴾ [النساء: ٥٤].

«الناس» في الآيةِ من صيغِ العموم، لأنها لفظٌ معرَّفٌ بأل التعريف.

قال المفسّرون: «الناس» في الآية لفظٌ لم يبقَ على عمومه، وإنما يُرادُ به الخصوص، واختلفوا في الخاصِّ المراد به:

١ ـ قال عكرمة مولى ابن عباس: المرادُ بالناسِ محمدٌ ﷺ.

والمعنى: اليهود حسدوا محمداً ﷺ على ما آتاهُ اللهُ من فضله، وهو النبوّة.

ولهذا التخصيص لطيفة: إنَّ محمداً ﷺ هو أفضلُ وأكرمُ وأشرفُ الناس، ولذلك وردتْ كلمة «النـاس» في الآية والمرادُ بها شـخصُه الكريمُ ﷺ!! وكأنَّ الإنسانيةَ كلَّها تمثّلتْ فيه، فكان هو صفوتَها وخلاصتَها، ﷺ!!

٢ ـ وقال قتادة: المرادُ بالناس في الآية هذا الحيُّ من العرب، الذين أسلموا واتَّبعوا النبيَّ ﷺ.

والمعنى: حسدَ اليهودُ الأمةَ المسلمة لأنَّ اللهَ بعثَ فيها الرسولَ الخاتمَ ﷺ، وآتاها الرسالة العظيمة[١].

---

(١) انظر تهذيب تفسير الطبري: ٢/ ٦٣٤.

٧ـ الاختلاف بسبب احتمال الحقيقة والمجاز:

قسَّمَ بعضُ الأدباءِ والعلماءِ الكلام إلى قسمين:

الحقيقةُ: وهو اللفظُ المستخدَمُ فيما وُضِع له.

والمجاز: وهو اللفظُ المستخدَمُ في غيرِ ما وُضِعَ له، مع قرينةٍ تدلُّ على ذلك.

وقد اختلفَ العلماءُ في القولِ بالمجاز واعتمادِ هذا التقسيم، فقالَ به جمهورُ الأدباءِ والعلماءِ والمفسِّرين والمحدِّثين. ومَنَعَهُ ورفضَهُ بعضُ العلماء والمفسرين، وعلى رأسهم الإمام ابنُ تيمية، وتلميذه ابن القيم.

ومن أسبابِ اختلافِ المفسرين الاختلافُ في القولِ بالمجاز. فالذين قالوا به حَملوا الآيةَ على المجاز، والذين رفضوه حَملوا اللفظ على الحقيقة.

ومن أوضحِ الأمثلةِ على اختلافِهم في هذا قوله تعالى عن رحلةِ موسى والخضر عليهما السلام: ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ﴾ [الكهف: ٧٧].

لقد نسبت الآيةُ إلى الجدارِ إرادةَ الانقضاضِ والسقوط، والجدارُ جماد، والإرادةُ شعورٌ يصدرُ عن الحيِّ!

فقال بعضُ المفسّرين: نسبةُ الإرادةِ إلى الجدارِ من بابِ المجاز، والمعنى: وجدا جداراً على وشك السقوط.

وقال آخرون: لا مجازَ في الآية، وللجدارِ إرادةٌ تليقُ به باعتباره جماداً، وهي بمعنى الميل، فميلُ الحيِّ ميلٌ مع شعور، وميلُ الجمادِ ميلٌ لا شعورَ فيه.

وتبنّى القول الثاني الإمامُ ابنُ تيمية والإمامُ ابنُ القيم ومَنْ ذهبَ مذهبهما. وتبنّى القولَ الأولَ عامةُ المفسرين كالرازي والزمخشري والبيضاوي والنسفي وغيرهم.

وكلامُ الإمامِ الطبري في تفسيرِ نسبةِ الإرادةِ إلى الجدار لطيف، نأخذُ خلاصتَه من تهذيبنا لتفسيره.

«اختلفَ أهلُ العلم في معنى نسبةِ الإرادةِ إلى الجدار في الآية:

١ ـ فقال بعضُهم: ليس للجدارِ إرادة، ولكن إرادتَه هي الحالُ التي هو عليها من قُرْبِ السقوط.

ومن هذا البابِ قولُ الشاعر:

يُريدُ الرُّمْحُ صَدْرَ أبي بَراءٍ   وَيَرْغَبُ عَنْ دِماءِ بني عَقيلِ

والرمحُ ليس له إرادةٌ ولا عدول، وإنما المرادُ أثره.

٢ ـ وقال آخرون: كلَّمَ القرآنُ العربَ بما يعرفون ويعقلون. فإذا أوشكَ الجدارُ أنْ ينقضَّ، جازَ أنْ يُقال: يريدُ أنْ ينقضَّ.

ومثله قوله تعالى: ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ﴾ [مريم: ٩٠]، والسماواتُ ليس لها رغبةٌ في الانفطار، ولكنَّ التعبيرَ يدلُّ على أنَّ الأمرَ عظيم.

وهذا كقولك: إنّي لأكادُ أطيرُ من الفرح. وأنتَ لم تقربْ من الطيران، ولم تهمَّ به، ولكنك تريدُ الإشارةَ إلى أنَّ الأمرَ عظيم.

ومن هذا البابِ قول الشاعر:

شَكا إلَيَّ جَمَلي طُولَ السُّرىٰ   صَبْراً جميلاً فكِلانا مُبْتَلىٰ

والجملُ لم يتكلّمْ مع صاحبه ولم يشكُ إليه، ولكنه لو تكلّمَ لقال هذا.

وبهذا ورد قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ﴾ [الأعراف: ١٥٤]، والغضب لا يسكت ولكنه يسكن.

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١]، والأمرُ لا يعزم، وإنما يعزمُ أهله.

فإرادةُ الجدارِ في قوله: ﴿جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾، ميلُه.

والمعنى: وجدا جداراً قد قاربَ مِنْ أنْ يقعَ أو يسقط.

وقد خاطبَ اللهُ بالقرآن مَنْ أنزلَ الوحيَ بلسانهم. وقد عقلَ العربُ ما عنى الله بـه، وإنْ ضلَّ فيه بعد ذلك ذوو الجهالـة والغباء، واسـتعجمَ عن فهمه ذوو البلادة والعمى»(١).

والملاحَظُ أنَّ الإمامَ الطبريَّ في تفسير إرادةِ الجدار لم يقلْ بالمجاز، كما أنه لم ينفِ المجاز، فهو لم يبحثْ هذا الأمرَ أساساً، ولـم يَخُضْ فيه نفياً أو إثباتاً، وإنما فهم الآيـةَ على أساسِ طريقةِ القرآنِ في التعبير، واعتبرَ هذا أسـلوباً قرآنياً مطرداً، استشهدَ عليه ببعضِ الآيات الأخرى.

فإرادةُ الجدار ميلُه، والجدارُ كان قد قاربَ السقوط، والعربُ فهموا من الآيةِ هذا الفهم، لأنَّ هذا الأسلوب موجودٌ في لغتهم.

ومَنْ شاء أنْ يسمي هذا حقيقةً وليس مجازاً فله ذلك، ومَنْ شاء أن يسميه مجازاً فله ذلك، المهمُّ هو أنْ يقفَ على طريقـةِ القرآن في التعبير، وأنْ يعرفَ الحكمةَ من نسبةِ الإرادة إلى الجدار، ومعنى ذلك!!

وياليتَ مَنْ أتعبوا الناسَ في الحقيقةِ والمجاز، نفياً وإثباتاً يعودون إلى منهج الطبري في فهمِ الآياتِ التي خاضوا فيها!!

٨ ـ الاختلافُ بسبب احتمال الإضمار أو الاستقلال:

من أسبابِ اختلافِ المفسرين اختلافُهم في معنى الآية، هل تؤخَذُ على ظاهرِها وصياغتِها، أم لابدَّ من تقديرِ كلمةٍ مقدَّرة مضمرة؟

الاستقلالُ يعني فهمَها كما هي بدون تقديرٍ لكلماتٍ مقدَّرة. والإضمارُ يعني أنْ تُقَدَّرَ كلمةٌ مضمرةٌ مقدَّرةٌ، لحُسنِ فهم الآية.

من الأمثلةِ على ذلك قوله تعالى عن المنافقين: ﴿ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا

(١) تهذيب تفسير الطبري: ٥/ ١٩٠ ـ ١٩١.

﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ٩].

تنسب الآيةُ للمنافقين مُخادعتَهم للهِ وللمؤمنين. أمَّا مخادعتُهم للمؤمنين فهذه لا إشكالَ فيها. والإشكالُ في مخادعتهم لله.

اختلفَ المفسرون في تفسيرِ قوله: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ﴾:

١ ـ فمنهم مَنْ فهمَها على «الاستقلال». أي: أخذها على ظاهرِها. وقال: المنافقون خادَعوا الله، واللهُ خادَعَهم.

٢ ـ ومنهم مَنْ فهمَها على «الإضمار». أي: تقديرِ كلمةٍ مضمرةٍ. قالوا: التقدير: يخادعون رسول الله والذين آمنوا، والذي دفَعهم إلى تقديرِ كلمةِ «رسول» لتصحَّ مخادعةُ المنافقين له، باعتباره بشراً يمكنُ أنْ يُخادَعَ، أمَّا اللهُ فإنه لا يُخادَع!

فسَّرَ الإمامُ الزمخشريُّ في الكشاف مخادعةَ المنافقين لله ورسوله والمؤمنين، ومخادعةَ اللهِ ورسولِه والمؤمنين لهم. وذكَرَ وجوهاً في تأويلِ ذلك وتوجيهِه. وسنقرِّبُ عباراتِه للقرّاء.

١ ـ التعبيرُ في الآية: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ من باب المشاكلة. والمشاكلةُ هي الاتفاقُ في اللفظ والاختلافُ في المعنى. فالمنافقون كانوا خادِعين لله ورسوله والمؤمنين، لأنهم تظاهروا بالإيمان والإسلام، مع أنهم كافرون في الحقيقة، وهذا هو الخداعُ بعينه.

وخادَعَهم اللهُ من بابِ المشاكلة، حيث أمرَ بإجراءِ أحكامِ الإسلام عليهم في الظاهر، مع أنهم عنده سبحانه من شرارِ الكفار، وفي الدَّرْكِ الأسفلِ من النار.

وخادَعَهم المؤمنون بأنْ نفَّذوا أمْرَ اللهِ فيهم، وأجروا عليهم أحكامَ الإسلام في الظاهر، مع علمهم أنهم كافرون في الحقيقة. وهذا التوجيهُ من الزمخشريِّ مقبولٌ وجيّد.

وهذا معناه أنَّ مخادعةَ المنافقين لله ورسوله والمؤمنين مذمومة، لأنها تقومُ على اللؤمِ والكيدِ والمكر والخبث. أما مخادعةُ الله لهم فإنها محمودةٌ،

لأنها تقوم على إملاءِ اللهِ لهم، وفضحهِم وكشفِهم أمامَ المؤمنين، لئلاّ يُخدعوا بهم.

٢ ـ جاءَ التعبيرُ في الآيةِ وفقَ ظنِّ المنافقين، حيث ظنوا أنَّ اللهَ يمكنُ أنْ يُخْدَع، وأنْ يُدلَّسَ عليه، وأنْ تخفى عليه بعضُ الأمور:

وتعبيرُ الزمخشري في توجيه هذا الوجه عليه تحفُّظ، لأنّه أدخلَ فيه بعضَ اعتزالياتِه!

٣ ـ في الجملةِ: «يخادعون الله» إضمارٌ. والتقدير: يخادعون رسولَ الله. فَذُكِرَ اللهُ تعالى والمرادُ رسولُ اللهِ ﷺ. لأنَّه رسولُه، والناطقُ بأوامره ونواهيه، والمبلّغُ لشرعه.

فقد يقول قائل: قال الملِكُ كذا، وأمَرَ الملِكُ بكذا، والقائلُ أو الآمرُ وزيرُه، فالتقدير: قالَ وزيرُ الملك كذا، وأمرَ وزيرُ الملكِ بكذا!

٤ ـ المرادُ من قوله: ﴿يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ يخادعون الذين آمنوا فقط. وذِكْرُ كلمة «الله» في الآية: من بابِ تكريم المؤمنين وتشريفهم، والإشارةِ إلى قوةِ صلتهم بالله. فالمعنى: يخادعون الذين آمنوا بالله[(١)].

والتوجيهُ الرابعُ للزمخشري لنا تحفُّظٌ عليه. والتوجيهُ الثاني ممكنٌ مع أنه بعيد.

فالراجحُ عندنا هو التوجيهُ الأول، وهو حملُ الآيةِ على الاستقلالِ وعلى الظاهر، وجاء التعبيرُ فيها من بابِ المشاكلة، فمخادعتُهم لله والمؤمنين مذمومةٌ باطلة، ومخادعةُ اللهِ لهم محمودةٌ، لأنها تقومُ على استدراجهم وإملائهم، وقَبولِ ما أظهروه في الظاهر، ومعاملتُهم على أساسِ ما في قلوبهم من الكفرِ يومَ القيامة.

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ١٤٢].

---

(١) الكشاف للزمخشري: ١/ ٥٧ ـ ٥٨.

والشـاهدُ في كلامِ الزمخشـري هو التوجيـهُ الثالث، حيث جعـلَ بعضُ المفسـرين التعبيرَ في الآيةِ من بابِ الإضمار. أي يخادعون رسـولَ الله والذين آمنوا.

وعندما فسَّرَ الإمامُ الطبريُّ المخادعةَ في الآية: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ اعتبرَها من باب المشاكلة.

ويهمُّنا من تفسيرِه لها هذه الفقرة: «أثبتت الآيةُ مخادعةً بين طرفيْن. فمن هو الطرفُ الثاني الذي خادَعَ المنافقَ؟ ومَن هو الذي خادَعَه المنافقُ؟

قـال بعضُ العلماء: إنَّ «خادَعَ» هنا بمعنى «خَدَعَ». وهو كقولـك لآخر: قاتَلَكَ الله، بمعنى: قتَلَكَ الله. فلا مفاعلةَ هنا في الخداع!

والراجحُ أنَّ المفاعلـةَ هنا موجودةٌ، وأنها مخادعـة كما صرّحت الآية. فالمنافقُ يخادعُ اللهَ سبحانه، لأنه يكذب في دعواه الإيمان باللسان، وإن اللهَ سبحانه يخادعُ المنافق، حيثُ خَذَلَهُ عن حُسْنِ النظرِ فيما فيه نجاةُ نفسه في الدنيا والآخرة.

وقد أشارَ القرآنُ إلى سخريةِ اللهِ بالمنافقين يوم القيامة. قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣][(١)].

٩ ـ الاختلاف بسبب احتمال زيادة الكلمة:

اختلفَ المفسّـرون والنحويون في موضوعِ الزيـادةِ في القرآن. فذهـبَ بعضُهم إلى أنَّ بعضَ الحروفِ والأسماءِ زائدةٌ في التعبيرِ القرآني، وهي عندهم زائدةٌ من حيثُ الإعراب، وليس من حيثُ المعنى، وممن قال بذلك أبو عبيدة معمرُ بن المثنّى، وابنُ قتيبة، وتابَعَهما على ذلك كثيرٌ من المفسّرين والنحويين والبلاغيين.

---

(١) تهذيب تفسير الطبري: ١/ ١١٨.

ورفضَ بعضُهم القولَ بالزيادة، واعتبروا ورودَ الكلمةِ على ما وردَتْ عليه في الجملةِ القرآنية لحكمةٍ معنويةٍ وأسلوبية، وهذا وفقَ أساليبِ البيانِ والتعبيرِ في القرآن، وهو مظهرٌ من مظاهرِ إعجازِ القرآن.

وممن رفضَ القولَ بالزيادة الإمام الطبريُّ والزمخشريُّ وابنُ كثير وغيرهم.

وناقشت الدكتورةُ عائشةُ عبد الرحمن ـ بنت الشاطئ ـ رحمها الله موضوعَ الزيادةِ مناقشةً بيانيةً في كتابها «الإعجاز البياني». وخصصَ لها الدكتورُ فضل عباس كتاباً خاصاً، هو «لطائف المنان».

ونحنُ مع الفريقِ الثاني من المفسرين والبلاغيين الذين ينفون وقوعَ الزيادةِ في القرآن، ونعتبرُ أنّ كلَّ كلمةٍ في القرآنِ جيءَ بها لحكمة، ولها وظيفةٌ محدّدة، ومعنى مقصود، ووفقَ طريقةِ القرآنِ المعجزة في التعبير. ونحنُ قد نقفُ على ذلك ونعرفه، وقد نجهلُه ويخفى علينا وجهُه، وإذا ما خفيَ علينا ذلك فلنتهمْ عقولَنا بالعجزِ عن إدراكِه بدلَ أن نتّهمَ القرآنَ المعجزَ أنّ فيه زيادة!!

ومن الأمثلةِ على الاختلافِ في احتمالِ الزيادة وعدمِها قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ۝١ وَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلنَّفۡسِ ٱللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ١ ـ ٢].

ذكر الإمامُ ابنُ جرير الطبري اختلافَ المفسرين في تفسيرِ الآية، قال:

«اختلفَ أهلُ التأويلِ في معنى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

١ ـ فقالَ بعضهم: «لا» صلةٌ. أي زائدة. والمعنى: أقسمُ بيوم القيامة.

قال سعيد بن جبير: «لاأقسم بيوم القيامة». أي: أقسمُ بيوم القيامة.

٢ ـ وقال آخرون: «لا»: جيءَ بها لتوكيدِ القَسَم. كقولك: لا. والله.

٣ ـ وقال آخرون: «لا»: ردٌّ لكلامِ المشركين المنكرين للبعث في السورة السابقة. وبعدَها كلامٌ مستأنفٌ جديد، قرّرَ اللهُ فيه أنه يقسمُ بيومِ القيامة.

والمعنى: لا. ليس الأمرُ كما زعمه المشركون، من أنّه لا بعث. أُقسِمُ بيومِ القيامة على أنَّ البعثَ واقعٌ.

وقال أصحابُ القول الثالث: كلُّ يمينٍ قبلَها ردٌّ لكلامٍ، فلابدَّ من ذكْرِ «لا» قبل اليمين ليفرّق بين يمين الإنكار واليمين المستأنفة.

إنك عندما تبتدىءُ الكلامَ تقول: والله، إن الرسولَ حقّ. ولكنّك إذا كذَّبتَ قوماً أنكروا الرسالة قلت: لا. والله إن الرسول حق.

وعلى هذا القولِ الثالثِ يكون الله قد أقسمَ بيوم القيامة، وأقسمَ بالنفسِ اللوّامة.

ولهذا قالَ ابنُ عباس: «هذا قَسَمٌ من الله بيوم القيامة، وبالنفس اللوّامة، والله ُيقسم بما شاءَ من خلقه».

وقال قتادة: «أقسمَ الله ُبيوم القيامة، وأقسمَ بالنفس اللوّامة».

وبعد ما أوردَ الإمامُ الطبريُّ اختلافَ المفسّرين بالقسَمِ ومعنى «لا» رجَّحَ القولَ الثالث: «والراجحُ القول: «لا»: ردٌّ لكلامٍ سابق، وإبطالٌ لكلام المشركين، وبعدها يمينٌ مستأْنَف، أقسمَ الله ُفيه بيوم القيامة والنفس اللوّامة.

والتقدير: لا. ليس الأمرُ كما زعمَ المشركون أنّه لا بعث، وأقسمَ الله ُعلى ذلك بيوم القيامة، كما أقسم عليه بالنفس اللوامة»[1].

ورأيُ الإمامِ الطبري في منعِ القولِ بالزيادةِ في القرآن رأيٌ لطيفٌ وجيه، نوافقُه عليه تمامَ الموافقة.

استمعْ إليه وهو يقول: «إنَّ كلَّ حرفٍ في القرآن له معنى محدّد، ولا يجوزُ أنْ نبطلَ دلالتَه، وأنْ نلغيَ معناه، وأنْ نعتبرَه زائداً.

إننا عندما نعتبر الحرفَ زائداً، مع أنَّ له معنى محدداً، نفتحُ البابَ أمامَ غيرِنا أنْ يدَّعيَ أنَّ جملةً كاملةً زائدة، وأنْ يلغيَ معناها، ويلغيَ آخرُ معنى جملةٍ أُخرى، وهكذا، وبهذا يبطلُ كلُّ معنى لكلِّ كلمةٍ أو جملةٍ في القرآن»[2].

---

(١) تهذيب تفسير الطبري: ٧/ ٤٦٤ ـ ٤٦٥.
(٢) المرجع السابق: ١/ ١٨١.

١٠ ـ الاختلاف بسبب احتمال التقديم والتأخير في المعنى :

احتمالُ التقديمِ والتأخيرِ سببٌ من أسـبابِ اختلافِ المفسّرين. وليـس المرادُ به التقديمَ والتأخيرَ في صياغةِ الجملة القرآنية، وترتيبِ كلماتِها، فهذا مما لا يناقشُ فيه مسلم، لأنه قد أجمعَ المسلمون على أنَّ كلَّ ما في المصحفِ من سورٍ وآياتٍ هو كلامُ الله، وأنَّ الآياتِ مرتّبةٌ في السورِ على ما هي عليه بأمر الله، وأنه لا يجوزُ التقديمُ أو التأخيرُ أو التغييرُ أو التبديلُ في ذلك، فمن فعلَ ذلك فقد كفر.

التقديمُ والتأخيرُ الذي اختلفَ فيه المفسرون هو في معنى الآية.

من الأمثلـةِ على ذلـك قولُـه تعالـى: ﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ ﴾ [آل عمران: ٥٥].

ظاهرُ الآيةِ فيه إشكالٌ، حيث عَطَفتْ رفعَ عيسى عليه السلام على تَوَفِّيه، وهذا معناه أنَّ اللهَ توفّى عيسى أولاً، ثم رفَعَهُ ثانياً. وإذا كان التوفّي هنا بمعنى الموت، فإنه يتناقضُ مع إيمانِ المسلمين بأنَّ عيسى عليه السلام لم يمُت، وأنَّ اللهَ رفعَه إليه في السماء، وأنّه سينزلُ قبيلَ قيامِ الساعة. فكيفَ أماته الله ورفعه إليه؟

اختلف المفسّرون في توجيه هذا.

١ ـ فمنهم من قال: في الآيةِ تقديمٌ وتأخيرٌ في المعنى. فالرفعُ مقدَّمٌ في الواقعِ على التوفّي، فقد رفعَهُ اللهُ إليه، وهو حيٌّ في السماءِ حياةً خاصة، وسوف ينزلُه اللهُ في آخرِ الزمان، ثم يتوفّاه بعد ذلك.

وتقديرُ معنى الآية عندهم: إني رافعُكَ إليَّ، ومتوفّيك.

٢ ـ ومنهم مَن قـال: ليس في معنى الآيـةِ تقديمٌ وتأخيـر، وتؤخَذُ على ظاهرِها. فاللهُ توفّى عيسى عليه السلام، ثم رفعه بعد ذلك.

والتوفّي عند هؤلاء ليس بمعنى الموت، لأنَّ عيسى حيٌّ في السماء، وإنما

التوفّي بمعنى القبضِ والنوم. فاللهُ ألقى النومَ على عيسى، ثم رَفَعَهُ وهو نائم!

ومعنى الآية: إني مُنيمُك، ورافعُكَ إليّ وأنتَ نائمٌ.

والراجحُ هو القول الثاني، فاللهُ ألقى على عيسى عليه السلام النومَ، والتوفّي في الآية بمعنى النوم، ورفعَهُ اللهُ إليه وهو نائمٌ. فليس في الآية تقديم، وإنما تُفهَمُ على ظاهرِها.

قالَ الإمامُ ابنُ كثير في تفسير الآية:

«اختلف المفسّرون في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾:

١ ـ فقالَ ابنُ عباس وقتادة: معنى «متوفيك»: مميتُك. وهذا من المقدَّمِ والمؤخَّر. والتقديرُ: إنّي رافعُكَ إليّ ومتوفّيك.

٢ ـ وقالَ وهب بن مُنَبِّه: توفّى اللهُ عيسى عليه السلام، وأماتَه ثلاثةَ أيام، ثم بعثَه من الموت، ثم رفعه بعد ذلك!

وكلامُ وهب بن منبّه مردودٌ باطل، وهو يتّفقُ مع ما يقولُه النصارى عنه، فهم يزعمون أنّ اللهَ أماته ثلاثةَ أيامٍ، ثم أحياه، ثم رفعه إليه!

٣ ـ وقال مطرُ الوراق: التوفّي هنا بمعنى القبضِ من الدنيا. والمعنى: إني متوفّيك من الدنيا، قابضُكَ منها ومغيّبُك عنها. وهي ليستْ وفاةَ موت.

ورجَّحَ ابنُ جرير الطبري هذا القول. فالتوفّي عنده بمعنى القبض وليس الموت، وليس في الآية تقديم.

٤ ـ وقال الأكثرون من المفسّرين: المرادُ بالوفاةِ هنا النوم.

قال الحسن البصري: «إني متوفيك»: وفاةَ المنام. فاللهُ رفعه وهو نائم.

وقد رجَّحَ ابن كثير القولَ الرابع، واعتبرَ الوفاةَ بمعنى النوم، فاللهُ رفعَ عيسى عليه السلام وهو نائمٌ. واستدلَّ على هذا بآياتِ القرآن.

قال: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٦٠].

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [الزمر: ٤٢][1].

والراجحُ ما رجَّحه الإمام ابن كثير، والله أعلم.

١١ ـ الاختلافُ بسبب احتمال النسخ أو الإحكام:

اختلفَ المفسّرون في القولِ بالنسخِ، فقليلٌ منهم أنكروا وقوعَ النسخِ في القرآن، ومنهم مَنْ بالغَ في القولِ بالنسخِ، واعتبر ما كان من بابِ التخصيص من باب النسخ، ومنهم مَنْ كان مقتصداً وَسَطاً، فلم يَنْفِ النسخَ ولم يُبالِغْ فيه، والآياتُ المنسوخة عنده قليلة.

ومن الأمثلةِ على اختلافِهم في النسخ، اختلافُهم في قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

يأمرُ اللهُ المؤمنينَ في هذه الآيةِ أنْ يتّقوه حقَّ تقاته.

وقد اختلفَ المفسِّرون في معنى «حق تقاته»، وبناءً على ذلك اختلفَ قولُهم بالنسخ!

١ ـ قال بعضُ المفسرين: معنى «حقَّ تقاته»: اتقوا الله اتقاءً حقاً ثابتاً واجباً، ولا تُقصِّروا في هذه التقوى.

والآيةُ عند هؤلاء ـ وعلى هذا المعنى والتفسير ـ محكمةٌ ليست منسوخة، لأنَّ كلَّ مؤمنٍ يمكنُه أنْ يحققَ التقوى بهذا المعنى.

٢ ـ وقال آخرون من المفسرين: معنى «حقَّ تقاته»: اتقوا الله تقوى تليقُ بجلالتِه وعظمتِه وقَدْرِه، وما يجبُ له سبحانه من توقيرٍ وتعظيمٍ وإجلال!

والآيةُ عند هؤلاء منسوخة، لأنها تكليفٌ بما لا يُطاق، فتقوى اللهِ بهذا المعنى مستحيلةٌ وغيرُ ممكنة.

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٣٤٦.

والناسخُ لهذه الآية عند الفريق الثاني، هو قوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ وَٱسْمَعُواْ وَأَطِيعُواْ وَأَنفِقُواْ خَيْرًا لِّأَنفُسِكُمْ ﴾ [التغابن: ١٦].

١ ـ ممن ذهب إلى أنَّ الآيةَ محكمة:

عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه. قال: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾: أي: أنْ يُطاعَ اللهُ فلا يُعصى، وأنْ يُذكَرَ فلا يُنسى، وأنْ يُشكَرَ فلا يُكفَر.

وأنسُ بن مالك رضي الله عنه، قال: لا يتقي العبدُ حقَّ التقوى حتى يخزنَ لسانه.

وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: قوله تعالى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ لم ينسخ. و«حق تقاته» أنْ يجاهدَ المسلمون في سبيل الله حقَّ جهاده، ولا تأخذَهم في اللهِ لومةُ لائم، ويقوموا بالقسط، ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم.

وممن ذهبَ إلى أنَّ الآيةَ محكمةٌ أيضاً: الربيع بن خيثم، وعمرو بن ميمون، وإبراهيم النخعي، وطاووس، والحسن البصري، وقتادة، والسدي، وغيرهم.

٢ ـ وممن ذهبَ إلى أنَّ قوله: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ ناسخٌ لقوله: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾:

سعيد بن جبير. قال: لما نزلَ قولُه تعالى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ اشتدَّ العملُ على المسلمين، فقاموا حتى ورمَتْ عراقيبُهم، وتقرَّحتْ جباهُهم، فأنزلَ اللهُ قولَه تعالى: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ تخفيفاً على المسلمين، فنسخت الآية الأولى.

وزيدُ بن أسلم. قال: إنَّ آيةَ سورة التغابن ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ ناسخةٌ لآية سورة آل عمران: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾.

وممن قالَ بالنسخِ: أبو العالية ـ رفيع بن مهران ـ والربيع بن أنس، ومقاتل ابن حيان[١].

---

(١) انظر تفسير ابن كثير: ١/ ٣٦٦ و٤/ ٣٧٧.

والراجحُ أنَّ الآيةَ محكمة، وأنه لا داعي للقولِ بالنسخ، ولا تعارضَ بين آيةِ سورة آل عمران وآية سورة التغابن.

إنَّ معنى: ﴿ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾: اتقوا الله تقوى صادقة حقة، ولا تقصروا فيها.

وتكونُ آيةُ سورة التغابن ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ ﴾ بياناً للتقوى المطلوبة في آية سورة آل عمران، والبيانُ ليس نسخاً!.

١٢ ـ الاختلاف بسبب الروايات المنقولة:

من أسبابِ اختلافِ المفسرين اختلافُهم في الرواياتِ المنقولة عن رسول الله ﷺ وأصحابه.

قال الإمامُ ابنُ تيمية حولَ هذا السبب:

المنقولُ قد يكونُ عن المعصومِ رسول الله ﷺ، وقد يكونُ عن غيره.

والمنقولُ عن غيرِ رسول الله ﷺ معظمُه مما لا يمكنُ معرفةُ الصحيح منه، وعامةُ هذا النوعِ مما لا فائدةَ فيه، والكلامُ فيه من فضول الكلام.

ومثال هذا: اختلافُ المفسرين في لونِ كلبِ أصحابِ الكهف، وفي تحديدِ البعض من البقرة الذي ضُربَ به القتيلُ زمنَ موسى عليه السلام، وفي حجمِ ومساحةِ سفينةِ نوحٍ عليه السلام، وفي اسمِ الغلامِ الذي قتله الخضرُ عليه السلام. ونحو ذلك.

فهذا لا يجوزُ تصديقُه ولا تكذيبُه إلا بحجّة.

.. ومتى اختلفَ التابعون لم يكن بعضُ أقوالِهم حجةً على بعض. وما نُقِلَ في ذلك عن الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفسُ إليه أسكنُ مما نُقِلَ عن بعض التابعين!

والمنقولُ عن رسول الله ﷺ فهذا يمكنُ معرفةُ الصحيح منه، وما نحتاجُ

إليه منه موجود، ويمكن تخريجُه، في التفسير والحديث والمغازي والأحكام وغير ذلك[1].

ومن الأمثلةِ على هذا الاختلاف في الفريقيْن الخصميْن المقصوديْن في قوله تعالى: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾ [الحج: ١٩].

١ ـ فقالَ بعضُ المفسرين: أحدُ الفريقين المؤمنون، والآخرون كفارُ قريش، واختصامُ الفريقيْن اقتتالُهم في معركة بدر.

قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه: أُقسمُ أنَّ هذه الآيةَ نزلتْ في حمزةَ وصاحبيه ـ علي وعبيدة بن الحارث ـ وعتبة وصاحبيه ـ شيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة ـ يوم تبارزوا يوم بدر، فقتل المؤمنون الكفارَ في المبارزة.

وقالَ عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: أنا أولُ مَنْ يجثو بين يدي الرحمن للخصومة يوم القيامة.

وقالَ قيسُ بن عباد الراوي عن علي: وفيهم نزل قوله: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾.

٢ ـ وقال آخرون: أحدُ الفريقيْن المؤمنون، والآخرون أهل الكتاب.

قالَ ابنُ عباس وقتادة: اختصم المسلمون وأهل الكتاب، حيث قال أهل الكتاب للمسلمين: نبيُّنا قبلَ نبيّكم، وكتابنا قبل كتابكم، فنحنُ أولى بالله منكم!

فقال لهم المسلمون: نحن أولى بالله منكم، آمنا بمحمد ﷺ، وآمنا بنبيّكم، وآمنا بكلِّ ما أنزل اللهُ من كتاب، ونبيُّنا خاتمُ الأنبياء، فأنتم تعرفون كتابنا ونبيّنا، ثم تركتموه وكفرتم به حسداً.

فأنزلَ اللهُ الآية: ﴿ ۞ هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ﴾.

٣ ـ وقال آخرون: هم المؤمنون والكفار من أية ملة كانوا.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص٥٥ ـ ٥٨. باختصار.

قال مجاهد وعطاء: هم المؤمنون والكافرون اختصموا في ربهم.

٤ ـ وقال آخرون: المرادُ بالفريقَيْن الجنة والنار حين اختصمتا.

قال عكرمة: هما الجنةُ والنار اختصمتا. فقالت النار: خلقني الله لعقوبته، وقالت الجنة: خلقني الله لرحمته.

وقد رجحَ ابنُ جرير الطبري القولَ الثالث الذي قالَه مجاهد وعطاء. فالقول بأن الآيةَ نازلةٌ في اختصام المؤمنين والكافرين أولى وأرجح، لأنه يشملُ الأقوالَ كلها.

هذا هو الراجحُ لأن الآياتِ السابقة تحدّثَتْ عن صنفين في الناس: مؤمنين ساجدين لله، وعُصاة كافرين، وهذه الآيةُ وما بعدَها تتحدّثُ عن مصيرِ كلٍّ من الصنفين يوم القيامة.

وعلى هذا القول، تنطبقُ الآيةُ على كفارِ قريش، وعلى أهل الكتاب. ولا مانعَ أنْ تكونَ الآيةُ نازلةً في مبارزةِ كفارٍ ومسلمين يوم بدر، كما أقسمَ على ذلك أبو ذر رضي الله عنه، لأنَّ الآيةَ قدْ تنزلُ لسببٍ من الأسباب، ثم تكونُ عامةً تشملُ كلَّ ما كان نظيراً له(١).

* * *

(١) تهذيب تفسير الطبري: ٥/ ٤١٧ـ٤١٨.

المبحث الخامس

أهم أخطاء المفسرين

بعدَ الحديثِ عن أنواعِ اختلافِ المفسرين، وأهمِّ أسبابِ ذلك الاختلاف، ننتقلُ للحديثِ عن أهمِّ الأخطاءِ التي وقعوا فيها.

ونقررُ بدايةً أنَّ وقوعَ المفسرين في الخطأ أمرٌ متوقَّعٌ وغيرُ مستغرَب، لأنه لا أحدَ معصومٌ عندنا إلاَّ رسولُ الله ﷺ، فاللهُ قد عصمَ رسولَه ﷺ من الخطأ والذنبِ والمعصية، ولذلك جاءت كلُّ أفعالِه وأقوالِه صحيحةً وصائبة!

وكلُّ إنسانٍ بعدَ الرسول ﷺ عرضةٌ للخطأ، لأنَّ اللهَ لم يعصمْه منه. ولذلك قد يخطىءُ مفسرٌ إمامٌ من أئمةِ المفسرين، وقد يخطىءُ تابعيٌّ من كبارِ التابعين، بل قد يخطىءُ صحابيٌّ من أصحابِ رسول الله ﷺ.

أصناف الأخطاء الثلاثة:

بعضُ الدارسين لا يحسنونَ تصنيفَ الأخطاء التي قد يقعُ بها المفسرون ولا يفرِّقون بينها، ويعتبرون الأخطاءَ كلَّها بدرجةٍ واحدةٍ، وأنَّ هذه الأخطاءَ دليلٌ على إبطالِ علمِ المفسرِ الذي صدرَتْ عنه، والطعنِ فيه وفي دينه وتقواه وعلمه.

إننا نعتقدُ أنَّ الأخطاءَ تصنفُ إلى ثلاثةِ أصناف:

الأول - الخطأُ في الهدفِ والقصدِ والباعث:

وهذا خطأ جذري، وهو أخطرُ الأخطاءِ وأشدُّها.

بعضُ الناسِ قد يُقبلُ على القرآنِ وينظرُ فيه، لحاجةٍ في نفسه، ولهدفٍ خبيثٍ يريدُ تحقيقَه، ولمقصدٍ غيرِ سليمٍ. فهذا سيحرِّف معاني الآيات، ويقوِّلُها

ما لم تقُل، وذلك لتشهدَ لما عنده من هوى وباطل وانحراف.

ومن الذين يقعون في هذا الخطأ الخبيث أصحابُ الأديان الأخرى، من اليهودِ والنصارى، وأصحابُ الأفكارِ والمبادئ الجاهلية الباطلة، كالشيوعية والوجودية، ومن هؤلاء: المستشرقون الذين يبحثون في القرآن وعلومِه وتفسيرِه.

فقد ينظرُ أحدُ هؤلاءِ في القرآن، ليس إيماناً به، لأنه غيرُ مسلم، ولا خدمةً له، لأنه لا يبتغي بعمله وجْهَ الله. إنما ينظرُ في القرآنِ ليخدمَ دينَه أو مذهبَه أو فكرتَه، ويُلَبِّسَ على المسلمين، ويقولَ لهم: قرآنُكم يشهد لنا في آياته، فنحنُ اليهودُ أو النصارى أو المستشرقون أو الشيوعيون على حقٍّ وصواب، بدليلِ قوله تعالى في القرآن كذا وكذا.

وقد ينظرُ في القرآن ليشوِّهَ أفكارَ المسلمين وعقائدَهم، ويحرِّفَ معاني الآيات ليوقعَ المسلمين في الحيرةِ والشك.

وقد حذّرنا اللهُ من هؤلاء أصحابِ الأهواء، الذين في قلوبهم زيغ، وذلك في قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٧].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ وأبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد عن عائشة رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ قال: «إذا رأيتم الذينَ يَتَّبعونَ ما تشابهَ منه، فأولئك الذين سمَّى الله، فاحذروهم»[(١)].

إنَّ أصحابَ الأهواء عندما ينظرون في القرآن، يكون نظرُهم باطلاً، وتكونُ النتائجُ التي يخرجونَ بها منه باطلة، لأنها تقومُ على تحريفِ معاني الآيات.

وسببُ ذلك هو الخطأُ الأساسيُّ الذي وقعوا فيه، وهو خطأُ الهدفِ والقصدِ

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٥٤٧؛ ومسلم برقم: ٢٦٦٥؛ وأبو داود برقم: ٤٥٩٨؛ والترمذي برقم: ٢٩٩٦؛ وابن ماجه برقم: ٥؛ وأحمد كما في الفتح الرباني: ١٨/ ١٠٠.

والباعثِ والمحرك، ولابدَّ أنْ نحذرَ أصحابَ الأهواء هؤلاء، وأنْ لا نَغْتَرَّ أو نُخدَعَ بما يصدرُ عنهم!!

الثاني ـ الخطأ في منهج النظر في القرآن:

أصحابُ هذا الخطأ تجاوَزوا الخطأ الأساسيَّ الجذريَّ السابق، فلم يكن مقصدُهم وباعثُهم خبيثاً، وإنما كان سليماً.

ولكنهم وقعوا في خطأ منهجيٍّ في نظرهم في القرآن وتدبّرهم له. فلم يراعوا أحسنَ طرق التفسير التي تحدّثْنا عنها في المباحثِ السابقة، ولم يُحَصِّلوا العلومَ الضروريةَ للمفسر التي عرضناها، ولم تتوفّر فيهم الصفاتُ الضرورية للمفسر، ومع ذلك أقبلوا على القرآن ينظرونَ فيه ويفسِّرونه، وهم يملكون مقْصداً سليماً، وباعثاً صواباً، وهو خدمةُ القرآن وتدبّره.

ونعتقدُ أنَّ سلامةَ المقصدِ لا تكفي لحسنِ فهم القرآن، ولذلك يقعُ هؤلاء في أخطاءَ كثيرة في تفسير القرآن، وتقديمِ معانيه، لأنَّ منهجهم في التعامل مع القرآن منهجٌ خاطئ، وهذا يُنتجُ النتائجَ الخاطئة.

وهؤلاء قد يُصيبون في بعض الجزئياتِ الفرعية، والأمثلةِ والنماذج القليلة، وهذا الصوابُ الجزئيُّ القليل يكادُ يضيعُ وسط خطأ المنهج، لأنَّ أخطاءَهم أضعافُ صوابهم!!

ولا بدَّ أنْ نكونَ منصفين موضوعيين مع هؤلاءِ، فنسجّلَ عليهم أخطاءَهم الكثيرة، ونجعلَها ثمرةً لمنهجهم الخاطئ في التعاملِ مع القرآن، ونسجلَ لهم مظاهرَ الصواب القليل الذي وُفِّقوا له، ومع ذلك نكون حَذِرين في التعامل معهم، وفي أخذِ تفاسيرهم، فلا نأخذُ منها إلاَّ ما تبيَّنَ لنا صوابُه!

وأبرزُ نموذجٍ لهؤلاء: المفسرون من رجالِ الفرق الإسلامية في التاريخِ الإسلامي، كالمفسِّرين من المعتزلة والخوارج والشيعة والمرجئة والجهمية.

إننا لا نتهمُ مفسِّراً كالزمخشري المعتزلي، أو القاضي عبد الجبار المعتزلي،

أو الطبرسي الشيعي الإمامي في مقصدِهم وباعثِهم، فهم مسلمون موحِّدون من أهلِ القبلة، وأقبلوا على القرآن ليفهموه ويخدموه ويُفسِّروه.

لكننا نسجلُ عليهم الخطأَ المنهجي، المتمثلَ في المنهجِ الخاطئ الذي فسروا به القرآن، وهذا الخطأُ أنتج عندهم (ركاماً) كبيراً من الأخطاء في مسائل العقيدةِ والإيمان، ومسائلِ الفقه والأحكام، ومسائلِ الحديثِ والسيرةِ وحياةِ الصحابة، ولكن هؤلاء المفسرين أصابوا في مواطن متفرقة وسط ذلك الركام من الأخطاء!!

الثالث ـ الخطأُ في بعض الجزئيات الفرعية:

أصحابُ هذا الخطأ سَلِموا من الخطأَيْن السابقين، فمقصدُهم سليمٌ وباعثُهم صواب، ثم إنَّ منهجَهم في التعامل مع القرآن صحيحٌ وصوابٌ أيضاً، وهم ساروا وفقَ أحسنِ طرق التفسير، وحقَّقوا علومَ التفسير وصفات المفسرين، ومن ثم كانوا على صوابٍ في نظرتهم للقرآن، وعلى صوابٍ في منهجهم في تفسير القرآن، وكانت تفاسيرُهم صائبةً صحيحةً في مجملها.

والخطأُ الذي وقع فيه هؤلاء، خطأٌ في بعض الجزئيات الفرعية، أو في عرْضِ بعضِ الأفكار، أو في التعبير عن بعض المعاني، أو في الخروج ببعض النتائج.

وهذا خطأٌ عرضيٌّ غيرُ مقصود، وهو ملازمٌ للبشر ـ ومنهم العلماء والمفسّرون ـ ولم ينجُ منه إلاّ مَنْ عصمه الله، ولا معصومَ عندنا إلاّ رسول الله ﷺ.

ومَنْ بحثَ عن عالمٍ أو مفسّرٍ لم يخطئ بعضَ الأخطاء الفرعية فلن يجده، وإنما يبحثُ عن مستحيل، الملائكةُ هم الذين لا يخطئون بطبيعتِهم، أما المؤمنون من البشر فإنَّ الخطأَ ملازمٌ لهم، المهمُّ أنْ نعرفَ مواطنَ الخطأ في أفكارِهم وأعمالهم، وأنْ نعرفَ مدى تأثيرِه على تلك الأفكار والأعمال!

وأبرزُ نموذجٍ لهؤلاء: العلماءُ أو المفسرون من أهل السنّة، فهم اتّصفوا

بالمقصدِ والباعثِ السليم، وهو تدبُّرُ القرآن وفهمُه وخدمتُه، وتحقَّقَ فيهم المنهجُ الصائبُ في تفسيرِ القرآن، لكنهم أخطؤوا أخطاء فرعيةً غيرَ مقصودة.

ينطبقُ هذا على المفسرين من الصحابة والتابعين، كما ينطبقُ على المفسرين من أتباعِ التابعين وتابعيهم الذين وصلَتْنا تفاسيرهم، مثل: مجاهد، والحسن البصري، والسدي، وعبد الرزاق الصنعاني، والطبري، والرازي، وابن كثير، والبيضاوي، والنسفي، والقرطبي، والآلوسي، ورشيد رضا، وسيد قطب... وغيرهم.

يجبُ أنْ نكونَ منصفين موضوعيين مع هؤلاء. وحُبُّنا لبعضِهم لا يدفعُنا لِغَضِّ الطرفِ عن أخطائهم، كأنْ نقول: لم يخطئ الطبري، ولم يخطئ ابن تيمية، ولم يخطئ ابن كثير، ولم يخطئ سيد قطب!

وإذا كان لنا تحفُّظٌ على بعضِهم فلا يجوزُ أنْ يدفعَنا إلى (تكبير) أخطائهم، لتُغطّي على صوابهم الكثير، وإلغاءِ علمِهم وفضْلِهم، كأن نقول: لا تقرؤوا في تفسير الرازي، أو في تفسير البيضاوي، أو في تفسير الشوكاني أو الشنقيطي.

علينا أنْ نذكُرَ منهجَهم السليم في فهم القرآن وتفسيره، وأنْ نشيرَ إلى الصوابِ الكثير الذي نتجَ عنه، والذي ملَأ تفاسيرهم، وأنْ نُشيدَ بهم ونُثْني عليهم، ثم علينا أنْ نذكُرَ أهمَّ أخطائهم الجزئية الفرعية، وأن نُسجّلَها عليهم، ونرفُضَها منهم، مع محبتهم والاعترافِ بعلمهم، ثم نذكرُ نسبةَ الخطأ القليلِ إلى الصوابِ الكثير!

قال الإمامُ الرازي في وصيتِه عن الأخطاء التي توجَدُ في تفسيره ومؤلفاته: «يا إلـه العالمين: إني أرى الخلقَ مُطبقين على أنـكَ أكرمُ الأكرمين، وأرحـمُ الراحمين، فَلَـكَ ما مرَّ بـه قلمي، أو خطر ببالي، فأستشهدُ علْمَك وأقول: إنْ علمتَ مني أني أردتُ تحقيق باطل، أو إبطالَ حقّ، فافعل بي ما أنا أهله... وإنْ علمتَ مني أنّي ما سعيتُ إلاّ في تقريرِ ما اعتقدتُ أنه الحق، وتصوّرْتُ أنه الصدق، فلتكنْ رحمتُكَ مع قصدي، لا مع حاصلي، فهذا جهدُ المقل!»[1].

---

(١) تفسير الرازي: ١: المقدمة: م.

خطأ الدليل أو المدلول أو هما معاً:

تحدثَ الإمامُ ابنُ تيمية عن أخطاء منهجية، وقع فيها بعضُ المفسرين بعد عصرِ الصحابة والتابعين.

فذهبَ إلى أنَّ الخطأَ من حيثُ الاستدلالِ يقعُ من جهتين:

أحدهما: قومٌ اعتقدوا معانٍ، ثم أرادوا حملَ ألفاظِ القرآن عليها.

والثاني: قومٌ فسَّروا القرآنَ بمجرد ما يسوغ أنْ يريدَه الإنسان الناطق بالعربية بكلامه، من غيرِ نظرٍ إلى المتكلِّمِ بالقرآن، والمنزَّلِ عليه، والمخاطَبِ به.

ثم بيَّن ابنُ تيمية: أنَّ الأوَّلين - أصحاب الفكرةِ المسبقة التي حملوا ألفاظَ القرآن عليها - تارةً يسلبون لفظَ القرآن ما دلَّ عليه وأُريدَ به، وتارةً يحمِلون لفظَ القرآنِ على ما لم يدُلَّ عليه، ولم يُرَدْ به.

وهم في كلا الأمرين قد يكونُ ما قصدوا نفيه - أو إثباتَه - من المعنى باطلاً، فيكون خطؤُهم في الدليلِ والمدلولِ معاً، وقد يكون المعنى حقاً فيكون خطؤُهم في الدليلِ لا في المدلول.

فالذين أخطؤوا في الدليل والمدلول معاً: طوائفُ من أهلِ البدع - كالشيعةِ والخوارج والمعتزلة - حيث اعتقدوا مذهباً يخالفُ الحق، ثم عمدوا إلى آياتِ القرآن فتأوّلوها على آرائهم، واستدلّوا بها على مذهبهم، ولا دلالة لهم فيها على ذلك، وأحياناً كانوا يجعلونها دليلاً على ردٍّ ونقضٍ ما يخالفُ مذهبهم!

ومن أشهرِ رجالِ الفِرَقِ الذين أخطؤوا في الدليل والمدلول معاً المعتزلة، فإنهم من أكثرِ الناسِ كلاماً في القرآن، وجدالاً في آياته.

ومن أشهرِ المفسرين من المعتزلة: جار الله الزمخشري صاحب تفسير (الكشاف)، وعلي بن عيسى الرماني صاحب تفسير (الجامع لعلم القرآن)، والقاضي عبد الجبار الهمذاني صاحب (التفسير الكبير)، وعبد الرحمن بن كيسان الأصم، والحاكم الجشمي، وأبو مسلم الأصفهاني.

ومن رجالِ الفرَقِ الذين أخطؤوا في الدليل والمدلول معاً الشيعة، ومن مفسّريهم المشهورين: الطوسي صاحب تفسير (التبيان) والطبرسي صاحب تفسير (مجمع البيان).

إنَّ المفسرين من أصحابِ هذه الفرق وغيرها اعتقدوا رأياً باطلاً، لم يقلْهُ سلفُ الأمة، ولا التابعون لهم بإحسان، ثم حملوا عليه ألفاظَ القرآن، وحرّفوا معناها.

ويمكنُ معرفةُ خطئِهم في تفسير القرآن وتحريف معانيه من جهتيْن:

الأولى: العلمُ بفسادِ قولهم وخطئِه، ومخالفتِه لما عليه السلفُ الصالح.

الثانية: العلمُ بفسادِ تفسيرِهم للقرآن، وتحريفِهم لمعانيه، إمَّا دليلاً على قولهم الباطل، أو نقضاً للحق الذي خالَفوه ودفعوه.

والذين أخطؤوا في الدليل لا في المدلول: هم المفسّرون الذين يفسّرون بعضَ آياتِ القرآن بمعانٍ، هي صحيحةٌ في نفسها، لكنَّ القرآنَ لا يدلُّ عليها، فيأتون بآيةٍ قرآنية يعتبرونها دليلاً، مع أنها ليست كذلك.

وهؤلاء بعضُ الوعّاظ والفقهاء، وكثيرٌ من الصوفية[1].

ومعنى كلامِ الإمامِ ابن تيميةَ أنَّ الخطأ في تفاسيرِ السابقين للقرآن من جهةِ الاستدلالِ له سببان:

السبب الأول: دخولُ هؤلاء عالمَ القرآنِ بفكرةٍ مسبقة، حيث اعتقدوا معنى، مع أنه خطأ وباطل، ثم بحثوا في القرآن عن دليلٍ يدلُّ عليه.

والسبب الثاني: تفسيرهم القرآن بدونِ تقديسٍ له، وعدمِ اعتبارِ أنه كلامُ اللهِ العظيمُ المعجز، وقبولُ كلِّ الاحتمالاتِ اللغويةِ في تفسيره، كما تُقْبَلُ في شرحِ كلامِ الشعراء والأدباءِ العرب.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص٨١ـ٩٢ باختصار.

وهذان السببان الجوهريان قادا إلى خطأين كبيرين في تفاسيرِ هؤلاء:

الأول: الخطأُ في الدليل والمدلول معاً:

المدلول: هو الفكرةُ الخاطئةُ التي اعتقدها هؤلاء. والدليل: هو استدلالُهم بالآية، وجعلُها دليلاً لتلك الفكرة.

من الأمثلة على ذلك:

يرى المعتزلةُ أنَّ اللهَ لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة. وهذا رأيٌ باطلٌ، وهو خطأٌ في المدلول ـ حسب تعبير ابن تيمية ـ.

ولما أرادَ المعتزلةُ الاستدلالَ بالقرآنِ لهذا الرأي الباطل، استدلّوا بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى﴾ [الأعراف: ١٤٣].

واعتبروا الشاهدَ فيها قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِى﴾ وحملوه على أنَّ اللهَ لن يَراهُ أحدٌ لا في الدنيا، ولا في الآخرة.

مع أنَّ الآيةَ لا تشهدُ لهم، لأنَّ معناها أنَّ الله لا يُرى في الدنيا، لذلك لم يَرَهُ موسى عليه السلام عند جبل الطور.

أما في الآخرة فإنَّ اللهَ يُرى، حيثُ يراهُ المؤمنون في الجنة، وقد دلَّ على هذا آياتٌ صريحةٌ، وأحاديثَ صحيحةٌ عن رسول الله ﷺ.

وقد أوردَ الإمامُ ابنُ تيمية نماذجَ من خطأ الشيعة الرافضة في الدليل والمدلول قال: «وتفاقمَ الأمرُ في الفلاسفةِ والقرامطة والرافضة، فإنهم فسروا القرآنَ بأنواعٍ لا يقضي منها العالمُ عجبَه:

١ ـ قالوا: معنى قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ﴾: تبَّ أبو بكر وعمر. فهما يدا أبي لهب!

٢ ـ وقالوا: معنى قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]: لئن أشركتَ بين أبي بكر وعمر مع علي في الخلافة.

٣ ـ ومعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧]: إنَّ الله يأمركم أن تذبحوا عائشة.

٤ ـ ومعنى قوله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓا أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ [التوبة: ١٢]: قاتلوا طلحة والزبير.

٥ ـ ومعنى قوله تعالى: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [الرحمن: ١٩]: علي وعائشة.

٦ ـ ومعنى قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: ٢٢]: يخرجُ من عليٍّ وفاطمة الحسنُ الحسين.

٧ ـ ومعنى قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ١٢]: كلُّ شيء في عليٍّ بن أبي طالب، لأنه هو الإمامُ المبين.

٨ ـ ومعنى قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١ ـ ٢]: النبأُ العظيمُ هو عليُّ بن أبي طالب.

٩ ـ ومعنى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ﴾ [المائدة ٥٥]: هو عليُّ بن أبي طالب، حيث دفعَ خاتَمه إلى فقيرٍ وهو يصلّي[1].

وهذا ليسَ من بابِ التفسير في شيء، إنما هو تحريفُ الشيعةِ الرافضة لمعاني الآيات، وهو كلامٌ في غايةِ السوءِ والسذاجة والجهالة.

الثاني: الخطأُ في الدليل لا في المدلول: وهذا معناه أنَّ الفكرةَ التي يقدّمها المفسرون صحيحة، ولكن استدلالهم بالقرآن عليها خطأ، لأن الآيةَ لا تدلُّ على ذلك.

ومن الأمثلةِ على ذلك: يستشهدُ بعضُ المفسرن والعلماءِ على أنَّ اللهَ يخلقُ الناسَ وأعمالَهم التي يعملونها بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص٨٦ ـ ٨٧.

إنَّ الفكرةَ التي يقدّمونها صحيحةٌ وصواب، فاللهُ خالقُ كلِّ شيء، هو الذي يخلقُ العبادَ، ويخلقُ أعمالَهم وأفعالَهم التي يقومون بها.

لكن الخطأَ في الدليل. أي: الخطأُ في الاستشهادِ بالآية، لأنَّ الآيةَ لا تدلُّ على هذا، لأنها آيةٌ في سياقٍ خاصٍّ، هو جدالُ إبراهيم عليه السلام لقومه عابدي الأصنام، بعدما حطّمها، فأنكرَ عليهم عبادتَهم للأصنامِ التي ينحتونها، مع أنَّ اللهَ خلقَهم، وخلقَ تلك الأصنامَ التي يعملونها. قال تعالى: ﴿ فَأَقْبَلُوٓاْ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُواْ ٱبْنُواْ لَهُۥ بُنْيَـٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ ﴾ [الصافات: ٩٤ـ٩٧].

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً: يرى بعضُ المتصوفةِ وأصحابُ السلوك والتزكية أنَّ تقوى اللهِ تقودُ إلى العلم، وأنَّ اللهَ يُعَلِّمُ الذين يتّقونه.

واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ووجْهُ استدلالهم بالآية أنَّ (الواو) في قوله: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ حرفُ عطف، وأنَّ الجملةَ ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ معطوفةٌ على الجملة السابقة ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾.

المدلول عند هؤلاء ـ وهو الفكرة التي قدّموها ـ صحيحٌ وصوابٌ، فالتقوى الحقّةُ لله تنتجُ علماً نافعاً، واللهُ يُعَلِّمُ الذين يتّقونه.

لكن الخطأَ في الدليل المتمثّل في استشهادِهم بالآية. والراجحُ أنّ قوله: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾ متعلقٌ بموضوع الآية، وهي آيةُ الدَّين ـ أطولُ آية في القرآن ـ فبعدما بيَّنَ اللهُ للمؤمنين بعضَ الأحكام المتعلقة بالدَّين، أمرهم بتقواه: ﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ﴾.

ثم عقَّبَ على ذلك بأن هذه الأحكامِ المذكورةِ في الآية هي تعليمٌ من اللهِ لهم، فقال: ﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ﴾ فالواو فيها حرفُ استئناف. والمرادُ بالتعليم هنا تعليمُ الأحكام المذكورة في الآية!

دخول عالم القرآن بمقررات سابقة:

حدَّثَنا الإمامُ ابن تيمية فيما سبق عن الخطأ في الدليل والمدلول، والخطأ في الدليلِ فقط، عند رجالِ الفرق السابقين.

ويحدِّثُنا الآن سيّد قطب عن خطأ جذريٍّ أصيل، وقع فيه بعض المفسرين السابقين والمعاصرين، وقادَهم هذا الخطأُ إلى نتائجَ خاطئة في تعاملهم مع القرآن، وخرجوا بتفسيراتٍ خاطئة لمعاني الآيات!

هذا الخطأُ هو: دخولُهم عالمَ القرآن بمقرراتٍ سابقة.

ومعنى هذا: أنهم اعتقدوا أفكاراً وآراءَ من خارجِ الكتاب والسنّة، وهي غريبةٌ على التصوّرِ الإسلامي، وقد استقَوْها من خارجِ المصادرِ الإسلامية، سواء من التصوّرِ اليوناني أو الروماني أو الفارسي أو الهندي، أو من التصورِ الأوروبيِّ الغربيِّ الحديث، وكلُّها تصوّراتٍ جاهلية.

ولما استقرَّتْ هذه الأفكارُ والآراءُ في تصوّرهم، توجَّهوا نحو القرآن، وبحثوا في آياتِه، ليجدوا فيها دليلاً على تلك الأفكارِ والآراء، ولَنْ يجدوا فيها مايريدون، لأنَّ القرآنَ لا ينصرُ الباطلَ ولا يشهدُ له! ولذلك كانوا يُحَرِّفون معاني الآيات، ويَلْوُونها لما يريدون ليّاً، و(يتنطَّعون) في تفسيرها، وتوظيفها لما يريدون. وهم بهذا يكونون قد دخلوا عالم القرآنِ بالمقررِ الفكريِّ المسبق، المخالفِ لحقائقِ وتوجيهاتِ القرآن.

أما الصوابُ فهو: دخولُ عالمِ القرآن بدون مقرراتٍ سابقة.

يقول سيد قطب في كتابه (خصائص التصور الإسلامي) عن هذا الأمر: «ومنهجُنا في استلهامِ القرآن الكريم، ألاَّ نواجهَهُ بمقرراتٍ سابقةٍ إطلاقاً، لا مقرراتٍ عقلية، ولا مقرراتٍ شعورية ـ من رواسبِ الثقافات التي لم نَسْتَقِها من القرآنِ ذاته ـ نحاكمُ إليها نصوصَه، أو نستلهمُ معانيَ هذه النصوص وفقَ تلك المقررات السابقة!

لقد جاءَ النصُّ القرآنيُّ ـ ابتداءً ـ لينشئ المقرراتِ الصحيحة، التي يريدُ اللهُ أنْ تقومَ عليها تصوراتُ البشر، وأنْ تقوم عليها حياتُهم!

وأقلُّ ما يستحقُّه هذا التفضلُ من العليِّ الكبير، وهذه الرعايةُ من اللهِ ذي الجلال ـ وهو الغنيُّ عن العالمين ـ أنْ يتلقَّوها وقد فرَّغوا لها عقولَهم من كلِّ غبشٍ دخيل.

ليست هناك إذنْ مقرراتٌ سابقة نحاكمُ إليها كتابَ الله، إنما نحن نستمدُّ مقرراتِنا من هذا الكتاب ابتداءً، ونقيمُ على هذه المقررات تصوراتِنا ومقرراتِنا! وهذا ـ وحده ـ هو المنهجُ الصحيحُ في مواجهةِ القرآن الكريم»[1].

وطبَّقَ سيد قطب هذه القاعدةَ المنهجيةَ المأمونة ـ دخولُ عالمِ القرآن بدون مقرراتٍ سابقة ـ وبَيَّنَ الخطأَ الجوهريَّ الجذري الذي وقع فيه الذين خالَفوها. فعلَ ذلك وهو يفسّرُ آيةً تتعلقُ بالجنِّ وقذفِهم بالشهب عندما يحاولون الصعودَ للسماء، وهي قوله تعالى إخباراً عن قول الجن: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨ ـ ٩].

قال: «أمَّا أين يقفُ ذلك الحرس؟ ومَنْ هو؟ وكيف يَرجمُ الشياطينَ بالشهب؟ فهذا كلُّه مما لم يقلْ لنا عنه القرآنُ والأثرُ شيئاً، وليس لنا مصدرٌ سواهما نستقي منه عن هذا الغيبِ شيئاً، ولو علمَ اللهُ أنَّ في تفصيلِهِ خيراً لنا لفعل.. وإذْ لم يفعلْ فمحاولتُنا نحن في هذا الاتجاهِ عبث، لا يُضيفُ إلى حياتِنا ولا إلى معرفتِنا المثمرة شيئاً!

ولا مجالَ كذلك للاعتراضِ أو الجدلِ حول الشهب، وأنها تسيرُ وفقَ نظامٍ كوني، قبلَ البعثةِ وبعدها، ووفقَ ناموسٍ يحاولُ علماءُ الفلكِ تفسيرَه بنظرياتٍ تخطىءُ وتُصيب...

---

(١) خصائص التصور الإسلامي، ص١٦ ـ ١٧.

فأمَّا الذين يـرونَ في هذا كلِّه مجردَ تمثيلٍ وتصويـرٍ لحفظِ اللهِ للذكرِ من الالتباس بأيِّ باطل، وأنه لا يجوزُ أن يُؤخَذَ على ظاهره . . فسببُ هذا عندهم أنهم يجيئون إلى القرآن بتصوراتٍ مقررةٍ سابقة في أذهانهم، أخذوها من مصارد أخرى غير القرآن، ثم يحاولونَ أن يفسِّروا القرآنَ وفقَ تلك التصورات السابقة المقرَّرة في أذهانهم من قبل . .

ومن ثم يرونَ الملائكةَ تمثيلاً لقوةِ الخير والطاعة، والشياطينَ تمثيلاً لقوة الشر والمعصية، والرجومَ تمثيلاً للحفظ والصيانة . . لأنَّ في مقرّراتهم ـ قبل أنْ يواجهوا القرآن ـ أنَّ هذه المسميات: الملائكة والشياطين أو الجن، لايمكنُ أن يكونَ لها وجودٌ مجسَّمٌ على هذا النحو، وأن تكونَ لها هذه التحركات الحسية، والتأثيرات الواقعية!!.

مِن أين جاؤوا بهذا؟ مِنْ أينَ جاؤوا بهذه المقررات التي يحاكمون إليها نصوصَ القرآنِ والحديث؟!

إنَّ الطريـقَ الأمثلَ في فهمِ القـرآن وتفسـيره، وفي التصـور الإسـلامي وتكوينه . . . أنْ ينفُضَ الإنسانُ من ذهنه كلَّ تصورٍ سابق، وأنْ يواجِهَ القرآن بغيرِ مقرراتٍ تصورية أو عقلية أو شعورية سابقة، وأن يبني مقرراتِه كلَّها حسبما يصورُ القرآنُ والحديثُ حقائقَ هذا الوجود . . ومن ثم لا يحاكمُ القرآنَ والحديثَ لغيرِ القرآن، ولا ينفي شيئاً يثبتُه القرآن، ولا يُؤوِّلُه! ولا يُثبتُ شيئاً ينفيه القرآنُ أو يبطله! . »[1].

ونضيفُ إلى كلامِ سيد قطب الواضح في تقرير هذه القاعدة، كلاماً له في تفسـير سورة الفيل، وهو ينقدُ مدرسـةَ محمد عبده في التفسير، ويبينُ خطأَها الأساسيَّ الخطير، وهو دخولُ رجالِها عالمَ القرآن بمقرراتٍ عقلية سابقة. قال: «إنَّ هنالك قاعدةً مأمونةً في مواجهةِ النصوصِ القرآنية، لعلَّ هنا مكانُ تقريرها . . إنه لا يجوزُ لنا أنْ نواجهَ النصوصَ القرآنية بمقرراتٍ عقليةٍ سابقة، لا مقررات

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٧٣٠.

عامة، ولا مقرراتٍ في الموضوع الذي تعالجُه النصوص. . بل ينبغي لنا أنْ نواجهَ هذه النصوصَ لنتلقى منها مقرراتنا، فمنها نتلقَّى مقرراتِنا الإيمانية، ومنها نكوِّنُ قواعدَ منطقنا وتصوّراتِنا جميعاً، فإذا قرَّرَتْ لنا أمراً فهو المقرَّرُ كما قَرَّرَتْه!. .»[1].

من أخطاء المفسرين:

بعدَ التصنيف الموضوعي للأخطاء الثلاثة، وبعدَ التوضيحِ المنهجي الذي أخذناه من الإمامَيْن ابن تيمية وسيد قطب، نسجلُ فيما يلي أهمَّ الأخطاءِ التي وقعَ فيها بعض المفسرين:

١ ـ **دخولُ عالم القرآن بمقرراتٍ فكرية سابقة**: غريبةٍ عن حقائقِ القرآن، لأنهم أخذوها من التصورات والثقافات الغريبة، ثم بحثوا في آيات القرآن عن شواهدَ لهذه المقررات.

وهذا الذي أسماهُ ابنُ تيمية: الخطأُ في الدليل والمدلول معاً.

٢ ـ **الخطأُ في فهم بعضِ الآيات**: لحرصِهم على أن يستدلّوا على بعضِ الأفكارِ الصحيحةِ بالقرآن، مع أنه لا داعي لذلك، فبما أن الفكرة صوابٌ فهي مقبولة، ولو لم يكن عليها دليلٌ من القرآن!

لكن هؤلاء كانوا يبحثون عن أدلةٍ من آياتِ القرآن على ما عندهم من آراء صحيحة، فيلْوُون الآيات ليّاً، و(يتنطَّعون) في أخذِ الشاهد منها.

وهذا الذي أسماهُ ابنُ تيمية: الخطأُ في الدليل فقط.

٣ ـ **عدمُ اتباعِ أحسنِ طرق التفسير**: تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنّة الصحيحة، ثم بما صحّ من أقوال الصحابة، ثم بما ثبت من أقوال التابعين، ثم باللغة العربية، وأخيراً إعمال الرأي والاستنباط.

---

(١) في ظلال القرآن: ٦/ ٣٩٧٩.

٤ ـ الضعفُ في الحديثِ روايةً أو دراية: وعدمُ القدرةِ على تخريجِ الأحاديث، واعتمادِ ما صحَّ منها، ومن ثم التساهلُ في روايةِ الأحاديث وإيرادها، وتفسير الآيات بها، مع أنها لم تصحّ ولم تثبت. وقلّما ترى تفسيراً من التفاسير سَلِمَ من إيرادِ أحاديث موضوعة أو ضعيفة.

ومن تساهلهم في الأحاديث ذكْرُها غيرَ معزوَّةٍ إلى مَنْ أخرجَها من كتب الحديث، ومَنْ رواها من الصحابة، فكثيرٌ منهم يكتفون بقولهم: قال رسول الله ﷺ.

والأصلُ في المفسرِ أن يكونَ عالماً بالحديث، قادراً على تمييزِ الصحيح من غيره، وعلى تخريجِ الحديثِ من كتب الحديث، والحكمِ على رجالهِ من كتب الرجال. وعلى الأقلِّ أنْ يكونَ قادراً على انتقاءِ ما صحَّ من الأحاديث، وأخذِ ذلك من العلماءِ المتقنين للحديث وتخريجه!

٥ ـ التساهلُ في روايةِ الإسرائيلياتِ والرواياتِ غيرِ الثابتة: المتعلقةِ بأحداثِ القصص القرآني، وسيرِ الأنبياء والمرسلين، عليهم الصلاة والسلام، مع أنّ هذه الإسرائيليات غيرُ صحيحة، واليهودُ متّهمون، غيرُ مؤتمنين على الأحداثِ السابقة، وهم كاذبون في ما يقدِّمون من رواياتٍ وإسرائيليات.

٦ ـ عدمُ البقاءِ مع القراءاتِ العشرِ الصحيحة: وقبولُ قراءاتٍ غيرِ صحيحة من غير العشرة، مع أنَّ القراءات الشاذة ليست قرآناً.

وترجيحُ بعضِهم لبعض القراءات الصحيحة، مع أنَّ الترجيحَ بينها لا يجوز، لأنها كلّها كلامُ الله، وبعضُ كلامِ الله ليس بأرجحَ من بعضِ كلام الله.

٧ ـ التساهلُ عند أخذِ أقوالِ الصحابة والتابعين: وعدمُ اعتمادِ ما صحَّ منها، وذكرُ رواياتٍ متعارضةٍ مختلفةٍ عن الصحابي أو التابعي، وتركُ القارئ في حيرةٍ أمامَ الأقوالِ الكثيرةِ التي وضعوها أمامه، بحيثُ يصعبُ عليه الترجيح أو الاختيار.

٨ ـ **الاستطرادُ والخروجُ عن التفسيرِ إلى غيره**: حيث كان المفسرُ يتوسعُ في بحثِ بعضِ الموضوعات والمسائل والقضايا وليس لها صلةٌ مباشرةٌ بالتفسير، ولا يتوقفُ عليها حُسنُ فهم الآية وتفسيرِها، وإنما هي (مُطَوَّلات) مقحمةٌ على التفسير إقحاماً، وهي تشوّشُ على القارئ، وتقطعُ عليه متابعته للتفسير، وتحجبُ عنه أنوار القرآن.

وهناك مطولاتٌ كثيرةٌ لابدَّ من استبعادِها من كتب التفسير، منها ما هو في التاريخ والأخبار، ومنها ما هو في مسائل العقيدة وعلم الكلام، ومنها ما هو في الفقهِ والأحكام، ومنها ما هو في اللغةِ والنحو والشعر، ومنها ما هو في الرواياتِ المأثورة.

٩ ـ **الانشغالُ بمعاركَ فكريةٍ ومناقشاتٍ مختلفة**: حيث كانوا يُحَوِّلون التفسيرَ إلى ساحة (معركة) تتصارعُ عليها مختلفُ الآراء والأفكار، وتتقاتلُ عليها مختلفُ المذاهب والفرق، وبخاصةٍ تلك التي تبحثُ في مسائل العقيدة والإيمان، وكم تقاتلت الفرقُ المختلفةُ أثناءَ تفسيرِ الآيات، من معتزلة وخوارج وشيعة وجهمية وجبرية وأشاعرة وسلفية..

١٠ ـ **ذكْرُ احتمالاتٍ عديدةٍ في التفسير أو الإعراب**: حيث كانوا يوردون عدةَ احتمالاتٍ في معنى الآية، كأن يقولوا: يمكنُ أن يكونَ معنى الآية كذا، أو أنْ يكونَ كذا، أو أن يكون كذا... وهكذا، وعدمُ ترجيحهم أحدَ الاحتمالات على غيرها. وهذا يجعلُ القارىءَ في حيرة!

والأصْلُ في المفسّرِ أنْ يذكرَ قولاً واحداً في معنى الآية، وهو الراجحُ عنده، ونحنُ لا ننفي أنَّ معنى الآية يحتملُ عدةَ أقوال، لكن لابدَّ من قولٍ هو أرجحُ عند المفسرِ من غيره، فلابدَّ للمفسّرِ أنْ يرجِّحَ ما رآه في معنى الآية، كأنْ يقول: الراجحُ عندي في تفسير الآية كذا وكذا، وهذا قد يكونُ غيرَ الراجحِ عند مفسرٍ آخر، لكن لا ضيرَ في ذلك!

وقُلْ مثلَ هذا في إعرابِ القرآن، حيث كان المفسرون الذين غلبَ على

تفاسيرهم اللونُ النحوي يذكرون في إعراب الكلمة أو الجملة عدة احتمالات، وهذا يجعلُ القارىءَ في حيرة، وكان الأَوْلى بأحدهم أن يقول: الراجحُ عندي في إعرابِ الآية أو الكلمة هو كذا وكذا!!

هذه هي أهمُّ الأخطاءِ الأساسية الجوهرية التي وقعَ بها بعضُ المفسرين.

* * *

المبحث السادس

ضوابطُ لتقويم التفاسير

يقعُ بعضُ دارسي التفاسيرِ في أخطاءَ كثيرة، عندما لا يدرسون التفسير الذي بين أيديهم دراسةً جيدة، حيث لا يقفون على حقيقةِ رأيِ المفسرِ في بعضِ القضايا والمسائل، فينسبون له ما لم يقلْه، ويخرجون من الدراسةِ بنتائجَ خاطئةٍ، ويحكمون عليه حكماً خاطئاً ظالماً.

والسببُ في هذا هو عدمُ مراعاتِهم المنهجَ العلميَّ في الدراسة، والموضوعيةَ في البحث، والأمانةَ في النقل، والنزاهةَ في الحكم.

أو بمعنى آخر: عدمُ مراعاتِهم الضوابطَ المنهجيةَ الضروريةَ للدراسة، وأهمُّ هذه الضوابط هي:

١ ـ المعرفة التامة لعصر المفسّر:

لا بدَّ للدارسِ أنْ يتعرفَ على العصرِ الذي عاش فيه المفسر، وأنْ يقفَ على مختلفِ مظاهرِ الحياة فيه: السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، لأنَّ المفسرَ الذي يعيشُ عصرَه، يفسّرُ القرآنَ لأهدافٍ خاصة، لها صلةٌ بقضايا ومشكلات عصره، ويركزُ في تفسيره على مسائلَ تهمُّ أمته في عصره، ويتناولُ بعضَ الأفكارِ والمذاهب المنتشرة في عصره، لذلك لابدَّ للدارسِ أنْ يذهبَ إلى المفسر، ليعيشَ معه عصرَه.

ولا يليقُ بالدارس أنْ (يسلخَ) المفسرَ عن عصره، وأنْ يُحضره إلينا ليعيشَ عصرَنا، أو أنْ يسلخَ المفسرَ المعاصرَ عن عصرنا، ليعيشَ عصراً سابقاً، ليس له مشكلاتُ وقضايا واهتمامُ هذا العصر!

٢ ـ المعرفة التامة لشخصية المفسر :

على الدارس أنْ يتعرفَ على شخصية المفسر، ودراسةُ مراحلِ حياته، ومظاهرِ التأثرِ والتأثيرِ فيها، ومعرفةُ دراستِه وشيوخه وثقافته، والكتبِ التي درسها، والأماكن التي ذهبَ إليها، والوظائف التي أشغلها، والأعمالِ التي قام بها، ومعرفةُ تلاميذه الذين درّسهم، ومعرفةُ أسرته وأولاده . . إنْ تيسَّرَ له معرفة ذلك!

٣ ـ الوقوف على أهداف المفسر من تفسيره :

الأصلُ في المفسرِ أنْ يكونَ له أهداف، يسعى إلى تحقيقها من تفسيره، والهدفُ يحدد المنهج، والمنهجُ يوضِّحُ الطريقة!

وعدمُ معرفةِ الدارسِ لأهدافِ المفسر يوقعُه في أخطاءَ في البحث والتقويم.

ويمكنُ الوقوفُ على أهدافِ المفسرِ من تفسيره، فقد يذكرُ ذلك في المقدمة، وقد يذكرُ بعضَها أثناءَ التفسير، وعلى الدارسِ أنْ يحسنَ استخراجَ تلك الأهداف.

٤ ـ تحديد قواعد منهج المفسر ومعالمه :

على الدارسِ أنْ يتعرَّفَ على منهج المفسر، وأنْ يجددَ قواعدَ ذلك المنهج، ثم طريقتَه في تطبيقِ ذلك المنهج.

وقد يذكرُ المفسرُ بعضَ قواعدِ منهجِه في المقدمة، وقد يذكرُ بعضَها في التفسير، ولكلِّ مفسرٍ إشاراتٌ وعباراتٌ مبثوثة في تفسيره، تعينُ الدارسَ على التعرفِ على ذلك المنهج.

٥ ـ الاطّلاع الكامل على نتاج المفسر ومؤلفاته :

لا بدَّ للدارسِ أنْ يطَّلعَ على نتاجِ وكتابات المفسر، وليس تفسيره فقط، وأنْ يرتبها حسبَ تسلسلها التاريخي، حسبَ كتابةِ صاحبها لها.

إنَّ الاطّلاع عليها وحُسْنَ ترتيبها التاريخي ضروريٌّ للدارس، ليقف على حقيقةِ أفكارِ المفسر، فقد يغيِّرُ المفسرُ أو يبدّلُ في بعضِ آرائه على هدي مكتسباته

العلمية الجديدة، وقد يتخلّى عن رأيٍ له سابق في مسألة ما! فإذا لم يطّلع الدارس على مؤلفات المفسّر، ولم يرتبْها تاريخياً، فسوفَ يظلمُ المفسر، وينسبُ له رأياً تخلّى عنه في كتاب لاحق.

٦ ـ الدراسة الشاملة الواعية الفاحصة المتأنية المتكررة للتفسير:

وأؤكدُ على كل صفةٍ وردَتْ في هذا الضابط، فلابدَّ أنْ تكونَ دراسةُ الدارسِ للتفسير شاملةً له كله، وأنْ تكونَ واعية، بحيث يكون الدارسُ منتبهاً يقظاً فاحصاً، يعي ويستوعبُ ما يقرأ، ولابدَّ أنْ تكونَ الدراسةُ متأنيةً متمهلةً، وأن لا يكون الدارسُ سريعاً متعجّلاً، فقد يحتاجُ إلى أنْ يدرسَ التفسيرَ أكثر من مرة!

على الدارسِ أنْ يجمعَ كلامَ المفسرِ في المسألة الواحدة من المواضع المتفرقة في التفسير ـ وإنْ تكرر ذلك ـ لأنه لا يخلو من إضافةٍ يضيفُها المفسر.

٧ ـ الموضوعية في البحث:

يجبُ أنْ تكونَ دراسةُ الدارس موضوعية، و أن يكون بحثُه منهجياً، بحيثُ يسيرُ مع المفسر حيثُ سار، ويصحبُه في رحلتِه الطويلة من خلال التفسير.

يجبُ أنْ يكونَ هدف الدارس من خلال دراستِه للتفسير بيانَ الحق في المسألة، وبيانَ الصوابِ في الموضوع.. وأن يكونَ الدارسُ موضوعياً محايداً، يهمُّه التفسيرُ الذي أمامه، ليعرفَ ما له وما عليه.

لا يجوزُ أن يكونَ هدفُ الدراسةِ تتبُّعَ الأخطاء، وتصيُّدَ العيوب، وجمعَ المآخذِ والسقطات، والخروجَ من هذا بحكمٍ جائرٍ على المفسر وتفسيره، أو دعوةٍ ظالمةٍ لإلغاءِ تفسيره وطرحه وإهماله!

٨ ـ النظرة المتّزنة للمفسر:

الأصلُ أنْ تكونَ نظرةُ الدارس إلى المفسرِ متزنة، متّصفةً بالتوسّط والاعتدال، فلا يُغالي في محبّتِه وتقديره، حتى يوصِلَه إلى درجةٍ قريبةٍ من القداسة والعصمة،

ولا يُبالغُ في النظرةِ الأُخرى ضدّه، إلى درجةِ تعمُّدِ التنقيص والتشويه، بحيث يُصدرُ حكماً بالإعدام على تفسيره وعلمِه ومؤلفاته.

لا يجوزُ أنْ يعميَ حبُّ الدارس للمفسر عن رؤية مآخذ تؤخذ عليه، أو الإشارة إلى أخطاء وقع فيها، كما أنه لا يجوز أن يعميَ تعصبُ الدارسِ ضدَّ المفسر عن رؤية مزاياه وحسناته.

بمعنى آخر: أنْ ينظرَ الدارسُ إلى المفسر بعينيْن إسلاميتيْن مبصرتيْن عادلتيْن، ومنظارٍ عادلٍ يريه كلَّ الأمورِ والمسائل، يرى الحسناتِ ويُثني على صاحبها، ويرى السيئات ويرُدُّها.

لا يجوز أنْ يكون الدارس مغالياً في محبةِ المفسر، ولا مغالياً ضدّه، وقديماً قال الشاعر:

وَعَيْنُ الرِّضا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَليلَةٌ　　ولكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبدي المَساويا

٩ ـ عدم محاكمة المفسر إلى مدرسة خاصة في التفسير:

على الدارس أنْ لا يحاكمَ المفسرَ إلى مدرسةٍ خاصة في التفسير، أو صورةٍ معينةٍ للتفسير، أو نموذجٍ واحدٍ للتفسير. ومن ثم طرحُ هذا التفسير إذا لم يتفقْ مع تلك المدرسةِ أو النموذج!

كذلك على الدارسِ أنْ لا يحاكمَ المفسر إلى مذهبٍ كلاميٍّ أو فقهيٍّ أو فكريٍّ معين، ومن ثم الحكمُ عليه وتخطئتُه إنْ لم يتفقْ مع ذلك المذهب!

على الدارسِ أنْ يحاكمَ المفسرَ وتفسيرَه إلى الحقِّ الأصيل المتمثل في الكتاب والسنّة، وفَهْمِ سلفِ الأمة من الصحابة والتابعين، فإذا وافقَ المفسرُ هذا الحقَّ والفهم كان مصيباً، ولا يحتاجُ إلى تزكيةٍ بعد ذلك، بأنْ يوافقَ هذا المذهب أو ذاك، أو يخالفَ هذا العالم أو ذاك! لا يجوزُ اعتبارُ كلامِ الناس وفهمِهم وآرائهم البشريةِ القاصرةِ أصْلاً يحاكَمُ إليه العلمُ وأصحابه، فالأَصْلُ في هذا هو كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

١٠ ـ الموضوعية في التقويم والعدالة والنزاهة في الحكم:

على الدارسِ أنْ يحرصَ على الدقةِ وحُسنِ الفهم، بحيثُ يطيلُ النظرةَ في التفسير، ويستوعبُ الفكرة، ويُقلبُ وجوهَ الرأي، ليُحسِنَ فهمَ كلامِ المفسر، ولا يظلمَه بأنْ ينسبَ له رأياً لم يقلْ به.

وإذا جاء دورُ النقل فلا بدَّ من توفُّرِ الأمانةِ العلمية لدى الباحث، بأنْ ينقلَ عبارةَ المفسرِ كاملة، ويلاحظ ما قبلَها وما بعدَها، ولا يجوزُ أنْ يقتطعَ عبارةً من سياقها، ليعتبرها إدانةً للمفسر، على طريقة: «لا تقربوا الصلاة!!»!

ولا بدَّ للدارسِ منْ أنْ يكونَ موضوعياً في تقويمِ التفسير، بأنْ يطرحَ الهوى جانباً، سواءٌ في جانبِ الحبِّ أو جانبِ البغض. عليهِ في التقويم أنْ يلاحظَ الحسنات والإيجابيات ويُشيدَ بها، ويعرفَ نسبتها إلى تفسيره، وقيمةَ التفسير بسببها، ثم يلاحظَ المآخذَ والأخطاء، ويُحسنَ تصنيفها ـ هل هي في المقصد أو في المنهج أو في بعضِ خطوات الطريق ـ ومدى تأثُّرِ التفسير بها، ومدى أثرها عليه.

ولا يجوزُ للدارسِ أنْ يجمعَ الأخطاءَ والمآخذ، ويُلغي الإيجابيات والحسنات، ثم (يُكَبِّرَ) الأخطاء، حتى تطغى على الحسنات، ويُعدمَ التفسير، ويُدينَ صاحبَه بسببها!

وبعدَ الأمانةِ في النقل، وحُسنِ الفهم، والموضوعيةِ في التقويم، يأتي دورُ الحكم.. لابد للدارس من أن يكونَ نزيهاً عادلاً في الحكم، فعندما يضعُ التفسيرَ في الميزان، عليه أن يكونَ ميزانُه إسلامياً شرعياً، له كفَّتان: واحدة للمزايا والإيجابيات، والأخرى للمآخذ والأخطاء والسلبيات.

لا يجوزُ أنْ يكونَ ميزانه بكفَّةٍ واحدة، لا يضعُ فيها إلاَّ الحسنات إذا كان يحبُّ المفسر، أو لا تعرفُ إلاَّ الأخطاءَ إذا كان لا يحبُّ المفسّر!!

على الدارسِ المتّصفِ بهذه الصفات أنْ يتّقي الله في حكمِه على التفسير

والمفسّر، ويُعطيه ما يستحقُّه من حكم، بعد معرفةِ نسبةِ أخطائِه إلى حسناته، وأنْ يَهَبَ الخطأَ القليلَ إلى الصواب الكثير، ومعلومٌ أنَّ النجاسةَ لا تؤثّر في الماء الكثير، وكفى المرءَ نبلاً أنْ تُعَدَّ معايبُه!

* * *

الفصل الثّالث

تَفْسِيرُ القُرْآنِ بِالقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ

المبحث الأول

تفسير القرآن بالقرآن

تحدَّثْنا في الفصلِ السابقِ عن أحسنِ طرقِ التفسير، وقلنا إنها تقومُ على ستِّ خطواتٍ مرحلية، هي: تفسيرُ القرآن بالقرآن، ثم تفسيرُه بالسنّة الصحيحة، ثم تفسيرُه بما صحَّ من أقوال الصحابة، ثم تفسيرُه بما ثبتَ من أقوالِ التابعين، ثم تفسيرُه وفقَ قواعدِ اللغة، وأخيراً الاستنباط الذي يقوم به المفسّر.

ونخصّصُ هذا الفصلَ للحديثِ عن أهمِّ مرحلتين، وهما تفسير القرآنِ بالقرآن، ثم تفسيرُه بالسنّة الصحيحة، لننتقلَ بعد ذلك للحديثِ عن التفسيرِ بالمأثور.

إنَّ أهمَّ الخطواتِ المنهجية للتفسير هي تفسيرُ القرآن بالقرآن، وتليها في الأهميةِ تفسيرُه بالسنّةِ الصحيحة، وكلُّ مفسّرٍ لم ينطلقْ من هاتيْن الخطوتين، ولم يلتزمْ بهاتيْن المرحلتين، يكون منهجُه في التفسير مطعوناً فيه، ويكونُ في تفسيره أخطاء منهجية، تنتجُ عنها أخطاء عديدة!

ويذهبُ بعضُ الباحثين في علوم القرآن وتفسيرِه إلى اعتبارِ التفسير بالمأثورِ يشملُ أربعةَ أنواعٍ من التفسير:

نقلَ الدكتور مصطفى مسلم في كتابه: (مناهج المفسرين: التفسير في عصر الصحابة) عن الدكتور محمد أبو شهبة أنَّ التفسيرَ بالمأثور: «يشملُ المنقولَ عن الله تعالى في القرآن الكريم، والمنقولَ عن رسول الله ﷺ، والمنقولَ عن الصحابة رضوان الله عليهم، والمنقولَ عن التابعين رحمهم الله. وعلى هذه الأنواعِ الأربعةِ

يدورُ التفسيرُ بالمأثور. . . »[1].

ووافقَ الدكتورُ مصطفى مسلم الدكتورَ أبي شهبة على هذا حيث تحدّثَ عن تفسير القرآن بالقرآن تحتَ هذا العنوان: «١ ـ التفسير بالمأثور: تفسيرُ القرآن بالقرآن»[2].

ولا نوافقُ هـؤلاء في اعتبارِ تفسيرِ القرآن بالقرآن من التفسير بالمأثـور، ونرى أنَّ التفسيرَ بالمأثور هو تفسيرُ القرآن بالسنّة وبأقوالِ الصحابةِ والتابعين وتابعي التابعين، كما سنفصِّلُ هذا فيما بعد إن شاء الله.

تفسيرُ القرآنِ بالقرآن ليس تفسيراً بالمأثور، لأنَّ المفسّرَ في هذه الخطوة يفسرُ كلامَ الله بكلامِ الله، وليس بكلامِ البشر من صحابةٍ وتابعين. أي هو لا يعتمدُ على البحث والنقل، ولا يتحرَّى صحةَ ما ينقل، لأنَّ القرآنَ محفوظٌ ثابت، لا يحتاجُ إلى تخريجٍ وتصحيح، فالتخريجُ والتصحيح والتحرّي والحرصُ صفةٌ ملازمةٌ للأقوال المأثورة في التفسير، والقرآنُ لا يحتاجُ إلى كلِّ هذا. فهو ليس من التفسيرِ بالمأثور. والله أعلم!

القرآن يفسّر بعضه بعضاً:

القرآنُ كتابُ الله المعجز، وله طريقةٌ فريدةٌ معجزةٌ في عرضِ موضوعاتِه، وتقريرِ حقائقِه، والتعبيرِ عن معانيه.

إنه لا يذكرُ الموضوعَ الواحدَ في مكانٍ واحد، ثم ينتقل منه إلى غيره، ولا يصنِّفُ آياتِه وسورَه تصنيفاً موضوعياً محدَّداً، كأنْ يخصِّصَ سورةً خاصةً للإيمان بالله، وسورةً أخرى للإيمان بالرسل، وسورةً ثالثة للإيمان بيوم القيامة، وسورةً رابعة للأحكام والتشريعات، وسورةً خامسةً للأخلاق والتوجيهات، وسورةً سادسةً للقصص والروايات، وهكذا!!

---

(١) مناهج المفسرين للدكتور مصطفى مسلم، ص٢٣.
(٢) المرجع السابق، ص٢٤.

ولم يصنِّف الكلامَ في السورة تصنيفاً موضوعياً محدَّداً كذلك، كأن يبدأ السورةَ بالعقيدة، ثم يُتبعَ ذلك بالتشريع، ثم ينتقل للقصص، ثم يختمها بالتوجيهات!

لم يسلك القرآنُ هذه الطريقةَ التصنيفية، لأنها طريقةٌ بشرية (أكاديمية) يختارُها المفكّرون والمؤلّفون الأكاديميون في تأليفِ كتبهم، وإنشاءِ أبحاثِهم!!

للقرآنِ طريقةٌ فريدةٌ معجزةٌ في التعبير، في آياتِ السورة الواحدة، وفي مختلفِ السورِ المكية والمدنية على السواء.

إنّه يعرضُ المعانيَ والأفكارَ والحقائقَ متناسبةً متناسقةً متوافقةً مؤتلفة، بينها وحدةٌ موضوعيةٌ متكاملة، تجذبُها خيوطٌ متينة، وخطوطٌ دقيقة! وتتكاملُ معاني السورةِ وأفكارُها وحقائقُها وتتوافقُ في تكوين (شخصية) السورة، رغم (توزيع) هذه الأفكارِ والحقائق في آياتِ السورة توزيعاً شاملاً، في تعبيرٍ بيانيٍّ معجز!!

هذا عن عرضِ أفكارِ ومعاني وحقائقِ السورةِ الواحدة.

أما الموضوعُ الواحدُ فإنَّ القرآنَ يعرضُه في عدةِ سور، ويفرقُه في آياتِها (تفريقاً حكيماً) يحققُ الوحدةَ الموضوعيةَ المعجزةَ للسورة، ويكملُ الوحدةَ الموضوعيةَ للقرآنِ كلّه. فقد نرى كلاماً عن موضوعٍ في سورة مكية، وتأكيداً له في سورةٍ مكية أخرى، وعودةً إلى التأكيدِ عليه في سورةٍ مدنية. وقد نرى طرفاً من الموضوعِ في سورةٍ مكية، ونرى حديثاً عن أحدِ فروعِه في سورةٍ مدنية، ونرى عرضَ بعضِ جوانبه في سورة ثالثة!!

وهذا الأمرُ لا يتمُّ بطريقةٍ عشوائية، ولا بمحضِ الصدفة، فالقرآنُ منزَّهٌ عن هذا. إنه يتمُّ وفقَ (ميزانٍ) دقيقٍ مقصودٍ محكَم، أرادَه اللهُ الحكيمُ سبحانه، وجعلَه أساساً للتعبيرِ البيانيِّ المعجز في كتابه، أحكمَ بهِ آياتِهِ ثم فصَّلَها، وصدقَ اللهُ القائل: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

والتفريقُ الحكيمُ المقصودُ للموضوعِ الواحدِ في مختلفِ السورِ المكية

والمدنية على السواء يتطلّبُ من الباحثِ المفسّرِ أنْ يتعرَّفَ على مواضعِ تفريقِ هذا الموضوع، وأنْ يعرفَ الآياتِ المختلفةِ التي عرضَتْه وتحدّثَتْ عنه، وأنْ يجمعَ جزئيـاتِ هذا الموضوع وينسـق بينها، ويستخرجَ منها صورةً واضحةَ المعالم والأسس لهذا الموضوع.

وهذا يوجبُ عليه أنْ يجمعَ تلك الآيات من مختلف السور، وأنْ يضعَها مجتمعةً أمامه، وينظرَ فيها على هذا الأساس.

إنَّ القرآنَ الكريم يفسّرُ بعضُه بعضاً، ولا بدَّ للمفسّرِ أنْ يفسرَ بعضَ آياتِه ببعض، وأنْ ينظرَ في آياته المختلفة ذواتِ الموضوع الواحد مجتمعةً، وأنْ يعرفَ أينَ اتفقت الآياتُ في حديثها عن الموضوع، وماذا أضافَتْ كلُّ آيةٍ عليه.

هذه خطوةٌ أساسيةٌ للتفسير، وهي تفسيرُ القرآن بالقرآن، وهي أهمُّ خطواتِ التفسير وأوَّلُها، وعليها تُبنى باقي خطواتِ التفسير ومراحله.

ومن أجودِ التفاسير التي حققَتْ هذا ـ على صورةٍ من الصور ـ جامعُ البيان عن تأويلِ آي القرآن لابن جرير الطبري، وتفسيرُ القرآن العظيم لابن كثير الدمشقي.

وحتى نتعرّف على الطريقةِ المثلى لتفسير القرآن بالقرآن، نستفيدُ من هاتيْن القاعدتيْن اللتيْن قرّرهما الدكتور عدنان زرزور:

قال الدكتور زرزور عن القاعدة الأولى: «أنْ يهتديَ الدارسُ بمألوفِ استعمالِ القرآنِ نفسِه للألفاظِ والأساليب: ولا يتمُّ ذلك إلاّ بتعاهدِ نصوصِه المكّية والمدنية، والوقوفِ ـ مهما أمكن ـ على المعاني التي تدورُ عليها اللفظةُ الواحدةُ في استعمالاتها المختلفة... يقولُ الشيخ محمد عبده: فعلى المحققِ أنْ يفسرَ القرآنَ بحسب المعاني التي كانت مستعمَلةً في عصرِ نزوله.. والأحسنُ أنْ يفهمَ اللفظَ من القرآن نفسهِ، بأنْ يجمعَ ما تكرّرَ في مواضعَ منه، وينظرَ فيه، فربما استُعملَ بمعانٍ مختلفةٍ، ويتحقّق كيف يتفقُ معناه مع جملته من الآية، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه»[1].

---

(١) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه للدكتور عدنان زرزور، ص٢٢٥ ـ ٢٢٦.

وقالَ عن القاعدةِ الثانية: وهي معرفةُ حقيقةِ معنى اللفظ من خلال الآية التي وردَ فيها: «ثم يقول الأستاذ الإمام ـ رحمه الله ـ: إنّ القرآنَ يفسّرُ بعضُه بعضاً، وإنَّ أفضلَ قرينةٍ تقومُ على حقيقةِ معنى اللفظ:

ـ موافقتُه لما سبقَ من القول.

ـ واتفاقُه مع جملةِ المعنى.

ـ وائتلافُه مع القصدِ الذي جاءَ له الكتابُ بجملتِه»[1].

ونوردُ مثالاً نوضحُ فيه هذه الحقيقة، من أنّ القرآنَ يفسّرُ بعضُه بعضاً، وأنه لا بدَّ من جمعِ الآياتِ المختلفةِ التي تتحدّثُ عن الموضوعِ الواحد، من بابِ تفسيرِ القرآنِ بالقرآن.

أخبرَ القرآنُ عن خَلْقِ آدمَ أبي البشر عليه السلام بعدةِ كلمات، يبدو بينها شيءٌ من التعارضِ الظاهري: فمرّةً أخبرَ أنّه خُلِقَ من طين، ومرّةً من حمأ مسنون، ومرّةً من تراب، ومرّةً من صلصالٍ كالفخار، ومرةً من طين لازب!!

وحتى نعرفَ المادةَ التي خُلقَ منها آدم، والمراحلَ التي مرَّ بها خلْقُه، لا بدَّ أنْ نجمعَ الآياتِ التي تحدَّثتْ عن ذلك، وأنْ نحاولَ ترتيبها مرحلياً.

وعندما ننظرُ في هذه الآياتِ، فسوف نرى أنَّ خلْقَ آدمَ عليه السلام مرَّ بخمسِ مراحلَ متتابعةٍ، وعلى كلِّ مرحلةٍ آياتٌ صريحة:

المرحلة الأولى: خَلْقُ آدمَ من تراب: حيثُ أُخذَتْ حفنةٌ من ترابِ الأرض مختارة، تجمَّعتْ فيها كلُّ صفاتِ وألوانِ تراب الأرض. قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

المرحلة الثانية: خلْقُه من طين: وذلك بمزجِ الحفنةِ السابقةِ من التراب بالماء، فصارت طيناً. قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ [سورة صٓ: ٧١].

---

(١) مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، ص٢٢٦.

المرحلة الثالثة: خلْقُه من طينٍ لازبٍ: والطينُ اللازبُ هو الشديدُ المتماسك، وهو الطينُ الرخو في المرحلة السابقة، حيث تمَّ تحويلُ الطينِ الرخوِ إلى طينٍ لازبٍ شديدٍ غليظٍ كثيفٍ متماسك، تمهيداً لتجميدِه ويُبسه. قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

المرحلة الرابعة: خلْقُه من صلصالٍ من حمأ مسنون: حيثُ تُرِكَ الطينُ اللازبُ الغليظ فترة، فتحوَّل إلى طينٍ أسود منتنٍ متغيّرٍ جافّ. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨].

المرحلة الخامسة: خَلْقُه من صلصالٍ كالفخار: والصلصال هو الطينُ اليابسُ، وسُمّيَ صلصالاً لأنك إذا نَقَرْتَ عليه (يَصِلّ): أي: يُخرجُ الصوت.

والفخار معروف، وقد تُرِكَ الحمأُ المسنون حتى جفَّ ويبس، وصار قوياً متيناً صلباً كالفخار. قال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمن: ١٤].

إنَّ كلَّ آيةٍ من الآياتِ التي أوردناها تتحدّثُ عن مرحلةٍ من المراحلِ التي مرّ بها خلقُ آدمَ، وليس بينها تعارضٌ أو تناقض.

ولم نعرفْ كيفيةَ خلْقِ آدمَ إلاّ بعدَ جمعِ الآياتِ المتفرّقة، التي تحدّثَتْ عنه: آيةٌ من سورةِ آل عمران المدنية، وآيةٌ من سورة صَّ المكية، وآيةٌ من سورة الصافات المكية، وآيةٌ من سورة الحجر المكية، آيةٌ من سورةِ الرحمن المدنية.

وكلُّ تلك المراحلِ الخمسة لجسمِ آدمَ عليه السلام قبلَ نفخِ الروحِ فيه، كان فيها مجردَ جسدٍ مصوَّرٍ تمثال، وعلى هذا قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ [الأعراف: ١١].

وبعد ذلك نفخَ اللهُ فيه من روحه، فصارَ حياً، وأمرَ الملائكةَ بالسجودِ له. قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٨ ـ ٢٩].

وهذا معنى قولنا: القرآنُ يفسِّرُ بعضُه بعضاً.

وهذا معنى قول الإمامِ ابن تيمية: «إنَّ أصحَ طرقِ التفسيرِ أنْ يُفسَّرَ القرآنُ بالقرآنِ، فما أُجْمِلَ في مكانٍ فإنه قد فُسِّرَ في موضعٍ آخر، وما اختُصرَ في مكانٍ فقد بُسِطَ في موضعٍ آخر..».

وحول هذا المعنى يقولُ الدكتورُ محمد حسين الذهبي رحمه الله: «الناظرُ في القرآن الكريم يجدُ أنه قد اشتملَ على الإيجازِ والإطناب، وعلى الإجمالِ والتبيين، وعلى الإطلاق والتقييد، وعلى العمومِ والخصوص، وما أُوجزَ في مكان قد يُبسَطُ في مكانٍ آخر، وما أُجمِلَ في موضعٍ قد يُبيَّن في موضعٍ آخر، وما جاءَ مطلقاً في ناحيةٍ قد يَلحقُه التقييدُ في ناحيةٍ أخرى، وما كان عاماً في آيةٍ قد يدخلُه التخصيصُ في آيةٍ آخرى!

لهذا كان لابدَّ لمن يتعرّض لتفسيرِ كتابِ الله أنْ ينظرَ في القرآنِ أولاً، فيجمعَ ما تكرَّرَ في موضوع واحد، ويقابلَ الآياتِ بعضها ببعض، ليستعين بما جاءَ مسهَباً على معرفةِ ما جاءَ موجَزاً، وبما جاءَ مبيَّناً على فهمِ ما جاءَ مجمَلاً، وليحملَ المطلقَ على المقيد، والعامَّ على الخاص. وبهذا يكون قد فسَّرَ القرآن بالقرآن، وفَهِمَ مرادَ الله بما جاءَ عن الله.

وهذه مرحلةٌ لا يجوزُ لأحدٍ مهما كان أنْ يُعرضَ عنها، ويتخطَّاها إلى مرحلةٍ أُخرى، لأنَّ صاحبَ الكلام أدرى بمعاني كلامه، وأعرفَ به من غيره!»(١).

١ ـ تفسير العام بحمله على الخاص:

في القرآنِ آياتٌ معناها عام، لأنَّ ألفاظها تدلُّ على العموم، ولكن هذا العامَّ غيرُ مراد، لوجودِ آياتٍ أُخرى تخصِّصُها، ومَنْ نسيَ الآياتِ الأُخرى الخاصة، وفهمَ الآياتِ العامة على عمومها، يخطىءُ في تفسيرِ القرآن وبيانِ معانيه.

لا بدَّ للمفسّرِ من أنْ يحملَ عامَّ القرآن على خاصّه، وأنْ يضعَ الآياتِ الخاصةَ بجانبِ الآيات العامة، ليعرفَ تخصيصَ الخاصةِ للعامة.

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٣٧.

والعامُّ هو: اللفظُ الذي يستغرقُ كلَّ أفراده.

ومن ألفاظِ العموم في القرآن: أسماءُ الشرط، وأسماء الموصول، وأسماء الاستفهام، والجمعُ المضاف لما بعده، والاسمُ المعرَّف بأل التعريف، والنكرةُ في سياق النفي، والنكرةُ في سياق النهي...

وهذا كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧].

كلمة «كلّ» مِن ألفاظِ العموم، ونَفهمُ من الآية أنَّ «كلَّ» المخلوقين على وجهِ الأرضِ سيموتون.

والعامُّ في القرآنِ ثلاثةُ أقسام:

١ ـ العامُّ الباقي على عمومه: حيثُ جاءَ اللفظُ عاماً في الآية، وعمومُه مُراد، ولا تخصيصَ له.

وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا﴾ [يونس: ٤٤]، والعموم في كلمتين: «الناس»: لأنه معرَّفٌ بأل التعريف، و«شيئاً»: لأنه نكرةٌ في سياق النفي.

وكقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ﴾ [النساء: ٢٣]، الكلماتُ في الآية عامةٌ لأنها جمعٌ مضافٌ لما بعده.

٢ ـ العامُّ المرادُ به الخصوص: اللفظُ عام في الآية، لكنه يراد به الخصوص، بدليل سببِ نزولها مثلاً.

مثال هذا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

«الناس» في الآيةِ مذكورة مرتين، لأنها اسمٌ معرَّفٌ بأل التعريف، فهي من ألفاظِ العموم، ولكنَّ العمومَ هنا ليس مراداً، فلايُرادُ بكلمة «الناس» في الموضعين

كلُّ الناس من بني آدم. إنما يُرادُ بها الخصوص.

المرادُ بكلمة «الناس» في المرة الأولى شخصٌ واحد: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾. وهو نعيمُ بن مسعود الأشجعي ـ أو رجلٌ من خزاعة ـ.

حيثُ استأجره أبو سفيان بعد انسحابِ قريشٍ من معركةِ أحد، ليثبطَ المؤمنين ويُضعفَ معنوياتهم، وطلبَ منه أنْ يتوجَّهَ إلى المدينة، وأنْ يقولَ للمسلمين: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾. أي: إنَّ قريشاً بقيادةِ أبي سفيان قد جمعوا لكم الجيشَ الكثيف، وهم قادمون إليكم عن قريبٍ ليقضوا عليكم.

فالمرادُ بكلمة «الناس» في المرة الثانية: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ...﴾: قريش.

ولما بلَّغَ هذا الشخصُ «الناسُ» رسالتَه، وهدّدَ المسلمين وخوَّفهم، لم يضعفوا ولم يخافوا، وزادَهم هذا التهديدُ إيماناً، وقالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾(١).

٣ ـ العامُّ المخصوص: وهو اللفظُ العامُّ في الآيةِ، وعمومُه ملحوظٌ من حيث معنى اللفظ ودلالته، ولكنَّ هذا العامَّ مخصّصٌ في لفظٍ آخر، سواء في نفسِ الآية، أو في آية أخرى.

وتخصيصُ العامّ هو في النوع الثالث، حيث يجبُ حملُ العامِّ في الجملةِ ـ أو الآية ـ الأولى على الخاصِّ الذي خصَّصَه في الجملة ـ أو الآية ـ الثانية، وذلك بإخراجِ أفرادِ الخاص من حكم العام، وإبقاءِ دلالةِ العامّ على ما سواها.

المخصص المتصل والمنفصل:

الخاصُّ الذي يخصصُ العامَّ ويُخرِجُ منه بعضَ أفرادِه، قد يكون متصلاً به في نفس الآية أو الآيات، وقد يكونُ منفصلاً عنه في آية أخرى.

---

(١) الإتقان للسيوطي: ٢/ ٦٨١ ـ ٦٨٥.

والمخصصُ المتصلُ خمسةُ أنواع:

أ ـ **الاستثناء**: بأنْ يأتيَ لفظٌ يدلُّ على العموم، ثم يأتي الاستثناءُ مخصِّصاً له، مُخْرِجاً لبعضِ أفرادِه.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨].

العمومُ في قوله: «كل» والجملةُ عامةٌ في هلاكِ كلِّ شيءٍ: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ﴾. وجاءَ التخصيصُ بالاستثناء: «إلا وجهه»، فالله سبحانه هو الباقي. وهذا كقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ [الرحمن: ٢٦ ـ ٢٧].

ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٤ ـ ٥].

العمومُ في قوله «الفاسقون» لأنه جمعٌ معرَّفٌ بأل التعريف. ومعنى العموم: الذين يرمون المحصنات ويقذفونهن بالزنا، ولم يأتوا بأربعةِ شهداءَ على ذلك، فيجبُ أنْ يُقامَ عليهم حدُّ القذف، بأنْ يُجلَدوا ثمانين جلدة، ثم تُرَدُّ شهادتُهم ولا تُقبَل، لأنهم فاسقون.

والاستثناءُ في قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟﴾. وهذا استثناءٌ من عموم الفسق، يعني: أنه إذا تابَ القاذف وأصلحَ فإنَّ اللهَ يتوبُ عليه، لأن الله غفورٌ رحيم، وهو بذلك لم يَعُدْ فاسقاً.

ب ـ **الوصف**: قد يكونُ اللفظُ عاماً، ولكن عمومَه غيرُ مراد، لأنه خُصِّصَ بالوصفِ الذي جاءَ بعده.

مثالُ ذلك قوله تعالى: ﴿وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ [النساء: ٢٣].

الربائبُ: جمعُ ربيبة، والربيبةُ هي بنتُ الزوجة من زوجٍ سابق، وهي

محرَّمةٌ على زوجِ أمّها. فكلمة «ربائبكم» عامة، باقيةٌ على عمومها، لم تُخصَّص.

الشاهدُ في الآية في قولِه: ﴿ مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ ﴾.

كلمةُ «نسائكم» عامة، لأنها جمعٌ معرَّفٌ بالإضافة. وعمومُها غيرُ مراد، لأنه لو كان مراداً لدلَّ على حرمةِ بنت الزوجة مطلقاً، مهما كان وضعُ الزوجة.

«نسائكم» في الآية موصوفة: ﴿ مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ ﴾، فعمومُها مخصوصٌ بالوصف، والمعنى أنَّه لا تحرمُ بنتُ الزوجة إلا إذا دخلَ الرجلُ في أُمِّها، أما إذا لم يدخلْ في أُمِّها ولم يجامعْها فإن البنت لا تحرمُ عليه، بمعنى أنه إذا عقدَ قرانَه على الأم، ثم طلَّقَها قبلَ الدخول فإنَّ بنتَها لا تحرُمُ عليه. وهذا تخصيصٌ لعموم كلمة «نسائكم». وتقدير الوصف: من نسائكم المدخولِ بهن!!

ولهذا قال الفقهاء: الدخولُ في الأمهاتِ يحرمُ البنات! بينما العقدُ على البناتِ يحرمُ الأمهات!.

جـ ـ الشرط: قد تكون الكلمةُ عامة في ظاهرها، لكنَّ عمومَها مخصصٌ بالشرطِ بعدها.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞ ﴾ [النساء: ١٢].

العمومُ في كلمة: «أزواجكم» لأنها جمعٌ معرَّف بالإضافة. ومعنى قوله: ﴿ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ ﴾: أن الرجلَ يأخذُ نصفَ تركةِ زوجته.

ولكنَّ هذا الحكمَ ليس على عمومه، لوجودِ شرطٍ خصَّصَه، وهو في قوله: ﴿ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞ ﴾. أي: إنْ كانَ للزوجةِ أولاد، فإنَّ زوجَها لا يأخذُ نصفَ تركتها، وإنما ينتقلُ من النصفِ إلى الربع، وهذا ما أوضحَتْه الآية المذكورة: ﴿ ۞ وَلَكُمۡ نِصۡفُ مَا تَرَكَ أَزۡوَٰجُكُمۡ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٞۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٞ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكۡنَۚ ﴾.

د ـ الغاية: قد تكونُ الغايةُ مخصِّصَةً للعامِّ قبلَها.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩].

اللفظُ العامُّ في الآية هو اسمُ الموصول: ﴿ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ لأنَّ أسماءَ الموصول من صيغِ العموم، فاللهُ يأمرُنا في هذه الآية بقتالِ الكافرين من أهل الكتاب، لأنهم لا يؤمنون بالله، ولا باليوم الآخر، ولا يحرِّمون ما حرَّمَ اللهُ ورسولُه، ولا يَدينونَ دينَ الحق!

وظاهرُ اللفظِ وجوبُ قتالِ هؤلاء الكفار من أهل الكتاب مطلقاً، وأنّه لا يتوقفُ طالما بقي هناك كافرٌ منهم!

ولكن هذا العمومَ غيرُ مراد، لورودِ لفظٍ خصَّصَه، وهو «حتى» الغائية، في قوله: ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ ﴾. فإذا دفعَ الكفارُ الكتابيون الجزيةَ فقد توقفَ قتالُهم.

فنقـولُ في الحكم المسـتفاد من الآية: يجبُ قتـالُ الكفارِ الكتابيين حتى يخضعوا للمسلمين، ويُوافقوا على دفعِ الجزيةِ لهم، فإذا دفعوا الجزية لا يجوزُ قتالُهم.

ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾ [البقرة: ١٩٦].

اللفظُ العامُّ هو قولُه: «رؤوسكم»، لأنه جمعٌ معرَّفٌ بالإضافة.

ومعنى قوله: ﴿ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ ﴾: نهيُ الحُجّاجِ والمعتمرين - المُحْرِمين المُحْصَرين الممنوعين من الحج أو العمرة - عن حلْقِ رؤوسهم والتحللِ من الإحرام أثناءَ الإحصار، لأنَّ هذا هو موضوعُ الآية: ﴿ وَأَتِمُّواْ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ ﴾.

وظاهرُ قوله: ﴿ وَلَا تَحْلِقُواْ رُءُوسَكُمْ ﴾: حرمةُ حلْقِ رأسِ المُحْرِمِ طيلةَ إحصارِه، وهذا العمـومُ غيرُ مرادٍ، لما فيه من مشقّةٍ وأذى، ولذلك خصَّصَ هذا العمومَ بكلمةِ «حتى» في قوله: ﴿ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ﴾.

أي: لا يجوزُ حلقُ رأسِ المحرمِ المحصَرِ حتى يبلغَ الهديُ مَحِلَّه، فإذا بلغَ الهديُ محلَّه جازَ له أنْ يتحلّلَ ويحلقَ رأسَه.

والراجحُ في معنى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ﴾: أنْ يذبحَ الهديَ في المكان الذي أُحصِرَ فيه، ومُنِعَ من الوصولِ إلى مناسك الحج، سواء كان ذلك بخوفِ عدوٍّ أو مرض، لأن هذا هو فعلُ رسول الله ﷺ. فلما منعَتْهُ قريشٌ من دخولِ مكة سنة ستٍّ من الهجرة، عندما أتى مع أصحابِه لأداءِ العمرة، وساقَ الهديَ، وعقدَ مع قريشٍ صلْحَ الحديبية، تحلَّلَ وذبحَ الهديَ وحلقَ رأْسَه في الحديبية.

هـ - **بدلُ البعضِ من الكل**: قد يكونُ اللفظُ عاماً، لكنَّ عمومَه غيرُ مراد، لورودِ ما يُخصصهُ، وهو بدلُ البعضِ من الكل.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

لفظُ «الناس» في الآيةِ عامّ، لأنه معرَّف بأل التعريف، وظاهرُ العموم في قوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾. أنَّ الحجَّ واجبٌ على جميع الناس مؤمنين وكافرين، لكنَّ هذا العمومَ غيرُ مرادٍ لورودِ مخصِّصٍ له. والمخصِّصُ هو قوله: ﴿مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، و«مَنْ» اسمُ موصول، في محلِّ جرّ، على أنّه بدلٌ من كلمةِ «على الناس»، وهو بدلُ بعضٍ من كل.

والمعنى لله على بعضِ الناس حجُّ البيت، وهم المؤمنون من الناس، المستطيعون للحج، القادرون عليه.

هذه هي المخصِّصاتُ الخمسةُ للعام المتصلة به: الاستثناء، والوصف، والشرط، والغاية، والبدل.

أما المخصِّصُ المنفصلُ فقد يكون آية أُخرى أو حديثاً عن رسول الله ﷺ. ويهمُّنا المخصصُ من القرآن، لأننا نتحدّثُ عن تخصيص القرآنِ بالقرآن.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

اللفظُ العامُّ في الآيـة: «المطلقات»، لأنـه جمعٌ معرَّفٌ بـأل التعريف. وظاهرُ الآيةِ أنَّ كلَّ المطلقاتِ يتربصْنَ بأنفسهنّ ثلاثة قروء. أي: كلُّ امرأةٍ مُطلَّقةٍ لا بدَّ أنْ تعتدَّ ثلاثةَ قروء.

لكن هذا العمومَ غيرُ مرادٍ، لأنه مخصَّصٌ في آياتٍ أُخرى.

فالمطلَّقةُ التي يطلِّقُها زوجُها قبلَ الدخول بها لا عدَّةَ لها، وهذا تخصيصٌ للعموم السابق. والمخصِّصُ آيةٌ في سورةِ الأحزاب، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

والمطلَّقةُ الحاملُ عدتُها بوضعِ الحملِ. والمخصِّصُ للعمومِ السابقِ آيةُ سـورة الطلاق، وهي قولـه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤].

والمطلَّقةُ التي لا تحيض ـ سواء كانت صغيرةً أو آيسةً ـ عدتُها ثلاثةُ أشهر، لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسْنَ مِنَ ٱلْمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمْ إِنِ ٱرْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشْهُرٍ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمْ يَحِضْنَ﴾ [الطلاق: ٤].

فعمومُ المطلقاتِ المعتدّاتِ بثلاثةِ قروء في سورة البقرة مخصوص، بتخصيصِ أصنافٍ من المطلَّقات عدتهنَّ بغيرِ ذلك: المطلَّقاتُ الحواملُ، والمطلَّقاتُ اليائسات من الحيض، والمطلَّقاتُ الصغيرات. والمخصِّصُ آياتٌ أُخرى منفصلةٌ عن الآية العامة(١).

٢ ـ تفسير المجملِ بحمله على المبين:

قد تأتي بعضُ الموضوعاتِ مجملةً موجـزةً في موضعٍ، ولكنّها مفسَّـرةٌ مفصَّلة في موضعٍ آخر. فلابدَّ من تفسير الموجزِ بالمفصَّل.

---

(١) انظر: الإتقان للسيوطي: ٢/ ٦٨٥ ـ ٦٨٧.

والأمثلةُ على هذا كثيرةٌ في القرآن، وهي بارزةٌ في القصص القرآني.

فقصةُ آدمَ عليه السلام وإبليس عليه اللعنة جاءتْ مجملةً موجزةً في بعض المواضع، منها قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وهذا الإيجازُ مفصَّلٌ في سورٍ أُخرى، تعرضُ بعضَ تفاصيلِ قصةِ آدمَ عليه السلام، منها السورُ التالية:

أ ـ سورة البقرة: الآيات: ٣٠ ـ ٣٩.

ب ـ سورة الأعراف: الآيات: ١١ ـ ٢٧.

جـ ـ سورة الحجر: الآيات: ٣٦ ـ ٥٠.

د ـ سورة الإسراء: الآيات: ٦١ ـ ٦٥.

هـ ـ سورة طه: الآيات: ١١٥ ـ ١٢٧.

و ـ سورة صٓ: الآيات: ٦٧ ـ ٨٥.

وكما أنَّه لابدَّ من تفسيرِ الموجزِ بالمفصَّلِ في القرآن، كذلك لا بدَّ من تفسير المجملِ بالمبيَّن، لأن المجملَ لا يُفهَمُ حقَّ الفهمِ إلاَّ بالمبيَّن.

وهذا كثيرٌ في القرآن، في الأخبارِ والأحكامِ وغيرِ ذلك.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

يخبرُ اللهُ في هذه الآية أنَّ الأبصارَ لا تدركُه سبحانه، وهذا كلامٌ مُجمَلٌ، وقد يُفهَمُ منه أنَّ الأبصارَ لا ترى الله، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لأنَّ الرؤيةَ من الإدراك ـ وهذا مافهمه المعتزلةُ منها، حيث ذهبوا إلى أنَّ اللهَ لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة ـ.

ولكنَّ هذا الإجمالَ مبيَّنٌ في آيةٍ أُخرى صريحة، تنصُّ على أنَّ المؤمنين يرون اللهَ في الآخرة. قال تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

وهذا البيانُ في سورةِ القيامةِ دلَّ على أنَّ الإدراكَ المنفيَّ بمعنى: الإحاطة. فالأبصارُ لا تُحيطُ بالله، لا في الدنيا ولا في الآخرة، لا تحيطُ به مع أنها تراه في الجنة!

ومثالُ ذلك قوله تعالى: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ﴾ [المائدة: ١].

الإجمالُ في الاستثناء: ﴿إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ﴾. حيث أخبرَ اللهُ المؤمنين أنه أحلَّ لهم الأنعام، والأنعامُ هي الإبلُ والبقرُ والغنم، ولم يُحرِّمْ عليهم إلا بعض أنواعِها في حالاتٍ خاصة.

وهذا الإجمالُ بيّنَتْه آيةٌ أُخرى لاحقة، وهي قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣].

فهذه أنواعٌ من بهيمةِ الأنعامِ محرَّمةٌ، وهي بيانٌ لإجمالِ الاستثناءِ في الآيةِ المبيحة لبهيمة الأنعام[١].

خمس مجملات في سورة الفاتحة:

من اللطيفِ في تفسير المجملِ بالمبين ورودُ خمسِ كلماتٍ مجملةٍ في سورة الفاتحة القصيرة ـ أُمِّ القرآن ـ وورودُ بيانها في آياتِ القرآن:

أ ـ قوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

«يوم الدين» مُجمَلٌ في هذه الآية، مع أنَّ مفهومَ الآيةِ يدلُّ على أنَّ المرادَ به

---

(١) انظر الإتقان للسيوطي: ٢/ ٦٩٣ ـ ٦٩٦.

يومُ القيامة، الذي هو يومُ الجزاء والحساب.

وهذا الإجمالُ بُيِّنَ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٞ لِّنَفۡسٖ شَيۡـٔٗاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٧ ـ ١٩].

يومُ الدين هو: اليومُ الذي يملكُه الله ـ كما نصّت آيةُ سورة الفاتحة ـ وهو الذي لا يملكُ فيه أحدٌ شيئاً، ولا يمكنُ أنْ ينفعَ أحداً، لأنَّ الأمرَ فيه كلّه لله ـ كما نصَّتْ آيةُ سورة الانفطار ـ.

ب ـ قوله تعالى: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦].

ما هو الصراطُ المستقيم؟ الذي يطلبُ المؤمنُ من اللهِ أنْ يُثبّتَه عليه؟.

إنَّه مجملٌ في سورةِ الفاتحة، لكنّه مبيَّنٌ في سورة الأنعام، قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

الصراطُ المستقيمُ هو دينُ الله وشرعُه، المتمثّلُ بأحكامِ الشريعة، التي أمرَ الله المؤمنينَ بالالتزام بها، أداءً للواجبات، وتركاً للمحرمات.

جـ ـ قوله تعالى: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة: ٧].

يطلبُ المؤمنُ من ربِّهِ أنْ يثبّته على صراطِه المستقيم، وهذا الصراطُ موصوفٌ بأنه صراطُ الذين أنعمَ اللهُ عليهم بنعمةِ الإيمان.

لكنَّ اللفظَ في الفاتحةِ مجْمَلٌ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ وهو مبيَّنٌ في سورة النساء. حيث بَيَّنَهُ قولُه تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

الذين أنعمَ اللهُ عليهم هم المؤمنون الصالحون، الذين أنعمَ اللهُ عليهم بنعمةِ الإيمانِ والطاعة، والذين يَمُنُّ عليهم بدخول الجنة، وهم النبيون والصدّيقون والشهداء والصالحون. فالمؤمنُ يسألُ اللهَ أن يكونَ رفيقاً لهؤلاء في الجنة.

د ـ قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧].

يطلبُ المؤمنُ من ربّه أنْ يُبعدَه عن صراطِ وطريقِ المغضوب عليهم، وأنْ يعصمه كي لا يسيرَ فيه.

و«المغضوب عليهم» في الفاتحة مجمَلٌ. وهو مبيَّنٌ في سورةِ المائدة. في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة ٦٠].

المغضوبُ عليهم هم الكافرون من أهلِ الكتابِ، الذين غضبَ اللهُ عليهم ولَعَنَهم، ومسخَهم، وجعل منهم القردة والخنازير.

وهؤلاءِ همُ اليهود، كما أخبر عن ذلك رسول الله ﷺ، كما سنذكرُ في بيان السنّة لمجملِ القرآن.

هـ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

صراطُ «الضالين» مكروه، يطلبُ المؤمنُ من ربه أنْ يبعدَه عنه.

و«الضالين» كلمةٌ مجملةٌ هنا، وهي مبيَّنةٌ في سورة المائدة. في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

بيّنتْ آيةُ سورة المائدة أنّ «الضالين» هم الكافرون من أهل الكتاب، الذين غَلَوْا في دينهم غيرَ الحقّ، واتّبعوا أهواءهم، فضلّوا وزاغوا، واتّبعوا أهواءَ زعمائهم وقادتهم الضالين من قبلهم.

وهؤلاء الكتابيون الكافرون الضالون هم النصارى، كما أخبرَ رسولُ الله ﷺ.

وورودُ خمسِ مجملاتٍ في سورة الفاتحة، مبيَّنةٌ في السور الأخرى، دليلٌ على اعتبار الفاتحة «أم القرآن» و«أم الكتاب». وهي إجمالٌ لموضوعاتِ باقي سور القرآن. وليس هذا موطن التفصيل في هذه المسألة.

٣ ـ تفسير المطلق بحمله على المقيد:

قد تَرِدُ بعضُ الأحكامِ مطلقةً في آية، وتَرِدُ مقيّدةً في آيةٍ أخرى.

والمطلقُ هو الدالُّ على الشيء بدون قيد.

عند فريقٍ من العلماء أنه إذا حكمَ اللهُ في شيء بصفةٍ أو شرط، ثم وردَ حكمٌ آخرُ مطلَقاً، حُمِلَ المطلقُ على المقيد، إذا لم يكن له أصلٌ يُرَدُّ إليه إلاَّ ذلك الحكم.

وهذا هو مذهبُ الإمام الشافعي.

ومن الأمثلةِ على حمْلِ المطلق على المقيد:

أ ـ أَمَرَ اللهُ بالإشهادِ على البيوعِ في قوله تعالى: ﴿ وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وأمرَ اللهُ بالإشهادِ على دفْعِ الأموالِ إلى اليتامى عندما يكبرونَ ويَرشدون. وذلك في قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ۝ ﴾ [النساء: ٦].

والشهادةُ في الموضعيْن مطلقةٌ، حيث لم يُقَيَّد الشهود بعددٍ ولا صفة.

بينما الشهادة على إرجاعِ المطلَّقة أو فراقها مقيدةٌ بشاهديْن عدليْن. قال تعالى: ﴿ فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا۟ ذَوَىْ عَدْلٍ مِّنكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ لِلَّهِ ﴾ [الطلاق: ٢].

قيدت الآيةُ الشهادةَ بثلاثةِ قيود: أنْ يكونا شاهديْن اثنيْن، وأنْ يكونا عدليْن، وأن يكونا من المسلمين.

وهذه القيودُ الثلاثةُ على الشهودِ مذكورةٌ في الإشهادِ على الوصية، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٦].

وعند الشافعي ومَنْ معه: يحملُ المطلقَ في الإشهادِ على البيعِ وعلى تسليمِ

أموالِ اليتامى، وعلى المقيَّدِ في الإشهاد على المراجعة أو المفارقة.

وقالوا: لا بدَّ من أنْ يكونَ الشاهدُ على البيع عدلاً، لأنَّ القرآنَ اشترطَ عدالتَه في المراجعةِ أو المفارقة، ولا بدَّ من حملِ المطلقِ على المقيّد.

ب ـ ومن الأمثلة على ذلك أيضاً: غسلُ الأيدي في الوضوء مقيَّدٌ بكونه إلى المرفقين. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾ [المائدة: ٦].

بينما مسحُ الأيدي في التيمم مطلَق، قال تعالى: ﴿فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمۡسَحُواْ بِوُجُوهِكُمۡ وَأَيۡدِيكُم مِّنۡهُۚ﴾ [المائدة: ٦].

وعندَ الشافعي ومَنْ معه: يجبُ حملُ المطلقِ على المقيّد، فيجبُ على المتيمم أنْ يمسحَ يديْهِ إلى المرفقين في التيمم، لأنه يغسلُهما إلى المرفقيْن عندما يتوضأ.

وعند غيرِ الشافعي ـ كمالك وأحمد ـ لا يُحملُ المطلقُ على المقيدِ في هذه الحالة، ويكفي في التيمم مسحُ اليديْن إلى الرسغين.

جـ ـ ومن الأمثلةِ على ذلك أيضاً تحريم الدم:

قُيِّدَ الدمُ المحرَّمُ في سورة المائدة بكونِه مسفوحاً ـ والمسفوحُ هو الذي يَسيلُ على الأرضِ عند ذبح الذبيحة ـ قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِي مَآ أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٖ يَطۡعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيۡتَةً أَوۡ دَمٗا مَّسۡفُوحًا أَوۡ لَحۡمَ خِنزِيرٖ فَإِنَّهُۥ رِجۡسٌ أَوۡ فِسۡقًا أُهِلَّ لِغَيۡرِ ٱللَّهِ بِهِۦۚ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

بينما هذا الدمُ المحرمُ مطلَقٌ في آياتٍ أخرى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيۡرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: ١٧٣].

ولا يجوزُ إبقاءُ المطلقِ على إطلاقِه، لأنَّ في هذا مشقّةً كبيرة، لأنه يدلُّ على تحريمِ الدمِ حتى لو كانَ على اللحمِ والعظمِ وفي العروق، بعد ذبح الذبيحة وتقطيعها.

لذلك يجبُ حملُ المطلقِ على المقيد، لاتحادِ الحكمِ، وهو تحريمُ الدم، فنقول: لا يحرمُ الدمُ إلا إذا كان مسفوحاً.

وقد قالت السيدة عائشة رضي الله عنها: لو لم يقل الله: ﴿أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا﴾ لتتبعَ الناسُ الدمَ الذي على العروق، والذي في القدورِ عند طبخ اللحم!

د ـ ونُذَكِّرُ هنا بمثالٍ سبقَ أنْ أوردناه وشرحناه عند حديثنا عن «تفسير القرآن بالقرآن» في مبحث (أحسن طرق التفسير)، فإنه يصلحُ أنْ يورَدَ هنا أيضاً. وهو كفارةُ القتل وكفارة الظهار بعتق الرقبة.

لقد أوجبَ اللهُ في كفارة الظهار عتق رقبة، وهذه الرقبةُ مطلقةٌ. قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُواْ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا﴾ [المجادلة: ٣].

وأوجبَ اللهُ في كفارةِ القتل عتقَ رقبةٍ مؤمنة، فهي مقيدةٌ بالإيمان. قال تعالى: ﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ [النساء: ٩٢].

فعندَ الشافعيِّ ومَنْ معه: يجبُ حملُ المطلق ـ وهو الرقبةُ في الظهار ـ على المقيد ـ وهو الرقبةُ المؤمنةُ في كفارة القتل ـ لاتحادِ الحكمِ، فلا بدَّ أنْ تكونَ الرقبةُ في كفارةِ الظهار مؤمنةً أيضاً[1].

والذي دفعَ الشافعيَّ ومَنْ معه إلى حمل المطلقِ على المقيَّدِ في الأمثلةِ السابقة كلها، هو اتحادُ الحكمِ في المطلقِ والمقيد، فبما أن الحكمَ فيهما واحدٌ فلا بدَّ من حملِ المطلقِ على المقيد، وتفسيرِ المطلقِ بالمقيد. سواءٌ في موضوعِ الشهادة على البيع وعلى المراجعة، أو على الوضوء والتيمم، أو على تحريم الدم المسفوح، أو على عتق الرقبة في كفارة القتل وكفارة الظهار. والله أعلم.

---

(١) انظر الإتقان: ٢/ ٧٣٦ـ ٧٣٩.

٤ ـ تفسير القراءات الصحيحة بعضها ببعض:

ومن أجلِ تفسيرِ القرآن بالقرآن لا بدَّ من معرفةِ القراءاتِ الصحيحةِ في الكلمةِ القرآنية، ولا بدَّ من معرفةِ معناها وحجتها وتوجيهِها، ثم تفسيرِ القراءات بالأخذِ بها كلها، وتفسيرِ بعضها ببعض، وهذا يوسِّعُ التفسير، ويُثري معانيَ القرآنِ وأحكامِه، لأنَّ كلَّ قراءة كأنها آيةٌ مستقلّة!!

ومن المناسبِ التذكيرُ أنَّ القراءاتِ الصحيحة عشر، منسوبةٌ لعشرةٍ من الأئمة القرّاء، وهم: ابن كثير المكي، ونافع المدني، وابن عامر الشامي، وأبو عمرو البصري، وعاصم وحمزة والكسائي الكوفيون، وأبو جعفر المدني، ويعقوب البصري، وخلف البغدادي.

وهذه القراءاتُ العشرُ الصحيحةُ كلُّها كلامُ الله، أنزلَها الله على رسوله ﷺ، وتلقَّاها عنه الصحابة، وقرؤوا بها، وعلّموها لمن بعدهم.

وقد تمَّ ضبطُ هذه القراءات وتسجيلها، وتوجيهُها وبيانُ معانيها، وأُلِّفَتْ كُتُبٌ كثيرةٌ في هذا الموضوع.

وواجبُنا بالنسبة إلى القراءاتِ العشرِ الصحيحةِ هو:

١ ـ نسبةُ القراءةِ إلى صاحبِها من القرّاء العشرة، وتوزيعُ القرّاءِ العشرة على القراءات الصحيحة في الآية. كأَنْ يُقال: هذه قراءةُ فلان؟ أو يقال: في الآيةِ قراءتان: قرأ فلانٌ وفلان بكذا، وقرأ الثمانية الباقون بكذا.

٢ ـ إحسانُ وإتقانُ النطقِ بكلِّ قراءة وضبطِها وشكلِها، وتحديدُ الكلمةِ من الآية التي فيها أكثر من قراءة!

٣ ـ معرفةُ معنى كلِّ قراءة، وتفسيرُ الآيةِ على أساسِها.

٤ ـ معرفةُ حجّةِ كلِّ قراءة ودليلِها وتوجيهها، والفرقُ بينها وبين غيرها.

٥ ـ الجمعُ بين القراءات الصحيحة، وتفسيرُ الآيةِ بها كلها.

ونُذكِّرُ بأنه لا يجوزُ الترجيحُ بين القراءاتِ العشر الصحيحة، لأنها كلَّها

كلامُ الله، وكلّها صحيحةٌ ثابتةٌ، وبعضُ كلامِ الله ليس بأرجحَ من بعضِ كلامِ الله!

ونُقرِّرُ هنا أنَّ مِنْ لوازمِ تفسيرِ القرآن بالقرآن تفسيرُ القراءاتِ العشر الصحيحة بعضِها ببعض، وبيانُ معنى الآية على كلِّ قراءة، ثم الجمعُ بين القراءات، والخروجُ بالمعنى العام للآية بعد ذلك!

ومن الكتبِ التي تَعرضُ ما في الكلمةِ القرآنية من قراءاتٍ عشرٍ صحيحةٍ وأربعٍ شاذّة كتاب (الميسّر في القراءات الأربعة عشر) لمحمد فهد الخاروف.

ومن الكتبِ في توجيهِ القراءاتِ السبع كتاب (حجة القراءات لأبي زرعة: عبد الرحمن بن زنجلة) تحقيق الدكتور سعيد الأفغاني.

ومن الكتبِ في توجيهِ القراءات العشر، كتاب (البدور الزاهرة في توجيه القراءات العشر المتواترة) للشيخ عبد الفتاح القاضي.

أ ـ من الأمثلةِ على تفسيرِ القراءاتِ بعضها ببعض قوله تعالى: ﴿مَـٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤].

في «مالك» قراءتان:

الأُولى: قراءةُ عاصم والكسائي ويعقوب وخلف: «مالِكِ» بالألف.

و«مالك» اسم فاعل، من «المِلْك» بكسر الميم، وهو أبلغُ في المدحِ والثناء.

وحجتهم في قراءةِ «مالك» قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَـٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

الثانية: قراءةُ نافع وابن كثير وابن عامر وحمزة وأبي عمرو وأبي جعفر: «مَلِك» بدون ألف. و«مَلِك» من «المُلْك» بضم الميم.

والمُلْك يشملُ المُلْكَ الماديَّ كالبيت، والمعنويَّ كالسلطان، ولهذا هي أبلغُ في المدحِ والثناء في هذا الجانب، لأنَّ كلَّ مَلِك فهو مالك، وليس كلُّ مالكٍ ملكاً.

وحجتُهم في قراءةِ مَلِك قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۗ﴾ [طه: ١١٤].

ويجبُ تفسيرُ القراءتين بالجمعِ بينهما، وكأنهما آيتان مستقلتان، فنقول: اللهُ هو مالكُ يوم الدين، لا يشاركُه في مِلْكِه ـ بكسر الميم ـ أحد، وهو مَلِكُ يومِ الدين، لا يشاركه في مُلْكِه ـ بضم الميم ـ أحد.

وإذا كان هو مَلِكُ يوم الدين، فهو مالِكُ يوم الدين. سبحانه وتعالى[(١)].

ب ـ ومن الأمثلةِ على ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ مِنۡ حَيۡثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

في قوله: ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾ قراءتان:

الأولى: قراءةُ حمزةَ والكسائي وخلف وشعبة عن عاصم: «حتى يَطَّهَّرْنَ». بتشديدِ الطاءِ والهاء. وأساسُها: «يَتَطَهَّرْنَ» فأُدغمت التاءُ في الطاءِ فصارت: «يَطَّهَّرْنَ».

والمعنى: لا تقربوهنّ بمجردِ انقطاع الحيض، لكن انتظروا حتى يَتَطَهَّرْنَ ويغتَسِلْنَ بالماء، ويرفَعْنَ الحدث.

وحجتُهم قولُه بعدها: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ فَأۡتُوهُنَّ﴾، وهذا بإجماعِ القرّاء. ومعنى «تطهرن» اغتسلنَ بالماءِ ورفعْنَ الحدث. وقوله بعد ذلك: ﴿وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾. وفي هذا تناسقٌ بينَ الكلماتِ الثلاثةِ: «يَطَّهَّرْنَ» «إذا تَطَهَّرْنَ» «يحب المتطهرين». لأنها كلَّها مشتقةٌ من الفعلِ الخماسي «تَطَهَّرَ»، وهو على وزن «تَفَعَّلَ».

وقوله: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرۡنَ﴾ أثبتَ لهنَّ عند الطهارةِ فعلاً، والفعلُ يكون بالتطهيرِ والاغتسالِ، وانقطاعُ دمِ الحيض ليس فعلاً منها، ولا ينطبقُ عليه التطهر!

---

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة، ص٧٧ ـ ٧٩.

الثانية: قراءةُ ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو وأبي جعفر ويعقوب وخلف وحفص عن عاصم: «يَطْهُرْن» بإسكانِ الطاءِ، وضمِّ الهاء.

و«يَطْهُرْنَ» مخفَّف، لأنَّ ماضيهِ ثلاثي: «طَهُرَ». تقول: طَهُرَ، يَطْهُرُ.

ومعنى «يَطْهُرْنَ» في الآية: ينقطعُ دمُ الحيضِ عنهن. وهذا أمرٌ ليسَ للنساء يَدٌ فيه، لأنـه أمرٌ جِبلِّيٌّ فطرَ اللهُ عليه النسـاء، فلا يَدَ ولا إرادةَ للمرأة في مجيءِ حيضِها، ولا في مدّةِ دورتِها الشهرية، ولا في انقطاعِ دمِ الحيضِ عنها، فطهارتُها ليستْ بإرادتِها. ولكنها إذا طَهُرَت وانقطَعَ دمُ الحيضِ عنها، فلابدَّ أنْ تتطهّرَ بعد ذلك وتغتسلَ بالماء لترفعَ الحدثَ، فتطهّرُها واغتسالُها بعد طُهْرِها وانقطاع حيضِها.

وحجّةُ هذه القراءة أنَّ اللهَ أخبرَ أنَّ المحيضَ أذى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾. ولذلكَ أمرَ باعتزال النساء أثناء الحيض: ﴿فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ﴾. وليس المرادُ اعتزالُهنّ المطلق، وإنمـا (الاعتزال الجنسـي)، بمعنى عدمِ المعاشرةِ الزوجيةِ والجماع أثناءَ الحيضِ، لأنّه أذى.

وجعلَ غايةَ الاعتزالِ الجنسي وعدمِ الاقتراب منهن هي «طُهْرَهنَّ» أي: انقطاعُ دم الحيض: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾!

ومن المعلومِ أنَّ المرأةَ المسلمةَ تتطهّرُ بعدما تطهرُ مباشرة، أي: تغتسلُ بعد انقطاع دمِ الحيض مباشرة، لتؤدِّي صلاتها، فكأنَّ الفترةَ الزمنية بعد طُهْرِها وتَطهُّرِها قصيرةٌ جداً!

وقد أجازَ اللهُ إتيانَ النساءِ ومعاشرتَهنَّ بعد تطهّرهنّ وليسَ بعد طُهْرِهنّ: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾. ونلاحظُ أنَّ «فأتوهن» مبنيٌّ على «إذا تطهرن». أي: إذا اغتسلْنَ وتطهَّرْنَ من حدثِ الحيض فأتوهنَّ من حيث أمرَكم الله.

والقراءتان متكاملتان:

على قراءة التخفيف: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ المرادُ انقطاعُ دم الحيض، الذي يُنهي الاعتزالَ الجنسي.

وتأتي بعدَها قراءةُ التشديد: ﴿ولا تقربوهن حتى يَطَّهَّرْنَ﴾، لتطالبَ الأزواجَ بانتظارِ الزوجات حتى يغتسلْنَ ليعاشروهن.

بدليل أن الجملة اللاحقة مبنيةٌ على القراءتين: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾[1].

* * *

(١) انظر: حجة القراءات لابن زنجلة، ص١٣٤ ـ ١٣٥.

المبحث الثاني

تفسير القرآن بالسنّة

تفسير القرآن بالسنّة هو الخطوةُ المرحليةُ الضروريةُ الثانية، كما بيَّنَّا في (أحسن طرق التفسير).

والسنَّة هي: ما أُثِرَ عن رسولِ الله ﷺ، من قولٍ، أو فعل، أو تقرير.

والسنّةُ هي المصدرُ الثاني من مصادر التشريع الإسلامي، ولا يجوزُ أنْ يتركَها مفسِّرُ القرآن.

السنّة مبيّنة للقرآن:

السنَّةُ ـ بمفهومِها العام ـ مبيّنة للقرآن، وموضّحةٌ له، تقيِّدُ مُطْلَقَه، وتُبيِّنُ مجملَـه، وتخصص عامّه، وتوضِّحُ مشكلَه، وسنعودُ إلى هذه المسألةِ بعد قليل إن شاء الله.

والقرآنُ صريحٌ في أنَّ من مهمةِ الرسول ﷺ بيانَ القرآنِ للناس. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

ولهذا قالَ الإمامُ الشافعيُّ رحمه الله: كلُّ ما حكمَ به رسولُ الله ﷺ، فهو مما فهمهُ من القرآن. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

وقد أَمَرَ اللهُ المؤمنينَ بطاعةِ رسوله ﷺ، ومن طاعتِهِ أَخْذُ حديثِهِ، والالتزامُ بسنّته، وتفسيرُ القرآنِ بها.

قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠].

وقال تعالى: ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

وقال تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر ٧].

وقد استشهدَ عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه بهذه الآيةِ على وجوبِ أخذِ سنّةِ رسول الله ﷺ، وأنَّ هذه السنّةَ من القرآن، وأنها مبيِّنةٌ للقرآن، وأنها ملزمةٌ للمسلمين كالقرآن.

عن عبد الله بن مسعودٍ رضي الله عنه قال: لَعَنَ اللهُ الواشمات، والمستوشمات، والمتنمّصات، والمتفلِّجات للحسن، المغيّرات خلقَ الله..

فبلغَ ذلك امرأةً من بني أسد، يُقالُ لها أمُّ يعقوب، فجاءت، فقالت: إنّه بلَغَني أنّكَ لَعَنْتَ كيتَ وكيت؟

فقال: وما لي لا ألعنُ مَنْ لَعَنَ رسولُ الله ﷺ؟ ومَنْ هو في كتاب الله؟ فقالَتْ: لقد قرأتُ ما بين اللوحيْن، فما وجدْتُ فيه ما تقول؟

قال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه. أما قرأتِ قولَه تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر: ٧].

قالت: بلىٰ.

قال: فإنه قد نهىٰ عنه.

قالت: فإنَّ أَهْلَكَ يفعلونه؟

قال: فاذْهبي فانظري، فذهَبَتْ فنظَرَتْ. فلم تَرَ من حاجتِها شيئاً!

فقال: لو كانتْ كذلك ما جامَعَتْنا!»[١].

لقد أمر اللهُ المسلمينَ بأخْذِ ما آتاهم الرسولُ ﷺ، وتَرْكِ ما نهاهم عنه، وهذا معناه وجوبُ الالتزامِ بالسنّة، وبما أنَّ هذا الأمْرَ صريحٌ في القرآن، فإنَّ الالتزام بالسنّة التزامٌ بالقرآن، وحتى يُفهَمَ القرآنُ لا بدَّ من فهمِ السنّة، ولابدَّ من تفسيرِ القرآنِ بالسنّة، لأنها مبيِّنةٌ ومفسِّرةٌ للقرآن.

وأخبرَنا رسولُ الله ﷺ أنه سيأتي أُناسٌ يَدْعونَ إلى ردِّ السنّة، والاكتفاء بالقرآن، ونهى عن الاستجابةِ لهم، وبَيَّنَ أنَّ ما حرَّمه في حديثِهِ كما حرَّمَ اللهُ في كتابه.

عن المقدام بن معديكرب رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ألا إني أُوتيتُ القرآنَ ومثْلَهُ معهُ، يوشِكُ رجلٌ شبعان على أريكتِهِ يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجَدْتُم فيه من حلالٍ فأحلّوه، وما وجدتُم فيه من حرامٍ فَحَرِّموه»[٢].

وفي لفظٍ آخر قال ﷺ: يوشكُ أنْ يقعدَ الرجلُ منكم على أريكتِهِ، يُحَدَّثُ بحديثي، فيقول: بيني وبينكم كتابُ الله، فما وجَدْنا فيه حلالاً استحللناه، وما وجدْنا فيه حراماً حرَّمناه، وإنَّ ما حرَّمَ رسولُ الله ﷺ كما حرَّم اللهُ عزَّ وجلّ..».

وجرى نقاشٌ فريدٌ بين الصحابيِّ عمران بن حصين رضي الله عنه، وبين أحدِ المعترضين على السنّة، أقامَ عمران عليه وعلى أمثاله الحجة.

روى الإمامُ البيهقيُّ في كتابه (دلائل النبوّة) عن شبيب بن أبي فضالة المالكي قال: كان عمرانُ بن حصين رضي الله عنه جالساً في المسجد، فَذَكروا عنده الشفاعة، فقالَ له رجلٌ من القوم: يا أبا نُجَيْد: إنكم لَتُحَدِّثوننا بأحاديثَ لم نجدْ لها أصلاً في القرآن!

فغضبَ عمرانُ بن حصين، وقال للرجل: قرأتَ القرآن؟ قال: نعم!

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٨٨٦؛ ومسلم برقم: ٢١٢٥.
(٢) أخرجه أبو داود برقم: ٤٦٠٤.

قال عمران: فهل وجدت صلاة العشاء أربعاً؟ ووجدت المغرب ثلاثاً؟ والفجرَ ركعتين؟ والظهر أربعاً؟ والعصر أربعاً؟ قال: لا

قال عمرانُ: فَعَمَّنْ أخذتم هذا الشأن؟ ألستُم أخذتموه عنّا، وأخذناه نحنُ عن نبيِّ الله ﷺ؟

ووجدتُم في كلِّ أربعين درهماً درهماً، وفي كلِّ كذا شاة، وفي كلِّ كذا بعيراً! أوَجدْتم هذا في القرآن؟ قال الرجل: لا.

قال عمران: فَعَمَّنْ أخذتُم هذا؟ أخذناه عن النبيِّ ﷺ، وأخذتموه عنّا!

وقال عمران: وَجدْتُم في القرآن: ﴿وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]. أَوَجدْتُم في القرآن: فطوفوا سبعاً، واركعوا ركعتين من خلفِ المقام؟ أَوَجدْتُم هذا في القرآن؟ فعمَّنْ أخذتموه؟ ألستم أخذتموه عنّا؟ وأخذناه نحنُ عن رسول الله ﷺ؟ قالوا: بلى!

وقال عمران: أوَجدْتُم في القرآن: «لاجَلَبَ ولاجَنَبَ ولاشِغارَ في الإسلام». قال: لا. قال عمران: فإني سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «لا جَلَبَ ولا جَنَبَ ولا شِغارَ في الإسلام!».

وقال عمران: أنتم سمعتم اللهَ تعالى يقول في كتابه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ ونحنُ قد أَخَذْنا عن رسولِ الله ﷺ أشياء، ليس لكم بها علم!

ثم ذكرَ عمران بن حصين الشفاعة، فقال لهم: هل سمعتم اللهَ يقولُ لأقوام: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٢ ـ ٤٨].

وإنَّ الشفاعةَ نافعةٌ دون ما تسمعون!..»[1].

---

(١) دلائل النبوّة للبيهقي: ١/ ٢٥ـ٢٦.

وقالَ الإمامُ الشافعي: سنّةُ رسولِ الله ﷺ من ثلاثةِ أوْجُه:

أحدُها: ما أنزلَ اللهُ فيه نصَّ كتاب، فَسَنَّ رسولُ الله ﷺ بمثلِ نصِّ القرآن.

والثاني: ما أنزلَه اللهُ في الكتاب مجملاً، فبيّنَ رسولُ الله ﷺ ذلك المجمل، وأوضحَ كيف الفرضُ المجمَل؟

والثالث: ما سنَّهُ رسولُ الله ﷺ مما ليس فيه نصُّ كتاب، وهذا يجبُ أخذه، لأنَّ اللهَ أوجبَ طاعةَ رسولِه ﷺ.

ومن العلماءِ مَنْ قال: لم يسنّ رسولُ الله ﷺ سنّةً قطّ، إلاّ ولها أصلٌ في القرآن. كتبيينِ عددِ الصلوات وكيفيتها، على أصلِ وجوبِ الصلاةِ في القرآن[1]!

وقال أيوب السختياني: إذا حَدَّثْتَ الرجلَ بسُنَّة، فقال: دَعْنا من هذا وأنْبِئْنا بالقرآن، فاعلَمْ أنه ضالّ!

وقال الأوزاعي: السنّةُ جاءَتْ قاضيةً على الكتاب، ولم يجئ الكتابُ قاضياً على السنّة.

ومعنى كلامِ الأوزاعي أنَّ السنَّةَ تُحَقِّقُ المقصود، وتبيّنُ المعنى المراد من القرآن، فقضاؤُها على القرآن قضاءُ تبيينٍ وتفسيرٍ وتوضيح، وليس قضاءَ سلطةٍ ومنزلةٍ، لأنَّ القرآنَ أعلى منزلةً من السنّة، وهو المهيمن عليها، باعتبارِه كلامَ الله!

وقال رجلٌ لمطرف بن عبد الله: لا تُحدِّثُونا إلاّ بما جاء في القرآن!

فقال له مطرف: إنّـا والله لا نريد بالقرآن بَدَلاً، ولكننا نريدُ مَنْ هو أعلمُ بالقرآنِ منّا، وهو رسول الله ﷺ![2].

وقال عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه: سيأتي ناسٌ يجادلونكم بشبهات القرآن، فخُذوهم بالسُّنَن، فإنَّ أصحابَ السُّنَنِ أعلمُ بكتاب الله!

---

(١) مفتاح الجنّة في الاحتجاج بالسنّة للسيوطي، ص٨.

(٢) المرجع السابق، ص٢١.

ولما أرسلَ عليٌّ بن أبي طالب عبدَ الله بن عباس رضي الله عنهم إلى جدالِ الخوارجِ قال له: اذهب إليهم فخاصِمْهم، ولاتُحاجِّهم بالقرآن، فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنّة!

فقالَ له ابنُ عباس: يا أمير المؤمنين: أنا أعلم بكتابِ الله منهم، لأنه نزل في بيوتنا!

قال عليّ: صدقت، ولكنَّ القرآنَ حمَّالُ وجوه، نقولُ ويقولون، ولكن حاجّهم بالسنن فإنهم لن يجدوا عنها محيصاً!![1].

وحدَّث سعيدُ بن جبير رضي الله عنه يوماً بحديثٍ عن رسولِ الله ﷺ، فقالَ له رجل: في كتابِ الله ما يخالفُ هذا!!

فقالَ له سعيد بن جبير: أُحدِّثكَ عن رسولِ الله ﷺ، وتعارضُه أنت بكتاب الله! لقد كان رسولُ الله ﷺ أعلمَ بكتابِ الله منك!![2].

أوجه بيان السنّــة للقرآن:

عَرَفْنا أنَّ السنَّةَ مبيّنةٌ للقرآن، وأنّها مرتبطةٌ بالقرآنِ ارتباطاً وثيقاً، وأنه لا يُستغنىٰ عنها في تفسير القرآن.

وتحديدُ الصلةِ بين القرآنِ والسنّة يقومُ على ثلاثةِ أوجه:

- سنّةٌ موافقةٌ للقرآن مؤكّدَةٌ لحكمه.
- سنّةٌ مبيّنةٌ للقرآن مفسّرةٌ له.
- سنّةٌ موجبةٌ لحكمٍ سكتَ عنه القرآن.

وهذه الوجوهُ الثلاثة تحتاجُ إلى توضيحٍ وتمثيلٍ وتفصيل.

إنَّ صورَ بيانِ السنّةِ للقرآن وتفسيرَها له هي:

---

(١) مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة للسيوطي، ص٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص٣٧ـ٣٨.

١ ـ سنّةٌ مبيّنةٌ لمجمل القرآن:

بعضُ الأوامرِ والتكاليف جاءتْ في القرآن مجملة، لم تُبَيَّنْ ولم تُفصَّلْ في كيفياتِها وشروطِها وأركانِها، فجاءَت السنَّةُ وبيَّنَتْ ذلك الإجمال وفصَّلتْه ووضَّحتْه.

مثال ذلك: الصلاة: فقد أمرَ اللهُ المؤمنين بإقامةِ الصلاة، وأخبرَ أنها موقوتةٌ محدّدةٌ، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣].

والسنَّةُ القوليةُ والفعليةُ لرسول الله ﷺ بيَّنَتْ ذلك الإجمالَ القرآني، فمنها عرفنا مواقيتَ الصلاة وركعاتِها وأركانَها وشروطَها وسننَها وآدابها ومبطلاتِها ومكروهاتِها.

ومثال ذلك الزكاة أيضاً: ففي القرآن أمرٌ مجملٌ بإيتاءِ الزكاة، كما في مثل قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [النور: ٥٦].

وبيّنت السنَّةُ هذا الأمرَ المجملَ، حيثُ عرفْنا منها الأصنافَ التي تجبُ فيها الزكاة، ومقدارَ الزكاةِ المفروضة، وشروطَ وجوبها.

ومثال ذلك الحج أيضاً: ففي القرآن أوامرُ بأداءِ الحجّ، وهي أوامرُ مجملةٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦].

وبيّنَتْ السنَّةُ القوليةُ والفعلية هذا الإجمال، حيثُ بَيَّنَ رسولُ اللهِ ﷺ أركانَ الحج وواجباته ومبطلاته، وكيفيةَ أداءِ المناسك، من الإحرامِ والطوافِ والسعي والصعودِ إلى عرفات والنزولِ إلى مزدلفة، والإقامةِ في منى أيام التشريق، ورمي الجمارِ وكيفيةِ التحلّل وذبح الهدي. . . وغير ذلك.

فإذا لم نُفسّر القرآن بالسنّة القولية والفعلية فلن نؤديَ أركان الإسلام من

صلاة وصيام وزكاة وحج[(١)].

وقد أوردْنا قبلَ قليلٍ الحجّةَ الواضحة التي أقامها عمرانُ بن حصين رضي الله عنه على مَنْ ناقشَ في وجوبِ السنّة.

٢ ـ سنّة مخصصة لعامِّ القرآن:

فقد يأتي لفظٌ في آيةٍ ظاهرُه العموم، ويُفهم منه العموم، فيخصصُ رسولُ الله ﷺ ذلك العموم.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

ظاهرُ الظلمِ في الآيةِ عام، لأنَّه نكرةٌ في سياق النفي، والنكرةُ في سياقِ النفي من ألفاظِ العموم: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾.

وقد فهمَ الصحابةُ منها العموم، وحملوا الظلمَ على أيِّ ذنبٍ أو معصيةٍ، وهم ليسوا معصومين، فقالوا: يارسولَ الله: أيُّنا لم يظلمْ نفسَه؟ فخصَّصَ الظلمَ فيها بأحدِ أفرادِه وأنواعِه وهو الشرك.

روى البخاريُّ ومسلمٌ والترمذي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلتْ هذه الآية: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ شقَّ ذلك على أصحابِ رسولِ الله ﷺ وقالوا: ما منّا أحدٌ إلاَّ وهو يظلمُ نفسَه!

فقال ﷺ: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا قولَ لقمان لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]: إنما هو الشرك..»[(٢)].

ومثال ذلك أيضاً: قوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾[النساء ١١].

ظاهرُ الآيةِ عامٌّ في الأولاد، لأنَّ لفظَ «أولادكم» من ألفاظِ العموم،

---

(١) انظر: التفسير والمفسّرون للذهبي: ١/ ٥٥ ـ ٥٦؛ وأصول التفسير وقواعده لخالد العك، ص١٢٨ ـ ١٢٩.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٤؛ ومسلم برقم: ١٢٤؛ والترمذي برقم: ٣٠٦٧.

باعتبارِه جَمعاً مضافاً لما بعده، فكلُّ الأولاد يَرثون من آبائهم.

ولكنَّ السنَّةَ خَصَّصَتْ هذا العموم:

إذا قتلَ الابنُ أباه فإنه لا يرثُ منه، سواءٌ قتله عمداً أم خطأً، لأنَّ القتل من موانع الإرث.

روى أبو داود عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «ليس للقاتل شيء»[1]. أي: لا يرثُ القاتلُ شيئاً.

وصارَ الحكمُ في تفسير الآية: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ﴾: يرثُ الابنُ أباه إلاَّ إذا قتله، فإذا قتلَه فلا يرثُ منه[2].

٣ ـ سنّـة مقيّدة لمطلق القرآن:

قد يكونُ لفظٌ مطلقٌ في القرآن، فتقيِّدُه وتحدِّدُه السنّة.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦].

إذا أحرمَ المسلمُ بحجٍّ أو عمرةٍ فلا يجوزُ له أنْ يحلقَ رأسَه، ولا أنْ يلبسَ ملابسَه العادية، إلاَّ بعدَ الانتهاءِ من مناسك الحج أو العمرة.

أمّا إذا كان مريضاً فإنَّه يجوزُ له أنْ يحلقَ رأسَه، أو يلبسَ ملابسه العادية، مقابلَ أنْ يدفعَ الكفّارة، وهذه الكفارةُ مطلقةٌ في الآية: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾.

وحتى نعرفَ المرادَ بهذه الخصالِ الثلاثة فلابدَّ من تفسيرِ هذه الآية بالسنة، فهي تُقَيِّدُ مطلقَ الصيامِ والصدقة والنسك.

---

(١) أخرجه أبو داود برقم: ٤٥٦٤.
(٢) انظر التفسير والمفسّرون للذهبي: ١/ ٥٦؛ وأصول التفسير للعك، ص١٢٩.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن كعبِ بن عُجْرَة رضي الله عنه قال: قوله تعالى: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ نزلَتْ فيَّ خاصة، وهي لكم عامّة. حُمِلْتُ إلى رسول الله ﷺ، والقملُ يتناثَرُ على وجهي! فقال: «ما كنتُ أرى الوجَعَ بلغَ بك ما أرى، احلقْ رأسَك، وصُم ثلاثة أيام، أو أَطْعِمْ ستةَ مساكين، أو انسُكْ بشاة»[1].

وفي روايةٍ أُخرى قال له: «ما كنتُ أرى الجهدَ بلغَ بك ما أرى! تَجِدُ شاة؟ قلتُ: لا. قال: فصمْ ثلاثةَ أيام، أو أطعِمْ ستةَ مساكين، لكل مسكينٍ نصفُ صاع»[2].

في الآية ثلاثةُ ألفاظٍ مطلقة، والسنَّةُ قيّدتْها:

- ﴿مِّن صِيَامٍ﴾: مُطْلَقة، ومقيَّدةٌ في الحديث: «صم ثلاثة أيام».

- ﴿أَوْ صَدَقَةٍ﴾: مُطلَقة، ومقيّدةٌ في الحديث: «أو أطعمْ ستةَ مساكين لكل مسكين نصف صاع».

- ﴿أَوْ نُسُكٍ﴾ مطلقةٌ، والمرادُ بها الذبح، وهي مقيّدةٌ في الحديث: «أو انسُكْ بشاة».

ومثال ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣].

نزلت الآيةُ تكذيباً لمزاعمِ وأكاذيبِ اليهود، حيث كانوا يقولون: مَنْ جامعَ امرأتَهُ في قُبُلِها من الخلف جاءَ الولدُ أحول!، فكذَّبَهم الله، وأباحَ للرجلِ أنْ يأتيَ امرأته كيفما شاء، وأينما شاء: ﴿فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

روى البخاريُّ ومسلمٌ وغيرُهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: كانت اليهودُ تقول: إذا أتى الرجلُ امرأتَه مِنْ قِبَلِ دُبُرِها في قُبُلِها جاءَ الولدُ أحول! فأنزلَ الله قوله: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ أي: فأْتِها قائماً، وقاعداً،

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٨١٤؛ ومسلم برقم: ١٢٠١.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ١٨١٦.

وباركاً، بعدَ أنْ يكون في المأتى»[1]. والمأتى: هو الفَرْج!.

والشاهدُ ليس هنا، إنما الشاهد فيما يلي:

قولُه: ﴿فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ مطلقٌ، ظاهرُهُ يُجيزُ معاشرةَ الزوجةِ وممارسةَ الجنس معها بإطلاق، حتى لو كانتْ حائضاً، وحتى لو كان ذلك لواطاً في الدبر!

والسنّةُ قيّدَت الإطلاقَ في الآيةِ، ونفَتْ هذا المعنى المتبادر للذهن:

روى الترمذيُّ وأحمد وغيرُهما عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: جاءَ عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه إلى رسولِ اللهِ ﷺ، فقال: يارسول الله: هَلَكْتُ! قال: «وما الذي أهلكَكَ؟» قال: حَوَّلْتُ رَحْلي الليلة! فلم يَرُدَّ عليه شيئاً! فأوحى اللهُ إلى رسوله هذه الآية: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾.

فقال ﷺ: «أقْبِلْ، وأدْبِرْ، واتَّقِ الدُّبُرَ والحيضة»[2].

فالرسولُ ﷺ أجازَ للزوجِ الاستمتاعَ بزوجته ومعاشرتها، وحرَّمَ عليه ممارسةَ الجنس معها أثناء الحيض، وحرَّمَ عليه اللواطَ بها في دبرها: «واتّقِ الحيضةَ والدبر». وهذا تقييدٌ منه لمطلق الآية!

٤ ـ سنّة موضّحة لمشكل في القرآن:

قد يكونُ إشكالٌ في معنى الآية، لورودِ لفظٍ فيها هو سببُ ذلك الإشكال فتوضِّحُ السنَّةُ ذلك الإشكال وتُزيلُه، وتبيِّنُ المرادَ به في الآية.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿فَالْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

الإشكالُ في المرادِ بالخيطين: الأبيض والأسود! هل هما خيطان حقيقيان ماديان؟ أم هما خيطان معنويان؟

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٥٢٨؛ ومسلم برقم: ١٤٣٥؛ والترمذي برقم: ٢٩٧٨؛ وأبو داود برقم: ٢١٦٣.

(٢) أخرجه الترمذي برقم: ٢٩٨٠؛ وأحمد في المسند: ١/ ٢٩٧.

وقعَ بعضُ الصحابةِ في إشكالٍ، فوضَّحَ رسول الله ﷺ المراد.

روى البخاريُّ ومسلم وأبو داود والترمذي عن عَدِيٍّ بن حاتم الطائي رضي الله عنه قال: لما نزلتْ الآية: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ عمـدتُ إلى عقالَيْـن:

أحدهما أسود، والآخر أبيض، فجعلْتُهما تحتَ وسادتي، ثم جعلْتُ أنظرُ إليهما، فلا يتبيَّنُ لي الأبيضُ من الأسود، ولا الأسودُ من الأبيض.

فلما أصبحتُ غدوتُ على رسول الله ﷺ، فأخبرتُه بالذي صَنَعْت! فقال: «إنْ كانَ وسادُك إذاً لعريض، إنما ذلك بياض النهارِ من سوادِ الليل»[1].

المرادُ بالخيطيْن سـوادُ الليلِ وبياضُ النهار، وبذلـك أزال الرسـولُ ﷺ الإشكال!

والذي سبَّبَ ذلك الإشكالَ في فهم الصحابةِ للخيطين، هو ورودُهما بلفظٍ مطلقٍ غيرِ مقيّد، وقُيِّد ذلك فيما بعد.

أنزلَ الله الجملةَ القرآنية مطْلَقةً، وكانت هكذا: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ فلما سمعَها بعضُ الصحابة حَملوا الخيطين على الخيطيْن الحقيقيَّيْن، ولهذا وضعَ عـديُّ بنُ حاتم الطائي رضي الله عنـه تحـتَ وسادتِه خيطين حقيقيين!

بعد ذلك أنزلَ الله شبه جملةٍ قيّدت الإطلاقَ في الجملة السابقة، وهي قوله: ﴿مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾، ودلَّتْ شبهُ الجملةِ على أنَّ المرادَ بهما سوادُ الليل وبياضُ النهار. وصارت الجملةُ القرآنية هكذا: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾.

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن سهلِ بن سعد الساعدي رضي الله عنه قال: نزلت

---

(١) أخرجـه البخاري برقم: ١٩١٦؛ ومسـلم برقم: ١٠٩٠؛ وأبـو داود برقم: ٢٣٤٩؛ والترمذي برقم: ٢٩٧٠.

هذه الآية: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ﴾ ولم ينزل: «من الفجر». فكان رجالٌ إذا أرادوا الصومَ ربطَ أحدُهم في رجلِه الخيطَ الأبيضَ والخيط الأسودَ، ولايزالُ يأكلُ ويشربُ حتى يتبيّنَ له رؤيتُهما! فأنزلَ اللهُ تبارك وتعالى بعد ذلك «من الفجر»، فعلموا أنه يعني بذلك الليل والنهار[1].

٥ ـ سنّة مفسّرة لألفاظ القرآن:

قد تكونُ بعضُ ألفاظِ القرآن غريبة، وتحتاجُ إلى تفسيرٍ وتحديد، فتكون السنّةُ مفسّرةً لتلك الألفاظ، ومبيّنةً لمتعلّقها.

مثال ذلك قوله تعالى: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧].

مَنْ هم المغضوب عليهم؟ ومَن هم الضالون؟

روى الترمذيُّ وأحمد عن عديّ بن حاتم الطائي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إن المغضوبَ عليهم هم اليهود، وإنَّ الضالين هم النصارى»[2].

فالرسولُ ﷺ وضَّحَ وفسَّرَ بعضَ أصنافِ المغضوب عليهم والضالين.

وليس هذا تخصيصاً ولا تقييداً، إنما هو تفسير، من بابِ التمثيلِ وليس من باب الحصر. فالمغضوبُ عليهم هم الذين غضبَ اللهُ عليهم لأنهم عَرفوا الحقّ وتركوه بعدَ علمهم به، وأبرزُ ما ينطبقُ هذا على اليهود. والضالون هم الذين ضلّوا عن الحقِّ جاهلين به، وأبرزُ ما ينطبقُ هذا على النصارى.

ومثالُ ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ﴾ [البقرة: ٥٨ ـ ٥٩].

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٩١٧؛ ومسلم برقم: ١٠٩١.

(٢) أخرجه الترمذي برقم: ٢٩٥٣؛ وأحمد في المسند: ٤/٣٧٨ ـ ٣٧٩.

يخبرُنا اللهُ في هاتيْن الآيتيْن أنه طلبَ من بني إسرائيل أنْ يدخلوا قريةً في الأرض المقدّسة، وأنْ يكونوا شاكرين لله أثناءَ دخولها، لأنه هو الذي نصرهم، ومن مظاهر شكرِهم لله أن يدخلوا بابَ القريةِ ساجدين، وأن يقولوا «حطّة» أي: ياربّنا حُطَّ عنا ذنوبنا واغفر لنا.

ولكن بني إسرائيل لم يُنفّذوا أمْرَ الله، وإنّما بدَّلوا قولاً غيرَ الذي قيل لهم. لكن كيف بدَّلوا؟ وما الذي بدَّلوه؟ وما الذي قالوه؟ رسولُ الله ﷺ بيَّنَ هذا.

روى البخاريُّ ومسلم والترمذيُّ وأحمد عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله لبني إسرائيل: ﴿ ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ﴾ فبدَّلوا، ودخلوا يزحفون على أسْتاهِهِم، وقالوا: حبَّة في شعيرة»[1].

السنَّةُ هنا مفسِّرةٌ للقرآن، ومبيِّنةٌ لمعنى الآية. حيث وضَّحَتْ أنَّ مخالفةَ بني إسرائيل لأمر الله كانت في موضعين.

ـ أمرهم الله أنْ يدخلوا البابَ سجّداً، فبدَّلوا هذا، ودخلوا الباب يزحفون على «أستاههم»، كما يفعلُ الأطفالُ الصغارُ لاعبين عابثين! و«أستاههم» جمع «است»، وهي دُبُرُ الإنسان ومؤخِّرَته!

ـ وأمَرَهم اللهُ أنْ يقولوا «حطّة»، فبدّلوا هذه الكلمة، وقالوا: حبة في شعيرة! المهمُّ هو أنْ يبدّلوا ويغيّروا!

٦ ـ سنّة مؤكدة لحكم في القرآن:

قد يَرِدُ حكْمٌ أو توجيهٌ في القرآن، وتأتي السنّةُ مؤكّدةً للقرآن ومؤيّدةً له، فتقرّرُ ذلك الحكم.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٠٢؛ ومسلم برقم: ٣٠١٥؛ والترمذي برقم: ٢٩٥٦؛ وأحمد في المسند: ٢/٣١٨.

وبهذا يكون الحكمُ قد ثبتَ بمصدريْن أساسييْن: القرآن والسنّة.

وهذا في كلِّ الواجباتِ الشرعية، فالصلاةُ والصيامُ والزكاةُ والحجُّ واجبةٌ في الكتاب والسنّة، والزنا وشربُ الخمر وقتلُ النفسِ بغيرِ حقّ محرَّمٌ في الكتاب والسنة، وهكذا!

فالدليلُ على وجوب الصلاة مثلاً قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ [النساء: ١٠٣].

والدليلُ على وجوبها أيضاً ما رواه البخاريُّ ومسلم عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النبيَّ ﷺ قال لمعاذِ بن جبل رضي الله عنه لمَّا بعثَهُ إلى اليمن: «ادْعُهُم إلى شهادةِ أنْ لا إلـه إلا الله، وأنَّ محمّداً رسول الله، فإنْ هم أطاعوا لذلك فأَعْلِمْهُم أنَّ الله قد افترضَ عليهم خمسَ صلواتٍ في كلِّ يومٍ وليلة»(١).

ومنعُ الزكاة وعدمُ إخراجِها محرَّمٌ، وإذا لم يخرجْ زكاة الذهبِ والفضة فإنَّ الله يعذّبُه بهما يوم القيامة.

والدليل على ذلك القرآنُ والسنّة.

فمن القرآنِ قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٣٤﴾ يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ هَٰذَا مَا كَنَزۡتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡنِزُونَ﴾ [التوبة: ٣٤ ـ ٣٥].

ومن السنّةِ ما رواهُ مسلمٌ عن أبي هريرةَ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «ما من صاحبِ ذهبٍ ولا فضّةٍ، لا يُـؤَدّي حقَّها، إلاَّ إذا كان يومَ القيامة صُفِّحَتْ له صَفائح من نار، فأُحْمي عليها في نارِ جهنّم، فيُكوىٰ بها جبينُه وظهرُه، كلَّما بَرَدَتْ أُعيدَتْ له، في يومٍ كان مقدارُه خمسين ألفَ سنة، حتى يُقضى بين العباد، فيُرى سبيلُه، إمَّا إلى الجنّة، وإمَّا إلى النار!»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٣٣١؛ ومسلم برقم: ١٩.
(٢) أخرجه مسلم برقم: ٩٨٧.

ومعاشرةُ الزوجاتِ بالمعروف، وعدمُ ظلمهنّ وأكلِ حقوقهنّ، ثابتٌ في القرآن والسنّة، حيث جاءت السنّةُ موافقةً للتوجيه القرآني، ومؤكّدةً له.

قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَـٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ﴾ [النساء: ١٩].

وروى البخاريُّ ومسلمٌ وأبو داود عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، أنَّ رسول الله ﷺ قال في خطبة الوداع: «. . . اتقوا اللهَ في النساء، فإنكم أخذتموهنّ بأمانةِ الله، واستحللتم فروجَهنَّ بكلمةِ الله، وإنَّ لكم عليهنَّ أنْ لا يوطئْنَ فُرُشَكُم أحداً تكرهونه ـ فإنْ فعلْنَ ذلك فاضربوهنّ ضرباً غيرَ مُبرِّح ـ ولهنَّ عليكم رزقهنَّ وكسوتُهنَّ بالمعروف»(١).

٧ ـ سنّـة مقرّرة لأحكام زائدة على القرآن:

من أوجهِ بيان السنّةِ للقرآن أنها قد تأتي بأحكامٍ جديدةٍ، زائدةٍ على الأحكامِ الواردة في القرآن!

وقد أَذِنَ اللهُ لرسوله ﷺ بذلك، فَحُكْمُ رسولِ الله ﷺ المقرَّرُ في الأحاديثِ هو في الحقيقةِ حكْمُ الله، لأنَّ السنّةَ وحيٌ بالمعنى من الله تعالى.

وأمرَ اللهُ المؤمنين بطاعةِ رسوله ﷺ، واعتبرَ طاعتَه من طاعةِ ربّه سبحانه وتعالى. فقال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾ [النساء: ٨٠].

وأَمَرَهم بأخذِ وتنفيذِ ما أمرهم الرسولُ ﷺ به، والانتهاءِ عما نهاهم عنه، فقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ﴾ [الحشر: ٧].

وأخبَرَنا رسولُ الله ﷺ أنَّ سنّتهُ ملزِمَةٌ لأمته، فقال ﷺ: «ألا إنّي أُوتيتُ القرآن ومثْلَه معه». وقد أوْرَدْنا بعضَ رواياتِ هذا الحديث ومَنْ أخرجَه قبل قليل.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٥٥٧؛ ومسلم برقم: ١٢١٣؛ وأبو داود برقم: ١٩٠٥.

فلا غرابةَ أنْ تُقَرِّرَ السنّةُ بعضَ الأحكامِ الزائدةِ على القرآن.

مثال ذلك: يختلفُ حَدُّ الزنا باختلافِ حالةِ ووضعِ الزاني، فإنْ كانَ الزاني غيرَ مُحصَنٍ ولا متزوّج فَحَدُّهُ أنْ يُجلَدَ مئةَ جلدة، وإن كان محصَناً فحدُّه الرجمُ حتى الموت!

الجلدُ مئةُ جلدة لغيرِ المحصَن ثابتٌ بالقرآن، في قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النور: ٢].

ورجْمُ الزاني المحصَن لم يَرِدْ في القرآن، وإنما وردَ في السنّة، في عدّةِ أحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ.

روى البخاريُّ ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى رجلٌ من المسلمين رسولَ الله ﷺ وهو في المسجد، فناداه، فقال: يارسولَ الله: إني زنيت! فأَعْرَضَ عنه، فتنحّى تلقاءَ وجهه فقال: يارسولَ الله: إنّي زنيت! فأَعْرَضَ عنه، حتى ثنّى ذلك عليه أربعَ مرّات!

فقال له رسول الله ﷺ: «أبِكَ جُنون؟» قال: لا. قال: «فهل أحصنت؟» قال: نعم.

فقال ﷺ: «اذْهَبوا به فارجُموه...»[(1)].

وروى مسلمٌ عن عمرانَ بنِ حصين رضي الله عنه، أنَّ امرأةً من جهينة أتت النبيَّ ﷺ وهي حُبلىٰ من الزنا. فقالت: يانبيَّ الله: أصبتُ حدّاً فأقِمْهُ عليّ! فدعا رسولُ الله ﷺ وليَّها، فقال: أحسِنْ إليها، فإذا وضعَتْ فأْتِني بها، ففعل.

فأمر بها، فَشُكَّتْ عليها ثيابها، ثم أمر بها، فرُجِمَت، ثم صلّى عليها!

فقال عمر: أتصلّي عليها يا نبي الله وقد زَنَتْ؟!

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٦٤٣٠؛ ومسلم برقم: ١٦٩١.

فقال: «لقد تابَتْ توبةً، لو قُسِّمَتْ بين سبعينَ من أهلِ المدينة لوسعتْهم، وهل وجَدْتَ أفضلَ مِنْ أنْ جادَتْ بنفسها لله؟»[1].

مثالٌ آخر على ذلك: الجمعُ بين الأختيْن في الزواجِ محرَّم، والجمعُ بين المرأة وعمّتها والمرأة وخالتها محرَّمٌ أيضاً، لكنَّ الأولَ محرَّمٌ بنصِّ القرآن، والثاني محرَّمٌ بنصِّ السنَّة.

الجمعُ بين الأختيْن محرَّمٌ في قوله تعالى: ﴿وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٢٣].

أما تحريمُ الجمعِ بين المرأةِ وعمّتها وخالتها فقد ثبتَ بنصِّ السنّة:

روى البخاريُّ ومسلمٌ عن أبي هريرةَ رضي الله عنهما أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا يُجْمَعُ بين المرأةِ وعمّتها، ولا بين المرأة وخالتها...»[2].

فالسنَّةُ أضافتْ حكماً جديداً على ما ثبتَ بالقرآن، حيث حَرَّمَت الجمعَ بين المرأةِ وعمّتها وخالتها، لأنَّ في هذا قَطْعاً للأرحام، وإحلالاً للضغائن محلَّ المحبّة والمودَّة، بسبب ما يحصلُ بين الضرائرِ من الغيرة والمكائد. ولذلك لا يجوزُ أن تكون المرأةُ «ضُرَّة» على أختها أو عمتها أو خالتها!.

هذه سبعُ صورٍ لبيان السنّة للقرآن، عَرَفْنا من خلالها أنَّ السنَّة مبيّنةٌ للقرآن، وأدركْنا أهمية تفسير القرآن بالسنَّة.

* * *

---

(١) أخرجه مسلم برقم: ١٦٩٦.

(٢) أخرجه البخاري برقم: ٥١٠٩؛ ومسلم برقم: ١٤٠٨.

المبحث الثالث

تفسير رسول الله ﷺ للقرآن

مقداره وصوره ووجوده

كان الكلامُ في المبحثِ السابق عن تفسيرِ القرآنِ بالسنّةِ الصحيحةِ الثابتةِ عن رسول الله ﷺ، على اعتبارِ أنَّ السنَّةَ مبيّنةٌ للقرآن، وذكرنا سبعةَ وجوهٍ يظهرُ من خلالها بيانُ السنّة للقرآن.

وهذا يقودُنا إلى تفسيرِ الرسول ﷺ للقرآن: مقداره، وصوره، ومظانّ وجوده.

فسَّر الرسول ﷺ ما دعت الحاجة إلى تفسيره:

من المتفقِ عليه أنَّ من مهمةِ الرسول ﷺ بيانَ معاني القرآن وأحكامِه للناس، وأنه بيَّنَ للمسلمين ما احتاجوا إليه من معاني القرآن، كما بيَّنَ لهم ألفاظَه. لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

وقد ذهبَ بعضُ العلماءِ ـ وعلى رأسهم الإمام ابن تيمية ـ إلى أنَّ الرسولَ ﷺ بيَّنَ للمسلمين كلَّ معاني القرآن، كما بَيَّنَ لهم كلَّ ألفاظه.

قال ابن تيمية: «يجبُ أنْ يُعْلَمَ أنَّ النبيَّ ﷺ بَيَّنَ لأصحابه معاني القرآن، كما بيَّنَ لهم ألفاظَه، فقولُه تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يتناول هذا وهذا»[1].

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص٣٥.

وقالَ أيضاً: «ومن المعلوم أنَّ كُلَّ كلامٍ فالمقصودُ منه فهمُ معانيه دونَ مجرّدِ ألفاظِه، فالقرآنُ أولى بذلك!

وأيضاً فالعادةُ تمنعُ أن يقرأَ قومٌ كتاباً في فنٍّ من العلم، كالطب والحساب، ولا يستشرحوه، فكيفَ بكلامِ اللهِ تعالى الذي هو عصمتُهم وبه نجاتُهم وسعادتهم، وقيامُ دينهم ودنياهم...»[1].

وهذا فيه مبالغةٌ وغلوّ، فما ثَبَتَ ونُقِلَ لنا أنَّ الرسولَ ﷺ بَيَّنَ للصحابةِ كلَّ معاني القرآن وأحكامه، وفسَّرَ لهم كلَّ ألفاظه.

وذهبَ بعضُهم إلى غُلُوٍّ مقابلٍ حيث قالوا: لم يُبيِّن الرسول ﷺ للصحابة إلاَّ آياتٍ قلائل! ولا دليلَ لهم على هذا[2].

والراجحُ أنَّ الرسولَ ﷺ بَيَّنَ للصحابة الكرام رضوان الله عليهم ما دعت الحاجةُ إلى بيانه، وفَسَّرَ لهم ما أشكلَ عليهم، وأجابَهم على أسئلتهم. وهذا الذي بيَّنه لهم ليسَ كلَّ القرآن كما قالَ ابنُ تيمية، وليس آياتٍ قليلة، كما نقلَ السيوطي عن الخُوَيِّي.

والذي بيَّنَه ﷺ لأصحابه كثير وليس قليلاً. وهو قد يكونُ جواباً على سؤالٍ موجَّهٍ إليه، وقد يكونُ استنباطاً لحكمٍ من آيةٍ، وقد يكونُ تصويباً لخطأ وقع فيه أحدُ المسلمين.

وقد عرضْنا في المبحثِ السابق وجوهَ بيانِ السنّةِ للقرآن، وسَجَّلنا أمثلةً ونماذج على ذلك البيان، وهذه الأمثلةُ هي تفسيرُ رسول الله ﷺ، وتصلحُ أنْ تُذكَرَ هنا، فلا نوردُها منعاً للتكرار، ونُحيلُ عليها هناك!

ونتذكّرُ في هذا المقام أقسامَ التفسير التي ذكرَها الحبْرُ عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما، لنعرفَ القسم الذي كان فيه بيانُ رسول الله ﷺ وتفسيرُه.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص٣٧.
(٢) انظر الإتقان للسيوطي: ٢/ ١١٩٣.

قال ابنُ جرير الطبري: قال عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما: التفسيرُ على أربعةِ أَوْجُهٍ:

١ ـ وجهٌ تعرفُهُ العربُ من كلامها.

٢ ـ تفسيرٌ لا يُعذَرُ أحدٌ بجهالته.

٣ ـ تفسيرٌ يعلمُه العلماء.

٤ ـ تفسيرٌ لا يعلمُه إلا الله[1].

الأول: الذي تعرفُه العرب من كلامها، هو بيانُ معاني الكلماتِ في اللغةِ العربية، مثل معاني: الصدق، والكذب، والأمانة، والخيانة.

وهذا النوعُ لا يحتاجُ إلى تفسيرٍ وبيان عند الصحابة، لأنهم عربٌ يعرفون معاني الكلمات في اللغة، وتفسيرُها لهم من بابِ تحصيل الحاصل!

والثاني: الذي لا يُعْذَرُ أحدٌ بجهالته، هو المعلومُ من الدين بالضرورة، كوجوب الصلاة والزكاة والصيام، وحرمةِ الزنا والربا والخمر. وهذا النوعُ لا يحتاجُ إلى بيانٍ وتفسير، لأنَّ الصحابةَ يعلمونه!

والرابع: الذي لا يعلمه إلا الله هو ما استأثَرَ اللهُ بعلمه، مما أخبرَنا عنه في القرآن، كوقتِ قيام الساعة، وكيفيةِ وقوع مشاهدِها، كالانفطار والانشقاق والتكوير! وهذا القسمُ لا يبينُه أحد، لأنَّ الله اختصَّ به.

ولم يبقَ إلا القسمُ الثالث، وهو الذي لا يعلمه إلا العلماء، كاستنباطِ الأحكام، واستخراجِ الدلالات من الآيات.

وهذا القسمُ هو الذي كان يبيّنُه رسولُ الله ﷺ، مما احتاجَ الصحابةُ إلى بيانِه وتفسيره.

---

(١) تهذيب الطبري: ١/ ٤١.

لماذا لم يفسّر رسول الله ﷺ القرآن كاملاً:

لم يُفسّر رسولُ الله ﷺ القرآنَ كاملاً، إنما فسَّرَ للصحابة ما احتاجوا إلى تفسيرِه.

وقد يتساءلُ متسائلون: لماذا لم يفسّر رسولُ الله ﷺ القرآنَ كاملاً؟

وللجوابِ على هذا السؤال نقدِّم هذه الحِكَمَ والأسباب:

١ ـ لأنَّ معظمَ ألفاظِ ومعاني القرآن مفهومة، لا تحتاجُ إلى تفسير، والصحابةُ يعرفونها لأنهم عربٌ فصحاء، ولذلك لم تَدْعُ الحاجةُ إلى تفسيرها.

٢ ـ ليبقى البابُ مفتوحاً أمامَ المفسّرين بعدَ عصرِ النبي ﷺ، ليقوموا بواجبهم في تفسير القرآن، ولتبقىٰ حركةُ التفسير مستمرّةً في الأجيال اللاحقة.

ولو فسَّرَ رسولُ الله ﷺ القرآنَ كاملاً لأُغلِق بابُ التفسير، ولَما جرؤَ أيُّ عالمٍ على تفسيرِه، حيث سيقالُ له: لماذا تفسِّرُه أنتَ وقد فسَّرَه رسولُ الله ﷺ؟!

٣ ـ لضعف المستوى العلميِّ عند الصحابة، ولو فسّره لهم رسولُ الله ﷺ بما حوَتْ آياتُه من علومٍ ومعارفَ فقد لا يستوعبونها، وقد تكون محلَّ استغرابِ بعضهم! والعلماءُ الذين جاؤوا بعد الصحابةِ قدّموا بعضَ المضامين العلمية للآيات. ولذلك قيل: «خيرُ مفسِّرٍ للقرآنِ هو الزمن!».

٤ ـ لئلا ينشغلَ الصحابةُ بالتفسير النظريِّ عن تطبيق القرآن، وقد كانوا حريصين على تطبيقِ القرآنِ وتنفيذِ أحكامه، فكانوا مشغولين بجمالِ التنفيذ عن جمال التفسير!!

تفسير رسول الله ﷺ النظري والعملي:

مُعظَمُ الدارسين عندما يتحدّثون عن تفسيرِ الرسول ﷺ، يتحدّثون عن الجانبِ النظريِّ لتفسيرِه، ويعنون به ما صحَّ من الأحاديثِ النقليةِ والصحيحة المرفوعة.

ونرى أنَّ هذه الأحاديث الصحيحة ضروريةٌ في التفسير، لكنها ليستْ هي كلُّ تفسيرِ رسول الله ﷺ!

إننا نرى أنَّ تفسيرَ رسول الله ﷺ له جانبان:

الجانبُ الأول ـ التفسير النظري: وهو المتمثّل في الأحاديثِ القوليةِ المرفوعةِ للرسول ﷺ، في تفسيرِ بعضِ آياتِ القرآن، وقد عَرَضْنا نماذجَ لها عند حديثِنا عن أوجهِ بيان السنّة للقرآن.

وهذا الجانبُ النظريُّ ضروريٌّ في تفسيرِ القرآن، كما بيَّنّا في مبحث (أحسن طرق التفسير)، ومَنْ تجاوزه لن يفهمَ القرآن حقَّ الفهم، ولن يُحسنَ تفسيرَه.

وهذا الجانبُ النظريُّ القوليُّ لا يؤخَذُ إلاّ إذا صحَّ، بمعنى أننا ملزمون بتخريجِ الأحاديثِ المرفوعةِ للرسول ﷺ في التفسير، ولا نأخذُ إلاّ ما صحَّ منها، ولا يجوزُ أخذُ الرواياتِ الموضوعةِ والضعيفةِ التي لم تصحّ عن رسول الله ﷺ!

ومصادرُ هذا الجانبِ النظريِّ كتبُ الأحاديثِ: الصحاحُ والسننُ والمسانيد. فلا يخلو كتابٌ من كتبِ الحديث المرفوعةِ من (كتابِ التفسير) تورَدُ فيه تلكَ الأحاديثُ التفسيرية، يظهرُ في صحيحِ البخاري وصحيح مسلم، وسنن كلٍّ من أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، وموطأ مالك، ومسند أحمد، ومعاجم الطبراني، ومستدرك الحاكم، وصحيح ابن حبان، وغيرها!!

الجانب الثاني ـ التفسير العملي:

وهذا قدْ لا يفطنُ له بعضُ الدارسين والباحثين، ونعني به تطبيقَ الرسول ﷺ لأحكام القرآن، وتنفيذه لأوامره، وتخلُّقَه بأخلاقه، وحركتَه به، ودعوتَه إليه، وجهادَه لأعدائه!.

وبعبارةٍ أُخرى: سيرةُ الرسولِ ﷺ هي تفسيرٌ عمليٌّ للقرآن، وحياةُ الصحابةِ أيضاً تفسيرٌ عمليٌّ منهم للقرآن، لأنهم يقتدون في ذلك برسول الله ﷺ.

لن نفهمَ القرآنَ ولن نُحسنَ تفسيرَهُ إلاَّ بعدَ الوقوفِ على تطبيقِ رسول الله ﷺ للقرآن، وكم يفوتُنا عندما نُبْعِدُ (السيرة النبوية) عن (علم التفسير)، لأنَّ الهدفَ من دراسةِ التفسيرِ الحركةُ العمليةُ التطبيقية التنفيذية بالقرآن، ولن نُحسنَ هذه الحركة إلا بعد الوقوفِ على حركةِ الرسول ﷺ وأصحابه بالقرآن، ولا يتحققُ هذا إلاَّ بدراسةِ (السيرة النبوية) التي هي أولُ وأنجحُ تفسيرٍ عمليٍّ للقرآن، تمَّتْ على يدِ رسول الله ﷺ، أولِ مفسرٍ نظريٍّ وعمليٍّ للقرآن!!

* * *

الفصل الرّابع

التَّفْسِيرُ بِالمَأثُور
مَفْهُومُهُ - قَوَاعِدُهُ - خُطُوَاتُهُ - أَعْلَامُهُ

المبحث الأول

مفهوم التفسير بالمأثور ومصادره

للتفسيرِ بالمأثورِ اسمان: التفسيرُ بالمأثور. والتفسيرُ النقلي.

ويُذكَرُ التفسيرُ بالمأثورِ في مقابلِ التفسير بالرأي. ويُذكَرُ التفسيرُ النقليُّ في مقابلِ التفسير الفعلي.

والمأثورُ اسمُ مفعول بمعنى المنقول.

ورد في المعجمِ الوسيط: «أَثَرَ، يَأْثُرُ، أَثْراً: تَبعَ أَثَرَهُ. وأَثَرَ الحديثَ: نَقَلَه ورواه عن غيره.

والأَثَرُ: الخبرُ المرويُّ والسنَّةُ الباقية.

والمأثور: الحديثُ المروي، وما وَرَثَ الخَلفُ عن السَّلف»[1].

فالمأثـور: يقومُ على الروايـة والنقل. ويطلقُ على ما ورثـهُ الخلفُ عن السـلف من علمٍ وحديثٍ وروايـاتٍ وغير ذلك، وغالبُ إطلاقِـه على الحديثِ والروايات.

هذا في اللغة والاصطلاح.

أمّا في موضوعنا: (التفسير بالمأثور) فقد قالَ عنه الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله: «يشملُ التفسيرُ بالمأثور: ما جاءَ في القرآنِ نفسِه من البيانِ والتفصيلِ لبعضِ آياتِه، وما نُقِلَ عن الرسول ﷺ، وما نُقِلَ عن الصحابةِ رضوان

---

(١) المعجم الوسيط، ص٥ـ٦.

الله عليهم، وما نُقِل عن التابعين، مِنْ كلِّ ما هو بيانٌ وتوضيحٌ لمرادِ الله من نصوص كتابه»[1].

وقد أدرجَ الذهبيُّ تفسيرَ القرآن بالقرآن ضمنَ التفسيرِ بالمأثور، وقد سبقَ أنْ سجَّلْنا تحفُّظنا على ذلك ورَفْضَنا له، لأنَّ القرآنَ كلامُ الله، وليس كلامَ بشر، وليس خاضعاً لمقاييسِ نقلِ الروايات وتمحيصِ الأقوال والأخبار، فهو ثابتٌ يقيناً لا يحتاجُ إلى تمحيصٍ وتدقيقٍ وتخريج! أمَّا كلامُ البشرِ فيحتاجُ إلى تحقيقٍ وتخريجٍ وتمحيص، سواء كان كلامَ صحابة أو تابعين، أو حتى حديثَ رسول الله ﷺ!

إنَّ التفسيرَ بالمأثور ـ الذي يتحققُ فيه معنى المأثور في اللغة والاصطلاح ـ هو ما رويَ عن الرسول ﷺ، أو الصحابة، أو التابعين، من رواياتٍ نقليةٍ مرويةٍ في تفسير القرآن!

واسمُه الآخرُ يؤكِّدُ هذا المفهوم، وهو التفسيرُ النقلي، الذي يقومُ على نقل الأقوالِ والرواياتِ عن السلفِ في تفسير القرآن.

وردَ في المعجم الوسيط: «نَقَلَ، يَنْقُلُ، نَقْلاً. ونَقَلَ الكلامَ أو الخبرَ: بلَّغَهُ عن صاحبه.

والمنقول: ما عُلِمَ من طريقِ الروايةِ أو السماع، كعلمِ اللغةِ أو الحديث ونحوهما، وهو يقابلُ المعقول»[2].

وقال الإمامُ السيوطي في الإتقان: «قال الزركشي: الحقُّ أنَّ علْمَ التفسيرِ منه ما يتوقَّفُ على النقلِ: كسببِ النزول، والنسخ، وتعيينِ المبهم، وتبيينِ المجمل، ومنه ما لا يتوقَّفُ، ويكفي في تحصيله الثقةُ على الوجه المعتبر.

واعلمْ أنَّ القرآنَ قسمان: قسمٌ وردَ تفسيرُه بالنقل، وقسم لم يَرِدْ.

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ١٥٢.

(٢) المعجم الوسيط، ص٩٤٩.

والأول: إمّا أن يَـرِدَ عن النبيِّ ﷺ، أو الصحابـة، أو رؤوس التـابعين، فالأولُ يُبْحَثُ فيه عن صحةِ السند. والثاني يُنظَرُ في تفسيرِ الصحابي: فإنْ فسَّرَهُ من حيثُ اللغة فهم أهلُ اللسان، ولاشكَّ في اعتمادِهم، أو بما شاهدَه من الأسباب والقرائن، فلاشكَّ فيه، وإنْ تعارضَتْ أقوالُ جماعةٍ من الصحابة، فإنْ أمكنَ الجمعُ فذاك، وإنْ تعذّرَ قُدِّمَ ابنُ عباس. . .»[1].

وبما أنَّ التفسيرَ بالمأثور ـ أو التفسيرُ النقلي ـ هو ما نُقِلَ بنقلٍ صحيحٍ عن رسول الله ﷺ أو الصحابةِ أو التابعين، فإنه ضروريٌّ لحسنِ فهمِ القرآن وتفسيره، ولابُدَّ لكلِّ مفسرٍ يريدُ أنْ يكونَ تفسيرُه صواباً مقبولاً مِنْ أنْ ينطلقَ من التفسيرِ بالمأثور، وأنْ يلتزمَ بمراحلِه وخطواته، كما بَيّنّا في (أحسن طرق التفسير).

أمّا مصادرُ التفسير بالمأثور فهي:

١ ـ ما صحَّ من الأحاديثِ المرفوعةِ إلى رسول الله ﷺ: وقد وقَفْنا فيما سبقَ على أهميةِ السنّة بالنسبة لتفسير القرآن، وعلى صُوَرِ بيانِها للقرآن، وعلى تفسيرِ رسول الله ﷺ للقرآن، فلا نُعيدُه هنا.

ونُذَكِّرُ هنا بأهميةِ اعتمادِ ما صحَّ من الأحاديثِ المرفوعة، وعدمِ جوازِ إيرادِ أحاديث موضوعة أو ضعيفة وتفسيرِ القرآنِ بها، وأهميةِ تخريجِ الحديث والحكم عليه، والعودة في هذا إلى أصحاب الشأن.

٢ ـ ما صحَّ عن الصحابةِ من أقوالٍ مأثورة في التفسير: والعودةُ لتفاسيرِ الصحابةِ مطلوبةٌ من المفسر، لأنهم أعلمُ الناسِ بمعاني كتاب الله، فتفاسيرُهم تأتي في المرتبةِ الثانية بعد تفسير رسول الله ﷺ.

قال عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه متحدِّثاً بنعمةِ الله عليه في فهم القرآن: «سَلوني، فوالذي لاإلـهَ غيره ما نزلتْ آيةٌ من كتابِ الله تعالى إلاَّ وأنا أعلمُ فيمَ

---

(١) الإتقان للسيوطي: ٢/١٢١٦ ـ ١٢١٧.

نـزلت، وأينَ نزلت، ولـو أعلمُ مكانَ أحدٍ أعلمُ بكتـابِ الله منّي تَنالُه المطايـا لأتيتُه»[1].

وقال أبو عبد الرحمن السلّمي: حدَّثَنا الذين كانوا يُقْرِؤوننا القرآن، كعثمانَ ابن عفان وعبدِ الله بنِ مسعود، أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ عشْرَ آياتٍ لم يُجاوزوها حتى يتعلّموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلّمْنا القرآنَ والعلمَ والعملَ معاً»[2].

وخيرُ ما يشهدُ لعلمِ الصحابةِ في التفسير وتفاوتِهم في ذلك قولُ التابعيِّ مسروقِ بن الأجدع رضي الله عنه: لقد جالسْـتُ أصحابَ رسـول الله ﷺ، فوجدتُهم كالإخاذ [الإخاذ: هو الغدير أو النقرة فيه الماء] فالإخاذُ يَروي الرجل، والإخاذُ يروي الرجلين، والإخاذُ يروي العشرة، والإخاذُ يروي المئة، والإخاذُ لو نزلَ به أهل الأرض لأصدرهم. ووجدْتُ عبدَ اللهِ بن مسعود من ذلك الإخاذ»[3].

ونؤكِّدُ على أنَّ أقوالَ الصحابة المأثورة في التفسير لا تُؤْخَذُ إلاّ إذا ثبتتْ صحتُها، ولابدَّ أنْ تُرَدّ إن كانت ضعيفة.

٣ ـ ما صحَّ من أقوالِ التابعين: لأنَّ التابعينَ هم تلاميذُ الصحابة، وهم أفهمُ الناسِ بالقرآن بعد الصحابة.

ومن أعلمِ التابعين بالتفسيرِ تلاميذُ ابن عبـاس، وتـلاميذُ ابن مسـعود، وتلاميذ أُبيّ بن كعب، رضي الله عنهم.

ومن أشهر هؤلاء مجاهد وسعيد بن جبير وقتادة.

قـال مجاهد: عرضْتُ المصحفَ على ابن عبـاس ثلاث عرضات، من فاتحتِه إلى خاتمته، أُوقفُه عند كلِّ آيةٍ منها، وأسألُه عنها!

---

(١) تهذيب تفسير الطبري: ١/ ٤٢ ـ ٤٣.
(٢) المرجع السابق نفسه.
(٣) طبقات ابن سعد: ٢/ ٣٤٣.

وقال ابنُ أبي مليكة: رأيتُ مجاهداً يسألُ ابن عباس عن تفسير القرآن، ومَعَهُ ألواحُه، فيقول له ابنُ عباس: اكتب. حتى سألَهُ عن التفسير كلّه!

وقال سفيان الثوري: إذا جاءكَ التفسيرُ عن مجاهد فَحَسْبُكَ به![1].

٤ ـ **القراءاتُ الشاذّة**: نرى أنَّ القراءاتِ الشاذّةَ من مصادرِ التفسيرِ بالمأثور؛ لأنّها قراءاتٌ مأثورةٌ منسوبةٌ لقرّاء من التابعين أو أتباع التابعين، فهي تندرجُ ضمنَ مفهومِ التفسيرِ بالمأثور!

إننا نعلمُ أنَّ القراءاتِ نوعان:

قراءات صحيحة: وهي عشرُ قراءات، وهي قرآنٌ بإجماعِ العلماء، وقد سبقَ أنْ تحدَّثْنا عن هذه القراءاتِ العشرِ الصحيحة، ووجوب تفسيرِ القرآنِ بها، عند حديثِنا عن تفسير القرآن بالقرآن.

قراءات شاذة: وهي أربعُ قراءات، لأربعةٍ من القرّاء، وهم:

١ ـ ابن مُحَيْصِن: محمد بن عبد الرحمن السَّهْمي المكي، كان مقرئاً لأهل مكة، وقد توفي سنة ١٢٣هـ.

٢ ـ الأعمش: سليمانُ بن مهران الكوفي، كان مقرِئاً لأهل الكوفة، وقد توفي سنة ١٤٨هـ.

٣ ـ الحسن بن يسار البصري، إمامُ أهلِ البصرة، الإمامُ التابعي المعروف، وقد توفي سنة ١١٠هـ.

٤ ـ اليزيدي: يحيى بن المبارك العدوي البصري، كان من أئمةِ القرّاءِ بالبصرة، وقد توفي سنة ٢٠٢هـ[2].

وهذه القراءاتُ شاذّةٌ لأنه اختلَّ بها شرطٌ أو أكثرُ من الشروطِ الثلاثةِ لقبولِ

---

(١) تهذيب تفسير الطبري: ١/ ٤٦.
(٢) مقدمة كتاب (الميسّر في القراءات الأربعة عشر): ش.

القراءةِ وإثباتِ أنها قرآن.

والشروطُ هي: صحةُ السند، وموافقةُ اللغةِ العربية ولو بوجْه، وموافقةُ رسمِ المصحف العثماني ولو احتمالاً.

فإذا اختلَّ بها شرطٌ أو أكثرُ من هذه الشروط كانت القراءةُ شاذة.

والقراءاتُ الأربعُ الشاذّة ليست قرآناً، لكنها تساعدُ على فهمِ الآية وتفسيرِها وتوضيحِ معناها، فهي ـ من هذا الجانب ـ من مصادرِ التفسير بالمأثور!

ولمعرفةِ القراءات الشاذة نُحيلُ على كتاب (الميسر في القراءات الأربعة عشر) لمحمد فهد الخاروف، ولمعرفةِ توجيهِ القراءات الشاذة نُحيلُ على كتاب (القراءات الشاذة وتوجيهها) للشيخ عبد الفتاح القاضي، وهو ملحقٌ بكتابه (البدور الزاهرة في القراءات المتواترة).

قال الشيخُ عبد الفتاح القاضي: «وإذ قد علمتَ أنَّ القراءةَ الشاذةَ لاتجوزُ القراءةُ بها مطلقاً، فاعلمْ أنه يجوزُ تعلُّمُها وتعليمها، وتدوينُها في الكتب، وبيانُ وجْهِها من حيثُ اللغةُ والإعراب والمعنى، واستنباطُ الأحكامِ الشرعية منها»[1].

من الأمثلةِ على القراءات الشاذة قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْ﴾ [البقرة: ١٠٤].

أجمعَ القراءُ العشرةُ على قراءة «راعِنا».

وتوجيهُ هذه القراءةِ أنّ الكلمةَ فعلُ أمر، مبنيٌّ على حذفِ حرفِ العلّة، لأنَّ الفعلَ معتلٌّ بالألفِ المقصورة. تقول: راعىٰ، يُراعي، راعِ.

«راعِ»: فعلُ أمرِ مبنيٌّ على حذف حرف العلّة، والفاعلُ ضميرٌ مستتر تقديره أنت، و«نا» ضميرٌ متصلٌ في محل نصب مفعول به.

ومعنى «راعِنا»: أَمْهِلنا وأنْظِرْنا ولا تتعجلْ علينا.

---

(١) القراءات الشاذة وتوجيهها لعبد الفتاح القاضي، ص١٠.

وقرأ ابنُ محيصن والحسن البصري: «راعِناً» بتنوين الكلمة.

وتوجيهُ هذه القراءة الشاذة: أنَّ «راعناً» مصدرٌ بمعنى الرعونة. تقول رَعَنَ، يَرْعُنُ، رَعْناً ورُعونةً وراعِناً، كان أرعن. والرعونةُ هي الخفة والطيش.

و«راعناً» منصوبٌ على أنه صفةٌ لمصدرٍ محذوف. تقديره: لا تقولوا قولاً راعناً. أي: لا تقولوا قولاً سيئاً ذا رعونةٍ وقبحٍ.

ومعنى هذه القراءة: يَنْهىٰ اللهُ المسلمينَ عن القولِ الأرعنِ القبيح، ويطلبُ منهم أنْ يقولوا القولَ الطيبَ اللطيف.

وهذا المعنى صحيح، وهذا التوجيهُ مقبولٌ، لكنَّ هذه القراءةَ الشاذةَ ليست قرآناً![1].

ومثال ذلك أيضاً: قوله تعالى عن المنافقين: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ٢].

أجمعَ القرّاءُ العشرةُ على قراءة «أَيْمانَهم»: بفتح الهمزة وسكون الياء.

وتوجيهُ هذه القراءة الصحيحة أنّ «أيمانَ» جمعُ يمين. أي: تَستَّرَ المنافقون بالأَيْمان التي كانوا يحلفون بها، وبذلك صَدّوا عن سبيل الله.

وهذا يتناسبُ مع الآيةِ السابقة: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ [المنافقون: ١] فقولهم: ﴿نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ﴾ يمينٌ من الأَيْمان التي كانوا يُقسمون بها.

وقرأ الحسنُ البصري: «إِيمانَهم» بكسر الهمزة.

و«إيمانَهم»: مصدر «آمـنَ»: تقول: آمـنَ، يؤمن، إيمانـاً. والإيمـان معروف.

وتوجيهُ هذه القراءة الشاذة: اتخذ المنافقون الإيمانَ الذي أظهروه بألسنتهم

---

(١) المرجع السابق، ص٣٢؛ والميسر في القراءات الأربعة عشر للخاروف، ص١٦.

جُنَّةً ووقاية، يقونَ بها دماءهم وأموالَهم[1].

و«إيمانَهم» مفعولٌ به أول منصوب لفعل «اتخذوا».

٥ ـ القراءات التفسيرية:

القراءاتُ التفسيريةُ من مصادرِ التفسيرِ بالمأثور. وتسمّى القراءاتُ التفسيرية عند بعض العلماء «المدرج».

والقراءاتُ التفسيرية هي ما يضيفُه بعضُ الصحابةِ من بعضِ الكلمات، تفسيراً منهم لبعضِ الآيات، وهم يعلمونَ أنها كلماتٌ منهم، وأنها ليستْ من القرآن.

والفرقُ بين القراءاتِ التفسيريةِ المدرَجَة وبين القراءاتِ الشاذة: أن القراءات الشاذة ـ التي تحدَّثْنا عنها في النقطة السابقة ـ هي نطقٌ من بعضِ القرّاء لبعضِ كلماتِ القرآن، بينما القراءاتُ التفسيرية هي كلماتٌ مدرجةٌ ضمنَ الآيات، يضعُها الصحابةُ بين كلماتِ الآيات، تفسيراً منهم لها، ويقيناً منهم أنها ليست قرآناً.

وهذه القراءاتُ التفسيرية تُدْرَجُ ضمنَ تفسيرِ الصحابةِ، وتأخذُ سماتِ (تفسير الصحابي) الذي تحدَّثنا عنه قبل قليل، باعتباره أحدَ مصادرِ التفسيرِ بالمأثور.

وهذه القراءاتُ التفسيريةُ لا تؤخَذُ إلاَّ إذا صحَّت، وتتضمّنُ هذه القراءاتُ بعضَ الأحكام!

من الأمثلة على القراءات التفسيرية قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

روى البخاريُّ وأبو داود عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: كانتْ عُكاظُ ومَجَنَّةُ وذو المجازِ أسواقاً في الجاهلية، فكانوا يتَّجرون فيها، فلما كان الإسلامُ

---

(١) انظر القراءات الشاذة وتوجيهها، ص٨٨؛ والميسر في القراءات الأربعة عشر، ص٥٥٤.

كأنهم تأثَّموا من ذلك، فسألوا النبيَّ ﷺ؟ فأنزلَ اللهُ الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: في موسم الحج...»[1].

القراءةُ التفسيريةُ هي قول ابن عباس: «في موسم الحج». وهذه الجملةُ بعد الجملةِ القرآنيةِ مباشرة: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ﴾، فصارت الجملةُ هكذا: ليس عليكم جناحٌ أن تبتغوا فضلاً من ربكم في موسم الحج!

أي أنَّ ابن عباس رضي الله عنهما يرى جواز المتاجرةِ في موسم الحج، بأنْ يُحضرَ الحاجُّ معه بضاعـةً ليبيعها، وأنْ يشـتريَ الحاجُّ بعضَ السلعِ والبضائع. علماً أنَّ الآية لم تتحدَّث عن ذلك بالنص، وإنما أباحتْ للمؤمن أنْ يبتغيَ الفضلَ من ربه!

ودليلُ ابنِ عباس على ذلك الروايةُ الصحيحةُ التي أوردها في مناسبةِ نزول الآيـة، فقد كان العربُ في الجاهلية يُتاجرون في موسـم الحج، فلما أسـلموا تحرَّجوا من ذلك، وخَشُوا أنْ لا يكونَ الأمْرُ مباحاً، فسألوا النبيَّ ﷺ عن حكم المتاجرةِ في موسم الحج! فأنزلَ اللهُ الآيةَ جواباً على سؤالهم، وأباح لهم الابتغاءَ من فضله، وهذا يكونُ في المتاجرةِ في موسم الحج!![2].

ومن الأمثلةِ على ذلك أيضاً قولُه تعالى في كفارة اليمين: ﴿فَكَفَّارَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّٰرَةُ أَيْمَٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

كفارةُ اليمين إطعامُ عشرة مساكين من أوسطِ طعامِ الذي حنثَ في يمينه، أو كسوتُهم، أو تحريرُ رقبة، فمن لم يجدْ ما يطعمُ أو يكسو أو يعتق، فعليه أنْ يصومَ ثلاثةَ أيام: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ﴾.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢١٥٠؛ وأبو داود برقم: ١٧٣٤.

(٢) انظر تهذيب تفسير الطبري: ١/ ٦٢١ـ ٦٢٢.

والقراءةُ التفسيرية هي قراءةُ أُبَيِّ بنِ كعب وعبدِ الله بن مسعود رضي الله عنهما، حيث أضافا كلمةَ (متتابعات) بجانبِ الجملةِ القرآنية، تفسيراً منهما لها، فصارت هكذا: فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات.

و(متتابعات) حالٌ لما قبلها (ثلاثة أيام). أيْ أنَّ أبيَّ بن كعب وابنَ مسعود كانا يريان أنَّ الأيامَ الثلاثةَ يجبُ أن تكونَ متتابعة، وأنه لايجوز فيها التفريق، بينما يرى غيرهم جوازَ التفريق فيها[1].

(متتابعات) قراءة تفسيرية، من باب تفسير الآية، وهي ليست قرآناً!!

* * *

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ٣٠٢-٣٠٣.

المبحث الثاني

قواعد التفسير بالمأثور وضوابطه

قواعدُ التفسير هي: الأحكامُ الكليةُ التي يُتَوَصَّلُ بها إلى استنباطِ معاني القرآن العظيم، ومعرفةِ كيفيةِ الاستفادةِ منها[1].

وبما أنَّ التفسيرَ بالمأثور يقومُ على النقل، واعتمادِ ما صحَّ من أحاديثَ وأقوالٍ للصحابةِ والتابعين، فلابدَّ من معرفةِ قواعدِه وشروطِه وضوابطِه، ليكون صحيحاً مقبولاً.

ونقدّمُ فيما يلي أهمَّ القواعدِ الأساسية للتفسير بالمأثور:

١ ـ تفسيرُ القرآن بالقرآن هو الأساسُ لما بعده من التفسيرِ بالمأثور:

وتفسيرُ القرآنِ بالقرآنِ له صورٌ وحالات:

فقد يكون ببيانِ المجمَل. وقد يكونُ بتقييدِ المطلق. وقد يكونُ بتخصيصِ العام. وقد يكونُ ببيانِ المنطوقِ بالمفهوم. وقد يكونُ بتفسيرِ لفظةٍ بلفظة. وقد يكون ببيان المرادِ من اللفظةِ بسياقِ آيةٍ أخرى. وقد يكونُ بتفسيرِ معنى بمعنى. وقد يكونُ بتفسيرِ آيةٍ بآية أخرى. وقد يكونُ ببيانِ الموجز بالمفصَّل. وقد يكونُ بجمع القراءاتِ الصحيحةِ وتفسيرِ بعضها ببعض. وقد يكونُ بالجمعِ ما يُتَوَهَّمُ أنه مختلفٌ من آيات القرآن[2].

وقد تحدَّثْنا عن بعض هذه الأنواعِ والصور، وعَرَضنا عليها بعضَ النماذج والتطبيقات.

---

(١) قواعد التفسير لخالد السبت: ١/ ٣٠.

(٢) انظر تطبيقات على هذه الأنواع في قواعد التفسير: ١/ ١١٠ ـ ١٢٩.

٢ ـ تفسيرُ القرآنِ بالسنّة يلي تفسيرَ القرآن بالقرآن في المنزلةِ والأهمية:

ومن صورِ تفسيرِ رسولِ الله ﷺ للقرآن:

أ ـ كان يفسرُ أحياناً القرآن بالقرآن.

ب ـ وكان أحياناً يذكرُ تفسيرَ الآيةِ ثم يذكرُ الآية، وأحياناً يذكر الآية ثم يذكر تفسيرها.

جـ ـ وكان أحياناً يبينُ لأصحابِه معنى الآية التي أشكلَ عليهم فهمُها.

د ـ وكان أحياناً يسأل أصحابَه عن الآية ثم يفسِّرها لهم.

هـ ـ وكان أحياناً يَفْصِلُ ويقطعُ الخلافَ الواقعَ بين أصحابه في معنى الآية.

و ـ وكان أحياناً يفسرُ الآية عملياً، فيعملُ الواجبَ فيها[(١)].

وقد عَرَضْنا من قبل أمثلة ونماذج على تبيين السنّةِ للقرآن، من حيثُ تخصيصِها لعامّه، أو تقييدُها لمطلقِه، أو تعريفُها لمبهمِه، أو بيانُها لمجملِه، أو تفسيرُها لألفاظِه، أو تفصيلُها لموجزِه[(٢)].

٣ ـ بيان الرسول ﷺ للآيةِ وتفسيرُه لها مقدَّمٌ على أيِّ بيانٍ وتفسير:

قال الإمامُ ابن تيمية: ومما ينبغي أنْ يُعلمَ أنَّ الألفاظ الموجودةَ في القرآن والحديثِ إذا عُرِفَ تفسيرُها وما أُريدَ بها من جهةِ النبي ﷺ لم يُحْتَجْ في ذلك إلى الاستدلال بأقوالِ أهلِ اللغة ولا غيرهم!.

وهذا معناهُ أنَّ بيانَ وتفسيرَ رسول الله ﷺ للآية أو الكلمة القرآنية هو الأصل، لأنه أعلمُ الناسِ بمعاني القرآن، ولا داعيَ بعد ذلك إلى الرجوعِ إلى الشواهدِ

---

(١) انظر الأمثلة التطبيقية على هذه الصور في كتاب خالد السبت (قواعد التفسير): ١/ ١٣٠ ـ ١٤٢.

(٢) انظر هذه التطبيقات في قواعد علم التفسير: ١/ ١٤٢ ـ ١٤٨.

الشعرية وغيرها، فبيانُ رسول الله ﷺ لها كافٍ شافٍ.

٤ ـ ألفاظُ القرآنِ محمولةٌ على الحقيقةِ الشرعية، فإن لم تكن فالحقيقة العرفية، فإن لم تكن فالحقيقة اللغوية:

فألفاظُ الصلاةِ والصيامِ والزكاة والحج تَرِدُ في القرآن، ويُرادُ بها تلك العبادات المعروفة، مع أن لهذه الألفاظ معاني أخرى في أصْلِ وضْعِها اللغوي. لكنها في القرآن يُرادُ بها حقيقتُها الشرعية.

ومن حمْلِ اللفظ القرآني على حقيقته الشرعية قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٨٤].

فالصلاة لغة: الدعاء، والمرادُ بالصلاة هنا حقيقتها الشرعية وهي صلاة الجنازة، لأن المصلي في صلاة الجنازة يقف على الميت ويدعو له.

ومِن حملِ اللفظِ على الحقيقةِ اللغوية ـ لأن الحقيقةَ الشرعيةَ غيرُ مرادة ـ الصلاةُ على المتصدّق في قوله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

فلا يُرادُ بالصلاة هنا صلاةُ الجنازة، لأن المتصدقين ليسوا أمواتاً، وإنما المرادُ بها حقيقتُها اللغوية، وهي الدعاء. أي: عندما يتصدّقُ المسلمون، ويأتونك بصدقاتهم، فعليكَ أنْ تصلي عليهم، بأن تدعوَ اللهَ لهم.

ودليل هذا ما رواه البخاريُّ ومسلمٌ عن عبد الله بن أبي أوْفىٰ رضي الله عنهما قال: «كان النبيُّ ﷺ إذا أُتيَ بصدقةِ قومٍ صلّىٰ عليهم، فأتاهُ أبي بصدقته، فقال: اللهمَّ صلِّ على آلِ أبي أوْفى»(١).

ومراعاةُ هذه القاعدة تتطلبُ أموراً ثلاثة:

أ ـ ينبغي على المفسِّرِ أنْ يعرفَ حدودَ ألفاظ القرآن، وأنْ يقفَ عند حدِّ كلِّ لفظ، بحيثُ لا يدْخُلُ فيه غيرُ موضوعه، ولا يَخْرُجُ منه شيءٌ من موضوعه.

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ١٤٩٧؛ ومسلم برقم: ١٠٧٨.

ب ـ ينبغي أنْ تُحملَ ألفاظُ القرآن على ما كان متعارَفاً في عصرِ نزول الوحي، ولا يجوزُ أنْ تُحمَلَ على أعرافٍ وعاداتٍ حدثَتْ بعد ذلك.

جـ ـ ينبغي مراعاةُ السياق ومقتضى الحال، والنظرُ في قرائنِ الكلام عند تفسير ألفاظ القرآن، ثم ضمُّ النظير فيها إلى نظيره[1].

٥ ـ قول الصحابي في التفسير مقدّم على قول مَنْ بعده:

وتفسير الصحابة للقرآن لها صور:

أ ـ فقد يفسِّرون القرآن بالقرآن.

ب ـ وقد يفسِّرون القرآن بحديثٍ يصرّحونَ بنسبتِه إلى رسول الله ﷺ.

جـ ـ وقد يفسِّرون القرآن بما له حكْمُ الرفعِ إلى الرسول ﷺ دون التصريح بذلك.

د ـ وقد يفسِّرون القرآن بسنةِ النبيِّ ﷺ الفعلية.

هـ ـ وقد يفسِّرون القرآن بقواعدِ اللغة العربية.

و ـ وقد يفسرُ الصحابيُّ الآيةَ بفهمِه واجتهادِه.

ز ـ وقد يصرِّحُ بأخذِ التفسيرِ من صحابيٍّ آخر.

ح ـ وقد يفسِّرُ الصحابيُّ الآية مما عُلِمَ من الأحوال والملابسات والوقائع والأحداث زمن نزول الوحي[2].

والقاعدةُ الأساسيةُ في تفاسير الصحابة هي: قولُ الصحابيِّ في تفسيرِ الآية مقدَّمٌ على أقوالِ مَنْ جاؤوا بعدَه.

والسببُ في تقديمهم على مَنْ بعدهم أنهم أعلمُ الناس بمعاني القرآن،

---

(١) انظر هذه القواعد في كتاب (قواعد التفسير) للسبت: ١/١٤٩ ـ ١٥٧.

(٢) انظر المرجع السابق: ١/١٥٨ ـ ١٨٧.

وأدرى الناس بمعاني اللغة، وقد صحبوا رسول الله ﷺ، وعَرفوا أحوالَه، وشهدوا تنزيل القرآن، وتربّوا على يدِ رسول الله ﷺ.

٦ ـ قول التابعي في التفسير مقدّم على قول مَن بعده:

بعد تفسيرِ القرآن بأقوال الصحابة، يُنْتَقَلُ لتفسيرِ القرآنِ بأقوال التابعين.

ومصادرُ التابعين في التفسير هي:

أ ـ تفسيرُهم القرآن بالقرآن.

ب ـ ثم تفسيرُهم القرآن بالسنّة.

جـ ـ ثم تفسيرُهم القرآن بأقوال الصحابة.

د ـ ثم تفسيرُهم القرآن باللغة.

هـ ـ ثم تفسيرُهم القرآن بالفهم والاجتهاد.

و ـ وقد يأخذُ التابعيُّ التفسيرَ عن تابعي آخر.

ز ـ وقد يفسِّرُ التابعي القرآنَ بما عرفَهُ من الوقائعِ والعادات والأحوال التي كان عليها الناسُ وقتَ نزول الوحي.

والقاعدةُ الأساسيةُ في تفاسير التابعين هي: قولُ التابعيِّ في التفسيرِ مقدَّمٌ على أقوالِ الذين جاؤوا بعده.

والسببُ في تقديم أقوالِ التابعين في التفسير على مَنْ بعدَهم أنهم أعلمُ الناس بالقرآن بعد الصحابة، وقد أخذوا التفسير عن الصحابة، وهم من أهل القرون الخيِّرة المشهودِ لها بالخير والفضل، وهم أعلمُ الناسِ بلغةِ العرب بعد الصحابة[1]

٧ ـ لا يؤخذ التفسير بالمأثور إلا بعد ثبوته وتخريجه:

ليستْ كلُّ الأقوالِ المأثورةِ في التفسير صحيحة، سواء كانتْ أحاديثَ

---

(١) انظر قواعد التفسير للسبت: ١/ ١٨٨ ـ ١٩٩.

مرفوعة، أو أقوالاً للصحابة، أو التابعين، فقد دخلَ الأقوالَ المأثورة آفةُ الوضعِ والاختلاف، ووُجدَتْ في كتبِ التفسير بالمأثور أقوالٌ كثيرةٌ موضوعةٌ أو ضعيفة.

لذلك لا يؤخَذُ التفسيرُ بالمأثور إلاَّ بعدَ تخريجِ تلك الأقوالِ المأثورةِ، ومعرفةِ الصحيحِ الثابت منها، عند ذلك نعتمدُ ذلك الصحيحَ الثابت، ونَرُدُّ ما لم يثبتْ من الموضوعِ أو الضعيف.

ومما يساعدُ على تخريجِ الأقوال المأثورةِ في التفسير العودةُ إلى كتبِ التفسير بالمأثور المتقدمة، التي كان أصحابُها يوردونَ أسانيدَ تلك الروايات، مثل تفسيرِ السدي الكبير وعبد الرزاق الصنعاني، ومثل تفسير ابن أبي حاتم وابن جرير الطبري.

كذلك يمكنُ تخريجُ تلك الرواياتِ المأثورة من كتبِ السننِ والمسانيد المسندة، كسنن أبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وموطأ مالك ومسند أحمد، ومصنف عبد الرزاق، ومصنف ابن أبي شيبة ومسند أبي يعلى الموصلي والسنن الكبرى للبيهقي.

وقد أُخرجتْ بعضُ تلك الروايات في كتبٍ خاصةٍ مخرَّجةٍ، منها:

- تفسيرُ ابن عباس المسمى: صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، تحقيق وتخريج راشد عبد المنعم الرجال.

- مرويات أم المؤمنين عائشة في التفسير، إعداد الدكتور سعود الفنيسان.

- مرويات الإمام أحمد بن حنبل في التفسير، تخريج الدكتور حكمت بشير ياسين.

واشتراطُ تخريجِ الأقوالِ والروايات المأثورة، واعتمادُ ما صحَّ وثبتَ منها، من أجلِ استبعادِ غيرِ الصحيح، ومن أجلِ الإبقاءِ على المنزلةِ العظيمةِ للتفسير بالمأثور، ومن أجلِ حُسْنِ فهمِ القرآنِ وتفسيره.

قالَ الإمامُ ابن تيمية حول هذا الموضوع: «القسمُ الذي يمكنُ معرفةُ الصحيحِ منه موجودٌ فيما يُحتاجُ إليه، ولله الحمد. فكثيراً ما يوجدُ في التفسير

والحديث والمغازي أمورٌ منقولةٌ عن نبينا ﷺ وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. .

فالمقصودُ أنَّ المنقولات التي يُحتاجُ إليها في الدين قد نصَبَ الله الأدلةَ على بيانِ ما فيها من صحيحٍ وغيره. . »[1].

ومن المناسب في هذا المقام أنْ نفهمَ جملةً قالَها الإمامُ أحمد بن حنبل:

قال: ثلاثةُ أمورٍ ليس لها إسناد: التفسير، والمغازي، والملاحم.

وفي روايةٍ أُخرىٰ قال: ثلاثةُ كتبٍ ليس لها أصول: المغازي والملاحم والتفسير.

وقد أساءَ بعضُ الباحثين والدارسين فهمَ هذه العبارة، وخرَجوا منها بنتائجَ خاطئة، أَلْغَوا فيها هذه العلومَ الإسلامية الضرورية الثلاثة: التفسير والمغازي والملاحم، لأنها لم تنشأْ نشأةً علميةً إسلامية، وليس لها أصولٌ علميةٌ موضوعية!

قال الإمامُ ابنُ تيمية في معنى هذه العبارة: «ليس لها أصل: أي: ليس لها إسناد، لأنَّ الغالبَ عليها المراسيل. مثل ما يذكرُه عروةُ بنُ الزبير، والشعبي، والزهري، وموسى بن عقبة، وابن إسحاق، ومَن بعدَهم كيحيى بن سعيد الأموي، والوليد بن مسلم، والواقدي، ونحوهم من كتّاب المغازي. . . »[2].

وقال الدكتور عدنان زرزور في تعليقه على كلام ابن حنبل السابق: «نَقَلَ هذه الروايةَ كثيرون، ومنهم مَنْ يرى «الأصلَ» هنا بمعنى الإسناد، على ما جاء في الرواية السابقة التي قدَّمَها شيخُ الإسلام ابن تيمية. ومنهم مَنْ يرى أنَّ هذا القولَ من الإمامِ أحمد محمولٌ على كتب ـ في هذه الأبواب الثلاثة ـ بأعيانها.

قال الخطيب البغدادي: هذا محمولٌ على كتبٍ مخصوصةٍ في هذه المعاني الثلاثة، غيرِ معتمدٍ عليها لعدمِ عدالةِ ناقلها، وزيادةِ القصاص فيها. وقد قالَ

---

(١) مقدمة في أصول التفسير، ص٥٨.
(٢) المرجع السابق، ص٥٩ ـ ٦٠.

الإمامُ أحمد في تفسير الكلبي: مِنْ أوَّلِه إلى آخره كذب، لا يحلُّ النظرُ فيه!

وذكر السيوطي أنَّ المحققين من أصحاب الإمامِ أحمد قالوا: مرادُه أنَّ الغالبَ ليس لها أسانيدُ صحاح متصلة»[1].

وعلى قولِ مُحَقِّقي أصحاب الإمام أحمد الذي ذكره السيوطي يكون قصْدُ الإمام أحمد أنَّ معظمَ رواياتِ التفسير والمغازي والملاحم من «مراسيل التابعين» ليس لها أسانيدُ متصلة.

والراجحُ أنَّ مراسيلَ التابعين مقبولة، وبخاصة كبار التابعين، لأنهم لا يَرْوون إلاَّ عن صحابة، والصحابة كلُّهم عدول.

وهذا لا ينفي أنَّ بعض روايات التابعين عن الصحابة متصلة، وأنَّ لها أسانيد صحيحة.

فإذا كان مجملُ الموضوعِ وردَ برواياتٍ متصلةٍ مسندةٍ صحيحة، وبعضُ جزئياته وردَتْ برواياتٍ مرسلة، وكان الذي أرسلَها تابعياً ثقة، معروفاً بروايته عن الصحابة، فإنَّ رواياتِه المرسلة تكون مقبولة.

وإذا كانتْ بعضُ روايات التفسير بالمأثور هكذا، كانت صحيحةً مقبولةً. والله أعلم.

٨ ـ الجمع بين الأقوال المختلفة عن الصحابة والتابعين:

سبقَ أنْ قرَّرْنا أنَّ الخلافَ بين الصحابةِ في التفسير قليل، وأنَّ الخلافَ بين التابعين فيه قليلٌ أيضاً، وإنْ كانَ أكثرَ من الواقعِ بين الصحابة. لكنَّ الخلافَ بينهم خلافُ تنوّع وليس خلاف تضادّ، وقد فصَّلنا هذا في الحديث عن (أسباب اختلاف المفسرين).

وهذا معناهُ أنه يمكن الجمعُ بين أقوالهم في التفسير، والأخذُ بها كلِّها،

---

(١) المرجع السابق، ص٥٩ حاشية رقم (٢)؛ وانظر (التفسير والمفسرون) للذهبي: ١/ ٤٧ ـ ٤٨؛ وانظر (قواعد التفسير) للسبت: ١/ ١٩٨ ـ ١٩٩.

لأنها يكملُ بعضها بعضاً، وكلُّها تكملُ معنى الآية.

قال الإمامُ الزركشي في (البرهان): «يكثرُ في معنى الآية أقوالُ المفسرين واختلافُهم، ويحكي المفسرون المعنى بعباراتٍ متباينة الألفاظ، ويظنُّ مَنْ لا فهمَ عنده أنَّ في ذلك اختلافاً فيحكيه أقوالاً، وليس كذلك، بل يكونُ كلُّ واحدٍ منهم ذَكَرَ معنى ظهر من الآية، وإنما اقتصر على ذلك المعنى لأنه أليقُ عنده، أو لكونِه أليقَ بحالِ السائل.

وقد يكونُ بعضُهم يخبرُ عن الشيء بلازمه ونظيره، والآخرُ بمقصوده وثمرته، والكلُّ يؤولُ إلى معنى واحد غالباً، والمرادُ الجميع.

فلْيُتَفَطَّن لذلك، ولا يُفهمُ من اختلافِ العبارات، اختلافُ المرادات. كما قيل:

عباراتُنا شتَّىٰ وَحُسْنُكَ واحدٌ ... وَكُلٌّ إلى ذَاكَ الجَمالِ يُشيرُ

هذا كلُّه حيثُ أمكنَ الجمعُ بين الأقوال.

أمَّا إذا لم يمكن الجمع، فالمتأخِّرُ من القولين عن الشخصِ الواحد مقدَّمٌ على المتقدمِ عنه، إن استويا في الصحة، وإلاَّ فالصحيحُ هو المقدَّمُ على غير الصحيح..»[(١)].

وإنْ كانَ الاختلافُ عن شخصين أو أكثر من الصحابة أو التابعين، واختلفت الروايات أو الروايتان صحة وضعفاً، قدم الصحيح وترك ما عداه.

وإن استوت الروايتانِ أو الرواياتُ في الصحة، رَدَدْنا الأمرَ إلى ما ثبتَ فيه السمعُ والنقل، فإنْ لم نجدْ نقلاً وسمعاً، وكانَ للاستدلالِ طريقٌ إلى تقويةِ أحدهما وترجيحه رجَّحناه وتركنا ما عداه، وإنْ تعارضت الأدلةُ فعلينا أنْ نؤمنَ بمرادِ الله ونتوقفَ في الترجيح[(٢)].

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي: ٢/ ١٥٩ ـ ١٦٠.
(٢) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ١٣٨ ـ ١٣٩.

٩ ـ عدمُ اعتمادِ الإسرائيلياتِ إلا ما صحّ شاهده عندنا:

«الإسرائيليات» مصطلحٌ أطلقه العلماءُ على الرواياتِ والأخبارِ المتعلقةِ بقصص السابقين، والتي لم تَرِدْ في مصادرنا الإسلامية، المتمثّلةِ في الآياتِ والأحاديثِ الصحيحة، وهذه الإسرائيليات مأخوذةٌ عن اليهود غالباً، وبعضُها مأخوذٌ عن النصارى.

وقد أوردَ بعضُ المفسّرين رواياتٍ وأقوالاً من تلك الإسرائيليات أثناءَ تفسيرهم للقرآن، وبالذات تفسيرِ قصصِ الأنبياء وأحداثِ الزمانِ الماضي. وأوردَ بعضَ الإسرائيليات التابعون وأتباعُهم، لكن بتحفُّظٍ وبدون توسّع، وزادَ الأمرُ عند مَنْ بعدهم من المفسّرين، حيث كانوا يتوسّعون في إيرادِ الإسرائيليات بدون تحفُّظ.

ويهمُّنا هنا في حديثنا عن قواعد التفسير بالمأثورِ أنْ نقرِّرَ قاعدةً ضروريةً، وهي عدمُ قبولِ أو اعتمادِ الإسرائيليات التي نقلَها بعضُ التابعين وتابعيهم، إلاَّ إذا كانَ في مصادرنا الإسلامية ما يشهدُ لها، ونخصُّ بذلك أحاديثَ رسول الله ﷺ.

ودليلُنا على عدم اعتمادِ تلك الإسرائيليات حديثُ رسول الله ﷺ:

روى البخاريُّ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كان أهلُ الكتابِ يقرؤون التوراة بالعبرية، ويفسّرونها بالعربية لأهلِ الإسلام! فقال رسولُ الله ﷺ: «لا تُصدِّقوا أهلَ الكتابِ ولا تكذّبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أُنزل إلينا»[1].

وروى البخاريُّ عن عبدِ اللهِ بن عباس رضي الله عنهما قال: «يا معشرَ المسلمين: كيف تسألونَ أهلَ الكتابِ؟ وكتابُكم الذي أنزلَه اللهُ على نبيّه ﷺ أحدثُ الأخبارِ بالله، تقرؤونه لم يُشَبْ، وقد حدَّثَكم أنَّ أهلَ الكتابِ بدَّلوا ما كتبَ الله، وغيَّروا بأيديهم الكتاب، فقالوا: هذا مِن عندِ الله، ليشتروا به ثمناً قليلاً. أفلا ينهاكم ما جاءَكُم من العلمِ عن مساءَلتهم؟ ولا واللهِ ما رأينا رجلاً منهم قطّ يسألكم

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٤٨٥.

عن الذي أُنْزِلَ إليكم!»[1].

وقد أجاز لنا رسول الله ﷺ الحديثَ عن بني إسرائيل:

روى البخاريُّ عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «بَلِّغوا عنّي ولو آية، وحَدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومَنْ كَذَبَ عَلَيَّ متعمِّداً فليتبوَّأ مقعدَه من النار»[2].

والراجحُ عندنا في معنى قوله ﷺ: «وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج»: حدِّثوا المسلمين عن قصةِ بني إسرائيل، وأخبروا المسلمين بأخطائِهم وانحرافاتِهم وجرائمهم، ولا تتحرَّجوا في ذلك، فلستم آثمين في فضحهم وتحذيرِ المسلمين منهم[3].

ويَطيبُ لي تسجيلُ فقرةٍ طيبةٍ لأحمد شاكر رحمه الله في عدمِ تفسيرِ القرآن بالإسرائيليات، قال: «إنَّ إباحةَ التحدُّثِ عنهم ـ فيما ليس عندنا دليلٌ على صدقِه ولا كذبه ـ شيء، وذِكْرُ ذلك في تفسيرِ القرآن، وجَعْلُهُ قَوْلاً أو روايةً في معنى الآيات، أو في تعيين ما لم يُعَيَّنْ فيها، أو في تفصيلِ ما أُجملَ فيها ـ شيءٌ آخر!!

لأنَّ في إثباتِ مثل ذلك بجوارِ كلامِ الله ما يوهمُ أنَّ هـذا الذي لا نعرفُ صدْقَه ولا كذبَه مُبَيِّنٌ لمعنى قول الله سبحانه، ومفصِّلٌ لما أُجمِلَ فيه! وحاشا لله ولكتابه من ذلك.

وإنَّ رسولَ الله ﷺ إذْ أَذِنَ بالتحدُّثِ عنهم ـ أَمَرَنا أنْ لانصدّقهم ولا نكذّبهم. فأيُّ تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أنْ نقرنَها بكتابِ الله، ونضعَها منه موضعَ التفسير أو البيان؟»[4].

ونختمُ كلامَنا عن قواعدِ التفسير بالمأثور بالإشارةِ إلى حكمِ الالتزامِ بتفسير

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٧٣٦٣.
(٢) أخرجه البخاري برقم: ٣٤٦١.
(٣) انظر تفصيل هذا الموضوع في كتابنا (القصص القرآني): ١/ ٥١ ـ ٧٦.
(٤) عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير لأحمد شاكر: ١/ ١٤ ـ ١٥.

الصحابي والتابعي، وبيانِ مدى قيمته، ونلخّصُ هذا من كلامِ الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه (التفسير والمفسّرون):

«قال الذهبي: أطلقَ الحاكمُ في المستدرك: أنَّ تفسيرَ الصحابي الذي شهدَ الوحيَ له حكمُ المرفوع. . .

ولكن قَيَّدَ ابنُ الصلاح والنوويُّ وغيرُهما هذا الإطلاقَ بما يرجعُ إلى أسباب النزول، وما لا مجال للرأي فيه. .

قال ابنُ الصلاح: وما قيلَ مِنْ أنَّ تفسيرَ الصحابي حديثٌ مسنَدٌ، فإنَّ ذلك في تفسيرٍ يتعلَّقُ بسببِ نزولِ آيةٍ يخبرُ به الصحابي، أو نحوِ ذلك مما لا يمكنُ أنْ يُؤخَذَ إلا عن النبي ﷺ، ولا مدخلَ للرأي فيه.

أما سائرُ تفاسيرِ الصحابةِ التي لا تشتملُ على إضافةِ شيءٍ إلى الرسول ﷺ فإنها معدودةٌ في الموقوفات. . .

وعلَّقَ الذهبيُّ على كلامِ الحاكمِ وابنِ الصلاحِ بنتائجَ خرجَ بها تدلُّ على قيمةِ تفسيرِ الصحابةِ ومدى الالتزامِ به:

١ ـ تفسيرُ الصحابي له حكمُ المرفوع، إذا كان مما يرجعُ إلى أسباب النزول، وكلِّ ما ليسَ للرأي فيه مجال. أما ما كان للرأي فيه مجال فهو موقوفٌ عليه، مادامَ لم يُسندْه إلى رسول الله ﷺ.

٢ ـ ما حُكِمَ عليه بأنه من قبيلِ المرفوع، لا يجوزُ ردُّه اتفاقاً، بل يأخذُه المفسّرُ، ولا يعدلُ عنه إلى غيره بأية حال.

٣ ـ ما حُكِمَ عليه بأنه من قبيلِ الموقوفِ تختلفُ فيه أنظارُ العلماء:

ـ فذهبَ فريقٌ: إلى أنَّ الموقوفَ على الصحابيّ من التفسيرِ لا يجبُ الأخذُ به، لأنه لمَّا لم يرفعْه، عُلِمَ أنه اجتهدَ فيه، والمجتهدُ يخطىءُ ويصيب، والصحابةُ في اجتهادِهم كسائر المجتهدين.

ـ وذهبَ فريقٌ آخر إلى أنه يجبُ الأخذُ به والرجوعُ إليه، لظنِّ سماعِهم له

من رسول الله ﷺ، ولأنَّهم إنْ فسَّروا برأيهم فرأيُهم أصوب، ولأنهم أدرى الناس بكتابِ الله، إذ هم أهلُ اللسان. . ولبركةِ الصحبةِ والتخلّقِ بأخلاق النبوّة، ولِما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصّوا بها، ولما لهم من الفهمِ التامِّ والعلمِ الصحيحِ، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم، كالخلفاء الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وغيرهم.

قال الزركشي في البرهان: اعلم أنَّ القرآنَ قسمان: قسمٌ وردَ تفسيرُه بالنقل، وقسم لم يَرِدْ.

والأولُ: إمّا أنْ يَرِدَ عن النبي ﷺ، أو الصحابة، أو رؤوس التابعين. فالذي وردَ عن رسولِ الله ﷺ يُبحَثُ فيه عن صحّةِ السند، والذي وردَ عن الصحابي، إنْ فسّره الصحابيُّ من حيثُ اللغةِ فَهُمْ أهلُ اللسان، ولاشكَّ في اعتماده، وإنْ فسَّره بما شاهدَه من الأسبابِ والقرائن، فلاشكَّ فيه. . .

وقال الحافظُ ابن كثير في مقدمة تفسيره: . . . وحينئذٍ: إذْ لم نجد التفسيرَ في القرآن، ولا في السنّة، رجَعْنا في ذلك إلى أقوالِ الصحابةِ، فإنهم أدرى بذلك، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختُصُّوا بها، ولِما لهم من الفهمِ التامِّ والعلمِ الصحيحِ والعملِ الصالحِ، ولاسيما علماؤُهم وكبراؤُهم، كالأئمةِ الأربعة الخلفاء الراشدين. . .

وعلّق الدكتورُ الذهبي على ما أورده بقوله: وهذا الرأيُ الأخيرُ هو الذي تميلُ إليه النفسُ، ويطمئنُّ إليه القلب. . .»[1].

الذي خَلَصَ إليه الدكتور من أنَّ تفسيرَ الصحابي له حكمُ المرفوع إذا كان مما يتعلّقُ بأسباب النزول، أو فيما لا مجالَ للرأي فيه، كأمورِ الغيب، وهذا ملزمٌ لمَنْ بعدَ الصحابة، لا يجوزُ أن يتركوه.

أمّا إذا لم يكن مما سبقَ فله حكمُ الموقوف، وهذا ملزمٌ لمن بعدَهم أيضاً،

---

(١) التفسير والمفسّرون: ١/ ٩٤ـ٩٦.

للأسبابِ التي ذكرها الزركشي وابن كثير والذهبي، ولا يجوزُ لمن بعدَهم أنْ يتركَ أقوالَهم الموقوفة في التفسير، فتفاسيرُ الصحابةِ بقسميْها ملزمةٌ لمن بعدَهم.

وهذا ما نراهُ ونقولُ به، والله أعلم!

وقال الدكتورُ الذهبي عن قيمةِ التفسير عن التابعين:

«اختلفَ العلماءُ في الرجوعِ إلى تفسيرِ التابعين والأخذ بأقوالهم:

فنُقِلَ عن الإمامِ أحمد روايتان: روايةٌ بالقبول، وروايةٌ بعدم القبول.

وذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أنّه لا يؤخَذُ بتفسير التابعي. واختارَه ابن عقيل.

واستدلَّ أصحابُ هذا الرأي بأنَّ التابعين ليس لهم سماعٌ من رسولِ الله ﷺ مثلُ الصحابة، وبأنهم لم يشاهدوا القرائنَ والأحوالَ التي نَزَلَ عليها القرآن، ويُمكِنُ أنْ يُخطئوا في فهمِ المراد.

ونُقِلَ عن أبي حنيفةَ أنه قال: ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تَخَيَّرْنا، وما جاءَ عن التابعين فَهُمْ رجالٌ ونحن رجال!.

وقد ذهبَ أكثرُ المفسرين إلى أنّه يؤخَذُ بقولِ التابعيِّ في التفسير، لأنَّ التابعين تلقّوا غالبَ تفسيراتهم عن الصحابة.

فمجاهدٌ مثلاً يقول: عرضْتُ المصحفَ على ابنِ عباس ثلاث عرضات، من فاتحتِهِ إلى خاتمتِه، أُوقفُه عند كلِّ آيةٍ منه وأسألهُ عنها!

وقتادة يقول: ما في القرآن آيةٌ إلاَّ وقد سمعتُ فيها شيئاً.

ولذلك حكى أكثرُ المفسّرين أقوال التابعين في كتبهم، ونقلوها عنهم، مع اعتمادِهم لها.

والذي تميلُ إليه النفس: هو أنَّ قولَ التابعيّ في التفسير لا يجبُ الأخذُ به، إلا إذا كان مما لا مجال للرأي فيه، فإنه يُؤْخَذُ حينئذٍ عند عدمِ الريبة فيه.

وإذا أجمعَ التابعون على شيء فإنه يجبُ علينا الأخذُ به.

قال ابنُ تيمية: قال شعبةُ بن الحجاج وغيره: أقوالُ التابعين ليستْ حجة، فكيفَ تكونُ حجّةً في التفسير؟ يعني أنها لا تكون حجّةً على غيرهم ممن خالفهم. وهذا صحيح!

إذا أجمعَ التابعون على الشيء فلا يُرتاب في كونه حجّة، فإنِ اختلفوا فلا يكونُ قولُ بعضِهم حجّةً على بعض، ولا حجَّةً على مَنْ بعدهم، ويَرجِعُ في ذلك إلى لغةِ القرآن، أو السنّة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة...»[1].

والخلاصة: أقوالُ التابعين في التفسير ليست ملزمةً لمن بعدهم، لكنه يُؤخَذُ بها من باب (الاستئناس)، وبخاصة إذا أجمعوا على مسألة.

* * *

(١) التفسير والمفسرون: ١/١٢٨ـ١٢٩.

المبحث الثالث

خطوات التفسير بالمأثور واتجاهاته

مَرَّ التفسيرُ بالمأثورِ في عدة خطوات، منذُ عهدِ رسول الله ﷺ حتى ما بعدَ عصرِ الإمام الطبري، وتدرَّجَ في هذه الخطواتِ تدرُّجاً ملحوظاً، وكان في كلِّ مرحلةٍ وخطوةٍ له ملامح ومزايا واتجاهات، وسنرصدُ فيما يلي خطواتِه ومراحلَه، ونتعرَّفُ على اتجاهاتِه ومزاياه فيها، بعون الله.

الخطوة الأولى ـ التفسير بالمأثور في طور الرواية والمشافهة:

كان التفسيرُ بالمأثورِ في هذه الخطوة الأولية يقوم على الرواية والنقل، وكان بالمشافهةِ والسماع، ولم يدوَّنْ في الكتب.

وكانت هذه الخطوةُ زمنَ الصحابة وبدايةِ عصرِ التابعين، في القرنِ الأول الهجري، في عهدِ الخلفاءِ الراشدين والأمويين.

وكان التفسيرُ بالمأثور في هذه الخطوة يتحققُ على أيدي الصحابة رضوان الله عليهم، وقد تلقّى الصحابةُ التفسيرَ عن رسولِ الله ﷺ، لأنه بيَّنَ لهم ما كانوا يحتاجون إليه من معاني القرآن. كما تلقّوه عن بعضِهم بعضاً، حيثُ كان الصحابيُّ يروي التفسيرَ بالمأثورِ عن رسول الله ﷺ، وعن الصحابةِ الآخرين.

وظهرَ مفسّرون من كبار الصحابة، كالخلفاءِ الأربعةِ وابنِ مسعود وابن عباس وأُبيّ بن كعب وعائشة رضوان الله عليهم.

واستمرّت هذه الخطوةُ حتى بدايةِ عصرِ التابعين، حيث تلقَّى كبارُهم التفسيرَ مشافهةً بالروايةِ عن الصحابة.

وكانت مصادرُ التفسيرِ زمن الصحابة في هذه الخطوة: القرآن والحديث واللغة والاستنباط.

حيث كان الصحابيُّ يفسّرُ القرآن بالقرآن، وبحديثِ رسول الله ﷺ، وباللغةِ وشواهدِ الشعر، ويقدِّمُ بعد ذلك استنباطاتِه من الآيات.

ومن مميزات التفسير في هذه المرحلة:

١ ـ لم يفسر الصحابةُ القرآنَ جميعَه، وإنما فسّروا بعضَه، وهو ما غَمُضَ معناه، فالذي فسَّروه آيات قليلة، حسبَ حاجةِ الناسِ إليها، وليس على ترتيب المصحف.

٢ ـ قلَّة الاختلاف بين الصحابة في تفسير القرآن وفهم معانيه، وإنْ حصلَ بينهم اختلافٌ فهو من بابِ التنوُّع وليس التضادّ!

٣ ـ كانَ الصحابةُ يكتفون بالمعنى الإجماليِّ للكلمةِ أو الجملة القرآنية، ويقدِّمون ذلك المعنى والتفسيرَ بدون توسُّعٍ أو تفصيل، ولكن بأخصرِ لفظ.

٤ ـ ندرةُ الاستنباطِ العلميِّ للأحكامِ الفقهية من الآيات، وعدمُ الانتصارِ للمذاهبِ الدينيةِ بآياتِ القرآن، لأن الصحابةَ على مذهبٍ عقيديٍّ واحد!

٥ ـ لم يُدَوِّن الصحابةُ شيئاً من التفسير، وإنما كانوا يكتفون بإلقائِه مشافهة، وسماعِه مشافهة، وحفْظِ ما كانوا يسمعون.

٦ ـ اتّخذَ التفسيرُ بالمأثورِ في هذه المرحلة شكلَ الحديث، بل كان جزءاً من الحديث، وفرعاً من فروعه، فكنتَ ترى حديثاً في الصلاةِ بجانبِ حديثٍ في الجهاد، بجانبِ تفسيرٍ لآية، بجانبِ مسألةٍ في الميراث، بجانبِ روايةٍ في السيرة.. وهكذا[1]!

وظهرتْ في هذه المرحلةِ أشهرُ مدارس التفسير، وهي ثلاثة: مدرسةُ التفسير بمكة، وإمامُها عبدُ الله بن عباس، ومدرسةُ التفسير بالمدينة وإمامُها أُبيُّ

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٩٧ ـ ٩٨.

ابنُ كعب، ومدرسةُ التفسير بالكوفة وإمامُها عبدُ الله بن مسعود، رضي الله عنهم. ولكلِّ إمامٍ منهم تلاميذ كثيرون من التابعين، وقد ذكرْنا بعضَهم في الفصلِ الأول، عند حديثنا عن حركة التفسير.

قال الإمامُ ابن تيمية في مقدمته في أصول التفسير: «. . . أعلمُ الناسِ بالمغازي أهلُ المدينة، ثم أهلُ الشام، ثم أهل العراق. أهلُ المدينة أعلم بالمغازي لأنها كانت عندهم، وأهلُ الشامِ كانوا أهلَ غزوٍ وجهاد، فكانَ لهم من العلمِ بالجهادِ ما ليس لغيرهم. . .

وأمّا التفسيرُ فإنَّ أعلمَ الناس به أهلُ مكة، لأنهم أصحابُ ابن عباس، كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرِهم من أصحابِ ابن عباس كطاووس، وأبي الشعثاء وسعيد بن جبير، وأمثالهم.

وكذلك أهلُ الكوفة، من أصحابِ عبد الله بن مسعود. . وعلماءُ أهلِ المدينة في التفسير مثلُ زيد بن أسلم، الذي أخذَ عنه مالك التفسير، وأخذَه عنه أيضاً ابنُه عبدُ الرحمن، وعبد الله بن وهب. . .»[١].

الخطوة الثانية ـ تدوين التفسير بالمأثور مع الحديث:

انتقلَ التفسيرُ بالمأثورِ خطوةً ثانية، وهي كتابتُه وتدوينُه على أيدي علماءِ التفسير من التابعين وتابعيهم. وكانت هذه المرحلةُ في عصر التابعين وتابعيهم، في القرنِ الثاني الهجري، زمن العباسيين.

والذين قاموا بتدوينِ التفسيرِ في هذه المرحلة هم التابعون، وتابعو التابعين.

وكانوا يُدَوِّنون ويَكتبون الأقوالَ المأثورة في التفسير سواء كانت أحاديثَ مرفوعة، أو رواياتٍ موقوفةً على الصحابة، أو أقوالاً لكبار التابعين.

كانوا يكتبون تلك الروايات «مُسْنَدَةً» كالأحاديثِ في الموضوعات الأُخرى، وكانوا يُدَوِّنونها ضمنَ كتبِ الحديث ورواياتِه التي أخذوها عن شيوخهم من

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ص٦١.

الصحابة. حيث تكفَّلَ علماءُ كلِّ بلدٍ بكتابةِ ما وصلَهم من علمِ إمامهم من الصحابة، سواء كان تفسيراً أو حديثاً أو فقهاً أو عقيدةً أو استنباطاً.

ظهر من التابعين مفسِّرون أعلامٌ كتبوا أقوالَ أئمتهم في التفسير، مثل مجاهد (١٠٤هـ)، وسعيد بن جبير (٩٥هـ)، وقتادة (١١٨هـ)، الذين دوَّنوا أقوالَ إمامِهم ابن عباس، ومثل محمد بن كعب (١٢٠هـ)، وزيد بن أسلم (١٣٦هـ) اللذيْن دوَّنا أقوالَ إمامِهم أُبيّ بن كعب، ومثل الحسن البصري (١١٠هـ)، ومسروق بن الأجدع (٦٣هـ) اللذيْن دوَّنا أقوالَ إمامِهم عبدِ الله بن مسعود[١].

ومن التفاسير التي جُمعتْ، والتي عاش أصحابُها هذه الفترة: تفسير مجاهد، وتفسير قتادة، وتفسير الحسن البصري، وتفسير إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير (١٢٨هـ)، وقد نُعَرِّفُ ببعضِ هذه التفاسير فيما بعد:

الخطوةُ الثالثة ـ تدوينُ التفسيرِ بالمأثور مسنداً مستقلاً عن الحديث:

انفصلَ التفسيرُ بالمأثورِ في هذه المرحلة عن الحديث، وعمدَ أصحابُ كتبِ التفسير المدوَّنةِ إلى جمعِ التفسيرِ بالمأثورِ خاصة، ولم يوردوا معه شيئاً من الحديث أو غيره.

وكانوا يكتبون الرواياتِ المأثورة مسندةً، يَذكرون في كلِّ رواية إسنادَها، ولكنّهم لم يكتبوا تفسير آياتِ القرآن وسُوَرِه كلِّها، وإنما كانوا يكتبون التفسيرَ الذي وصلَ إليهم، فلم يكتبوا تفسيرَ القرآنِ كاملاً.

وكانت هذه الخطوةُ في عصرِ أَتْباعِ التابعين، في القرنين الثاني والثالث.

ومن التفاسيرِ المطبوعةِ التي دُوِّنَتْ في هذه المرحلة، والتي تُمثّلُ هذه الخطوة، صحيفةُ علي بن أبي طلحة (١٤٣هـ) في التفسير عن ابن عباس، وتفسير سفيان بن سعيد الثوري (١٦١هـ)، وتفسير سفيان بن عيينة(١٩٨هـ)، وتفسيرُ عبد الرزاق بن همام الصنعاني (٢١١هـ)، وتفسير عبد بن حميد (٢٤٩هـ)،

---

(١) انظر التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي: ١/ ١٤٠ ـ ١٤٦.

وتفسيرُ إسحاق بن راهويه (٢٣٨هـ)، وتفسير النسائي (٣٠٣هـ).

الخطوة الرابعة ـ تأليف تفاسير كاملة مسندة مأثورة:

أصبحَ التفسيرُ في هذه المرحلةِ علماً مستقلاً قائماً بذاته، حيث انفصلَ التفسيرُ فيها عن الحديث نهائياً.

اعتنى المفسرونَ بالمأثورِ في هذه المرحلة بجمعِ الرواياتِ المأثورةِ في التفسير، من الأحاديثِ وأقوالِ الصحابة، وأقوالِ التابعين وتابعي التابعين.

وظهرتْ في هذه المرحلةِ تفاسيرُ كاملة للقرآن على ترتيب المصحف، تُذْكَرُ فيها الأقوالُ المأثورةُ في كلِّ آية، وبذلك وُجِدَت التفاسيرُ الكاملةُ للقرآن، وكانت أسانيدُ الرواياتِ مثبتةً في تلك التفاسير.

دُوِّنَ في هذه المرحلة تفسيرُ ابنِ ماجه (٢٧٣هـ)، وتفسيرُ الإمامِ محمد بن جرير الطبري (٣١٠هـ)، وتفسيرُ أبي بكر بن المنذر النيسابوري (٣١٨هـ)، وتفسيرُ ابنِ أبي حاتم الرازي (٣٢٧هـ)، وتفسيرُ ابنِ حبان (٣٦٩هـ)، وتفسيرُ الحاكم (٤٠٥هـ)، وتفسيرُ أبي بكر بن مِرْدَوَيْه (٤١٠هـ).

وخيرُ ما يمثلُ هذه المرحلةَ تفسيرُ ابنِ أبي حاتم وتفسير الطبري، وهما مطبوعان.

الخطوة الخامسة ـ حذف الإسناد من التفاسير المأثورة:

هذه الخطوةُ كانت بعدَ الطبري وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مِرْدَوَيْه ـ أصحابِ أشهرِ وأسبقِ ثلاثةِ كتب في التفسير الماثور ـ.

وتميَّزَ التفسيرُ بالمأثور في هذه الخطوة بحذفِ الإسناد، حيث كانَ المفسرون يحذفون إسناد الرواياتِ المأثورة من بابِ تسهيلِ التفسيرِ على الدارسين، وصاروا لا يكتفون بذكرِ الرواياتِ المأثورةِ الصحيحة، وإنما يذكرون كلَّ ما وصلَهم من الروايات، سواء كانت صحيحةً أو ضعيفةً، وبما أنَّ هذه الروايات محذوفةُ الأسانيد فمن الصعب تخريجُها والحكمُ عليها واعتمادُ ما صحَّ منها.

وكان المفسرون في هذه المرحلةِ يذكرونَ الأقوالَ المأثورةَ المختلفةَ في تفسير الآية، عن الصحابةِ أو التابعين أو تابعيهم، وقد يكونُ بينَ هذه الأقوال تعارض، ولكن يصعبُ تخريجُ الأقوالِ لحذفِ أسانيدها.

كما كان المفسّرون في هذه المرحلةِ يتوسَّعون في الأخذِ عن الإسرائيليات، يُفسّرون بها قصصَ الأنبياءِ وأحداثَ السابقين.

من التفاسيرِ التي تمثلُ هذه الخطوة: بحر العلوم لأبي الليث السمرقندي، والكشف والبيان عن تفسير القرآن لأبي إسحاق الثعلبي، وتفسيرُ البحر المحيط لأبي حيان، والدر المنثور في التفسير بالمأثور للسيوطي، وتفسير القرآن العظيم لابن كثير، وفتح القدير للشوكاني.

أسباب الضعف في رواية التفسير بالمأثور:

تحدّثَ الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله في (التفسير والمفسرون) عن أسبابِ الضعفِ في روايةِ التفسير بالمأثور. والأسبابُ التي ذكرها هي:

١ ـ نشـأةُ الوضعِ في التفسير:

وهو وضعُ واختلاقُ الرواياتِ في التفسير بالمأثور، ونسبتُها كذباً وزوراً إلى أعلامٍ من الصحابة أو التابعين كابن عباس أو علي بن أبي طالب أو ابن مسعود رضي الله عنهم.

ومن أسبابِ الوضعِ ظهورُ التعصّبِ المذهبي بين المسلمين، الذين انقسموا إلى شيعةٍ وخوارج ومعتزلة، ووقوعُ الخلافاتِ السياسية بين المسلمين من الأمويين والعباسيين وغيرهم.

وأدّى الـوضعُ إلى اختلاطِ الروايـاتِ المأثورةِ الصحيحـةِ عن الصحابـة والتابعين بالرواياتِ الموضوعةِ المكذوبة، مما جعلَ بعضَ مَنْ لا يَعرفون يأخذونَ الرواياتِ بنوعيْها الصحيحةِ والموضوعةِ، لأنها رواياتٌ مأثورةٌ، وجعلَ آخرين يقفونَ في الجانبِ المقابل، وهو رفضُ وطرحُ الرواياتِ المأثورة بنوعيْها، وهذا باطلٌ كالأول.

ولقد قيّضَ اللهُ للتفسيرِ بالمأثورِ علماءَ متمكّنين، فقاموا بتخريجِ الروايات المأثورة، و«فَرْزِ» صحيحها من موضوعها، وبيانِها للناس، وبذلك تمّتْ معرفةُ الرواياتِ الصحيحة، ومعرفةُ الرواياتِ الباطلة(١)!

وبهذا تغلّبَ العلماءُ الربّانيون على مشكلةِ «الوضع»، وقَضَوْا على هذا السبب، وعادتْ للتفسيرِ بالمأثورِ مكانتُه الأصيلة في علم التفسير، وعادتْ ثقةُ الباحثين به، وأمكنَ معرفةُ الرواياتِ الصحيحةِ والرواياتِ غير الصحيحة.

٢ ـ دخول الإسرائيليات في التفسير بالمأثور:

عرفْنا أنَّ الإسرائيلياتِ هي الرواياتُ والأخبارُ غيرُ الثابتةِ، والمنقولةُ عن اليهودِ أو النصارى أو الأخباريّين، والتي تتعلّقُ بقصصِ الأنبياءِ وأحداثِ الماضي. وإذا لم يَرِدْ في الآياتِ أو الأحاديثِ الصحيحةِ شاهدٌ لصحةِ هذه الإسرائيليات فإنه لا يجوز ذكْرُها وتفسيرُ القرآن بها، وقد تكلّمنا عن هذه المسألةَ من قبل.

ويهمُّنا هنا أنْ نَرْصُدَ دخولَ الإسرائيليات إلى التفسيرِ بالماثور، ممّا سبَّبَ ضعفَ الرواياتِ المأثورة، وضعْفَ ثقةِ العلماء بها.

لم يعتمد الصحابةُ على الإسرائيليات في التفسيرِ بالمأثور، ولم يأخذوا عن أهلِ الكتاب من اليهود والنصارى في تفسيرِ قصص القرآن، ولم يَرجعوا إليهم في موضوعاتِ العقيدةِ أو الأحكام.

وكان بعضُ الصحابةِ يوردُ بعضَ تلك الروايات من الإسرائيليات في الأمورِ الثانوية الفرعية، كتوضيحِ لبعضِ ما أجملَه القرآنُ في قصص السابقين، ولا يعتمدون ما يوردونه، بل يتوقّفون فيه، أي أنَّ مَنْ عادَ من الصحابةِ إلى أهلِ الكتاب كان يعرفُ كيفَ يأخذُ عنهم، ومتى، وفي أيِّ موضوع، وما كان يعتمدُ ما يأخذُه إنما يتوقفُ فيه.

وقد توسَّعَ التابعون أكثرَ من الصحابةِ في العودةِ إلى الإسرائيليات، لكن

---

(١) انظر التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ١٥٧ ـ ١٦٤.

كانَ أخذُهم منها بمقدار، وبدون توسّع.

وجاءَ مفسرونَ بالمأثور بعد ذلك فأفرطوا في الأخذِ من الإسرائيليات، بدونِ ضابطٍ أو مقدار، وملؤوا تفاسيرهم المأثورة بتلك الإسرائيليات المفصَّلة المخالفةِ للكتابِ والسنّة، وهذه هي الطامَّةُ الكبرى عند هؤلاء، التي طَغَتْ على التفسيرِ بالمأثور في تفاسيرهم!

وبذلك كانَ للإسرائيليات أَثَرُها السيِّئ في كتبِ التفسير بالمأثور، وليت المفسّرين بالمأثور نزَّهوا تفاسيرَهم عن هذه الأباطيل، ولم يفسّروا بها كلامَ الله!

وأقطابُ الرواياتِ الإسرائيلية ثلاثة هم: كعبُ الأحبار، ووهبُ بن مُنبِّه، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج.

والراجحُ عندنا هو عدمُ أخذِ الإسرائيليات، وعدمُ روايتها، وعدمُ تفسيرِ القرآنِ بها، إلاَّ إذا جاءَ لها شـاهدٌ من مصادرِنا الإسلامية، المتمثّلةِ في الآيـاتِ الصريحةِ والأحاديث الصحيحة المسندة إلى رسول الله ﷺ.

وقد سبقَ أنْ تحدَّثْنا عن ذلك عند عرضنا لقواعد التفسير بالمأثور!

وقد وفّقَ اللهُ العلماءَ الربّانيين للوقوفِ أمام تلك الإسرائيليات، والنصِّ عليها، وتحذيرِ المسلمين منها، وظهرَ مفسّرون مُدقِّقون نزَّهوا تفاسيرَهم عن تلك الإسرائيليات.

وبذلك زال تأثيرُ هذا السبب، وعادت الثقةُ للتفسير بالمأثور[1]!.

٣ ـ حذفُ الإسـناد:

كان حذفُ إسـنادِ الأقوالِ والرواياتِ المأثـورة من أسبابِ ضعفِ التفسير بالمأثور. لأنه إذا كانت الروايةُ مسندةً فإنه يَسهلُ تخريجُها والحكمُ لها بالصحة، أو الحكمُ عليها بالضعف، من خلالِ معرفةِ أحوالِ رجالِ الإسنادِ من جرحٍ أو تعديل، بالعودةِ إلى كتب الرجال. أما إذا حُذفَ الإسنادُ من الرواية، وأُسندتْ

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي: ١/ ١٦٥ ـ ٢٠١؛ وانظر كتابنا: القصص القرآني، المجلد الأول، مبحث (كلمة في المنهج).

مباشرةً إلى التابعيِّ أو الصحابي أو رسول الله ﷺ، فإنه لا يمكنُ الحكمُ للروايةِ بالصحة، أو الحكمُ عليها بالضعف، فكيف يعرفُ الباحثُ ذلك إذا لم يعرفْ رجالَ السند الذين نقلوا تلك الرواية؟

لم يكن الإسنادُ موجوداً زمنَ الصحابة، ولم يكن الصحابةُ يسألونَ بعضَهم بعضاً عن الإسناد، لأنَّ الصحابةَ عدولٌ ثقات!

وفي عصرِ التابعين ظهرَ الوضعُ وفشا الكذب، فكانَ علماءُ التابعين يطلبون الإسنادَ لإمكانيةِ الحكم على الروايـة، فإذا كانت الروايةُ مرويـةً من قِبَلِ أحدِ الضعفاء أو المجروحين ردّوا روايته!

ولما دُوِّنَت التفاسيرُ في عصرِ أتباعِ التابعين، وسُجّلَتْ فيها الرواياتُ المأثورة، كانت تُذْكَرُ بأسانيدها، وظهرَ هذا في تفسيرِ السدي، وتفسير عبد الرزاق، وتفسير سفيان بن عيينة، وتفسير ابن أبي حاتم، وتفسير ابن جرير الطبري، وغيرهم.

وبذلك كان يمكنُ تخريجُ الرواياتِ المأثورةِ في تلك التفاسير، ومعرفةُ الصحيحِ والضعيفِ منها، من خلالِ النظرِ في سند الرواية!

والمشكلةُ وقعَتْ بعدَ ذلك عندما صار المفسرون يوردون الأقوالَ المأثورة بدون إسناد. كما فعلَ المفسرون: السمرقندي والثعلبي والسيوطي والشوكاني وغيرهم. ولم يكن هؤلاء المفسرون يعتمدون الصحيحَ من الروايات المأثورة. وبذلك اختلطَ صحيحُ الرواياتِ بموضوعها.

ويمكنُ التغلبُ على هذا السبب بالعودةِ إلى كتبِ التفسيرِ بالمأثور، التي التزمَ أصحابُها بذكرِ الإسناد، كالطبري وابن أبي حاتم، فالرواياتُ المسنَدَةُ في هذهِ التفاسيرِ كثيرة، وتخريجُها ممكن، وبذلك يمكنُ معرفة الصحيح من تلك الروايات المأثورة، وعند ذلك لا تُقْبَلُ من رواياتِ التفاسير التي حذفت الإسناد إلاَّ الرواياتُ التي اتفقت مع ما صحَّ من الروايات المذكورةِ مسندةً في التفاسير[١].

* * *

(١) انظر التفسير والمفسرون: ١/ ٢٠١ ـ ٢٠٣.

المبحث الرابع

عبد الله بن عباس ومنهجه في التفسير

أعلام المفسرين من الصحابة:

الصحابةُ أفهمُ المسلمين بالقرآنِ وتفسيرِه، لأنّهم أعلمُ المسلمين باللغةِ العربيـة، ولأنهم عاشوا حياتَهم مع رسـولِ الله ﷺ، وتلقوا منه تفسـيرَ القرآن، وسألوه عن ما غمضَ عليهم من معانيه، وتحرَّكوا بالقرآنِ حركةً عمليةً جهادية، وطبّقوه على حياتهم. وهم بهذا تميَّزوا وتفرَّدوا في صلتهم بالقرآن، فكانوا جيلاً قرآنياً فريداً ـ على حسبِ تعبيرِ سيد قطب ـ[1].

ولم يكن الصحابةُ جميعاً على مستوى واحدٍ في فهمِ القرآنِ وتفسيرِه، وإنما كانوا متفاوتين في ذلك.

ومن أسبابِ تفاوتهم: التفاوتُ في الفروقِ الفردية، والقوى والملكاتِ العقلية، ومستوياتِ الإدراكِ والفهمِ والاستيعاب. وهذه سنّةُ اللهِ في جميعِ البشر، فلم يُخلَق الناسُ على مستوى واحد، وهذا من مظاهرِ حكمتِه وقدرتِه سـبحانه وتعالى.

ومن أسبابِ تفاوتِ الصحابةِ أيضاً: تفاوتُهم في معايشةِ ظروفِ وملابساتِ نزول القرآن، وما صاحبَها من أحداثٍ وتطوراتٍ في المجتمع الإسلامي، ومن ثم تفاوتهم في صحبةِ النبي ﷺ، ومدةِ ملازمتهم له.

ووضَّحَ هذا التفاوتَ بينهم في فهم القرآن التابعيُّ مسروق بن الأجدع حيث

(١) انظر فصل (جيل قرآني فريد) من كتاب سيد قطب (معالم في الطريق).

قال: «جالَسْتُ أصحابَ محمد ﷺ، فوجدتهم كالإخاذ [والإخاذُ هو الغدير] فالإخاذُ يروي الرجل، والإخاذُ يروي الرجلين، والإخاذُ يروي العشرة، والإخاذُ يروي المئة، والإخاذُ لو نزل به أهلُ الأرضِ لأصدَرَهم، ووجدْتُ عبدَ اللهِ بن مسعودٍ من ذلك النوعِ من الإخاذ!!».

وكان منهجُ الصحابةِ في التفسير وفقَ القاعدةِ المنهجيةِ في أحسنِ الطرقِ المرحليةِ في التفسير. ويقومُ على الخطواتِ المنهجية التالية:

١ ـ تفسيرُ القرآن بالقرآن.

٢ ـ تفسيرُ القرآن بحديث رسول الله ﷺ.

٣ ـ تفسيرُ القرآن وفق قواعد اللغة ومعانيها.

٤ ـ الاجتهادُ واستنباطُ الأحكامِ والدلالاتِ من الآيات.

وكانوا جميعاً على هذا المنهجِ لأنهم لم يختلفوا في أسسِ التعاملِ مع القرآن وفهمه وتفسيره[1].

ولما كان الصحابةُ المفسرون يجتهدون في استنباطِ المعاني والأحكام فقد كانوا يصدرون في ذلك عن أدواتٍ علميةٍ موضوعية، وتلك الأدوات هي:

١ ـ معرفتُهم الدقيقةُ بأوضاعِ اللغةِ العربية وأسرارِها.

٢ ـ معرفتُهم الدقيقةُ بعاداتِ العربِ وأعرافِهم وحياتِهم في العصر الجاهلي.

٣ ـ معرفتُهم الدقيقةُ بأحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقتَ نزول القرآن.

٤ ـ معرفتُهم الدقيقةُ بما أحاطَ نزولَ القرآنِ من ظروفٍ وملابسات وأحداث.

٥ ـ قوةُ الفهمِ وسعةُ الإدراكِ في فهم القرآن[2].

---

(١) انظر التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي: ١/ ٣٢ ـ ٣٧.

(٢) المرجع السابق: ١/ ٥٨ ـ ٥٩.

وأشهرُ المفسرين من الصحابة هم: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وأنس بن مالك، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وأبو هريرة، وأبو الدرداء، وأُبيّ بن كعب، وأبو موسى الأشعري، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن الزبير، وأبو سعيد الخدري، وعائشة، وأم سلمة، وحفصة بنت عمر، رضي الله عنهم أجمعين.

واشتهرَ من هؤلاء العشرين عشرةٌ، عدَّهم السيوطي في الإتقان: الخلفاء الراشدون الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس، وأبيّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير[1].

والذين تركوا تراثاً تفسيرياً، وأقوالاً مأثورة كثيرةً هم: عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبيّ بن كعب، حيث كان لكلٍّ منهم مدرسةٌ في التفسير، فيها تلاميذ من التابعين.

١ ـ مدرسةُ التفسير بمكة: إمامُها وأُستاذُها عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما. واشتهرَ من تلاميذِ هذه المدرسة مفسِّرون من كبار التابعين، مثل: سعيد ابن جبير، ومجاهد بن جبر، وعكرمة البربري، وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح، والضحاك بن مزاحم، وأبو الشعثاء: جابر بن زيد الأزدي.

٢ ـ مدرسةُ التفسير بالمدينة: إمامُها وأُستاذُها أُبَيُّ بن كعب الأنصاري رضي الله عنه. ومن أشهرِ رجالِ هذه المدرسة: أبو العالية: رفيع بن مهران الرياحي، ومحمد بن كعب القرظي، وسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم.

٣ ـ مدرسةُ التفسير بالكوفة: إمامُها وأُستاذُها عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ومن أشهر رجالها: زر بن حبيش، وعلقمة بن قيس، وعبيد بن نضلة، وأبو عبد الرحمن: عبد الله بن حبيب السلمي، والأسود بن يزيد، ومسروق بن

---

(١) الإتقان: ١/ ١٢٢٧.

الأجدع، وعبيدة السلماني، وعامر الشعبي، ومرة الهمداني، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي[1].

ولا تعني هذه المدارسُ الثلاثةُ الاختلافَ في المنهج، لأنَّ أساتذتَها ثلاثةٌ من كبار الصحابة، وكلُّهم ينطلقون من منهجٍ واحدٍ في تفسيرِ القرآن، لأنهم تتلمذوا على رسول الله ﷺ.

وإنما تأخذُ هذه المدارسُ الطابعَ الجغرافيَّ، في مكة، والمدينة، والكوفة.

عبد الله بن عباس حبر الأمة وترجمان القرآن:

عبدُ الله بنُ عباس رضي الله عنهما من كبارِ علماءِ الصحابةِ، وتميَّزَ بعلمِهِ في التفسيرِ والتأويل، حتى لُقِّبَ بـ(حَبْرِ الأمَّة وتُرجمانِ القرآن).

وقد صدرتْ عنهُ دراسةٌ جيدةٌ في سلسلة أعلام المسلمين، التي تنشرُها دارُ القلم، وهي الحلقة الخامسة عشرة من السلسلة بعنوان: «عبد الله بن عباس: حبر الأمة وترجمان القرآن»، للدكتور مصطفى سعيد الخن، وهي من أجود الدراسات التي صدرتْ عن ابن عباس.

هو الإمامُ عبدُ الله بن عباس بن عبد المطلب، رضي الله عنه وعن أبيه، وهو ابنُ عمِّ رسولِ الله ﷺ، وأُمُّهُ هي لُبابَةُ الكبرى بنتُ الحارث الهلالية، أختُ أُمِّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث.

وُلِدَ ابنُ عباس والمسلمون محاصَرون في الشِّعْب، قبلَ الهجرةِ بثلاثِ سنوات، وتوفي في الطائفِ سنة ثمان وستين، وله من العمر سبعون سنة.

وكان يُلقَّبُ بالحبرِ والبحرِ لكثرةِ علمه، وإليه انتهت الرئاسةُ في الفتوى والفقهِ والحديثِ والتفسير، وكان من أذكى وأعلمِ الصحابة، وأكثرِهم نبوغاً.

---

(١) لمعرفة هذه المدارس الثلاثة انظر: التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ١٠٠ ـ ١٢٧؛ ومناهج المفسرين: التفسير في عصر الصحابة للدكتور مصطفى مسلم، ص٤٧ ـ ١٦٣.

ولعلَّ من أهمِّ أسبابِ نبوغِه هي :

١ ـ الاستعدادُ الفطريُّ المتمثّلُ في فطنتِه وذكائِه وملكتِه العقليةِ وقريحتِه الوقّادة ونظرِه الثاقب :

قال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنك لأَصْبَحُ فتيانِنا وجهاً، وأحسنُهم خَلْقاً، وأفقهُهُم في كتاب الله .

وقال عنه يوماً: ذاكُم فتى الكُهول، إنَّ له لساناً سؤولاً، وقلباً عَقولاً .

وأوردْنا سابقاً قصةَ ابنِ عباس مع عمر بن الخطاب وباقي الصحابة رضي الله عنهم في تفسيرِ سورةِ النصر، حيث فهمها الصحابةُ على ظاهرها، بينما أَوَّلَها ابنُ عباس، واستخرجَ منها نَعْيَ رسولِ الله ﷺ، لأنَّ أجله قد اقترب .

ولذلك كان عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه يُثني على ابن عباس في علمِه بالتفسير، ويقول: كأنما ينظرُ إلى الغيبِ من سترٍ رقيق! . .

وقال فيه عبدُ الله بن مسعود رضي الله عنه : نِعْمَ ترجمانُ القرآن ابن عباس .

وقال فيه تلميذُه عطاء بن أبي رباح: ما رأيتُ أكرمَ من مجلسِ ابن عباس : أصحابُ الفقهِ عنده، وأصحابُ القرآن عنده، وأصحابُ الشعرِ عنده، وهو يُصْدِرُهم كلُّهم من وادٍ واسع .

٢ ـ نشأتُه في بيت النبوة، وملازمتُه للرسول ﷺ وهو مُمَيِّز : فكان يسمعُ منه الكثير، ويشهدُ معه المشاهدَ والحوادث ويستفيدُ منه علماً غزيراً. وكانت تُكرمُه خالتُه أمُّ المؤمنين ميمونة بنت الحارث رضي الله عنها!

٣ ـ دعاءُ رسول الله ﷺ له: فقد ذهبَ ابنُ عباس رضي الله عنهما إلى بيتِ رسول الله ﷺ يوماً، ونامَ عند خالتِه ميمونة رضي الله عنها، ولما قامَ رسولُ الله ﷺ من نومه ليصلي صلاة الليل، ذهب ليقضي حاجتَه، فأعدَّ ابنُ عباس له وَضوءَه من غير أنْ يَطْلُبَ منه ذلك، فلما عادَ أُعجب بذلك، ولما سألَ عمن فعلَه وعرفَ أنه ابنُ عباس دعا له:

روى أحمد في المسند عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: إنَّ رسولَ الله ﷺ كان في بيت ميمونة، فوضَعْتُ له وَضوءاً من الليل، فقالت ميمونة: يا رسول الله: وضع لك هذا عبدُ الله بن عباس!

فقال ﷺ: «اللهمَّ فَقِّهْهُ في الدِّيْنِ وعَلِّمْه التأويل»[1].

وقد استجابَ اللهُ دعاءَ رسوله ﷺ، فكان ابنُ عباس أفقهَ الصحابةِ في الدين، وأعلمَهم بتأويلِ القرآن المبين!

٤ ـ ملازمتُه لكبار الصحابةِ يتلقَّى عنهم العلم: الذي فاته من رسول الله ﷺ، لأنَّ الرسولَ ﷺ توفي وله من العمرِ ثلاثَ عشرةَ سنة!

قال ابنُ عباس: وجدتُ عامةَ حديثِ رسول الله ﷺ عندَ الأنصار، وإني كنتُ لآتي الرجلَ منهم، فأجدُه نائماً، لو شئتُ أنْ يوقَظَ لي لأُوقِظ، فأجْلِس على بابه، تسفي عليَّ الريح، حتى يستيقظَ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد، وأنصرف.

وقال: إنه ليبلُغُني الحديثُ عن رجل، فآتي بابَه، وهو قائل، فأتوسَّدُ ردائي على بابه، يسفي الريحُ عليَّ من التراب، فيخرجُ فيراني، فيقول: يا ابنَ عمِّ رسول الله ﷺ ما جاءَ بك؟ هلاَّ أرسلْتَ إليَّ فآتيك! فأقول: لا. أنا أحقُّ أنْ آتيك! فأسأله عن الحديث!!

وقال الشعبي: ركبَ زيدُ بن ثابت رضي الله عنه فأخذَ ابنُ عباس بركابه! فقال زيد بن ثابت: لا تفعلْ يا ابنَ عمِّ رسول الله. فقال ابنُ عباس: هكذا أُمِرْنا أنْ نفعلَ بعلمائنا! فقبَّل زيدٌ يدَ ابن عباس، وقال: هكذا أُمِرْنا أنْ نفعلَ بأهل بيت نبيِّنا!!.

وروى الشعبي عن ابن عباس قال: قال لي أبي: إن عُمَرَ يُدنيكَ ويُجلسُك مع أكابرِ الصحابة، فاحفظ عنّي ثلاثاً: لا تُفْشِيَنَّ له سِرّاً، ولا تغتابَنَّ عنده أحداً، ولا يُجربنَّ عليك كذباً!

---

(١) مسند أحمد بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ٥/ ١٥٩ ـ ١٦٠، حديث رقم: ٣٠٣٢.

فقال الشعبيُّ لابن عباس: كلٌّ واحدة خيرٌ من ألف. قال ابنُ عباس: بل كل واحدة خيرٌ من عشرة آلاف..

٥ ـ حرصُه على طلب العلم ودأبُه المستمرُّ على ذلك: كان ابنُ عباس حريصاً على طلبِ العلمِ منذُ صغره، وقد ألهمه الله هذا ويَسَّرَهُ له.

قال ابنُ عباس: لما قُبِضَ رسولُ الله ﷺ قلتُ لرجلٍ من الأنصار: هلمَّ فلنسألْ أصحابَ رسول الله ﷺ، فإنهم اليوم كثير!

فقال: واعجباً لك يا ابن عباس: أترى الناس يفتقرون إليك، وفي الناس مِنْ أصحابِ رسول الله ﷺ مَنْ فيهم؟

فَتَرَكَ ذلك، وأقبلتُ أسألُ أصحابَ رسول الله ﷺ عن الحديث. فعاش ذلك الرجلُ الأنصاريُّ حتى رآني، وقد اجتمعَ الناسُ حولي يسألوني، فقال: هذا الفتى كان أعقلَ مني!

٦ ـ حفظه للُّغةِ العربية وأشعارِها، ومعرفتُه لآدابها وخصائصِها وأساليبها، وكثيراً ما كان يستشهدُ للمعنى في التفسيرِ بأبياتٍ من الشعر. كما حصلَ بينه وبين زعيمِ الخوارج نافع بن الأزرق!

٧ ـ ثقافتُه الموسوعية وقوةُ حجته في المحاورة: كانت ثقافتُه مُتَنَوِّعة شاملة مختلفة، استفادَ منها في تفسير القرآن.

قال أبو وائل: استخلفَ عليُّ بن أبي طالب عبدَ الله بن عباس على موسم الحج، فقرأ في خطبته سورة النور، ففسَّرها تفسيراً، لو سمعَتْه الرومُ والديلمُ لأسلموا.

وقال أبو صالح: لقد رأيتُ من ابن عباس مجلساً لو أنَّ جميعَ قريش فخرتْ به لكان لها فخراً. لقد رأيتُ الناس اجتمعوا، حتى ضاق بهم الطريق، فما كان أحدٌ يقدرُ أن يجيء ولا أن يذهب!

فدخلتُ عليه، فأخبرتُه بمكانهم على بابه! فقال لي: ضَعْ وضوءاً فتوضَّأَ

وجلس، وقال لي: اخرج إليهم وقل لهم: مَنْ كان يريدُ أنْ يسألَ عن القرآنِ وحروفِه فلْيدخلْ! فخرجْتُ فآذنْتُهم، فدخلوا حتى ملؤوا البيتَ والحجرة، فما سألوه عن شيء إلاَّ أخبرهم به، وزادَهم مثل ما سألوا عنه وأكثر!

فقال لهم: إخوانكم! فخرجوا.

فقال: اخرج فقل: مَنْ أرادَ أنْ يسألَ عن تفسير القرآنِ وتأويله فليدخل! فخرجْتُ فآذنتهم، فدخلوا حتى ملؤوا البيتَ والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثل ما سألوه عنه أو أكثر!

فقال لهم: إخوانكم! فخرجوا.

فقال لي: اخرج فقل: مَنْ أرادَ أنْ يسألَ عن الحلالِ والحرامِ والفقهِ فليدخل، فخرجْتُ، فقلْتُ لهم، فدخلوا، حتى ملؤوا البيتَ والحجرة، فما سألوه عن شيءٍ إلاَّ أخبرهم به وزادَهم مثله!

فقال لهم: إخوانكم! فخرجوا.

فقال لي: اخرج فقل لهم: مَنْ أرادَ أنْ يسألَ عن الفرائضِ وما أشبهها، فليدخل! فخرجْتُ فآذنْتُهم فدخلوا، حتى ملؤوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله!

ثم قال: إخوانكم، فخرجوا.

فقال لي: اخرجْ فقل لهم: مَنْ أرادَ أن يسألَ عن العربيةِ والشعرِ والغريبِ من الكلامِ فليدخل. فدخلوا: حتى ملؤوا البيت والحجرة، فما سألوه عن شيء إلا أخبرهم به وزادهم مثله!

فلو أنَّ قريشاً فخرتْ بذلك لكان لها فخراً، فما رأيتُ مثل هذا لأحدٍ من الناس!!

وكان ابنُ عباس رضي الله عنهما منصرفاً إلى العلم والتعليم، عازفاً عن المراكز والمناصب والولايات والمسؤوليات العامة، ولم يشتغل بالسياسةِ

والولايةِ إلاَّ فترةً يسيرة، حيثُ جعلهُ عليٌّ بن أبي طالب والياً على البصرة فترة من الزمن يسيرة، ولمَّا نحَّاهُ عنها تركَ ابنُ عباس الولايةَ والسياسةَ نهائياً.

وقد فقَدَ ابنُ عباس بَصَرَه في آخرِ عمره، وأُصيبَ بالعمى، ومع ذلك بقي على نشاطه العلمي والتعليمي.

وقال معلِّقاً على فقد بصره:

إنْ يَأْخُذِ اللهُ مِنْ عَيْنَيَّ نورَهما ... ففي لِساني وَقَلْبي مِنْهُما نورُ
قَلْبي ذَكورٌ وَعَقْلي غَيْرُ ذي دَخَلٍ ... وَفي فَمي صارِمٌ كَالسَّيْفِ مَأْثورُ

ولما مات في الطائف سنة ثمان وستين تولّى وضعه في قبره محمد بن الحنفية، ولما سوّى عليه التراب قال: مات والله اليوم حبر هذه الأمة[(١)]!

منهج ابن عباس في التفسير:

منهجُ ابن عباس في التفسير هو منهجُ الصحابة، الذي سبقَ أنْ أشرنا له: تفسيرُ القرآن بالقرآن، ثم تفسيرُه بحديثِ رسول الله ﷺ، ثم تفسيرُه باللغة العربية والشعر، ثم تقديمُ استنباطاته واستدلالاته.

ونقدمُ أمثلةً مجملةً سريعةً على ذلك:

أ ـ كان ابن عباس يفسر القرآن بالقرآن:

قالَ في تفسيرِ قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة٢٨٦]: هم المؤمنون، وسَّعَ اللهُ عليهم أمر دينهم، فقال عزَّ وجلّ: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وقال: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦][(٢)].

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون: ١/ ٦٥ ـ ٦٩؛ والتفسير في عصر الصحابة لمصطفى مسلم، ص٤٩ ـ ٦٤.

(٢) تفسير ابن عباس بتحقيق راشد الرجال، ص١٢٢ ـ ١٢٣.

فهو قد فسَّرَ «الوسْعَ» باليسرِ والاستطاعةِ وعدمِ الحرج، واعتبرَ الآيةَ رحمةً من الله بالمسلمين، حيث وسَّعَ عليهم أمْرَ دينهم، وجعلَ أحكامَه وتشريعاته واسعةً ميسَّرةً، ضمن وسْعِ المسلمين وطاقتهم.

واستشهدَ على هذا بثلاثِ آياتٍ من القرآن، من سور: البقرة والحج والتغابن. من باب تفسير القرآن بالقرآن.

ب ـ وكان يفسّر القرآن بالسنّة النبوية:

لما فسَّرَ قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ سَمَّـٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّـٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾ [المائدة: ٤١].

قال: هم اليهود. زَنَتْ منهم امرأةٌ، وكان اللهُ قد حكمَ في التوراة في الزنا بالرجم، فَنَفَسوا أن يرجموها [أي: رقّوا لها وضنّوا بها على الرجمِ والموت]. وقالوا: انطلقوا إلى محمد، فعسى أنْ يكونَ عنده رخصة، فاقبلوها!

فقالوا: يا أبا القاسم: إنَّ امرأةً منّا زنَتْ، فما تقولُ فيها؟

فقال لهم النبي ﷺ: كيف حكمَ اللهُ في التوراة في الزاني؟

فقالوا: دَعْنا من التوراة، ولكن ما عندك في ذلك؟

فقال: ائتوني بأعلمِكُم بالتوراة التي أُنزلت على موسى! فقال لهم: بالذي نجاكم من آل فرعون، وبالذي فلق لكم البحرَ فأنجاكم وأغرق آل فرعون، إلاّ أخبرتموني ما حكمُ اللهِ في التوراة في الزاني!

قالوا: حكْمُهُ الرجم! فأمرَ رسولُ الله ﷺ بالمرأة فرُجمتْ[1]!

الحادثةُ التي أوردها ابنُ عباس تفسّرُ قوله تعالى: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَـٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُوا۟﴾.

---

(١) تفسير ابن عباس بتحقيق راشد الرجال، ص١٧٨.

فاليهودُ حرَّفوا الكلمَ عن مواضعه عندما رفضوا رجمَ اليهودية الزانية، وهو حكمُ الله الذي في توراتهم، وهم جاؤوا للنبي ﷺ بمزاجية، فإنْ حكَمَ في المرأة بالتعزير قبلوا حكمه، وإنْ حكَمَ فيها بالرجمِ رفضوا حكمه!

جـ ـ وكان يفسّر القرآن باللغة ويورد شواهد الشعر:

قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ [النجم: ٦١].

قال ابن عباس: «سامدون»: لاهون مُغَنُّون.

وعن تفسيرِ ابنِ عباس غريبَ القرآن بشواهدِ الشعر العربي، قال الإمامُ السيوطي في الإتقان: «قال ابن عباس: الشعرُ ديوانُ العرب، فإذا خفيَ علينا الحرفُ من القرآن ـ الذي أنزله الله بلغةِ العرب ـ رجَعْنا إلى ديوانها، فالتمسْنا معرفةَ ذلك منه.

وقالَ عبيدُ الله بن عبد الله بن عتبة: كان ابنُ عباس إذا سُئِلَ عن القرآن يُنْشِدُ الشعر! قال أبو عبيد: يعني يستشهد بالشعرِ على التفسير».

وقال السيوطي: «وقد رَوَيْنا عن ابنِ عباس كثيراً من ذلك، وأوعبُ ما رويناه عنه مسائل نافع بن الأزرق. وقد أخرجَ بعضَها ابنُ الأنباري في كتاب الوقف والابتداء، والطبراني في معجمه الكبير...».

وروى السيوطيُّ مسائلَ نافع بن الأزرق بإسناده، وذَكَرَ قصة تلك المسائل بقوله: «بينما عبدُ الله بن عباس جالسٌ بفناءِ الكعبة، قد اكتنفه الناس، يسألونه عن تفسير القرآن! فقال نافعُ بنُ الأزرق لِنَجْدَةَ بن عُوَيْمر [الاثنان من زعماء الخوارج]: قُمْ بنا إلى هذا الذي يجترىءُ على تفسيرِ القرآن بما لا علمَ له به!

فقاما إليه فقالا: إنَّا نريدُ أن نسألَكَ عن أشياءَ من كتاب الله، فتفسِّرُها لنا، وتأتينا بمصادِقِهِ من كلامِ العرب، فإنَّ اللهَ تعالى إنما أنزل القرآنَ بلسانٍ عربي مبين!

فقال ابنُ عباس: سلاني عمَّا بدا لكما!!»[1].

---

(١) الإتقان للسيوطي: ١/ ٣٨٢ ـ ٣٨٣.

ونوردُ فيما يلي أولَ كلمتيْن سألَ نافعٌ ابنَ عباس عنهما، وجوابَ ابن عباس مستشهداً على كلامِه بالشعر:

قال له نافع: أخبرني عن قولِ الله تعالى: ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ [المعارج: ٣٧].

قال ابن عباس: العِزُون: حِلَقُ الرِّفاق.

قال نافع: وهل تعرفُ العربَ ذلك؟

قال ابنُ عباس: نعم: أما سمعتَ عبيدَ بن الأبرص وهو يقول:

فَجاؤُوا يُهْرَعونَ إليْهِ حتّى　　　يكونوا حَوْلَ مِنْبَرِه عِزينا

قال نافع: أخبرني عن قوله تعالى: ﴿ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ [المائدة: ٣٥].

قال ابن عباس: الوسيلة: الحاجة.

قال نافع: وهل تعرفُ العربُ ذلك؟

قال: نعم. أَمَا سمعْتَ عنترة وهو يقول:

إنَّ الرِّجَالَ لَهُمْ إلَيْكِ وسيلَةٌ　　　أَنْ يَأْخُذوكِ تَكَحَّلي وَتَخَضَّبي

وهكذا استمرَّ نافع يسألُ وابنُ عباس يُجيب، ويستشهدُ على كلِّ جوابٍ ببيتٍ من الشعرِ العربي، وبلغت المسائلُ مئة وثمانين مسألة[١].

د ـ وكان ابنُ عباس يفسر القرآن باجتهاده واستنباطه:

وهو أهلٌ للاجتهادِ والاستنباط، لِما سبقَ أنْ تحدَّثْنا عنه وعن علمه، وقدرته على التفسير والتأويل.

---

(١) انظر هذه المسائل في الإتقان: ١/ ٣٨٣-٤١٦؛ وانظر دراسة الدكتورة عائشة عبد الرحمن الأدبية لهذه المسائل في كتابها (الإعجاز البياني في القرآن)، ص٢٦٩ ـ ٥٠٩.

ونشيرُ إلى ما سبقَ أنْ أوردناه من تأويلِه لسورةِ النصر في مجلسِ عمر رضي الله عنه، بينما اكتفى الصحابةُ بتفسيرِها.

ونضيفُ إليه هذا المثال في صحيح البخاري وغيره:

روى البخاريُّ عن عبيدِ بن عمير قال: قال عمرُ رضي الله عنه يوماً لأصحابِ النبي ﷺ: فيمَ ترونَ هذه الآية نزلت؟: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢٦٦].

فقالوا: اللهُ أعلم.

فغضبَ عمر وقال: قولوا: نعلم، أو لا نعلم!!

فقال ابن عباس: في نفسي منها شيءٌ يا أميرَ المؤمنين!

قال عمر: يا ابن أخي: قُلْ، ولا تَحْقِرْ نفسَك!

قال ابن عباس: ضُرِبَتْ مثلاً لعمل!

قال عمر: أيُّ عمل؟

قال ابن عباس: لعمل!!

قال عمر: لرجلٍ غني، يعملُ بطاعةِ الله عزَّ وجلّ، ثم بَعَثَ اللهُ له الشيطان، فعملَ بالمعاصي حتى أغرق عملَه»(١).

وروى الطبريُّ في التفسيرِ عن عطاء بن أبي رباح روايةً أُخرى لهذه الحادثة: قال عطاء: سألَ عمرُ الناسَ عن هذه الآية، فما وجَدَ أحداً يُشفيه.

فقال ابنُ عباس وهو خلفه: يا أميرَ المؤمنين: إني أجدُ في نفسي منها شيئاً!

فتلفت عمرُ إليه، وقال له: تحوَّل هاهنا. لِمَ تَحْقِرُ نفسَك؟

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٤٥٣٨.

قال ابنُ عباس: هذا مَثَلٌ ضربَهُ اللهُ عزَّ وجلّ، فقال: أيودُّ أحدُكم أنْ يعملَ عمرَه بعملِ أهلِ الخير وأهلِ السعادة، حتى إذا كان أحوجَ ما يكون إلى أن يختمه اللهُ بخير، حين فني عمرُه واقتربَ أجلُه، ختمَ الله ذلك بعملٍ من عملِ أهلِ الشقاء، فأفسدَهُ كلّه، فأحرقَه وهو أحوجُ ما يكونُ إليه...»[1].

هـ ـ ابن عباس يجمع بين آيات متعارضة في الظاهر:

في ختامِ حديثنا عن ابنِ عباس ومنهجه في التفسير نوردُ مثالاً على جمعِه بين آيـاتٍ متعارضة في الظاهر، يدلُّ على منهجِه في التفسير، وعلى فقهـه في التأويل، وعلى لجوءِ العلماءِ إليه ليحلَّ لهم الإشكالاتِ التي تواجِههم في فهم الآيات!

روى البخاريُّ عن سعيدِ بن جبير قال: جاءَ رجلٌ إلى ابنِ عباس فقال: إني أجدُ في القرآنِ أشياءَ تختلفُ عَلَيَّ:

فقد قال الله: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١] وقال الله: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ [الصافات: ٥٠].

وقال الله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٤٢]، وقال الله: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣]، فقد كتموا في هذه الآية.

وذكرَ خَلْقَ السماءِ قبلَ خلقِ الأرضِ في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٠]. وذكَرَ خلْقَ الأرضِ قبلَ خلقِ السماءِ في قوله تعالى: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١١].

---

(١) تفسير الطبري: ٣/ ٧٥.

وقال الله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٠]، وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]. وقال: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ١٣٤]، فكأنَّه كان هكذا، ثم مضى.

فقال ابنُ عباس: قوله تعالى: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ في النفخة الأولى. وقولُه تعالى: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾ في النفخة الثانية.

وإنَّ اللهَ يغفرُ لأهلِ الإخلاصِ ذنوبَهم، عند ذلك يقولُ المشركون: تعالوا نقول: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. فيختم الله على أفواههم، وتنطق أيديهم، عند ذلك يعرفون أن الله لا يكتم حديثاً، وهذا قوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾.

وخلقَ اللهُ الأرضَ في يومين.. ثم خلقَ السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهنَّ سبعَ سماوات في يومين آخرين.. ثم دحا الأرض، ودحْوُها بأنْ أخرجَ منها الماءَ والمرعى، وخلقَ الجبال والجِمال والآكامَ وما بينهما، في يومَيْن آخرين.. فذلك قوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ﴾.. فجُعلت الأرض وما فيها من شيءٍ في أربعةِ أيام، وخُلقت السماوات في يومين..

وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾: إنَّ اللهَ سمَّى نفسه بذلك، وذلك قوله، وهو لم يزلْ كذلك، فإنَّ الله لم يُرِدْ شيئاً إلاَّ أصابَ به الذي أراد..

فلا يختلف عليك القرآنُ، فإنه كلَّه من عندِ الله...»(١).

ونقلَ ابنُ حجر في شرحِ هذا الأثرِ أنَّ الذي سألَ ابنَ عباس عن هذه الآيات هو نافعُ بن الأزرق، رأسُ الخوارجِ الأزارقة.

قال ابنُ حجر في فتح الباري: قال نافع بن الأزرق لابنِ عباس: إني أجدُ في القرآنِ أشياءَ تختلفُ عليَّ! أي: تُشْكلُ وتَضطرب، لأنَّ بينَ ظواهرها تدافعاً.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التفسير رقم: ٦٥، باب: ٤١، تفسير سورة حم السجدة [فصلت].

فقال له ابن عباس: ما هذا؟ شكٌّ في القرآن؟

فأجاب نافع: ليس بشكّ، ولكنّه اختلاف.

فقال له ابن عباس: هاتِ ما اختلف عليك!

وقد وضَّحَ الإمامُ ابنُ حجر خلاصةَ الأسئلةِ وأجوبةِ ابنِ عباس بقوله: «وحاصلُ ما وقعَ عنه السؤالُ أربعةُ مواضع:

١ ـ التوفيقُ بين نفي التساؤل وإثباته يومَ القيامة.

٢ ـ التوفيقُ بين كتمانِ المشركين ثم إظهارهم يومَ القيامة.

٣ ـ خلقُ السماوات والأرض، أيهما كان أولاً.

٤ ـ الإتيانُ بفعل «كان» الدالِّ على الماضي في صفاتِ الله، مع أنَّ الصفةَ لله لازمةٌ مستمرَّة!

وحاصلُ جوابِ ابنِ عباس هو:

عن السؤال الأول: نفيُ التساؤلِ بينهم قبلَ النفخةِ الثانية، وإثباتُ التساؤل بينهم بعدَ النفخة الثانية، فلا تعارض!

وعن السؤال الثاني: الكفار يكتمون بألسنتهم يومَ القيامة، فتنطقُ أيديهم وجوارحُهم بأعمالهم.

وعن السؤال الثالث: بدأ الله خلقَ الأرضِ في يومين غيرَ مدحوة، وكان هذا في يومين، ثم خَلَقَ السماءَ وسوّاها في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها الرواسيَ وغيرَها في يومين، فتلك أربعةُ أيام للأرض، ويومان للسماء. ويكون الخلقُ على مراحل ثلاثة: الأرض غيرُ مدحوة، ثم السماء، ثم عودةٌ للأرض لدحوها.

وعن السؤال الرابع: «كان» للماضي فقط في غيرِ صفاتِ الله، لكنها بالنسبةِ

لصفاتِ الله تعني الاستمرار، لأنَّ صفاتَ الله قائمةٌ بذات الله، لاتنقطعُ ولاتتوقف![1].

طرق الرواية عن ابن عباس:

رُويتْ عن ابن عباس أقوالٌ كثيرة في التفسير، وهذه الأقوالُ نُقِلَتْ بعدّةِ طرق، وليستْ كلُّ الطرقِ صحيحة، فمنها الصحيح، ومنها الضعيف، ورجال تلك الطرق منهم من هو ثقة، ومنهم من هو ضعيفٌ مطعونٌ فيه.

واستعرضَ محققُ كتاب (تفسير ابن عباس برواية علي بن أبي طلحة) الأستاذ راشد عبد المنعم الرجال تلك الطرق العديدة.

ونسجّل هنا أهم وأشهر الطرق الصحيحة، وهي:

الأولى: طريقُ معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس:

هي أشهرُ وأصحُّ الطرقِ عن ابن عباس، وبها وَصَلَنا معظمُ تفسيرِ ابن عباس. وهي طريقٌ صحيحةٌ معتمدةٌ من قبل علماء الحديث.

قالَ عنها الإمامُ أحمد بن حنبل: «إنَّ بمصرَ صحيفةً في التفسير، رواها عليُّ بن أبي طلحة، لو رَحَلَ فيها رجلٌ إلى مصرَ قاصداً ما كان كثيراً».

وقد اعتمدَ الإمامُ البخاريُّ على هذه الطريق في صحيحه، فيما يعلِّقُه عن ابن عباس. ونقلَ الطبريُّ وابنُ أبي حاتم كثيراً من أقوالِ ابن عباس في التفسير بهذه الطريقة.

علماً أنَّ عليَّ بن أبي طلحة الهاشمي، لم يَتَلَقَّ التفسيرَ عن ابن عباس مباشرة، فهذه الطريق فيها إرسال، لسقوطِ اسم الرجل الذي بين ابن عباس وابن أبي طلحة، ولذلك طَعَنَ فيها بعضُهم.

لكنَّ عليَّ بن أبي طلحة تلقّى التفسيرَ عن تلاميذ ابن عباس المشهورين

---

(١) انظر: فتح الباري لابن حجر: ٨/ ٥٥٧ ـ ٥٥٨.

الثقات، وهم مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، وهؤلاء متفقٌ على كونهم عدولاً، فطالما أنَّ الواسطةَ بين ابن أبي طلحةَ وابن عباس معروف، ومجمَعٌ على توثيقِه، فلا يضرُّ عدمُ ذكره، وإرسالُ الروايةِ بحذف اسمه!

فطريقُ علي بن أبي طلحة متصلة: معاوية بن صالح، عن علي بن أبي طلحة، عن مجاهد ـ أو سعيد بن جبير أو عكرمة ـ عن ابن عباس[1].

الثانية: طريق قيس بن مسلم الكوفي، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس.

وهذه طريقٌ صحيحةٌ على شرطِ الشيخين، وكثيراً ما خرَّجَ منها الحاكم والفريابي وابن جرير.

الثالثة: طريقُ الزهري، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس:

وهذه الطريقُ من السلاسلِ الذهبية الصحيحة. وقد أخرجَ ابنُ جرير الطبري منها في تفسيره.

الرابعة: طريقُ محمد بن إسحاق، عن محمد بن أبي محمد ـ مولى آل زيد ابن ثابت ـ عن عكرمة ـ أو سعيد بن جبير ـ عن ابن عباس.

وهي طريقٌ جيدة، وإسنادُها حسن، أخرجَ منها ابنُ جرير وابن أبي حاتم كثيراً، كما أخرج منها الطبراني في معجمه الكبير.

الخامسة: طريقُ السُّدي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. والسدي، عن أبي مالك، عن ابن عباس.

وهي طريقٌ جيدة، أوردَ ابنُ جرير كثيراً منها.

والسّدّي هو: أبو محمد، إسماعيل بن عبد الرحمن، السدي الكبير، وهو تابعيٌّ ثقة.

---

(١) انظر رد الطعن على هذه الطريق عند الذهبي في (التفسير والمفسرون): ١/ ٧٧ ـ ٧٨؛ وراشد الرجال في تقديمه لتفسير ابن عباس، ص٤٤ ـ ٤٨.

وأبو صالح هو: باذان ـ أو باذام ـ مولى أُمِّ هانئ بنت أبي طالب، وهو تابعيٌّ ثقة.

وأبو مالك هو: غزوان الغفاري الكوفي، وهو تابعيٌّ ثقة.

أما الطرقُ الضعيفة غيرُ المرضيَّة عن ابن عباس فمنها:

الأولى: طريقُ بكرِ بن سهل الدمياطي، عن عبد الغني بن سعيد، عن موسى بن محمد، عن عبد الملك بن جريج، عن ابن عباس.

الثانية: طريقُ عبد الملك بن جريج، عن عطاء الخراساني، عن ابن عباس.

الثالثة: طريقُ عطية بن سعد العوفي عن ابن عباس.

الرابعة: طريقُ الضحاك بن مزاحم الهلالي، عن ابن عباس.

الخامسة: طريقُ مقاتل بن سليمان الأزدي عن ابن عباس.

وأوهى وأضعفُ الطرقِ عن ابن عباس هي:

طريقُ محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

فإذا انضمَّ إلى ذلك روايةُ محمد بن مروان السدّي الصغير، فهي سلسلةُ الكذب.

إذن سلسلةُ الكذب هي: محمدُ بن مروان السدي الصغير، عن محمدِ بن السائب الكلبي، عن أبي صالح باذان، عن ابن عباس.

وأبو صالح باذان مولى أُمِّ هانئ ثقة، والضعف ليس منه، بل من الكلبي.

ومحمدُ بن السائب الكلبي ليس ثقة، واتّهمه جماعةٌ بالوضع والكذب. ولما مرضَ يوماً قال لأصحابه: كلُّ شيء حدّثتكم عن أبي صالح فهو كذب.

ومع ضعفِ الكلبي، فقد روى عنه تفسيرَه المنسوبَ إلى ابن عباس مثلُه أو أشدُّ منه ضعفاً، وهو محمدُ بن مروان السدي، وهو كذَّاب وضَّاع. وروى عن محمد بن مروان التفسير مثلُه أو أشدُّ منه ضعفاً، وهو صالح بن محمد الترمذي.

فهؤلاء الثلاثة كذّابون وضّاعون متروكون: صالح بن محمد الترمذي، ومحمد بن مروان السدي الصغير، ومحمد بن السائب الكلبي.

هذه أصحُّ خمسِ طرقٍ عن ابن عباس، أَصَحُّها الطريقُ الأولى، وبعدها أضعفُ ستِّ طرق، أوهاها وأضعفُها الطريق الأخيرة[1].

كتابان في التفسير لابن عباس:

طُبِعَ كتابان في التفسيرِ منسوبان لابن عباس، أحدُهما مردود، والآخر صحيح مقبول، وفيما يلي البيان:

الأول ـ (تنويرُ المِقْباس من تفسير ابن عباس):

جَمَعَ هذا التفسير أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، صاحبُ القاموس المحيط، ورتَّبَ هذا التفسيرَ على ترتيبِ المصحف، من سورة الفاتحة حتى سورة الناس، وقد طُبع هذا التفسيرُ عدة مرات، وانطلى الأمرُ على الناس، وظنّوه تفسيرَ ابن عباس حقيقة.

وهو باطلٌ مردودٌ مفترىً مختلَق، لا تصحُّ نسبتُه إلى ابن عباس، وابنُ عباس لم يَقُلْه، فلا يُؤخَذُ ما فيه.

وسبب ردِّ هذا التفسير أنَّ جامعَه الفيروزآبادي جَمَعَه عن طريق (سلسلة الكذب) التي أشرنا لها من قبل.

فهذا التفسيرُ من طريق: محمد بن مروان السدي الصغير، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

الثاني ـ تفسيرُ ابن عباس المسمى: (صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في التفسير):

هذا تفسيرٌ صحيحٌ عن ابن عباس، رُوِيَ ونُقِلَ بواسطةِ أصحِّ الطرق عن ابن

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون للدكتور الذهبي: ١/ ٨١ ـ ٨٢.

عباس، وهي طريق: معاويةُ بن صالح عن عليٍّ بن أبي طلحة عن مجاهد عن ابن عباس.

وصحيفـةُ علي بن أبي طلحة أثنى عليها العلماءُ السابقون، المحدّثـون والمفسّرون وغيرهم.

قـال الإمامُ أحمدُ بن حنبل: «بمصرَ صحيفةٌ في التفسير، رواها عليُّ بن أبي طلحة عن ابن عباس، ولو رَحَلَ رجلٌ فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً».

وقد نَقَلَ صحيفةَ علي بن أبي طلحة المفسّرون بالمأثور، من أمثال: ابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، والسيوطي، وغيرهم.

وقد فُقِدَتْ هذه الصحيفةُ منذ فترة، ولاتزالُ حتى الآن في عداد المفقودات.

وأخيراً قام الباحث (راشد عبد المنعم الرجال) بجمعِ رواياتِ وطرقِ وأسانيدِ هذه الصحيفة من مختلفِ كتبِ التفسير بالمأثور وكُتب الحديث، ونسَّقَ بينها، وخرَّجَها وحكمَ عليها، ورتَّبها على ترتيبِ سـورِ القرآن، وأخرجها فـي مجلد، بعنوان: (تفسير ابن عباس، المسمى صحيفة علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في تفسير القرآن). ونشرتْها مؤسسـة الكتب الثقافيـة في بيـروت عام ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

وبـذلَ الباحثُ في جمعِ هذه الصحيفـة جهداً واضحاً، وخـرَّجَ رواياتِها وطرقَها تخريجاً جيداً، بحيث يطمئنُّ القارىءُ إلى أنَّ ما بين يديه هو تفسير ابن عباس، أو معظم تفسير ابن عباس!

جمعَ الرَّجَّالُ مروياتِ علي بن أبي طلحة من اثنين وثلاثين كتاباً، من كتب التفسير والحديث والتاريخ والعقيدة وغيرها، وكان مجموعُ الروايات ألفاً وأربعمئة وستين رواية.

وننصحُ بقراءةِ هذا الكتابِ والاستفادةِ منه، فهو أصحُّ ما وصلنا من تفسير ابن عباس مجموعاً في صحيفة!

* * *

المبحث الخامس

الحسن بن يسار البصري ومنهجه في التفسير

أعلام المفسرين من التابعين:

تحدَّثْنا في المبحث السابق عن (عبد الله بن عباس ومنهجه في التفسير) على اعتبارِ أنَّ ابنَ عباس كان أعلم الصحابةِ بالتفسير.

وننتقلُ في هذا المبحثِ للحديث عن التابعين المفسّرين، ونختارُ عَلَماً من أعلامهم، في طليعتهم، ذلكم هو الحسن البصري رحمه الله.

وقبلَ حديثِنا عن الحسن البصري ومنهجِه في التفسير نُشيرُ إلى أعلامِ التفسير من التابعين.

نبغَ كثيرٌ من علماءِ التابعين في التفسير، فكانوا أئمةً أعلاماً، تَلَقَّوا التفسيرَ عن شيوخهم الصحابة، ونقلوه إلى تلاميذِهم من صغارِ التابعين أوُ من تابعي التابعين.

ومن أعلامِ التفسير من التابعين: مجاهد بن جبر، وسعيد بن جبير، وعكرمة البربري، وطاووس اليماني، وعطاء بن أبي رباح، وجابر بن زيد. وهؤلاء معدودون في مدرسة مكة التفسيرية.

ومنهم أبو العالية الرياحي، ومحمد بن كعب القرظي، وسعيد بن المسيب، وزيد بن أسلم العدوي. وهؤلاء في مدرسة المدينة التفسيرية.

ومنهم: الحسن البصري، وأبو عبد الرحمن السلمي، ومسروق بن الأجدع، وعامر الشعبي، وقتادة السدوسي، وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي. وهؤلاء في مدرسة الكوفة التفسيرية.

وسنقدّم فيما يلي بطاقةَ تعريف بثلاثة، هم من أشهرِ هؤلاء الأعلامِ المفسّرين:

أ ـ مجاهد بن جبر المخزومي:

هو أبو الحجّاج، مجاهدُ بنُ جبر المكي المخزومي. وُلِدَ في خلافةِ عمر بن الخطاب رضي الله عنه سنة إحدى وعشرين، وتوفّي في مكة وهو ساجدٌ، سنةَ مئة وأربع على الأشهَر. وكان عمرُه يوم وفاته ثلاثاً وثمانين سنة.

وهو الإمامُ الثقة، المحدّث، الفقيه، المفسّر، المقرئ، التابعيُّ الكبير. وكان قصيرَ القامة، ولما تقدَّم به العمرُ كان أبيض الرأس واللحية.

وكان متواضعاً دائمَ التفكير جادّاً جَدّيّاً.

قال عنه تلميذُه الأعمش: كنتَ إذا رأيتَ مجاهداً مبتذلاً، كأنه صاحبُ حمارٍ أضلَّ حمارَه وهو مهتم، ازدريتَه، فإذا نطقَ خرجَ من فمِه اللؤلؤ.

وقال الأعمش أيضاً: كنتَ إذا رأيتَ مجاهداً تراه مهموماً، فقيل له في ذلك؟ فقال: أخذَ عبدُ الله بن عباس بيدي، ثم قال: أخذَ رسولُ الله ﷺ بيدي، وقال لي: ياعبدَ الله: كن في الدنيا كأنك غريبٌ أو عابرُ سبيل.

وكان مجاهدٌ مجاهداً حقاً كاسمه، يُكثرُ من الغزو والجهاد في سبيل الله، واشتركَ مع المجاهدين الذين حاصروا القسطنطينية بقيادةِ مَسْلَمة بنِ عبد الملك، في خلافة سليمان بن عبد الملك.

واشتركَ مجاهدٌ مع سعيد بن جبير وجماعةٍ من العلماء والقرّاء في الثورة على الحجّاج بن يوسف الثقفي، ولما فشلت الثورةُ قَتَلَ الحجّاجُ سعيدَ بن جبير، وسَجَنَ مجاهداً، وبقيَ مجاهدٌ في السجن إلى أنْ مات الحجاج!

ولازمَ مجاهدٌ شيخَه ابن عباس، وكان أعلم أصحابه في التفسير.

قال مجاهد: قرأتُ القرآنَ على ابن عباس، وعرضْتُهُ عليه ثلاثَ عرضات،

أُوقفُه عند كلِّ آية، أسألُه فيمَ نزلت؟ وكيف كانت؟

وقالَ ابنُ أبي مليكة: رأيتُ مجاهداً يسألُ ابنَ عباس عن تفسيرِ القرآن، ومعه ألواحُه، وابنُ عباس يقول له: اكتب. حتى سألَه عن التفسير كلِّه.

وقال مجاهد: قال لي عبدُ الله بن عمر: وددْتُ أنَّ ابني سالماً وغلامي نافعاً يحفظان حفْظَك.

وقال سفيان الثوري: إذا جاءَك التفسيرُ عن مجاهد فَحَسْبُكَ به![1].

وقد أخرجَ لمجاهد أصحابُ الكتب الستة، وأجمعت الأمةُ على إمامةِ مجاهد والاحتجاج به.

وقد جمعَ أقوالَ مجاهد في التفسير وحقَّقها وخرَّجها وعلَّق عليها الباحثُ الباكستاني عبدُ الرحمن الطاهر السورتي، وطبعت في مجلد بعنوان (تفسير مجاهد) وصدر في قطر سنة ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

وهو كتابٌ قيّمٌ جيد، جمعَ خلاصةَ أقوالِ هذا الإمامِ التابعيِّ الكبير.

ب ـ قتادة بن دعامة السدوسي:

هو أبو الخطّاب: قتادةُ بنُ دَعامةَ بنِ قتادةَ السَّدوسيُّ الشيباني. وُلِدَ في البصرة سنة ستين للهجرة، وتُوفي في واسط سنة مئة وسبع عشرة بالطاعون، وكان عمره ستاً وخمسين سنة.

وكان قتادةُ (أَكْمَهَ)، والأكمهُ هو الذي تلدُه أمُّه أعمى، فلم ترَ عيناه النورَ منذ خرجَ من بطنِ أمه، ولكنَّ الله مَنَّ عليه بنورِ القرآن، فكان من أعلام المفسرين من التابعين.

سكنَ البصرة، وتتلمذَ على الصحابة المقيمين هناك، مثل أنس بن مالك، وأبي الطفيل، رضي الله عنهما، كما تتلمذَ على كبارِ التابعين كالحسن البصري

---

(١) أقوال منتقاة من مقدمة عبد الرحمن السورتي لتفسير مجاهد، ص٣٩ ـ ٥١.

وابن سيرين وعطاء وعكرمة وأبي الشعثاء.

وذُكِرَ قتادةُ عند أحمد بن حنبل، فأطْنَبَ في ذكرِه والثناءِ عليه، وجعلَ ينشرُ من علمِه وفقهه، ومعرفتِه بالاختلافِ والتفسير، ووَصَفَهُ بالحفظِ والفقه.

وقال سعيدُ بن المسيب: ما أتانا عراقي أحسنُ من قتادة.

وهو ثقةٌ مأمونٌ حجة، أخرجَ له الجماعة، وروى له أصحابُ السنن والصحاح.

واشتهر قتادةُ بالتفسير، وحاز لقب (المُفَسِّر). وكان يقال عنه: قتادة مُفَسِّرُ القرآن.

ووهبَ قتادةُ نفسَه للعلمِ والدرسِ والتعليم، وكان زاهداً في الدنيا، لا يزاحمُ عليها، ولا يأتي أبوابَ السلاطين، سعيداً بالحياةِ مع القرآن، مقبلاً على الله.

ورُوِيَ عنه قولُه: «مَنْ وَثِقَ بالله كان اللهُ معه، ومَنْ يكنْ الله معه تكنْ معه الفئةُ التي لا تُغلَب، والحارسُ الذي لا ينام، والهادي الذي لا يضل، والعالمُ الذي لا ينسى.

وقال عن علمه بالتفسير: ما في القرآن آيةٌ إلاّ وقد سمعْتُ فيها شيئاً.

وقال عنه مطر الوراق: ما زال قتادةُ متعلِّماً حتى مات.

ولما توفي بالطاعون في واسط قال عنه سفيانُ الثوري: مَنْ كان في الدنيا مثلَ قتادة؟

وقد جمعَ قتادةُ كتاباً في تفسيرِ القرآن بالمأثور، ولكنّه فُقِدَ من جملةِ ما فُقِدَ من كتب التراث.

وأخرجَ له الإمامُ الطبريُّ في تفسيره أكثرَ من ثلاثةِ آلافِ رواية في التفسير.

كما أخرجَ له المفسرون الآخَرون مثل: ابن أبي حاتم وابن المنذر والسيوطي، وإنْ كانَ معظمُ تفسيره موجوداً في تفسيرِ الطبري.

واللذان رَوَيا تفسيره تلميذاه: سعيدُ بن أبي عروبة العدوي، ومَعْمَرُ بن راشد الأزدي.

وروى التفسيرَ عن معمرِ بن راشد تلميذُه عبدُ الرزاق بن همام الصنعاني، الذي كان له كتابٌ في التفسير بالمأثور(١).

وذهب بعضُ الباحثين إلى أنَّ تفسيرَ عبد الرزاق الصنعاني ـ الذي طُبعَ أخيراً بتحقيقِ الدكتور مصطفى مسلم ـ ما هو إلاَّ تفسيرُ قتادة برواية عبد الرزاق.

قال الدكتور عدنان زرزور: «تَحَقَّقْنا من تفسيرِ عبد الرزاق، الذي رَجَعْنا إلى مخطوطته مراراً، ثم نسخْنا قسماً كبيراً منه في دارِ الكتب المصرية، وكانَ الأجدرُ به أنْ يُنْسَبَ إلى صاحبه، لا إلى (راويه)! فتفسيرُ عبد الرزاق هو في الواقعِ تفسيرُ قتادةَ بروايةِ عبد الرزاق: عبد الرزاق، عن معمر، عن قتادة!!»(٢).

وقد أعدَّ السيدُ عبدُ الله أبو السعود بدر رسالةَ ماجستير في جامعة القاهرة بعنوان: (قتادة ومنهجه في التفسير)، ونشرَها في القاهرة سنة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م. وتحدَّث فيها عن حياةِ قتادة، وعن منهجِه في التفسير. وهي دراسةٌ جيدة.

لكنَّ تفسيرَ قتادة لم يُجمَع، كما جُمِعَ تفسير مجاهد والحسن البصري.

جـ ـ إسماعيل بن عبد الرحمن السُّدّي الكبير:

هو أبو محمد إسماعيلُ بنُ عبد الرحمن بن أبي كريمة، الملقَّبُ بالسُّدِّيِّ الكبير، كان والدُه مولى للصحابيةِ زينب بنت قيس المُطَّلبية، فكاتَبَتْه وأعتقَتْه، ووالده عاصرَ النبيَّ ﷺ وكبارَ الصحابة.

ولم تذكر المصادرُ تاريخَ ولادته، وإنْ فُهِمَ من نشأتِه أنَّ ولادتَه كانتْ في المدينة. ثم تحوَّل إلى الكوفة، وأقامَ بها إلى أنْ تُوفي سنة ١٢٨هـ.

---

(١) انظر كتاب (قتادة: دراسة للمفسر والتفسير) لعبد الله بدر، ص١٥ ـ ٥٥.

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ص٨٠ حاشية.

والراجحُ في سببِ لقبه (السُّدِّيُّ) أنه لُقِّبَ بذلك نسبةً إلى (سُدَّةِ) مسجدِ الكوفة، وسُدَّةُ المسجد هي الرّواق ـ أو الرصيف ـ الذي حول المسجد، ولُقِّبَ بذلك لأنه كان يبيعُ (المقانع) على تلك السُّدَّة، التي على باب المسجد.

ولعلَّ (المقانع) التي كان يبيعها مفارشٌ وبُسُطٌ وأوعيةٌ وأسلحة.

وهو (السُّدِّيُّ الكبير) للتفريق بينه وبين (السّدّي الصغير) وهو: محمد بن مروان، وهو كذّابٌ وضّاعٌ متروكٌ هالك، كما مرَّ معنا في (سلسلة الكذب)، التي هي: محمد بن مروان السدي الصغير، عن محمد بن السائب الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس.

كان الإمامُ السديُّ الكبير يأكلُ من عمل يده، ويتخذُ من التجارةِ سبباً لكسب عيشه، فلم يكن عالةً على أحد، ولم يتصل بالأمراءِ والولاة، وزهدَ في الحياة الدنيا، ولم ينافسْ أصحابَها عليها، فهو يُدَرِّسُ التفسيرَ في مسجد الكوفة، وبعد الدرس يبيعُ (المقانع) على السدّةِ التي على باب المسجد.

وقد تلقَّى الإمامُ السديُّ العلمَ عن مجموعةٍ من كبار الصحابة، مثل: سعد ابن أبي وقاص، وأبي هريرة، وأبي سعيد الخدري، وعبد الله بن عمر، وعبد الله ابن عباس، والحسن بن علي بن أبي طالب، وأنس بن مالك، وعبد الله بن مسعود، رضي الله عنهم.

وكان رجلاً عظيمَ اللحية، إذا جلسَ غطّتْ لحيتُه صدرَه، كما كان أعور.

وكان صالحاً تقياً، على درجةٍ عظيمة من الأدبِ والحياء.

وهو ثقةٌ عدلٌ مأمون عند علماء الحديث كالبخاري وابن حنبل وغيرهما.

وللإمامِ السّدّي تفسيرٌ للقرآن، منه ما أَخَذَهُ عن شيخِه ابن عباس، ومنه ما أخذه عن صحابة آخرين أو تابعين، ومنه ما كان باجتهاده. وكان تفسيرُه من المصادرِ الإسلامية الأساسية في تفسير الإمام الطبري، حيث اعتمدَ معظمَ رواياتِ السدي. ولعلَّ روايةَ الطبري عن السدّي أكثرُ الروايات الواردةِ في تفسيره.

وقال الإمام السيوطي عن تفسيره: «إنَّ أمثلَ التفاسير تفسيرُ السدي الكبير».

وقامَ بجمعِ مروياتِ الإمام السدي في التفسير من كتب التفسير بالمأثور الدكتور محمد عطا يوسف، وأعدَّ حولها دراسةً جيدةً قيّمة عن حياة السدي ومنهجه في التفسير. وأصدرها بعنوان: (تفسير السدي الكبير)، وصدرتْ عن دار الوفاء بمصر عام ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م في مجلد[١].

نكتفي بهذا التعريفِ المجملِ بهؤلاء الأعلامِ الثلاثة: مجاهدِ بن جبر، وقتادة بن دعامة، وإسماعيل السدي، ونُحيلُ على كتابِ الدكتور محمد حسين الذهبي (التفسير والمفسرون) للتعريف بباقي علماء التفسير من التابعين الذين ذكرناهم من قبل.

وننصحُ بقراءةِ كتاب (تفسير مجاهد) لعبد الرحمن السورتي، وكتاب (تفسير السّدّي الكبير) للدكتور محمد عطا يوسف. وكتاب (قتادة ومنهجه في التفسير) للسيد عبد الله أبو السعود بدر.

ونُشيرُ إلى أنَّ منهجَ التابعين في التفسير كان يقومُ على القواعدِ الأساسية التالية:

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن.

٢ ـ تفسير القرآن بسنّة رسول الله ﷺ.

٣ ـ تفسير القرآن بأقوال الصحابة.

٤ ـ تفسير القرآن باللغة العربية والشواهد الشعرية.

٥ ـ الاجتهاد والاستنباط في التفسير.

ظهرَ هذا في (تفسير مجاهد) و(تفسير إسماعيل السدي) اللذيْن أشرنا لهما من قبل!

---

(١) انظر (تفسير السدي الكبير) للدكتور محمد عطا يوسف، ص١٧ ـ ٦١.

الحسن بن يسار البصري سيد التابعين:

هو أبو سعيد: الحسن بن يسار البصري.

كان يُلقَّبُ بألقابٍ تدلُّ على منزلتِه وفضلِه، منها: شيخُ الإسلام، وإمامُ أهل البصرة، وسيدُ التابعين.

والدُه: (يَسار) كان فارسياً من سَبْي فارس، وهو من أهل (مَيْسان) قرب البصرة، جيءَ به إلى المدينة، فكان عبداً رقيقاً، مولى لزيد بن ثابت رضي الله عنه.

وأُمُّهُ: (خيرة) كانت مولاةً لأُمِّ المؤمنين أمِّ سَلَمة رضي الله عنها. كانت راوية ثقة، رَوَتْ عن مولاتِها أُمِّ سلمة وعن عائشة، وروى عنها ابناها الحسنُ وسعيد.

ونشأ الحسنُ البصري في المدينة نشأةً علمية إيمانية، فكان عالماً حكيماً فصيحاً.

قال عنه تلميذُه الأعمش: ما زالَ الحسنُ يَعتني بالحكمةِ حتى نطق بها.

وسمعَتْهُ عائشةُ رضي الله عنها وهو يتكلّم، فأُعجبَت به وقالت: مَنْ هذا الذي يتكلَّم بكلامِ الصّدّيقين!

وكان عندما يُذكَرُ عندَ محمد الباقر يقول عنه: ذاك الذي يشبهُ كلامُه كلامَ الأنبياء!

وقال عنه ابن حجر: كان الحسنُ البصريُّ من أفصحِ أهل البصرة.

ولما كان رضيعاً، بعثَتْ أمُّ سلمة أُمَّهُ (خيرة) ـ لأنها جاريتها ـ في حاجة، فبكى الحسنُ بكاءً شديداً، فرقَّتْ له أُمُّ سلمة رضي الله عنها، فوضعتْه في حجْرِها، وألقَمَتْهُ ثدْيها، فدرَّ عليه، فشربَ منه!!

وكان يقال: إنَّ المبلغَ الذي بلغَهُ الحسنُ من الحكمة، من ذلك اللبنِ الذي شربَهُ من أمِّ سلمة زوج النبي ﷺ، حيث عادتْ عليه بركةُ النبوّة فتكلَّمَ بالحكمة!

وكان الحسنُ البصريُّ جميلاً جدّاً. قال عاصم الأحول: قلتُ للشعبي: ألك حاجة؟ قال: نعم. إذا أتيتَ البصرة فأَقْرِئ الحسنَ منّي السلام!

قلتُ: لا أعرفُه!

قال الشـعبي: إذا دخلْتَ البصرةَ فانظـر إلى أجمل رجل تراهُ في عينك، وأهيبِهِ في صدرِك، فهو الحسن، فأَقرِئه منّي السلام!!

وكان الحسنُ البصريُّ من أعلمِ الناسِ بتفسير القرآن. قال ابنُ جُزَيّ الكلبي عنه: كان الحسنُ البصريُّ أحسنَ التابعين كلاماً في تفسيرِ القرآنِ الكريم.

وقالَ عنه أنسُ بن مالك رضي الله عنه: سَلُوا الحسنَ البصري، فإنه حفظَ ونسينا!

وقالَ عنهُ ابنُ سعد: كان الحسنُ البصري: جامعاً، عالماً، رفيعاً، فقيهاً، ثقة، مأموناً، عابداً، ناسكاً، كثيرَ العلم، فصيحاً، جميلاً، وسيماً.

وقال أبو بكر الهذلي: قال لي السّفّاح ـ أول خليفة عباسي ـ بأيِّ شيء بلغَ الحسنُ البصريُّ عندكم ما بلغ؟

قلت: لأنه جمع القرآن وهو ابنُ اثنتي عشرةَ سنة، ثم لم يخرجْ من سورةٍ إلى غيرِها حتى يعرفَ تأويلَها وفيمَ أُنزلت!

وكان الحسنُ البصري حزيناً دائمَ الحزن، زاهداً في الدنيا وما فيها، مُقبلاً على الله.

روى الحسنُ عن مجموعةٍ من كبار الصحابة، منهم: عثمان بن عفان، وعلي ابن أبي طالب، وأبو موسى الأشعري، وعمار بن ياسر، وأبو هريرة، وعمران بن حصين، وسمرة بن جندب، وجندب البجلي، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر.

وتُوفّيَ الحسـنُ البصريُّ في البصرة، عشـيةَ الخميس، في مستهلّ شهر رجب، في سنة مئة وعشرة، وله من العمر ثمانٍ وثمانون سنة!

وصُلِّيَ عليه صلاةُ العصر من يوم الجمعة، وصلّى عليه وخرجَ في جنازته جميعُ أهلِ البصرة، لم يتأخَّرْ منهم أحد!

وألَّفَ الحسنُ البصري كتاباً في تفسير القرآن، لكنه فُقِدَ في جملةِ ما فُقِد من كتبِ التراث![1].

وكُتبتْ عن الحسنِ البصريِّ عدةُ كتب. منها كتاب (الحسن البصري) لابن الجوزي، الذي طُبِعَ في مصر مؤخَّراً. ومنها: (الحسن البصري: من عمالقة الفكر والزهد والدعوة في الإسلام) للدكتور مصلح سيد بيومي.

ومن أجودِ الدراساتِ عن شخصية الحسن البصري كتاب الدكتور مصطفى سعيد الخن: (الحسن البصري: الحكيم الواعظ والزاهد العالم) الذي صدر ضمن سلسلة (أعلام المسلمين) الحلقة رقم: (٦٠).

منهج الحسن البصري في التفسير:

كان الحسنُ البصريُّ من أعلمِ التابعين في التفسير، وكانَ أحسنَ التابعين كلاماً في التفسير ـ كما قال ابنُ جُزَيّ الغرناطي ـ.

وطبيعةُ تفسيرِه هي طبيعةُ تفاسير علماء التابعين في الغالب، كمجاهد والسدي وقتادة وسعيد بن جبير وزيد بن أسلم وغيرهم. ومنهجُه في التفسير هو منهج المفسرين من التابعين، لأنهم جميعاً أتباعُ مدرسةِ التفسير بالمأثور ـ التي نتحدّث عنها في هذا الفصل ـ وهي أحسنُ مدارسِ التفسير، ولأنَّ تفاسيرَ التابعين هي أصحُّ وأجودُ التفاسير بعد تفاسيرِ الصحابة، كما قرَّرْنا من قبل!

وقد كتبَ الحسنُ البصريُّ تفسيراً للقرآن، لكنه لم يصلْ إلينا، ولكنَّ علماءَ التفسير بالمأثور سجَّلوا معظمَ أقوالِه في التفسير، مثل ابن جرير الطبري وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه والسيوطي.

---

(١) انظر كتاب (تفسير الحسن البصري) للدكتور محمد عبد الرحيم: ١/ ١٧ ـ ٤٥.

وقد جمعَ مرويات الحسن البصري في التفسير ووثَّقها، وأعدَّ دراسةً لها الدكتور محمد عبد الرحيم، وأصدرَها في مجلدين بعنوان: (تفسير الحسن البصري)، صدرتْ عن دار الحديث في القاهرة سنة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.

وهي دراسةٌ جيدةٌ قيّمة ننصحُ بالاستفادة منها.

ونتكلَّمُ الآن عن قواعدِ منهجِ الحسن البصري في التفسير مع التمثيل:

١ ـ تفسير القرآن بالقرآن:

كان الحسنُ البصريُّ حريصاً على تفسير القرآن بالقرآن، لأنه تلقَّى هذا المنهجَ من شيوخِه الصحابة كابن عباس، وكثيراً ما كان يستعينُ بآياتٍ ليوضِّحَ بها آياتٍ أخرى.

عند تفسيرِه لقوله تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٣٤] فسَّرَ هذه الآيةَ بآيةِ سورةِ الكهف: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ لِأٓدَمَ فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ بِئۡسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلٗا﴾ [الكهف: ٥٠].

قالَ الحسنُ: كانَ إبليسُ من الجن، وألجأه إلى نسبه، وهو وذريتُه يتوالدون كما يتوالد بنو آدم(١).

وقال: ما كان إبليسُ من الملائكة طرفة عين قط، وإنه لأصلُ الجن، كما أنَّ آدم أصلُ الإنس(٢).

وقال: قاتلَ اللهُ أقواماً زعموا أنَّ إبليسَ كان من الملائكة، واللهُ يقول: كان من الجن(٣).

---

(١) انظر (تفسير الحسن البصري) للدكتور محمد عبد الرحيم: ١/ ٨٥.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ١٠٢.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ٤٥٧.

إنَّ آيةَ سورةِ البقرة لم تصرّح بأنَّ إبليسَ كان من الجنّ، ففسَّرَ الحسنُ آيةَ سورة البقرة بآيةِ سورة الكهفِ الصريحة بذلك. واشتدَّ إنكارُه على مَنْ زعمَ أنَّ إبليسَ كان من الملائكة، حتى إنه دعا عليه!

ومن روائع نظرِ الحسنِ البصري في كلامِه السابق، ذهابُه إلى أنَّ إبليسَ هو أصلُ الجن، كما أنَّ آدمَ هو أصلُ الإنس. أي أنه لم يكن جنٌّ قبلَ إبليس كما أنه لم يكن إنسٌ قبل آدم، فإبليس أبو الجن، وآدمُ أبو الإنس!!

ومن تفسيرِه القرآنَ بالقرآن أنه كان يقرنُ بين الآياتِ ذاتِ الموضوعِ الواحد، ليُحسنَ تفسيرَها.

في تفسيرِه لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ١١٠] استحضر آيةَ سورةِ الأعراف.

قال: «قال الله في سورة الإسراء: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ وكان رسولُ اللهِ ﷺ إذا صلَّى يجهرُ بصلاتِه، فآذى ذلك المشركين بمكة، حتى أخفى صلاتَه هو وأصحابُه، فلذلك قال الله له: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾. وقال له في سورة الأعراف: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]»[1].

فالحسنُ البصريُّ جمعَ بين آيةِ سورة الأعرافِ وآيةِ سورةِ الإسراء، لأنهما تتحدَّثان عن موضوعٍ واحد، ثم فسّرهما معاً.

ومن فقهِ الحسنِ البصري في القرآن أنه كان يوفِّقُ بين تفسيرِ بعضِ الآيات وبين قواعدِ الشرع، ويُزيلُ الإشكالاتِ التي عند الآخرين.

قال الأشعثُ الحملي: قلتُ للحسن: يا أبا سعيد، أرأيتَ ما تذكُرُ من الشفاعة حقٌّ هو؟ قال: نعم: قلت: يا أبا سعيد: أرأيتَ قولَ الله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ

---

(١) تفسير الحسن البصري: ٢/ ٩٧ و٢/ ٤٦٠.

﴿مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا﴾ [المائدة: ٣٧].

فقالَ لي الحسنُ البصري: إنك واللهِ لا تسطو عليَّ بشيء!! إنَّ للنارِ أهلاً لا يخرجون منها كما قال الله.

قلتُ: يا أبا سعيد: فمَن دخلوا ثم خرجوا؟ قال: كانوا أصابوا ذنوباً في الدنيا، فأخذهم الله بها، فأدخلهم بها، ثم أخرجهم بما يعلمُ في قلوبهم من الإيمان والتصديق[1].

٢ ـ تفسيره القرآن بالحديث:

كانَ الحسنُ البصريُّ عالماً بحديثِ رسولِ الله ﷺ، وفي تفسيره أحاديثُ مرفوعة عديدة، كان يفسرُ بها القرآن الكريم.

قوله تعالى: ﴿حَٰفِظُوا۟ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ﴾ [البقرة: ٢٣٨] لمَّا فسَّرَ الحسنُ البصري هذه الآيةَ، ذهبَ إلى أنَّ الصلاةَ الوسطى هي صلاةُ العصر. واستدلَّ على ذلك بحديثِ رسول الله ﷺ.

عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «لم يُصلِّ رسولُ الله ﷺ العصرَ يوم الخندق، إلاَّ بعد ما غربت الشمس! فقال: ما لهم! ملأَ اللهُ بيوتَهم وقلوبَهم ناراً، مَنعونا عن الصلاة الوسطى، حتى غربت الشمس»[2].

وقوله تعالى: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

قال الحسن: هذه الآيةُ نزلَتْ عامة، في الودائعِ وغيرِها من الأمانات.

وروى الحسنُ البصريُّ عن سَمُرَةَ بن جندب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «أدِّ الأمانةَ إلى مَنْ ائتمنَك، ولا تَخُنْ مَنْ خانَك»[3].

---

(١) تفسير الحسن البصري: ١/ ٢٥٢ و٢/ ٤٦١ ـ ٤٦٢.
(٢) المرجع السابق: ١/ ١٨٠ و٢/ ٤٦٢.
(٣) المرجع السابق: ١/ ٢٨٥.

٣ ـ تفسيره القرآن بأقوال الصحابة :

كثيراً ما كان الحسنُ البصريُّ يفسرُ القرآنَ بأقوالِ الصحابة، حيث كان عالماً بها، مُطَّلِعاً عليها، وقد أوردَ أقوال أكثر من عشرين صحابياً.

من أشهرهم: عليُّ بن أبي طالب، وسمرة بن جندب، وأنس بن مالك، وعبد الله بن عباس.

قوله تعالى: ﴿ اعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨].

قالَ الحسنُ البصري في تفسير هذه الآية: لما حضرتْ أبا بكر الصديق رضي الله عنه الوفاةُ قال: ألم ترَ أنَّ اللهَ ذكرَ آيةَ الرَّخاءِ عندَ آيةِ الشدّة، وآيةَ الشدةِ عند آية الرخاء، ليكون المؤمنُ راغباً راهباً، لا يتمنَّى على الله غير الحق، ولا يُلقي بيدِه إلى التهلكة»[(١)].

وقوله تعالى: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾ [الحجر: ٤٧].

قالَ الحسنُ البصري في تفسير هذا الآية: قال عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه: فينا والله ـ أهل بدر ـ نزلت هذه الآية: ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ ﴾[(٢)].

٤ ـ تفسيره القرآن باللغة :

كان الحسنُ البصريُّ متمكِّناً من اللغةِ العربية، عالِماً بأساليبِ البيان، وتفسيرُه معرضٌ لتفسيرِ الكلماتِ الغريبة في القرآن.

---

(١) تفسير الحسن البصري: ١/ ٣٤٣.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٣٧٨.

معنى قوله تعالى: ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]: ليس له دين[1].

ومعنى المراغمِ في قوله تعالى: ﴿يَجِدْ فِى ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ [النساء: ١٠٠]: هو المتحول. قال الحسن: «مراغماً»: متحولاً[2].

وفسَّرَ الحسنُ الصبرَ على النارِ بالجرأةِ عليها، في قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥] قال: واللهِ ما لهم عليها من صبر، ولكن: ما أَجْرَأَهم على النار[3].

٥ ـ تفسيره القرآن برأيه واجتهاده:

لم يكن الحسنُ البصري مجردَ راويةٍ ناقل، يوردُ ما عندَه في التفسير من رواياتٍ مأثورة من أحاديث أو أقوالٍ للصحابة. وإنما كان يفسرُ بعدَ ذلك برأيه وعلمِه واجتهاده، ويقدِّمُ نظراتٍ واستنباطات وترجيحات. تدلُّ على حسنِ فهمه للقرآن، وعمقِ نظرِه في آياته.

في تفسيره لقوله تعالى: ﴿لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا﴾ [النبأ: ٢٣] ذكَرَ اختلافَ المفسرين في مدّةِ الحُقْب، ثم رجَّحَ ما أدّاه إليه اجتهادُه ونظرُه.

قال: «أما الأحقاب فليسَ لها عدَّةٌ إلاَّ الخلودُ في النار. ولكن ذكروا أنَّ الحقبَ الواحدَ سبعون ألف سنة، كلُّ يوم من تلك الأيام السبعين ألفِ كألف سنةٍ مِمَّا تعدّون!

ثم رجَّحَ هو الراجحَ بقوله: الأحقابُ ليس لها أجل، كلما مضى حُقْبٌ دخلْنا في الآخر[4].

---

(١) تفسير الحسن البصري: ١/ ١١١.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٩٥.
(٣) المرجع السابق: ١/ ١٢٢.
(٤) المرجع السابق: ٢/ ٣٨٩ ـ ٣٩٠.

أي أنه يرى أنَّ عذابَ الكفار في النار لا ينتهي، فلا تؤخَذُ كلمةُ (أحقاباً) على ظاهرها، من أنها لها عددٌ ينتهي، وإنما هي للإشــارة إلى اسـتمرارِ عذاب الكفار، فليس لها عدةٌ إلاَّ الخلودُ في النار، وكلما انقضى واحدٌ منها جاءَ آخر، وهكذا إلى ما لا نهاية.

ومن إعمالــه لرأيه واجتهادِه أنه كان يوردُ حديثاً مرفوعاً أو موقوفـاً على الصحابي، ثم يخالفُه، لأنه لا يتفقُ مع حقائقِ القرآن، وهذا معناهُ أنه لم يصحّ مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ، فلو صحَّ عنده مرفوعاً لما عدل عنه!

وأوضحُ مثالٍ لهذا ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿۞ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا ۖ فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِۦ ۖ فَلَمَّآ أَثْقَلَت دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٨٩﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٩ ـ ١٩٠].

يخبرُ اللهُ عن زوجيْن طَلَبا من الله الولد، فلما آتاهما اللهُ الولدَ أشركا به. ولكنْ مَنْ هما هذان الزوجان؟

لمَّا فسَّر الحسنُ البصري الآية، أوردَ حديثاً مرفوعاً، قال: «عن سمرة بن جندب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: كانت حواء لا يعيشُ لها ولد، فنذرتْ لئنْ عاشَ لها ولد لتسمّينّه عبد الحارث، فعاش لها ولد، فسمَّته عبدَ الحارث، وإنما كان ذلك عن وحي الشيطان»(١).

ولكنه لم يذهب إلى أنَّ الزوجين هما آدم وحواء، وإنما هما زوجان مبهمان من ذريةِ آدم، وله في هذا أربعة أقوال متقاربة في المعنى:

ـ قال: كان هذا في بعضِ أهلِ الملل، ولم يكن بآدم.

ـ وقال: عَنىٰ بهذا ذريةَ آدم، مَنْ أشركَ منهم من بعده.

ـ وقال: هم اليهودُ والنصارى، رزقهم اللهُ أولاداً، فَهَوَّدوا ونصَّروا.

---

(١) تفسير الحسن البصري: ١/ ٣٩٥.

ـ وقال: هذا في الكفار. يدعو الزوجان الكافران اللهَ، فإذا آتاهما صالحاً هوَّدا ونصَّرا[1].

فكيف عدلَ الحسنُ البصريُّ عن الحديث المرفوع الذي رواه سمرةُ بن جندب، وقال بخلافه؟ وما الدافعُ له إلى ذلك؟

لفتَ هذا نظرَ الإمامِ الحافظِ ابنِ كثير، فوجَّهه توجيهاً رائعاً.

فقد أوردَ طرقاً للحديث المرفوع الذي رواهُ الحسنُ عن سمرة بنِ جندب عن رسول الله ﷺ، وذكَرَ أنه رواهُ مرفوعاً كلٌّ من: أحمد في المسند، والترمذي، وابن جرير الطبري في تفسيرِه، والحاكم في المستدرك، وابن أبي حاتم في تفسيره، وأبو بكر بن مردويه في تفسيره.

وعلَّقَ ابنُ كثير على الحديث المرفوع بقوله:

والغرضُ أنَّ هذا الحديثَ المرفوعَ معلولٌ من ثلاثةِ أوجه:

أحدها: أنَّ عمرَ بن إبراهيم ـ الذي عليه مدار الحديث ـ وثَّقَهُ ابنُ معين، ولكن قال أبو حاتم الرازي لا يُحتجُّ به!

الثاني: أنه قد رُوِيَ من قولِ سمرةَ بن جندب نفسه، وليس مرفوعاً.

الثالث: أنَّ الحسنَ البصري نفسه فسَّر الآية بغيرِ هذا، فلو كان هذا عنده عن سمرة مرفوعاً لما عَدَلَ عنه».

وبعد أنْ أوردَ ابنُ كثير ثلاثةَ أقوالٍ مسندةٍ للحسنِ البصري ـ التي أوردناها قبلَ قليل ـ قال: «وهذه أسانيدُ صحيحة عن الحسنِ البصري رضي الله عنه أنه فسَّرَ الآيةَ بذلك! وهو من أحسنِ التفاسير، وأوْلى ما حُمِلَت عليه الآية! ولو كان هذا الحديثُ عندَه محفوظاً عن رسول الله ﷺ لما عَدَلَ عنه، هو ولا غيره، ولاسيَّما مع تقواه لله وورعه!!

---

(١) تفسير الحسن البصري: ١/ ٣٩٦ـ٣٩٧.

فهذا يدلُّكَ على أنه موقوفٌ على الصحابي سمرة، ويُحتمَلُ أنه تلقَّاهُ من بعضِ أهلِ الكتاب، مَنْ آمنَ منهم، مثل كعب الأحبار أو وهب بن منبه . . . »[1].

من هذا المثال الذي أوردناه، مع التحقيقِ اللطيفِ الذي قالَهُ الحافظُ ابن كثير، نعرفُ النظرةَ العلميةَ التي كان يتمتَّعُ بها الحسنُ البصريُّ في التفسير، والقدرةَ على التحليلِ والتوجيهِ والاستنباط، وأنه لم يكن مجردَ ناقلٍ لأقوالِ مَنْ سبقَه.

* * *

(١) تفسير ابن كثير: ٢/ ٢٦٣.

المبحث السادس

سفيان بن سعيد الثوري ومنهجه في التفسير

أعلام المفسرين من تابعي التابعين:

قلنا فيما سبق: إنَّ التفسيرَ بالمأثورِ مَرَّ بخمسِ مراحل: نَقْلُه بالرواية المشافهة، وتدوينُه مع الحديث، وتدوينُه مستقلاً عن الحديث، وتأليفُ تفاسير كاملةٍ مسندة، وتأليفُ تفاسيرَ كاملةٍ محذوفة الأسانيد.

المرحلةُ الأولى: كانت زمن الصحابة. ومَثَّلنا لها بحديثِنا عن: «عبد الله بن عباس ومنهجه في التفسير».

والمرحلة الثانية: كانت زمن التابعين. ومثّلنا لها بحديثنا عن: «الحسن البصري ومنهجه في التفسير».

وننتقلُ الآن للحديثِ عن المرحلة الثالثة، التي كانت زمن أتباع التابعين، أو قُلْ: كانت ما بين عصرِ التابعين إلى عصر الإمام محمد بن جرير الطبري.

وهذه المرحلةُ استغرقَتْ قرناً تقريباً. وكانت التفاسيرُ المأثورة تدوَّنُ فيها مستقلّة عن الحديث، ولكنها لم تكن تفاسيرَ كاملة للقرآن، مرتبةً على حسب ترتيب المصحف، إنما كان أصحابُها العلماءُ يفسّرون الآياتِ التي تدعو الحاجةُ إلى تفسيرها، إمَّا لوجود كلمات غريبة فيها تحتاجُ إلى تفسير، وإمَّا لبيان حكمٍ فقهيٍّ، وإمَّا لأنَّ عندهم روايات مأثورة عن الرسول ﷺ، أو الصحابة، أو التابعين.

وقد كثرت التفاسيرُ في هذه المرحلة، حيث ألَّفَ عددٌ كبيرٌ من علماءِ الحديث والتفسير تفاسير للقرآن.

ومن المفسرين الذين كتبوا تفاسيرَ مسندةً مأثورةً، لكنها ليست كاملةً على ترتيب المصحف:

١ ـ عبد الله بن يسار المكي، المعروف باسم (ابن أبي نجيح) المتوفى سنة: ١٣١هـ[١].

٢ ـ عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، المتوفى سنة: ١٥٠هـ[٢].

٣ ـ علي بن أبي طلحة الهاشمي، المتوفى سنة: ١٤٣هـ[٣]، وهو الذي روى تفسير ابن عباس، وتفسيره معروف بصحيفة علي بن أبي طلحة، وقد تحدَّثنا عنه عند حديثنا عن منهج ابن عباس في التفسير.

٤ ـ عبد الله بن المبارك المروزي. الإمام المعروف. المتوفى سنة: ١٨١هـ[٤].

٥ ـ الفضل بن دكين الكوفي. المتوفى سنة ٢١٨هـ[٥].

٦ ـ محمد بن يوسف الفريابي. المتوفى سنة: ٢١٢هـ. وهو تلميذ سفيان الثوري، ألف كتباً في التفسير وغيره، أخرج له البخاري والطبري وغيرهما[٦].

٧ ـ قبيصة بن عقبة الكوفي. المتوفى سنة: ٢١٥هـ. وهو تلميذ سفيان الثوري أيضاً. أخرج له البخاري وغيره من المفسرين والمحدّثين[٧].

٨ ـ أبو حذيفة موسى بن مسعود النهدي. المتوفى سنة: ٢٤٠هـ. أحد شيوخ الإمام البخاري، وراوي تفسير الثوري، وكان من أقرب المقرّبين إلى

---

(١) انظر: سفيان الثوري وأثره في التفسير لهاشم المشهداني، ص١٣٩.
(٢) المرجع السابق، ص١٤٣.
(٣) المرجع السابق، ص١٤٦.
(٤) المرجع السابق، ص١٨١.
(٥) المرجع السابق، ص١٨٧.
(٦) المرجع السابق، ص٥٠٨.
(٧) المرجع السابق، ص٥٠٩.

الثوري، الملازمين له، وهو الذي روى تفسيره[1].

٩ ـ وكيع بن الجراح الرؤاسي. المتوفى سنة: ١٩٧هـ. وكان من تلاميذ الثوري ومن رواة تفسيره. ألَّف كتباً في التفسير والحديث والزهد[2].

١٠ ـ يحيى بن يمان العجلي الكوفي. المتوفى سنة: ١٩٨هـ. من علماء الحديث والتفسير، أورد الطبري كثيراً من رواياته في التفسير[3].

١١ ـ يزيد بن هارون السلمي الواسطي. المتوفى سنة: ٢٠٦هـ[4].

١٢ ـ روح بن عبادة بن العلاء القيسي. المتوفى سنة: ٢٠٥هـ[5].

١٣ ـ عبد الله بن وهب المصري. المتوفى سنة: ١٩٧هـ[6].

١٤ ـ شعبة بن الحجاج بن الورد العتكي الأزدي. المتوفى سنة: ١٦٠هـ[7].

١٥ ـ آدم بن أبي إياس. المتوفى سنة: ٢٢٠هـ[8].

١٦ ـ عبد بن حميد. المتوفى سنة: ٢٤٩هـ[9].

ومعظمُ هذه التفاسير لم تصلْ إلينا، ولكنَّ معظمَ ما فيها من رواياتٍ مأثورةٍ في التفسير أوردَها أصحابُ التفاسير المأثورة، كابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وابن مردويه.

---

(١) انظر: سفيان الثوري وأثره في التفسير، لهاشم المشهداني، ص٥٠٩ ـ ٥١٠.
(٢) المرجع السابق، ص٥١٠.
(٣) المرجع السابق، ص٥١٠ ـ ٥١١.
(٤) المرجع السابق، ص٥١١.
(٥) المرجع السابق نفسه.
(٦) المرجع السابق نفسه.
(٧) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ١٤١.
(٨) المرجع السابق نفسه.
(٩) المرجع السابق نفسه.

ونقدِّمُ فيما يلي تعريفاً مُجْمَلاً بثلاثةٍ من مفسّري هذه المرحلة، وصلتنا تفاسيرهم، وهم: سفيان بن عيينة، وعبد الرزاق الصنعاني، وأحمد بن حنبل.

سفيان بن عيينة:

هو أبو محمد: سفيانُ بن عُيَيْنَة بن أبي عمران الهلالي الكوفي ثم المكي. شيخ الإسلام ومحدّث الحرم المكي: الإمامُ المحدِّثُ المفسِّرُ الحافظ المجتهد الزاهد العابد.

وُلِدَ في الكوفة سنة: ١٠٧هـ. وطلبَ العلم فيها، وذهب إلى مكة وسكن فيها، وحدَّث في الحرم، وكان شيخَ شيوخ مكة، وتوفي سنة: ١٩٨هـ. عن إحدى وتسعين سنة.

وهو من رواةِ الكتبِ الستة، وكان من أقرانِ سفيان الثوري، ويقال لهما: السفيانان. وشيوخُه هم علماءُ التابعين وأتباعهم، مثل منصور بن المعتمر، وعمرو بن دينار، وأبي إسحاق السبيعي، وأيوب السختياني، وابن شهاب الزهري.

تفرَّغَ للعلم ونشرِه، ولذلك لم يتزوَّج. وقيل له: ألا تتزوج! قال: أتزوجُ امرأةً تموت؟ أريدُ أنْ أكونَ خفيفَ الظهر!!

قال عنه الإمام الشافعي: لولا مالك وسفيان بن عيينة لذهبَ علمُ الحجاز.

وقال عنه علي بن المديني: ما في أصحاب الزهري مَنْ هو أتقنُ من ابن عيينة.

وقال ابن عيينة: أدركْتُ سبعةً وثمانين تابعياً.

كان ابن عيينة من أعلم أهل عصره بالتفسير:

قال عنه عبدُ الله بن وهب المصري: لا أعلمُ أحداً أعلمَ بالتفسير من ابن عيينة.

وقال نعيم بن حماد: كان ابن عيينة من أعلمِ الناس بالقرآن، وما رأيتُ أحداً أجمعَ لمتفرقٍ منه.

وتتلمذ عليه مجموعةٌ من العلماء، منهم: عبد الله بن المبارك، ووكيع بن الجراح، ويحيى بن سعيد القطان، ومحمد بن يوسف الفريابي، وعبد الرزاق بن همام الصنعاني.

ومنهم: الشافعي، وأحمد بن حنبل، وعلي بن المديني، ويحيى بن معين، والحميدي.

وقد حجَّ سبعين مرَّة! لأنه كان يسكنُ مكة. وفي آخر حجة حجَّها، قال وهو على جبل عرفات: قد وافيتُ هذا الموضع سبعين عاماً، أقولُ في كلّ سنة: اللهمَّ لا تجعلْه آخر العهدِ منك! وإني قد استحييتُ اللهَ من كثرةِ ما سألتُه ذلك!! فلم يسألْه العودةَ تلك السنة، فمات في تلك السنة!!

ومن الدراسات عنه كتاب: (سفيان بن عيينة: شيخ شيوخ مكة في عصره) لعبد الغني الدقر، وهي الحلقة رقم (٣٧) من سلسلة (أعلام المسلمين).

وقد جُمِعَ تفسيرُه أخيراً بعنوان: (تفسير سفيان بن عيينة: جمع وتحقيق ودراسة) لأحمد صالح محايري. نشر المكتب الإسلامي عام: ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

عبد الرزاق بن همام الصنعاني:

هو الإمامُ أبو بكر عبدُ الرزاق بن همام بن نافع الصنعاني.

وُلد بصنعاء في اليمن سنة: ١٢٦هـ، وتوفي بصنعاء سنة ٢١١هـ، وعاش خمساً وثمانين سنة.

وولد في بيتِ علمٍ وفضل وصلاح، وكان والده همام بن نافع يروي الحديث عن كبار التابعين.

وتتلمذ في صنعاء على مَعْمَر بن راشد الذي قدم اليمن من العراق، وأقام بها سنوات، ولما أراد معمر مغادرة اليمن قال أهلُ اليمن: زوِّجوه تُقيِّدوه، فزوَّجوه، فأقام عندهم إلى أن توفي. ومعمر هو الأستاذ الأول لعبد الرزاق.

ومن مشايخ عبد الرزاق أيضاً: سفيانُ الثوري، وسفيان بن عيينة، ومالك ابن أنس، وابن جريج، وغيرهم.

ومن أشهر تلاميذه: أحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، وإسحاق بن راهويه، وغيرهم.

والإمامُ عبد الرزاق بن همام من كبار العلماء من أتباع التابعين، وكان ثقةً مأموناً عدلاً، خرَّج له أصحاب الصحاح والسنن كالبخاري ومسلم وغيرهما.

وتوقَّع له شيخه معمر بن راشد مستقبلاً علمياً، فقد قال عنه: إن عاش عبد الرزاق فخليق أن تُضربَ إليه أكباد الإبل! وهكذا كان.

وقد أُصيب عبدُ الرزاق بالعمى قبل موته بعشر سنوات تقريباً.

وتألم عبد الرزاق وحزن لما سمع كلام بعض الناس فيه، وقال: أخزى الله سلعةً لا تنفق إلا بعد الكِبَرِ والضعف، حتى إذا بلغ أحدهم مئة سنة كتب عنه! فإما أن يقال: كذَّاب، فيبطلون عمله، وإما أن يقال: مبتدع، فيبطلون عمله، فما أقلَّ من ينجو من ذلك!.

وألَّف عبد الرزاق مجموعةً من الكتب من أشهرها كتاب (المصنف) المشهور باسم (مصنف عبد الرزاق) وهو كتابٌ شاملٌ حوى الكثير من أحاديث رسول الله ﷺ وأقوال الصحابة والتابعين. وحقق المصنف الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي، وطبعه المكتبُ الإسلامي!.

ومنها كتاب (تفسير القرآن) وهو تفسيرٌ بالمأثور، أورد الأقوال المأثورة عن الصحابة والتابعين، وقد تلقَّى التفسير عن شيخه معمر بن راشد.

وذهب بعض الباحثين إلى أنَّ عبد الرزاق بن همام كان مجرَّد راوٍ لتفسير

قتادة بن دعامة السدوسي! وقد سبق أن تحدثنا عن هذا أثناء تعريفنا بالإمام التابعي قتادة، وأوردنا كلام الدكتور عدنان زرزور، الذي يذهب إلى هذا الرأي.

وذهب باحثون آخرون إلى أنَّ عبد الرزاق أخذ التفسير عن شيخه معمر ـ الذي أخذه بدوره عن شيخه قتادة ـ وأضاف إليه أقوالاً أخرى عن أعلام من التابعين وأتباع التابعين!.

وقد استفاد من تفسير عبد الرزاق الصنعاني علماء التفسير بالمأثور، وأوردوا كثيراً من آرائه ومروياته في التفسير، منهم ابنُ جرير الطبري وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه والسيوطي.

وقد حقق تفسير عبد الرزاق أستاذُنا الدكتور مصطفى مسلم محمد عن نسختين خطيتين، وصدر عن مكتبة الرشد بالرياض سنة ١٤١٠ ـ ١٩٨٩ بعنوان (تفسير القرآن).

أحمد بن حنبل:

هو أبو عبد الله أحمدُ بن محمد بن حنبل بن هلال الشيباني.

وُلد في بغداد سنة ١٦٤، وتوفي سنة ٢٤١هـ عن سبع وسبعين سنة، توفي أبوه محمد بن حنبل وهو صغير، فعاش يتيماً في حضن أمه.

وفتح الله أمامه باب العلم، فكان عالماً بالتفسير والحديث والفقه والعقيدة، وهو إمامُ أهل السنَّة في عصره بدون منازع، وكان زاهداً في حياته، عازفاً عن الدنيا، مقبلاً على الله.

ارتحل في طلب العلم إلى الكوفة والبصرة والمدينة ومكة، وذهب إلى الإمام عبد الرزاق في صنعاء.

وألَّف في الحديث كتابه (المسند) وفيه حوالي أربعين ألف حديث، وهو يشمل أحاديث الصحابة التي يرفعونها إلى رسول الله ﷺ.

وقد قال لابنه عنه: احتفظ بهذا المسند، فإنه سيكون للناس إماماً! وهكذا

كان. وقد طُبع المسند عدَّة طبعات، حيث أعاد ترتيبه على أبواب الفقه الشيخ أحمد البنا الساعاتي ـ والد الشيخ حسن البنا ـ وسمَّى كتابه (الفتح الرباني)، وحقق أجزاء منه الشيخ أحمد شاكر، لكنه توفي قبل إكماله، ويقوم على تحقيقه الآن الشيخ شعيب الأرناؤوط مع فريق من العلماء، وأصدر منه أكثر من عشرين جزءاً!.

وهو إمام المذهب الحنبلي، أحد المذاهب الأربعة المعروفة، وهو مجدد القرن الثالث.. وقد امتحن وابتُلي بفتنة (خلق القرآن) المعروفة، التي تبنَّاها المعتزلة في القرن الثالث، حيث ذهبوا إلى أن القرآن مخلوق، وأقنعوا الخليفة العباسي المأمون، فقال بقولهم، وحاربوا أهل السنَّة الذين لم يقولوا بقولهم، وعلى رأسهم إمامُهم ابنُ حنبل، فامتُحن وابتُلي وعُذِّب وأوذي زمن المأمون والمعتصم والواثق، ولما مات الخليفة الواثق ماتت تلك الفتنة، وكُشفت المحنة، ونُصرت السنة زمن الخليفة المتوكل، وزال الكرب عن أحمد بن حنبل.

ومناقب الإمام ابن حنبل كثيرة، وقد صدرت عنه كتب ودراسات عديدة، من أكثرها إيجازاً غير مخل كتاب (أحمد بن حنبل: إمام أهل السنة) لعبد الغني الدقر، وقد صدرت في سلسلة (أعلام المسلمين) الحلقة السابعة عشرة.

وقد أورد الإمام ابن حنبل كثيراً من المرويات المأثورة في التفسير، في كتابه الجامع (المسند) الذي رتَّبه على أسماء الصحابة.

وألف الإمام ابن حنبل كتاباً حافلاً مسنداً في التفسير بالمأثور، غير المسند، وأورد فيه مئةً وعشرين ألف رواية! وهذا رقم كبير!!.

وقد ذكر هذا التفسيرَ كثيرٌ من السابقين منهم ابنُ النديم في الفهرست وابن تيمية والداوودي والعليمي وغيرهم.

ونقل ابنُ حنبل في تفسيره عن علماء التفسير بالمأثور الذين سبقوه كمجاهد وقتادة وسعيد بن جبير والسفيانيين ـ سفيان بن عيينة وسفيان الثوري ـ ووكيع وشعبة وغيرهم.

قال الشافعي عن أحمد بن حنبل: أحمد إمامٌ في ثمانِ خصال: إمامٌ في الحديث، إمامٌ في الفقه، إمامٌ في اللغة، إمامٌ في القرآن، إمامٌ في الفقر، إمامٌ في الزهد، إمامٌ في الورع، إمامٌ في السنَّة!!.

وعلَّق القاضي ابنُ أبي يعلى على ذلك بقوله: صدق الشافعي في هذا الحصر.

وقال أبو الحسين بن المنادي: صنف أحمد في القرآن: التفسير، وهو مئة وعشرون ألف رواية، والناسخ والمنسوخ، والمقدَّم والمؤخَّر في كتاب الله، وجواب القرآن[١].

وقد جمع الدكتور حكمت بشير ياسين وآخرون مرويات الإمام أحمد بن حنبل في التفسير بالمأثور من كتابه (المسند) وغيره، وحققوها وخرَّجوها، وصدرت عن مكتبة المؤيد في الرياض سنة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤ بعنوان (مرويات الإمام أحمد بن حنبل في التفسير) وكانت في أربعة مجلدات، وفيها جهد ملحوظ، وهي نافعة لطلبة العلم، ننصح بالاستفادة منها.

سفيان بن سعيد الثوري الإمام المفسِّر:

هو أبو عبد الله سفيانُ بن سعيد بن مسروق الثوريُّ الكوفي.

و(الثوري) نسبة إلى أحد أجداد قبيلته، وهو (ثورُ بن عبد مناة) من مضر، فهو عدناني.

و(بنو ثور) في الكوفة كانوا مشهورين بالعبادة والعلم.

وُلد في الكوفة سنة ٩٧هـ، وتوفي في خلافة المهدي في البصرة في شعبان سنة ١٦١هـ، وعاش أربعاً وستين سنة.

وكان والده سعيدُ بن مسروق الثوري عالماً محدِّثاً، وهو ثقةٌ عند المحدثين،

---

(١) أخذنا الأقوال عن تفسير الإمام أحمد بن حنبل من مقدمة كتاب (مرويات الإمام أحمد بن حنبل في التفسير) للدكتور حكمت بشير ياسين.

روى له أصحاب الكتب الستة، وكانت والدته صالحة تقيَّة، وجَّهته لطلب العلم وقالت له: يابني اطلب العلم، وأنا أكفيك بمغزلي!.

نشأ الثوري في الكوفة، وتلقى فيها العلم على كبار العلماء، حتى صار عالماً في الحديث والتفسير والفقه والعقيدة وغير ذلك.

وبقي في الكوفة إلى ما بعد الخمسين من عمره، وضايقه وشدَّد عليه الخليفة العباسيُّ أبو جعفر المنصور، وطلب منه تولي القضاء، لكنه أبى، وكان صريحاً في إنكاره على الولاة، والنهي عن المنكر، مما أغضب المنصور، فأمر بإلقاء القبض عليه، فهرب الثوري من الكوفة إلى مكة، وتوجَّه المنصور للحج سنة ١٥٨ وتوعَّد الثوريَّ وهدَّده بالقتل، وأعلن أنه قادم إلى مكة لقتله، فتعلَّق الثوري بأستار الكعبة ودعا الله أن يموت المنصور قبل دخوله مكة! فلم يتمكن المنصور من الحج ومات قبل الموسم! وهذه إحدى كرامات الثوري!!.

ولما تولَّى المهديُّ الخلافة استمرَّ على مضايقة الثوري وتهديده، وبقي الثوري متنقلاً من مدينة إلى أخرى، ما بين الكوفة وبغداد ومكة والمدينة والقدس وعسقلان وخراسان! فأهدر المهدي دمه، وأمر بإلقاء القبض عليه، ووضع جائزة ثمينة لمن يأتي به، فاختفى في البصرة، وبقي فيها مختفياً حتى توفاه الله![١].

تلقَّى سفيانُ الثوري العلمَ في الكوفة على علماء أعلام من كبار علماء التابعين، منهم: والده سعيد الثوري، وأبو إسحاق السبيعي، والأعمش، والأسود بن قيس، وأيوب السختياني.

ومن علماء التفسير الذين أخذ عنهم التفسير: إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير، الذي تحدثنا عنه من قبل، والأسود بن قيس، وجابر بن يزيد الجعفي، وجويبر البلخي، وسعيد بن أبي عروبة تلميذ قتادة المفسِّر، وعاصم بن أبي النجود أحدُ القراء المعروفين، وعبد الله بن يسار المعروف بابن أبي نجيح، وعبد العزيز بن جريج، وعلي بن أبي طلحة الهاشمي راوي التفسير عن ابن عباس،

---

(١) انظر: سفيان الثوري وأثره في التفسير لهاشم المشهداني، ص٧٩-١٠٧.

ومحمد بن إسحاق صاحب المغازي، ومعمر بن راشد، وغيرهم.

وقد أحصى له الباحثُ هاشم المشهداني أكثر من مئتي عالم من كبار علماء التابعين وأتباعهم، في التفسير والحديث والفقه[1].

ومن أقرانه في العلم: سفيان بن عيينة، وشعبة بن الحجاج، ومالك بن أنس، والأوزاعي، وأبو حنيفة، وغيرهم.

وتتلمذ عليه عشراتُ العلماء في التفسير والحديث والفقه وغيرها، ومن تلاميذه في التفسير: أبو حذيفة النهدي المفسر، راوي تفسيره، وعبد الرزاق بن همام الصنعاني، وعبد الرحمن بن مهدي، وعبد الله بن المبارك، وعبد الله بن وهب المصري، ووكيع بن الجراح الرؤاسي، ويحيى بن يمان العجلي، ويزيد ابن هارون، ومحمد بن يوسف الفريابي، وغيرهم[2].

وقد أُطلق على سفيان الثوري لقب (أمير المؤمنين في الحديث).

وصدرت عنه دراسات عديدة، منها: (سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث)، للدكتور عبد الحليم محمود.

ومن أجودها كتاب (سفيان الثوري: أمير المؤمنين في الحديث) لعبد الغني الدقر، وهو الحلقة الحادية والخمسون ضمن سلسلة أعلام المسلمين.

لقد كان سفيان الثوري من كبار علماء المسلمين على مدار التاريخ الإسلامي، وكان له تأثير كبير في التفسير والحديث والفقه، كما كانت حياته كلها مواقف عظيمة للمقتدين به من بعده!.

منهج سفيان الثوري في التفسير:

سفيان الثوري من أتباع التابعين، ومنهجه في التفسير هو منهج أتباع التابعين، الذي لا يخرج في إطار العام عن منهج الصحابة والتابعين.

---

(١) انظر: سفيان الثوري وأثره في التفسير لهاشم المشهداني، ص١١١ ـ ١٦١.

(٢) المصدر السابق، ص١٧٠ ـ ٢٠٥.

أي أن منهج سفيان الثوري في التفسير في قواعده، كمنهج ابن عباس في قواعده، ومنهج الحسن البصري في قواعده، اللذين تحدثنا عنهما فيما سبق! .

لقد انتهى التفسير إلى سفيان الثوري، واطلع على معظم الأقوال والروايات المأثورة في التفسير عن الصحابة والتابعين، واستوعبها ووعاها، فكان عالماً بالقرآن ومعانيه وتفسيره وأحكامه.

وكان الثوري يقول لتلاميذه: سلوني عن المناسك والقرآن، فإني بهما عالم، وكان يأخذ المصحف، ويشرع في التفسير، فلا يكاد يمر بآية إلا فسرها[١].

وألَّف الثوري كتاباً حافلاً في التفسير، رواه عنه تلميذه المقرَّب عنده أبو حذيفة النهدي ـ موسى بن مسعود النهدي البصري ـ الذي أقام الثوري عنده في البصرة، لما كان مختفياً، وقد تزوج أمه ولم تنجب منه[٢].

ولم يَروِ أبو حذيفة النهدي كل أقوال شيخه الثوري في التفسير، وإنما روى جزءاً منها، وروى باقي أقواله ورواياته تلاميذه الآخرون، وكانت تلك المرويات ألوفاً.

ومرويات سفيان الثوري التفسيرية مروية في كتب التفسير بالمأثور، كتفاسير: ابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن المنذر، وابن مردويه، والسيوطي، وغيرهم.

وتناقل العلماء تفسير سفيان الثوري الذي رواه عنه النهدي، وكانت إحدى نسخه موجوده في مكتبة (رامبور) في الهند، فحققها وأخرجها مدير المكتبة (امتياز علي عرشي)، ونشرها في الهند عام ١٣٨٥ـ١٩٦٥.

وأعيد نشرها في دار الكتب العلمية في بيروت، بعنوان (سفيان الثوري) سنة ١٤٠٣ـ١٩٨٣.

---

(١) انظر: سفيان الثوري وأثره في التفسير لهاشم المشهداني، ص٢٢٠.
(٢) المصدر السابق، ص٨٩ـ٩٠.

وقد أعدَّ الباحث العراقي هاشم المشهداني رسالة الماجستير في التفسير في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر بعنوان: (سفيان الثوري وأثره في التفسير)، ثم نشر الرسالة في العراق سنة ١٤٠١ ـ ١٩٨١، وهي رسالة جيدة في التعريف بسفيان الثوري وعلمه وتفسيره ومنهجه في التفسير، وأثره في المفسرين من بعده!.

جمع سفيان الثوري في تفسيره بين المأثور والرأي، وكان منهجه في التفسير يقوم على القواعد التالية:

١ ـ تفسيره القرآن بالقرآن:

كان الثوري يفسر القرآن بالقرآن، وبدا هذا واضحاً في تفسيره المطبوع، كما بدا واضحاً في الروايات عنه في كتب التفسير بالمأثور.

ونكتفي بهذين المثالين للتمثيل على هذه القاعدة:

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٨].

لما فسَّر الثوري هذه الآية قال: هي مثل الآية التي في أول سورة المؤمن: ﴿قَالُوا رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا﴾ [المؤمن: ١١][(١)].

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠].

فسَّر الثوري الذكر هنا بالشرف قال: (فيه ذكركم): فيه شرفكم، وذلك لأن القرآن شرف لمن اتبعه وعمل بما فيه.

وفسَّر هذه الآية من سورة الأنبياء بآية من سورة الزخرف وقال: وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤] أي: وإنه لشرف لك ولقومك[(٢)].

---

(١) تفسير سفيان الثوري، تحقيق امتياز علي عرشي، ص٤٣.
(٢) المصدر السابق، ص١٩٩.

٢ ـ تفسيره القرآن بالسنة:

كان سفيان الثوري عالماً بالحديث، حتى حاز لقب: أمير المؤمنين في الحديث، وله في الحديث كتاب المسند، وكتاب الجامع الكبير، والجامع الصغير[١].

ولذلك كثيراً ما كان يفسِّر القرآن بحديث رسول الله ﷺ.

لما فسَّر سفيان الثوري قوله تعالى: ﴿ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٩] فسَّر العودة يوم القيامة بما كان عليه الإنسان في الدنيا قبل الموت، حيث يبعث المؤمن مؤمناً، ويبعث الكافر كافراً.

وروى عن مجاهد قوله: يبعث المؤمن مؤمناً، ويبعث الكافر كافراً.

ثم روى حديثاً بإسناده قال: عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر بن عبد الله، رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «يبعث كل عبد على ما مات عليه»[٢].

والحديث رواه مسلم والحاكم وابن ماجه، ورواه عن سفيان الثوري بهذا الإسناد أحمد بن حنبل في المسند، وابن جرير الطبري في التفسير[٣].

ولما فسَّر سفيان الثوري قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ﴾ [لقمان: ٣٤].

روى حديثاً بإسناده: سفيان، عن عبد الله بن دينار، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مفاتيح الغيب خمس، لا يعلمها إلا الله: لا يعلم متى الساعة، ولا يعلم ما تغيض الأرحام، ولا يعلم ما في غد، ولا يعلم نفساً بأي أرض تموت إلا الله، ولا يعلم أحد متى ينزل الغيث إلا الله»، ثم تلا

---

(١) انظر مبحث (كتب الثوري) من كتاب المشهداني، ص٢٠٦ ـ ٢١٢.
(٢) تفسير الثوري بتحقيق عرشي، ص١١٢.
(٣) مرويات أحمد بن حنبل في التفسير لحكمت بشير: ٢/ ١٦٩ ـ ١٧٠.

قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ ﴾[1].

والحديث رواه عن سفيان الثوري بهذا الإسناد أحمد في المسند، والبخاري في الصحيح، والسيوطي في الدر المنثور، وابن كثير في التفسير[2].

٣ ـ تفسيره القرآن بأقوال الصحابة:

كان الثوري يفسر القرآن بأقوال الصحابة، على اعتبار أنهم أعلم الناس بالقرآن وتفسيره بعد رسول الله ﷺ.

ومن أكثر الصحابة الذين روى عنهم عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم.

أما ابن عباس فقد أخذ سفيان أقواله في التفسير عن طريق علي بن أبي طلحة الهاشمي صاحب الصحيفة التي تحدثنا عنها، وقد كان أحد شيوخ الثوري.

ومن أمثلة نقله لأقوال ابن عباس في التفسير، نقله قولاً لابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ ﴾ [الأنبياء: ٣٠].

روى بإسناده قال: سفيان، عن سعيد بن مسروق، عن عكرمة قال: سئل ابن عباس: أكان الليل قبل أو النهار؟.

فقرأ ابن عباس قوله تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ ﴾. ثم قال: هل كان بينهما إلا ظلمة؟ ذلك ليعلموا أن الليل قبل النهار![3].

---

(١) تفسير الثوري، ص٢٣٩.
(٢) مرويات أحمد بن حنبل في التفسير: ٣/ ٣٧١.
(٣) تفسير سفيان الثوري، ص٢٠٠.

وهذا الأثر رواه سفيان عن أبيه عن عكرمة، وأبوه هو سعيد بن مسروق الثوري، فهو يصرح بروايته عن أبيه المحدث.

وأما أقوال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فقد رواها سفيان من عدَّة طرق.

ومن أمثله ذلك: نقل بإسناده قولاً لابن مسعود في تفسيره لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران ١٠٢].

عن زبير الإيامي عن مرة الهمداني قال: سألت عبد الله بن مسعود عن قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾؟ فقال: حق تقاته أن يطاع فلا يعصى، وأن يشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى[١].

٤ ـ تفسيره القرآن بأقوال التابعين:

حفل تفسير الثوري بروايات كثيرة في التفسير بالمأثور عن التابعين، وكانت غالب مرويات الثوري عن مفسري مكة من تلاميذ ابن عباس، مثل: مجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، والضحاك بن مزاحم، وعطاء بن أبي رباح، وطاووس ابن كيسان اليماني.

قال علي بن المديني: «انتهى علم ابن عباس إلى الثوري في زمانه!»[٢].

وفي تفسيره مرويَّات عن مفسري المدينة، مثل: زيد بن أسلم، ومحمد بن كعب القرظي، وسعيد بن المسيب.

ومن مفسري الكوفة الذين روى عنهم في تفسيره: الحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وعامر الشعبي، وإبراهيم النخعي، وإسماعيل السدي الكبير، وأبو عبد الرحمن السلمي، وأبو مالك الغفاري، وأبو صالح باذان، وأبو مجلز لاحق السدوسي.

---

(١) تفسير سفيان الثوري، ص٧٩.

(٢) سفيان الثوري وأثره في التفسير، ص٢٧٠.

قال علي بن المديني أيضاً: صار علم أهل الكوفة في التفسير إلى الثوري[(١)].

ولذلك اعتبر الثوري أجمع الناس للعلم في زمانه، وأعلم الناس بالقرآن.

روى الثوري عن حميد الأعرج عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩] قال: هو الخشوع والتواضع[(٢)].

روى سفيان عن بيان الأحمسي عن الشعبي في تفسير قوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٨] قال: القرآن بيان من العمى، وهدى من الضلالة، وموعظة من الجهل[(٣)].

٥ ـ تفسيره القرآن باللغة العربية:

كان سفيان الثوري متمكّناً من اللغة العربية، يحسن فهم معاني الكلمات الغريبة من القرآن، ويقدم المعنى بعبارة سهلة بسيطة ميسرة عذبة.

في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٥ ـ ١٠٧] ثلاث كلمات غريبة، فسّرها الثوري بإيجاز وسلاسة.

قال: (قاعاً صفصفاً): ترى الأرض كلها مستوية.

و(عوجاً): العوج: الشق، و(أمتاً): الأمت: المكان المرتفع[(٤)].

وفسّر (خلصوا نجياً) في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْأَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا﴾ [يوسف: ٨٠]، فقال: تشاوروا تشاوراً بوسوسة[(٥)].

---

(١) سفيان الثوري وأثره في التفسير، ص٢٧٢.
(٢) تفسير سفيان الثوري، ص٢٧٨.
(٣) المصدر السابق، ص٨٠.
(٤) المصدر السابق، ص١٩٦.
(٥) المصدر السابق، ص١٤٥.

٦ ـ تفسيره بالرأي والاستنباط:

جمع سفيان الثوري بين المأثور والرأي في تفسيره، وإن كان المأثور أكثر من الرأي فيه، والقواعد الخمسة السابقة التي تحدثنا عنها هي من التفسير بالمأثور، وهذه القاعدة السادسة تعني الرأي المبني على المأثور.

وهو يجتهد برأيه عندما لا يجد أقوالاً مأثورة في تفسير الآية.

قال في تفسير قوله تعالى عن إكرام يوسف عليه السلام لأبويه: ﴿ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا ﴾ [يوسف: ١٠٠]: رفع أبويه على السرير، وسجدوا له تحية كانت بينهم(١).

وقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ ۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ ﴾ [سورة صٓ: ٥٢]: الحور العين قصرت أبصارهن على أزواجهن، فلا يرون غيرهم، وهنَّ مستويات في السن(٢).

وهكذا نرى الإمام سفيان الثوري في منهجه التفسيري ملتزماً بأحسن طرق التفسير في مراحلها الستة التي بيّناها سابقاً، ولاحظنا انطباقها على تفسيره!.

* * *

---

(١) المصدر السابق، ص١٤٧.

(٢) المصدر السابق، ص٢٦٠.

المبحث السابع

السيوطي وتفسيره: (الدر المنثور في التفسير بالمأثور)

ومما يتصل بالتفسير بالمأثور اتصالاً مباشراً تفسير السيوطي: (الدر المنثور في التفسير بالمأثور) ومن المناسب أن نتحدث عنه هنا في هذا الفصل الذي خصَّصناه للحديث عن التفسير بالمأثور: مفهومه وقواعده وخطواته وأعلامه.

كان حديثنا في ما سبق عن التفسير بالمأثور زمن الصحابة وعرَّفنا على منهج ابن عباس في التفسير، وزمن التابعين وعرَّفنا على منهج الحسن البصري في التفسير، وزمن أتباع التابعين وعرَّفنا على منهج سفيان الثوري في التفسير.

ووقفنا في حديثنا السابق عند منتصف القرن الثالث تقريباً، لأننا تحدثنا عن تفسير أحمد بن حنبل، وتوفي ابنُ حنبل سنة ٢٤١هـ.

ولم تكن التفاسير السابقة التي ذكرناها، والتي عرَّفنا عليها، تفاسير كاملة للقرآن، فأصحابُها لم يفسِّروا القرآن سورة سورة، ولم يفسِّروا السورة آية آية، حسب ترتيب المصحف، وإنما فسَّروا آيات من السورة، وفسَّروا جملة من الآية، وكان تفسيرهم موجزاً مختصراً، لا يخرج عن ذكر آية أخرى بمعناها، أو حديث مرفوع للرسول ﷺ، أو قول لصحابي أو تابعي، أو شاهد شعري، أو بيان معنى كلمة غريبة، أو استخراج حكم فقهي! ولذلك كانت التفاسير السابقة مجملة صغيرة الحجم.

وأحببنا في هذا المبحث أن نذكر مثالاً للتفسير بالمأثور المجرَّد، وهو تفسيرٌ كاملٌ للقرآن حسب ترتيب المصحف، إنه تفسير السيوطي: (الدر المنثور).

نتحدث عن تفسير السيوطي هنا رغم الفترة الزمنية البعيدة التي تفصله عن

التفاسير السابقة، فهو من تفاسير القرن التاسع، وتلك من تفاسير القرون الثلاثة الأولى، فبينهما ستة قرون تقريباً، لكنَّ الصلة وثيقة بينه وبين تلك التفاسير!.

يقول الدكتور محمد حسين الذهبي عنه: «ولا يفوتُنا هنا أن ننبِّه إلى أن كتاب (الدر المنثور) هو الكتاب الوحيد الذي اقتصر على التفسير المأثور من بين هذه الكتب التي تكلمنا عنها، فلم يخلط بالروايات التي نقلها شيئاً من عمل الرأي، كما فعل غيرُه!»(1).

جلال الدين السيوطي: مَعْلَمَةُ العلوم الإسلامية:

مؤلِّف هذا التفسير هو الإمامُ الحافظ جلال الدين السيوطي: أبو الفضل عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد الخضيري السيوطي. نسبةً إلى مدينة (أسيوط) في صعيد مصر.

ولد في القاهرة في مطلع شهر رجب سنة ٨٤٩هـ.

وكان والده كمال الدين أبو بكر عالماً من العلماء المعدودين، وله مكتبة كبيرة، وحكى العيدروسي أن والدَ جلال الدين أمر زوجته الحامل أن تأتيه بكتاب من المكتبة، فذهبت لتأتي بالكتاب من بين الكتب، فجاءها المخاضُ هناك، ووضعت جلال الدين بين الكتب! ولذلك كان السيوطي يُلقَّب: (ابن الكتب!) وهذا ما كان منه في حياته، حيث عاش عمره بين الكتب إلى أن لقي وجه ربه!(2).

نشأ السيوطي نشأة علمية رغم أن والده توفي وهو في السادسة من عمره، حيث يسَّر الله له طريق العلم، فتلقَّى العلم على كبار علماء عصره، وبقي يترقَّى في العلم إلى أن أصبح من كبار العلماء.

يقول عن العلوم التي تبحَّر فيها: «قد رُزقتُ ـ ولله الحمد ـ التبحُّر في سبعة علوم: التفسير، والحديث، والفقه، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع،

---

(1) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٢٥٤.
(2) الحافظ السيوطي لإياد الطباع، ص٢٩ ـ ٣٠.

على طريقة العرب البلغاء لا على طريقة المتأخرين من العجم وأهل الفلسفة. . .

ودون هذه السبعة في المعرفة: أصولُ الفقه، والجدل، والتصريف. . ودونها: الفرائض والإنشاء، والترسُّل»[1].

وكان الإمام السيوطي رجلاً أبيّاً لا يخضع لأحد، ولا تُذلُّه الأطماع، قنوعاً، يقول الحق، ولو جلب إليه العداوة، زاهداً في مناصب الدنيا ومراكزها. .

يقول عنه تلميذه الشاذلي: «شاهدت أحد السلاطين يسأله أن يكون شيخ مدرسته ويلحُّ عليه فلم يقبل، وزهد في جميع المناصب، ولم يلتفت إليها، وكان إذا احتاج إلى شيء من النفقة باع من كتبه وأكل من ثمنها. . ولم يسأل مخلوقاً شيئاً من أمر الدنيا، ولم يُعلِم بحاله أحداً، وكان يأكل المآكل اللطيفة، مما اجتمعت الأطباء على نفعه وعدم ضرره في ذاته وعقله وفكره. .

وكان رحمه الله مترفِّعاً على أهل الدنيا، بل على ملوكها وسلاطينها، متعزِّزاً عليهم، متعفِّفاً عنهم، معرضاً عمَّا في أيديهم، لا يلتفت إليهم، ولا يداهنُهم، ولا يُرائيهم، بل لا يتردد إلى أحدٍ أصلاً، لا في الخلوة، ولا في الملأ. . . وكانت تُعرض عليه الأموال النفيسة والوظائف الضخمة، فيقول: لا أقبل وظيفة ولا مرتباً!.

وكان الأمراء يأتون إلى منزله، ويجلسون بين يديه، يحترمونه ويُعظِّمونه، ويقولون له: ألك حاجة ياسيدي؟ فما يزيد على أن يقول لهم: حاجتي إلى الله!.

وقد أهدى إليه السلطان قانصوه الغوري ألف دينار وعبداً، فردَّ الألف دينار، وأخذ العبد وأعتقه، وجعله خادماً في الحجرة النبوية، وقال لرسول السلطان: لا تَعُد تأتينا بهدية قط، فإن الله أغنانا عن ذلك!.

وألَّف رسالةً أسماها: (ما رواه الأساطينُ في عدم المجيء إلى السلاطين)[2].

---

(١) الحافظ السيوطي، لإياد الطباع، ص٧٣.

(٢) المصدر السابق، ص٧٩ ـ ٨٠.

وعند بلوغه سنَّ الأربعين اعتزل الحياة العامة، وتفرَّغ للكتابة والتأليف وتحرير الرسائل والمؤلفات، والانقطاع لعبادة الله، وأقام في منزله في جزيرة (الروضة) في النيل، وكتب فيها مئات الرسائل والكتب.

وفي آخر أيامه مرض بورم شديد في ذراعه اليسرى، ومكث على هذا أسبوعاً، ثم توفي ليلة الجمعة في السابع عشر من جمادى الأولى سنة ٩١١. وقد قارب الثانية والستين من عمره!![١].

وكان الإمام الحافظ السيوطي (مَعْلَمَةَ العلوم الإسلامية) ـ كما وصفه إياد الطباع في عنوان الكتاب الذي أصدره عنه ـ وألَّف كتباً ورسائل عديدة لم يؤلفها عالم قبله ولا بعده، على مدار التاريخ الإسلامي.

وقد أحصى (إياد الطباع) تلك الكتب والرسائل، فبلغت (١١٩٤) عنواناً!! وعرَّف بها وبموضوعاتها، والمخطوط منها والمطبوع والمفقود[٢].

وقد صدرت عن الإمام السيوطي دراساتٌ عديدة، من أحدثها وأجودها وأشملها كتاب (الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي: معلمة العلوم الإسلامية) لإياد خالد الطباع، وصدر عن دار القلم في سلسلة (أعلام المسلمين) حلقة رقم (٦٤).

ونتاج السيوطي في التفسير وعلوم القرآن كثير غزير، وقد سجَّل له إياد الطباع حوالي أربعين عنواناً ما بين رسالة وكتاب في مختلف موضوعات التفسير وعلوم القرآن[٣].

ومن أهم كتبه في علوم القرآن: الإتقان في علوم القرآن، ومعترك الأقران في علوم القرآن، ومفحمات الأقران في مبهمات القرآن، وتناسق الدرر في تناسب

---

(١) الحافظ السيوطي، ص٤٣٥ ـ ٤٣٦.
(٢) انظر تعريفاً بالمئات من رسائل السيوطي في المصدر السابق، ص٣١٤ ـ ٤٠٥.
(٣) المصدر السابق، ص١٠٧ ـ ١٤٢.

السور، ولباب النقول في أسباب النزول، والتحبير في علوم التفسير، والإكليل في استنباط التنزيل، وكلها كتب مطبوعة.

تفسير (الدر المنثور في التفسير بالمأثور):

لجلال الدين السيوطي اهتمام خاص بتفسير القرآن، ومن أعماله التفسيرية التي أخبر عنها:

١ ـ تكملة تفسير جلال الدين المحلي، حيث بدأ المحلي التفسير من سورة الكهف إلى آخر القرآن، ولكنه توفي قبل أن يفسِّر النصف الأول من القرآن، فأكمل جلال الدين السيوطي التفسير، وفسَّر القرآن من سورة الفاتحة إلى نهاية سورة الإسراء، وسُمِّي تفسير (الجلالين) نسبة إلى جلال الدين المحلي وجلال الدين السيوطي. وهو منتشر بين أيدي الناس، وعليه حواش عديدة، من أشهرها حاشية (الجمل).

٢ ـ حاشيةٌ على تفسير البيضاوي، أسماها: (نواهد الأبكار وشوارد الأفكار)، وهو غير مطبوع.

٣ ـ المنتقى من تفسير ابن أبي حاتم، وهو غير مطبوع.

٤ ـ المنتقى من تفسير عبد الرزاق الصنعاني، وهو غير مطبوع.

٥ ـ المنتقى من تفسير الفريابي، وهو غير مطبوع[١].

ويهمنا هنا الحديث عن نتاج السيوطي في التفسير بالمأثور:

كتب السيوطي ثلاثة تفاسير بالمأثور، هي:

الأول: أسماه (مجمع البحرين ومطلع البدرين) وهو تفسير ضخم، جعل كتابه (الإتقان في علوم القرآن) مقدمة له، فإذا كان (الإتقان) مقدمة للتفسير ـ وهو كبير الحجم، جامعٌ شاملٌ لأنواع علوم القرآن ـ فكيف سيكون حجم التفسير؟!.

---

(١) المصدر السابق، ص١١٠ ـ ١١٢.

قال عنه في خاتمة كتابه (الإتقان): «وقد شرعت في تفسير جامعٍ لجميع ما يُحتاج إليه من التفاسير المنقولة، والأقوال المقولة، والاستنباطات والإشارات، والأعاريب واللغات، ونكتِ البلاغة ومحاسن البدائع، وغير ذلك، بحيث لا يُحتاج معه إلى غيره أصلاً!.

وسميته (مجمع البحرين ومطلع البدرين)، وهو الذي جعلت هذا الكتاب مقدمة له»[1].

وهذا التفسير يقترب في طبيعته وعلومه من تفسير الإمام ابن جرير الطبري، الذي هو تفسيرٌ بالأثر واللغة والنظر.

ولا نعرف هل أتمَّ السيوطي هذا التفسير الكبير الشامل أم لا، ويبدو أنه فُقد ولم يعد له أثر، فلم يرد عنه كلام في مكتبات المخطوطات.

الثاني: أسماه (ترجمان القرآن) وخصص هذا التفسير للأقوال المأثورة عن رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين.

قال عنه في كتاب (الإتقان) أثناء حديثه عن أهمية نقل الأقوال المأثورة في التفسير: «وقد جمعت كتاباً مُسنَداً، فيه تفاسير النبي ﷺ والصحابة، فيه بضعة عشر ألف حديث، ما بين مرفوعٍ وموقوفٍ، وقد تمَّ - ولله الحمد - في أربع مجلدات، وسميتُه (ترجمان القرآن)»[2].

وقد أكمل السيوطي هذا التفسير المسند على حسب تعبيره، وهو خاص بالمأثور فقط، ولا يعتمد إلا المأثور المسند فقط.

ويبدو أن هذا التفسير المسند مفقود، فلم يرد عنه كلام في التفاسير المخطوطة في مكتبات المخطوطات.

الثالث: (الدر المنثور في التفسير بالمأثور):

---

(١) الإتقان في علوم القرآن: ٢/ ١٢٣٧.
(٢) المصدر السابق: ٢/ ١٢١٧.

هذا اختصار لتفسير (ترجمان القرآن) السابق، فلما أكمل ذلك التفسير بأسانيد الروايات المأثورة، بدا له أن يختصر ذلك التفسير، بحذف الأسانيد، والاكتفاء بمتون الأحاديث المرفوعة والموقوفة، فاختصره في (الدر المنثور).

قال في مقدمة الدر المنثور: «لمَّا ألَّفتُ كتاب (ترجمان القرآن) وهو التفسير المسند عن رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وتمَّ بحمد الله في مجلدات، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرَّج منها واردات، رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله، ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله.

فلخَّصتُ منه هذا المختصر، مقتصراً فيه على متن الأثر، مُصَدَّراً بالعزْوِ والتخريج إلى كل كتاب معتبر، وسميته (الدر المنثور في التفسير بالمأثور)، واللهَ أسأل أن يضاعف لمؤلفه الأجور..»[(١)].

وألَّف السيوطي تفسيره قبل وفاته بثلاث عشرة سنة تقريباً، قال في خاتمة (الدر المنثور) مُحدداً تاريخ انتهائه منه: «قال مؤلفه رضي الله عنه، وتقبَّل الله منه صنيعه: فرغت من تبييضه يوم عيد الفطر، سنة ثمانٍ وتسعين وثمانمئة، والحمد لله وحده»[(٢)].

وكل ما في تفسير (الدر المنثور) رواياتٌ مأثورةٌ في التفسير بالمأثور، أخذها الإمام الحافظ السيوطي من مختلف كتب الحديث، من صحاحٍ وسننٍ ومسانيد، ومن المصنفات التي جمعت أقوال الصحابة والتابعين، كمصنفات عبد الرزاق وابن أبي شيبة، وكتب التفسير بالمأثور المسندة، كتفاسير الطبري وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه وعبد بن حميد، وغيرهم.

وكان السيوطي في تفسيره مجرَّد ناقل جامع، ولم يورد الروايات المأثورة الصحيحة فقط، وإنما أورد الصحيح والضعيف والموضوع والباطل.

---

(١) الدر المنثور: ١/ ٩.

(٢) المصدر السابق: ٨/ ٧٠٢.

قال الدكتور الذهبي عنه: «والسيوطي رجلٌ مغرم بالجمع وكثرة الرواية، وهو مع جلالة قدره ومعرفته بالحديث وعلله، لم يتحرَّ الصحة فيما جمع في هذا التفسير، وإنما خلط فيه بين الصحيح والعليل، فالكتاب يحتاج إلى تصفية، حتى يتميَّز لنا غَثُّه من سمينه..»[1].

والكتاب مطبوع متداول، وقد طبع في مصر في ستة مجلدات.

ومن أجود طبعاته وأحدثها الطبعة الصادرة عن دار الفكر في بيروت في ثمانية مجلدات، سنة ١٤٠٣ ـ ١٩٨٣.

والتفسير يحتاج إلى تهذيب، واختيار ما صحَّ من رواياته المأثورة.

* * *

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٢٥٤.

الفصل الخامس

التَّفْسِيْرُ الأَثَرِيُّ النَّظَرِيُّ
أَشْهَرُ المُفَسِّرِيْنَ بِهِ
وَتَعْرِيْفٌ بِتَفَاسِيْرِهِمْ

المبحث الأول

أشهر التفاسير بالمنهج الأثري النظري

مفهوم (التفسير الأثري النظري):

التفسير الأثري النظري هو التفسير الذي يجمع بين جانبين:

الأول: جانب التفسير بالمأثور، القائم على الرواية والنقل، وإيراد الأقوال المأثورة فقط، دون نظرٍ أو تحليلٍ أو تأويل.

الثاني: جانب التفسير بالرأي، القائم على النظر والاجتهاد، والتحليل والتأويل، دون ذكر للمأثور.

هناك تفاسير اكتفت بإيراد الأقوال المأثورة، المتمثلة في الأحاديث وأقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم، ولا يكاد المفسِّر يذكر شيئاً من التوجيه والتحليل، وإن ذكر كان ذلك قليلاً، لا يكاد يُذكر أمام (الكم الكبير) من الروايات المأثورة التي ملأت تفسيره.

وهذا ملحوظ في التفاسير التي طُبعت، والتي جمعت فيها أقوال واختيارات مفسرين من الصحابة أو التابعين، كتفسير ابن عباس، وتفسير مجاهد، وتفسير قتادة، وتفسير السدي، وتفسير الحسن البصري، وتفسير عبد الرزاق، وتفسير أحمد بن حنبل، وتفسير سفيان الثوري.

ويبدو هذا في تفسير السيوطي (الدر المنثور) الذي تحدثنا عنه قبل قليل.

هذه التفاسير تُصنَّف ضمن التفسير بالمأثور، ولهذا أوردناها ضمن الفصل السابق الذي خصَّصناه للتفسير بالمأثور.

وهناك تفاسير اكتفت بالرأي والنظر والتحليل والتوجيه والاستنباط،

وتوسَّعت في الموضوعات العقلية أو الفقهية أو النحوية أو البلاغية، ولا تكاد ترى في هذه التفاسير العقلية شيئاً من المأثور، وإذا كان فيه شيءٌ منه كان قليلاً لا يكاد يذكر.

يبدو هذا في التفاسير العقلية كتفسير الزمخشري، وتفسير الرازي، وتفسير البيضاوي، وتفسير النسفي، وتفسير أبي السعود، وتفسير القمي النيسابوري. وسنعرِّف بهذه التفاسير في الفصل القادم، الذي سنخصصه للتفسير بالرأي، إن شاء الله!.

والتفسير الأثري النظري هو الذي يجمع بين المنهجين السابقين، وينسِّق بينهما، ويرفض غُلُوَّ كل فريق بمنهجه، وإهمال المنهج الآخر، فلا صاحب المأثور يفسِّر بالرأي، ولا صاحب الرأي يفسِّر بالمأثور!.

أصحاب هذا المنهج ينسِّقون بين المأثور والرأي، فترى في تفاسيرهم أقوالاً مأثورة، من أحاديث وأقوال صحابة وتابعين، وترى فيها نظراً واجتهاداً وتحليلاً وتأويلاً.

وهم في هذا التنسيق يكونون قد جمعوا بين الحُسْنَيَيْن، فأخذوا حسنة التفسير بالمأثور، الذي هو ضروري لفهم القرآن، وأخذوا حسنة التفسير بالرأي والنظر، الذي لا بدَّ منه لتفسير القرآن أيضاً.

ومن أشهر التفاسير التي جمعت بين الأثر والنظر: تفسير يحيى بن سلام البصري، وتفسير بقي بن مخلد الأندلسي، وتفسير ابن عطية الأندلسي، وتفسير ابن الجوزي، وتفسير الواحدي، وتفسير البغوي، وتفسير الشوكاني، وسنعرِّف بأهم هذه التفاسير فيما يلي بعون الله:

أمَّا أشهر تفسيرين قاما على هذا المنهج - تفسير الطبري وتفسير ابن كثير - فسنخصص لكلٍّ منهما مبحثاً في هذا الفصل إن شاء الله.

١ ـ تفسير يحيى بن سلام البصري:

ذهب كثير من العلماء إلى أن (يحيى بن سلام البصري) هو أول من فسَّر

القرآن كاملاً على أساس (المنهج الأثري النظري)، وأنه ألَّف تفسيره قبل أن يؤلِّف الطبري تفسيره بحوالي قرن، وأن التفاسير التي كانت قبل يحيى بن سلام كانت تفاسير بالمأثور فقط.

قال محمد الفاضل بن عاشور في كتابه (التفسير ورجاله): «نعني بهذا تفسيراً جليلاً من صميم آثار القرن الثاني، وهو أقدم التفاسير الموجودة اليوم على الإطلاق، أُلِّف بالقيروان ورُوِيَ فيها، وبقيت نسخته الوحيدة بين تونس والقيروان، وهو الذي يعتبر مؤسِّس طريقة التفسير النقدي، أو الأثري النظري، التي سار عليها بعده ابن جرير الطبري واشتهر بها.

ذلك هو تفسير يحيى بن سلام التيمي البصري الأفريقي المتوفى سنة ٢٠٠ هـ وهو تفسير يقع في ثلاثين جزءاً من التجزئة القديمة، أي في ثلاث مجلدات ضخمة.

وتفسير ابن سلام البصري مبني على إيراد الأخبار مسندة، ثم تعقُّبها بالنقد والاختيار، فبعد أن يورد الأخبار المروية مفتتحاً إسنادها بقوله: (حدثنا)، يأتي بحكمه الاختياري بقوله: (قال يحيى)، ويجعل مبنى اختياره على المعنى اللغوي والتخريج الإعرابي، ويتدرج من اختيار المعنى إلى اختيار القراءة التي تتماشى وإياه...

وقد نصَّ ابن الجزري على أن هذا الكتاب سُمع من مؤلفه بأفريقية، وشهد بأنه كتاب ليس لأحد من المتقدمين مثله، وكذلك نُقل عن إمام القراءات أبي عمرو الداني أنه قال: «ليس لأحدٍ من المتقدمين مثل تفسير ابن سلام».

وذلك ينطق بسبقه إلى طريقة، وابتكاره منهجاً، وقد تلقى هذا التفسير عن مؤلفه فقيه أفريقي هو أبو داود العطار»(١).

ونُسَخُ هذا التفسير المخطوطة موجودة في تونس، وقد جمعَتْها ودرسَتْها الباحثة التونسية في التفسير الدكتورة هند شلبي، وحققت تفسير ابن سلام كاملاً، ووعدت أن تقدمه للطبع، لكنه لم يطبع حتى الآن.

---

(١) التفسير ورجاله لمحمد الفاضل بن عاشور، ص٤٢ ـ ٤٤.

وليحيى بن سلام البصري كتاب قرآني آخر، هو كتاب (التصاريف: تفسير القرآن مما اشتبهت أسماؤه وتصرَّفت معانيه)، وهو كتاب في التفسير البياني لمفردات القرآن، الذي يسمى علم (الأشباه والنظائر) في القرآن، وكتاب يحيى بن سلام من أوائل ما أُلِّف في هذا الموضوع.

وقد حققتْ كتاب (التصاريف) ونشرته الدكتورة هند شلبي في تونس سنة ١٤٠٠ـ١٩٨٠.

وعرَّفت في مقدمة الكتاب بيحيى بن سلام وتفسيره وكتبه الأخرى، قالت عنه: «هو أبو زكريا: يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة التيمي البصري.

وُلد في الكوفة سنة ١٢٤هـ، وانتقل به والده إلى البصرة، فنشأ بها، ومنها أخذ لقبه (البصري).

تلقَّى العلم في البصرة على كبار التابعين وغيرهم، قال: «أحصيتُ بقلبي من لقيتُ من العلماء، فعددت ثلاثمئة وثلاثة وستين عالماً، سوى التابعين، وهم أربعة وعشرون، وامرأة تحدِّث عن عائشة رضي الله عنها...».

ارتحل يحيى بن سلام إلى المدينة، والتقى به الإمام مالك بن أنس، وروى مالك عنه الحديث، وهذا يدلُّ على منزلة ابن سلام، لأن مالكاً لا يأخذ إلا عن الثقات.

توجَّه يحيى بن سلام إلى القيروان في تونس بعد سنة ١٨٠هـ، واستقرَّ بها عدَّة سنوات.

وفي آخر عمره خرج من تونس وتوجَّه إلى مكة، وفي طريق عودته مرَّ بمصر، وفيها وافاه الأجل، وتوفي في شهر صفر سنة ٢٠٠هـ، ودُفن في المقطَّم[(١)].

وقالت عن تفسير يحيى بن سلام: «وتغلب على التفسير نزعة الرواية، دون أن يغفل المؤلف التذكير برأيه إن اقتضى الأمر، أو أن يستعين على الشرح

---

(١) مقدمة كتاب التصاريف للدكتورة هند شلبي، ص٦٧ـ٨٥.

باللغة أو النحو، أو غيرهما من العلوم القرآنية السائدة في عصره»[١].

ولتفسير يحيى بن سلام البصري ثلاث مختصرات:

الأول: اختصره أبو المطرف عبد الرحمن بن مروان الأنصاري القرطبي، المتوفى سنة ٤١٣هـ، واختصاره مفقود.

الثاني: اختصره ابن أبي زِمَنين: أبو عبد الله: محمد بن عبد الله بن عيسى المري الإلبيري، المتوفى سنة ٣٩٩هـ، وهذا التفسير المختصر مخطوط في تونس[٢].

الثالث: اختصره هود بن مُحَكِّم الهواري، قاضي الإباضية في قبيلة (هوارة) البربرية في الجزائر، والمتوفى سنة ٢٨٠هـ.

وقد حقق هذا التفسير المختصر الباحث الجزائري بالحاج بن سعيد شريفي، ونشرته له دار الغرب الإسلامي في بيروت سنة ١٤١٠ ـ ١٩٩٠ في أربعة أجزاء.

عقد بالحاج شريفي مقارنة بين تفسير هود بن محكِّم الهواري، وتفسير يحيى بن سلام البصري، وخرج من تلك المقارنة بقوله: «واليوم: وبعد أكثر من عشر سنوات من التحقيق والمقارنة والاستقراء، أستطيع أن أقول بدون تردد: إن الشيخ هوداً الهواري اعتمد اعتماداً كثيراً ـ إن لم أقل اعتماداً كلياً ـ على تفسير ابن سلام البصري، ولو جاز لي أن أضع للكتاب عنواناً غير الذي وجدته في المخطوطات لكان العنوان هكذا: تفسير الشيخ هود الهواري: مختصر تفسير ابن سلام البصري، لأن تفسير ابن سلام أصل لتفسير الشيخ هود الهواري»[٣].

وقد نُشرت ستة أجزاء من تفسير يحيى بن سلام البصري في الجزائر، بتحقيق كل من: حمود حمود، والبشير المخينيني، ورشيد الغزي، ولم ينشر التفسير كله، ووعدت الدكتورة هند شلبي بنشر التفسير كاملاً في تونس، ونشر

---

(١) مقدمة التصاريف، ص٨٣.

(٢) مقدمة بالحاج شريفي لتفسير هود الهواري: ١/ ٣٠ـ٣١.

(٣) المصدر السابق، ص٢٤؛ وانظر المقدمة كاملة ففيها تفصيل لهذا الأمر: ١/ ٥ ـ ٤٤.

بالحاج شريفي تفسير هود الهواري كاملاً في الجزائر.

وعند إلقاء نظرة على تفسير هود الهواري ندرك أن تفسير ابن سلام البصري وفق المنهج الأثري النظري، الجامع بين التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي والاجتهاد والترجيح!.

٢ ـ تفسير بَقِيّ بن مَخْلَد القرطبي:

نعرِّف تعريفاً مجملاً ببَقِيِّ بن مَخْلَد القرطبي وتفسيره، رغم أنه مفقود، لا يوجد له نسخ في مكتبات المخطوطات، وسبب تعريفنا به أنه من أهم الكتب التي جمعت بين الأثر والنظر في التفسير.

ذكره الإمام ابن تيمية أثناء حديثه عن التفاسير المأثورة، وكان مجرَّد ذكر، قال: «من التفاسير التي ذكر فيها أقوال الصحابة والتابعين في التفسير: تفسير عبد الرزاق، وتفسير وكيع بن الجراح، وتفسير عبد بن حميد، وتفسير عبد الرحمن بن إبراهيم ـ دحيم ـ وتفسير الإمام أحمد بن حنبل، وتفسير إسحاق ابن راهويه، وتفسير بَقِيِّ بن مخلد، وتفسير أبي بكر بن المنذر، وتفسير سفيان ابن عيينة، وتفسير سُنَيْد ـ الحسين بن داود المصيصي ـ وتفسير ابن جرير، وتفسير ابن أبي حاتم، وتفسير أبي سعيد الأشج، وتفسير ابن ماجه، وتفسير ابن مرْدويه»(١).

واعتبر الدكتور عدنان زرزور بَقِيَّ بن مخلد مثل الإمام الطبري في ترسيخ منهج التفسير الأثري النظري الجامع بين النظر والاستدلال، وبين المأثور والرواية: «ولهذا يعتبر تفسير الطبري أول خطوة هامة، أو أبرز خط في السلم البياني الذي يمكن رسمه لتاريخ التفسير، لا يضارعه في ذلك سوى تفسير (بَقِيِّ ابن مخلد الأندلسي) المتوفى سنة ٢٧٦هـ، كما ذهب إلى ذلك ابن بشكوال، وقطع به ابن حزم رحمه الله، وسواء أكان هذا أم ذاك، فهما يمثلان هذه المرحلة

---

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ص٧٩ ـ ٨٠.

على كل حال . . »[1] .

وقد أصدر الباحث الدكتور أكرم ضياء العمري دراسة مجملة عن (بقي بن مخلد) وحقق فيها مقدمة مسنده الكبير[2] .

ونعرِّف فيما يلي بهذا الإمام الأندلسي المفسِّر، من (طبقات المفسرين) للداوودي: «بَقِيُّ بن مَخْلَد بن يزيد، أبو عبد الرحمن الأندلسي القرطبي الحافظ: أحد الأعلام، وصاحب (التفسير) و(المسند).

أخذ عن يحيى بن يحيى الليثي، ورحل إلى المشرق، ولقي الكبار، فسمع بالحجاز وبمصر وبدمشق وبالكوفة وببغداد، وعدد شيوخه مئتان وأربعة وثمانون رجلاً.

وعنى بالأثر، وكان إماماً زاهداً، صوَّاماً صادقاً، كثير التهجُّد، مجاب الدعوة، قليل المثل، بحراً في العلم، مجتهداً، لا يقلِّد أحداً بل يفتي بالأثر، وهو الذي نشر الحديث بالأندلس وكثره، وليس لأحد مثل مسنده ولا تفسيره.

قال ابن حزم: أقطع أنه لم يؤلَّف في الإسلام مثل تفسيره، لا تفسير ابن جرير ولا غيره!.

وقال: وقد روى في مسنده عن ألف وثلاثمئة صحابي ونيّف، ورتَّب حديث كل صحابي على أبواب الفقه، فهو مسند ومصنَّف.

وقال: فصارت تصانيف هذا الإمام قواعد للإسلام لا نظير لها، وكان لا يقلد أحداً، وكان جارياً في مضمار البخاري ومسلم والنسائي.

وقال غيره: كان بَقِيُّ متواضعاً، ضيق العيش، كانت تمضي عليه الأيام في وقت طلبه ليس له عيش إلا ورق الكرنب (الملفوف) الذي يرمى.

ولد في رمضان سنة إحدى ومئتين، ومات في جمادى الآخرة سنة ست

---

(١) مدخل إلى تفسير القرآن لزرزور، ص٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

(٢) انظر كتاب (بقي بن مخلد ومقدمة مسنده) للدكتور أكرم العمري، ص٣٣ ـ ٦٢ .

وسبعين ومئتين. .»[1].

نكتفي بهذا المقدار في حديثنا عن بقي بن مخلد وتفسيره، ولا نستطيع أن نحكم على قيمة التفسير، لأنه مفقود!.

٣ـ الواحدي وتفسيره (الوسيط):

التفاسير التي تحدثنا عنها كانت قبل تفسير ابن جرير الطبري، ونرجئ الكلام على تفسير الطبري إلى المبحث القادم إن شاء الله، وننتقل للحديث عن مفسرين جاؤوا بعد الطبري، وفسَّروا القرآن بالمنهج الأثري النظري.

كلامنا الآن عن الإمام الواحدي وتفسيره (الوسيط في تفسير القرآن المجيد).

هو الإمام العلامة أبو الحسن: علي بن أحمد بن محمد بن علي بن مَتُّوَيْهِ، الواحدي النيسابوري الشافعي.

ولد بنيسابور في خراسان سنة ٣٩٨هـ، وهو من أسرة مشهورة بالتجارة، وكان والده من كبار التجار ذوي اليسار والغنى، وكان أخوه أبو القاسم عبد الرحمن ابن أحمد الواحدي من علماء الحديث.

نشأ الواحدي في نيسابور، وتلقى العلم فيها على كبار علمائها، ثم قام برحلات علمية لطلب العلم في مختلف حواضر العالم الإسلامي، وكان له أساتذة من كبار العلماء، في مختلف ميادين العلوم الإسلامية، كالتفسير والحديث والفقه واللغة والنحو والأدب والقراءات.

ومن كبار شيوخه في التفسير الإمام أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، المتوفى سنة ٤٢٧هـ، صاحب تفسير (الكشف والبيان عن تفسير القرآن)[2].

---

(١) طبقات المفسرين للداوودي، ص١١٦ـ ١١٧.

(٢) انظر تعريف الذهبي بالثعلبي وتفسيره في، التفسير والمفسرون: ١/ ٢٢٧ ـ ٢٣٤.

كـان الإمام الواحدي متبحِّراً في علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغـة، ومتبحِّراً في الحديث وعلومه، وفي الفقه وأصوله، وفي علم الكلام والعقيدة، واستفاد من هذه العلوم في تفسير القرآن.

وله عدَّة مؤلَّفات في النحو والأدب، وفي التفسير وعلوم القرآن.

وتوفي الأمام الواحدي بنيسابور في جمادى الأولى سنة ٤٦٨ هـ، وعاش سبعين سنة.

وللواحدي كتب في القرآن وعلومه وتفسيره منها: معاني التفسير، ومسند التفسير، ومختصر التفسير، والحاوي لجميع المعاني في تفسير القرآن، ونفي التحريف عن القرآن الشريف، ومختصر في علم فضائل القرآن، ورسالة في شرف علم التفسير.

وله كتاب (أسباب النزول) من أفضل ما أُلِّف في أسباب النزول، وقد حقَّقه السيد أحمد صقر وطبعه في مصر عدة طبعات، كما حققه عصام الحميدان وطبعه في السعودية.

وقد ألَّف الإمام الواحدي ثلاثة تفاسير هي:

الأول: البسيط في تفسير القرآن الكريم، وهو أكبر تفاسيره، وأقدمها تفسيراً، ومازال هذا التفسير مخطوطاً لم يطبع حتى الآن.

الثاني: الوسـيط في تفسـير القرآن المجيد، وهو تفسير متوسط، لا هو بالطويل ولا بالمختصر، وقد ظهرت طبعته الأولى حديثاً عام ١٤١٥ ـ ١٩٩٤، عن دار الكتب العلمية ببيروت، وحققه كل من: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض، والدكتور أحمد محمد صيرة، والدكتور أحمد عبد الغني الجمل، والدكتور عبد الرحمن عويس، وقدَّمه الدكتور عبد الحي الفرماوي.

الثالث: الوجيز في تفسير القرآن العزيز: وهو تفسير وجيز مختصر، ومنتشر بين النـاس، وطبع عدة طبعات، آخرهـا الطبعـة التي أصدرتها دار القلم والتي

حققها السيد صفوان داوودي، وقد كتبت على ذلك التفسير تعليقات واستدراكات وملاحظات، وأصدرتها دار القلم على هامشه، وهو من أجود التفاسير المختصرة[1].

وقد اقتدى الإمام أبو حامد الغزالي بالإمام الواحدي في تفاسيره الثلاثة، فألَّف الغزالي ثلاثة كتب في الفقه، سمَّاها: البسيط والوسيط والوجيز.

قال الإمام الواحدي في مقدمة تفسيره (الوسيط) الذي نحن بصدده:

«الحمد لله القادر العليم، الفاطر الحكيم، الجواد الكريم، الرب الرحيم، منزِّل الذكر الحكيم، والقرآن العظيم، على المبعوث بالدين القويم، والصراط المستقيم، خاتم الرسالة، والهادي عن الضلالة، المرسل بأشرف الكتب، إلى العجم والعرب، محمد النبي العربي ﷺ، وعلى آله الهداة المهتدين، وأصحابه الأخيار المنتخبين، وسلم تسليماً.

وبعد هذا:

فالعلم أشرف منقبة، وأجلُّ مرتبة، وأبهى مفخر، وأربح متجر، به يُتَوَصَّلُ إلى توحيد رب العالمين، وتصديق أنبيائه المرسلين.

والعلماء خواصُّ عباد الله الذين اجتباهم، وإلى معالم دينه هداهم، وبمزية الفضل آثرهم واصطفاهم، هم ورثة الأنبياء وخلفاؤهم، وسادة المسلمين وعرفاؤهم، والدعاة إلى المحجَّة المثلى، والتمسُّك بالشريعة والتقوى.

... عن البراء بن عازب رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «العلماء ورثة الأنبياء، يحبُّهم أهل السماء، وتستغفر لهم الحيتان في البحر إلى يوم القيامة».

.. وإنَّ أمَّ العلوم الشرعية، ومجمع الأحكام الدينية كتابُ الله، المودَعُ نصوصَ الأحكام، وبيان الحلال والحرام، والمواعظ النافعة، والعبر الشافية،

---

(١) انظر مقدمة المحققين للتفسير الوسيط، وتعريفهم بالواحدي وتراثه وتفسيره ومنهجه.

والحجج البالغة، والعلم به أشرف العلوم وأعزُّها، وأجلُّها وأمزُّها، لأن شرف العلوم بشرف المعلوم.

ولما كان كلام الله تعالى أشرف المعلومات، كان العلم بتفسيره وأسباب تنزيله ومعانيه وتأويله، أشرف العلوم.

ومن شرف هذا العلم وعزَّته في نفسه أنه لا يجوز القول فيه بالعقل والتدبُّر، والرأي والتفكُّر، دون السماع والأخذ عمن شاهدوا التنزيل بالرواية والنقل.

والنبي ﷺ فَمَنْ بعده من الصحابة والتابعين قد شدَّدوا في هذا، حتى جعلوا المُصيب فيه برأيه مخطئاً.

.. عن جندب بن عبد الله البجليِّ رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قال في القرآن برأيه فأصاب، فقد أخطأ».

.. وعن ابن عباس رضي الله عنهما، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قال في القرآن بغير علم فليتبوَّأ مقعده من النار».

وكل علم سوى الكتاب والسنة وما يستند إليهما فهو باطل، ومَنْ تحلَّى من العلماء بغيرهما فهو عاطل عن الآيات الواضحة الباهرة، والسنن المأثورة الزاهرة، على هذا درج الأولون، والسلف الصالحون.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «إني قد خلَّفت فيكم شيئين، لن تضلوا أبداً ما أخذتم بهما، وعملتم بما فيهما: كتاب الله عزَّ وجلّ وسنتي، ولن يتفرَّقا حتى يردا عليَّ الحوض».

وقد سبق لي قبل هذا الكتاب ـ بتوفيق الله وحسن تيسيره ـ مجموعاتٌ ثلاث في هذا العلم: (معاني التفسير) و(مسند التفسير) و(مختصر التفسير).

وقديماً كنت أطالب بإملاء كتاب في تفسير القرآن (وسيط)، ينحطُّ عن درجة (البسيط) الذي تُجَرُّ فيه أذيال الأقوال، ويرتفع عن مرتبة (الوجيز) الذي اقتصر على الإقلال.

والأيام تدفع في صدر المطلوب بصروفها، على اختلاف صنوفها، وسآخذ نفسي ـ على فتورها، وقريحتي على قصورها، لما أرى من جفاء الزمان، وخمول العلم وأهله، وعلوٍّ أمر الجاهل على جهله ـ بتصنيف تفسير أعفيه من التطويل والإكثار، وأسلِّمُه من خلل الوجازة والاختصار، وآتي به على النمط الأوسط، والقصد الأقوم، حسنة بين السيئتين، ومنزلة بين المنزلتين، لا إقلال ولا إملال.

نِعْمَ المعين توفيق الله تعالى، لإتمام ما نويت، وتيسيره لإحكام ما له تصديت»[1].

وقد أكمل الإمام الواحدي تفسيره قبل وفاته بسبع سنوات.

قال في خاتمة تفسيره: «والحمد لله أولاً وآخراً، وصلواته على المبعوث بالقرآن الكريم، والذكر الحكيم، وتحياته وتسليمه عليه.

واتفق الفراغ منه منتصف رجب سنة إحدى وستين وأربعمئة.

اللهمَّ اقبل تقرُّبي إليك، وسهِّل لي الطريق إلى كل خير من خير الدنيا والآخرة، إنك سميع الدعاء، قدير على ماتشاء..»[2].

لقد أراد الواحديُّ أن يكون تفسيره (الوسيط) وسطاً فعلاً، فلا هو بالطويل ولا هو بالمختصر، وذلك ليكون حسنة بين السيئتين، ومنزلة بين المنزلتين، وقد وفى بما وعد في المقدمة، فجاء تفسيره وسطاً متوسطاً كما أراد.

إن من حسنات الإمام الواحدي أنه ألَّف ثلاثة تفاسير، لثلاثة أصناف من الناس.

فالتفسير البسيط المبسوط المطوَّل للقارئ صاحب النفس الطويل، الذي يصبر على القراءة والمطالعة، ولا يملُّ من ذلك، ويهبُ نفسه للعلم، ويوظِّف كل وقته له، وهؤلاء قليلون بين المسلمين، إن لم يكونوا نادرين.

---

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد: ١/ ٤٥ ـ ٥٠.
(٢) المصدر السابق: ٤/ ٥٧٦.

والتفسير الوسيط المتوسِّط لقطاعٍ كبير من الناس يحب القراءة والمطالعة، لكنه لا يصبر على التطويل.

والتفسير الوجيز المختصر للمتعجلين من الناس، الذين يريدون معرفة المعنى بإيجاز، ومن أقصر طريق، وبأخصر عبارة.

ومصادر الواحدي في تفسيره الوسيط هي: القرآن الكريم، والحديث الشريف، وأقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم في التفسير، وكتب أهل المعاني واللغة، وكتب القراءات.

وجمع الواحدي في الوسيط بين المأثور والرأي، والمنقول والمعقول، وكتب تفسيره على أساس المنهج الأثري النظري.

وحقق المحققون كتاب (الوسيط) تحقيقاً جيداً، وضبطوه ضبطاً متقناً، وخرَّجوا ما فيه من أحاديث مرفوعة للنبي ﷺ.

٤ ـ البغوي وتفسيره (معالم التنزيل):

البغويُّ هو: الإمام الحافظ الفقيه المفسِّر المحدِّث أبو محمد: الحسين بن مسعود بن محمد، المعروف بابن الفرَّاء، البغوي.

كان والده مسعود يصنع الفرو ويبيعه، ولهذا لُقِّبَ بالفراء، واشتهر ابنه بلقب: ابن الفراء.

والبغوي منسوب إلى البلدة التي وُلد فيها، وهي (بَغشور) أو (بَغْ) وتقع في منطقة (خراسان) بين مدينتي (هرات) و(مَرْوُ الروذ) وتقع مدينة هرات ضمن دولة أفغانستان حالياً.

لم تحدد المصادر سنة ولادة البغوي في (بغ) ولعله ولد في الثلاثينيات من القرن الخامس، أي بعد سنة ٤٣٣هـ.

والأرجح أنه توفي سنة ٥١٦هـ، بعد أن بلغ الثمانين من عمره.

نشأ البغوي نشأة علمية، وتلقى العلم على كبار علماء منطقته، وارتحل في طلب العلم، وارتقى فيه حتى صار من كبار العلماء.

وكان رضيَّ الخُلُق، سمحَ النفس، عذب الشمائل، صادق النيَّة، سليم الطويَّة، عالي الهمة، يُقبل على العلم بشغفٍ ونهم، لا يُشغله عنه شيء من مطالب الدنيا، يرضى بالقليل من الزاد، ويلبس ما تيسر من الثياب.

ومن زهده وقناعته وتقشُّفه أنه كان لا يأكل إلا الخبز وحده، ولما كبرت سنه ولامه أصحابه صار يأكل الخبز والزيت!.

كان في الفقه شافعيَّ المذهب، وكان في العقيدة على منهج السلف الصالح، وتبحَّر في مختلف ميادين العلم، وبرز في علومٍ ثلاثة حتى كان فيها إماماً، وهي: التفسير والحديث والفقه.

قال عنه الحافظ الذهبي: الإمامُ العلامة القدوة الحافظ، شيخ الإسلام، مُحيي السنة، صاحب التصانيف.

وقال عنه السبكي: كان بحراً في العلوم، وكان يُلقَّب بمحيي السنة، وبركن الدين، وقدره عال في الدين، وفي التفسير، وفي الحديث، وفي الفقه، فإنه جامع لعلوم القرآن والسنة والفقه.

وقال عنه الحافظ ابن كثير: برع في العلوم، وكان علاَّمة زمانه فيها، وكان ديِّناً ورعاً زاهداً عابداً صالحاً.

وحاز البغوي لقب (محيي السنة) لإمامته وفضله وعلمه.

وألَّف البغويُّ في التفسير والحديث والفقه.

ألَّف في الفقه الشافعي كتاب التهذيب، وكان مرجعاً لمن بعده كالإمام النووي، و(مجموعة الفتاوى) التي جمع فيها فتاوى شيخه أبي علي المروزي.

وله في الحديث كتابان شهيران:

الأول: (شرح السنَّة) وهو من أجلِّ كتب السنَّة التي وصلت إلينا، ترتيباً

وتنقيحاً وتوثيقاً وإحكاماً، وقد أولاه البغوي عناية بالغة، فأحسن انتقاء الأحاديث النبوية، ثم أحسن شرحها، واستخراج الأحكام منها.

وقد حقق الكتاب الشيخ شعيب الأرناؤوط، وأصدره المكتب الإسلامي.

الثاني: (مصابيح السنَّة) جمع فيه طائفة من الأحاديث النبوية من مختلف كتب السنة، وجاء الخطيب التبريزي ـ وليّ الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله ـ فأعاد ترتيبه، وسماه (مشكاة المصابيح) وقد طبع عدة طبعات، من أجودها الطبعة التي حققها الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، وأصدرها المكتب الإسلامي[1].

ومن أهم كتبه تفسيره (معالم التنزيل).

وقد عرَّف هو في مقدمته بتفسيره، كما عرَّف به وبمؤلفاته وشيوخه وتلاميذه وتفسيره، محققًا تفسيره، الشيخان: خالد العك ومروان سوار[2].

وأعدت عفاف عبد الغفور حميد دراسة عنه وعن تفسيره: (البغوي ومنهجه في التفسير)، وأصدرتها دار الفرقان في عمان سنة ١٤٠٢ ـ ١٩٨٢.

وبما أن الإمام البغوي ألف تفسيره على أساس المنهج الأثري النظري، فقد كان منهجه يقوم على قواعد ذلك المنهج العام.

كان يفسر القرآن بالقرآن، ويفسر القرآن بالسنة، ويفسره بأقوال الصحابة والتابعين وأتباعهم، ويفسره باللغة والنحو والبلاغة، ويستنبط منه الأحكام والدلالات المختلفة[3].

ومما قاله الإمام البغوي في مقدمة تفسيره: «أما بعد: فإن الله جلَّ ذكره أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، رحمةً للعالمين، وبشيراً للمؤمنين، ونذيراً

---

(١) انظر مقدمة المحققين لتفسير البغوي، ص١٩ ـ ٢١.
(٢) المصدر السابق، المقدمة، ص١٧ ـ ٢٥.
(٣) انظر (البغوي ومنهجه في التفسير) لعفاف حميد، ص٧٣ ـ ١٢٥.

للمخالفين، أكمل بـه ديوان النبوة، وختم بـه ديوان الرسـالة، وأتمَّ به مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال، وأنزل عليه بفضله نوراً، هدى به من الضلالة، وأنقذ به من الجهالة، حكم بالفلاح لمن تَبِعَه، وبالخسران لمن أعرض عنه بعدما سمعه، وأعجز الخليقة عن معارضته، وعن الإتيان بسورة من مثله في مقابلته، ثم سهَّل على الخلق مع إعجازه تلاوته، ويسَّر على الألسن قراءته، أمر فيه وزجر، وبشر وأنذر، وذكر المواعظ ليُتذكَّر، وقصَّ عن أحوال الماضين ليُعتبَر، وضرب فيه الأمثال ليُتدبَّر، ودلَّ على آيات التوحيد ليُتفكر! . .

ولا حصول لهذه المقاصد إلا بدراية تفسيره وإعلامه، ومعرفة أسباب نزوله وأحكامه، والوقوف على ناسخه ومنسوخه، ومعرفة خاصِّه وعامِّه.

ثم هـو كلامٌ معجزٌ، وبحـرٌ عميق، لا نهاية لأسـرار علومه، ولا إدراك لحقائق معانيه . .

وقد ألف أئمة السلف في أنواع علومه كتباً، كلٌّ على قدر فهمه، ومبلغ علمه، فشكر الله تعالى سعيهم، ورحم كافتهم.

فسألني جماعة من أصحابي المخلصين، وعلى اقتباس العلم مقبلين، كتاباً في (معالم التنزيل) وتفسيره! فأجبتهم إليه، معتمداً على فضل الله وتيسيره، ممتثلاً وصية رسول الله ﷺ فيهم، فيما يرويه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، أنه ﷺ قال: «إن رجالاً يأتونكم من أقطار الأرض يتفقَّهون في الدين، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً». واقتداءً بالماضين من السلف في تدوين العلم، إبقاءً على الخلق.

وليس على مافعلوه مزيد، ولكن لابدَّ في كل زمان من تجديد ما طال به العهد، وقصر المطالبين فيه الجد والجهد، تنبيهاً للمتوقفين، وتحريضاً للمتثبطين.

فجمعت بعون الله تعالى وحسن توفيقه فيما سألوا كتاباً، متوسطاً بين الطويل المُمل، والقصير المُخل، أرجو أن يكون مفيداً لمن أقبل على تحصيله مزيداً.

وما نقلت فيه من التفسير عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، حبر هذه

الأمة، ومَنْ بعده من التابعين وأئمة السلف، مثل: مجاهد، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، وقتادة، وأبي العالية، ومحمد بن كعب القرظي، وزيد بن أسلم، والكلبي، والضحاك، ومقاتل بن حيان، ومقاتل بن سليمان، والسدي، وغيرهم...»(١).

وأوردَ البغوي إسناده إلى كل واحد من هذه التفاسير الأربعة عشر، وكلها تفاسير عن الصحابة والتابعين وأتباع التابعين، ثم أورد إسناده إلى محمد بن إسحاق صاحب المغازي.

ثم قال: «فهذه أسانيد أكثر ما نقلته عن هؤلاء الأئمة، وهي مسموعةٌ من طرقٍ سواها، تركتُ ذكرها حذراً من الإطالة، وربما حكيت عنهم أو عن غيرهم من الصحابة أو التابعين قولاً سمعته بغير هذه الأسانيد..

وانتقل من الحديث على التفسير ومصادره من التفاسير السابقة وأسانيده إليها، إلى الحديث عن القراءات العشر، وأسانيده إلى أصحابها القرّاء العشرة، ومهّد لأسانيده إليهم بقوله: «ثم إن الناس كما أنهم مُتَعَبَّدون باتِّباع أحكام القرآن، وحفظ حدوده، فهم متعبدون بتلاوته وحفظ حروفه على سنن خط المصحف، أعني (الإمام) الذي اتفقت عليه الصحابة، وأن لا يُجاوزوا ـ فيما يوافق الخط ـ ما قرأ به القراء المعروفون، الذين خلفوا الصحابة والتابعين، واتفقت الأئمة على اختيارهم، وقد ذكرت في الكتاب قراءة من اشتهر منهم بالقراءات واختياراتهم».

ثم قال عن تفسيره القرآن بالحديث: «وما ذكرت من أحاديث رسول الله ﷺ في أثناء الكتاب على وفاق آيةٍ أو بيان حكم، فإن الكتاب يُطلب بيانه من السنة، وعليهما مدار الشرع وأمور الدين، فهي من الكتب المسموعة للحفاظ وأئمة الحديث، وأعرضت عن ذكر المناكير، وما لا يليق بحال التفسير، فأرجو أن يكون مباركاً على من أراده.. وبالله التوفيق..»(٢).

---

(١) معالم التنزيل، المقدمة: ١/ ٢٧ـ ٢٨.

(٢) المصدر السابق: ١/ ٣٠ـ ٣١.

ثم تحدث البغوي في المقدمة عن فضائل القرآن، وفضل تعليمه، وفضل تلاوته، وتحدث عن وعيد من قال في القرآن برأيه من غير علم.

وتحدث في آخر المقدمة عن معنى التفسير والتأويل، فقال: «قد جاء الوعيد في حق من قال في القرآن برأيه، وذلك فيمن قال من قِبَلِ نفسه شيئاً من غير علم.

والتأويل هو: صرف الآية إلى معنى محتمل، يوافق ما قبلها وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسنة، من طريق الاستنباط، وقد رُخِّص فيه لأهل العلم.

والتفسير هو: الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها، ولا يجوز إلا بالسماع، بعد ثبوته من طريق النقل.

وأصل التفسير من التفسرة، وهي الدليل، من الماء الذي ينظر فيه الطبيب، فيكشف عن علّة المريض، كذلك المفسر يكشف عن شأن الآية وقصتها.

واشتقاق التأويل من الأوْل، وهو الرجوع، يقال: أوَّلْتُهُ فأُوِّل. أي: صرفته فانصرف.

وهو يرى أن للقرآن ظهراً وبطناً، وحدّاً ومَطْلَعاً، وهذا يتعلّق بتفسير القرآن وتأويله، «قيل: معنى الظهر والبطن: التلاوة والتفهُّم، أي: ظاهر الآية هو أن تقرأها كما أُنزلت، لقوله تعالى: ﴿وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ٤].

وباطن الآية هو أن تقرأها كما أُنزلت، لقوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة صٓ: ٢٩].

والتلاوة تكون بالتعلُّم، والحفظ بالدرس، والتفهُّم يكون بصدق النية، وتعظيم الحرمة، وطيب الطعمة.

والحدُّ في القرآن هو الذي لا يُجاوَز: ففي التلاوة لا يُجاوَزُ المصحف، وفي التفسير لا يُجاوز المسموع.

والمطلع في القرآن هو: المصعد الذي يُصعد إليه من معرفة علمه، ويقال: المطلع هو الفهم، وقد يفتح الله على المتدبر والمتفكر في التأويل والمعاني ما لا يفتح على غيره، وفوق كل ذي علم عليم. وما توفيقي إلا بالله العزيز الحكيم»[١].

هذه هي الأفكار التي أثارها الإمام البغوي في مقدمة تفسيره، وهذه هي المصادر التفسيرية في التفسير والحديث والقراءات، وهذه هي نظرته إلى التفسير والتأويل، والمنقول والمعقول، والأثر والنظر.. وعلى هذا المنهج ألَّف تفسيره فجمع فيه بين التفسير والتأويل، والمأثور والرأي، وجاء التفسير على أساس (المنهج الأثري النظري) الذي نتحدث عنه.

وقد قارن الإمام ابن تيمية بين تفاسير المفسرين الثلاثة: الثعلبي والواحدي والبغوي، وصرَّح بأن تفسير البغوي أفضلها، قال: «والثعلبي هو في نفسه كان فيه خيرٌ ودين، ولكنه كان حاطبَ ليل، ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيحٍ وضعيفٍ وموضوع.

والواحدي صاحبه كان أبصر منه بالعربية، لكن هو (الثعلبي) أبعدُ عن السلامة واتباع السلف.

والبغوي تفسيره مختصر من الثعلبي، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة..»[٢].

وقد طُبع تفسير البغوي عدَّة طبعات، حيث طبع على هامش تفسير ابن كثير، وطبع على هامش تفسير الخازن.

وطبع أخيراً في دار المعرفة ببيروت، بتحقيق خالد العك ومروان سوار، وصدرت طبعته الأولى سنة ١٤٠٣ـ١٩٨٣.

---

(١) مقدمة تفسير البغوي: ١/ ٣٥ـ٣٦.
(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ص٧٦.

٥ ـ ابن عطية الأندلسي وتفسيره (المحرر الوجيز):

هو الإمام الحافظ القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن، ابن عطية الأندلسي المحاربي.

وُلد سنة ٤٨١هـ، وتوفي في (ورقة) في رمضان سنة ٥٤١هـ، عن ستين سنة.

نشأ عبد الحق نشأة علمية، وتلقى العلم عن أبيه الحافظ (غالب) الذي كان عالماً بالحديث وغيره.

وهو من كبار علماء الأندلس، في التفسير والحديث والفقه واللغة والأدب.

كان أبو محمد بن عطية غاية في الفهم والذكاء والفطنة، وعلى مبلغ عظيم من العلم، فقيهاً جليلاً، عارفاً بالأحكام، عالماً بالتفسير والحديث، نحوياً لغوياً، أديباً شاعراً، مفيداً ضابطاً، سَنِيّاً فاضلاً.

وصفه أبو حيان في مقدمة تفسيره (البحر المحيط) بأنه أجلُّ مَنْ أَلَّفَ في علم التفسير، وأفضل من تَعرَّضَ فيه للتنقيح والتحرير.

ووصفه صاحب (قلائد العقبان) بالبراعة في الأدب والنظم والنثر، وذكر نُتَفاً من نثره وشعره.

وعدَّه صاحب (الديباج المذهب في أعيان المذهب): من أعيان مذهب المالكية.

وعدَّه السيوطي في (بغية الوعاة): من شيوخ النحو وأساطين النحاة[1].

أَلَّفَ الإمام ابن عطية تفسيره (المُحَرَّرُ الوجيز في تفسير الكتاب العزيز) على أساس المنهج الأثري النظري، وجمع فيه بين المنقول والمعقول، والأثر والنظر،

---

(١) انظر التفسير والمفسرون للذهبي: ١/٢٣٨ ـ ٢٣٩؛ ومقدمة محقق تفسير ابن عطية: ١/أ ـ جـ.

واحتل مركزاً مرموقاً بين كتب التفسير، وصار مرجعاً لمن جاء بعده.

ولنقرأ هذه القطعة من مقدمة ابن عطية لتفسيره، فهو خير من يعرفنا على منهجه في التفسير، وهدفه منه، ونظرته إلى القرآن:

قال: «وبعد، أرشدني الله وإياك: فإني لما رأيتُ العلوم فنوناً، وحديث المعارف شجوناً، وسلكت فيها فإذا هي أودية، وفي كل منها للسلف مقاماتٌ حسانٌ وأندية، رأيت أن الوجه لمَّا تشزَّنَ [انتصب وتوجَّه] للتحصيل، وعزم على الوصول، أن يأخذ من كل علم طرفاً خياراً، ولن يذوق النوم مع ذلك إلا غراراً [ينام قليلاً]، ولن يرتقي هذا النجدَ [المرتفع]، ويبلغ هذا المجد، حتى يَنفي مطايا الاجتهاد [يتعب نفسه في الاجتهاد]، ويصل التأويب بالإسئادِ [التأويب سير النهار، والإسئادُ سير الليل]، ويُطعَم الصَّبِرَ [المر]، ويكتحل بالسهاد [السهر].

فجريت في هذا المضمار صدر العمر طلْقاً [سريعاً]، وأدْمَنتُ حتى تَفَسَّخْتُ أَيْناً [ضعفت تعباً] وتصببت عرقاً، إلى أن انتهج بفضل الله عملي، وحُزت من ذلك ما قُسم لي.

ثم رأيت أن من الواجب على من احتبى، وتخير من العلوم واجتبى، أن يعتمد على علم من علوم الشرع، يستنفد فيه غاية الوُسْع، يجوب آفاقه، ويتتبع أعماقه، ويضبط أصوله، ويُحكم فصوله، ويلخص ما هو منه، أو يؤول إليه، ويعنى بدفع الاعتراضات عليه، حتى يكون لأهل ذلك العلم كالحصن المشيد، والذخر العتيد، يستندون فيه إلى أقواله، ويحتذون على مثاله.

فلما أردت أن أختار لنفسي، وأنظر في علم أُعِدُّ أنواره لظلم رمسي، سبرْتُها بالتنويع والتقسيم، وعلمت أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم، فوجدت أمتنها حبالاً، وأرسخها جبالاً، وأجملها آثاراً، وأسطعها أنواراً، علم كتاب الله ـ جلَّت قدرته، وتقدَّست أسماؤه ـ الكتابُ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد، الذي استقلَّ بالسنَّة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض.

وهو العلم الذي جُعل للشرعِ قِواماً، واستعمل سائر المعارف خُدَّاماً، منه تأخذ مبادئها، وبه تعتبر نواشئها، فما وافقه منها نصع، وما خالفه رُفض ودُفع، فهو عنصرها النمير، وسراجها الوهاج، وقمرها المنير.

وأيقنت أنه أعظم العلوم تقريباً إلى الله تعالى، وتخليصاً للنيَّات، ونهياً عن الباطل، وحضّاً على الصالحات، إذ هو ليس من علوم الدنيا، فَيَخْتِل حامله من منازلها صيداً، ويمشي في التلطُّف لها رويداً.

ورجوت الله أن يُحرِّم على النار فكراً، عَمَرْتُه أكثر عُمْره معانيه، ولساناً مَرِنَ على آياته ومثانيه، ونفساً ميَّزت براعة رصفه ومبانيه، وجالت سوقها في ميادينه ومغانيـه، فثنيتُ إليه عنان النظر، وأقطعته جانب الفكر، وجعلته فائدة العمر، وما وَنَيْتُ ـ علِم الله ـ إلا عن ضرورة، بحسب ما يُلِمُّ في هذه الدار من شغوب، ويمسُّ من لُغوب، أو بحسب تعهد نصيب من سائر المعارف.

فلما سلكت سبله بفضل الله ذُلُلاً، وبلغت من اطراد الفهم فيه أملاً، رأيت أن نُكَتَه وفوائده تغلب قوة الحفظ وتفدح، وتسنح لمن يروم تقييدها في فكره وتبرح، وأنها قد أخذت بحظها من الثقل، فهي تتفصى من الصدر تفصي الإبل من العُقُل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِى عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥].

قال المفسرون: القول الثقيل هو علم معانيه، والعمل بها.

ففزعت إلى تعليق مـا يتخيل لي في المنـاظرة، من علم التفسير وترتيب المعاني، وقصدت فيه أن يكون «جامعاً وجيزاً محرراً». .

لا أذكر من القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به، وأثبتُّ أقوال العلماء في المعاني، منسوبةً إليهم، على ما تلقى السلف الصالح ـ رضوان الله عليهم ـ كتاب الله، من مقاصده العربية، السـليمة من إلحاد أهل القول بالرموز، وأهل القول بعلم الباطن، وغيرهم، فمتى وقع لأحدٍ من العلماء الذين قد حازوا حسن الظن بهم لفظ ينحو إلى شيء من أغراض الملحدين نبّهتُ عليه.

وسردت التفسير في هذا التعليق بحسب رتبة ألفاظ الآية من: حكم، أو نحو،

أو لغة، أو معنى، أو قراءة. . وقصدت تتبُّع الألفاظ، حتى لا يقع طفرٌ، كما في كثير من كتب المفسرين.

ورأيت أن تصنيف التفسير كما صنع (المهدويُّ) ـ رحمه الله ـ مُفرِّقٌ للنظر، مُشعِّب للفكر.

وقصدت إيراد جميع القراءات، مستعمَلَها وشاذَّها.

واعتمدت تبيين المعاني، وجميع محتملات الألفاظ.

كل ذلك بحسب جهدي، وما انتهى إليه علمي، وعلى غاية من الإيجاز، وحذف فضول القول.

وأنا أسأل الله جلَّت قدرته أن يجعل ذلك كله لوجهه، وأن يبارك فيه، وينفع به.

وأنا ـ وإن كنت من المقصرين ـ فقد ذكرت في هذا الكتاب كثيراً من علم التفسير، وحملت خواطري فيه على التعب الخطير، وعَمَرْت فيه زمني، واستفرغت فيه مُنَنِي [قوتي] إذ كتاب الله تعالى لا يتفسَّر إلا بتصريف جميع العلوم فيه. وجعلته ثمرة وجودي، ونخبة مجهودي، فليُسْتَصْوَب للمرء اجتهاده، وليُعذر في تقصيره وخطئه، وحسبنا الله ونعم الوكيل»[(١)].

ثم تحدث ابن عطية في مقدمة تفسيره عن فضل القرآن في أحاديث رسول الله ﷺ، وأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وعن فضل تفسير القرآن والكلام على لغته، والنظر في إعرابه ودقائق معانيه، والكلام في تفسير القرآن والجرأة عليه، ومراتب المفسرين ومعنى إنزال القرآن على سبعة أحرف، والكلام عن جمع القرآن وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره، ونبذةٍ من ما قاله العلماء في إعجاز القرآن، ومعنى: القرآن والكتاب والسورة والآية[(٢)].

---

(١) المحرر الوجيز: ١/ ١ ـ ٥.
(٢) المصدر السابق: ١/ ٦ ـ ٤٧.

لقد جاء تفسير ابن عطية كما أراده صاحبه: محرَّراً وجيزاً، جامعاً بين التفسير والتأويل وبين الأثر والنظر، ذكر فيه الكثير من الأحاديث المرفوعة وأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم، وأورد فيه القراءات وتوجيهها، وقدم فيه تحليلات لغوية ونحوية وبيانية، وله فيه اختياراتٌ تدلُّ على شخصيته القوية، وعلى قدرته على المناقشة والتوجيه، وعلى الترجيح والاختيار، وعلى الاستنباط والاستدلال.

وتفسير ابن عطية من أفضل وأجود التفاسير الأثرية النظرية.

قال عنه ابن خلدون: «إن مؤلفه لخصه من كتب التفاسير كلها، وتحرّى ما هو أقرب منها إلى الصحة»[1].

وقال عنه الإمام ابن تيمية: «وتفسير ابن عطية وأمثاله، أتبعُ للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري.

ولو ذكر ابن عطية كلام السلف الموجود في التفاسير المأثورة عنهم، على وجهه، لكان أحسن وأجمل، فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبري - وهو من أجلِّ التفاسير المأثورة، وأعظمها قدراً -»[2].

وكان تفسير ابن عطية المرجع الأساسي لتفسير الإمام القرطبي.

وذهب الدكتور عدنان زرزور إلى أنه (أصل) تفسير القرطبي: «وتفسيره (المحرَّر الوجيز في تفسير كتاب الله العزيز) أصدق شاهد له على إمامته في العربية وغيرها.. وقد قامت حوله بعض الدراسات والأبحاث، وهو عندنا (أصل) تفسير القرطبي - كما تبيَّن لنا من بعض المقارنات الطويلة، ولم يزد ابن خلدون على القول بأن تفسير ابن عطية اشتهر عندهم في المغرب، في حين اشتهر تفسير القرطبي في المشرق!!»[3].

---

(١) المحرر الوجيز: ١/ ب.
(٢) مقدمة في أصول التفسير، ص٩٠.
(٣) المصدر السابق، ص٩١ حاشية.

وقد اعتمد القرطبي على تفسير ابن عطية في تفسيره اعتماداً كبيراً، وأخذ منه كثيراً، وأضاف عليه كثيراً من الأقوال والمسائل.

وتحدث أبو حيان في تفسيره (البحر المحيط) عن الزمخشري وابن عطية، وأثنى عليهما كثيراً، وأجرى مقارنة بينهما، من ذلك قوله: «وهذا أبو القاسم محمود بن عمر المشرقي الخوارزمي الزمخشري، وأبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي، أجلُّ من صنَّف في علم التفسير، وأفضل من تعرَّض للتنقيح فيه والتحرير...».

وقال عنهما: «.. إذ هذان الرجلان هما فارسا علم التفسير، وممارسا تحريره والتحبير، نشراه نشراً، وطار لهما به ذكراً، وكانا متعاصرين في الحياة، متقاربين في الممات..».

وقال: «وكتابُ ابن عطية أنقلُ وأجمعُ وأخلصُ، وكتاب الزمخشري ألخصُ وأغوص..»[1].

وقد طبع تفسير (المحرر الوجيز) لابن عطية في المغرب، بتحقيق مجموعة من علماء المغرب، حيث صدر الجزء الأول سنة ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م، وصدر الجزء السادس عشر - الأخير - سنة ١٤١١هـ-١٩٩١م.

كما طُبع في قطر، وفي دار الكتب العلمية في بيروت.

وصدرت في مصر دراسةٌ عن (منهج ابن عطية في التفسير)، للدكتور عبد الوهاب فايد سنة ١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.

٦ - ابن الجوزي وتفسيره (زاد المسير):

هو جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، التيمي، البكري، البغدادي، الفقيه الحنبلي، الحافظ المفسِّر الواعظ المؤرِّخ الأديب، المعروف بابن الجوزي.

---

(١) مقدمة تفسير البحر المحيط لأبي حيان: ١/ ٢٠-٢١.

وُلد في بغداد، واختُلِف في سنة مولده، فقيل: ولد سنة ٥٠٨هـ، وقيل: سنة ٥١٠هـ، وقيل: سنة ٥١١هـ.

توفي والده وعمره ثلاث سنين، وكفلته عمته، وكانت صالحة عابدة، فأرسلت به إلى المسجد للعلم، فنشأ نشأة علمية، وتتلمذ على كبار العلماء، وتمكَّن من مختلف العلوم الشرعية، كالتفسير والفقه والتاريخ والعقيدة وغير ذلك.

وتحمل المشقات والشدائد والمحن في طلب العلم، قال عن بعضها: «ولقد كنتُ في مرحلة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو أحلى عندي من العسل، لأجل ما أطلب وأرجو.

كنتُ في زمن الصبا آخذ معي أرغفة يابسة، فأخرج في طلب الحديث، واقعد على نهر عيسى [في بغداد] فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلَّما أكلت لقمة شربت عليها شربة، وعين همَّتي لا ترى إلا لذَّة تحصيل العلم».

وكان يحب العزلة تقديراً لقيمة الوقت، قال: «فليس في الدنيا أطيب عيشاً من منفردٍ عن العالم بالعلم، فهو أنيسه وجليسُه، قد قنع بما سلم به دينه من المباحات الحاصلة، لا عن تكلُّف ولا تضييع دين، وارتدى بالعز عن الذل للدنيا وأهلها، والتحف بالقناعة باليسير، إذا لم يقدر على الكثير، بهذا الاستعفاف يسلم دينه ودنياه، واشتغاله بالعلم يدلُّه على الفضائل، فهو يسلم من الشيطان والسلطان والعوام بالعزلة، ولكن لا يصلح هذا إلا للعالم..».

قال عنه ابن كثير: «وكان ـ وهو صبي ـ ديِّناً مُنجمعاً على نفسه، لا يخالط أحداً، ولا يأكل ما فيه شبهة، ولا يخرج من بيته إلا للجمعة..».

وقال عنه الذهبي: «كان مُبَرِّزاً في التفسير والوعظ والتاريخ، ومتوسطاً في المذهب...».

وقال عنه ابنُ العماد: «كان يراعي حفظ صحته، وتلطيف مزاجه، وما يفيد عقله قوة، وذهنه حدَّة، لباسه الناعم الأبيض المطيَّب، وله مداعباتٌ حلوة، وما تناول مالاً من جهة لا يتيقَّن حلَّها، وما ذلَّ لأحد.

قال لابنه يخاطبه: وما ذلَّ أبوك في طلب العلم، ولا خرج يطوف في البلدان كغيره من الوعَّاظ، ولا بعث رقعةً إلى أحدٍ يطلب منه شيئاً».

وكان واعظاً مؤثِّراً، ومتحدِّثاً بليغاً، وشجاعاً في قول الحق، والنهي عن المنكر، وأوذي بسبب هذا وامتحن، وسجن حوالي خمس سنوات.

وعاش قرابة تسعين عاماً، حيث كانت وفاته في بغداد، ليلة الجمعة، في الثاني عشر من رمضان سنة ٥٩٧هـ(١).

وترك ابنُ الجوزي عدداً كبيراً من المؤلفات زادت على ثلاثمئة وخمسين كتاباً ورسالة، في مختلف العلوم الإسلامية.

وكتبه في التفسير وعلوم القرآن زادت على خمسة وعشرين كتاباً، من أشهرها كتاب (نواسخ القرآن) و(فنون الأفنان في علوم القرآن) و(نزهة الأعين النواظر في الوجوه والنظائر).

وكتب في التفسير ثلاثة كتب، قال في مقدمة كتابه (نواسخ القرآن) عنها: «إنَّ نفع العلم بدرايته لا بوراثته، وبمعرفة أغواره لا بروايته، وأصلُ الفساد الداخل على عموم العلماء تقليدُ سابقيهم، وتسليمُ الأمر إلى معظميهم، من غير بحث عمَّا صنَّفوه، ولا طلبٍ للدليل عمَّا ألَّفوه.

وإني رأيتُ كثيراً من المتقدمين على كتاب الله عز وجل بآرائهم الفاسدة، قد دسّوا في تصانيفهم للتفسير أحاديث باطلة، وتبعهم على ذلك مقلِّدوهم، فشاع ذلك وانتشر، فرأيتُ العناية بتهذيب علم التفسير عن الأغاليط من اللازم.

وقد ألَّفت كتاباً كبيراً سمَّيته (المغني في التفسير) يكفي عن جنسه، وألَّفت كتاباً متوسط الحجم مقنعاً في ذلك العلم، سمَّيته (زاد المسير)، وجمعت كتاباً دونه سمَّيته (تيسير التبيان في علم القرآن)، اخترت فيه الأصوب من الأقوال

---

(١) انظر مقدمة تفسير زاد المسير: ١/ ٢١ ـ ٣٠؛ ومقدمة محقق كتابه (نواسخ القرآن)، ص٣٥ـ٤٨.

ليصلح للحفظ، واختصرته بكتاب (تذكرة الأريب في تفسير الغريب)، وأرجو أن تُغني هذه المجموعات عن كتب التفسير، مع كونها مهذبةً عن خللها، سليمة من زللها..»[1].

وفِعْلُ ابن الجوزي في التفسير يذكِّرنا بفعل الواحدي الذي ألف ثلاثة تفاسير: البسيط، والوسيط، والوجيز، كما ذكرنا من قبل.

ويبدو أن تفسيري ابن الجوزي (المغني) و(تيسير التبيان) مفقودان، حيث لم يُطبع إلا تفسيره (زاد المسير)، الذي نحن بصدد الحديث عنه.

ألَّف الإمامُ ابن الجوزي تفسيره على قواعد المنهج الأثري النظري في التفسير، وجمع فيه بين المأثور والرأي، وبين المنقول والمعقول.

ومما جاء في مقدمة ابن الجوزي لتفسيره قوله: «لما كان القرآن العزيز أشرف العلوم، كان الفهم لمعانيه أوفى الفهوم، لأن شرف العلم بشرف المعلوم، وإني نظرت في جملة من كتب التفسير، فوجدتها بين كبير قد يئس الحافظ منه، وصغير لا يُستفاد كلُّ المقصود منه، والمتوسط منها قليل الفوائد، عديم الترتيب، وربما أُهمل فيه المشكل، وشُرح غير الغريب، فأتيتُك بهذا المختصر اليسير، منطوياً على العلم الغزير، ووسمْتُه باسم (زاد المسير في علم التفسير) وقد بالغت في اختصار لفظه، فاجتهد وفَّقك الله في حفظه، والله المعين على تحقيقه، فما زال جائداً بتوفيقه».

وبعد ذلك أشار في المقدمة إلى: فضل علم التفسير، والفرق بين التفسير والتأويل، ومدة نزول القرآن، وأول ما نزل من القرآن، وآخر ما نزل منه.

ثم قال بعد ذلك: «لما رأيت جمهور كتب المفسرين لا يكاد الكتاب منها يفي بالمقصود كشفُه، حتى يُنظر للآية الواحدة في كتب، فربَّ تفسير أُخلَّ فيه بعلم الناسخ والمنسوخ أو ببعضه، فإن وُجد فيه، لم توجد أسباب النزول أو أكثرها،

---

(١) نواسخ القرآن لابن الجوزي، ص٧٤.

وإن وُجدت، لم يوجد بيان المكي من المدني، وإن وجد ذلك، لم توجد الإشارة إلى حكم الآية، فإن وجد لم يوجد جواب إشكال يقع في الآية، إلى غير ذلك من الفنون المطلوبة.

فقد أَدرجتُ في هذا الكتاب من هذه الفنون المذكورة مما لا يستغني عنه التفسير، وأرجو وقوع الغناء بهذا الكتاب عن أكثر ما يجانسه!.

وقد حذرت من إعادة تفسير كلمة متقدمة إلا على وجه الإشارة، ولم أغادر من الأقوال التي أُحطتُ بها إلا ما تبعد صحته، مع الاختصار البالغ، فإذا رأيت في الآيات ما لم يذكر تفسيرها، فهو لا يخلو من أمرين: إما أن يكون تفسيرُها قد سبق، وإما أن يكون معناها ظاهراً لا يحتاج إلى تفسير!.

وقد انتقى كتابنا هذا أنقى التفاسير، فأخذ منها الأصح والأحسن والأصون، ونظَمَه في غاية الاختصار»[(١)].

وقال الإمام ابن الجوزي في خاتمة تفسيره: «هذا آخر (زاد المسير) والحمد لله على الإنعام الغزير، وإذ قد بلغنا ـ بحمد الله ـ مُرادنا مما أمَّلنا، فلا يعتقدنَّ مَنْ رأى اختصارنا أنا قلَّلنا، فإنا قد أشرنا بما ذكرنا إلى ما تركنا، فليكن الناظر في كتابنا متيقظاً لما أغفلنا، فإنا ضمنا الاختصار مع نيل المراد، وقد فعلنا.

ومن أراد زيادة بسطٍ في التفسير، فعليه بكتابنا (المغني) في التفسير، فإن أراد مختصراً فعليه بكتابنا (تذكرة الأريب في تفسير الغريب) والحمد لله رب العالمين»[(٢)].

وقد أعدَّ الدكتور عبد الرحيم الطحان دراسة عن ابن الجوزي وتفسيره بعنوان: (ابن الجوزي ومنهجه في التفسير).

وطُبع تفسير ابن الجوزي (زاد المسير) في المكتب الإسلامي، وأشرف

---

(١) زاد المسير في علم التفسير: ١/ ١ ـ ٧.
(٢) المصدر السابق: ٩/ ٢٨٠.

على ضبطه وتدقيقه كلٌّ من: زهير الشاويش، وشعيب الأرناؤوط، وعبد القادر الأرناؤوط، وظهرت طبعته الأولى سنة ١٣٨٨ ـ ١٩٦٨.

٧ ـ القرطبي وتفسيره (الجامع لأحكام القرآن):

هو الإمام المفسر: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح، الأنصاري الخزرجي القرطبي الأندلسي.

منسوب إلى (الخزرج) القبيلة الأنصارية في المدينة، ومنسوب إلى الأنصار الذين نصروا رسول الله ﷺ عندما هاجر إلى المدينة.

وُلِدَ القرطبي بقرطبة في مطلع القرن السابع، ولم تحدد المصادر سنة مولده فيها، وقضى فيها طفولته وصباه ومطلع شبابه، واستُشهد والده (أحمد بن أبي بكر) في قرطبة لما أغار النصارى عليها في شهر رمضان سنة ٦٢٧هـ، وكان القرطبي شاباً يطلب العلم، ويتردد على العلماء، وذكر في تفسيره خبر استشهاد والده، وكيف استفتى العلماء في ذلك، ثم غسَّله ودفنه[(١)].

وبقي القرطبي في قرطبة إلى حين سقوطها بيد النصارى الإسبان في الثالث والعشرين من شوال سنة ٦٣٣هـ[(٢)].

غادر القرطبي قرطبة بعد سقوطها، وهو في شبابه، وتوجَّه إلى مصر، كما توجَّه إليها مجموعة من علماء الأندلس بعد سقوط قرطبة، مثل: الطُّرطوشي، والشاطبي، وابن مالك.

أقام القرطبي في الإسكندرية فترة من الزمن، وسمع فيها من أبي العباس القرطبي شارح صحيح مسلم، وتنقَّل في عدة مدن مصرية مثل: الفيوم، والمنصورة، والقاهرة.

ثم توجَّه أخيراً إلى مدينة (مِنْيَةِ ابن الخصيب) في صعيد مصر، وهي مدينة

---

(١) انظر تفسير القرطبي: ٤/ ٢٧٢؛ و(الإمام القرطبي)، لمشهور حسن، ص١٥.
(٢) الإمام القرطبي، لمشهور حسن، ص١٥.

(المنيا) المعروفة في الصعيد حالياً، التي تقع شمال أسيوط، على شاطئ نهر النيل.

وبقي مقيماً في مدينة (المنيا) قرابة أربعين سنة، إلى أن توفَّاه الله بها، وكانت وفاته ليلة الإثنين، في التاسع من شوال، سنة ٦٧١هـ[١].

كان الإمام القرطبي عابداً زاهداً، وورعاً صالحاً، ومتواضعاً خاشعاً.

قال عنه ابن فرحون: كان من عباد الله الصالحين، والعلماء العارفين الورعين، الزاهدين في الدنيا، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة، أوقاته معمورة ما بين توجُّهٍ وعبادة وتصنيف»[٢].

وكان شجاعاً جريئاً في الحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، لا يذلُّ لأحد.

ومن الدليل على بساطته وتواضعه أنه: «كان طارح التكلُّف، يمشي بثوب واحد، وعلى رأسه طاقية»[٣].

وألَّف الإمام القرطبي مجموعة من الكتب، من أشهرها تفسيره، ومن كتبه المطبوعة: التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، والتذكار في أفضل الأذكار، وقمع الحرص بالزهد والقناعة، ورد ذلِّ السؤال بالكسب والصناعة، والإعلامُ بما في دين النصارى من المفاسد والأوهام.

ألَّف الإمام القرطبي تفسيره في (منية الخصيب) ـ المنيا ـ وأسماه: (الجامع لأحكام القرآن، والمبيِّن لما تضمَّن من السنة وآي الفرقان».

وعنوان الكتاب يدل على مضمونه، ونظرة صاحبه له، وهدفه منه، فقد أراد القرطبي أن يكون تفسيره جامعاً لأحكام القرآن الفقهية والتشريعية، فظهرت فيه سمات ومزايا التفاسير الفقهية، ولهذا عدَّه كثيرٌ من الدارسين ضمن التفاسير

---

(١) الإمام القرطبي، لمشهور حسن، ص٣٧ـ٤٥.
(٢) المصدر السابق، ص٤٧.
(٣) المصدر السابق، ص٥٣.

الفقهيـة، ومنهم الدكتور محمد حسين الذهبي، الذي جعله (رابع) التفاسـير الفقهية التي تحدَّث عنها في الفصل السابع من كتابه (التفسير والمفسِّرون)[1].

ولكن تفسيره ليس خاصاً بالأحكام الفقهية ـ على توفُّرها وافيةً فيه ـ وإنما فيه مباحث لغوية وتفسيرية وأثرية غزيرة، ففيه كثير من الأقوال المأثورة المتمثلة في الأحاديث النبوية وأقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم، وفيه كثيرٌ من مباحث القراءات وتوجيهها، والمسـائل اللغوية، والشـواهد الشعرية، وترجيحاتـه واستنباطاته واستدلالاته.

لقد ألَّف الإمام القرطبي تفسيره على منهج (التفسير الأثري النظري) فجاء مُمَثِّلاً لهذا المنهج!.

قال الإمام القرطبي في مقدمة تفسيره: «الحمد لله، المبتدئ بحمد نفسه قبل أن يحمده حامد، وأشهد أن لا إلـه إلا الله، وحده لا شريك له، الربُّ الصمد الواحد، الحيُّ القيوم الذي لا يموت، ذو الجلال والإكرام، والمواهب العظام، والمتكلِّم بالقرآن، والخالق للإنسان، والمنعم عليه بالإيمان، والمرسِلُ رسوله بالبيان، محمداً ﷺ، ما اختلف المَلَوان [الليل والنهار]، وتعاقب الجديدان [الشمس والقمر].

أرسله بكتابه المبين، الفارق بين الشك واليقين، الذي أعجزت الفصحاءَ معارضته، وأعيت الألباء مناقضته، وأخرست البلغاء مشاكلته، فلا يأتون بمثله، ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.

جعل أمثاله عبراً لمن تدبَّرها، وأوامره هدى لمن استبصرها، وشرح فيه واجبات الأحكام، وفرَّق فيه بين الحلال والحرام، وكرَّر فيه المواعظ والقصص للأفهام، وضرب فيه الأمثال، وقص فيه غيب الأخبار، فقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] خاطبَ به أولياءه ففهموا، وبيَّن لهم فيه مراده فعلموا.

---

(١) انظر (التفسير والمفسرون) للذهبي: ٢/ ٤٥٧ ـ ٤٦٤.

فقرّاءُ القرآن حملةُ سرِّ الله المصون، وحفظة علمه المخزون، خلفاء أنبيائه وأمناؤه، وهم أهله وخاصته وخيرته وأصفياؤه، قال رسول الله ﷺ: «إن لله من الناس أهلين، قالوا: يا رسول الله: من هم؟ قال: هم أهلُ القرآن، أهل الله وخاصته». أخرجه ابن ماجه في سننه، وأبو بكر البزار في مسنده.

فما أحقَّ مَنْ عَلِمَ كتاب الله أن يزدجر بنواهيه، ويتذكر ما شُرح له فيه، ويخشى الله ويتقيه، ويراقبه ويستحييه، فإنه قد حمل أعباء الرسل، وصار شهيداً في القيامة على من خالف من أهل الملل، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ألا وإن الحجة على مَنْ علمه فأغفله، أوكدُ منها على مَنْ قصَّر عنه وجهله، ومن أُوتي علم القرآن فلم ينتفع، وزجرته نواهيه فلم يرتدع، وارتكب من المآثم قبيحاً، ومن الجرائم فضوحاً، كان القرآن حجةً عليه، وخصماً لديه، قال رسول الله ﷺ: «والقرآن حجةٌ لك أو عليك» رواه مسلم.

فالواجب على من خصَّه الله بحفظ كتابه أن يتلوه حقَّ تلاوته، ويتدبَّر حقائق عجائبه، ويتبيَّن غرائبه، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة صَ: ٢٩]. وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

جعلنا الله ممن يرعاه حق رعايته، ويتدبره حقَّ تدبُّره، ويقوم بقسطه، ويوفي بشرطه، ولا يلتمس الهدى في غيره، وهدانا لأعلامه الظاهرة، وأحكامه القاطعة الباهرة، وجمع لنا به خير الدنيا والآخرة، فإنه أهل التقوى، وأهل المغفرة.

ثم جعل إلى رسوله ﷺ بيان ما كان منه مجملاً، وتفسير ما كان منه مشكلاً، وتحقيق ما كان منه محتملاً، ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به، ومنزلة التفويض إليه، قال الله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

ثم جعل إلى العلماء بعد رسول الله ﷺ استنباط ما نبَّه على معانيه، وأشار إلى أصوله، ليتوصلوا بالاجتهاد فيه إلى علم المراد، فيمتازوا بذلك عن غيرهم، ويختصوا بثواب اجتهادهم، قال الله تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١].

فصار الكتاب أصلاً، والسنَّة له بياناً، واستنباط العلماء إيضاحاً وتبياناً.

فالحمدُ لله الذي جعل صدورنا أوعية كتابه، وآذاننا موارد سنن نبيه، وهممنا مصروفة إلى تعلُّمِهما، والبحث عن معانيهما وغرائبهما، طالبين بذلك رضاء ربِّ العالمين، ومتدرجين به إلى علم الملَّة والدين.

وبعد: فلمَّا كان كتابُ الله هو الكفيل بجميع علوم الشرع، الذي استقلَّ بالسنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، رأيتُ أن أشتغل به مدى عمري، وأستفرغ فيه مُنَّتي، بأن أكتب فيه تعليقاً وجيزاً، يتضمن نكتاً من التفسير واللغات، والإعراب والقراءات، والردِّ على أهل الزيغ والضلالات، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات، جامعاً بين معانيهما، ومبيناً ما أشكل منهما، بأقاويل السلف، ومن تبعهم من الخلف.

وعملْتُه تذكرة لنفسي، وذخيرةً ليوم رمسي، وعملاً صالحاً بعد موتي، قال الله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة: ١٣]. وقال تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾ [الانفطار: ٥].

وقال رسول الله ﷺ: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقةٍ جارية، أو علمٍ يُنتفَع به، أو ولدٍ صالحٍ يدعو له».

وشرطي في هذا الكتاب إضافة الأقوال إلى قائليها، والأحاديث إلى مصنِّفيها فإنه يقال: مِن بركة العلم أن يُضاف القول إلى قائله، وكثيراً ما يجيء الحديث في كتب الفقه والتفسير مبهماً، لا يعرف من أخرجه إلا من اطَّلع على كتب الحديث، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائراً، لا يعرف الصحيح من السقيم، ومعرفة ذلك علمٌ جسيم، فلا يُقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال، حتى يُضيفه إلى من خرَّجه

من الأئمة الأعلام، والثقات المشاهير من علماء الإسلام، ونحن نشير إلى جمل من ذلك في هذا الكتاب، والله الموفق للصواب.

وأُضرب عن كثير من قصص المفسِّرين، وأخبار المؤرِّخين، إلا ما لابدَّ منه، ولا غنى عنه للتبيين، واعتضتُ من ذلك تبيين آيِ الأحكام بمسائل تُسفر عن معناها، وترشد الطالب إلى مقتضاها، فضمَّنت كل آية تتضمن حكماً أو حكمين فما زاد مسائل، نبين فيها ما تحتوي عليه من أسباب النزول والتفسير والغريب والحكم، فإن لم تتضمن حكماً ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل، وهكذا إلى آخر الكتاب.

وسميتُه (الجامع لأحكام القرآن، والمُبيِّن لما تضمَّنه من السنة وآي الفرقان) جعله الله خالصاً لوجهه، وأن ينفعني به ووالدي، ومن أراده بمنِّه، إنه سميع الدعاء قريب مجيب..»[١].

أخبرنا الإمام القرطبي في هذه المقدمة عن طبيعة القرآن، وطبيعة تفسيره (الجامع)، ومنهجه الأثري النظري فيه، وطريقته في كتابة التفسير، ونقل أقوال السابقين معزوَّة لأصحابها، وتقسيمه تفسير الآية إلى مسائل.

ولم ينس في مقدمته أن يلمس قارئ التفسير (لمسة تربوية)، حيث ذكر له صفات حامل القرآن، العالم بتفسيره، تلك الصفات التي تركِّز على العمل به وتطبيقه.

وتحدَّث القرطبي في مقدمة تفسيره عن مسائل ومباحث عديدة، تتعلَّق بالقرآن وعلومه وجمعه وتفسيره، وصفات حامله، وركَّز على العمل به لحسن فهمه، وكانت مقدمته مطوَّلة[٢].

وهو في هذه المقدمة يذكِّرنا بالإمام ابن عطية في مقدمته لتفسيره (المحرر

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١/ ١ ـ ٣.
(٢) انظر القرطبي: ١/ ٤ ـ ٨٦.

الوجيز) وكثيراً ما كان القرطبي في المقدمة يذكر أقوالاً لابن عطية في مقدمته، ويشير إلى ذلك بقوله: (قال ابن عطية).

وقد كان تفسير ابن عطية أصلاً من الأصول الأساسية لتفسير القرطبي، لكن القرطبي أضاف كثيراً إلى تفسير ابن عطية.

وقد مدح (تفسير القرطبي) غير واحد من العلماء الثقات، وشهدوا له بالموضوعية والشمولية.

قال ابن فرحون: «وهو من أجلِّ التفاسير، وأعظمها نفعاً، أسقط منه القصص والتواريخ، وأثبت عوضها أحكام القرآن، واستنباط الأدلة، وذَكَرَ القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ».

وقال عنه الذهبي: «وقد سارت بتفسيره العظيمِ الشأنِ الركبان، وهو كاملٌ في معناه».

وقال ابن شاكر الكتبي: «له تصانيف مفيدة، تدلُّ على كثرة اطِّلاعه، ووفور علمه: تفسير الكتاب العزيز، وهو مليحٌ إلى الغاية».

وطُبع (الجامع لأحكام القرآن) في مصر، وابتدئ به سنة ١٩٣٣، وتمت طباعته سنة ١٩٥٠، وصدر عن دار الكتب المصرية، وعن هذه الطبعة المصححة المضبوطة المتقنة، صُورت عدَّة طبعات لاحقة، في القاهرة وبيروت.

والعجيب أنَّ توفيق الحكيم ـ الروائي المصري المعروف ـ أصدر (بعضاً) من تفسير القرطبي سنة ١٩٧٧، تحت عنوان (مختار تفسير القرطبي).

وأعدَّت حول تفسير القرطبي عدَّة دراسات، منها دراسة الدكتور القصبي محمود زلط بعنوان (القرطبي ومنهجه في التفسير) ومنها دراسة الدكتور يوسف عبد الرحمن الفرْت بعنوان (القرطبي المفسِّر: سيرة ومنهج)(١).

---

(١) الإمام القرطبي، لمشهور حسن، ص٩٩ ـ ١٠٠.

وصدر كتاب (الإمام القرطبي: شيخ أئمة التفسير) للشيخ مشهور حسن محمود، ضمن سلسلة (أعلام المسلمين) التي تصدرها دار القلم، وهو الحلقة رقم (٤١) من تلك السلسلة.

٨ ـ الشوكاني وتفسيره (فتح القدير):

هو الإمام محمد بن علي بن محمد بن عبد الله، الشوكانيُّ، الصنعانيُّ، اليمني.

ولد في (هجرة شوكان)، وهي قرية من قرى قبائل خولان، قريبة من صنعاء، ولذلك نسب إليها فقيل عنه (شوكاني).

وكانت ولادته في الثامن والعشرين من شهر ذي القعدة سنة ١١٧٣هـ، وتوفي في صنعاء في السابع والعشرين من شهر جمادى الآخرة سنة ١٢٥٠هـ، وعاش حوالي سبعة وسبعين عاماً.

نشأ في صنعاء، وتربَّى في حجر أبيه، على العفاف والطهارة، وبدأ يطلب العلم منذ صباه، وجدَّ واجتهد، وقرأ على العلماء في صنعاء كثيراً من الكتب، وقرأ بنفسه كتباً كثيرة في مختلف الموضوعات.

وعرَّف على أسرته وأبيه ونفسه وطلبه العلم وشيوخه في كتابه (البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع).

تفقَّه على مذهب (الزيدية) فكان زيدياً في بداية أمره، وتعمَّق في هذا المذهب، ثم صار مجتهداً، وسجل ملاحظاته على ذلك المذهب، مما أغضب كثيراً من فقهاء المذهب الزيدي، فتحاملوا عليه وحاربوه، ووقعت فتنةٌ في صنعاء بين مؤيديه ومعارضيه، وألَّف الشوكاني رسالة سمَّاها (القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد).

ومال إلى مذهب السلف في العقيدة، وألَّف رسالته (التحف بمذهب السلف)، وإلى مذهب أهل الحديث في الفقه، وألَّف كتابه (نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار).

وألَّف عشرات الرسائل في مختلف المسائل والموضوعات، والردود على المخالفين[1].

ومن أشهر كتبه (فتح القدير) في التفسير، و(نيل الأوطار) في الحديث[2].

ومما قاله الإمام الشوكاني في مقدمة تفسيره: «وبعد: فإن أشرف العلوم على الإطلاق، وأولاها بالتفضيل على الاستحقاق، وأرفعها قدراً بالاتفاق، هو علم التفسير لكلام القوي القدير، إذا كان على الوجه المعتبر، في الورود والصدر، غيرَ مشوبٍ بشيء من التفسير بالرأي، الذي هو من أعظم الخطر. وهذه الأشرفية لهذا العلم غنية عن البرهان، قريبة إلى الأفهام والأذهان، يعرفها من يعرف الفرق بين كلام الخلق والحق، ويدري بها من يميز بين كلام البشر وكلام خالق القوى والقدر، فمن فهم هذا استغنى عن التطويل، ومن لم يفهمه فليس بمتأهل للتحصيل، ولقد صدق رسول الله ﷺ حيث يقول ـ فيما أخرجه عنه الترمذي وحسَّنه من حديث أبي سعيد ـ: «فضلُ كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على سائر خلقه».

ولما كان هذا العلم بهذه المنزلة الشامخة الأركان، العالية البنيان، رغبت إلى الدخول من أبوابه، ونشطت إلى القعود في محرابه، والكون من أحزابه، ووطَّنت النفس على سلوك طريقة، هي بالقبول عند الفحول حقيقة.

وها أنا أوضح لك منارها، وأبين لك إيرادها وإصدارها، فأقول:

إن غالب المفسِّرين تفرَّقوا فريقين، وسلكوا طريقين:

الفريق الأول: اقتصروا في تفاسيرهم على مجرد الرواية، وقنعوا برفع هذه الراية.

والفريق الآخر: جرَّدوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية، وما تفيده العلوم الآلية، ولم يرفعوا إلى الرواية رأساً، وإن جاؤوا بها لم يُصحِّحوا لها أساساً.

---

(١) انظر ترجمة الشوكاني بقلمه في مفتتح تفسيره (فتح القدير): ١/ ٣ـ ٩.

(٢) انظر دراسة الدكتور محمد حسين الذهبي لتفسير (فتح القدير) في (التفسير والمفسرون): ٢/ ٢٨٥ ـ ٢٩٩؛ وانظر كتاب (الإمام الشوكاني مفسراً) للدكتور محمد الغماري.

وكلا الفريقين قد أصاب، وأطال وأطاب، وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب، وترك منها ما لا يتمُّ بدونه كمالُ الانتصاب.

فإن ما كان من التفسير ثابتاً عن رسول الله ﷺ، كان المصير إليه متعيَّناً، وتقديمه متحتِّماً، غير أن الذي صحَّ عنه من ذلك إنما هو تفسير آياتٍ قليلة بالنسبة إلى جميع القرآن، ولا يختلف في مثل ذلك من أئمة هذا الشأن اثنان.

وأما ما كان منها ثابتاً عن الصحابة رضي الله عنهم: فإن كان من الألفاظ التي قد نقلها الشرع إلى معنى مغاير للمعنى اللغوي بوجه من الوجوه، فهو مقدَّم على غيره، وإن كان من الألفاظ التي لم ينقلها الشرع فهو كواحدٍ من أهل اللغة الموثوق بعربيتهم، فإذا خالف المشهور المستفيض، لم تقم الحجة علينا بتفسيره الذي قاله على مقتضى لغة العرب، وبالأَوْلى تفاسير مَنْ بعدَهم من التابعين وتابعيهم وسائر الأئمة.

وأيضاً كثيراً ما يقتصر الصحابي ومَنْ بعدَه من السلف على وجهٍ واحدٍ مما يقتضيه النظمُ القرآني باعتبار المعنى اللغوي، ومعلومٌ أن ذلك لا يستلزم إهمال سائر المعاني، التي تُفيدُها اللغة العربية، ولا إهمال ما يُستفاد من العلوم التي تُتبيَّنُ بها دقائق العربية وأسرارها، كعلم المعاني والبيان، فإنَّ التفسير بذلك هو تفسيرٌ باللغة، لا تفسيرٌ بمحض الرأي المنهيِّ عنه.

وقد أخرج سعيد بن منصور في سننه وابن المنذر والبيهقي في كتاب الرؤية عن سفيان الثوري قال: ليس في تفسير القرآن اختلاف، إنما هو كلامٌ جامعٌ، يُراد منه هذا وهذا.

وأخرج ابنُ سعد في الطبقات وأبو نعيم في الحلية عن أبي قلابة قال: قال أبو الدرداء: لا تَفقهُ كل الفقهِ حتى ترى للقرآن وجوهاً.

وأخرج ابنُ سعد أن علياً قال لابن عباس: اذهب إليهم ـ يعني الخوارج ـ ولا تخاصمهم بالقرآن فإنه ذو وجوه، ولكن خاصمهم بالسنة!.

فقال له ابن عباس: أنا أعلم بكتاب الله منهم!.

فقال علي: صدقت، ولكن القرآن حمَّالٌ ذو وجوه.

وأيضاً لا يتيسَّر في كل تركيب من التراكيب القرآنية تفسير ثابت عن السلف، بل قد يخلو عن ذلك كثير من القرآن.

ولا اعتبار بما لم يصح، كالتفسير المنقول بإسناد ضعيف، ولا بتفسير من ليس بثقة منهم وإن صحَّ إسناده إليه.

وبهذا نعرف أنه لابدَّ من الجمع بين الأمرين، وعدم الاقتصار على مسلك أحدٍ من الفريقين.

وهذا هو القصد الذي وطَّنتُ نفسي عليه، والمسلك الذي عزمتُ على سلوكه إن شاء الله، مع تعرُّضي للترجيح بين التفاسير المتعارضة ما أمكن واتضح لي وجهه، وأخذي من بيان المعنى العربي والإعرابي والبياني بأوفر نصيب، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله ﷺ، أو الصحابة، أو التابعين، أو تابعيهم، أو الأئمة المعتبرين.

وقد أذكر ما في إسناده ضعف، إما لوجود في المقام ما يقوِّيه، أو لموافقته للمعنى العربي، وقد أذكر الحديث معزوًّاً إلى راويه من غير بيان حال الإسناد، لأني أجده في الأصول التي نقلت عنها كذلك، كما يقع في تفسير ابن جرير والقرطبي وابن كثير والسيوطي، وغيرهم، ويبعُدُ كل البعد أن يعلموا في الحديث ضعفاً ولا يبيِّنونه، ولا أن يقال فيما أطلقوه: إنهم قد علموا ثبوته! فإن من الجائز أن ينقلوه من دون كشفٍ عن حال الإسناد، بل هذا هو الذي يغلب به الظنُّ، لأنهم لو كشفوا عنه فثبتت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك، كما يقع منهم كثيراً التصريح بالصحة أو الحُسْن، فمن وجد الأصول التي يروون عنها، ويعزون ما في تفاسيرهم إليها، فينظر في أسانيدها موفقاً إن شاء الله.

واعلم أن تفسير السيوطي المسمَّى (الدر المنثور) قد اشتمل على غالب ما في تفاسير السلف من التفاسير المرفوعة إلى النبي ﷺ، وتفاسير الصحابة ومَنْ بعدهم، وما فاته إلا القليل النادر.

وقد اشتمل هذا التفسير (تفسير الشوكاني) على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يتعلق بالتفسير، مع اختصارٍ لما تكرَّر لفظاً واتَّحد معنى، بقولي: (ومثله أو نحوه)، وضممت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها، وجدتها في غيره من تفاسير علماء الرواية، أو من الفوائد التي لاحت لي، من تحسينٍ أو تضعيفٍ، أو تعقُّبٍ أو جمعٍ أو ترجيح.

فهذا التفسير: وإن كبُرَ حجمُه، فقد كثُر علمُه، وتوفَّر من التحقيق قسمه، وأصاب غرض الحقِّ سهمُه، واشتمل على ما في كتب التفسير من بدائع الفوائد، مع زوائد فوائد، وقواعد شوارد.

فإن أحببت أن تعتبر صحة هذا، فهذه كتب التفسير على ظهر البسيطة، انظر تفاسير المعتمدين على الرواية، ثم ارجع إلى تفاسير المعتمدين على الدراية، ثم انظر في هذا التفسير بعد النظرين، فعند ذلك يُسفر الصبح لذي عينين، ويتبيَّن لك أن هذا الكتاب هو لبُّ اللباب، وعجبُ العجاب، وذخيرة الطلاب، ونهاية مأرب الألباب.

وقد سمَّيته (فتح القدير: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير).

مستمداً من الله سبحانه بلوغ الغاية، والوصول بعد هذه البداية إلى النهاية، راجياً منه جلَّ جلاله أن يُديم به الانتفاع، ويجعله من الذخائر التي ليس لها انقطاع..»(١).

وفرغ الشوكاني من تفسيره سنة ١٢٢٩هـ، وكان عمره وقتذاك ستاً وخمسين سنة! قال في نهاية الجزء الخامس: «وإلى هنا انتهى هذا التفسير المبارك، بقلم مؤلفه محمد بن علي بن محمد الشوكاني، غفر الله ذنوبه، وكان الفراغ منه في ضحوة يوم السبت، لعلَّه الثامن والعشرون من شهر رجب، أحد شهور سنة تسع وعشرين بعد مئتين وألف سنة من الهجرة النبوية»(٢).

* * *

---

(١) فتح القدير: ١/ ١١ ـ ١٣.

(٢) المصدر السابق: ٥/ ٥٢٤.

المبحث الثاني

محمد بن جرير الطبري ومنهجه في التفسير

عرَّفنا في المبحث السابق تعريفاً مجملاً جداً بثمانية من المفسرين، وبثمانية من تفاسيرهم، التي ألَّفوها على قواعد (المنهج الأثري النظري)، أفضل المناهج الموضوعية في تفسير القرآن، كان تعريفنا بالمفسرين الأعلام: يحيى بن سلام البصري، وبقي بن مخلد القرطبي، وعلي بن أحمد الواحدي، والحسين ابن مسعود البغوي، وعبد الحق بن غالب بن عطية، وعبد الرحمن بن علي بن الجوزي، ومحمد بن أحمد القرطبي، ومحمد بن علي الشوكاني.

ووعدنا أن نتحدث حديثاً خاصاً عن إمامين من أئمة التفسير الأثري النظري، وهما: الطبري، وابن كثير.

وسنتحدث في هذا المبحث إن شاء الله عن الطبري ومنهجه في التفسير، وفي المبحث القادم عن ابن كثير ومنهجه في التفسير إن شاء الله.

محمد بن جرير الطبري إمام المفسرين:

هو الإمام: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب، الطبري، الآمُلي، البغدادي.

يُكنَّى بأبي جعفر مع أنه لم يتزوج، ولم يكن له أولاد، لأن الكنية من السنَّة.

وُلد الطبري في مدينة (آمُل) كبرى مدن إقليم (طَبَرِسْتان) سنة ٢٢٤، وتوفي في بغداد سنة ٣١٠هـ، وعاش ستاً وثمانين سنة[١].

---

(١) الإمام الطبري، للدكتور الزحيلي، ص٣٠.

وهو منسوبٌ إلى الإقليم الذي ولد فيه (طبرستان)، وهو بلادٌ واسعةٌ تقع على ساحل بحر قزوين، شمال إيران المعروفة.

تربَّى الطبري في حضن والده، وكان رجلاً صالحاً، فوجَّهه إلى حفظ القرآن والعلم، ورأى والدُه رؤيا فاستبشر بها، وأخبر ابنه بها فكانت حافزاً له على طلب العلم.

قال الطبري: رأى لي أبي في النوم أنني بين يدي رسول الله ﷺ، ومعي مخلاةٌ مملوءةٌ بالأحجار، وأنا أرمي بين يديه! ولما قصَّ رؤياه على صديقه قال له: إن ابنك إذا كبر نصح في دين الله، وذبَّ عن شريعته، فحرص أبي على معونتي على طلب العلم، وأنا يومئذ صبيٌّ صغير[1].

أقبل الإمام الطبري على العلم، فملأ عليه حياته، منذ طفولته إلى موته، ولذلك لم يتزوج، وهو لم يفعل ذلك عُزوفاً عن السنَّة ـ لأن الزواج سنةُ رسول الله ﷺ ـ وإنما شُغل بالعلم عن الزواج، ولم تطلب نفسه الزوجة، لأنها متوجهة إلى العلم.

وهناك كثيرٌ من العلماء شُغلوا بالعلم عن الزواج، فلم يتزوجوا، ولم تقعد بهم ثمار الزواج من الأولاد والبيوت عن طلب العلم، وألَّفَ الشيخُ عبد الفتاح أبو غدة رحمه الله كتاباً ممتعاً في أخبار هؤلاء، هو (العلماء العزَّاب الذين آثروا العلم على الزواج).

حفظ الطبري القرآن وهو ابنُ سبع سنين، وصلَّى بالناس إماماً وهو ابنُ ثماني سنين، وكتب الحديث وهو ابنُ تسع سنين!.

تلقَّى العلم على علماء بلده آمُل، ثم علماء طبرستان، ثم علماء الري، ثم غادر بلاد فارس إلى العراق لطلب العلم، وقام برحلاتٍ عديدة يطلب فيها العلم، فارتحل إلى البصرة والكوفة وبغداد والشام ومصر، ودرس على العديد من العلماء

(١) الإمام الطبري، للدكتور الزحيلي، ص٣١.

في هذه المدن والمناطق، ثم توجَّه إلى بغداد واستقرَّ بها.

انقطع الطبري في بغداد للتعليم والتدريس والتأليف، وصار عالماً من كبار علماء بغداد، وجمع الكثير من العلوم، وبقي يطلبُ العلم بهمَّةٍ وعزيمة ونشاط، حوالي (ثمانين سنة)! لم تفتر عزيمتُه، ولم يخفَّ نشاطه، ولم يجفَّ قلمه، فطلب العلمَ من المهد إلى اللحد.

وقبيل وفاته شرع في تأليف عدَّة كتب، ولكنه توفي قبل إكمالها، كفضائل أبي بكر وعمر وعلي والعباس.

ولما كان في الخامسة والثمانين من عمره أراد تأليف كتاب في القياس، فطلب من تلميذه أبي القاسم جمع كتب القياس، قال أبو القاسم: «كان أبو جعفر قد التمسَ مني أن أجمع له كتب القياس، فجمعتُ له نيِّفاً وثلاثين كتاباً، فبقيتْ عنده مُدَيْدَة، ثم كان من قطْعِه الحديث والتدريس قبل موته بشهور بسبب المرض، فردَّها عليَّ، وفيها علاماتٌ بالخط الأحمر قد علَّم عليها!».

ووصل إنتاج الطبري العلمي إلى حوالي ستين ألف ورقة! وهذا بتوفيق الله له، وفضله عليه![1].

وكان الطبريُّ أسمرَ أقرب إلى الأُدْمَة، نحيف الجسم، واسع العينين، مديدَ القامة، فصيح اللسان، أسود الشعر، وبقي السواد في شعره ولحيته إلى الوفاة!.

وكان يأكل العنب والتين والرطب، ويأكل الزعتر والزيت والخبز، ويشرب حليب الغنم، ويأكل اللحم الأحمر، وكان لا يأكل التمر والعسل والسمسم واللحم السمين، لأنه كان مريضاً في معدته.

وعندما يأكل كان يُسمي الله على كل لقمة، وكان من أظرف الناس أكلاً، ولا يكاد يُسمَع له تنخُّم ولا تبصُّق.

---

(١) الإمام الطبري، ص٣٧ ـ ٤٥.

ونظَّم الطبري وقته بين التصنيف والتدريس والعبادة والنوم: فكان ينام القيلولة قبيل الظهر، ثم يصلِّي الظهر، ثم يشتغل بالتصنيف إلى العصر، ثم يخرج لصلاة العصر، ويجلس للناس في المسجد إلى صلاة المغرب، ثم يُدرِّس الناس إلى صلاة العشاء، ويعود بعد العشاء إلى منزله، ويشتغل بالتصنيف، ولا يسمح لأحد بالدخول عليه إلا لأمرٍ هام.

قال عنه تلميذه ابن كامل: قسَّم الطبري ليله ونهاره في مصلحة نفسه ودينه وعلمه والناس!.

وكان الطبري ورعاً عابداً زاهداً في الدنيا، متحرِّياً للحلال، مبتعداً عن الحرام.

قال عنه عبد العزيز الطبري: كان فيه من الزهد والورع والخشوع والأمانة وتصفية الأعمال وصدق النية، وكان عازفاً عن الدنيا، تاركاً لها ولأهلها، يرفع نفسه عن التماسها.

وكان يرضى بما قسمه الله له من الدنيا، ويكتفي منها بالقليل القليل، ويمتنع عن قبول عطايا الملوك والحكام والوزراء.

ألَّف كتاب (الخفيف) في الفقه، فأرسل له الوزير العباس بن الحسن ألف دينار جائزة، فردَّها ولم يأخذها!.

وألَّف كتاباً في أحكام الوقف، فاستدعاه الخليفة المقتدر، وأراد أن يكافئه على كتابه، وعرض عليه آلاف الدنانير فلم يقبلها! فقال له: سلْ حاجتك! فقال الطبري: لا حاجة لي! فقال له الخليفة: لابدَّ أن تسأل شيئاً! فقال الطبري: أرجو أن تكلِّف الشرطة أن يمنعوا المتسولين من الوقوف على أبواب المساجد يوم الجمعة، لأن هذا يسيء إلى أمة محمدٍ ﷺ!.

وكان الطبري عفيف اللسان، لم يغتب أحداً، ولم يشتم أحداً، ولم ينتقص عالماً خالَفه.

وكان الطبريُّ أبيّاً عزيزاً كريم النفس، عفيفاً صاحب مروءة، لم يسأل أحداً شيئاً، ولم يذلَّ نفسه لأحد.

وقال عن عفَّة نفسه وإبائه:

إذا أعْسَرْتُ لمْ يعلمْ رفيقي ... وأستغْني فيسْتَغْني صديقي
حيائي حافظٌ لي ماءَ وجهي ... ورِفْقي في مُطالَبَتي رَفيقي
ولوْ أني سَمَحْتُ ببذْلِ وَجْهي ... لكنُتُ إلى الغِنى سَهْلَ الطريق

وهذه أبياتٌ لطيفة تدلُّ على صفاته الحميدة، وهي تُذكِّرنا بما قاله الإمام الشافعي في هذا المقام:

أمَتُّ مطامِعي فأرَحْتُ نفسي ... فإنَّ النَّفْسَ ما طَمِعَتْ تَهونُ
وأحْيَيْتُ القنُوعَ وكان مَيْتاً ... ففي إحْيائِه عِرْضي مَصُونُ

ولما صار الخانقانيُّ الوزير الأول عند الخليفة، وجَّه إلى الطبري مالاً كثيراً، فأبى أن يقبله، فعرض عليه القضاء، فأبى أن يقبله، فأصرَّ عليه وأصرَّ الطبريُّ على امتناعه.

فعاتبه أصحابه لامتناعه، وقالوا له: لك في هذا ثواب، وتحيي سنةً قد درستْ! فانتهرهم وقال: كنتُ أظنُّ أن تنهوني عنه لو رغبتُ فيه.

وكان الطبري يكره بَطَرَ الغني وذُلَّ الفقير، وقال في ذلك:

خُلُقان لا أرضى طريقهما ... بَطَرُ الغنى ومَذَلَّةُ الفقر
فإذا غنيتَ فلا تكنْ بَطِراً ... وإذا افْتَقَرتَ فَتِهْ على الدهرِ

ومن عفَّة نفس الطبري وإبائه أنه كان مترفِّعاً عمَّا في أيدي الناس، فإذا أهديتْ له هدية قبلها إذا كان قادراً على إهداء صاحبها مقابلها، فإن كان عاجزاً عن مكافأته امتنع عن قبول هديته.

وكان الطبري شديد التواضع لأصحابه وزوَّاره وطلابه، لا يتكبَّر عليهم،

ولا يتعالى بعلمه، قال عبد العزيز الطبري عنه: كان جميل الأدب في مأكله وملبسه، وما يخصُّه في أحوال نفسه، منبسطاً مع إخوانه، وربَّما داعبهم أحسنَ مداعبة!.

وكانت نفس الطبري رضيَّة، لا يحمل الحقد والضغينة لأحد، يتجاوز عمَّن أخطأ معه، ويعفو عمَّن أساء إليه، ولمَّا حضرته الوفاة قال لتلميذه ابن كامل: كلُّ مَنْ عاداني وتكلم عليَّ فهو في حِلّ، إلا رجلاً رماني ببدعة!.

وكان الطبري جريئاً في الحق، شجاعاً في إنكار المنكر، لا تأخذُه في الله لومة لائم.

وكان شديداً على الخوارج والمعتزلة والقدرية والشيعة، ولما كان بعض الصحابة يُشتَمون ويُسبُّون من قبل الشيعة في طبرستان، دافع الطبري عنهم، وألَّف كتاباً في فضائل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، وكان السلطان في طبرستان ممن يسبُّ الصحابة، فغضب من الطبري وأراد إلقاء القبض عليه، فخرج منها إلى غيرها[(١)].

وكان الإمامُ الطبريُّ فقيهاً عالماً بالفقه، متمكِّناً منه، وكان في بداية أمره شافعي المذهب، ثم استمرَّ في البحث والتحصيل الفقهي، حتى صار مجتهداً مطلقاً ومستقلاً، صاحبَ مذهب خاصٍّ يُعرفُ باسم (المذهب الجريري) نسبةً إليه. ولكنَّ مذهبه الفقهي الجريري لم يستمر، لعدم وجود تلامذةٍ يحملونه، وتوقَّفَ ذلك المذهب في القرن الرابع.

ومن كتبه الفقهية التي بقي بعضها، وطُبعت قِطعٌ منها كتاب (اختلاف الفقهاء)[(٢)].

وكما كان الطبري إماماً في الفقه فقد كان إماماً في التاريخ، فهو إمامُ

---

(١) الإمام الطبري، ص٦١ ـ ٨١.
(٢) المصدر السابق، ص١٤١ ـ ١٩٦.

المؤرِّخين، وألَّف كتابه في التاريخ، الذي اشتهر باسم (تاريخ الطبري)، وقد أطلق عليه الطبري اسم (تاريخ الأمم والملوك) أو (تاريخ الرسل والأنبياء والملوك والخلفاء)، وابتدأ كتابة التاريخ سنة ٢٩٠هـ، وفرغ منه سنة ٣٠٣هـ، وأرَّخ للأحداث حتى سنة ٣٠٢هـ.

ولمَّا أراد الطبري أن يكتب كتابه في التاريخ قال لتلاميذه: أتنشطون لكتابة تاريخ العالم من آدم حتى يومنا هذا؟ قالوا: كم قدرُه؟ قال: ثلاثون ألف ورقة! قالوا: هذا ما يُفني الأعمارَ قبل تمامه! فقال الطبري: إنا لله، ماتت الهمم! فاختصره في نحو ثلاثة آلاف ورقة[١].

وتاريخُ الطبري من أهم كتب التاريخ التي أرَّختْ لتاريخ العالم قبل الإسلام، والتي أرَّخت للقرون الثلاثة الأولى من تاريخ المسلمين، واستحقَّ الطبري به لقب (إمام المؤرِّخين).

وقد طُبع تاريخ الطبري عدَّة طبعات، من أجودها الطبعة التي صدرت عن دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٧، بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، في أحد عشر مجلداً، وصُوِّرتْ عنها عدَّة طبعاتٍ في بيروت[٢].

وكان الطبري عالماً بالحديث والآثار، متمكِّناً منها، فقيهاً في توجيه الآثار وتهذيبها والاستنباط منها.

ومن أهم كتبه في الحديث كتاب (تهذيب الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار)، وهذا الكتاب شرع في تأليفه في أواخر عمره، وتوفي قبل إتمامه، وكتب منه مسانيد بعض الصحابة، ومعظم هذا الكتاب فُقِد ولم يبق منه إلا جزءٌ قليل، فيه بعض مسند عمر بن الخطاب، وبعض مسند علي بن أبي طالب، وبعض مسند عبد الله بن عباس رضي الله عنهم، وقد نشر الأستاذ محمود شاكر ـ رحمه الله ـ هذا الجزء من المسانيد في أربع مجلدات، بعد أن

---

(١) الإمام الطبري، ص٢٠٣ـ٢٠٤.
(٢) المصدر السابق، ص٢٠٥ـ٢٤٥.

حقَّقها تحقيقاً علمياً عالياً[1].

ونشير هنا إلى كتب الطبري المطبوعة:

١ ـ تاريخُ الرسل والأنبياء والملوك والخلفاء، وقد حقَّقه محمد أبو الفضل إبراهيم، ونشرته دارُ المعارف بمصر، في أحد عشر مجلداً.

٢ ـ اختلافُ الفقهاء: جزءٌ صغيرٌ من الكتاب الكبير الذي فُقد، لا يساوي عشرةً بالمئة من الكتاب، حيث كتب الطبري كتابه في نحو ثلاثة آلاف ورقة، وقد نشر الجزء الموجود المستشرق الألماني (فريدريك كِيرْن) في مصر سنة ١٩٠٢م في حوالي ثلاثمئة صفحة، وصوَّرته دار الكتب العلمية في بيروت.

٣ ـ تهذيبُ الآثار وتفصيل الثابت عن رسول الله ﷺ من الأخبار: فيه أجزاء من مسانيد عمر وعلي وابن عباس رضي الله عنهم، في أربع مجلدات، تحقيق محمود شاكر.

هذا بالإضافة إلى تفسيره الجامع.

وما بقي من مؤلَّفات الطبري قليل إذا وُضعَ بجانب ما فُقد وضاع من تراثه الكثير.

وكلُّ كتب التاريخ والتراجم والطبقات والأعلام تحدثت عن الطبري.

ومن الكتب المعاصرة التي ترجمت للطبري:

١ ـ الطبري: للدكتور أحمد الحوفي، ضمن سلسلة أعلام العرب، سنة ١٩٦٣م.

٢ ـ الإمام الطبري: شيخُ المفسِّرين، وعمدةُ المؤرِّخين، ومقدم الفقهاء والمحدِّثين، للدكتور محمد الزحيلي، ضمن سلسلة أعلام المسلمين، الحلقة رقم (٣٣)، سنة ١٩٩٠، وهو أجودُ الدراسات عنه، وأخذنا منه هذه اللقطات والمشاهد من حياة الطبري.

---

(١) الإمام الطبري، ص٢٥١ ـ ٢٦٦.

تعريفٌ بتفسير الطبري (جامع البيان عن تاويل آي القرآن):

أَلَّفَ الإمامُ الطبريُّ تفسيره بعد ما تقدَّمَ به العمر، وقد قاربَ الستين من عمره، وبعدما حَقَّقَ المؤهلاتِ الأساسية الضرورية للتفسير، وتزوَّدَ بالزادِ العلمي الذي يُعينُه على التفسير: حفظَ القرآن حفظاً متقناً، وأتقنَ قراءتَه، وعَرَفَ القراءاتِ كلَّها الصحيحة والشاذة، وصارَ إماماً فيها، وصَنَّفَ فيها كتاباً، وجمعَ أقوالَ الصحابةِ والتابعين في التفسير، وكان بين يديه مختلف التفاسير المأثورة التي دوَّنَها التابعون وأتباعُ التابعين ومَنْ بعدَهم، كما كان بين يديه التفاسير البيانية للقرآن، وكان عالماً بالحديث، وكتب فيه الكتب النافعة، وكان عالماً باللغةِ العربية وعلومِها من نحوٍ وبلاغةٍ وشعرٍ وأدب، وكان واسعَ الباع في الفقه والأحكام، حتى ارتقى فيه إلى الاجتهاد المطلقِ المستقل، وكان عالماً بالعقيدةِ ومسائِلها، وبالتاريخ والسيرة، إضافةً إلى ما وهبهُ الله من مواهبَ فطرية، كالذكاءِ والفطنةِ والنبوغ، تمكَّنَ بها من التأويلِ والاستنباط والاستدلال!!.

تزوَّدَ الإمامُ الطبريُّ بهذه المؤهلات العلمية، وأقبلَ بها على القرآنِ يفسِّرُه، فجاءَ تفسيرُه رائداً بديعاً.

وقبلَ أنْ يشرعَ الطبريُّ في التفسير استخارَ الله في ذلك، وسألَه العونَ على ذلك ثلاثَ سنوات قبل البدءِ به، ثم شرحَ الله صدرَه له، وأعانَه على إكماله[1].

أطلق الطبريُّ على تفسيرِه اسمَ: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، وهو يقصدُ هذا الاسم، لأنه دالٌّ على طبيعةِ تفسيره ومنهجِه فيه، وهدفِه منه.

أرادَ الطبريُّ من تفسيرِه أنْ يكونَ جامعاً لوجوهِ البيان في تفسيرِ القرآن، وجامِعاً لأقوالِ العلماء، وآراءِ المجتهدين، واجتهادِ الصحابة والتابعين، في المأثور والمنقول، وفي الرأي والمعقول.

وأرادَ من تفسيرِه أنْ يكونَ فيه تأويلُ آياتِ القرآن بعد تفسيرها، وأن يكونَ

---

(١) الإمام الطبري، للزحيلي، ص٩٤ـ٩٥.

فيه ترجيحُ الراجحِ من الأقوال المأثورة، واستنباطُ الصحيح من الدلالات، والاستدلال له.

يقولُ الدكتور محمد الزحيلي حول دلالة اسم تفسير الطبري على مضمونه: «سَمّى الطبريُّ تفسيرَه باسمِ (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) ليكونَ الاسمُ دليلاً على المسمى، والعنوانُ مشيراً إلى المضمون. وكان ذلك كذلك، وحققَ الإمامُ الطبريُّ ما قصد ووضعَ وأراد، فجاءَ التفسيرُ بحقٍّ يجمعُ وجوهَ البيان، وأقوالَ العلماء، وآراءَ المجتهدين، واجتهادَ الصحابة والتابعين، في المأثور والمنقول، والرأي والمعقول، ووازنَ بين الآراءِ المختلفة، ورجَّح ما وجده أقربَ أو أقوى..

وجاءَ استعمالُ الطبريِّ لكلمة (تأويل) مقصوداً، لأنه يريدُ بالتأويل درجةً بعد التفسير، خلافاً لقولِ بعضِ العلماء بأنَّ التفسيرَ والتأويل مترادفان.

يرى أكثرُ المتأخرين أن التفسير هو: بيانُ المعاني التي تُستفادُ من وضْعِ العبارة، أو أنه يرجعُ إلى معرفةِ المعنى بالنقلِ والرواية، وأنَّ التأويلَ هو: بيانُ المعاني التي تُستفادُ بطريق الإشارة، أو أنه معرفةُ المعنى بالاجتهادِ والاستنباط والرأي، وترجيحُ محتملاتِ اللفظ، والاستدلالُ على ذلك بالأدلةِ المختلفة، العقلية والنقلية، والتاريخية واللغوية، واستنباط الأحكام...

وهذا ما أرادَهُ الطبريُّ رحمه الله. فالتفسير عنده مقدمةٌ للتأويل.

التفسيرُ عنده هو: بيانُ المرادِ باللفظ، وهو ما نقلَهُ من مروياتِ الصحابة والتابعين.

والتأويلُ عنده هو: بيانُ المعاني المختلفة التي تحتملُها ألفاظُ القرآن.

فكان الطبريُّ يبينُ تلك المعاني المختلفة، ويسجلُ ما وردَ فيها عن السلف، ثم يعمدُ إلى الترجيح والموازنة ونقدِ الأسانيد، واستخدامِ اللغة والإعرابِ في بيان المراد، مع الاستشهاد بالتاريخ، واستنباطِ الأحكام.

هذا ما حرص عليه الإمامُ الطبري، وقصَده في عنوانه، والتزمَهُ في

تفسيره، فامتازَ التفسيرُ بذلك عن جميعِ التفاسيرِ المأثورةِ التي سبقتْه، ولذلك جاءَ تفسيرُ الطبريِّ جامعاً للتفسيرِ والتأويلِ معاً»[1].

شرعَ الإمامُ الطبري في كتابةِ تفسيره سنة: ٢٨٣هـ، وكان عمرُه حوالي ستين عاماً، وأَلَّفَهُ في ثماني سنوات، حيث أَتمه سنة: ٢٩٠هـ.

سألَ الإمامُ محمدُ بن خزيمة تلميذَ الطبري أبا بكر بن بالَوَيْه: بَلَغَني أنك كتبتَ التفسيرَ عن محمد بن جرير؟ قال: بلى. كتبتُه عنه إملاءً!.

قال ابن خزيمة: كلَّه؟ قال ابن بالَوَيْه: نعم.

قال ابن خزيمة: في أي سنة؟ قال ابن بالويه: من سنةِ ثلاثٍ وثمانين، إلى سنة تسعين ومئتين!.

فاستعارَ ابنُ خزيمة التفسيرَ من ابن بالويه، وبعد أَنْ قرأَه ردَّه إليه وقال له: لقد نظرتُ فيه من أولِه إلى آخره، وما أعلمُ على أَديم الأرضِ أعلمَ من محمد بن جرير!»[2].

فأَبو بكر بن بالويه جلسَ عند الطبري ثماني سنوات يكتبُ عنه التفسير، أي أنَّ الطبريَّ أَملى تفسيره إملاءً على تلاميذه خلال هذه السنوات.

وبعد ما فرغَ الطبريُّ من تفسيرِه سنة: ٢٩٠هـ شرعَ في تأليفِ كتبٍ أخرى. ثم أَعادَ تلاميذُه قراءةَ تفسيرِه عليه بعد ذلك.

في أولِ جملةٍ من تفسير الطبري: «بسم الله الرحمن الرحيم، وبه ثقتي، وعليه اعتمادي، رَبِّ يَسِّر: قُرِئ على أبي جعفر محمد بن جرير الطبري، في سنة ستٍ وثلاثمئة»[3].

وكان عمرُ الطبريِّ عند إعادةِ قراءةِ تفسيره عليه اثنتين وثمانين سنة! وهذا من همتِه العالية!.

---

(١) الإمام الطبري، ص١٠٠ ـ ١٠١.
(٢) سير أعلام النبلاء للذهبي: ١٤/ ٢٧٢ ـ ٢٧٣.
(٣) تفسير الطبري: ١/ ٣.

وكان الطبريُّ يريدُ أنْ يكونَ تفسيرُه كبير الحجم لكنَّ تلاميذَه لم يقدروا على متابعته فاختصره لهم.

قال أبو القاسم الوراق: قال أبو جعفر الطبريُّ لأصحابه: هل تنشطونَ لتاريخِ العالَم من آدم إلى وقتنا؟ قالوا: كم قَدْره؟ قال: في نحوِ ثلاثينَ ألف ورقة! قالوا: هذا مما تفنى الأعمارُ قبل تمامِه! فقال: إنّا لله! ماتت الهمم. فاختصرَ ذلك في نحوِ ثلاثة آلافِ ورقة!.

ولما أرادَ أن يُمليَ التفسيرَ قال لهم نحواً من ذلك. ثم أَملاهُ على قدرِ التاريخ»[1].

وقال الطبري: «استخرْتُ الله، وسألتُهُ العونَ على ما نويتُه من تصنيفِ التفسير قبلَ أنْ أعملَه ثلاث سنوات، فأَعانَني عليه»[2].

وقد أثنى العلماءُ على تفسيرِ الطبري ثناءً كبيراً، واعتبروه مرجعاً أساسياً لهم في فهمِ القرآن وتفسيرِه وتأويله.

قال محمدُ بن خزيمة: ما أعلمُ على أَديمِ الأرض أعلمَ من ابنِ جرير.

وقال أبو حامد الإسفراييني: لو سافرَ رجلٌ إلى الصين، حتى يحصلَ له كتابُ محمد بن جرير، لم يكن ذلك كثيراً[3].

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد الفَرْغانيُّ: أتمَّ محمدُ بن جرير تفسيرَ القرآن وجَوَّدَه، وبيَّنَ فيه أحكامَه، وناسخَه ومنسوخَه، ومُشكلَه وغريبَه ومعانيه، واختلافَ أهلِ التأويل والعلماء في أحكامِه وتأويله، والصحيحَ لديه من ذلك، وإعرابَ حروفه، والكلامَ على الملحدين فيه، والقصص وأخبارَ الأمم، والقيامة.. وغير ذلك مما حواه من الحكم والعجائب. كلمةً كلمة، وآيةً آية، من

---

(١) سير أعلام النبلاء: ١٤/ ٢٧٤ ـ ٢٧٥.
(٢) المصدر السابق، ص٢٧٤.
(٣) طبقات المفسرين للداوودي: ٢/ ١٠٦ ـ ١١٤.

الفاتحة إلى سورة الناس. . فلو ادَّعى عالمٌ أنْ يصنفَ منه عشرةَ كُتُب، كلُّ كتابٍ منها يحتوي على علمٍ مفردٍ عجيب مستقص لفعل».

وقال ابنُ تيمية: تفسيرُ محمد بن جرير من أجلِّ التفاسيرِ وأعظمِها قَدْراً.

وقال عنه في موضعٍ آخر: وأمّا التفاسيرُ التي في أيدي الناس، فأصحُّها تفسيرُ محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكرُ مقالاتِ السلف بالأسانيدِ الثابتة، وليس فيه بدعة، ولا ينقلُ عن المتهمين كمقاتل والكلبي[(١)].

وقال السيوطي: وبعدَهم ابنُ جرير الطبري، وكتابهُ أَجَلُّ التفاسير وأعظمُها. . وهو يتعرضُ لتوجيهِ الأقوال، وترجيحِ بعضها على بعض، والإعرابِ والاستنباط[(٢)].

وقال عنه في موضع آخر: فإنْ قلتَ: فأيُّ التفاسير ترشدُ إليه، وتأمرُ الناظرَ أنْ يُعوِّلَ عليه؟.

قلت: تفسيرُ الإمام أبي جعفر بن جرير الطبري، الذي أجمعَ العلماءُ المعتبرون على أنه لم يؤلَّف في التفسيرِ مثلُه. .»[(٣)].

وقد انتشرَ تفسيرُ الإمام الطبري بين أيدي الدارسين والعلماء والمفسرين على مدارِ التاريخ الإسلامي، حتى العصر الحاضر. وكان مرجعاً للمفسِّرين من المشرق والمغرب والأندلس.

واعتمدَ عليه اعتماداً كاملاً الإمامُ ابن كثير في تفسيرِه، كما سيمرُّ معنا في المبحث القادم إن شاء الله.

ويبدو أنَّ تفسيرَ الطبري فُقِدَ مِنْ معظمِ المكتبات بعد السيوطي، حتى ظنَّ بعضُ الباحثين أنه مفقودٌ بالكلية، وأنه ضاع من البلدان، ولاتوجدُ له أيةُ نسخة!.

---

(١) فتاوى ابن تيمية: ١٣/ ٣٦١ و٣٨٥.
(٢) الإتقان للسيوطي: ٢/ ١٢٣٥.
(٣) المصدر السابق: ٢/ ١٢٣٧؛ وانظر: الإمام الطبري للزحيلي، ص١٠٧ ـ ١١٠.

ولذلك لم يَطَّلع عليه إسماعيلُ البغدادي ولم يشر له في كتابه الجامع (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون).

وقال المستشرق الألماني (نولدكه) عنه: لو حصلنا على هذا الكتاب لاستطعنا أن نستغني عن كل كتب التفسير المتأخرة عنه، ولكنَّه يبدو ـ للأسف ـ مفقوداً بالكلية!.

ولكنه وُجدت له ثلاثُ نسخٍ خطية في مطلعِ هذا القرن، وهذا من فضل الله: نسخةٌ عند أُمراءِ حائل في نجد من آلِ الرشيد، ونسخةٌ في دار الكتب المصرية، ونسخةٌ في دار الكتب الأحمدية في حلب.

فجَمَعَتْ شركةُ مصطفى البابي الحلبي هذه النسخ، وأصدرتْ أولَ طبعةٍ لتفسيرِ الطبري سنة ١٣٢١هـ ـ ١٩٠١م.

ثم ظهرت الطبعةُ الثانية لتفسير الطبري، حيث طُبعَ بمطبعةِ بولاق الحكومية، وعلى هامشه تفسيرُ القمي النيسابوري، واستغرقت طباعتُه ثماني سنوات: ١٣٢٣ ـ ١٣٣٠هـ، الموافق: ١٩٠٣م ـ ١٩١٠م.

والطبعةُ الثالثة لتفسيرِ الطبري هي أهمُّ طبعاته. وصدرتْ عن (شركةِ مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي) بمصر، واستغرقتْ أربعَ سنوات: ١٣٧٣ ـ ١٣٧٧هـ. الموافق: ١٩٥٤ ـ ١٩٥٧م. وظهر في ثلاثين جزءاً.

وروجعَتْ هذه الطبعةُ على عدةِ نسخٍ خطيةٍ جديدة، وأشرفَ عليها هيئةٌ من العلماء، على رأسِهم مصطفى السّقّا، وضَبَطَ العلماءُ النص، وشرحوا الشواهد الشعرية، وعملوا لكلِّ جزءٍ فهارسَ ثلاثة: فهرسٌ للآيات المفسرة وفهرسٌ للموضوعات، وفهرسٌ للقوافي.

وكتبَ مصطفى السّقّا خاتمة هذه الطبعة في نهاية الجزء الثلاثين، وبيَّنَ عملَ اللجنةِ في تصحيح هذه الطبعة من التفسير.

وأصدرتْ شركةُ مصطفى الحلبي طبعةً مصورةً من هذه الطبعة سنة: ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م.

وأصدرتْ دارُ الفكر في بيروت طبعةً مصوَّرة لهذه الطبعة، لكنَّ دارَ الفكرِ حذفَتْ مقدمـةَ الناشرِ الحلبي، وحذفَتْ كلمـةَ مصطفى السّـقّا مصحِّحَ طبعة الحلبي، ولـم تشـر إلى تلك الطبعـة المتقنة للتفسير، وهذا يتنـافى مع الأمانـةِ العلمية!!.

وقام العالمان الأخَوان أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر بإصدارِ طبعةٍ محققة لتفسير الطبري، وأصدرتْها دارُ المعارف بمصر.

وبُدِيءَ بإصدارِ هذه الطبعة سنة ١٣٧٤هـ ـ ١٩٥٤م. وأصَدَر الأَخَوان أحمد ومحمود ثلاثةَ عشر جزءاً محقَّقاً من التفسير حتى منتصف سورةِ الأنفال تقريباً، وذلك في خمس سنوات تقريباً، حتى منتصف سنة ١٩٥٨. حيثُ توفي العلاّمة أحمد شاكر في ١٤/٦/١٩٥٨ـ٢٦/١١/١٣٧٧هـ. ونعى محمودُ شاكر أخاه في مقدمة الجزء الثالث عشر.

وأصدرَ محمود شاكر الجزء الرابع عشر سنة ١٩٥٨. وأصدرَ الجزءَ الخامس عشر بعد حوالي سنتين، وذلك سنة ١٩٦٠.

وتوقَّفَ عن إصدارِ الجزء السادس عشر حوالي ثماني سنوات، لصوارفَ ومعوِّقـاتٍ عديـدة، منها سـجنُه حـوالي سـنتين لأنـه وقفَ أمـامَ المستشـرقين والماركسيين في مصر، الذين كانت تدعمهم حكومة الثورة!.

وأصدرَ الجزءَ السادس عشر سنة ١٣٨٨هـ ـ ١٩٦٨م. وتوقف عند تفسير الآية (٢٨) من سورة إبراهيم. وكان عددُ الآثارِ من أحاديث وأقوال الصحابة والتابعين فيه (٢٠٧٨٧) أثراً.

وبذلك توقّفَ الأستاذُ محمود شاكر عن تحقيقِ تفسير الطبري، وتوقَّفَ إصدارُ هذه الطبعةِ المحققة المخدومة من التفسير، وقدَّرَ اللهُ وما شاء فعل.

وقد توفيَ الأستاذُ المحقق محمود شاكر رحمه الله سنة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م. وبذلك خسـرَ الدارسون والباحثون كثيراً لعدمِ إكمالِ تحقيق تفسير الطبري، لأنَّ ما صدرَ منه في الستة عشر جزءاً هو أقلُّ من نصفِ التفسير! ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وقد اختُصِرَ تفسيرُ الطبري عدة مختصرات:

اختصرَهُ من السابقين أبو يحيى محمد بن صُمادح التُّجيبي الأندلسي، المتوفى سنة: ٤٨٤هـ. وهو مجردُ تفسيرٍ لغريب القرآن مأخوذٍ من تفسير الطبري. وقد طَبَعَتْ هذا المختصرَ دارُ الشروق على هامش المصحف، وأسمته (مصحف الشروق المفسر الميسر).

وأصدرَ الشيخ محمد علي الصابوني والدكتور صالح رضا (مختصر تفسير الطبري) في مجلدين اثنين، وهو تلخيصٌ موجز جداً، لم يذكُر فيه من علومِ الطبري في تفسيره إلا ما ندر[1].

واختصرَ تفسيرَ الطبري الدكتور بشار عواد معروف وعصام فارس، اكتفيا فيه بذكر ترجيحات الإمام الطبري في تفسيره، ولم يُسجِّلا شيئاً من مباحثه العلمية المختلفةِ العديدةِ في تفسيره.

ومَنَّ اللهُ عليَّ بتهذيب تفسير الطبري، حيثُ أصدرْتُ سنة ١٤١٨ ـ ١٩٩٧. كتاب (تفسير الطبري: تقريب وتهذيب) في سبعةِ مجلداتٍ كبيرة، سجلْتُ فيه خلاصةَ التفسير، واستبعدتُ منه ما لا فائدة فيه، وما لا داعي له، وما لم يصح. والحمدُ لله رب العالمين!.

رسالة الإمام الطبري في أصول التفسير:

تحدَّثنا في الفصلِ الأول من هذه الدراسة عن (حركةِ التفسير في مسيرتها التاريخية)، وأشرنا إلى أهمِّ مرحلةٍ من مراحلِ حركةِ التفسير، والتي أسميناها: (التفسير في طور التأصيل)، وقلنا: إنَّ منهجَ التفسير في هذه المرحلة هو: (المنهج الجامع). وذكرنا أنَّ الإمامَ ابنَ جرير الطبري هو الذي يمثلُ هذه المرحلة، فهو الذي (أصَّلَ) علمَ التفسيرِ تأصيلاً راسخاً موضوعياً.

---

(١) انظر (الإمام الطبري) للدكتور محمد الزحيلي، ص١١٤ ـ ١١٥.

منهجُ ابن جرير في التفسير هو (المنهج الجامع). الجامعُ بين الخطَّيْن الأساسيَّيْن في التفسير: خطُّ التفسيرِ بالمأثور القائم على النقلِ والرواية، وخطُّ التفسير البياني القائم على اللغة والبيان.

جمعَ ابنُ جرير الطبري بين الخطيْن السابقيْن: المأثورِ والبيان، ونسَّقَ بينهما في تفسيره، ومَزَجَ بينهما مزجاً موضوعياً، وخرجَ منها باستنتاجاتِه واستنباطاته واستدلالاته.

ولهذا كان المنهجُ الجامعُ في التفسير يقومُ على ثلاث قواعد: الأثر، واللغة، والنظر.

وتفسيرُ ابن جرير هو خيرُ منْ يمثِّلُ منهجَ (التفسير الأثري النظري). وقد أخطأَ بعضُ الدارسين عندما اعتبروه ممثِّلاً للتفسير بالمأثور، وأَدرجوه ضمنَ التفاسير المأثورة، ونحن لم نتابعهم على هذا الخطأ، لأنه تفسيرٌ بالأثرِ والنظر، وجامعٌ بين التفسير والتأويل.

لقد جمعَ أبو جعفر ابن جرير التفاسير السابقة بخطَّيْها: المأثورِ واللغة، وأخذَ منها ما يريد، فكانت مصادرَ له في تفسيره.

من مصادر ابن جرير في التفسير بالمأثور: صحيفةُ علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: أو قل: تفسيرُ ابن عباس. وتفاسيرُ التابعين المأثورة، مثل: تفسير مجاهد، وتفسير قتادة، وتفسير عكرمة، وتفسير عطاء، وتفسير سعيد بن جبير، وتفسيرُ أبي العالية، وتفسيرُ الحسن البصري، وتفسيرُ إسماعيل السدي. وتفاسيرُ أَتباع التابعين، كتفسيرِ عبد الرحمن بن زيد بن أسلم، وتفسير عبد الرزاق الصنعاني، وتفسير مقاتل بن حيان، وتفسير عبد الملك بن جريج، وتفسير سفيان الثوري، وتفسير وكيع بن الجراح، وتفسير يحيى بن اليمان، وغيرهم.

ومن التفاسير اللغوية التي اعتمد عليها: مجازُ القرآن لأبي عبيدة معمر ابن المثنى، ومعاني القرآن لأبي زكريا: يحيى بن زياد الفراء، ومعاني القرآن لأبي الحسن سعيد بن مسعدة، المشهور بالأخفش الأوسط، ومعاني القرآن

لأبي علي محمد بن المستنير المشهور بقطرب، ومعاني القرآن لعلي بن حمزة الكسائي.

وكان اعتمادُه على كتابِ الفراء أكثر، وقد طُبعَ كتابُه في ثلاثة أجزاء.

ولقد جمعَ ابنُ جرير معظمَ التفاسيرِ السابقة، ومعظمُها فُقِدَ فيما بعد، ولهذا كان تفسيرُه هو المرجعَ في معرفةِ أقوالِ الصحابة والتابعين وتابعيهم[1].

وقبلَ أنْ نتعرفَ على قواعدِ منهج الطبري في التفسير نأخذُ هذه القطعة من مقدمة تفسيره (خطبة التفسير).

قال: «اعلموا ـ عبادَ اللهِ رحمَكم اللهُ ـ أنَّ أحقَّ ما صُرِفَتْ إلى علمه العناية، وبُلِغَتْ في معرفتِه الغايةُ، ما كان للهِ في العلمِ بـه رضى، وللعالِم به إلى سبيل الرشاد هدى.

وإنَّ أجمعَ ذلك لباغيه، كتابُ الله الذي لا ريبَ فيه، وتنزيلُه الذي لا مريةَ فيه، الفائزُ بجزيلِ الذخر وسنيِّ الأجرِ تاليه، الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيمٍ حميد.

ونحنُ ـ في شرح تأويلِهِ ـ وبيانِ ما فيه من معانيه ـ مُنشِئون ـ إنْ شاءَ الله ذلك ـ كتاباً مستوعِباً لكلِّ ما بالناس إليه الحاجةُ من علمه، جامِعاً، ومن سائرِ الكتب غيرِه في ذلك كافياً، ومُخبرون في كلِّ ذلك بما انتهى إلينا من اتفاقِ الحجة فيما اتفقتْ عليه منه، واختلافِها فيما اختلفتْ فيه منه. ومُبيِّنو عِلَلَ كلِّ مذهب من مذاهبهم، ومُوَضِّحو الصحيح لدينا من ذلك. بأوجزَ ما أمكنَ من الإيجاز في ذلك، وأخصرَ ما أمكنَ من الاختصار فيه.

واللهَ نسألُ عونَه وتوفيقَه لما يقرِّبُ من محَابِّه، ويُبعدُ من مساخطِه»[2].

وعندما نمعنُ النظرَ في هذه القطعةِ من المقدمة، فإننا نجدُها تشيرُ إلى نظرةِ

---

(١) انظر (الإمام الطبري) للزحيلي، ص١٠٢ ـ ١٠٤.

(٢) تفسير الطبري بتحقيق محمود شاكر رحمه الله: ١/ ٦ ـ ٧. وطبعة دار الفكر.

الطبري للتفسير، وإلى منهجه فيه، وإلى طريقتِه في كتابته، ويمكنُ أنْ نستخرجَ منها الأُمورَ التالية:

١ ـ يريدُ الطبريُّ أنْ يجعلَ من تفسيرِه شرحاً لتأويل القرآن، وبياناً لمعانيه.

٢ ـ التأويلُ عنده قريبٌ من معنى التفسير، وهو خطوةٌ تاليةٌ للتفسير، كما قررنا.

٣ ـ جعلَ الطبريُّ تفسيرَه كتاباً مستوعِباً لكلِّ ما يحتاجُ إليه الناسُ من علمِ تفسير القرآن، بحيث يجدُ كلُّ دارسٍ حاجتَه فيه، وهذه الحاجةُ قد تكون أثريةً أو نظريةً أو لغوية أو بلاغية أو توجيهية، فتفسيرُه يلبي هذه الحاجات.

٤ ـ جعلَ الطبريُّ تفسيره جامعاً للأقوالِ المأثورة، وللمباحثِ اللغوية، وللقراءاتِ وغير ذلك.

٥ ـ يريدُ الطبريُّ أنْ يكونَ تفسيرُه كافياً لقارئه، مغنياً عن التفاسيرِ الأُخرى. وهذا أمر لا يُسلَّمُ له! فلم يوجدْ حتى الآن تفسيرٌ واحد، كافٍ شافٍ، يُغني عن كلِّ ما سواه من التفاسير. وتفسيرُ الطبري على أهميته وضرورته وفضله لم يُغنِ عن التفاسيرِ الأُخرى!!.

٦ ـ جعلَ الطبريُّ تفسيره معرضاً للأقوالِ التي اتفقَ عليها علماءُ التفسيرِ السابقون، ومعرضاً للأقوالِ التي اختلفَ علماءُ التفسيرِ فيها. وهذا معناهُ أنه سيضعُ أمامَه التفاسيرَ السابقةَ الأثرية واللغوية، ويأخذُ منها الأقوال المتفقَ عليها، والمختلفَ فيها.

٧ ـ أخذَ الطبريُّ الأقوالَ السابقة عن العلماءِ السابقين الثقات العدول، الذين شهد لهم بالعدالةِ علماءُ الرجال، ولم يأخذْ عن المتهمين أو المجروحين أو الساقطين.

٨ ـ جعلَ الطبريُّ تفسيرَه ميداناً لما يسمَّى (بالتفسير المقارَن) وصاغَهُ على أُسسِ الجدالِ والنقاشِ العلميِّ الموضوعيِّ المنهجي، فكان يوردُ فيه عِلَلَ وأدلةَ وتوجيهاتِ كلِّ مذهبٍ من مذاهبِ السابقين، وكلَّ قولٍ من أقوالهم. . وهذا من

علميتِهِ وموضوعيته، فهو أمينٌ حتى مع الأقوالِ التي يخالفُها ويراها مرجوحةً مردودة، فقبْلَ أنْ يَرُدَّها يسجلُ عللَها وأدلَّتَها.

٩ ـ وحتى لا يتركَ القارىءَ في حيرةٍ أمامَ الأقوالِ المختلفة وأدلتها، كان يذكرُ الصحيحَ عنده، والراجحَ لديه، وكان يستدلُّ له، ويذكرُ وجهَه وحجتَه.

١٠ ـ جعلَ الطبريُّ تفسيرَه موجَزاً، أوجزَ ما كان من الإيجاز، ومختصراً أخصرَ ما كان من الاختصار، فهو رغمَ كِبَرِ حجمِهِ، بحيثُ جاءَ من أكبرِ التفاسير حجماً، وأغزرِها مادة، وأكثرِها علماً، إلاّ أنه مختصرٌ موجز.

ونتذكرُ هنا ما قالَه الطبريُّ لتلاميذِه عندما أرادَ أنْ يجعلَ تفسيرَه في ثلاثين ألف ورقة، ولمّا اعترضوا على ذلك جعَلَه في ثلاثة آلافِ ورقة.

فإذا كانت الثلاثةُ آلاف ورقة بهذا الحجم، وهو مختصرٌ موجز؟ فكم سيكونُ حجم التفسيرِ لو كتبه الطبريُّ بثلاثين ألفَ ورقة كما أرادَ ذلك أوّلاً؟.

وهذا معناه أيضاً أنَّ الطبريَّ تركَ كثيراً من علم التفسير، وانتقى منه جزءاً قليلاً مختصراً موجَزاً! وهو إمامُ المفسرين بما سجلَه من علمٍ قليلٍ موجز؟ فكيف سيكون علمُه لو سجلَ كلَّ ما أرادَ قوله؟؟.

١١ ـ صاغَ الطبريُّ تفسيره بلغةٍ أدبية بيانية سلسة رائعة، وكان متمكِّناً من اللغة. فصيحَ اللسان، عاليَ البيان، بحيث يقرأُ القارىءُ تفسيرَه بسهولة، ويسيرُ معه باستمتاع.

١٢ ـ بدأَ الطبريُّ تفسيرَه بمقدمةٍ مطوَّلة، تصلحُ أنْ تكونَ (رسالةً في أُصول التفسير)، قال عنها: «وأولُ ما نبدأُ به من القولِ في ذلك: الإبانةُ عن الأسباب التي البدايةُ بها أَولى، وتقديمُها قبلَ ما عداها أحرى. وذلك: البيانُ عما في آيِ القرآن من المعاني، التي من قِبَلِها يدخلُ اللّبس، على مَنْ لم يُعانِ رياضةَ العلومِ العربية، ولم تستحكمْ معرفتُه بتصاريفِ وجوهِ منطقِ الألسُنِ السليقيةِ الطبيعية»[1].

---

(١) تفسير الطبري: ١/ ٧.

وجاءتْ (رسالةُ التفسير) المذكورةُ في عشرةِ أبواب مختلفة. احتلَّتْ حوالي مئة صفحةٍ من التفسير، وتصلحُ أنْ تُفردَ بدراسةٍ مستقلة عن (أُصولِ التفسير) كما يراها الطبري[1].

ومما يتصلُ بتفسيرِ وتأويلِ القرآن اتصالاً مباشراً الباب الخامس من تلك الرسالة.

ذكرَ الطبريُّ فيه كلامَ ابن عباس رضي الله عنهما: «التفسيرُ على أربعةِ أوجه: وجهٌ تعرفُه العربُ من كلامها، وتفسيرٌ لا يُعْذَرُ أحدٌ بجهالته، وتفسيرٌ يعلمه العلماء، وتفسيرٌ لا يعلمه إلاّ الله.

والتفسيرُ الذي لا يُعذَرُ أحدٌ بجهالته لم يُدخله الطبريُّ ضمنَ أنواعِ التأويل. لأنه لا يحتاجُ إلى تفسيرٍ أو تأويل[2].

وقد شرحَ الطبريُّ في هذا الباب أنواعَ التفسيرِ الثلاثة الأخرى، وعرضَ عليها الأمثلة والنماذج من القرآن[3].

وعادَ الطبريُّ إلى تلخيص هذه الوجوه الثلاثة في خاتمةِ رسالتِه في أُصول التفسير، فقال: «قُلنا فيما مضى من كتابنا هذا: إنَّ تأويلَ جميعِ القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: لا سبيلَ إلى الوصولِ إليه: وهو الذي استأثَرَ اللهُ بعلمه، وحجب علمَهُ عن جميع خلقه. وهو أَوقاتُ ما كان من آجالِ الأُمورِ الحادثة، التي أخبرَ الله في كتابه أنها كائنة، مثل: وقتِ قيام الساعة، ووقتِ نزول عيسى ابن مريم، ووقتِ طلوعِ الشمس من مغربها، والنفخِ في الصور، وما أشبه ذلك.

والوجه الثاني: ما خصَّ اللهُ بعلمِ تأويله نبيَّهُ ﷺ دون سائرِ أُمته. وهو

---

(١) انظر (الإمام الطبري) للزحيلي، ص١٤٠.

(٢) تفسير الطبري بتحقيق شاكر: ١/ ٧٥ ـ ٧٦؛ وطبعة دار الفكر: ١/ ٣٤.

(٣) المرجع السابق: طبعة محمود شاكر: ١/ ٧٤ ـ ٧٥؛ وطبعة دار الفكر: ١/ ٣٣ ـ ٣٤.

ما فيه مما بعبادِه إلى علم تأويله الحاجةُ، فلا سبيلَ لهم إلى علْمِ ذلك إلاّ ببيانِ رسول الله ﷺ وتأويله.

والثالث منها: ما كانَ علمُه عند أهلِ اللسان الذي نزلَ به القرآن. وذلك علمُ تأويلِ عربيته وإعرابه، لا يوصَلُ إلى علمِ ذلك إلاّ من قِبَلِهم».

وبعد ما لَخَّصَ وجوهَ تفسير ـ أو تأويل ـ القرآن الثلاثةِ لَخَّصَ أُسسَ وقواعدَ منهجِ التفسير الصحيح، وطريقةَ المفسرِ المصيبِ في التفسير، فقال:

«فإذا كان ذلك كذلك: فأحقُّ المفسرينَ بإصابةِ الحق ـ في تأويل القرآن الذي إلى علمِ تأويلِهِ للعبادِ السبيلُ ـ أَوْضَحُهم حجةً فيما تأوّلَ وفسَّر ـ مما كان تأويلُه إلى رسول الله ﷺ دون سائرِ أمتِه ـ من أخبارِ رسول الله ﷺ، الثابتة عنه: إمَّا من جهةِ النقلِ المستفيض ـ فيما وُجِدَ فيه من ذلك عنه النقلُ المستفيض ـ أو من جهةِ الدلالةِ المنصوبة على صحته. وأصحُّهم برهاناً ـ فيما ترجَمَ وبيَّنَ من ذلك ـ مما كان مُدْرَكاً علمُه من جهةِ اللسان: إمّا بالشواهدِ من أشعارهم السائرة، وإمّا من منطقِهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة، كائناً من كان ذلك المتأوِّلُ والمفسر، بعدَ أن لا يكون خارجاً تأويلُه وتفسيره ـ ما تأوَّلَ وفسَّرَ من ذلك ـ عن أقوالِ السلف من الصحابة والأئمة، والخلفِ من التابعين وعلماء الأمة»[١].

ونأخذُ من هذه الفقرةِ أنَّ وَجْهَ التفسيرِ الذي يمكنُ أنْ يخوضَ فيه المفسرون هو الوجهُ الذي جعلَ اللهُ تأويلَه إلى رسولِهِ ﷺ ـ الوجه الثاني السابق ـ والوجهُ الذي يعلمُهُ العلماء ـ الوجه الثالث السابق ـ أي أنَّ المفسرين لا يخوضون في الوجهِ الذي استأثَرَ اللهُ بعلمه ـ الوجه الأول السابق ـ.

ولا يصيبُ المفسرُ الحقَّ والصوابَ في هذين الوجهين إلاّ بشروط، هي:

١ ـ أن يكونَ المفسِّرُ واضحَ الحجةِ فيما تأوَّلَ وفسَّرَ من القرآن، بمعنى: أن يقدمَ الدليلَ المقنعَ والحجةَ القوية على كلامه، فلا يُقبلُ كلامٌ إلاّ بحجةٍ ودليل!.

---

(١) تفسير الطبري بتحقيق شاكر: ١/ ٩٢ـ٩٣؛ وطبعة الفكر: ١/ ٤١.

٢ ـ أن يعتمدَ المفسرُ على الأخبارِ المنقولةِ عن رسول الله ﷺ نقلاً مستفيضاً، وهي الأخبارُ المشهورةُ المعروفة المنتشرةُ عند الناس، التي أصبحتْ من باب المعلوم من الدين بالضرورة.

٣ ـ أن يعتمدَ على الأخبارِ المنقولةِ عن رسول الله ﷺ، مما لم تصلْ إلى درجةِ النقلِ المستفيض في النقطةِ السابقة، ولكنها دونَها في الدرجة، وهذه الأخبارُ المنقولةُ عنه لا تؤخذُ إلاّ إذا نقلَها العدولُ الثقاتُ الأثباتُ من الرجال. وهذا معناه تخريجُ الأحاديثِ المأثورةِ عن رسول الله ﷺ، وعدمُ اعتمادِ إلاّ ما صحَّ منها.

٤ ـ أن يكون المفسرُ صحيح البرهان في المباحثِ التفسيرية الأخرى، التي لا تُبنى على الأحاديثِ النبوية، بمعنى أن يكون برهانُه الذي يقدِّمُهُ صحيحاً صواباً، معتمداً على الأُسس العلمية المنهجية.

٥ ـ أن يعتمدَ في تفسيرِه اللغويِّ البيانيِّ للآيات على قواعدِ اللغة العربية، وهذا يتطلبُ منه أنْ يكونَ ملماً بأساليبِ البيان العربي، وفقهِ اللغة العربية، وقواعدِ النحو والصرف والبلاغة والتعبير.

٦ ـ أن يستشهدَ المفسرُ في تفسيرِه اللغوي بالشواهدِ الشعرية العربية، أو الجملِ النثرية العربية، المتفقةِ مع قواعد اللغة العربية.

٧ ـ أن لا يخرجَ في تأويلهِ وتفسيره عن أقوالِ السلف والخلفِ في التفسير بالمأثور. والسلفُ عند الطبري هم الصحابة، والخلفُ عنده هم التابعون.

وهذا يتطلبُ من المفسرِ أن يكونَ ملماً بأقوالِ الصحابة والتابعين وتابعيهم، وأنْ يأخذَ حاجتَه منها.

٨ ـ أن يقومَ المفسرُ بعد ذلك بتفسيرِ القرآن وتأويله، مراعياً الشروطَ السابقةَ من اعتمادِ الأحاديث الصحيحة، والتفسيرِ باللغة والبيان، وموافقةِ أقوال الصحابة والتابعين.

وهذه الشروطُ الثمانية، نضيفُها إلى النقاط الاثنتي عشرة السابقة التي

أوردناها من قبل، والتي تدلُّنا بمجموعها على أُصولِ التفسير كما عرضَها الطبري.

وهي تؤكِّدُ ما قلناه من أنَّ منهجَ الطبريِّ في التفسير يوصَفُ بأنه (منهجٌ جامع) وأنه أَصَّلَ علمَ التفسير تأصيلاً منهجياً، وأنَّ هذا التأصيلَ كان يقومُ على ثلاثة أسسس هي: الأثر، واللغة، والاستنباط!.

منهج الإمام الطبري في التفسير:

تحدَّثنا فيما سبقَ عن أحسن طرق التفسير، وبيّنّا توفُّرَها في تفاسير علماء السلف الذين تحدَّثنا عنها فيما سبق، كتفسير ابن عباس، وتفسير الحسن البصري، وتفسير سفيان الثوري.

وأحسنُ طريقِ التفسير تعني المنهجَ الصحيحَ في التفسير، وهو منهجُ التفسير الأثري النظري، وهذا المنهجُ ملحوظٌ في تفسيرِ الطبري، لأن الطبريَّ أَلَّفه على قواعدِ هذا المنهج.

والخطواتُ المرحليةُ لمنهج التفسير الأثري النظري هي: تفسيرُ القرآن بالقرآن، ثم تفسيرُ القرآن بالسنة الصحيحة، ثم تفسيرُ القرآن بأقوال الصحابة، والتابعين، ثم تفسيرُ القرآن باللغة، ثم استنباطُ المعاني والدلالات والأحكام.

وهذه الخطواتُ المرحليةُ المنهجيةُ متوفرةٌ في تفسيرِ الطبري، بحيث شكلتْ قواعدَ لمنهجه في التفسير.

١ ـ الطبري يفسر القرآن بالقرآن:

كان الطبريُّ حريصاً على تفسيرِ القرآن بالقرآن، واستحضارِ الآياتِ الأخرى في نفس الموضوع، وله في هذا مقدرةٌ فائقة، فهو حافظٌ لكتابِ الله، وهو متدبِّرٌ له، متعمِّقٌ في فهمه، متشبِّعٌ به، يُحسنُ تذكُّر واستحضارَ الآيات.

وهو يفعلُ ذلك لأنه يعلمُ أنَّ القرآنَ يفسِّرُ بعضُه بعضاً. يقولُ في مقدمته:

«اللهمَّ وفِّقنا لإصابةِ صوابِ القولِ في محكمِه ومتشابهه، وحلالِه وحرامه، وعامِّه وخاصِّه، ومُجْمَلِه ومفسَّرِه، وناسخِه ومنسوخِه. وظاهرِه وباطنه، وتأويل

آيه، وتفسيرِ مشكلِه، وألْهِمْنا التمسكَ به، والاعتصامَ بمحكمِه، والثباتَ على التسليم لمتشابهه»[1].

وقد امتلأ تفسيرُ الطبري بالآياتِ المفسَّرة التي فسَّرَ الطبريُّ بها الآيات التي بين يديها. وكان الأستاذُ محمود شاكر رحمه الله يعملُ جدولاً بهذه الآيات في كلِّ جزءٍ من أجزاءِ التفسير التي نشرها، وكان الجدولُ يزيد على خمس صفحات أحياناً!!.

ونورد على ذلك هذا المثال:

قوله تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ﴾ [البقرة: ٤٠].

وجَّهَ الطبريُّ حكمةَ نسبةِ بني إسرائيل إلى أبيهم إسرائيل ـ يعقوب ـ عليه السلام، في قوله: «يا بني إسرائيل». وقال في ذلك: «نَسَبهم اللهُ إلى يعقوب، كما نسبَ ذريةَ آدمَ إلى آدم في قوله تعالى: ﴿۞ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: ٣١].

وأوردَ قول أبي العالية ومجاهد وابن زيد في المراد بالنعمة في قوله تعالى: ﴿ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ﴾ وأنها تشملُ النعمَ عامّة، وأهمُّ ما تنطبقُ عليه نعمةُ الإيمان والإسلام لأنه لا نعمة أفضلُ من الإسلام، والنعمُ الأُخرى تابعةٌ لها. واستشهدَ على هذا بقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

واعتبرَ تذكيرَ الله بني إسرائيل بنعَمِهِ عليهم في هذه الآية على لسانِ رسول الله ﷺ، كتذكيرِ اللهِ بني إسرائيل بذلك على لسان موسى عليه السلام، واستشهدَ على هذا بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ٢٠].

---

(١) تفسير الطبري بتحقيق شاكر: ١/ ٦؛ وطبعة الفكر: ١/ ٤ ـ ٥.

ولما فسَّرَ عهدَ الله في الآية: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ اعتبر المرادَ به في الآية عهدَه إلى بني إسرائيل الذي أخذه عليهم في التوراة، من الإيمان بمحمدٍ ﷺ واتِّباعه.

واستشهدَ على ذلك بآيات القرآن: قوله تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ١٢].

وقوله تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ ـ ١٥٧][(١)].

٢ ـ الطبري يفسر القرآن بالسنة:

كان الطبريُّ يفسرُ القرآنَ بأحاديثِ رسول الله ﷺ، ويوردُ تلك الأحاديثَ بأسانيدها، ويذكُرُ طُرُقَ كلِّ روايةٍ مهما تعدَّدَت واختلفت.

ولما قمتُ بتهذيبِ تفسيرِ الطبري، وقام الأخ إبراهيم العلي بتخريج الأحاديث المرفوعةِ إلى النبي ﷺ في التهذيب، بَلَغَتْ تلكَ الأحاديثُ سبعمئة حديث بالتمام، وهذه أحاديثٌ منتقاةٌ من وسطِ أحاديث كثيرة، منها الصحيحُ المكرر، ومنها الحسن، ومنها الضعيف، ومنها المردود، وهذه الرواياتُ تربو على آلاف!.

---

(١) تفسير الطبري بتحقيق شاكر: ١/ ٥٥٣ ـ ٥٥٨؛ وطبعة الفكر: ١/ ٢٤٨ ـ ٢٥٠.

ونوردُ على تفسيرِه القرآنَ بالحديثِ هذا المثال:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦١].

لما فَسَّرَ قولـه: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، فَسَّرَهُ بحديث رسول الله ﷺ الذي يُخبرُ فيه أنَّ مَنْ غَلَّ وخانَ وسرقَ شيئاً فإنه يأتي حامِلاً له يومَ القيامة.

روى بإسناده عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله قامَ خطيباً، فوعَظَ وذكَّرَ، ثم قال: أَلا عسى رجلٌ منكم يجيءُ يومَ القيامة على رقبتِه شاةٌ لها ثُغاء (صوت الشاة)، يقول: يا رسولَ الله أَغِثْني! فأقول: لا أَملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك! ألا هل عسى رجلٌ منكم يجيءُ يومَ القيامة على رقبته فرسٌ لها حَمْحَمَة (صوت الفرس)، يقول: يا رسول الله: أغِثني! فأقول: لا أَملكُ لك شيئاً، قد أبلغتُك! ألا هل عسى رجلٌ منكم يجيءُ يوم القيامة على رقبته صامِتٌ (ذهب وفضة)، فيقول: يا رسولَ الله أَغِثني! فأقول: لا أملكُ لك شيئاً قد أبلغتُك! ألا هل عسى رجلٌ منكم يجيء يومَ القيامة على رقبته رِقاعٌ تَخْفق (ثياب تلوح)، يقول: يا رسولَ الله: أَغِثني، فأقول: لا أملكُ لك شيئاً! قد أبلغتُك!»[(١)].

وأوردَ طريقيْن آخرين لهذا الحديث بإسنادين مختلفين.

وروى بإسنادِه عن أبي حميد الساعديِّ رضي الله عنه قال: استعملَ رسولُ الله ﷺ رجلاً من الأَزْد، يقال له: (ابنُ الأُتْبِيَة) على صدقاتِ بني سليم. فلمّا جاءَ قال: هذا لكم، وهذا هديةٌ أُهديتْ لي!.

فقالَ رسول الله ﷺ: أَفلا يجلسُ أحدكمُ في بيته، فتأتيه هديتُه! ثم حمدَ الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد: فإني أستعملُ رجالاً منكم على أُمورٍ مما ولأني

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٣٠٧٣؛ ومسلم برقم: ١٣٨١؛ وأحمد: ٢/٤٢٦؛ وانظر تهذيب تفسير الطبري: ٢/ ٤٣٢ ـ ٤٣٣.

الله، فيقول أحدهم: هذا الذي لكم، وهذا هديةٌ أُهديت إليّ، أفلا يجلسُ في بيتِ أبيه أو في بيت أُمّه، فتأتيه هديتُه؟.

والذي نفسي بيده لا يأخذُ أحدُكم من ذلك شيئاً إلاّ جاءَ به يومَ القيامة يحملُه على عنقِه، فلا أعرِفنَّ ما جاء رجل يحملُ بعيراً له رُغاء، أو بقرةً لها خُوار، أو شاةً تَيْعَر (تصيح بصوت عال). ثم رفعَ يدَه فقال: ألا هل بلّغْت!؟»[1].

وأوردَ طريقين آخرين لحديث أبي حميد الساعدي عن (ابن الأُتْبِيَة).

ومجموعُ طرقِ ورواياتِ الأحاديث التي أَوردها الطبري في تفسير قوله: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ ثلاثَ عشرةَ طريقاً ورواية! وهذا عدد كبير![2].

٣ ـ الطبري يفسر القرآن بأقوال الصحابة والتابعين:

كان الطبريُّ يفسرُ القرآنَ بأقوالِ الصحابة والتابعين، ويُكثِرُ منها، وتفسيرُه حاوٍ للكثيرِ من أقوالهم وتفاسيرهم.

وكان يوردُ أقوالَهم مسندة، ويوردُ أكثرَ من طريقٍ للقول الواحد، وإذا اختلفتْ أقوالُ الصحابة والتابعين في التفسير كان يوردُها ويذكرُ أدلتهم وبراهينَهم، ويرجحُ الراجحَ المناسبَ منها، ويستدلُّ له.

ونوردُ على هذا مثالاً:

تفسير قوله تعالى: ﴿حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨].

ذكرَ الطبريُّ اختلافَ الصحابةِ والتابعين في تعيين الصلاة الوسطى:

---

(١) أخرجه البخاري برقم: ٢٩٤٦؛ والبيهقي في السنن: ٧/ ١٦؛ وأحمد في مسنده: ٥/ ٤٢٣ ـ ٤٢٤.

(٢) انظر تفسير الطبري بتحقيق شاكر: ٧/ ٣٥٦ ـ ٣٦٤؛ وتهذيب تفسير الطبري: ٢/ ٤٣١ ـ ٤٣٣.

١ ـ فقال بعضُهم : هي صلاةُ العصر .

وهذا قولُ عليٍّ بن أبي طالب، وعبد الله بن عباس، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وأبي سعيد الخدري، وعائشة، وأم سلمة، والحسن البصري، وإبراهيم النخعي، وسعيد بن جبير، وزر بن حبيش، وقتادة، والضحاك، ومجاهد.

والآثارُ التي أوردها كانت ثلاثة وأربعين أثراً، كلُّها مسندة![1].

وذَكَرَ حجة هذا القول، وهي حديثٌ مرفوع.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: شَغَلَ المشركونَ رسول الله ﷺ عن صلاةِ العصر حتى اصفرَّت الشمسُ أو احمرَّت. فقال ﷺ: «شَغلونا عن الصلاةِ الوسطى، ملأَ اللهُ أجوافَهم وقبورَهم ناراً»[2].

وعن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ يومَ الأحزاب: «شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى آبتِ الشمس، ملأَ اللهُ قبورَهم وبيوتَهم ناراً»[3].

وأوردَ ستاً وعشرين طريقاً وروايةً لهذه الأحاديثِ المرفوعة التي يصرِّحُ فيها رسولُ الله ﷺ بأنَّ الصلاةَ الوسطى هي صلاةُ العصر[4].

٢ ـ وقال آخرون: الصلاةُ الوسطى صلاةُ الظهر.

وهذا قولُ زيد بن ثابت، وأبي سعيد الخدري، وعبد الله بن عمر. وأوردَ ثلاثَ عشرةَ روايةً وطريقاً لهذا القول[5].

---

(١) تفسير الطبري بتحقيق شاكر: ٥/ ١٦٨ ـ ١٨٢.
(٢) أخرجه مسلم برقم: ٦٢٨؛ والترمذي برقم: ١٨١؛ وابن ماجه برقم: ٦٨٦؛ وأحمد: ١/ ٣٩٢.
(٣) أخرجه البخاري برقم: ٢٩٣١؛ ومسلم برقم: ٦٢٧؛ وأبو داود برقم: ٤٠٩؛ والترمذي برقم: ٢٩٨٤.
(٤) تفسير الطبري تحقيق شاكر: ٥/ ١٨٢ ـ ١٩٨.
(٥) المرجع السابق: ٥/ ١٩٨ ـ ٢٠٧.

٣ ـ وقرأ آخرون: حافِظوا على الصلواتِ والصلاةِ الوسطى وصلاةِ العصر. وهذه قراءةٌ تفسيرية. توضّحُها الآثارُ السابقة.

وأوردَ عشرَ رواياتٍ مسندةٍ لهذا القول.

٤ ـ وقال آخرون: الصلاةُ الوسطى صلاة المغرب. وهذا قولُ قبيصة بن ذؤيب.

٥ ـ وقال آخرون: الصلاةُ الوسطى صلاةُ الفجر.

وهذا قولٌ منسوبٌ لابن عباس، وأبي موسى الأشعري، وأبي العالية، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة، ومجاهد، وعبد الله بن شداد، والربيع بن أنس.

وأوردَ سبعَ عشرة روايةً مسندةً لهذا القول.

٦ ـ وقال آخرون: الصلاةُ الوسطى إحدى الصلوات الخمس، ولا نعرفُها بعينها، وهذا قولٌ منسوبٌ لعبد الله بن عمر، ونافع مولاه، والربيع بن خثيم، وسعيد بن المسيب.

وأوردَ ثلاث رواياتٍ مسندةٍ لهذا القول.

وكان يذكُرُ علّةَ كلِّ قولٍ من الأقوالِ الستة السابقة، ويبينُ دليلَه وبرهانَه.

بعدَ ذلك رجَّحَ أنَّ الصلاة الوسطى هي صلاةُ العصر قال: «الصواب من القول في ذلك ما تظاهرَتْ به الأخبارُ عن رسول الله ﷺ التي ذكَرناها قبلُ في تأويله، وهو أنها العصر».

واستدلَّ لهذا القولِ الراجح بأحاديثَ أُخرى عن رسولِ الله ﷺ، إضافةً إلى الأحاديثِ المرفوعة الصحيحة السابقة.

منها حديثُ أبي بصرةَ الغفاري، وحديثُ بُريدة، وحديثُ عمارة بن رُوَيبَة، رضي الله عنهم.

وأوردَ سبعَ رواياتٍ مسندةٍ لتلك الأحاديث.

وهكذا نرى أنَّ الإمامَ الطبريَّ قد فسَّرَ الآيةَ بأحاديثَ مرفوعةٍ لرسول الله ﷺ، وأقـوالٍ موقوفـةٍ على الصحابة والتابعين. من هذه الأحاديث والأقوال ما هـو صحيح، ومنها ما هو ضعيف.

وكانت الرواياتُ التي أَوردَها مئةً وتسعَ عشرة رواية. وقد ملأت ستين صفحة من التفسيرِ الذي حققه محمود شاكر رحمه الله.

٤ ـ الطبري يفسِّر القرآن باللغة:

تفسيرُ القرآنِ باللغة العربية: نحوها وصرفِها وبلاغتِها وبيانِها واشتقاقِها وتصريفها وشواهدها وتوجيهاتها قاعدةٌ أساسية من قواعدِ منهج الإمامِ الطبري في التفسير. ولا ننسى ما قلناهُ سابقاً من أنَّ تفسيرَه مبنيٌّ على ثلاثةِ أركان: الأثر، واللغة، والنظر.

لقد كـان الإمامُ الطبريُّ متمكِّنـاً من اللغةِ العربية، متبحِّراً فيها، متذوِّقاً لأساليبها، واحتكمَ إليها في تفسيرِ القرآن.

وكانَ الأستاذ محمود شاكر يعملُ جدولاً لمباحثِ اللغة في نهايةِ كلِّ جزءٍ من أجزاءِ التفسير الستة عشر التي حقَّقها، وفيه من دقائقِ الإشارات والمباحث والتحقيقات اللغوية. ويعملُ جدولاً آخر لمعاني كلماتِ القرآنِ الواردةِ في الجزء واشتقاقها.

ونوردُ على ذلك هذا المثال:

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

قال ابنُ جرير: اختلفَ أهلُ التأويل في معنى قوله: «وفار التنور».

١ ـ فقال بعضهم: التنّور: وجهُ الأرض. والمعنى: انبجسَ الماءُ من وجه الأرض. وذَكَـرَ مَنْ قالَ هذا: ابنُ عبـاس وعكرمة والضحاك. وأوردَ أقوالَهم مسندة.

٢ ـ وقال آخرون: التنّور: تنويرُ الصبح وإشراقُه وضياؤُه، من قولهم: نَوَّرَ الصبحُ تنويراً. وهذا قولُ علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وأوردَ خمسَ رواياتٍ مسندة في ذلك.

٣ ـ وقال آخرون: التنُّور: أشرفُ وأَعلى مكانٍ في الأرض. والمعنى: فارَ أَعلى وأشرفُ مكانٍ في الأرض بالماء. وهذا قولُ قتادة. وأوردَ له روايتين مسندتين.

٤ ـ وقال آخرون: التنّور: هو الذي يُخبزُ به الخُبز. وهذا قولُ ابن عباس والحسن البصري ومجاهد والشعبي والضحاك. وأوردَ عشرَ رواياتٍ مسندةٍ لهذا القول.

قالَ ابنُ عباس: المعنى: إذا رأيتَ تَنّورَ أَهلِك ينبعُ ويخرجُ منه الماء، فإنه إهلاكُ قومك.

أَمامَه أربعةُ أَقوال في معنى (التنّور) عن الصحابة والتابعين، فما هو الراجحُ منها؟ الراجحُ هو القولُ المتفقُ مع اللغة، لأنه لا يجوزُ مخالفةُ اللغة، فالقرآنُ يحتكمُ في فهمِه إلى الأغلبِ الأشهرِ من معانيه عند العرب.

لنستمعْ إلى الإمامِ أبي جعفر وهو يقول: «.. قالَ ابنُ عباس: (فارَ): نَبَعَ يفور، فَوْراً، وفُؤُوراً، وفوراناً. وذلك إذا سارَتْ دفعتُه!.

«قال أبو جعفر: وأَولى هذه الأقوالِ عندنا بتأويل (التنور) قولُ مَنْ قال: هو التنّور الذي يُخبزُ فيه.

لأنَّ هذا هو المعروفُ من كلامِ العرب. وكلامُ الله لا يوجَّهُ إلاّ إلى الأغلبِ الأشهرِ من معانيه عند العرب. إلاّ أَنْ تقومَ حجةٌ على شيء منه بخلافِ ذلك، فيُسَلَّمُ لها. وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به، لإفهامهم معنى ما خاطبهم به»[1].

---

(١) تفسير الطبري بتحقيق شاكر: ١٥/ ٣٢١؛ وانظر الموضوع كله فيه: ١٥/ ٣١٧ـ ٣٢١.

وهذه قاعدةٌ في التفسيرِ اللغوي للقرآن قرَّرَها ابن جرير هنا، وفي مواضعَ عديدةٍ من تفسيره، وأدارَ تفسيرَه عليها. فاللغةُ هي الأصلُ في تفسير القرآن، وتُحملُ ألفاظُه على الأشهرِ من معانيها في اللغة، وليسَ على الضعيفِ أو الشاذ!.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ [هود: ٤٠] عندَ ابنِ جرير: عند فورانِ التنورِ بالماء احملْ في السفينةِ من كلِّ مخلوق: ذكراً وأنثى.

فالزوجان في الآيةِ عنده مُثَنّى: الذكَرُ زوج، والأُنثى زوج، والاثنان زوجان اثنان: «من كل زوجين اثنين».

ورَوى بإسنادِه عن مجاهد قوله: الواحدُ زوج، والاثنان زوجان، أي: ذكرٌ وأُنثى من كل صنف.

وأوردَ سبعَ رواياتٍ مسندةٍ لكلٍّ من مجاهد وقتادة والضحاك في تقريرِ ذلك المعنى الذي اختارَهُ ابنُ جرير وفسَّرَ به الآية.

ثم قال ابن جرير: وقال بعضُ أهلِ العلم بكلامِ العرب من الكوفيين: الزوجان في كلام العرب: الاثنان. يقال: عليه زوجا نعال. إذا كان عليه نعلان. ولا يقال: زوجُ نعال!.

وقال بعد ذلك: وقالَ بعضُ البصريين من أهل العربية: الزوجين: الضربين. والمرادُ بها الذكورُ والإناث. واستشهدَ له ببيت من الشعر.

وقال آخرون من البصريين: الزوج: اللون. وكلُّ ضربٍ يُدعى لوناً. واستشهدَ له ببيتٍ من الشعر للأعشى، وللبيد بن ربيعة.

وذكرَ هذا القائلُ أنَّ الحسنَ البصري قال في قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩]: السماءُ زوج، والأرضُ زوج، والشتاء زوج، والصيف زوج، والليلُ زوج، والنهار زوج، حتى يصير إلى الله الفرد، الذي لا يشبهه شيء[1].

---

(١) تفسير الطبري بتحقيق شاكر: ١٥/ ٣٢٢ـ٣٢٤.

وهذه الأقوالُ أوردَها الطبريُّ شواهدَ له على أنَّ المرادَ بالزوجين في قوله تعالى: ﴿ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ اثنان من كلِّ صنف، الذكر والأنثى، فالذكرُ زوج، والأنثى زوج، والاثنان زوجان.

والدليلُ على ذلك اللغةُ العربية، وكلامُ الشعراء العرب، وفهمُ نحويّي البصرة والكوفة، وتفسيرُ علماء التابعين كمجاهد وقتادة.

فابنُ جرير قدَّمَ شواهد قوية مأمونة على تفسيره الذي قال به.

لقد وقفَ في تفسيرِ الآية التي نتحدثُ عنها ثلاث وقفاتٍ لغوية: معنى (فار)، واشتقاقُ الكلمة. ومعنى (التنور)، والدليلُ اللغويُّ على الراجح في معناه. ومعنى (زوجين)، والشاهدُ اللغويُّ له.

٥ ـ الطبري يستنبط الدلالات واللطائف والأحكام:

خَطا الطبريُّ في تفسيره الخطوة الأخيرة من خطواتِ أَحسنِ طرقِ التفسير، وحققَ فيه القاعدة الأخيرة من قواعدِ منهجِ التفسير الأثري النظري، وهي استنباطُ المعاني والأحكام، واستخراجُ الدلالاتِ واللطائف، وإعمالُ الرأي، ودقةُ النظر، وعمقُ الاجتهاد، وأَصالةُ التأويل، وهذه ثمرةٌ لما قبلَها من قواعدِ المنهجِ التي أَشرنا لها.

وتفسيرُ الطبري مليءٌ باستنباطاته وروائعِه التأويلية.

ونكتفي بالإشارةِ إلى هذه القاعدة بهذا المثال:

تفسير قوله تعالى: ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧] من مباحثِ أبي جعفر في تفسيرِ هذه الآية أنه تساءل: مَنْ هؤلاء المغضوبُ عليهم الذين أَمَرَنا اللهُ أنْ نسأله أنْ لا يجعلَنا منهم؟.

قال: هم اليهود. وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

ثم تساءلَ أبو جعفر: ما الدليلُ على أنَّ المغضوبَ عليهم هم اليهود؟.

فأجابَ بأنَّ الدليل هو الحديث. فروى بإسناده عن عديٍّ بن حاتم الطائي رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: المغضوبُ عليهم هم اليهود[1].

ثم أوردَ أربع عشرة روايةً مسندةً لحديثٍ مرفوع أو قولٍ موقوف على صحابي أو تابعي بأنَّ المغضوبَ عليهم هم اليهود.

ثم بيَّنَ أبو جعفر معنى وصفة غضبِ اللهِ عليهم:

فقال بعضُهم: معنى غضبِ اللهِ عليهم إحلالُ عقوبته بهم، إمّا في دنياه، وإمّا في آخرتِه. لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥].

وقال آخرون: غضبُ اللهِ عليهم ذمُّه لهم ولأفعالِهم.

وقال آخرون: فرْقٌ بين غضبِ الله وغضبِ المخلوقين، فغضبُ المخلوقين لأنَّ غيرهم يزعجونَهم ويؤذونَهم، فيشقُّ ذلك عليهم ويَغضبون منهم.

أمّا اللهُ فإنه لا يستطيعُ المخلوقون ضرَّه ولا نفعَه، والغضبُ صفةٌ له تليقُ بعظمته، كما أنَّ العلمَ صفةٌ له، والقدرةُ صفةٌ له.

ولما فسر قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ وقفَ وقفةً مطولةً يبينُ فيها دورَ كلمةِ (لا) في الجملة، وردَّ على منْ زعمَ أنَّها زائدة، جيءَ بها لتتميم الكلام. وهي وقفةٌ لغويةٌ نحويةٌ رائعةٌ عميقة.

وخلاصتُها أنَّ كلمة (لا) لتأكيدِ النفي، وأن المعنى: اهدنا الصراطَ المستقيم، الذي هو صراطُ الذين أنعمتَ عليهم، لا المغضوب عليهم، ولا الضالين.

ثم تساءل: مَن هم الضالون؟ وأَجابَ بأنهم النصارى.

---

(١) أخرجه الترمذي برقم: ٢٩٥٤؛ والطيالسي برقم: ١٠٤٠؛ وابن حبان برقم: ٧٢٠٦؛ وأحمد: ٤/ ٣٧٨-٣٧٩.

وهم الذين ذَكَرهم اللهُ في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

والدليلُ على ذلك حديثُ رسول الله ﷺ، قال: «الضالون: هم النصارى».

وأوردَ أربعَ عشرة روايةً مسندةً في أنَّ الضالين هم النصارى.

ثم عمَّمَ ذلك بأنَّ كلَّ مَنْ حادَ عن قصدِ السبيل، وسلكَ غيرَ المنهجِ القويم، بأنه ضالّ، لأنه ضلَّ وجْهَ الطريق.

وسمّى الله النصارى ضالّين لأنهم أخطؤوا منهجَ السبيل، وأخذوا في الدين في غيرِ الطريقِ المستقيمِ.

وبعدَ ذلـك وقفَ أبو جعفر ليسأل: أوليس اليهودُ ضالّين أيضاً، لأنهم سلكوا الطريقَ الأعوجَ في الدين؟ فلماذا خصَّ اللهُ اليهودَ بأنهم مغضوبٌ عليهم؟ وخصَّ النصارى بأنهم ضالون؟.

وأجابَ بأنَّ الفريقيْن كليهما مغضوبٌ عليهم وضالّون. ولكن اللهَ وصفَ كلَّ فريقٍ منهما بأبرزِ صفةٍ تنطبقُ عليه، وإنْ كانَ له صفاتُ ذمٍّ أُخرى زيادةً عليها!.

ونسبةُ الضلال إلى النصارى في قوله تعالى: ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ له دلالةٌ في العقيدة. فلم يَنسب اللهُ الإضلالَ إليه، ولم يقل عنهم: (المضلَّلون)، كما قال في اليهود: (المغضوب عليهم).

وردَّ على (بعضِ أهلِ الغباءِ من القدرية) في سوءِ فهمهم للآية. وبيَّنَ أن الحكمةَ من ذلك أنَّ الضلالَ نُسِبَ إليهم لأنهم هم الذين باشرَوه وفَعلوه واختاروه، وبذلكَ كانوا السببَ المباشرَ في حصوله، وهذا لا يمنعُ منْ أَنْ يكونَ لله سببٌ آخر في هذا الضلال، لأنه هو الذي يَهدي من يشاء ويُضلُّ من يشاء، لوجودِ آياتٍ أُخرى تصرِّحُ بذلك.

أي أنَّ الضلالَ نُسِبَ إلى النصارى باعتبارِه كَسْباً منهم، هم الذين اكتسبوه

وفعلوه، وهو يُنْسَبُ إلى الله تعالى باعتباره إرادةً منه، أَوجدَه اللهُ وأنشأه، وجعلَ عبادَه قادرين على اكتسابه وفعله! .

وهذا من روائع نظراته واستنباطاته، وتوفيقِه بين الآيات، وحسنِ فهمِها وتوجيهها.

وهكذا كان منهجُ الطبريِّ في التفسير منهجاً أصيلاً جامعاً، صادراً عن علمٍ غزير، ومنهجيةٍ موضوعية فريدة، جمعَ بين اللغةِ والأثر والنظر، وفسر القرآنَ بالقرآن والسنة وأقوالِ الصحابة والتابعين ومَن بعدهم، وسَجَّلَ فيه روائعَ نظرِه واستنباطه واجتهاده.

من مزايا تفسير الطبري وأهم المآخذ عليه:

تفسيرُ الإمامِ الطبري أهمُّ التفاسيرِ على الإطلاق، والطبريُّ إمامُ المفسرين بجدارة، وقد توسَّعنا في الكلام عن الطبري وتفسيره قليلاً في هذا المبحث لأنهُ يستحقُّ ما قلناه، ولم نَقُلْ إلا كلاماً قليلاً عنه وعن تفسيره، فهناك الكثيرُ من الكلام الذي يجبُ أن يُقالَ عنه، لكنَّ المقامَ في هذه الدراسة لا يتسعُ لذلك.

ونختمُ كلامَنا هنا بالإشارةِ إلى أهمِّ مزايا التفسير، وأهمِّ المآخذ التي تُؤخَذُ عليه.

لقد توفَّرَتْ لتفسيرِ الطبري (جامع البيان عن تأويل آي القرآن) مزايا عديدة، جعلَتْهُ يحتلُّ الصدارة في كتبِ التفسير. من أهمها:

١ ـ تأسيسُ التفسيرِ على ثلاثةِ أُسُسٍ متوازنة ضرورية في التفسير، وهي: اللغة والأثر والنظر.

٢ ـ الالتزامُ بأحسنِ طرق التفسير، من تفسير القرآن بالقرآن وبالسنة وبأقوال الصحابة والتابعين وتابعيهم.

٣ ـ جمعُ أقوالِ أَعلامِ المفسرين من الصحابة والتابعين وتابعيهم والاحتفاظُ بخلاصةِ تفاسيرَ مأثورةٍ سابقة، فُقدتْ وضاعَتْ أُصولُها.

٤ ـ ذكْرُ الأسانيدِ المختلفة للروايات المأثورة، ولو تعددت طرقُها، وهذا ضروريٌّ لتخريجِ تلك الروايات والحكمِ عليها، وقبولِ الصحيح منها، ورفْضِ الضعيف. ولو حُذفت الأسانيدُ ـ كما فعل مفسرون لاحقون ـ لما أمكن ذلك!.

٥ ـ تسجيلُ الكثيرِ من الشواهدِ الشعرية في تفسير الآيات، وحفظُها من الضياع.

٦ ـ الجمعُ بين التفسير والتأويل، وعدمُ الوقوف عند التفسيرِ فقط، والتنسيقُ بين الأثرِ والنظر، والمنقولِ والمعقول.

٧ ـ إيرادُ القراءات المختلفة من صحيحةٍ أو شاذة، وتوجيهُها وذكرُ حججها، والاستدلال لها، وتفسيرُ الآيات بها.

٨ ـ التوسُّعُ بذكْرِ أقوالِ المخالفين وأدلتِهم، وتوجيهُها وبيانُ حججها، وهذا من باب العلمية والموضوعية.

٩ ـ ترجيحُ الراجحِ من الأقوال في تفسير الآية، وتوجيهُه والاستدلالُ له، وذكْرُ أسبابِ الترجيح. وعدمُ إبقاءِ القارئ في متاهةٍ أمامَ تلك الأقوالِ المتعارضة.

١٠ ـ تقريرُ قواعدِ وأُسُسِ التفسيرِ المنهجية، سواء في (رسالة التفسير) في بداية تفسيره، أو في المواضع الأخرى المتفرقة فيه. وتقديم (أصول التفسير) بصورةٍ واضحة للقارئ.

ومن باب الموضوعية في التقويم ـ التي تحدَّثنا عنها في الفصل الثاني من هذه الدراسة، وحتى يكونَ ميزانُنا عادلاً ذي كفتين، نشيرُ إلى أَهمِّ المآخذِ التي قد تؤخَذُ على تفسيرِ الطبري:

١ ـ إيرادُ الأسانيدِ الضعيفة أو الموضوعة.

٢ ـ عدمُ نقدِ الروايات والطرق والأسانيد التي يوردُها، وعدمُ الحكمِ عليها، وعدمُ الحكمِ على رجالها، ونادراً ما كان يفعلُ الطبريُّ ذلك.

٤ ـ ذكرُ أقوالٍ متعارضة عن بعضِ أعلامِ المفسرين من الصحابة والتابعين، كابن عباس ومجاهد.

٥ ـ الخوضُ في (مبهمات القرآن)، ومحاولةُ بيانها وتعيينها وتفسيرها، وأخذُ بيانِها من الإسرائيليات وغيرِها من الروايات التي لم تصح.

٦ ـ حذفُ إسنادِ بعضِ الأحاديث عن رسول الله ﷺ أَحياناً، مع حرصِه على الإسناد، وذكرُ عدةِ طرقٍ مسندةٍ للخبر الواحد.

٧ ـ عدمُ إسنادِ القراءاتِ إلى أصحابها من القُرّاء المشهورين غالباً، وعدمُ النصِّ على صحةِ القراءة، وعدمُ التمييز بين القراءات الصحيحة والشاذة.

٨ ـ الترجيحُ بين القراءاتِ الصحيحة أحياناً، وتفضيلُ قراءةٍ صحيحة على قراءةٍ أُخرى صحيحة، وتصريحُه بعدمِ جوازِ القراءة بقراءاتٍ صحيحة أحياناً.

٩ ـ تجزئةُ الآيةِ إلى جملٍ قصيرة أحياناً، وتفسيرُها جملةً جملة، مما يُؤدّي إلى قطعِ الوحدةِ الموضوعية للسورة أو الدرس، وإشغالُ القارئ بالأقوالِ الكثيرةِ المختلفة.

١٠ ـ الجملُ الكثيرةُ المعترضة في الصياغة، مما يُتعبُ القارئ في إعادةِ الضمائرِ في الجمل، وربطِ الجملِ بعضها ببعض.

وهذه المآخذُ ـ وغيرُها ـ ثانوية، وهي أخطاءٌ فرعية وليست أصلية، والإمامُ الطبريُّ ليس معصوماً، والخطأُ من سمات البشر، وصدق فيه قول الشاعر:

ومَنْ ذا الذي تُرْضى سَجاياهُ كُلُّها   كفى المرء نُبلاً أنْ تُعَدَّ مَعايِبُهْ

* * *

المبحث الثالث

إسماعيل ابن كثير ومنهجه في التفسير

ترجمة إسماعيل ابن كثير:

هو الإمام الحافظ، عمادُ الدين، أبو الفداء، إسماعيلُ بن عمر بن كثير بن ضَوْء بن كثير بن ضوء بن زرع، البَصْرَوِيّ، الدمشقي، القرشي، الشافعي.

وُلِدَ في إحدى قرى منطقة (بُصرى) في الشام، واختلفَ العلماءُ في تحديدِ سنةِ مولده، والراجحُ أنَّ ميلادَه كان سنة ٧٠٠هـ. وتُوفيَ في دمشق في شعبان سنة: ٧٧٤هـ.

وكان والدُه ـ أبو حفص عمر ـ عالماً من علماءِ منطقته في (بُصرى)، وكان إمامَ قريته وخطيبها، وتوفيَ والدُه وهو في السنةِ الثالثةِ من عمره تقريباً، فلم يدركْه!.

وكفلَ ابنَ كثير أخوه الكبيرُ عبد الوهاب، فذهبَ به إلى بُصرى، ثم إلى دمشق، حيث أَقامَ فيها يطلبُ العلم على كبارِ علماءِ عصره في دمشق.

اتجهَ ابنُ كثير في دمشق لطلبِ العلم، حيث حفظَ القرآنَ وهو صغير، ودرسَ كتبَ الفقهِ والحديثِ والتفسير والتاريخ واللغة، حتى برعَ في كثيرٍ من العلوم(١).

وسجلَ له الدكتورُ محمد الزحيلي أكثر من عشرين شيخاً من كبارِ علماءِ الشام، في مقدمتهم أَخوه عبد الوهاب.

---

(١) ابن كثير: الحافظ المفسر للدكتور محمد الزحيلي، ص٤٧ ـ ٧٤.

ومنهم الحافظُ أبو الحجاج المِزِّي: يوسفُ بن عبد الرحمن بن يوسف بن عبد الملك. المتوفى سنة: ٧٤٢هـ، الذي كان عالماً في التاريخ والحديث والرجال، وألَّفَ كتابَه الشهير: (تهذيب الكمال في أسماء الرجال). وقد أُعجبَ أبو الحجاج المِزّي بتلميذِه إسماعيل ابن كثير، وزوَّجَه ابنتَه (زينب)، ومنها أنجبَ ابنُ كثيرٍ أولادَه.

ومنهم الإمامُ ابن تيمية، المتوفى في دمشق سنة: ٧٢٨هـ، الذي أَحَبَّهُ ابنُ كثير، وامتُحن بسببه.

ومن محبةِ شيخِه المِزّي لابنِ تيمية أَنه دُفِنَ بجانبِ قبر ابن تيمية، ومن محبةِ ابنِ كثيرٍ لهما أنه أَوصى أنْ يُدفنَ بجانبهما[١].

ولما صارَ ابنُ كثير عالماً مشهوراً اشتَغَلَ بالإقراءِ والتدريس والتحديث، فَدَرَّسَ التفسيرَ في المسجد الأموي في دمشق، وتولّى مشيخةَ مدرسةِ أُم الصالح، ومشيخةَ دار الحديث، وغيرِها من المدارس، وبقيَ يـدرِّسُ ويُفتي حتى لقي ربه[٢].

وكان يملكُ حافظةً واعية، حتى حازَ لَقَبَ (الحافظ)، كما كان حَسَنَ الاستحضارِ لما يحفظ، جيدَ الفهمِ والاستيعاب لما يقرأ. وكان عاملاً بعلمِه، عابداً زاهداً في الدنيا، عزيزَ النفس، أبياً كريماً، وكان جريئاً في الحق، يأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا تأخذُه في الله لومةُ لائم[٣].

أقبلَ ابنُ كثير على الكتابةِ والتأليف والتصنيف. وكتبَ الكثيرَ من الكتبِ التي انتشرتْ في حياته، وبعد وفاته، وكتبَ اللهُ لها القبولَ بين الناس.

ومن أهم كتبه وأشهرها:

---

(١) ابن كثير: الحافظ المفسر، للدكتور محمد الزحيلي، ص٧٥ ـ ٩٦.
(٢) المرجع السابق، ص٩٧ ـ ١٠٩.
(٣) المرجع السابق، ص١١٨ ـ ١٤١.

١ ـ تفسيره: (تفسير القرآن العظيم). وسنعرِّفُ به بعدَ قليلٍ إن شاء الله.

٢ ـ تاريخه: (البداية والنهاية). أَرَّخَ فيه للعالَم منذ بدءِ الخليقة زمنَ آدمَ عليه السلام، وركَّزَ على السيرةِ النبوية وحياةِ الصحابة والخلفاء الراشدين، وأرَّخَ للدولةِ الإسلامية زمنَ الأمويين والعباسيين، ومَنْ بعدهم. ورتَّب تاريخَه على السنين، وتوقَّفَ في تاريخه حتى سنة ٧٦٨هـ. قبلَ وفاتِه بستِّ سنوات تقريباً.

واشتهرَ ابنُ كثير بتاريخه كما اشتهرَ بتفسيره، وانتشرَ تاريخُه بين الناس. وطُبِعَ تاريخُه عدة طبعات. من أشهرِها طبعةُ مكتبةِ السعادة في القاهرة في أربعة عشر جزءاً سنة: ١٩٣٠، وصُورت عنها عدة طبعات في بيروت[١].

ومن تاريخ ابن كثير (البداية والنهاية) أخذَ بعضُ المعاصرين فصولاً خاصة، ونَشروها على أنها كتبٌ خاصَّة ألَّفَها ابن كثير، رغمَ أنها فصول مأخوذةٌ من تاريخِه المطول، ولم يؤلِّفها ابن كثير على أنها كتبٌ مستقلة. من هذه الكتب:

ـ قصص الأنبياء: هو فصولٌ من تاريخ (البداية والنهاية) تتعلقُ بالأنبياءِ السابقين عليهم الصلاة والسلام. استلَّها الدكتورُ مصطفى عبد الواحد ـ سامحه الله ـ ونشرَها في كتابٍ خاص، وأوهمَ القراءَ أنه كتابٌ خاصّ ألَّفه ابنُ كثير. وظهرَ هذا الكتابُ في عدةِ طبعات في مصر ولبنان، يزعمُ ناشروه أنهم قد حقَّقوه. والكتابُ كلُّه موجودٌ بالحرفِ في تاريخ البداية والنهاية![٢].

ـ السيرةُ النبوية: هو فصولٌ من البداية والنهاية تتعلقُ بسيرةِ رسول الله ﷺ، فصَلَها الدكتورُ مصطفى عبد الواحد ـ سامحه الله ـ وطبعها في كتابٍ خاص[٣].

ـ النهايةُ في الفتن والملاحم: هو في الأصلِ تكملةٌ لتاريخ ابن كثير (البداية والنهاية) تحدثَ فيه عن نهايةِ العالم يومَ القيامة، وما سيكونُ من الفتن والملاحم،

---

(١) ابن كثير، للزحيلي، ص٢٧٣ ـ ٣٠١.
(٢) المرجع السابق، ص١٦٧.
(٣) المرجع السابق، ص١٧٢ ـ ١٧٣.

وما سيقعُ من علاماتِ الساعةِ الكبرى. ولم يُطبعْ في نهايةِ تاريخه، وإنما طُبِعَ في كتابٍ خاص، ونُشِرَ في القاهرة وبيروت والرياض[1].

٣ ـ (جامعُ المسانيد والسُّنَنِ الهادي لأقوم السَّنَن). : جمعَ فيه أحاديثَ عشرةِ كتبٍ من أُمَّهاتِ كتبِ الحديث والسنن والأسانيد، وهي: صحيح البخاري، وصحيح مسلم، وسنن أبي داود، وسنن الترمذي، وسنن النسائي، وسنن ابن ماجه، ومسند أحمد، ومسند أبي يعلى، ومسند البزار، ومعاجم الطبراني.

ورتَّبَ ابنُ كثير أحاديثَ الجامعِ على حروف المعجمِ لأسماءِ الصحابة، حيث كان يترجمُ لاسم الصحابي، ثم يذكرُ الأحاديثَ التي رُويتْ عنه في الكتبِ العشرة المذكورة.

وقد فَرَغَ من الكتاب سنة٧٦٣هـ، قبلَ وفاتِه بحوالي عشر سنوات. والكتابُ عظيمُ الفائدة، كبيرُ القدر، مهمٌّ عند العلماء.

وطُبِعَ هذا الكتاب أخيراً في بيروت، في خمسةٍ وثلاثين مجلداً، بتحقيق عبد المعطي قلعجي[2].

٤ ـ اختصار علوم الحديث: من أشهرِ كتبِ الحديث مقدمة ابن الصلاح، واسمُها (علوم الحديث) لأبي عمرو: عثمان بن عبد الرحمن، المشهور بابن الصلاح.

ونظراً لأهمية كتاب ابن الصلاح فقد قامَ الإمامُ ابنُ كثير باختصاره، في كتاب سماه: (اختصار علوم الحديث)، وكتبَ اللهُ له القبول بين الناس.

وطَبَعَ الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة هذا الكتاب في مكة باسم (الباعث الحثيث في اختصار علوم الحديث). ثم طبعه الشيخُ أحمد محمد شاكر طبعة محققة مخدومة.

---

(١) ابن كثير، للزحيلي، ص١٦٨.

(٢) المرجع السابق، ص١٦٠ ـ ١٦٢ و٢٥٣ ـ ٢٥٨.

والكتـابُ من الكتبِ الدراسـيةِ المقررةِ على طلبـةِ كليات الشـريعة في الجامعات[1].

٥ ـ الفصولُ في سـيرة الرسـول ﷺ: وهي سيرةُ الرسول ﷺ مختصرة. وكتبه الإمام ابن كثير نفسه.

وقد نُشِرَ الكتابُ في دار القلم بتحقيق الأستاذين محيي الدين مستو ومحمد العيد الخطراوي[2].

٦ ـ الاجتهاد في طلب الجهاد: رسالةٌ صغيرة في فضائلِ الجهادِ والحثِّ عليه، ألّفَها بناءً على طلبِ أميرِ دمشق سيف الدين منجك، ليحثَّ الناسَ على مواجهةِ الخطرِ الفرنجي الصليبي.

وقد طُبعت الرسالة عدةُ طبعات، من أجودها طبعةُ مؤسسة الرسالة، التي حققها الدكتور عبد الله عسيلان[3].

ومن كتبه التي كتبها ولم تُنشر حتى الآن:

١ ـ التكميلُ في معرفةِ الثقات والضعفاء والمجاهيل: وهو كتابٌ في الرجال، اختصر فيه كتابَ شيخِه أبي الحجاج المزي (تهذيب الكمال في أسماء الرجال) وشيخه أبي عبد الله الذهبي: (ميزان الاعتدال في نقد الرجال). والكتاب ما زال مخطوطاً[4].

٢ ـ الأحكامُ الكبير: كتاب في فقه الحديث واستخراج الأحكام منه. وقد شَرَعَ فيه، لكنه لم يتمّه، ووصلَ فيه إلى باب الحج[5].

---

(١) ابن كثير، للزحيلي، ص٢٥٩ ـ ٢٧٢.
(٢) المرجع السابق، ص٣٢٢ ـ ٣٢٥.
(٣) المرجع السابق، ص٣٤٥ ـ ٣٥٠.
(٤) المرجع السابق، ص١٧٠.
(٥) المرجع السابق، ص١٥٧ ـ ١٥٨.

٣ـ شرحُ صحيح البخاري : بدأ فيه الإمامُ ابن كثير ، ولكنه توفي قبل إكماله ، ووصل فيه إلى باب الحج أيضاً[١] .

ولما تقدمَ بالإمامِ ابن كثير العمر ، ورأى الشيبَ يغزو رأسَه نظمَ شعراً، كلُّه حكمة ، قال :

تَمُــرُّ بنــا الأيــامُ تَتْــرى، وإنَّمــا نُســاقُ إلـى الآجـال، والعَيْـنُ تَنْظُـرُ
فلا عائِدٌ ذاكَ الشَّبابُ الذي قضى وَلا زائِـلٌ هــذا المشيــبُ المُكَــدِّرُ
وَمِــنْ بعــدِ ذا فــالعبــدُ إمّــا مُنعَّــمٌ كَـريـمٌ، وإمّـا بـالجحيـمِ يُسَعَّـرُ[٢]

وفي آخرِ عمرِ الإمام ابن كثير ابتلاهُ الله بفقدِ بصره، حيثُ أُصيبَ بالعمى ، ويبدو أنه أتعبَ نفسَـه بالدراسةِ والمطالعة، والتأليفِ والتصنيف، والبحـث والاطلاع ، وهذه ضريبةُ العلم والبحث غالباً .

وروى ابنُ الجزري ـ أحدُ تلاميذ ابن كثير ـ أنَّ ابنَ كثير قال له : لازلتُ أكتبُ في (جامع الأسانيد) في الليل ، والسراجُ يُنَوْنِصُ، حتى ذهبَ بصري مَعَه[٣]!! .

وبعد حياةٍ حافلةٍ بالعلم والعطاء، توفيَ الإمامُ ابن كثير، في شعبان سنة : ٧٧٤هـ. بعد أنْ بلغَ أربعة وسبعين عاماً. وأوصى أنْ يُدفَنَ بجانب شيخيه : ابن تيمية وأبي الحجاج المزي .

وقد صدرتْ عن الإمامِ ابن كثير مجموعةٌ من الدراسات : فترجم له الشيخُ أحمد شاكر ترجمةً موجزةً قيمة في مقدمةِ اختصارِه لتفسير ابن كثير. وأصدرَ الدكتورُ مسعود الرحمن الندوي كتاب (ابن كثير ومؤلفاته) .

وأجودُ دراسةٍ عنه كتاب (ابن كثير الدمشقي : الحافظ، المفسر، المؤرخ، الفقيه) للدكتور: محمد الزحيلي، وصدر في الحلقة السابعة والخمسين من سلسلة أعلام المسلمين .

---

(١) ابن كثير، للزحيلي، ص١٦٢ .
(٢) المرجع السابق، ص١١٢ .
(٣) المرجع السابق، ص١٨٥ ـ ١٨٨ .

تعريف بتفسير ابن كثير:

بدأ اهتمامُ ابنِ كثير بالقرآن منذ الصغر، حيثُ أتقنَ حفظَه وهو في الحادية عشرة من عمره، وأَخَذَ التفسيرَ عن كبار العلماء، وعلى رأسِهم شيخُه ابن تيمية. ومَلَكَ الأدوات التي تُعينُه على تفسير القرآن، وتزوَّدَ بالعلومِ الضرورية للتفسير.

أَلَّفَ ابنُ كثير تفسيرَه، الذي أطلقَ عليه اسم (تفسير القرآن العظيم). وبيَّنَ في مقدمتِه أهميةَ التفسير، وكبارَ المفسرين من الصحابة والتابعين، وأحسنَ طرق التفسير.

ومما جاءَ في مقدمته الموجزة عن نظرته إلى التفسير:

«فالواجبُ على العلماء الكشفُ عن معاني كلامِ الله، وتفسيرُ ذلك، وطلبُه من مظانِّه، وتعَلُّمُ ذلك، وتعليمُه، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

فذمَّ اللهُ أهلَ الكتاب قبلَنا بإعراضِهم عن كتابِ الله المنزَّلِ عليهم وإقبالِهم على الدنيا وجمعِها، واشتغالِهم بغيرِ ما أُمِروا به من اتباعِ كتابِ الله.

فعلينا ـ أيها المسلمون ـ أنْ ننتهيَ عما ذمَّهم اللهُ تعالى به، وأنْ نأتمِرَ بما أُمرنا به، من تعلُّمِ كتابِ الله المنزلِ إلينا وتعليمِه، وتفهُّمِه وتفهيمِه.

قال الله تعالى: ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الحديد: ١٦ ـ ١٧].

ففي ذكْرِه تعالى لهذه الآية بعد التي قبلها، تنبيهٌ على أنه تعالى كما يُحيي الأرضَ بعد موتها، كذلك يُلينُ القلوبَ بالإيمانِ والهدى، بعد قسوتِها من الذنوب والمعاصي. واللهُ المُؤمَّلُ المسؤولُ أن يفعل بنا هذا، إنه جوادٌ كريم.

فإنْ قال قائل: فما أَحسنُ طرقِ التفسير؟.

فالجواب: أنَّ أصحَّ الطرقِ في ذلك: أنْ يُفَسَّرَ القرآنُ بالقرآن، فما أُجملَ في مكان، فإنه قد بُسطَ في موضعٍ آخر.

فإنْ أعياكَ ذلك فعليكَ بالسنة، فإنها شارحةٌ للقرآن وموضحةٌ له. بل قد قالَ الإمامُ أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي رحمه الله تعالى: كلُّ ما حكمَ رسولُ الله ﷺ فهو مما فهمَه من القرآن. قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۙ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [النحل: ٦٤].

وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

ولهذا قال رسولُ الله ﷺ: «أَلا إِني أُوتيتُ القرآنَ ومثلَه معه». يعني السّنّة.

والسّنّة أيضاً تُنزَّلُ عليهم بالوحي، كما يُنزَّلُ القرآن، إلاّ أنها لا تُتلى كما يُتلى القرآن.

والغرض: أنكَ تطلبُ تفسيرَ القرآن من القرآن، فإنْ لم تجدْه فمن السّنّة. كما قالَ رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه حين بعثَه إلى اليمن: فبمَ تحكم؟ قال: بكتابِ الله. قال: فإنْ لم تجدْ؟. قال: بسنةِ رسول الله ﷺ. قال: فإنْ لم تجدْ؟ قال: أجتهدُ رأيي! فضربَ رسولُ الله ﷺ في صدري. وقال: الحمدُ لله الذي وَفَّق رسولَ رسول الله لما يُرضي رسولَ الله!..» وهذا الحديثُ في المسندِ والسنن بإسنادٍ جيد، كما هو مقررٌ في موضعه!.

وحينئذٍ إذا لم نجد التفسيرَ في القرآن ولا في السنة رجَعْنا في ذلك إلى أقوالِ الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لِما شاهدوه من القرائنِ والأحوال التي اختصُّوا بها، ولِما لهم من الفهمِ التام، والعلمِ الصحيح، والعملِ الصالح، لا سيّما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمةِ الأربعة، الخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين المهديين، رضي الله عنهم.

ومنهم: عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.. ومنهم الحَبْرُ البَحْرُ عبدُ الله بن عباس رضي الله عنهما.

.. وإذا لم تجد التفسيرَ في القرآنِ ولا في السنة، ولا وجدْتَه عن الصحابة، فقد رَجَعَ كثيرٌ من الأئمة في ذلك إلى أقوالِ التابعين. كمجاهد بن جبر، وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم، ومَنْ بعدهم...

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوالُ التابعين في الفروعِ ليستْ حجة، فكيفَ تكونُ حجةً في التفسير؟.

يعني أنها لا تكون حجةً على غيرِهم ممنْ خالَفهم. وهذا صحيح. أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يُرتابُ في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكونُ قولُ بعضِهم حجةً على قولِ بعض، ولا على مَنْ بعدهم.

ويرجعُ في ذلكَ إلى لغةِ القرآن أو السّنّة، أو عمومِ لغةِ العرب، أو أقوالِ الصحابة في ذلك!.

فأمّا تفسيرُ القرآنِ بمجردِ الرأي فحرام!...

... ولهذا تحرَّجَ جماعةٌ من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كأبي بكر الصديق، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، ومنهم عبدُ الله بن عباس، وعبد الله ابن مسعود، رضي الله عنهما...

. . . ومن التابعين مَن تحرَّجوا من القول في التفسير بدون علم، مثلُ: سعيد بن المسيب، وسالم بن عبد الله، والقاسم بن محمد، ونافع مولى ابن عمر، وعروة بن الزبير، وعبيدة السلماني، ومسلم بن يسار، ومسروق بن الأجدع، وعامر الشعبي! . . .

فالآثارُ الصحيحةُ عن أئمةِ السلف في تحرُّجِهم من القول في التفسير، محمولةٌ على تحرجهم عن الكلامِ في التفسير بما لا علمَ لهم فيه. . فأمّا مَنْ تكلمَ بما يعلم من ذلك لغةً وشرعاً فلا حرجَ عليه. . .

ولهذا رُويَ عن هؤلاءِ وغيرهم أقوالٌ في التفسير، ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما عَلِموه، وسكتوا عما جهلوه! وهذا هو الواجبُ على كلِّ أحد، فإنه كما يجبُ السكوتُ عما لا علمَ لهم به، فكذلك يجبُ القولُ فيما سُئِلَ عنه مما يعلَمُه، لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

. . . وروى ابنُ جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: التفسيرُ على أربعةِ أَوجه: وجهٌ تعرفُه العربُ من كلامها، وتفسيرٌ لا يُعذَرُ أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلَمُه العلماء، وتفسيرٌ لا يعلمَهُ إلا الله. . .»(١).

ثم ذكرَ الإمامُ ابن كثير مقدمةً موجزةً عن مباحثَ من تفسيرِ القرآن والتعريف به، جَعَلَها بين يدي التفسير. تحدَّثَ فيها عن: السورِ المكية، والسورِ المدنية، وعددِ آيات القرآن. وعددِ كلماته، وعددِ حروفه، والتحزيب والتجزئةِ للقرآن، وعن معنى السورة، ومعنى الآية، وأطولِ آية. وأقصرِ آية، وعن أنَّ كلَّ ما في القرآن عربي، وليس فيه من الكلماتِ والتراكيب الأعجمية شيء(٢).

ونلاحظُ أنَّ الإمامَ ابنَ كثير متأثرٌ بالإمامِ ابن جرير الطبري، حتى في بدايةِ تفسيره، فجعلَ خطبةً للتفسير، ومقدمةً للتفسير، كما فعلَ ابنُ جرير!.

وبعدما أكملَ الإمامُ ابنُ كثير تفسيرَه ألحقَ به كتابَ (فضائل القرآن). وبدأَ

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٣ـ٦ باختصار.
(٢) المرجع السابق، ص٦ـ٨.

بالتفسيرِ لأنه أهم. قال في (فضائل القرآن) عن تعليل ذلك: «ذكرَ البخاريُّ رحمهُ الله تعالى في كتابه الصحيح فضائلَ القرآن بعد كتاب التفسير، لأنَّ التفسيرَ أهم، فلهذا بدأَ به، فَجَرَينا على منوالِه وسنَّته، مقتدين به»[1].

ولما أتمَّ ابنُ كثير كتابَ الفضائل قال: «آخر فضائل القرآن. وبه تمَّ التفسير»[2].

وكتاب (فضائل القرآن) ملحقٌ بالتفسير في بعضِ نسخِ التفسير الخطية، وطُبعَ في آخرِ التفسير في بعضِ طبعاته، وطُبعَ التفسيرُ بدونه في طبعات أخرى، وطُبع (فضائل القرآن) مستقلاً عدةَ طبعات[3].

واعتبرَ العلماءُ تفسيرَ ابن كثير من أهمِّ كتب التفسير، وتلقّوه بالقبول، وكتبَ اللهُ له الانتشارَ في حياةِ صاحبه وبعدَ وفاته، وحتى يومنا هذا!!.

وأثنى العلماءُ على ابنِ كثيرٍ وتفسيره.

قال المؤرخُ الذهبي: ابن كثير هو: «الإمامُ المفتي المحدِّثُ البارع، فقيهٌ مُتفنِّنٌ، محدِّثٌ مُتقِن، مُفَسِّرٌ نقَّال».

وقال تلميذُه شهابُ الدين بن حِجّي: «كان ابنُ كثير يستحضرُ كثيراً من التفسير والحديث، قليلَ النسيان، وكان فقهياً جَيِّدَ الفهم صحيحَ الذهن».

وقال تلميذُه أبو المحاسن الحسيني: «أفتى ابنُ كثير ودرَّسَ وناظر، وبَرَعَ في الفقه والتفسير والنحو».

وقالَ العينيُّ عن ابن كثير: «كان قدوةَ العلماء والحفاظ، وعمدةَ أهلِ المعاني والألفاظ، وسمعَ وجَمع، وصنَّفَ ودرَّسَ، وحدَّثَ وألف. وكان له اطلاعٌ عظيمٌ في الفقه وفي الحديث والتفسير والتاريخ، واشتُهر بالضبطِ والتحرير، وانتهى إليه علمُ التاريخ والحديث والتفسير. وله مصنفات عديدة مفيدة».

---

(١) فضائل القرآن، ص٢.

(٢) المرجع السابق، ص٥٨.

(٣) انظر تعريف الدكتور الزحيلي بفضائل القرآن في كتابه، ص٢٢٥ـ٢٢٨.

وقال السيوطي: «لابن كثير التفسيرُ الذي لم يؤلَّف على نمطِه مثلُه..».

وقال الشوكاني: «وله تصانيفُ مفيدة، منها: التفسيرُ المشهور، وهو في مجلدات، وقد جَمع فيه فأَوعى، ونَقَلَ المذاهب والأخبار والآثار، وتكلَّمَ بأحسنِ كلامٍ وأَنْفَسِه، وهو من أحسنِ التفاسير..».

وقال الدكتور محمد حسين الذهبي: «علمُ ابنِ كثير يتجلّى بوضوحٍ لمن يقرأُ تاريخَه أو تفسيرَه، وهما من خيرِ ما أُلِّف، وأجودِ ما أخرجَ للناس».

وقال عنه الشيخ أحمد محمد شاكر: إنَّ تفسيرَ الحافظ ابن كثير أحسنُ التفاسيرِ التي رأينا، وأدقّها وأجودُها، بعد تفسيرِ إمامِ المفسرين أبي جعفر الطبري.

ولسنا نوازنُ بينهما وبين أيِّ تفسيرٍ آخر مما بأيدينا، فما رأينا مثلَهما، ولا ما يقاربُهما[١].

إن تفسيرَ الإمامِ ابن كثير من أفضلِ كتبِ التفسيرِ الأثري النظري، وانتشرَ انتشاراً واسعاً، وفي العصر الحديث طُبِعَ التفسيرُ عدةَ طبعات، وأقبلَ عليه المسلمون على اختلافِ ثقافاتهم:

قال عنه الدكتور محمد لطفي الصباغ: «تفسيرُ ابن كثير تفسيرٌ جيد، انتفعَ الناسُ به قديماً وحديثاً، وذلك عائدٌ إلى سلامةِ منهجه، وإخلاصِ مؤلِّفه، وسهولةِ المراجعة فيه.. إنه من أشهرِ كتبِ التفسير بالمأثور، وأكثرِها شيوعاً وانتشاراً بين الناس، وزادت المطابعُ في عصرنا من شهرتِه، فطُبع أكثرَ من مرة، وفي أكثرَ من بلد!.

وقال عنه محمد نسيب الرفاعي: «وتفسيرُ ابن كثير غنيٌّ عن التعريف، إذ يكادُ أن يكونَ التفسيرَ الوحيدَ الذي حرصَ صاحبُه رحمه الله تعالى على أنْ يكونَ تفسيراً غيرَ مختلطٍ بأيِّ علم آخر، فهو تفسيرٌ للتفسير فقط!..»[٢].

---

(١) انظر هذه الأقوال في كتاب الدكتور الزحيلي عن ابن كثير، ص٢٠٨ ـ ٢١١.

(٢) المرجع السابق نفسه.

ونظراً لأهميةِ (تفسير القرآن العظيم) لابن كثير فقد اختصرَه علماءُ في القديم والحديث.

اختصره من السابقين محمد بن علي البعلي، المتوفى سنة: ٧٩٣هـ، والمعروف باسم: ابن اليونانية، وعفيف الدين بن سعيد الدين الكازروني، المتوفى سنة: ٩٤٠هـ.

واختُصِرَ تفسيرُ ابنِ كثير عدةَ اختصاراتٍ في هذا العصر، هي:

١ ـ عمدةُ التفسير عن الحافظ ابن كثير: للشيخ أحمد محمد شاكر:

شرعَ الشيخُ أحمد محمد شاكر باختصارِ تفسيرِ ابن كثير سنة ١٩٥٦م. وسَمّى اختصاره (عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير). وأصدرَ الجزءَ الأول عن دار المعارف بمصر سنة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م.

وكتبَ الشيخُ أحمد شاكر مقدمةً ذكر فيها الدافعَ الذي دفعه لاختصارِ تفسير ابن كثير، ومنهجه في ذلك الاختصار. وأوردَ كلماتٍ لابن كثير تبينُ الموقفَ الصحيح من الإسرائيليات، وترجمَ فيها ترجمةً قيمة مجملةً للإمام ابن كثير. وجاءتْ مقدمةُ أحمد شاكر في سبعٍ وثلاثين صفحة.

وأصدرَ الشيخ أحمد شاكر خمسةَ أجزاء من مختصرِه خلال سنتين: ١٩٥٦ ـ ١٩٥٨م. حيث توفيَ رحمه اللهُ سنة ١٩٥٨م. ووصلَ في اختصارِه إلى نهاية تفسير الآية الثامنة من سورة الأنفال. أي: اختصرَ حوالي ثلثِ تفسير ابن كثير فقط.

فاختصارُ أحمد شاكر لتفسيرِ ابن كثير لم يتمّ بسبب وفاتِه رحمه الله، واختصارُه جيدٌ وطيب، وكم كنا نتمنى لو أنه أكمله، ولكن قدَّرَ اللهُ وما شاء فعل!.

٢ ـ مختصرُ تفسيرِ ابن كثير: للشيخ محمد كريِّم راجح، شيخ القراء بدمشق.

اختصر الشيخ محمد كريّم راجح تفسيرَ ابنِ كثير كله في جزأين اثنين.

وطُبعَ عدة طبعات في دمشق وبيروت.

٣ ـ مختصر تفسير ابن كثير: للشيخ محمد علي الصابوني:

اختصرَ الشيخ محمد علي الصابوني تفسيرَ ابن كثير في ثلاثة أجزاء، وطبع هذا المختصر عدة طبعات، وانتشر هذا المختصر بين الناس انتشاراً كبيراً.

٤ ـ تيسير العلي القدير لاختصار تفسير ابن كثير: للشيخ محمد نسيب الرفاعي.

اختصرَ الشيخ محمد نسيب الرفاعي تفسير ابن كثير في أربعة مجلدات كبيرة(١).

٥ ـ تفسيرُ ابن كثير تهذيب وترتيب: قمتُ أنا باختصارِ تفسير ابن كثير وتهذيبه وترتيبه، والحمد لله، والكتاب في المطبعة، وسيصدر قريباً إن شاء الله!.

منهج ابن كثير في التفسير:

تفسيرُ ابن كثير يصنَّفُ ضمنَ (مدرسةِ التفسير الأثري النظري) لأنَّ الإمامَ ابنَ كثير صاغَ تفسيرَه وفقَ قواعدِ منهجِ التفسير الأثري النظري.

وإذا كان إمامُ المفسرين ابنُ جرير الطبري قد أصَّلَ في تفسيرِه علمَ التفسيرِ تأصيلاً منهجياً، وصاغَ تفسيرَه على أساسِ المنهج الجامع، القائمِ على الأثرِ واللغة والنظر؛ فإنَّ ابنَ كثير قد سارَ على نفسِ الطريق، واقتفى آثارَ ابنِ جرير.

ألَّفَ ابنُ كثير تفسيرَه وفقَ قواعدِ منهج التفسيرِ الأثري النظري، كما فعلَ ابنُ جرير، وهو لم يرتقِ في تفسيرِه إلى مستوى تفسيرِ ابن جرير، ولم يرتقِ مفسِّرٌ على مدارِ قرون التاريخ الإسلامي إلى مستوى تفسيرِ ابن جرير، ويبقى تفسيرُ ابن جرير في القمةِ السامقة، والذروةِ العالية، ينظرُ المفسرون بالمنهج الأثريِّ النظري إليه، لكنهم لا يستطيعون الوصولَ إليه، يُحسنونَ ويُبدعون، ويبقى ابنُ جرير

---

(١) انظر تعريفاً بهذا المختصرات في كتاب الدكتور محمد الزحيلي عن ابن كثير، ص٢٢٨ ـ ٢٤٠.

رائداً أمامَهم، متقدماً عليهم!.

فابنُ كثير كان قريباً من المنهجِ الجامع الذي قرَّرَهُ ابنُ جرير، وكان تفسيرُه قريباً من تفسيرِ ابن جرير، اقتربَ منه ولكنه لم يدركْهُ ولم يصلْ إليه!!.

ومن إعجابِ ابن كثير بابن جرير أنه جعلَ تفسيرَه (جامع البيان) المرجعَ الأساسيَّ له في التفسير، يضعُه أمامه، ويأخذُ منه ما يُريد.

● مصادرُ الإمامِ ابن كثير التفسيرية هي:

١ ـ تفسيرُ ابنِ جرير الطبري: ومنه أخذَ الكثيرَ من المادة التفسيرية، سواء الأقوالَ المأثورة من أحاديث أو أقوال للصحابة أو التابعين، أو التحليلات البيانية والشواهد الشعرية والاستنباطات الفقهية!.

٢ ـ تفسير ابن أبي حاتم: أخذ منه الأقوال المأثورة.

٣ ـ تفسير أبي بكر بن المنذر.

٤ ـ تفسير عبد بن حميد.

٥ ـ تفسير أبي بكر بن مردويه.

أخذَ ابنُ كثير من هذه التفاسير الخمسة الأقوالَ المأثورةَ في التفسير، وسجَّلَ في تفسيره أقوالَ كبارِ مفسري الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، أخذاً من هذه التفاسير، والتفاسير الأربعة ـ ابن أبي حاتم، وابن المنذر، وابن مردويه وابن حميد ـ اكتفتْ بإيرادِ الأقوالِ المأثورة مسندة، كما قررنا من قبل.

٦ ـ تفسير الكشاف لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري: كان يأخذُ منه بعضَ التحليلات البيانية، والتوجيهات اللغوية، ويصفُه بالعَلاّمة الزمخشري.

٧ ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن: لأبي إسحاق أحمد بن إبراهيم الثعلبي. كان يأخذُ منه بعض الأقوال المأثورة، وبعض القصص.

٨ ـ التفسير الكبير لفخر الدين الرازي: كان يأخذُ منه بعضَ التوجيهات العقلية.

٩ ـ المحرر الوجيز لأبي محمد عبد الحق ابن عطية الأندلسي: أخذ منه بعض ترجيحات ابن عطية.

١٠ ـ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله القرطبي: أخذَ منه كثيراً من الأقوالِ الفقهية، واستدلالاتِ القرطبي عليها.

● ومن مصادر ابن كثير في المادة الحديثية:

١ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل: كان يبدأُ به عندما يوردُ الأحاديث، ويذكر إِسنادَه، وقد يذكرُ أكثرَ من إسنادٍ وطريق للرواية الواحدة، وبعدما يسجلُ رواية أحمد للحديث يذكر من رواه من كتب الحديث.

٢ ـ صحيح البخاري.

٣ ـ صحيح مسلم.

٤ ـ سنن أبي داود.

٥ ـ سنن الترمذي.

٦ ـ سنن النسائي.

٧ ـ سنن ابن ماجه.

٨ ـ سنن البيهقي.

٩ ـ موطأ مالك.

١٠ ـ مستدرك الحاكم.

وقد يذكرُ إسنادَ أحد هذه الكتب الحديثية، ويقول: قال فلان..

● ومن مصادره في السيرة والتاريخ:

١ ـ السيرة النبوية لابن إسحاق الذي نسب لتلميذه ابن هشام.

٢ ـ مغازي الواقدي.

٣ ـ دلائل النبوة للبيهقي .

٤ ـ دلائل النبوة لأبي نعيم .

٥ ـ تاريخ ابن جرير الطبري .

● ومن مصادره أيضاً المصنفات والفضائل :

١ ـ فضائل القرآن للفريابي .

٢ ـ فضائل القرآن لأبي عبيد القاسم بن سلاّم .

٣ ـ فضائل القرآن لابن الضَّرّيس .

٤ ـ فضائل القرآن للنسائي .

٥ ـ مسند أبي يعلى الموصلي .

٦ ـ السنن الكبرى للبيهقي .

٧ ـ مصنف عبد الرزاق .

٨ ـ مصنف ابن أبي شيبة .

● ومن مصادِره في التحليلات البيانية والنحوية واللغوية للآيات :

١ ـ التفاسير التي أشرنا لها : تفسير الطبري ، وتفسير الزمخشري ، وتفسير الرازي . .

٢ ـ تفسير معاني القرآن للفراء .

٣ ـ معاني القرآن للزجاج .

٤ ـ معاني القرآن للأخفش الأوسط .

٥ ـ مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى .

٦ ـ تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة .

وهكذا توفرتْ لابنِ كثير مادةٌ علميةٌ أصيلة . من مصادِرِها العلمية

الأساسية، في التفسير والحديث والتاريخ والفقه واللغة. فانتقى منها ما رآه مناسباً في تفسيره.

كان منهجُ الإمامِ ابن كثير في التفسير هو منهجَ (التفسيرِ الأثريِّ النظري) الملتزم بأحسن طرق التفسير.

ونُذَكِّرُ بأنَّ قواعدَ هذا المنهج هي: تفسيرُ القرآن بالقرآن، وتفسيرُ القرآن بالسنة، وتفسيرُ القرآن بأقوال الصحابة، وتفسيرُ القرآن بأقوال التابعين، وتفسيرُ القرآن بقواعدِ اللغة، ثم استنباطُ المعاني والدلالات والأحكام.

وهذه القواعدُ هي التي حكمتْ منهجَ الإمام ابن كثير في التفسير، وبَدَتْ في تفسيره على أحسنِ صورة.

قال الشيخ أحمد شاكر في مقدمة (عمدة التفسير): «وقد حرصَ الحافظُ ابن كثير على أنْ يفسِّرَ القرآنَ بالقرآن أولاً، ما وجدَ إلى ذلك سبيلاً. ثم بالسنة الصحيحة، التي هي بيانٌ لكتابِ الله. ثم يذكرُ كثيراً من أقوالِ السلفِ في تفسير الآي.

وإنه ليذكُرُ الأحاديثَ ـ في أكثر المواضع ـ بأسانيدِها من دواوينِ السنة ومصادرِها، وكثيراً ما يذكُرُ تعليلَ الضعيف منها، ولكنه يحرصُ أشدَّ الحرص على أن يذكرَ الأحاديث الصحاح، وإنْ ذكرَ معها الضعاف.

فكتابُه ـ بجانبِ أنه تفسيرٌ للقرآن ـ مُعَلِّمٌ مرشدٌ لطالبِ الحديث، يعرفُ به كيف ينقدُ الأسانيد والمتون، وكيف يُميزُ الصحيحَ من غيره، فهو كتابٌ ـ في هذا المعنى ـ تعليميٌّ عظيم، ونفعُه جليلٌ كثير»(١).

ونوردُ فيما يلي أمثلةً من تفسيرِ الإمامِ ابن كثير، يظهرُ من خلالها التزامُه بقواعدِ منهجِ التفسيرِ الأثري النظري.

---

(١) عمدة التفسير لأحمد شاكر: ١/ ٥ـ٦.

١ ـ ابن كثير يفسر القرآن بالقرآن:

كان ابنُ كثير يحرصُ على تفسيرِ القرآنِ بالقرآن، وكان يوردُ ما في معنى الآيةِ من آياتٍ أُخرى، ولو تعدَّدَتْ وكثرت، وهو في هذا أفضلُ مَنْ فعلَ ذلك وقد حوى تفسيرُه ما يسمّى (التفسير القرآني للقرآن).

وابنُ كثير في عملِه هذا يقدِّمُ خدمةً للباحثين والدارسين، يُضعُ لبنةً أساسية في العلم التفسيري المعاصر الذي يسمّى: التفسير الموضوعي.

وللإمامِ ابنِ كثير حافظةٌ قرآنيةٌ واعية، فهو حافظٌ متقنٌ للقرآن، وهو متقنٌ لمعاني القرآن، متدبِّرٌ له، وهو يحسنُ استحضارَ الآياتِ الأُخرى من السور المختلفة، ولا يقدرُ على هذا إلاّ من كانَ جيدَ الحفظِ للقرآن، وحَسَنَ التدبر له، قويَّ الملاحظةِ والانتباهِ والاستحضار. وهذا ما توفَّرَ للإمام ابن كثير أكثرَ من غيره.

ومن الأمثلة على ذلك:

لما فسَّرَ ابنُ كثير الاستعاذة، وبيَّنَ أحكامَها، وذلك بين يدي تفسيرِ سورة الفاتحة استحضَرَ الآيات التي تأمرُ المؤمن بالاستعاذة من الشيطان.

قال: قال الله تعالى: ﴿ خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿١٩٩﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٩٩ ـ ٢٠٠].

وقال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ٱلسَّيِّئَةَ ۚ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴾ [المؤمنون: ٩٦ ـ ٩٨].

وقال تعالى: ﴿ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [فصلت: ٣٤ ـ ٣٦].

فهذه ثلاثُ آيات، ليسَ لهنَّ رابعة في معناها، وهو أنَّ الله تعالى يأمرُ بمصانعةِ العدوِّ الإنسيِّ والإحسانِ إليه، ليردَّه عنه طبعُه الطيبُ الأصلِ إلى الموالاة

والمصافاة، ويأمرُ بالاستعاذةِ به من العدوِّ الشيطانيِّ لا محالة، إذ لا يقبلُ مصانعة ولا إحساناً، ولا يبتغي غيرَ هلاكِ ابنِ آدم، لشدة العداوةِ بينه وبين أبيه آدم من قبل.

كما قال تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [فاطر: ٦].

وقال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

وقد أقسمَ للوالدِ آدم عليه السلام أنه له لمن الناصحين، وكَذَبَ، فكيفَ معاملتُه لنا. وقد قال تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة صٓ: ٨٢ـ ٨٣].

وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٨ـ ١٠٠][1].

فالإمامُ ابنُ كثير أوردَ آياتٍ قرآنية بمعنى الاستعاذةِ ثماني مرات، وجمعَ بينها ووجَّهَها.

ونُضيفُ إلى المثال السابق هذا المثال:

تفسيرُ قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٩٤ـ ٩٥].

هذه الآيةُ في مباهلةِ اليهود ـ والمباهلةُ من الابتهال، والابتهالُ هو الدعاء ـ

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ١٢ـ ١٣.

طلبَ الرسولُ ﷺ فيها من اليهود الابتهالَ والدعاءَ على الضالِّ بالموت وتمنّي الموت، ولكنهم لم يفعلوا ذلك، ليقينِهم أنهم ضالون، وأنَّ النبيَّ ﷺ صادق.

ولما فسَّرَ ابنُ كثير الآية أورد آياتٍ أُخرى بمعناها، تدعو إلى المباهلة:

قال: ونظيرُ هذه الآية قولُه تعالى في سورة الجمعة: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ مِن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٦ وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُۥٓ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٦ ـ ٨].

ثم قال: وهذا كما دعا رسولُ الله ﷺ وفدَ نصارى نجران إلى المباهلة، بعد إقامةِ الحجة عليهم، فلم يباهلوا، وجَنَحوا للسلم، وبَذَلوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون. قال تعالى: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

ومثلُ هذا أو قريبٌ منه قولُ الله تعالى لنبيهﷺ أنْ يقولَ للمشركين: ﴿قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا﴾ [مريم: ٧٥][(١)].

٢ ـ ابن كثير يفسر القرآن بالسنة:

كثيراً ما كان ابنُ كثير يفسِّر القرآن بالحديث، والأحاديثُ المرفوعةُ للنبي ﷺ فيه كثيرة، ومعظمُها مذكورةٌ بأسانيدها، وكان ابنُ كثير يذكرُ منْ أخرجَ الحديثَ من كتبِ السنة.

كان يذكُرُ حديثاً أو حديثين أو ثلاثةً في تفسير الآية، وأحياناً كان يذكرُ أكثرَ من ذلك، وأحياناً كانت أحاديثه في تفسير الآيةِ الواحدة تزيدُ على عشرة أحاديث.

مثـالُ ذلك: تفسيره لقوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُواْ

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ١٢٢ و٤/ ٣٦٤ و٣/ ١٣١.

مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

لمّا فسَّرَ هذه الآية أوردَ مجموعة أحاديث في نزولِ هذه الآية، وفي نظرة الصحابةِ للمشقة التي فيها، لأن الله أخبرَ أنه يحاسبُ على حديثِ النفس: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ ولكنهم استسلموا لأمرِ الله، فعفا الله عن حديثِ النفس، ونسخ هذه الآية بالآيةِ التي بعدها.

روى مسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لمّا نزلَ على رسول الله ﷺ قولُه تعالى: ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ اشتدَّ ذلك على أصحابِ رسول الله ﷺ، أتوا رسولَ الله ﷺ، ثم جثوا على الرُّكب، وقالوا: يا رسول الله: كُلِّفنا من الأعمال ما نُطيق، الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أُنزلَتْ عليك هذه الآية، ولا نطيقها! فقالَ رسول الله ﷺ: أتُريدون أنْ تقولوا كما قالَ أهلُ الكتابين قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانكَ ربَّنا وإليك المصير.

فلما أقرَّ بها القوم، وذلَّتْ بها ألسنتهم، أنزلَ الله في أثرها: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة ٢٨٥].

ولما فعلوا ذلك نسخَها الله، فأنزل قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتۡ وَعَلَيۡهَا مَا ٱكۡتَسَبَتۡۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذۡنَآ إِن نَّسِينَآ أَوۡ أَخۡطَأۡنَاۚ﴾ [البقرة: ٢٨٦] قال: نعم. ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحۡمِلۡ عَلَيۡنَآ إِصۡرٗا كَمَا حَمَلۡتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِنَاۚ﴾، قال: نعم. ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلۡنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال: نعم. ﴿وَٱعۡفُ عَنَّا وَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَآۚ أَنتَ مَوۡلَىٰنَا فَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٨٦]. قال: نعم[1].

---

(١) أخرجه مسلم برقم ١٢٥؛ وأحمد: ٢/ ٤١٢.

وروى مسلم والترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلَتْ هذه الآية: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. دخل قلوبَهم منها شيءٌ لم يدخلْها من قبل، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «فقولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا». فألقى الله الإيمان في قلوبهم. فأنزل الله قوله: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾[1].

وروى البخاري عن مروان الأصفر عن رجلٍ من أصحاب رسول الله ﷺ - أحسبه ابن عمر - قال: قوله تعالى: ﴿وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]. نسخَتْها الآية التي بعدَها[2].

وروى البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عما حدثَتْ به أنفسَها ما لم تعملْ أو تكلم به»[3].

وروى مسلم وأحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله عزَّ وجلّ: «إذا همَّ عبدي بسيئة فلا تكتبوها عليه، فإنْ عمِلَها فاكْتُبوها سيئة، وإذا همَّ بحسنةٍ فلم يعملها فاكتبوها حسنة، فأنْ عملَها فاكتبوها عشراً»[4].

هذه خمسةُ أحاديثَ صحيحة أوردَها ابنُ كثير في تفسير هذه الآيـات، وأوردَ أحاديث أخرى غيرها، كما أوردَ عدةَ رواياتٍ وطرقٍ مسندة.

وقد بلغَ مجموعُ الأحاديث والروايات التي ذكرها الإمام ابن كثير في تفسيرِ

---

(١) أخرجه مسلم برقم ١٢٦؛ والترمذي برقم ٢٩٩٥.
(٢) أخرجه البخاري برقم ٤٥٤٦.
(٣) أخرجه البخاري برقم ٢٥٢٨؛ ومسلم برقم ١٢٧؛ وأبو داود برقم ٢٢٠٩؛ والترمذي برقم ١١٨٣؛ والنسائي: ٦/ ١٥٦ - ١٥٧؛ وابن ماجه برقم ٢٠٤٠؛ وأحمد: ٢/ ٣٩٣.
(٤) أخرجه مسلم برقم ١٢٨؛ وأحمد: ٢/ ٣١٥.

هذه الآية حوالي عشرين حديثاً، كلها مسندة! .

كذلك كانَ الإمام ابن كثير يفسرُ القرآنَ بالسيرةِ النبوية وحياةِ الصحابة، ويذكرُ أسبابَ النزول، ويسجلُ رواياتِ الصحابة في تصويرِ جَوِّ نزولِ الآيات، ويوردُ الروايات في ذلك من كتبِ السنن والصحاح، ومن كتب السيرة والتاريخ.

وهذا كثيرٌ أيضاً في تفسيره، يتجلّى هذا في تفسيره لآياتِ سورةِ الأنفال التي تتحدثُ عن غزوة بدر، وآيات سورة آل عمران التي تتحدثُ عن غزوة أحد، وآيات سورة الأحزاب التي تتحدث عن غزوة الخندق، وآيات سورة التوبة التي تتحدث عن غزوة تبوك، وآيات سورة النور التي تتحدث عن حديث الإفك، وآيات سورة المجادلة التي تتحدث عن قصة الظهار، وهكذا! .

إنَّ تفسيرَ ابن كثير (مستودع) للسنةِ القوليةِ المتمثلةِ في الأحاديث المرفوعة للرسول ﷺ، ومستودعٌ للسنة الفعلية المتمثلة في السيرة النبوية، وما أورده ابن كثير من هذا لم يوردْهُ مفسِّرٌ آخر ـ باستثناء إمام المفسرين الطبري ـ.

٣ ـ ابن كثير يفسر القرآن بأقوال الصحابة والتابعين:

بعدَ أنْ يورد الآياتِ في معنى الآية، والأحاديث المرفوعة في معناها، كان ابن كثير يتوقفُ ليسجل أقوالَ الصحابة التي وقفَ عليها، وأقوالَ التابعين وتابعيهم. وكان يأخذُ هذه الأقوال من التفاسيرِ المأثورة التي بين يديه، كتفاسيرِ الطبري وابن أبي حاتم وابن المنذر وابن مردويه.

وتفسيرُ ابن كثير (مستودعٌ) لأقوال الصحابة في التفسير، مثل: الخلفاء الأربعة، وابن عباس، وابن مسعود، وأبي بن كعب، وعبد الله بن عمر، وعبد الله ابن عمرو، وأبي هريرة، وأبي الدرداء، ومعاذ بن جبل، وغيرهم، رضوان الله عليهم.

(وهو مستودعٌ) لأقوالِ علماءِ التفسير من التابعين، مثل: مجاهد، وعطاء ابن أبي رباح، وعكرمة، وطاووس اليماني، وأبو العالية، وزيد بن أسلم، وابنه عبد الرحمن، وسعيد بن المسيب، ومحمد بن كعب القرظي، وسعيد بن جبير،

والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وأبو وائل، ومقاتل بن حيان، ومقاتل ابن سليمان البلخي، والربيع بن أنس. . . وغيرهم.

ويوردُ ابن كثير عدةَ أقوالٍ لمفسري الصحابة والتابعين، وقد تكون مختلفةً في الظاهر، ولكنه اختلافُ تنوعٍ وليس اختلافَ تضادّ ـ كما قررنا من قبل ـ.

ومثالُ هذا تفسيرُه لقوله تعالى عن المنافقين: ﴿فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠].

أوردَ ابن كثير عدةَ أقوالٍ للصحابة والتابعين في تفسير هذه الآية: «قال السّدّي عن أبي مالك وعن أبي صالح عن ابن عباس، وعن مُرَّة الهمداني عن ابن مسعود، وعن أُناسٍ من أصحابِ رسول الله ﷺ: «في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضاً»: في قلوبهم شك فزادهم الله شكاً.

وقال ابنُ إسحاق، عن محمد بن أبي محمد، عن عكرمة ـ أو سعيد بن جبير ـ عن ابن عباس: «في قلوبهم مرض»: في قلوبهم شك.

وكذلك قالَ مجاهد وعكرمةُ والحسنُ البصري وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة.

وعن عكرمة وطاووس: «في قلوبهم مرض»: يعني الرياء.

وقال الضحاكُ عن ابن عباس: «في قلوبهم مرض»: في قلوبهم نفاق، فزادهم الله نفاقاً.

وهذا كالقولِ الأول.

وقالَ عبدُ الرحمن بن زيد بن أسلم: «في قلوبهم مرض»: هذا مرضٌ في الدين، وليس مرَضاً في الأجساد، وهم المنافقون. والمرض: الشك الذي دخلَهم في الإسلام. «فزادهم الله مرضاً»: زادهم الله رجساً. لقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٤ ـ ١٢٥]. والمعنى: زادتهم شراً إلى شرهم، وضلالة إلى ضلالتهم!.

وهذا الذي قاله عبدُ الرحمن بن زيد رحمه الله حسن، وهو الجزاءُ من جنس العمل. وكذلك قاله الأولون. وهذا نظير قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴾ [محمد: ١٧][1].

عندما ننظرُ في تفسيرِ ابنِ كثير لهذه الآية، فسنرى ما يلي:

١ ـ أَوردَ قولَ اثنين من الصحابة في تفسيرها.

٢ ـ أَوردَ قولَ أربعة عشر تابعياً في تفسيره.

٣ ـ أَوردَ أربعةَ أقوالٍ في تفسيرِ المرض الذي في قلوب المنافقين، ونسبَ كلَّ قولٍ إلى مَنْ قال به من التابعين: الشك، والنفاق، والرياء، والشر والرجس والضلال.

٤ ـ أَعجبه قولُ عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ـ وهو من أَتْباعِ التابعين ـ ولذلك أوردَه كاملاً، وأوردَ دليلَه، وعَلَّقَ عليه بأنه قولٌ حسن.

٥ ـ جمعَ بين قولِ عبد الرحمن بن زيد الذي اختاره وأقوالِ التابعين الآخرين، ليدلَّ على أنه لا خلافَ بين الأقوالِ في الحقيقة، وقال: وكذلك قاله الأولون.

٦ ـ استشهدَ للقولِ الذي اختارَه بآيةٍ من سورة محمد ﷺ، تُقررُ أنَّ الجزاءَ من جنس العمل، سواء كان خيراً أم شراً.

وهذه الأمثلةُ كثيرةٌ جداً في تفسير الإمام ابن كثير.

٤ ـ ابن كثير يفسر القرآن باللغة:

كان الإمامُ ابن كثير يفسرُ القرآنَ بقواعدِ اللغة العربية، ودلالاتها واشتقاقاتها وتصريفاتِها، ويوردُ على هذا الشواهدَ الشعريةَ ويحلِّلُها، ويرجعُ إلى أقوالِ علماء اللغة كالفراء وأبي عبيدة والأخفش والكسائي والمبرد وثعلب وغيرهم، ويرجعُ

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٦ ـ ٤٧.

إلى التفاسير البيانية كتفسير الفراء، وتفسير الزمخشري، ويأخذُ من تفسيرِ الإمامِ ابن جرير، ويسجلُ أقوالَ أصحابِ المعاجم كالجوهري.

والأمثلةُ على تحليلاته اللغوية كثيرةٌ جداً في تفسيره، نكتفي منها بهذا المثال: من تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [البقرة ٣].

تحدَّثَ عن معنى قوله: «يقيمون الصلاة»، وأوردَ أقوالاً ثلاثة عن الصحابة والتابعين في معنى «يقيمون الصلاة»، وكيفيةِ إقامتِها.

ووقفَ وقفةً لغويةً في معنى «الصلاة» واشتقاقها. قال: «وأصلُ الصلاةِ في كلام العرب: الدعاء. قال الأعشى:

لها حارِسٌ لا يَبْرَحُ الدَّهْرَ بَيْتَها   وَإِنْ ذُبِحَتْ صَلّى عَلَيْها وَزَمْزَما

وقال الأعشى أيضاً:

وقابَلَها الرّيحَ في دَنِّها   وَصَلّى على دَنِّها وارْتَسَمْ

أنشدهما ابن جرير، مستشهداً على ذلك.

وقال الأعشى أيضاً:

تَقولُ بِنْتي وَقَدْ قَرَّبْتُ مُرتَحِلاً   يارَبِّ جَنِّبْ أَبي الأَوْصابَ وَالوَجَعا
عَلَيْكِ مِثْلُ الذي صَلَّيْتِ فَاغْتمضِي   نَوْماً فَإِنَّ لجَنْبِ المَرْءِ مُضطَجَعا

يقول: عليكِ من الدعاءِ مثلُ الذي دعيتِه لي.

وهذا ظاهر. ثم استُعملت الصلاةُ في الشرع في ذات الركوع والسجود، والأفعالِ المخصوصةِ في الأوقاتِ المخصوصة، بشروطها المعروفة، وصفاتها وأنواعها المشهورة.

قال ابنُ جرير: وأرى أنَّ الصَّلاة سميتْ صلاة: لأنّ المصلِّي يتعرَّضُ لاستنجاحِ طلبته من ثوابِ الله بعملِه، مع ما يسألُ ربَّه من حاجاتِه.

وقيل: هي مشتقةٌ من «الصَّلَويْن» إذا تحرَّكا في الصلاة عند الركوع والسجود، وهما عِرقان يمتدان من الظهرِ، حتى يكتنفا عجبَ الذنب. ومنه سمي «المصلِّي» وهو التالي للسابقِ في حلبةِ الخيل. وفيه نظر.

وقيل: هي مشتقةٌ من الصِّلى، وهو الملازمةُ للشيْ. من قوله تعالى: ﴿لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى﴾ [الليل: ١٥] أي: لا يلزمها ويدوم فيها إلا الأشقى.

وقيل: مشتقةٌ من تصليةِ الخشبة في النارِ لتقوَّمَ، كما أنّ المصلّي يقوِّمُ عِوَجه بالصلاة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

واشتقاقُها من الدعاءِ أصحُّ وأشهر، والله أعلم»[(١)].

هذه القطعةُ من تفسيرِ ابن كثير تفسيرٌ لغويٌّ بيانيٌّ خالصٌ، وهي واضحةُ الدلالةِ على أنَّ تفسيرَ ابن كثير ليس مجردَ تفسيرٍ بالمأثور، وإنما هو تفسيرٌ أثريٌّ نظري.

فقد أورد أربعةَ أقوالٍ لغوية في اشتقاقِ الصلاة. مشتقة من: الدعاء. أو من الصَّلويْن. أو من الصِّلى. أو من التصلية. ووجَّه كلَّ قولٍ منها.

ثم رجَّحَ القولَ الأول، وهو اشتقاقُها من الدعاء، واستشهدَ لهذا القولِ بثلاثةِ أبيات للأعشى، أوردها ابنُ جرير في تفسيره.

٥ ـ ابن كثير يستنبط الأحكام والدلالات من الآيات:

كان الإمامُ ابن كثير ينتقلُ من الخطوات السابقة في منهجِ التفسير الأثري النظري إلى الخطوةِ الأخيرة، وهي تقديمُ دلالاتِه ولطائفِه التي يستنبطُها من الآيات، والتي هي ثمرةٌ لنظرهِ وتدبُّره في الآيات.

واستنباطاتُ ابن كثير كثيرةٌ في التفسير، وتوجيهاتُه العقليةُ والنظرية عديدة

---

(١) تفسير ابن كثير: ١/ ٤٠ ـ ٤١.

فيه، وتحليلاتُه الفقهية وافرة عندما يفسرُ آياتِ الأحكام.

ونكتفي بإيراد هذا المثال:

في تفسير قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [الأحزاب: ٤٩].

قال: «هذه الآيةُ الكريمةُ فيها أحكامٌ كثيرة، منها:

١ ـ إطلاقُ النكاحِ على العَقْدِ وحده، وليس في القرآن آيةٌ أصرحُ في ذلك منها.

وقد اختلفوا في النكاح: هل هو حقيقةٌ في العقد وحده، أو في الوطء، أو فيهما؟ على ثلاثة أقوال. واستعمالُ القرآن إنما هو في العقدِ والوطءُ بعده، إلا في هذه الآية، فإنه استُعملَ في العقدِ وحده، لقوله تبارك وتعالى: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾.

٢ ـ وفيها دلالةٌ لإباحةِ طلاقِ المرأة قبلَ الدخول بها.

٣ ـ وقوله تعالى «المؤمنات» خرجَ مخرجَ الغالب، إذ لا فرقَ في الحكم بين المؤمنة والكتابية في ذلك بالاتفاق.

٤ ـ وقد استدلَّ ابنُ عباس وسعيدُ بن المسيب والحسنُ البصري وعلي بن الحسين وجماعة من السلف بهذه الآية على أنَّ الطلاقَ لا يقعُ إلاّ إذا تقدمه نكاح، لأنَّ الله تعالى قال: ﴿إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾. فعقَّبَ النكاحَ بالطلاق، فدلَّ على أنه لا يصحُّ ولا يقعُ قبله! وهذا مذهبُ الشافعي وأحمد، وطائفةٌ كثيرة من السلفِ والخلف.

٥ ـ قالَ الله عزَّ وجلّ: ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾. وهذا أمرٌ مجمعٌ عليه بين العلماء، أنَّ المرأة إذا طُلقتْ قبل الدخول بها لا عدةَ عليها، فتذهبُ وتتزوجُ من فورِها مَنْ شاءت، ولا يُستثنى من ذلك إلاّ المتوفّى عنها زوجها، فإنها تعتدُّ منه أربعةَ أشهر وعشراً، وإنْ لم يكنْ دخلَ بها، وهذا بالإجماع أيضاً.

٦ ـ قال تعالى: ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾: المتعةُ هاهنا أعمُّ مِن أنْ تكونَ نصفَ الصّداقِ المسمى، أو المتعة الخاصة إنْ لم يكنْ قد سُمي لها صداق.

قال تعالى في مَنْ سُمِّي لها مهرٌ فتأخذُ نصفَه: ﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقال تعالى في من لم يُسَمَّ لها مهرٌ فتأخذ متعة: ﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا۟ لَهُنَّ فَرِيضَةً ۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلْمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلْمُقْتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعًۢا بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٦].

وفي صحيح البخاري عن سهلِ بن سعد وأبي أُسيد رضي الله عنهما قالا: تزوجَ النبيُّ ﷺ أُميمة بنت شراحيل، فلما أُدخلَتْ عليه بَسَطَ يدهُ إليها، فكأنها كرهت ذلك، فأمرأ أسيد أنْ يجهِّزها، ويكسوها ثوبين رازقيين»[1].

قال عليُّ بن أبي طلحة: إنْ كان سمى لها صداقاً فليس لها إلا النصف، وإنْ لم يكن سمّى لها صداقاً أمْتَعَها على قدرِ عسْره ويسْره، وهو السَّراحُ الجميل»[2].

لقد استنبط الإمام ابن كثير من الآية ستةَ أحكامٍ فقهية، وكان في كلِّ حكمٍ يستنبطه يذكرُ دليلَه عليه من كلماتِ الآية ويوجِّهُ ذلك الدليل، كما كان يستشهدُ لذلك بآياتٍ من القرآن، وحديثِ رسول الله ﷺ.

وهكذا نرى أنَّ الإمام ابن كثير فسَّر القرآن وفقَ المنهجِ الأثريِّ النظري، والتزم بأحسنِ طرق التفسير، ومراحِلها وخطواتها المنهجية، ونقلَ ما رآه مناسباً وضرورياً في التفسير من أقوال الصحابة والتابعين وغيرهم.

وقد سارَ في تفسيره على خطوات إمامِ المفسرين الطبري، واحتل تفسيرُه المرتبةَ الثانية في كتبِ التفسيرِ الأثريِّ بعد تفسير «جامع البيان» للطبري.

* * *

(١) أخرجه البخاري برقم ٥٢٥٦.
(٢) تفسير ابن كثير: ٣/ ٤٧٨ ـ ٤٧٩.

الفصل السّادس

التَّفْسِيْرُ بِالرَّأيِ المَحْمُوْدِ
مَفْهُومُهُ - شُرُوْطُهُ - أَعْلَامُهُ

المبحث الأول

مفهوم التفسير بالرأي المحمود، والموقف منه، وشروطه

مفهوم التفسير بالرأي:

الرأي مصدر. تقول: رأى ـ يَرى ـ رأياً. وأساسُ استعمالِه في الإبصارِ والرؤيةِ والمشاهدة. رآه: أبصره بعينه.

ويستعملُ في الاعتقادِ والتدبيرِ والتفكيرِ، والنظرِ والتأمل[1].

قالَ أَبو البقاء في الكليات: «الرأي اعتقادُ النفسِ أحدَ النقيضين، عن غلبةِ الظّنّ». وعليه قوله تعالى: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِۚ﴾ [آل عمران: ١٣].

أي: يظنّونهم بحسبِ مقتضى مشاهدةِ العينِ مثلَيْهم.

وقال بعضُهم: «الرأيُ هو: إِجالةُ الخاطرِ في المقدمات، التي يُرجى منها إنتاجُ المطلوب»[2].

وقال الدكتور محمد حسين الذهبي: «يُطلقُ الرأيُ على الاعتقاد، وعلى الاجتهاد، وعلى القياس. ومنه: أصحابُ الرأي: أَي: أصحابُ القياس».

وعَرَّفَ الذهبيُّ التفسيرَ بالرأي بقوله: «التفسيرُ بالرأي عبارةٌ عن تفسير القرآنِ بالاجتهاد، بعد معرفةِ المفسِّرِ لكلامِ العرب ومناحيهم في القول، ومعرفتِه للألفاظِ العربية، ووجوهِ دلالتها، واستعانتِه في ذلك بالشعر الجاهلي، ووقوفِه

---

(١) المعجم الوسيط، ص٣٢٠.

(٢) الكليات لأبي البقاء، ص٤٢٠.

على أسبابِ النزول، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن، وغير ذلك من الأدواتِ التي يحتاجُ إليها المفسر»[1].

وعَرَّفَ الشيخُ خالد العك التفسير بالرأي ـ أو التفسير العقلي ـ بقوله: «يَعْتَمِدُ على الفهمِ العميق والمركَّزِ لمعاني الألفاظ القرآنية، بعد إدراكِ مدلولِ العبارات القرآنية، التي تنتظمُ في سلكها تلك الألفاظ، وفهمِ دلالاتها»[2].

التفسيرُ بالرأي إذن يقومُ على اجتهادِ المفسر، وإِعمالِ عقْلِه، وعمقِ نظره، وإجالـةِ رأيه، وتقديمِ خلاصةِ هذا في تفسيرِ القرآن، وبيانِ معانيه واستخراجِ دلالاته وأحكامه.

والتفسيرُ بالرأي يقابلُ التفسيرَ بالمأثور الذي تحدَّثنا عنه في الفصول السابقة.

ويُسمى التفسيرَ العقلي، لأنه يقومُ على إعمالِ العقل والتفكيرِ في التفسير، في مقابلِ التفسير النقليِّ الذي يقومُ على نقلِ الرواياتِ المأثورة في التفسير.

ويُسمّى أَيضاً التفسيرَ النظري، لأنه يَنتجُ عن النظرِ العميق في القرآن، لاستخراجِ الأحكامِ والدلالات، في مقابلِ التفسيرِ الأثريِّ القائم على الأثر والنقل.

فهذا المصطلح (التفسير بالرأي) يُطْلَقُ على الخَطِّ الثاني في التفسير، المقابل لخطِّ التفسيرِ بالمأثور. هذان الخَطّان اللذان ظهرا منذ بدايةِ نشأةِ التفسير، زمن الصحابة والتابعين.

التفسيرُ بالمأثور في مقابلِ التفسير بالرأي. أو: التفسيرُ العقليُّ في مقابلِ التفسير النقلي. أو: التفسيرُ النظريُّ في مقابلِ التفسير الأثري!.

والتفسيرُ بالرأي نوعان:

نـوعٌ محمودٌ مقبول، لأنه يقومُ على أسسٍ علمية منهجية، وتتحققُ فيه

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي، ص٢٥٥.

(٢) أصول التفسير وقواعده للعك، ص١٦٧.

الشروطُ والضوابطُ المطلوبة.

ونوعٌ مذمومٌ مردود، لأنه يقومُ على الهوى أو الجهل.

وكلامُنا في هذا الفصل عن التفسيرِ بالرأي المحمود، أما الرأيُ المذموم فنتحدث عنه في الفصل القادم إن شاء الله.

موقف العلماء من التفسير بالرأي:

اختلفَ العلماءُ من قديمِ الزمان في جوازِ التفسيرِ بالرأي، فمنهم مَنْ مَنَعَه مطلقاً، واعتبَره قولاً بدون علم، ومنهياً عنه، ومَنْ فَعَلَه فهو آثم، ومنهم مَن أَباحه مطلقاً، وأَجازَ لكلِّ إنسانٍ أنْ يفسِّرَ القرآنَ برأيه وعقلِه ونظره واجتهاده، بدون شروطٍ ولا قيودٍ ولا ضوابط.

وقد تحدَّثَ العلماءُ عن هذا الاختلاف، وبَسطوا أدلةَ المجيزين والمانعين، وتوسَّعوا في ذلك كثيراً.

منهم: أَبو حيـان الأندلسي في مقدمة تفسيره (البحر المحيط). والإمام الشـاطبي في كتابه (الموافقات)، وجمال الدين القاسمي في تفسيره (محاسـن التأويل)، ومحمد الطاهر بن عاشـور في مقدمة تفسيره (التحرير والتنويـر)، والدكتور محمد حسين الذهبي في (التفسير والمفسرون)، وخالد العك في (أصول التفسير وقواعده). وسنلخص أهم ما استدلَّ به الفريقان بمنتهى الإيجاز:

أ ـ من أدلةِ المانعين للتفسير بالرأي:

١ ـ التفسيرُ بالرأي قولٌ على الله بلا علم، وهذا منهيٌّ عنه في القرآنِ فهو محرم. قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦].

٢ ـ جعلَ اللهُ بيانَ القرآنِ لرسوله ﷺ، وهذا معناه أَنه لا يجوزُ لغيره أنْ يفسِّرَ القرآنَ برأيه. وهذا في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤].

٣ ـ نهيُ الرسولِ ﷺ عن تفسيرِ القرآنِ بالرأي، واعتبارُه مَنْ قال في القرآن برأيه فقد أخطأَ وإن أصاب.

٤ ـ ورودُ آثار عن الصحابة والتابعين يَنهون فيها عن التفسيرِ بالرأي، ويسجِّلون فيها تحرجَهم من القولِ في التفسير.

وقد رَدَّ المُجيزونَ للتفسيرِ بالرأي المحمود على تلك الأدلةِ الأربعةِ ردوداً مفصَّلة، وسجلَ مجملَ تلك الردود الدكتور الذهبي في (التفسير والمفسرون)[1].

ب ـ من أدلةِ المجيزين للتفسير بالرأي:

١ ـ دعا اللهُ عبادَه إلى تدبرِ القرآن، وهذا معناه النظرُ في آياته، وإعمالُ العقل فيه، وتردادُ الرأيِ في نصوصه. قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤]. وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة صٓ: ٢٩].

٢ ـ مدحَ اللهُ الذين يستنبطونَ المعاني والدلالات من الآيات، وهم أولوا الألباب، الذين يجتهدون في تفسيرِ القرآن بآرائهم. قال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

٣ ـ لوكانَ التفسيرُ بالرأي غيرَ جائزٍ لما كان الاجتهادُ جائزاً، وهذا معناه تعطيلُ الأحكام، وإلغاءُ دور العقل في فهمِ القرآن.

٤ ـ دعاءُ الرسولِ ﷺ لابن عباس رضي الله عنهما أنْ يعلِّمَهُ اللهُ التأويل. فقد روى أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: وَضَعَ رسولُ الله ﷺ يده على كتفي ـ أو منكبي ـ ثم قال: «اللهمَّ فَقِّهْهُ في الدين وعَلِّمْهُ التأويل»[2].

ولو كان التفسيرُ بالرأيِ ممنوعاً لما كان لتخصيصِ ابنِ عباس بهذا الدعاء

(١) انظر أدلة المانعين والرد عليها في (التفسير والمفسرون) للذهبي: ١/ ٢٥٦ ـ ٢٦١.

(٢) مسند أحمد بتحقيق شعيب الأرناؤوط: ٤/ ٢٢٥؛ حديث رقم ٢٣٩٧.

فائدة. وقد استَجابَ اللهُ دعاءَ رسوله ﷺ، وعَلَّمَ ابن عباس التأويل، فكان حبرَ الأمة وترجمانَ القرآن[1].

الراجح: جواز التفسير بالرأي بشروط:

كلُّ واحدٍ من الفريقين مُغال، الذين منعوا التفسيرَ بالرأي مطلقاً مغالون في المنع، وأدلتُهم التي استدلّوا بها لا تدلُّ على ما يريدون، والذين أجازوا التفسيرَ بالرأي مطلقاً أيضاً مُغالون.

والصوابُ القول: التفسيرُ بالرأي مطلوب إذا انطبقتْ فيه الشروطُ الضروريةُ لصحته وصوابه وقبوله.

قالَ الإمامُ الراغبُ الأصفهاني ـ فيما نقله عنه الذهبي ـ: «.. وذكرَ بعضُ المحققين: أنَّ المذهبين هما الغلوُّ والتقصير. فمن اقتصرَ على المنقولِ إليه فقد تركَ كثيراً مما يُحتاجُ إليه، ومَنْ أجاز لكلِّ أحدٍ الخوضَ فيه فقد عَرَّضَه للتخليط، ولم يعتبرْ حقيقة قوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة صَ: ٢٩].

ونحنُ مع الدكتور محمد حسين الذهبي رحمه الله في كلامه عن التفسير بالرأي:

الرأي قسمان:

ـ قسمٌ جارٍ على موافقةِ كلام العربِ، ومناحيهم في القول، مع موافقةِ الكتابِ والسنة، ومراعاةِ سائرِ شروط التفسير.. وهذا القسمُ جائزٌ لا شكَّ فيه. وعليه يُحملُ كلامُ المجيزين للتفسير بالرأي.

ـ وقسمٌ غيرُ جارٍ على قوانينِ العربية، ولا موافقٌ للأدلةِ الشرعية، ولا مستوفٍ لشرائطِ التفسير، وهذا هو موردُ النهيِ ومحطُّ الذم...

---

(١) انظر (التفسير والمفسرون) للذهبي: ١/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣.

. . . إن التفسير بالرأي الجائزِ محدودٌ بحدود، ومقيدٌ بقيود، لا بدَّ من مراعاتها . . »[1].

وقد عقد الإمامُ الطبريُّ فصلاً في رسالته في (أصول التفسير) في مقدمة تفسيره أسماه: «ذكرُ بعض الأخبارِ التي غلط في تأويلها منكرو القولِ في تأويلِ القرآن.»

أورد فيه أخباراً وروايات عن الصحابة والتابعين في تحرجهم من القولِ في التفسير.

وعلَّق على تلك الأقوالِ بقوله: الأَخبارُ التي ذكرناها عمنْ ذكرناها عنه من التابعين في إحجامه عن التأويل، فإنها كإحجامِ مَنْ أحجمَ منهم عن الفتيا في الحوادث والنوازل. فلم يكنْ إحجامُه عن القولِ في ذلك إحجامَ جاحد. ولكن إحجامَ خائفٍ أنْ لا يبلغَ في اجتهادِه ما كلفَّ الله به العلماء.

فكذلك معنى إحجامِ مَنْ أحجمَ عن القول في تأويل القرآن وتفسيرِه من العلماء السلف، إنما كانَ إحجامُه عنه خشيةَ أنْ لا يبلغَ أداءَ ما كُلِّفَ من إصابةِ القول فيه . .[2].

أي أنَّ إحجامَ بعضِ السلف عن القولِ في التفسير كان بسبب مزيدِ خشيةٍ وتحرجٍ وخوفٍ منْ أن يُخطئ في قوله ونظره واجتهاده، وليسَ لأنَّ التفسيرَ بالرأي حرامٌ منهيٌّ عنه.

وساقَ الإمامُ ابن تيمية في رسالته في (أصول التفسير) أقوالاً عن الصحابة والتابعين في النهي عن التفسير بالرأي.

وعلَّقَ عليها بقوله: «فهذه الآثارُ الصحيحةُ وما شاكلها عن أئمة السلف، محمولةٌ على تحرُّجهم عن الكلامِ في التفسير بمالا علْم لهم به، فأما منْ تكلمَ بما

---

(١) التفسير والمفسرون: ١/ ٢٦٤ـ٢٦٥.

(٢) تفسير الطبري: ١/ ٣٩.

يعلمُ من ذلك لغةً وشرعاً فلا حرجَ عليه.

ولهذا رويَ عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير.. ولا منافاة، لأنهم تكلموا فيما عِلموه، وسكتوا عما جَهلوه..

وهذا هو الواجبُ على كلِّ أحد، فإنه كما يجبُ السكوتُ عما لا علمَ له به، فكذلك يجبُ القولُ فيما سُئلَ عنه مما يعلمه، لقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧][(١)].

ونوردُ هذه الخلاصة الموجزة للإمام محمد الطاهر بن عاشور عن أهمية التفسير بالرأي المشروط المحمود، في مقدمة تفسيره (التحرير والتنوير):

يرى ابن عاشور أنَّ تفسيراً كثيراً للقرآن لم يكنْ من المأثور عن رسول الله ﷺ وأصحابه، وأنَّ التفاسيرَ قد اتسعت، وتفنَّنَ أصحابها في استنباط معاني القرآن، بما رزقهم الله من فهمِ كتاب الله، هذا تحقيقٌ لقولِ السلفِ عن القرآن: «لا تنقضي عجائبه». ولولا التفسيرُ بالرأي لكان تفسيرُ القرآن مختصراً في ورقاتٍ قليلة.

ويقول: «ثم لو كان التفسير مقصوراً على بيان معاني مفرداتِ القرآن من جهةِ العربية لكانَ التفسيرُ نزراً، ونحنُ نشاهدُ كثرة أقوال السلف ـ من الصحابة فمن يليهم ـ في تفسير القرآن، وما أكثر ذلك الاستنباط برأيهم وعلمهم..

قال الغزاليُّ والقرطبي: لا يصح أنْ يكون كلُّ ما قاله الصحابة في التفسير مسموعاً من النبي ﷺ لوجهين:

أحدهما: أن النبيَّ ﷺ لم يثبتْ عنه من التفسيرِ إلا تفسيرُ آياتٍ قليلة.

الثاني: أنهم اختلفوا في التفسير على وجوهٍ مختلفة لا يمكنُ الجمعُ بينها. وسماعُ جميعها من رسول الله ﷺ محُال...

فتبينَ على القطع أنَّ كلَّ مفسرٍ قال في معنى الآية بما ظهرَ له من استنباطِه!.

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ص١٠٥ ـ ١١٥.

روى البخاريُّ عن أبي جُحَيْفَةَ رضي الله عنه قال: قلتُ لعليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه: هل عندكم شيءٌ من الوحي إلاّ ما في كتابِ الله؟

قال علي: لا. والذي فَلَقَ الحبَّة، وبرأ النّسمةَ، ما أعلمه إلاّ فهماً يُعطيهِ الله رجلاً في القرآن. . .»[1].

وقد دعا رسولُ الله ﷺ لعبدِ الله بن عباس فقال: «اللهم فقِّهْهُ في الدين، وعلِّمْهُ التأويل». واتفقَ العلماءُ على أنَّ المرادَ بالتأويلِ تأويلُ القرآن.

وقد ذكر فقهاؤنا في آدابِ قراءة القرآن أن التفهمَ مع قلةِ القراءة أفضل من كثرةِ القراءةِ بلا تفهُّم. .

وقال الغزاليُّ في الإحياء: «التدبرُ في قراءة القرآن إعادةُ النظر في الآية. والتفهُّمُ أنْ يستوضحَ من كلِّ آيةٍ ما يليقُ بها، كي تتكشفَ له من الأسرارِ معانٍ مكنونة، لا تتكشفُ إلاّ للموفَّقين».

وقال الغزالي أيضاً: «ومن موانعِ الفهم أنْ يكون قد قرأ تفسيراً واعتقدَ أنْ لا معنى لكلماتِ القرآن إلاّ ما تناوله النَقلُ عن ابن عباس ومجاهد، وأنَّ ما وراء ذلك تفسيرٌ بالرأي، فهذا من الحُجُبِ العظيمة. .».

وقال فخرُ الدين الرازي: «. . إذا ذكر المتقدمونَ وجهاً في تفسير الآية فذلك لا يمنع المتأخرين من استخراج وجهٍ آخر في تفسيرها، وإلا لصارت الدقائق التي يستنبطها المتأخرون مردودة، وذلك لا يقوله إلا مُقَلِّدٌ خُلْف».

ولما فسَّرَ سفيانُ بن عيينة قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [إبراهيم: ٤٢]. قال: هذا تسليةٌ للمظلومِ وتهديدٌ للظالم.

فقيل له: مَنْ قالَ هذا؟

فغضبَ ابنُ عيينة وقال: إنما قالَه مَنْ علمَه! يريدُ نفْسَه!!.

---

(١) أخرجه البخاري برقم ٣٠٤٧.

وهل استنباطُ الأحكامِ التشريعية من القرآن في خلال القرون الثلاثة الأولى من قرون الإسلام إلاّ مِنْ قبيل التفسير لآيات القرآن بما لم يسبق تفسيرُها به من قبل؟»[1].

إننا لا نرى أنَّ التفسير بالرأي المحمود جائزٌ فقط، بل نرى أنه واجبٌ لا بدَّ منه، لمن ملك الأدوات التي تعينُه على صوابِ الرأي، وحصَّلَ العلوم التي لا بدَّ منها لحسْنِ تفسير القرآن وتأويله.

وقد سبق أنْ بينا أنَّ التأويل هو مرحلةٌ تاليةٌ للتفسير، ومبنيةٌ عليه، وثمرةٌ لـه.. فالتفسيرُ بالمأثور ما هو إلاّ تمهيدٌ للتفسير بالرأي، ومقدمةٌ له، وطريـقٌ توصلُ إليه.

وسبق أن ذكرْنا أنّ الخطوة الأخيرة في أحسن طرقِ التفسير هي: إعمالُ الرأي والنظر والعقل في الآيات، واستخراجِ ما فيها من أحكامٍ ودلالات! وعلى هذا قامَ منهجُ التفسير الأثريِّ النظري.

وكلُّ مَنْ تكلَّمْنا عنهم من المفسرين السابقين كانوا يفسِّرون القرآن بالرأي المحمود، القائم على الأسس المنهجية، سواء كانوا من الصحابةِ أو التابعين أو مَنْ بعدهم.

شروط التفسير بالرأي المحمود:

لا بدَّ مِنْ توفُّرِ شروطٍ وضوابط ضرورية في التفسير بالرأي المحمود ليكونَ صواباً، وليكون مقبولاً معتمداً، فإذا لم تتوفرْ فيه الشروط والضوابط المقررةُ كان تفسيراً بالرأي المذموم، قائماً على الهوى والمزاجية، ومن ثمَّ كان مرفوضاً مردوداً.

وقد سبقَ أنْ تحدَّثنا عن هذا في الفصل الثاني من هذه الدراسة: (المفسرون

---

(١) تفسير التحرير والتنوير لابن عاشور: ١/ ٢٨ ـ ٣٠.

وتفاسيرهم: شروط وضوابط وتوجيهات).

تحدَّثنا في مبحث (العلوم الضرورية للمفسر) عن خمسةَ عشرَ علماً من العلوم التي لا بدَّ للمفسِّر أنْ يلمَّ بها قبلَ البدء بالتفسير ليكون تفسيره محموداً صواباً: العلمُ بالقرآن، والعلمُ بالسنة، والعلمُ بالسيرة وحياة الصحابة، والعلمُ بتاريخ القرآن، والعلمُ بقواعد تفسير القرآن، والعلمُ باللغة العربية، والعلمُ بالنحو والصرف، والعلمُ بالبلاغة العربية، والعلمُ بالقرءات القرآنية، والعلم بالعقيدة الإسلامية، والعلمُ بأصول الفقه، والعلمُ بتاريخ العرب الجاهلي، والعلمُ بتاريخ السابقين، والعلمُ بالمذاهب الفكرية المختلفة، والثقافةُ العلمية المعاصرة.

وتحدثنا في المبحثِ الثاني من ذلك الفصل عن أهمِّ صفاتِ وآداب المفسر ليصحَّ تفسيره، وتحدثنا في المبحث الثالث عن أحسن طرقِ التفسير، التي تقومُ على ستٍّ خطوات مرحلية: تفسير القرآن بالقرآن، ثم بالسنة الصحيحة، ثم بأقوال الصحابة، ثم بأقوال التابعين، ثم باللغة، ثم بالرأي بعد ذلك.

وتصلحُ تلك المباحثُ الثلاثةُ من الفصل الثاني أن تكونَ «شروطاً وضوابط» لصحةِ التفسيرِ بالرأي المحمود. فلا بدَّ من تذكُّرِها ونحنُ نتكلمُ على الشروط هنا.

وقد تكلمَ الدكتورُ محمد حسين الذهبي عن العلوم التي يحتاجُها المفسر، ليكونَ تفسيرُه بالرأي مقبولاً. والعلومُ التي ذكرها خمسةَ عشرَ علماً، وأَضافَ لها خمسةَ علومٍ أَوردها الشيخ محمد عبده[1].

ثم تحدَّثَ الذهبيُّ عن مصادرِ التفسير الخمسة التي لا بدَّ لمن يفسرُ بالرأيِ أنْ يعودَ إليها قبلَ إعمالِ رأيه ونظره. وهي التي ذكرناها في أحسنِ طرقِ التفسير[2].

ثم ذكرَ الذهبيُّ أَموراً خمسةً يجبُ على المفسرِ أنْ يتجنَّبها في تفسيره، حتى لا يُخطئ:

---

(١) انظر: (التفسير والمفسرون): ١/ ٢٦٥ ـ ٢٧٢.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

١ ـ التهجمُ على بيانِ مرادِ الله تعالى من كلامه، مع الجهلِ بقوانينِ اللغة وأصولِ الشريعة، وبدونِ أنْ يُحصِّلَ العلومَ الضرورية للتفسير.

٢ ـ الخوضُ في ما استأثرَ اللهُ بعلمه، كأشراطِ الساعةِ ومشاهدِ القيامة.

٣ ـ السيرُ مع الهوى والاستحسان.

٤ ـ التفسيرُ المقررُ للمذهبِ الفاسد، بأنْ يجعلَ المذهبَ أَصلاً والتفسيرَ تابعاً.

٥ ـ التفسيرُ مع القطعِ بأنَّ مرادَ اللهِ كذا وكذا من غيرِ دليل[1].

ثم عرضَ الذهبيُّ منشأَ الخطأ في التفسير بالرأي، ولخَّصَ كلامَ الإمامِ ابن تيمية في مقدمته في أُصولِ التفسير. وقد تحدَّثنا عن هذا بالتفصيلِ في المبحث الرابع من الفصل الثاني، الذي عرضْنا فيه «أسبابَ اختلافِ المفسرين». والمبحث الخامس الذي سجلنا فيه «أهم أخطاء المفسرين».

إنَّ أَهَمَّ شروطِ التفسير بالرأي الجائز المحمود هي:

١ ـ أنْ يتصفَ المفسرُ بالصفاتِ الضروريةِ للمفسر، وأنْ يتأدَّبَ بالآدابِ التي لا بدَّ منها له.

٢ ـ أنْ يلمَّ المفسرُ بالعلوم الأساسية التي لا بدَّ منها، ليحسنَ فهمَ القرآنِ وتفسيره وبيانَ معانيه.

٣ ـ أنْ يتجنبَ الأخطاءَ التي نبهَ عليها العلماء، وأنْ يحرصَ على عدمِ الوقوعِ بها أَثناءَ تفسيرِه للقرآن.

٤ ـ أن لا يَدخلَ عالم القرآنِ. بمقررات فكرية سابقة، وأنْ لا يجعلَ القرآنَ تابعاً لمقرراتِه المخالفة للقرآن.

٥ ـ أنْ يتخلّى عن الهوى في تفسيرِه وإعمالِ رأيه، لأنّ الهوى يحجبُه عن

---

(١) التفسير والمفسرون: ١/ ٢٧٥.

حسنِ فهمِ القرآن، ويقودُه إلى الوقوعِ في الخطأ.

٦ ـ أنْ لا يخالف في تفسيره آياتِ القرآن الأُخرى، وأنْ لا يتعارضَ رأيُه مع مقرراتِ الآياتِ الأخرى.

٧ ـ أنْ لا يخالفَ في تفسيره الأحاديثَ الصحيحةَ عن رسولِ الله ﷺ، وأنْ لا يقررَ آراء تتعارضُ مع ما تقررُه تلك الأحاديث.

٨ ـ أن لا يتعارضَ في تفسيره مع معاني اللغة العربية، وأنْ لا يفسِّرَ ألفاظَ وتراكيبَ القرآن تفسيراً يخالفُ معاني اللغة واستعمالاتِها وتصريفاتِها.

٩ ـ أنْ لا يكونَ متأثراً بالأفكارِ والمذاهبِ المخالفة المعادية، التي يعتنقُها الكفار، وأنْ لا يكونَ مهزوماً نفسياً أمامهم.

١٠ ـ أنْ لا يجزمَ بأنَّ ما يقدُمه مِن تفسيرٍ بالرأي هو مرادُ الآياتِ، ولا يقطعَ بأنَّ هذا مقصودُها، فإنه بذلك (يَتَأَلّى) على الله، وعليه أنْ يُقدِّمَ رأيَه ونظره واستنتاجَه بتواضع وأدب، وبخوفٍ ووجل، وأنْ يقول: هذا ما فهمتُه، وهذا ما فَتَحَ اللهُ به عليّ، وقد يقولُ غيري خيراً مما قلت!!.

* * *

المبحث الثاني

أشهر المفسرين بالرأي المحمود

نُقدمُ فيما يلي تعريفاً موجزاً بأشهرِ أَعلام المفسرين بالرأي المحمود الجائز، وتعريفاً موجَزاً بأشهرِ تفاسيرهم، ليتعرَّفَ الدارسُ عليهم وعلى تفاسيرهم، من خلالِ مقدمةِ كلِّ مفسرٍ منهم لتفسيره، ومجمل ما قاله عنه العلماء.

ونقفُ وقفةً خاصةً مع أشهرِ مفسِّرٍ من هذه المدرسة، هو الإمام الرازي في المبحث القادم إن شاء الله.

١ ـ الإمام البيضاوي وتفسيره (أنوار التنزيل):

هو القاضي ناصرُ الدين، أبو الخير، عبدُ الله، بن عمر، بن محمد، بن علي، البيضاوي، الشيرازي، الفارسي، الشافعي.

وُلدَ في مدينةِ (البيضاء) من إعمالِ شيراز، في بلادِ فارس. ولم يُحَدِّد العلماءُ سنةَ ميلاده في البيضاء.

(البيضاوي): نسبةً إلى مدينةِ (البيضاء) المذكورة.

(والشيرازي): نسبةً إلى (شيراز) التي تتبعُ لها البيضاء.

(والفارسي): نسبةً إلى بلاد فارس، التي تقع فيها شيراز والبيضاء.

والشافعي: نسبة إلى المذهبِ الشافعي، فقد كانَ شافعيَّ المذهب[1].

لُقِّبَ بالقاضي لأنه تولّى القضاءَ في مدينة (البيضاء) ومدينة (شيراز).

---

(١) القاضي البيضاوي للدكتور الزحيلي، ص٣١ ـ ٣٣.

كما لُقِّبَ بقاضي القضاة لأنه عُيِّن بمنصب قاضي القضاة في شيراز فترة[١].

وهو من أُسرةٍ مشهورةٍ بالعلم، فجدُّهُ محمدُ بن علي كان عالماً وقاضياً، ووالدُه عمر كان عالماً وقاضياً، وصارَ ناصرُ الدين عالماً وقاضياً.

لم يمكث البيضاويُّ طويلاً في منصب (قاضي القضاة)، فتركَه، وذهبَ مِنْ شيراز إلى مدينةِ تبريز في بلاد فارس، وأقبلَ فيها على التأليفِ والتصنيف، فصنَّف فيها تفسيرَه (أنوار التنزيل) وغيره[٢].

واختلفَ العلماءُ في تحديد سَنة وفاةِ القاضي البيضاوي، وذهبَ جمهورُهم إلي أنه توفي سنة: ٦٨٥هـ.

قال ابنُ حبيب: كانت وفاةُ البيضاوي في تبريز سنة ٦٨٥ عن مئةِ سنة![٣].

أَلَّفَ القاضي البيضاويُّ مجموعةً من المصنفات في التفسيرِ والفقه وأصول الفقه وأصول الدين، وكتب الله لها القَبولَ في حياته وبعد وفاته. أوصلها الدكتور محمد الزحيلي إلى واحدٍ وعشرين كتاباً[٤].

من أشهرِها: تفسيره (أنوار التنزيل). و(الغاية القصوى في دراية الفتوى) في فروع الفقه الشافعي، و(منهاج الوصول إلى علم الأصول)، الذي اختصرَ فيه كتاب الرازي الشهير في الأصول (المحصول). و(طوالع الأنوار) في العقيدة.

وهذه الكتبُ الأربعة هي أشهر كتبه تداولاً بين أهل العلم. واشتهرَ البيضاوي بها باعتباره مفسراً، فقيهاً، أصولياً، متكلماً.

وكلامُنا عن تفسيرِه: (أنوار التنزيل وأسرار التأويل).

ألفَ القاضي البيضاوي تفسيرَه بعد ما استقرَّ في تبريز، وكان هذا في أواخرِ عمره، وأَطلقَ على تفسيرِه اسمَ: (أنوار التنزيل وأسرار التأويل).

---

(١) القاضي البيضاوي، ص٣٧.
(٢) انظر المرجع السابق، ص٥٠ ـ ٦٠.
(٣) المرجع السابق، ص٣٩ وص٥٦ ـ ٦٩.
(٤) المرجع السابق، ص٧٦ ـ ٧٨.

أَي أَنه يريدُ أنْ يقدمَ للدارس في تفسيره بعضَ أنوار القرآن، الذي هو تنزيلٌ من الله، وأنْ يضعَ بين يديه بعضَ أسرارِ تأويلِ القرآن.

وعنوانُ تفسيرِه يدلُّ على أَنه تفسيرٌ عقلي، قائمٌ على إعمال الرأي في القرآن، وهو رأيٌ محمودٌ مقبول، لاتفاقِه مع شروطِ التفسير بالرأي الصواب.

وتفسيرُ البيضاوي من أشهر مصنفاته، وحازَ مرتبةَ السبق، وتبوَّأَ المنزلةَ العليافي زمانه وبعدَ وفاته، وتلقاهُ العلماءُ بالقبول، واحتلَّ المكانةَ الأولى في الدراسة والتدريس، وأقبلَ عليه العلماءُ بالشرح والتحشية.

قالَ فيه (حاجي خليفة) في كتابه (كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون):

«... وتفسيرُ البيضاوي كتابٌ عظيمُ الشأن، غنيٌّ عن البيان، لَخَّصَ فيه من الكشافِ ما يتعلَّقُ بالإعراب والمعاني والبيان، ومن التفسير الكبير ما يتعلقُ بالحكمةِ والكلام، ومن تفسيرِ الراغب ما يتعلقُ بالاشتقاق وغوامضِ الحقائق ولطائفِ الإشارات.. وضمَّ إليه ما ورى زنادَ فكرِه من الوجوه المعقولة، فَجَلا رَيْنَ الشكِّ عن السريرة، وزادَ في العلم بسطة وبصيرة..» كما قال فيه مولانا المنشئ:

أُولو الألْبابِ لَمْ يَأْتُوا ... بِكَشْفِ قِناعِ ما يُتْلى
وَلكِنْ كانَ لِلْقاضي ... يَدٌ بيْضاءُ لا تبْلى[1]

قالَ الإمامُ القاضي البيضاوي في مقدمةِ تفسيره: «وبعد: فإنَّ أعظمَ العلومِ مقداراً، وأرفعها شأناً ومناراً، علمُ التفسير، الذي هو رئيسُ العلومِ الدينية ورأسُها، ومبنى قواعدِ الشرع وأساسُها، لا يليقُ لتعاطيه، والتصدِّي للتكلم فيه، إلاّ مَنْ برعَ في العلوم الدينية كلِّها، أصولها وفروعها، وفاقَ في الصناعات العربية، والفنون الأدبية بأنواعها..

(١) القاضي البيضاوي، ص١٢٤ ـ ١٢٩؛ وانظر (التفسير والمفسرون) للذهبي: ١/ ٢٩٦ ـ ٣٠٤.

ولطالما أُحدِّثُ نفسي بأنْ أُصنفَ في هذا الفن كتاباً، يحتوي على صفوةِ ما بلغني من عظماء الصحابة، وعلماء التابعين، ومَنْ دونهم مِنْ السلف الصالحين، وينطوي على نكتٍ بارعة، ولطائفَ رائعة، استنبطتُها أنا ومَنْ قبلي من أفاضلِ المتأخرين، وأماثلِ المحققين. ويُعربُ عن وجوهِ القراءاتِ المشهورةِ المعزوةِ إلى الأئمة الثمانية المشهورين، والشواذِّ المرويةِ عن القرّاءِ المعتبرين، إلاّ أنَّ قصورَ بضاعتي يثبِّطُني عن الإقدام، ويمنعني عن الانتصابِ في هذا المقام، حتى سنحَ لي بعد الاستخارةِ ما صمَّمَ به عزمي على الشروعِ فيما أردتُه، والإتيانِ بما قصدتُه.

ناوياً أنْ أُسميه بعدَ أنْ أُتمِّمه (أنوار التنزيل وأسرار التأويل . .)[١].

ولما أتمَّ القاضي تفسيره قال: «وقد اتفقَ إتمامُ تعليقِ سوادِ هذا الكتاب، المنطوي على فرائدِ فوائدِ ذوي الألباب، المشتملِ على خلاصةِ أقوال أكابر الأئمة، وصفوةِ آراءِ أعلام الأمة في تفسير القرآن وتحقيق معانيه، والكشف عن عويصاتِ ألفاظه ومعجزاتِ مبانيه، مع الإيجازِ الخالي عن الإخلال، والتلخيص العاري عن الإضلال، الموسومِ بأنوارِ التنزيل وأسرار التأويل . .

وأسأل اللهَ أنْ يتممَ نفعَه للطلاب، ولا يُخلي سعْي مَنْ يتعبُ فيه من الأجر والثواب . .»[٢].

لقد أشارَ القاضي البيضاوي في مقدمة تفسيره وخاتمته إلى بعضِ الحقائق عن تفسيره:

١ ـ التفسيرُ رأسُ العلوم الدينية ورئيسها، وهو أفضلها وأعظمها وأشرفُها.

٢ ـ على كلِّ مَنْ تصدى للتفسير أنْ يُحققَ الشروط الضرورية، ويُحصلَ من العلوم والصناعات الأساسية، العربية والشرعية والأدبية، ليكون تفسيره صواباً.

---

(١) أنوار التنزيل للبيضاوي ـ وبهامشه حاشية الكازروني: ١/ ٥ ـ ٦.
(٢) المرجع السابق: ٤/ ٢٠٢.

٣ ـ كان تأليفُ التفسير أمنيةً في نفس البيضاوي بعدَ أنْ حصَّلَ العلوم الأساسية، ولكنه كان يُشفقُ متهيِّباً، إلى أن استخار الله، ورضيَ اللهُ له كتابةَ التفسير.

٤ ـ أرادَ البيضاويُّ أنْ يجعلَ في تفسيره صفوةَ أقوالِ الصحابة والتابعين ومَنْ بعدهم، لكنَّ هذه الأقوالَ كانت قليلةً في تفسيره، ولهذا صُنِّفَ تفسيره ضمنَ التفسير بالرأي المحمود، وليس ضمنَ التفسير الأثري النظري.

٥ ـ وضعَ البيضاوي في تفسيره نكتاً بارعة، ولطائف رائعة، أخذها من مفسرين قبلَه، وهو لم يذكُرْ أسماءَ هؤلاء الذين أخذ عنهم، وفي مقدمتهم الإمامُ الزمخشري، ثم الإمام الراغبُ الأصفاني، ثم الإمام الرازي.

٦ ـ لم يكن البيضاوي مجردَ ناقلٍ لأقوالِ هؤلاء، وإنما أضافَ لها لطائفَ استنبطها هو من القرآن.

٧ ـ سجَّلَ في تفسيره وجوهَ القراءاتِ المشهورة، المعزوَّةِ إلى الأئمة الثمانية من القراء. وهم الأئمة: ابن كثير المكي، ونافع المدني، وابن عامر الشامي، وأبو عمرو البصري، وعاصم وحمزة والكسائي الكوفيون، ويعقوب الحضرمي البصري.

كما سجلَ في تفسيره بعضَ القراءات الشاذة المروية عن القراء المعتبرين.

٨ ـ قررَ البيضاوي في خاتمةِ تفسيره أنه ينطوي على فرائدِ فوائدِ ذوي الألباب، ويشملُ على خلاصةِ أقوال أكابرِ الأئمة، وصفوة آراءِ أَعلامِ الأمة، من مفسِّري القرآن.

٩ ـ كشفَ البيضاويُّ في تفسيره عن عويصاتِ ألفاظِ القرآن، وبَيَّنَ مباني إعجازه، أي أنَّ تفسيرَه يقدمُ تحليلاتٍ بيانية في الأسلوب القرآني.

١٠ ـ جعلَ البيضاويُّ تفسيره ملخّصاً موجزاً، لكنَّ الإيجازَ فيه غيرُ مخلٍّ بالمطلوب.

١١ ـ نَزَّه البيضاويُّ تفسيره عن ضلالاتِ الفرقِ المختلفةِ، وهذا في قوله: «التلخيص العاري عن الإضلال». ولعلَّهُ يعني بذلك تفسيرَ الكشافِ للزمخشري، الذي فيه الكثيرُ من ضلالاتِ المعتزلة، فلما أخذَ البيضاويُّ من كشَّافِ الزمخشري لم يأخذْ ما فيه من تلك الضلالاتِ الاعتزالية!!.

مصادرُ الإمامُ البيضاوي في التفسير هي:

١ ـ تفسيرُ الكشافِ للإمام الزمخشري: كانَ الكشافُ أساسَ تفسيرِ البيضاوي، وقد أتقنَ البيضاويُّ اختصار تفسير الزمخشري، وأخذَ معظمَ ما فيه من لطائف ونكاتٍ بيانية، وسَلِمَ مما فيه من اعتزاليات، ولم يتدسّسْ إليه منه إلاّ القليلُ النادر.

وما تفسيرُ البيضاوي إلا امتدادٌ لتفسيرِ الكشاف، وتبقى للكشاف الريادةُ والبداية!!.

٢ ـ التفسيرُ الكبيرُ للإمام الرازي: أخذ البيضاوي من تفسير الرازي بعض ما فيه من تحليلات عقلية وكلامية.

٣ ـ جامعُ التفاسيرِ للإمام الراغب الأصفهاني، وكتابُ المفرداتِ للراغبِ أيضاً، أخذَ منه البيضاوي ما يتعلقُ باشتقاقٍ وتصريفِ ألفاظِ القرآن.

وكان البيضاوي يذكرُ القراءات أحياناً، ويوجهها توجيهاً موجزاً، ولا يلتزمُ الصحيحَ منها، فقدْ يذكرُ القراءة الصحيحة، وقد يذكرُ القراءةَ الشاذة.

ويذكرُ بعضَ الأحكام الفقهية عند تفسيره لآياتِ الأحكام، ولا يتوسع فيها، وكان ينتصرُ للمذهب الشافعي الذي يتبعه.

وهو مُقلٌّ من الإسرائيليات، لا يذكر منها إلاّ القليل، وليتَهُ لم يذكر منها شيئاً!![١].

---

(١) التفسير والمفسرون؛ ١/ ٢٦٧ ـ ٣٠٢.

وقد طُبعَ تفسيرُ البيضاوي عدةَ طبعاتٍ في هذا العصر، وتلقّاه العلماءُ بالقبول، وقرَّروه على طلابهم في الدراسة الجامعية. طُبعَ أكثر من خمسِ طبعات في القرن التاسع عشر. وتُرجمَ إلى اللغة الألمانية، وطُبعَ في ألمانيا طبعتين![1].

وشرحَ العلماءُ تفسيرَ البيضاوي عدة شروح، ووضعوا عليه عدةَ حواشٍ. عدَّ حاجي خليفة ما يزيدُ على الأربعين شرحاً وحاشية، وعَدَّ إسماعيل بغدادي حوالي سبعين شرحاً وحاشيةً منها، وعدَّ كارل بروكلمان ثلاثاً وثمانين حاشية[2].

ومن أشهر الحواشي على تفسير البيضاوي:

١ ـ حاشية جلال الدين السيوطي، التي أسماها: (نواهدُ الأبكار، وشواهدُ الأفكار).

٢ ـ حاشية الكازروني: أبي الفضل القرشي الصديقي الخطيب، المتوفى سنة ٩٤٠هـ.

٣ ـ حاشية القونوي: محمد بن مصطفى القونوي، المتوفى سنة ٩٥١هـ.

٤ ـ حاشية عبد الحكيم السيالكوتي اللاهوري، المتوفى سنة ١٠٦٠هـ.

٥ ـ حاشية الخفاجي: شهاب الدين الخفاجي المتوفى سنة ١٠٦٩هـ.

وهذه الحواشي كلُّها مطبوعةٌ في طبعاتٍ على هامش التفسير.

وقد خرَّجَ أحاديثَ البيضاوي الحافظ عبد الرؤوف المناوي في كتابه (الفتح السماوي في تخريج أحاديث البيضاوي)[3].

وما كثرةُ الحواشي على تفسير البيضاوي إلاّ لأهميته عند العلماء، وإقبالِهم عليه.

---

(١) القاضي البيضاوي للزحيلي، ص١٣٩.
(٢) المرجع السابق، ص١٤٠.
(٣) المرجع السابق، ص١٤٠ ـ ١٤٤.

وترجمَ للإمامِ البيضاوي الدكتور محمد الزحيلي، في كتابه (القاضي البيضاوي) وصدرَ في الحلقة السابعة والعشرين من سلسلة أعلام المسلمين.

٢ ـ الإمام النسفي وتفسيره (مدارك التنزيل):

هو الإمام أبو البركات: عبد الله بن أحمد بن محمود، النسفي، الحنفي. نسبتُه (النسفي)، نسبةً إلى (نسف) ببلاد السند، بين جيحون وسمرقند.

لم يذكر العلماءُ سنةَ مولده، أقامَ في مدينة (أَيْذَجْ) ـ على وزن أحمد ـ في منطقةِ أصبهان في خراسان ـ إيران حالياً ـ.

وتوفي في مدينة (أيْذَجْ) المذكورة. واختلف العلماء في سنة وفاته، والراجحُ أنه توفي سنة ٧١٠هـ(١).

كان أبو البركات النسفي أحدَ الزهاد المتأخرين، والأئمة المعتبرين، رأساً في الفقه والأصول، بصيراً بكتاب الله.

ترك النسفيُّ مجموعةً من المؤلفات، أوصلها بعضهم إلى خمسة عشر كتاباً. من أشهرها:

١ ـ عمدة العقائد: في العقيدة، وهو مشهور باسم (العقائد النسفية).

٢ ـ منار الأنوار: في أصول الفقه.

٣ ـ الوافي: في الفقه: ذكر فيه فروع المسائل الفقهية على المذهب الحنفي.

٤ ـ الكافي: شرح فيه كتاب الوافي.

٥ ـ كنز الدقائق: اختصر فيه كتاب الوافي.

٦ ـ شرح كتاب (الهداية) في الفقه الحنفي، للمرغيناني.

---

(١) انظر: التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٣٠٤؛ ومقدمة الشيخ مروان الشعار لتفسير النسفي: ١/ ١٧ ـ ٢٠.

٧ ـ تأويلات القرآن: في تأويل القرآن.

٨ ـ مدارك التنزيل وحقائق التأويل: وهو أشهر كتبه[١].

ونتعرَّفُ على تفسيرِه من المقدمة التي كتبها له، وهو مقدمةٌ موجزة، قال فيها: «قد سألني مَنْ تتعينُ إجابتُه كتاباً وسَطاً في التأويلات، جامعاً لوجوهِ الإعرابِ والقراءات، متضمِّناً لدقائقِ علمي البديع والإشارات، حالياً بأقاويلِ أهلِ السنة والجماعة، خالياً عن أباطيلِ أهلِ البدع والضلالة، ليسَ بالطويلِ المُملّ، ولا بالقصيرِ المُخِلّ.

وكنتُ أُقَدِّمُ فيه رجلاً وأُؤَخِّرُ أُخرى، استقصاراً لقوةِ البشر، عن دركِ هذا الوَطَر، وأَخْذاً بسبيلِ الحَذَر، عن ركوب مَتْنِ الخَطَر..

حتى شرعتُ فيه بتوفيقِ الله تعالى، والعوائقُ كثيرة، وأتممتُه في مدةٍ يسيرة، وسميتُه «مدارك التنزيل وحقائق التأويل». وهو الميسِّرُ لكلِّ عسير، وهو على ما يشاءَ قدير، وبالإجابة جدير..»[٢].

ويمكنُ أنْ نستخلصَ من هذه المقدمةِ الموجزةِ الأُمورَ التالية:

١ ـ أَلَّفَ النسفيُّ تفسيرَه بناءً على طلبِ مَنْ تتعينُ وتجبُ إجابتهُ، وقد يكون هذا الطالبُ سلطاناً أو طالباً للعلم أو مجموعةً من تلاميذِ الشيخ، فلبى للطالبِ رغبته.

٢ ـ أَرادَ أنْ يكونَ تفسيرُه (وسطاً) مختصراً، ليس بالطويل المملِّ، كبعضِ التفاسيرِ المطولة، المليئةِ بالحشوِ والاستطراد، ولا بالقصيرِ المِخلِّ، كبعضِ التفاسير المختصرة، التي جَعلت التفسير رموزاً.

٣ ـ اعتبرَ النسفيُّ تفسيره من التفاسيرِ بالرأي، لأنه يتعلقُ بالتأويل، ولهذا قال عنه: «كتاباً وَسَطاً في التأويلات».

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٣٠٤؛ ومقدمة تفسير النسفي: ١/ ١٧ ـ ٢٠.
(٢) تفسير النسفي: ١/ ٢٧ ـ ٢٨.

٤ ـ جعلَ النسـفيُّ تفسيره جامِعاً لوجوهِ الإعرابِ والقراءات، متضمِّناً لدقائقِ علمي البديع والإشارات.

أي أنه ركَّزَ في التفسير على الإعرابِ والقراءات وعلومِ البلاغة والبيان.

٥ ـ أوردَ في تفسيره خلاصةَ أقوالِ أهل السنة والجماعة، وجعلَه «حالياً» ـ محلّى ـ بتلكَ الأقوال. ولكنه لم يُكثرْ منها.

٦ ـ نَزَّهَ النسفيُّ تفسيرَه عن أقوالِ وأباطيلِ أهْلِ البدع والضلالة، وجعلَه (خالياً) من تلك الأقوال.

ولعلَّه يشيرُ بذلك إلى تفسيرِ (الكشاف)، الذي أخذَ منه حاجته، ولم يأخذْ منه اعتزالياتِ الزمخشري.

٧ ـ أَتمَّ النسفيُّ تفسيرَه في مدةٍ يسيرة، لم يحدِّدْها، رغمَ العوائقِ الكثيرة.

٨ ـ الاسمُ الذي اختارَه للتفسير يشيرُ إلى طبيعتِه ومنهجه، والمدرسـةِ التفسيريةِ التي يتبعها (مدارك التنزيل وحقائق التأويل).

إنه في تفسيرِه يريدُ أنْ يدركَ بعضَ معاني ولطائفِ القرآن، وأنْ يقدمَ بعضَ حقائقِ تأويله، ويستخرجَ بعضَ نكاته وأحكامه، ويوجه إليه نظره، ويُجيلَ فيه رأيه.

ومن مصادر النسفي في التفسير:

١ ـ تفسـيرُ الكشافِ للزمخشـري: وهو أساسُ تفسـير النسفي، ومعظمُ التفسيرِ مأخوذٌ من الكشاف، وكأنه اختصارٌ للكشاف، مع تجنب أخطائه.

٢ ـ تفسـيرُ البيضاوي: (أنوار التنزيل وأسرار التأويل) وكان البيضاويُّ معاصراً للنسفي، حيث توفي قبلَ النسفي بحوالي ربع قرن، وكان قريباً من مكانِ إقامتـه، فالبيضاوي كان في تبريـز، والنسـفيُّ كانَ في أصبهان، والمنطقتان في خراسان ـ إيران حالياً ـ.

٣ ـ تفسيرُ (الكشف والبيان) لأبي إسحاق الثعلبي.

٤ ـ تفسيرُ (شرح تأويلات أهل السنة) لأبي منصور الماتريدي.

قالَ عنه الدكتور محمد حسين الذهبي: «هذا التفسيرُ اختصره النسفيُّ ـ رحمه الله ـ من تفسيرِ البيضاوي، ومن الكشافِ للزمخشري.. غير أنه تركَ ما في الكشاف من الاعتزاليات، وجرى فيه على مذهبِ أهلِ السنة والجماعة. وهو تفسيرُ وسطٌ بين الطول والقصر، جمعَ فيه صاحبُه بين وجوه الإعراب والقراءات، وضمنه ما اشتمل عليه الكشاف من النكتِ البلاغية، والمحسنات البديعية، والكشف عن المعاني الدقيقة والخفية. وأورد فيه ما أورده الزمخشري في تفسيره من الأسئلة والأجوبة، لكن لا على طريقتِهِ في قوله: «فإن قيل.. قلت..» بل جعل ذلك في الغالب كلاماً مُدْرجاً في ضمنِ شرحه للآية.. كما أنه لم يقعْ فيما وقعَ فيه صاحبُ الكشاف من ذكْره للأحاديث الموضوعة في فضائل السور»[١].

التزمَ النسفي في تفسيره بالقراءات السبع ووجهها بإيجاز. وذكرَ وجوه الإعرابِ وخاض في المسائل النحوية باختصار.

وهو في مسائل الفقه وآيات الأحكام يرجحُ مذهب أبي حنيفة. وفي مسائل العقيدة كان ينتصر لأهل السنة ويردُّ على الفرقِ المخالفة بإيجاز. وهو مُقلٌّ من الإسرائيليات، لم يذكُر منها إلا القليل، وليتَه لم يذكر منها شيئاً[٢].

٣ ـ القُمّي النيسابوري وتفسيره (غرائب القرآن ورغائب الفرقان):

هو الإمامُ الشهير، نظام الدين الحسن بن محمد بن الحسين، القُمّي، النيسابوري الخراساني المشهور بالنظام، والأعرج.

من أعلام القرن الثامن الهجري.

ولد في نيسابور، ولذلك نُسبَ إليها، فقيل: النيسابوري.

وأقام في مدينة (قُمْ)، ولذلك نُسِبَ إليها، فقيل: القُمّي.

---

(١) التفسير والمفسرون: ١/ ٣٠٥.

(٢) التفسير والمفسرون: ١/ ٣٠٦ ـ ٣٠٩؛ وانظر مقدمة مروان الشعار للتفسير: ١/ ٥ ـ ٩.

ومدينتا (نيسابور) و(قُمْ)، من مدن بلاد خراسان، ولذلك قيل: الخراساني.

ومع أنَّ مدينة (قم) معقلٌ من معاقل الشيعة إلاّ أنَّ نظام الدين كان من أهل السنة والجماعة، ولم يكن من الشيعة.

واختلف العلماء في سنةِ وفاته، وذهب كثيرٌ منهم إلى أن وفاته كانت سنة ٧٢٨هـ.

قال عنه الدكتور الذهبي: «أصْلُه وموطنُ أهِله وعشيرته مدينةُ (قُمْ)، وكان منشؤُه وموطنُه بديارِ نيسابور. كان رحمه الله من أساطين العلمِ بنيسابور، ملمّاً بالعلومِ العقلية، جامعاً لفنونِ اللغة العربية، له القدمُ الراسخُ في صناعةِ الإنشاء، والمعرفةُ الوافرةُ بعلم التأويل والتفسير.

وهو معدودٌ في عدادِ كبارِ الحُفّاظِ والمقرئين، وكان مع هذه الشهرةِ العلمية الواسعة على جانبٍ كبيرٍ من الورع والتقوى، وعلى مبلغٍ عظيم من الزهدِ والتصوف، ويظهرُ أَثرُ ذلك واضحاً جليّاً في تفسيرِه، الذي أَودعَ فيه مواجيدَه الروحية، وفيوضاته الربانية.

ولقد خَلَّفَ رحمه الله للناس كتباً مفيدة نافعة، ومصنفاتٍ فريدة واسعة. من ذلك: شرحُه على متنِ الشافية في فنِّ الصرف للإمام ابن الحاجب. وشرحُه على تذكرةِ الخواجة نصير الدين الطوسي في علمِ الهيأة. ورسائل في علم الحساب، وكتابٌ في أوقافِ القرآن، على حذوِ ما فعله السجاوندي. وأهمُّ مصنفاتِه تفسيرُه لكتاب الله. وله مجلدٌ آخر في لُبِّ التأويل، نظير تأويلات القاشاني[(١)].

اختصرَ القُمّي تفسيرَه من تفسيرين عظيمَيْن قبلَه، هما: الكشافُ للزمخشري، والتفسيرُ الكبير للإمام الرازي.

وقَدَّمَ القُمّي لتفسيرِه بمقدماتٍ أساسية حولَ القرآنِ وفضْلِه وتفسيرِه وقراءاته وجمعِه وكتابتِه والوقف والابتداء فيه، وبيانِ أَنه كلامُ الله غيرُ مخلوق،

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٣٢١ـ٣٢٢.

وكيفيةِ استنباطِ المسائل الكثيرة من الألفاظِ القليلة. وكانت إحدى عشرة مقدمة.

وَقدَّمَ لهذه المقدماتِ بكلامٍ تحدَّثَ فيه عن القرآنِ والتفسير، وطبيعةِ تفسيره، ومما جاء في هذه المقدمة قوله:

«وبعد: فإنَّ المفتقرَ إلى عفوِ ربِّه الكريم، الحسنَ بن محمد القمي، المشتهر بنظام النيسابوري، نَظَمَ اللهُ أَحوالَه في أُولاه وأُخراه يقول:

من المعلومِ عندَ ذوي الأفهام أنَّ كلامَ الملوك ملوكُ الكلام، وبقدرِ البوْنِ بينَ الواجبِ الذات والممكنِ الذات، يوجَدُ التفاوتُ بين كلامِ الله وكلامِ المخلوقات.

... وإذْ وَفَّقَني اللهُ تعالى لتحريكِ القلم في أكثرِ الفنونِ المنقولةِ والمعقولة ـ كما اشْتَهَرَ بحمدِ الله تعالى ومَنِّـهِ فيما بينَ أهل الزمان ـ وكان علمُ التفسيرِ من العلوم بمنزلةِ الإنسانِ من العين، والعينِ من الإنسان، وكان قد رزقني اللهُ تعالى من إبانِ الصِّبا وعنفوانِ الشباب حفظَ لفظِ القرآن، وفهمَ معنى الفرقان، وطالَما طالَبَني بعضُ أَجِلَّةِ الإخوان، وأَعزةِ الأخدان ـ ممن كنتُ مُشاراً إليه عندهم بالبنان في البيان ـ أنْ أَجمعَ كتاباً في علمِ التفسير مشتملاً على المهمات، مَبْنِيّاً على ما وقعَ إلينا من نقلِ الأثباتِ وأَقوالِ الثقات، من الصحابةِ والتابعين، ثم من العلماءِ الراسخين، والفضلاءِ المحققين، المتقدِّمين والمتأخرين، جعلَ اللهُ تعالى سعيهم مشكوراً، وعملهم مبروراً.

فاستعنْتُ بالمعبود، وشرعتُ في المقصود، معترفاً بالعجزِ والقصور، في هذا الفنِّ وفي سائر الفنون..

... ولما كانَ التفسيرُ الكبيرُ المنسوب إلى الإمامِ الأفضل، والهُمامِ الأمثل، الحَبْرِ النحرير، والبَحْرِ الغزير، الجامعِ بين المعقول والمنقول، الفائزِ بالفروع والأصول، أفضلِ المتأخرين، فخرِ الملةِ والحق (محمد بن عمر بن الحسين الخطيب الرازي) ـ تغمده اللهُ برحمتِه ورضوانه، وأسكنَهُ بحبوحةَ جنانه ـ اسْمُه مطابق لمسمّاه، وفيه من اللطائفِ والبحوثِ ما لا يُحصى، ومن الزوائدِ والغُثوث ما لا يَخفى، فإنه قد بذلَ مجهوده، ونَثَلَ موجودَه، حتى عَسُرَ كَتْبُه على

الطالبين، وأعوزَ تحصيلُه على الراغبين.

فحاذيْتُ سياقَ مرامِه، وأوردْتُ حاصلَ كلامِه، وقربْتُ مسالكَ أَقدامِه، والتقطتُ عقودَ نظامِه، من غيرِ إخلالٍ بشيء من الفرائد، وإهمالٍ لما يُعدُّ من اللطائفِ والفوائد.

وضممتُ إليـه ما وجدتُ في الكشافِ وفي سـائر التفاسيرِ من اللطائفِ المهمّات، أو رزقني اللهُ تعالى من البضاعةِ المزجاة.

وأَثبتُّ القراءاتِ المعتبرات، والوقوفَ المعلّلات، ثم التفسيرَ المشتملَ على المباحث اللفظياتِ والمعنويات، مع إصلاحِ ما يجبُ إصلاحُه، وإتمامُ ماينبغي إتمامُه، من المسائلِ المورَدَةِ في التفسيرِ الكبير والاعتراضات، ومع حلِّ ما يوجَدُ في الكشافِ من المواضعِ المعضِلات، سوى الأبياتِ المعقَّدات، فإنَّ ذلـك يورِدُها مَنْ ظَنَّ أنَّ تصحيحَ القراءاتِ وغرائبَ القرآن إنمايكونُ بـالأمثالِ والمستشهدات! كلا!! فإنَّ القرآن حجةٌ على غيره، وليس غيرُه حجةً عليه.. فلا علينا أنْ نقتصرَ في غرائبِ القرآن على تفسيرها بالألفاظِ المشتهرات، وعلى إيرادِ بعضِ المتجانسات، التي تُعْرَفُ منها أصولُ الاشتقاقات!.

وذكـرْتُ طـرفـاً مـن الإشـارات المقنعـات، والتـأويـلاتِ الممكنـات، والحكايـاتِ المبكيات، والمواعظِ الرادعة عن المنهيات، الباعثـةِ على أداءِ الواجبات..

والتـزمتُ إيرادَ لفظِ القرآن الكريم أَوّلاً، مع ترجمتِه على وجـهٍ بديع، وطريـقٍ منيع، مشـتملٍ على إبـرازِ المُقَدَّرات، وإظهارِ المُضْمَرات، وتـأويلِ المتشابهات، وتصريحِ الكنايات، وتحقيقِ المجازات والاستعارات..

.. واجتهدتُ كلَّ الاجتهاد في تسهيلِ سبيل الرشاد، ووضعْتُ الجميعَ على طرف التمام، ليكونَ الكتابُ كالبدرِ في التمام، وكالشمسِ في إفادةِ الخاصِّ والعام، من غيرِ تطويلٍ يورثُ الملام، ولا تقصير يوعِرُ مسالكَ السالك ويبددُ

نظامَ الكلام، فخير الكلامِ ما قَلَّ ودَلّ، وحسْبُكَ من الزاد ما يبلغكَ المحلّ!»[١].

ونُضيفُ إلى هذه المقدمة عباراتٍ قالها الإمامُ القمّيّ في خاتمةِ تفسيره:

«قال الضعيفُ مؤلفُ الكتاب، أحوجُ خلْقِ اللهِ إلى رحمتِه ورضاه: الحسنُ ابن محمد بن الحسين، المشتهر بنظام النيسابوري:

هذه أَيها المعروفُ باعتلاءِ عرائكِ المجد، المشغوفُ باقتناءِ سبائكِ الحمد، الكاملُ شوقه إلى فهم غرائب القرآن ـ والقرآنُ كلُّه غرائب، الباذلُ طوقَه في دركِ رغائبِ الفرقان ـ والفرقانُ بأسْره رغائب ـ عقائلُ مسائل، جهَّزَتْها فطنةٌ من مشايدِ الشدائد خامدة، وفرائدُ فوائد، نَظَمَتْها قريحةٌ من صنوفِ الصروفِ جامدة.

.. وقد تضمنَ كتابي هذا حاصلَ التفسير الكبير، الجامعِ لأكثرِ التفاسير، وجُلَّ كتابِ الكشاف، الذي رُزقَ له القبولُ من أساتذةِ الأطراف والأكناف. واحتوى مع ذلك على النكتِ المستحسنةِ الغريبة، والتأويلاتِ المحكمةِ العجيبة، مما لم يوجَدْ في سائرِ تفاسيرِ الأصحاب، أو وُجدتْ متفرقةَ الأسباب، أو مجموعةً طويلةَ الذيولِ والأذناب.

أمّا الأحاديث: فإمّا من الكتبِ المشهورة، كجامعِ الأصول (لابن الأثير) والمصابيح (مصابيح السنة للبغوي) وغيرهما. وإمّا من كتابِ الكشافِ والتفسير الكبير ونحوهما. إلاّ الأحايث الواردةَ في الكشافِ في فضائل السور، فإنّا قد أسقطناها. لأنَّ النُّقّادَ زيّفوها ـ إلاّ ما شذَّ منها ـ.

وأمّا الوقوف: فللإمام السجاوندي مع اختصارٍ لبعض تعليلاتها..

وأمّا أسبابُ النزول فمن كتابِ جامعِ الأصول، والتفسيرين (الكشاف والكبير) أو من تفسيرِ الواحدي (التفسير الوسيط).

وأما اللغة: فمن صحاح الجوهري، ومن التفسيرَيْن كما نقلاً.

وأمّا المعاني والبيان وسائرُ المسائل الأدبية: فمن التفسيرين (الكشاف

---

(١) غرائب القرآن للقمي: ١/ ٦ ـ ٩ باختصار.

والكبير) والمفتاح (للسكاكي) وسائرِ الكتب العربية.

وأمّا الأحكامُ الشرعية: فمنهما (التفسيرين) ومن الكتبِ المعتبرة في الفقه، ولا سيما شرحُ الوجيز للإمام الرافعي.

وأما التأويل: فأكثرها للشيخِ المحققِ المتقي المتقن، نجمِ الملة والدين، المعروف بداية..

وطرفٌ منها مما دارَ بخلدي، وسمحتْ به ذاتُ يدي، غيرُ جازمٍ بأنَه المرادُ من الآية، بل خائفٌ من أنْ يكونَ ذلك جرأةً مني، وخوضاً فيما لا يعنيني. وإنما شجعني على ذلك سائر الأئمة، الذين اشتغلوا بالذوقِ والوجدان، وجمّعوا بين العرفانِ والإيمانِ والإتقان في معنى القرآن!.

.. وكذا الرباطاتُ والمناسباتُ بين السورِ والآيات، وفي أنواعِ التكريرات، وأصناف المتشابهات، فإن للخواطرِ والظنونِ فيها مجالاً، وللناسِ الأكياسِ في استنباطِ الوجوه والنسب هنالك مقالاً!.

.. إني لم أمِلْ في هذا الإملاء إلاّ إلى مذهبِ أهلِ السنة والجماعة، فبينتُ أصولَهم، ووجْهَ استدلالاتِهم بها، وما وردَ عليها من الاعتراضاتِ والأجوبة عنها.

وأما في الفروع فذكرتُ استدلالَ كلِّ طائفةٍ بالآيةِ على مذهبه من غيرِ تعصُّب ومراء، وجدالٍ وهراء..

ولقد وفقتُ لإتمامِ هذا الكتابِ في مدةِ خلافة علي رضي الله عنه، وكُنّا نُقدِّرُ إتمامَه في مدةِ خلافةِ الخلفاء الراشدين، وهي ثلاثين سنة! ولو لم يكن ما اتفق في أثناءِ التفسير من وجودِ الأسفارِ الشاسعة، وعدمِ الأسفارِ النافعة، ومن غمومٍ لا يُعَدُّ عديدُها، وهمومٍ لا يُنادى وليدها، لكان يمكنُ إتمامُه في مدةِ خلافة أبي بكر، كما وقع لجارَ الله العلامة (الزمخشري).

والذي نفسي بيده، وناصيتي بحكمه ومشيئته، عالمٌ بسرّي، ومحيطٌ بنيتي، أني لم أقصدْ في تأليفِ هذا التفسير مجردَ جَلْبِ نفعٍ عاجل، لأنَّ هذا الغرضَ عرضٌ زائل، ولا يفتخرُ عاقلٌ بما ليس تحته طائل..

. . وإنما كانَ المقصودُ جمعَ المتفرِّق، وضبطَ المنتشر، وتبيينَ بعضِ وجوه الإعجاز الحاصلِ في كلام رب العالمين، وحَلَّ الألفاظِ في كتبِ بعضِ المفسرين بقدر وسعي، وحَدِّ علمي، وعلى حسبِ ماوصلَ إليه استعدادي وفهمي.

والقرآنُ أجلُّ ما وقع عليه الذهنُ والخاطر، وأشرفُ ما صُرفَ إليه الفكرُ والناظر، وأعمقُ ما يُغاص على دُرِّه ومرجانِه، وأعرقُ ما يكدُّ في تحصيلِ لُجَيْنِه»[1].

وندعو إلى إمعان النظرِ في ما أثبتناه من مقدمةِ القُمّي النيسابوري وخاتمتِه لتفسيره، واستخراجِ منهجه في التفسير، وطبيعةِ تفسيره، ومصادرِه فيه، وغير ذلك من المسائل.

ونظراً لسهولةِ العرضِ والأسلوبِ الذي ظهر في التفسير، وغزارةِ العلم الذي فيه ـ لأنه اختصارٌ لتفسيرَيْن عظيمين ـ فقد كانَ هذا التفسيرُ مرغوباً للباحثين والدارسين، وكان العلماءُ يوجِّهون أنظارَ تلاميذهم إليه لدراسته.

وقد طُبعَ تفسيرُ (غرائب القرآن ورغائب الفرقان) عدةَ طبعات، كانتْ أوُلاها على هامش تفسير الطبري في مطبعة بولاق.

وأجودُ طبعاتِه التي نشرتْها مكتبةُ مصطفى البابي الحلبي بمصر، بتحقيقِ إبراهيم عطوة عوض، سنة ١٩٦٢ ـ ١٣٨١.

٤ ـ الإمام أبو حيان الأندلسي وتفسيره (البحر المحيط):

هو الإمام: أثيرُ الدين: أبو عبد الله: محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حيان، الأندلسي، الجيّاني، الغرناطي. الشهير بأبي حيان.

ولد في (غرناطة) في الأندلس سنة ٦٥٤هـ.

نشأ نشأةً علميةً في غرناطة، وتلقّى العلمَ على كبارِعلمائها، في القراءات

---

(١) المرجع السابق: ٣/ ٢٣٤ ـ ٢٣٧ باختصار.

والتفسير، وفي النحو والبلاغة، وفي الحديث والفقه.

وفي شبابه غادرَ الأندلسَ متوجِّهاً إلى المشرق، واستقرَّ في القاهرة، وتلقى العلمَ على كبارِ علمائها، في مختلفِ الموضوعات.

وصارَ في مصر عالماً من كبار علمائها، وتتلمذَ عليه كثيرون، صارَ بعضُهم من كبار العلماء فيما بعد.

أخذ القرآنَ والقراءات في غرناطة عن أبي جعفر بن الطباع، وأخذَ التفسيرَ في غرناطة عن الإمام أبي جعفر بن الزبير. وأخذ التفسير في مصر عن ابنِ النقيب المقدسي، صاحبِ أكبر كتاب مصنف في التفسير (التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير).

قال أبو حيان: عدةُ مَنْ أخذتُ عنه أربعمئة وخمسون عالماً، وأمّا مَنْ أجازني فكثيرٌ جداً.

قال عنه الصفدي: لم أرهُ قطُّ إلاّ يسمع، أو يشتغل، أو يكتب، أو ينظر في كتاب، ولم أرَهُ على غير ذلك!.

وكانَ كثيرَ النظمِ من الأشعار والموشحات، وكان ثبتاً فيما ينقلُه، عارفاً باللغة، أمّا النحو والتصريف فهو الإمامُ المطلقُ فيهما، خدمَ هذا الفنَّ أكثر عمره، حتى صارَ لا يُذْكَرُ أحدٌ فيهما في عصره غيره، وله اليدُ الطولى في التفسير والحديث وتراجم الناس..

ومن شعره الجيد:

عِداي لهُمْ فَضْلٌ عليَّ ومِنَّةٌ	فلا صَرَفَ الرَّحْمنُ عَنّي الأعاديا
هُمو بَحَثوا عَنْ زَلَّتي فاجْتَنَبْتُها	وهُمْ نافسوني فاكْتَسَبْتُ المعاليا

وقال أيضاً:

إنَّ الدَّراهمَ والنِّساءَ كلاهُما	لا تأْمَنَنَّ عليْهِما إنسانا
ينْزَعْنَ ذا اللُّبِّ المتينِ عنِ التقى	فيرى إساءةَ فعْلِهِ إحْسانا

وكان في العقيدة سالماً من البدعِ الفلسفية والاعتزالِ والتجسيم.

وقال الصفديُّ عن هيئته: كان أبو حيان شيخاً طوالاً، حسنَ النغمة، مليحَ الوجه، ظاهرَ اللون، مُشْرَباً بحمرة، مُنَوَّرَ الشيبة، كبيرَ اللحية، مسترسلَ الشعر، عبارته فصيحةٌ بلغةِ أهلِ الأندلس، ما سمعتُ منه في حقِّ أحدٍ من الأحياء ولا الأمواتِ إلا خيراً.

وتوفيَ رحمه الله في القاهرة في صفر سنة ٧٤٥هـ. بعد أنْ عمَّر وعاش إحدى وتسعين سنة[١].

وقد ألَّفَ أبو حيان مجموعةً من الكتب، من أشهرها تفسيرُه (البحر المحيط) الذي اختصرَه في تفسيرٍ سمَّاه (النهر المادُّ من البحر). والأصلُ والمختصرُ مطبوعان في لبنان.

وكتبَ أَبو حيان مقدمةً لتفسيرِه تحدَّثَ فيها عن نظرتِه إلى القرآن والتفسير، وعن مصادره فيه، نقتطفُ منها هذه الفقرات الكاشفة:

«وبعدُ: فإنَّ المعارفَ جَمَّة، وهي كلُّها مهمة، وأَهَمُّها ما به الحياةُ الأبدية والسعادةُ السرمدية.. وذلك علمُ كتابِ الله، فهو المقصودُ بالذات، وغيرُه من العلومِ له كالأدوات، له العروةُ الوثقى، والوزرُ الأَقوى الأوقى، والحبلُ المتين، والصراط المستقيم.

وما زالَ يختلجُ في ذكري، ويعتلجُ في فكري، أَنّي إذا بلغْتُ الأَمَدَ الذي يُتَغَضَّدُ فيه الأديمُ، وَيَتَنَغصُ برؤيتي النديمُ ـ وهو العقدُ الذي يحلُّ عرى الشباب، المقول فيه: «إذا بلغَ الرجلُ الستينَ فإيّاه وإيّا الشّوابّ» ـ أنْ ألوذَ بجنابِ الرحمن، وأقتصرَ على النظرِ في تفسيرِ القرآن..

فـأتاحَ اللهُ لي ذلك قبلَ بلوغِ ذلك العقد، وبَلَّغَني ما كنتُ أَرومُ من ذلـك القصد، وذلك بانتصابي مدرِّساً في علمِ التفسير في قبةِ السلطان الملك المنصور..

---

(١) انظر ترجمة ابن حجر لأبي حيان في (الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة): ٥/ ٧٠ـ٧٦.

وكـان ذلك في أواخرِ سنة عشر وسبعمئة، وهي أوائلُ سنةِ سبعٍ وخمسـين من عمري . .

فعكفْتُ على تصنيفِ هذا الكتاب، وانتخابِ الصفوِ واللباب، أُجيلُ الفكرَ فيما وضعَ الناسُ في تصانيفهم، وأُمعنُ النظرَ فيما اقترحوه من تآليفهم، فأُلَخِّصُ مُطَـوَّلَها، وأحلُّ مُشْكِلَها، وأُقَيِّدُ مُطْلَقها، وأفتحُ مُغْلَقَهـا، وأَجْمعُ مبدَّدَهـا، وأُخلِّصُ مُنْقَدَها . . وأُضيفُ إلى ذلك ما استخرجَتْهُ القوةُ المفكّرةُ من لطائفِ علمِ البيـان، المطلعِ على إعجازِ القرآن، ومن دقـائقِ علم الإعراب، المغـربِ في الوجود أيَّ إغراب . . .

. . . وجديرٌ لمن تاقَتْ نفسُه إلى علمِ التفسير، وتَرَقَّتْ إلى التحقيقِ فيه والتحريـر، أنْ يعتكفَ على كتابِ سـيبويه، فهو في هـذا الفنِّ المعوَّلُ عليـه، والمستندُ في حلِّ المشكلات إليه . . .

. . . حتى أَلقيتُ بمصر عصا التسيار . . . وبها صَنَّفْتُ تصانيفي، وأَلَّفتُ تـآليفي، ومن بركاتِها عَلَيَّ تصنيفي لهذا الكتاب، المُقَربِ من ربِّ الأربـاب، المرجُوِّ أن يكون نوراً يسعى بين يديّ، وستراً من النارِ يضفو عَليّ. فما لمخلوقٍ بتأليفِهِ قصدْتُ، ولا غيرَ وجْهِ الله به أردت . .

جعلتُ كتابَ الله والتدبُّرَ لمعانيه أنيسي، إذ هو أفضلُ مؤانس، وسميري إذا أخلو لكتبِ ظلمِ الحنادس:

نِعْــمَ السَّميــرُ كِتــابُ اللهِ إنَّ لَــهُ	حلاوةً هي أَحْلى مِنْ جَنَى الضَّرَبِ
بـهِ فُنـونُ المَعـانـي قَـدْ جُمِعْـنَ فَمـا	يَفْتَـنُّ مِـنْ عَجَـبٍ إلاّ إلـى عَجَـبِ
أمْـرٌ وَنَهْـيٌ وَأمْثـالٌ وَمَـوْعِظَـةٌ	وَحِكْمَةٌ أُودِعَتْ في أفْصَح الكُتُبِ
لَطـائِـفٌ يَجْتَليهـا كُـلُّ ذي بَصـرٍ	وَرَوْضَـةٌ يَجتَنيهـا كُـلُّ ذي أدَبِ

وترتيبي في هذا الكتاب: أني أبتدئ أوّلاً بالكلامِ على مفرداتِ الآية التي أُفسـرها، لفظةً لفظة، فيما يُحتاجُ إليه من اللغةِ والأحكام النحويةِ التي لتلـك اللفظةِ قبلَ التركيب. . وإذا كانَ للكلمةِ معنيان ـ أو معانٍ ـ ذكرتُ ذلك في أولِ

موضعٍ فيه تلك الكلمة، لينُظَرَ ما يناسِبُ لها من تلك المعاني في كلِّ موضعٍ تقعُ فيه، فيحْمَلُ عليه. . .

ثم أَشرعُ في تفسيرِ الآية: ذاكراً سببَ نزولها ـ إذا كانَ لها سبب ـ ونسخَها، ومناسبتَها، وارتباطها بما قبلها، حاشداً فيها القراءات، شاذّها ومستعملَها، ذاكراً توجيهَ ذلك في علمِ العربية، ناقلاً أقاويلَ السلفِ والخلفِ في فهمِ معانيها، متكلِّماً على جَليّها وخَفيِّها، بحيث أني لا أغادرُ منها كلمة ـ وإن اشتهرت ـ حتى أتكلمَ عليها، مبدياً ما فيها من غوامضِ الإعراب ودقائقِ الآداب من بديعٍ وبيان، مجتهداً أَني لا أُكررُ الكلامَ في لفظٍ سبق، ولا في جملةٍ تقدم الكلامُ عليها، ولا في آية فُسِّرَتْ، بل أذكرُ في كثيرٍ منها الحوالَةَ على الموضعِ الذي تُكُلِّمَ فيه على تلك اللفظةِ أو الجملةِ أو الآية، وإنْ عرضَ تكريرٌ فبمزيدِ فائدة. . ناقلاً أقاويلَ الفقهاءِ الأربعة ـ وغيرِهم ـ في الأحكام الشرعية، مما فيه تعلُّقٌ باللفظِ القرآني، مُحيلاً على الدلائل التي في كتبِ الفقه.

وكذلك ما نذكرُه من القواعدِ النحوية، أحيل في تقريرها والاستدلالِ عليها على كتب النحو. . وربما أذكرُ الدليلَ إذا كانَ الحكمُ غريباً، أو خلافَ مشهورِ ما قالَ معظمُ الناس، بادئاً بمقتضى الدليل، وما دَلَّ عليه ظاهرُ اللفظ، مُرَجِّحاً له كذلك، ما لم يصدّ عن الظاهرِ ما يجب إخراجُه به عنه. . متنكِّباً في الإعراب عن الوجوهِ التي تنزلَ القرآنُ عنها، مبيِّناً أَنها مما يجبُ أنْ يُعدَلَ عنه وأَنه ينبغي أنْ يُحملَ على أحسنِ إعرابٍ وأحسنِ تركيب. . إذ كلامُ الله تعالى أفصحُ الكلام، فلا يجوزُ فيه جميعُ ما يُجوِّزه النحاة في شعر الشّماخِ والطِّرمّاحِ وغيرهما، من سلوكِ التقاديرِ البعيدة، والتراكيبِ القلقة، والمجازات المعقدة. .

ثمَ أختتمُ الكلامَ في جملةٍ من الآياتِ التي فسرتُها، إفراداً وتركيباً بما ذكروا فيها من علمِ البيانِ والبديع ملخَّصاً. . ثم أُتبعُ آخرَ الآياتِ بكلامٍ منثور، أَشرحُ به مضمونَ تلك الآيات، على ما أختارُه من تلك المعاني، ملَخِّصاً جملَها في أحسنِ تلخيص، وقد ينجرُّ معها ذكْرُ معانٍ لم تتقدَّم في التفسير، وصارَ ذلك أُنموذجاً لمن يريدُ أنْ يسلكَ ذلك فيما بقيَ من سائرِ القرآن. .

وستقفُ على هذا المنهجِ الذي سلكْتُهُ إن شاء الله. وربَّما ألممْتُ بشيء من كلام الصوفية مما فيه بعضُ مناسبةٍ لمدلول اللفظ، وتجنبتُ كثيراً من أقاويلِهم ومعانيهم التي يُحَمِّلونَها الألفاظ.. وتركْتُ أقوالَ الملحدين الباطنية، الذين يُخرجون الألفاظ القريبة عن مدلولاتِها في اللغة إلى هذيان، افتروهُ على الله تعالى، وعلى عليٍّ بن أبي طالب ـ كرم الله وجهه ـ وعلى ذريته، ويسمّونَهُ علْمَ التأويل..

.. وكثيراً ما يشحَنُ المفسِّرون تفاسيرهم من ذلك الإعرابِ بعللِ النحو، ودلائل أصول الفقه، ودلائلِ أصُول الدين.. وكلُّ هذا مقرَّرٌ في تأليفِ هذه العلوم.. وإنما يؤخذُ ذلك مسلَّماً في علمِ التفسير دون استدلالٍ عليه.

وكذلك ذكروا ما لا يصحُّ من أسبابِ نزولٍ وأحاديثَ في الفضائل، وحكاياتٍ لا تناسب، وتواريخ إسرائيلية، ولا ينبغي ذكْرُ هذا في علم التفسير..

ومَنْ أحاطَ بمعرفةِ مدلول الكلمة وأحكامها قبلَ التركيب، وعلمَ كيفية تركيبِها في تلك اللغة، وارتقى إلى تمييزِ حُسْنِ تركيبها وقبحِه، فلن يحتاجَ في فهمِ ما تركَّبَ من تلكِ الألفاظ إلى مُفَهِّمٍ ولا مُعَلِّم.. وإنما تفاوتَ الناسُ في إدراكِ هذا الذي ذكرناه، فذلك اختلفتْ أفهامُهم، وتباينَتْ أقوالُهم..[1].

ثم تكلمَ أبو حيان في مقدمةِ تفسيرِه عن عدمِ اقتصار التفسيرِ على المأثور فقط، وأنه لا بدَّ من إعمالِ العقلِ والرأي في التفسير. وتحدَّثَ عن سبعةِ علومٍ لا بدَّ للمفسر من إتقانِها قبلَ الدخولِ إلى علمِ التفسير: علمُ اللغة اسماً وفعلاً وحرفاً، وعلمُ النحو، والبلاغة، والعلمُ بالمأثور في التفسير، وعلمُ أصولِ الفقه، والعلمُ بالعقيدة، والقراءات.

ثم تكلم عن إعجازِ القرآن، ونقلَ قطعةً من مقدمةِ الزمخشري لتفسيرِهِ حول أهميةِ الإلمامِ بالمعاني والبيان لعلم التفسير[2].

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان: ١/ ٩ ـ ١٣ باختصار.

(٢) انظر المرجع السابق: ١/ ١٣ ـ ٢٠.

وتكلمَ بعد ذلك عن أهمِّ تفسيريْن، وهما: الكشاف للزمخشري، والمحرر الوجيز لابن عطية، وأشارَ إلى مزاياهما، وأهمِّ المآخذِ عليهما. وخلاصةُ ما قاله عنهما وعن تفسيريْهما: «وهذا أبو القاسم محمودُ بن عمر المشرقيُّ الخوارزميُّ الزمخشري، وأبو محمد عبدُ الحق بن غالب ابن عطية الأندلسي المغربي الغرناطي: أجلُّ مَنْ صنَّفَ في علم التفسير، وأفضلُ مَنْ تعرَّضَ للتنقيحِ فيه والتحرير..

.. وهذان الرجلان هما فارسا علمِ التفسير، ومُمارِسا تحريرِه والتحبير. نشَراه نشراً، وطارَ لهما به ذكراً، وكانا متعاصريْن في الحياة، متقاربيْن في الممات.

.. وُلدَ الزمخشريُّ سنة سبع وستين وأربعمئة.. وتوفيَ سنةَ ثمانٍ وثلاثين وخمسمئة.. وولدَ ابن عطية سنة إحدى وثمانين وأربعمئة.. وتوفي سنة إحدى وأربعين وخمسمئة..

.. وكتابُ ابن عطية أنقلُ وأجمعُ وأخْلص، وكتابُ الزمخشريِّ ألخصُ وأغوص..

.. واعتمدتُ في أكثر نقولِ كتابي هذا على كتاب (التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير) من جمعِ شيخنا الصالح، القدوةِ الأديب، جمال الدين، أبي عبد الله: محمد بن سليمان بن حسن بن حسين، المقدسي، المعروف بابن النقيب، رحمه الله، إذ هو أكبرُ كتابٍ رأيناه صُنِّفَ في علم التفسير...»[1].

كانت أهم مصادر أبي حيان في تفسيره ثلاثة:

١ ـ تفسير الكشاف للإمام الزمخشري.

٢ ـ تفسير المحرر الوجيز للإمام ابن عطية الأندلسي.

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٢٠ ـ ٢٢؛ وانظر تعريف الذهبي بالبحر المحيط في التفسير والمفسرون: ١/ ٣١٧ ـ ٣٢١.

٣ ـ تفسير التحرير والتحبير لابن النقيب المقدسي.

وكثيراً ما كان أبو حيان يحملُ على الزمخشريِّ حملاتٍ قاسية ساخرة، بسبب آرائه الاعتزالية، ويردُّ عليه هجومَه على أهلِ السنةِ والجماعة بهجومٍ آخرَ حادٍّ عنيفٍ على المعتزلة، وعلى الزمخشري نفسه، من باب المعاملة بالمثل، والبادئ أظلم!!.

كما كان أبو حيان يردُّ على الزمخشري وابن عطية بعضَ ترجيحاتهما اللغوية والنحوية والبلاغية، ويردُّ على شيخِه ابن النقيب بعضَ المكررات في تفسيره، ويرفض نقْله عن بعضِ الصوفية.

أي أنَّ أبا حيان لم يكن مجردَ ناقل، وإنما برزَتْ في تفسيره شخصيتُه القوية، واختياراتُه العلمية، وحدَّتُه في النقدِ والنقض، وقسوتُه على المنقود أحياناً.

وقد اختَصَرَ أَبو حيان تفسيرَه (البحر المحيط) وسمى المختصر: (النهر الماد من البحر) وطُبع في لبنان في خمسة مجلدات.

وطبعَ (البحر المحيط) عدةَ طبعات، من أجودها طبعةُ دار الفكر ببيروت، التي صدرت سنة ١٤١٢ ـ ١٩٩٢.

٥ ـ برهان الدين البقاعي وتفسيره (نظم الدرر):

هو الإمامُ برهانُ الدين: أبو الحسن: إبراهيمُ بن عمر بن حسن الرُّباط، البقاعي، الدمشقي، الشافعي.

البِقاعي: نسبةً إلى البقاع، وهو السهلُ الخصيبُ المعروف في لبنان.

ولد في قرية (خربة روحا) في البقاع، سنة: ٨٠٩هـ. وتوفي في دمشق، سنة ٨٨٥هـ. وعاش ستاً وسبعين سنة.

حفظ القرآنَ وهو صغير على عَمِّه في البقاع، وبينما كان في الثانية عشرة من

عمره فُجعَ بأبيه وعمّيْه، حيث قتلَهم أفرادُ قبيلةٍ من قُطّاع الطرق. فأخذه جَدُّهُ لأمّه من البقاع إلى دمشق، حيث استقرَّ بها.

بدأ البقاعيُّ بطلبِ العلم في دمشق، وتلقّى العلمَ على كبارِ علماء الشام، في القراءاتِ والتفسير والحديث والفقه واللغة. وغادرَ دمشق في طلب العلم فتوجَّه إلى القدس، وقابَلَ علماءَها، ثم أقامَ في القاهرة فترة من الزمن، وتعلَّمَ على كبارِ علمائها، وصارَ في القاهرة من كبارِ علمائها، فحسَدَهُ بعضُ أهلِ العلم فيها، وتآمَروا عليه، وأغروا به السلاطين، فترك القاهرة، وتوجّهَ إلى دمشق حيثُ بقيَ فيها إلى أنْ توفّاهُ الله.

وكان البقاعي جيدَ الكتابة، حسنَ الخط، وكان ينفقُ على نفسِه وعياله من كسب كتابته، وأجرةِ نسخه الكتب، فعاشَ زاهداً قنوعاً عزيزاً أبيّاً، ولم يتصل بالسلاطين، ولم يطلبْ منهم صلةً أو مساعدة.

وكان البقاعي مجاهداً في سبيل الله، لأنَّ بلاد الشام في عصره كانت مسرحاً للمعارك ضد الصليبيين، فقاتل الصليبيين في معارك عديدة!.

وكانت حياةُ البقاعي موزعةً بين العلمِ والتدريس، والبحثِ والتصنيف، والجهادِ والغزوِ إلى أن لقيَ الله.

ومن كبارِ شيوخه ابنُ الجَزَري في القراءات، والحافظُ ابنُ حجر في الحديث.

وألَّفَ البقاعيُّ عدداً من الكتب والرسائل، أَوصلَها بعضُهم إلى خمسين كتاباً، من أشهرِها: تفسيره (نظم الدرر)، و(مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور)، و(الإعلام بسن الهجرة إلى الشام)، و(الأقوال القويمة في حكم النقل من الكتب القديمة)، و(تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي)(١).

---

(١) مقدمة الدكتور عبد السميع محمد حسنين لكتاب البقاعي (مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور): ١/ ٣١ـ٦٩.

أَلَّفَ الإمامُ برهانُ الدين البقاعي كتاباً حافلاً في التفسير، أَسماهُ (نظم الدرر في تناسب الآي والسور)، ركّزَ فيها على الصلةِ والربطِ بين آياتِ السورة، بحيث تبدو السورة وحدةً متناسقةً متناسبةً مترابطة، كما بيَّن الصلةَ والترابط بين السور، وقدَّمَ فيه تحليلاتٍ رائعة لم يُسبقْ إليها.

وقد نجحَ الإمامُ البقاعيُّ في تفسيرِ القرآنِ كلِّه على أساسِ الترابطِ والتناسقِ والتناسبِ بين آياتِه وسوره، ولم يفعلْ ذلك مفسرٌ قبلَه، كما أنه لم يفعلْهُ مفسرٌ بعده، على المنهج الذي سلكه، والطريقةِ التي سارَ عليها.

ونقطتفُ من مقدمتِه لتفسيره هذه العبارات الكاشفة:

«وبعد: فهذا كتابٌ عُجاب رفيعُ الجناب، في فنٍّ ما رأيتُ مَنْ سبقني إليه، ولا عَوَّل ثاقب فكرِه عليه، أذكرُ فيه إن شاء الله ـ مناسباتِ ترتيبِ السور والآيات، أَطَلْتُ فيه التدبر، وأمعنتُ فيه التفكر لآياتِ الكتاب، امتثالاً لقوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة صَ: ٢٩].

واستناناً بما أشارَ إليه أميرُ المؤمنين عليُّ بن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي عنه، فيما خَرَّجه البخاريُّ في الجهاد وغيره، عن أبي جُحيفة قال: قلتُ لعليٍّ رضي الله عنه: هل عندكم شيءٌ من الوحي إلاّ ما في كتاب الله!.

قال: لا. والذي فلقَ الحبة، وبرأَ النَّسمة، ما أعلمهُ إلاّ فهمٌ يعطيه الله رجلاً في القرآن.

وتعرضاً لنفحاتِ ما أشار إليه ما أَخرجُه البخاريُّ وغيرُه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما، أن النبيَّ ﷺ قال: بَلِّغوا عنّي ولو آية.

وما أَخرجه البخاريُّ أيضاً وغيرُه عن أبي بكرة وغيرِه رضي الله عنهم، أنه ﷺ قال: «ليبلِّغ الشاهدُ الغائبَ، فربَّ مبلَّغ أَوعى من سامع».

ووقوفاً على البابِ الذي اطلعَ عليه حبرُ الأمة وبحرُ علومِها الجمة، عبدُ الله ابن عباس رضي الله عنهما، فيما رواه الشيخان والطبراني: أنه رضي الله عنه كان

في بيتِ خالته ميمونة رضي الله عنها، فوضعَ للنبيِّ ﷺ طَهوراً، فقال النبيُّ ﷺ: مَنْ وضَعه؟ قيل: ابن عباس. فقال ﷺ: «اللهمَّ فقِّهْهُ في الدين، وعَلِّمْهُ التأويل».

.. وأَمَدَّني فيه ـ والحمدُ الله ـ تأييدٌ سماوي، فجعلْتُه كالرديف لتفسيرِ القاضي ناصر الدين البيضاوي. ولعلَّ تسهيلَه كان ببركةِ مبشِّرَة من آثارِ النبوة، رأيتُها في صبـاي، وأنا في حدودِ العاشرة من سنيِّ عمري، في قريتنا من بـلادِ البقاع.. رأيتُ روحَ القُدُس جبريل المنزِّلَ لهذا الروح، والمنزَّلُ عليه هذا الروحُ محمد ﷺ، في صورتَيْ شـابين أمردين، في أحسـنِ صورة، راكبين فرسـيْن أخضرين، في غاية الحسن، متوجِّهين نحو المشرق. فأيدني الله ببركتهما في تفسيره..

وسميتُه (نظمَ الدرر في تناسب الآي والسور).. ويناسبُ أن يُسمّى (فتح الرحمن في تناسب أجزاء القرآن).. وأنسبُ الأسماءِ له (ترجمان القرآن ومبدي مناسبات الفرقان).

وعلمُ المناسبات.. علمٌ تُعرَفُ منه عللُ الترتيب. وموضوعُه: أَجـزاءُ الشيء المطلوب علمُ مناسبته من حيث الترتيب. وثمرته: الاطلاعُ على الرتبة التي يستحقُّها الجزء، بسببِ ما لَه بما وراءه وما أمامه من الارتباطِ والتعلُّق..

فعلمُ مناسبات القرآن علمٌ تُعرفُ منه علَلُ ترتيبِ أجزائه، وهو سرُّ البلاغة، لأدائِه إلى تحقيق مطابقةِ المعاني لما اقتضاه من الحال.. وتتوقَّف الإجادةُ فيه على معرفة مقصودِ السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك معرفة المقصود من جميع جملها.. فلذلك كان هذا العلمُ في غايةِ النفاسة، وكانت نسبتُه من علمِ التفسير نسبةَ علمِ البيان من النحو...

... وانتفعتُ في هذا الكتابِ كثيراً بتفسيرٍ على وجهٍ كُلِّيٍّ للإمامِ الرباني أبي الحسن علي بن أحمد بن الحسن التَّجيبي الحَرّالي المغربي نزيل حماة، سماه (مفتاحُ الباب المقفل لفهمِ القرآن المنزَّل).. وبعدَ وصولي إلى سورةِ الأنفال ملكتُ جزءاً من تفسيره، فرأيتُه عديمَ النظير..

وبعد أنْ وصلتُ إلى سورة الكهف ذُكِرَ لي أن تفسيرَ ابنِ النقيب تُذكَرُ فيه المناسبات فطلبتُ منه جزءاً، فرأيتُ الأمر كذلك بالنسبة إلى الآيات. .

ومَنْ نظرَ كتابي هذا مع غيرِه علمَ النسبة بينهما. .

. . فلا تظنَّنَ أيها الناظرُ لكتابي هذا أنَّ المناسبات كانت كذلك قبل الكشفِ لقناعها والرفعِ لستورِها، فربَّ آيةٍ أقمتُ في تأمُّلِها شهوراً. . ومَن أرادَ تصديقَ ذلك فليتأمَّلْ شيئاً من الآياتِ قبلَ أنْ ينظرَ ما قلتُه، ثم لينظرُ في ما قلتُه، يظهر له مقدارُ ما تعبتُ. .

وبه أيضاً يتضحُ أنَه لا وقفَ تامّ في كتابِ الله! ولا على آخر سورةِ الناس!! بل هي متصلةٌ ـ مع كونِها آخرِ القرآن ـ بالفاتحة ـ التي هي أوّله ـ كاتصالها بما قبلها بل أشدّ. . ولا تنكشفُ هذه الأغراض أتم انكشاف إلا لمن خاضَ غمرة هذا الكتاب[1]. . .

وقد فسَّرَ الإمامُ البقاعيُّ تفسيرَه في أربعَ عشرة سنة.

قال في خاتمة تفسيره: «. . فرغتُه في المسودةِ يوم الثلاثاء سابع شعبان، سنة خمس وسبعين وثمانمئة، بمسجدي من رحبةِ بابِ العيد القاهرة. . وكان ابتدائي فيه شعبان سنة إحدى وستين وثمانمئة. فتلك أربعَ عشرة كاملة.

وفرغتُه في هذهِ المبيضة عصرَ يومِ الأحد عاشر شعبان سنة اثنين وثمانين وثمانمئة. . بمنزلي الملاصقِ للمدرسة البادرائية من دمشق، فتلك اثنتان وعشرون سنة. . .

وسَمّى تفسيره في الخاتمة (كتاب لَمّا). وقال في ذلك: «وسميتُه (كتاب لَمّا) لأنَّ جلَّ مقصودِه بيانُ ارتباطِ الجملِ بعضها ببعض، حتى إنَّ كلَّ جملةٍ تكونُ آخذةً بحجزةِ ما أمَامها، متصلةً بها، وذلك هو المظهرُ المقصودُ من الكلام وسرِّه ولبابِه، الذي هو للكلام بمنزلة الروح، وبيان معاني المفردات وكل جملة على حيالها بمنزلة الجسد.

---

(١) انظر تفسير نظم الدرر للبقاعي: ١/ ٢ـ١٦.

. . . و(لَمّا) ظَرَفٌ يُرادُ بها ثبوتُ الثاني، مما دخلَ عليه بثبوت الأول، بمعنى أنها كالشروطِ تطلبُ جملتين . . فتمَّ الكتابُ في هذا النظم بحرفِ (لَمّا) لأني أكثرتُ من استعمالِها فيه لهذا الغرض:

هَـــــذا كِتـــــابُ (لَمّـــــا) لَـــــمَّ المعَـــــانـــــي لَمّـــــا
غَـــــدَتْ بُحـــــورُ عِلْمِـــــه تمُـــــدُّ مَـــــدّاً جمـــــا
بشَّـــــرْتُ مَـــــنْ يَحْسُـــــدُهُ بـــــأنَ يمـــــوتُ غمّـــــا
فـــــإنَّ قصـــــدي صـــــالِـــــحٌ جـــــاهـــــدتُ فيـــــه الهَمَّـــــا
فـــــرَبُّنـــــا يقبلُـــــهُ كَيفيَّـــــةً وَكَمَّـــــا

وطبعَ (نظم الدرر) في دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد في الهند، بإشراف الدكتور محمد عبد المعين خان مدير الدائرة، وصدر في اثنين وعشرين جزءاً. واستغرق إصدارُه خمسَ عشرة سنة: ١٣٨٩ ـ ١٤٠٤هـ وفق ١٩٦٩ ـ ١٩٨٤م.

٦ ـ الإمام أبو السعود العمادي وتفسيره (إرشاد العقل السليم):

هو الإمامُ أبو السعود: محمد بن محمد بن مصطفى، العمادي، الحنفي، مفتي الديار الرومية.

ولُدَ سنة ٨٩٣هـ، في قرية قريبةٍ من القسطنطينية ـ إستانبول ـ عاصمة الخلافة العثمانية.

نشأَ نشأةً علمية، وتتلمذَ على كبارِ العلماء في إستانبول، وصارَ عالماً من كبارِ علمائها، وتولّى التدريس في كثيرٍ من المدارس التركية. ثم صار قاضياً لمدينة (برُوسَة)، ونُقِلَ قاضياً لمدينة (إستانبول)، وعُينَ بعد ذلك قاضياً لولاية العسكر، واستمر قاضياً عليها ثماني سنوات.

ثم تولى أمْرَ الفتوى بعد ذلك ، فصارَ مفتياً للديار الرومية، بعدَما جاوز الستين من عمره، وبقي مفتياً حوالي ثلاثين سنة.

أظهر في فتواه الدقة العلمية التامة، والتفنُّنَ والبراعة. وذكروا أنه كان يكتب جوابَ الفتوى على منوالِ ما يكتبه السائل من الخطاب، فإنْ كان السؤالُ منظوماً كان الجواب منظوماً، مع الاتفاق بينهما في الوزن والقافية، وإن كان السؤال نثراً مسجَّعاً كان الجواب مثله، وإن كان السؤالُ بالعربية كان الجوابُ بالعربية، وإنْ كان السؤال بالتركية كان الجوابُ بالتركية.

وكان اشتغالُه بالتدريس، وتنقُّلُه بين كثيرٍ من المدارس، وتوليه للقضاء، ثم الفتوى بعد ذلك، عائقاً له عن التفرغ للكتابة والتأليفِ والتصنيف. .

لكنه اختلسَ فُرصاً من وقته، فصرفها إلى كتابةِ التفسير، فألّفَ تفسيره، وكتبَ بعضَ الحواشي على تفسير الكشاف. كما كتب بعض الحواشي والكتب الأخرى.

وتوفي في جمادى الأولى سنة ٩٨٢هـ بعد أن عاشَ حوالي تسعين سنة، ودُفنَ في إستانبول بجانب قبر أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه[(١)].

وذكروا أنَّ أبا السعود ابتدأ تفسيره على كثرةِ أعماله، ولم يُخرجْه للناس دفعةً واحدة، فلما وصلَ في التفسير إلى سورة (ص) عَرَضَ له من الشواغلِ ما جعله يقفُ في تفسيره إلى هذا الحد. . . ثم بيَّضَ ما كتب في شعبان سنة ٩٧٣هـ وأرسله إلى السلطانِ العثماني سليمان خان، فتلقّى التفسير بالقبول، وأنعَم عليه بما أنعم، وزادَ في وظيفتِه كُلَّ يوم خمسمئة درهم، ثم تيسَّر لأبي السعود إتمامُ التفسير، فأتمَّهُ بعد سنة، وأرسله إلى السلطان العثماني مرةً ثانية، فقابله بمزيد من اللطف والإنعام، وزاد في وظيفته. . .

قالَ عن تفسيره صاحبُ كتاب (العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم): «وقد أتى فيه بما لم تسمح به الأزمان، ولم تقرع به الآذان، فصدَقَ المثلُ السائد: كم تركَ الأولُ للآخر. . ».

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٣٤٥ـ٣٤٦.

وقال فيه صاحبُ كتاب (الفوائد البهية في تراجم الحنفية): «هو تفسيرٌ حسن، ليس بالطويل المُملّ، ولا بالقصير المُخلّ، متضمنٌ لطائف ونكات، ومشتملٌ على فوائد وإشارات. . ».

وقال فيه صاحب كتاب (كشف الظنون): «انتشرتْ نسخُه في الأقطار، ووقع له التلقّي بالقبول من الفحولِ الكبار، لحسنِ سبْكِه وصدْقِ تعبيره».

وقال أيضاً: من التعليقات التي كُتبت عن تفسير أبي السعود: تعليقة الشيخ أحمد الرومي الآحصاري، من سورةِ الروم إلى سورة الدخان. وتعليقة الشيخ رضي الدين بن يوسف القدسي، علّقها إلى قريبٍ من نصف التفسير.

وكان الشيخُ القدسي ينقلُ كلامَ العلماءِ الثلاثة: الزمخشري والبيضاوي وأبي السعود، ويحاكم بينهم. يقول: قالَ الكشاف، وقال القاضي، وقال المفتي.

واعتمد أبو السعود العمادي اعتماداً أساسياً على تفسير الكشاف للزمخشري، وكان يأخذُ من تفسير البيضاوي أيضاً (أنوار التنزيل)[1].

ونأخذُ من مقدمةِ أَبي السعود لتفسيره هذه المقتطفات:

«وبعد: فيقولُ العبدُ الفقيرُ إلى رحمةِ ربه الهادي: أَبو السعود محمد بن محمد العمادي: إنَّ الغايةَ القُصوى من تحريرِ نسخةِ العالَم، وما كان حرفٌ منها مسطوراً، والحكمةَ الكبرى في تخميرِ طينةِ آدم، ولم يكنْ شيئاً مذكوراً، ليستْ إلاّ معرفةَ الصانعِ المجيد، وعبادةَ البارئ المبدئ المعيد. . ولا سبيلَ إلى ذلك المطلبِ الجليل سوى الوقوف على مواقفِ التنزيل. . .

. . فإذنْ مدارُ المرادِ ليس إلاّ كلامُ رب العباد، إذ هو المظهرُ لتفاصيلِ الشعائر الدينية، والمفسِّرُ لمشكلاتِ الآيات التكوينية، والكاشفُ عن خفايا حظائرِ القدس، والمطلعُ على خبايا سرائر الأُنس، وبه تُكْتَسَبُ الملكاتُ الفاخرة، وبه يُتَوَصَّلُ إلى سعادةِ الدنيا والآخرة، كما وأنه أيضاً ـ من علوِّ الشأن، وسموِّ

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٣٤٧ـ٣٤٨.

المكان، ونهايةِ الغموضِ والإعضال، وصعوبةِ المأخَذِ وعزةِ المنال ـ في غايةِ الغاياتِ القاصية، ونهايةِ النهايات النائية، أَعَزُّ من بيض الأنوق، وأَبعدُ من مناطِ العَيّوق. . لا يُتَسَنّى العروجُ إلى معارجه الرفيعة، ولا يُتَأَتّى الرّقي إلى مدارجِه المنيعة. .

. . . وقد نُسجَ على أَغربِ منوال وأَبدع طراز، واحتَجبتْ طلعَتُه بسبحاتِ الإعجاز، طُويتْ حقائقُه الأبيةُ عن العقول، وزُويتْ دقائقُه الخفيةُ عن أذهانِ الفحول. . يردُّ عيونَ العقولِ سبحانُه، ويَخطفُ أَبصارَ البصائر بريقُه ولمعانُه. .

ولقد تصدّى لتفسيرِ غوامضِ مشكلاته أساطينُ أئمةِ التفسير في كلِّ عصرٍ من الأعصار، وتولّى لتيسيرِ عويصات معضلاتِه سلاطينُ أُسرةِ التقديرِ والتحرير في كلِّ قطرٍ من الأقطار، فغاصوا في لُجَجِه، وخاضوا في ثبجه، فنظموا فرائدَه في سلكِ التحرير، وأَبرزوا فوائده في معرضِ التقرير، وصنَّفوا كتباً جليلةَ الأقدار، وأَلَّفوا زُبُراً جميلةَ الآثار. .

أمّا المتقدمون المحقِّقون فاقتصروا على تمهيدِ المعاني، وتشييد المباني، وتبيينِ المرام، وترتيبِ الأحكام، حسبما بَلَغهم من سيدِ الأنام، عليه شرائفُ التحيةِ والسلام.

وأمّا المتأخرون المدقِّقون فراموا مع ذلك إظهارَ مزاياه الرائعة، وإبداءَ خفاياه الفائقة، ليعاينَ الناسُ دلائلَ إعجازه. . . فدوَّنوا أَسفاراً بارعة، جامعةً لفنون المحاسنِ الرائعة، يتضمنُ كلٌّ منها فوائد شريفة تقرُّ بها عيونُ الأَعيان، وعوائدُ لطيفة يتشنف بها آذانُ الأذهان. . لاسيما الكشافُ وأنوارُ التنزيل. . .

ولقد كانَ في سوابقِ الأَيّام وسوالفِ الدهور والأَعوام أوانَ اشتغالي بمطالعتِهما وممارستِهما، وزمانِ انتصابي لمفاوضتِهما ومدارستِهما ـ يدور في خَلَدي على استمرارِ آناءِ الليل وأَطرافِ النهار، أنْ أنظمَ دُرَرَ فوائدِهما في سَمْطٍ دقيق، وأُرَتِّبَ غررَ فرائدِهما على ترتيبٍ أَنيق، وأُضيفَ إليهما ما ألفيتُه في تضاعيفِ الكتب الفاخرة من جواهرِ الحقائق، وصادَفتُه في أَصدافِ العيالم الزاخرة من زواهرِ الدقائق، وأَسلكَ خلالها بطريقِ الترصيع على نسقٍ أَنيقٍ وأُسلوبٍ بديع. . .

. . وكنتُ أتَرَدَّدُ في ذلك بين إقدامٍ وإِحجام، لقُصورِ شأني وعزةِ المرام. .

. . . فمضَتْ عليه الدهورُ والسنون، وتغيرتِ الأطوار وتبدلت الشؤون. . فابتليتُ بتدبيرِ مصالح العباد، برهةً في قضاء البلاد، وأخرى في قضاءِ العساكر والأجناد، فحالَ بيني وبين ما كنتُ أَخالُ تراكمُ المهمّات وتزاحمُ الأشغال. . وكنتُ في تضاعيفِ هاتيك الأمورِ أُقَدِّرُ في نفسي أنْ أنتهزَ نهزةً من الدهور، ويتسنّى لي القرار، وتطمئنَّ بي الدار، وأظفرَ حينئذ بوقتٍ خالٍ، أتبتلُ فيه إلى جنابِ ذي العظمة والجلال. . فبينما أنا في هذا الخيال إذْ بدا لي ما لم يخطرْ بالبال، تحوَّلَت الأحوالُ والدهرُ حُوَل، فوقعْتُ في أمرٍ أشقَّ من الأوَّل، أُمِرْتُ بحلِّ مشكلاتِ الأنام، فيما شجرَ بينهم من النزاع والخصام. .

فلما انصرمتْ عُرى الآمالِ عن الفوزِ بفراغِ البال، ورأيتُ أنَّ الفرصةَ على جناحِ الفوات، وشملَ الأسبابِ في شرفِ الشّتات، وقد مَسّنيَ الكبر، وتضاءلت القُوى والقُدَر، ودنا الأجلُ من الحلول، وأشرفَتْ شمسُ الحياةِ على الأُفول. . . عزمتُ على إنشاءِ ما كنتُ أنويه، وتوجَّهْتُ إلى إملاءِ ما ظللْتُ أَبتغيه، ناوياً أنْ أُسَمّيه عند تمامِه بتوفيقِ اللهِ وإنعامه (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم). . . (١)

وأَهدى أَبو السعود تفسيرَه إلى السلطانِ سليمان خان (القانوني) وقال في مقدمةِ تفسيره مادحاً ذلك السلطان مدْحاً مبالَغاً فيه: «. . . وأهديهِ إلى الخزانةِ العامرة، الغامرةِ للبحارِ الزاخرة، لجنابِ مَنْ خصَّهُ اللهُ تعالى بخلافةِ الأرض، واصطفاهُ لسلطنتِها في الطول والعرض، أَلا وهو السلطانُ الأسعدُ الأعظم، والخاقانُ الأمجد الأفخم، مالكُ الإمامةِ العظمى، والسلطانُ الباهرُ وارثُ الخلافةِ الكبرى، كابراً عن كابر، رافعُ راياتِ الدين الأزهر، موضحُ آياتِ الشرعِ الأنور، مرغِمُ أُنوفِ الفراعنة والجبابرة، مُعَفِّرُ جباهِ القياصرة والأكاسرة، فاتحَ

(١) مقدمة تفسير (إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم)، لأبي السعود: ١/ ٣ ـ ٦ باختصار.

بلادِ المشارق والمغارب بنصرِ الله العزيز، وجندِه الغالب الهمام، الذي شَرَّف عَزْمُه المنير فانتهى إلى المشرقِ الأسنى، وغَرَّبَ حتى بلغَ مغرب الشمس أَو دنا، بخميسٍ عرمرمٍ متزاحمِ الأفواج، وعسكر كخضمٍّ متلاطمِ الأمواج، فأصبحَ ما بين أُفقي الطلوعِ والغروب، وما بينَ نقطتي الشمال والجنوب، منتظماً في سلكِ ولاياتِه الواسعَة، ومندرجاً تحتَ ظلالِ راياتِه الرائعة، فأصبحَتْ منابرُ الربعِ المسكونِ مشرفةً بذكر اسمه الميمون، فيالَهُ من مَلِكٍ استوعبَ ملكُه البرَّ البسيط، واستغرقَ فلكُه وجهَ البحر المحيط، فكأنه فضاءٌ ضربَتْ فيه خيامُه، أو نُصبتْ عليه ألويتُه وأَعلامُه، مالكُ ممالكِ العالم، ظلُّ اللهِ الظليلُ على كافةِ الأمم، قاصمُ القياصرة وقاهر القروم، سلطانُ العرب والعجم والروم، وسلطان المشرقين، وخاقـانُ الخافقيْن، الإمـامُ المقتدرُ بالقدرة الربانية، والخليفةُ المعتزُّ بالعـزةِ السبحانية، المفتخرُ بخدمةِ الحرميْن الجليليْن المعظميْن، وحمايةِ المقامين الجميلين المفخمين، ناشرُ القوانين السلطانية، عاشرُ الخواقين العثمانية. . . السلطانُ ابن السلطان، السلطانُ سليمان خان، ابنُ السلطانِ المظفر المنصور، والخاقان الموقر المشهور، صاحب المغازي المشهورة في أقطار الأمصار، والفتوحاتِ المذكورة في صحائف الأسفار، السلطانِ سليم خان، ابنِ السلطان السعيد، والخاقان المجيد، السلطان بايزيد خان. . . لا زالتْ سلسلةُ سلطنته متسلسلةً إلى انتهاء سلسـلةِ الزمان، وأرواحُ أسلافِه العظام متنزهةً في روضـةِ الرضوان. . . »[1].

لقد تعمدْتُ أنْ أسجل هذه الفقرةَ كاملة، وأنْ لا أنقص منها حرفاً، ولم أزدْ على كلام أبي السعود حرفاً، في ثنائِه على السلطان سليمان، وإهدائه تفسيره إليه، وما قرأتُ كلاماً لمفسر قبل أبي السعود يمدح حاكمَ بلده وسلطانَ زمانه هذا المدح، ويُثْني عليه هذا الثناء، ويُطريه هذا الإطراء، ولقد كان أبو السعود مبالغاً مغالياً مفرطاً في هذا الثناء، سامحه الله، فتفسيرُ كتاب الله أسمى من أنْ تُسجَّلَ في مقدمته مثلُ هذه الفقرة!! ولا نقولُ في كلام أبي السعود أكثر من هذا، سامحه الله وعفا عنه!!.

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٥.

٧ ـ الإمام محمود بن عبد الله الآلوسي وتفسيره (روح المعاني):

هو الإمام أبو الثناء: شهاب الدين: محمود بن عبد الله الآلوسي البغدادي.
و(الآلوسي) نسبةً إلى جزيرة (آلوس) الواقعة في منتصفِ نهر الفرات، بين الشام والعراق، حيث كان أجداده يقيمون فيها، ثم نزحوا إلى بغداد.

وُلدَ الآلوسي في ضاحية (الكرخ) في بغداد سنة ١٢١٧هـ. وتوفي في بغداد سنة ١٢٧٠هـ، وعاش حوالي ثلاثة وخمسين عاماً.

تلقى العلمَ في بغداد على كبار علمائها، منهم والدُه العلامة، واشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابنُ ثلاثَ عشرة سنة. وكان شيخَ علماءِ العراق، وتتلمذ عليه كثير من العلماء.

وكان يقول: «ما استَودعْتُ ذهني شيئاً فخانني، ولا دعوتُ فكري لمعضلةٍ إلا وأجابني».

تولى أوقافَ المدرسة المرجانية سنة ١٢٤٨، بعد أنْ جاوز الثلاثين من عمره، وكان الشرطُ أنْ لا يليَ تلك المدرسة إلا أعلمُ أهل البلد، وهذا معناه أنَّ الآلوسي هو أعلم أهل البلد.

وقُلِّدَ إفتاءَ الحنفية في العراق، وبقي في هذا المنصب خمس عشرة سنة، حيث تركَهُ سنة ١٢٦٣هـ، وبقي مشتغلاً بتفسير القرآن حتى أتمَّه.

ولما أتمَّ الآلوسيُّ تفسيره سنة ١٢٦٧هـ سافرَ إلى إستانبول، وقابلَ السلطانَ العثماني عبد المجيد خان، وقدّمَ له التفسير، فنالَ إعجابه.

وقد خلّفَ محمود الآلوسي عدداً من الكتب إضافة إلى تفسيره، منها: شرحُ السُّلَّم في المنطق، والأجوبةُ العراقية عن الأسئلة اللاهورية، والأجوبةُ العراقية عن الأسئلة الإيرانية، ودرةُ الغواص في أوهامِ الخواص، والنفحاتُ القدسية في المباحث الإمامية. ولكنَّ أشهرَ تصانيفه تفسيرُه روحُ المعاني[١].

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٣٥٢ ـ ٣٥٤.

قال الدكتور الذهبي عن تفسير الآلوسي: «إنَّ هذا التفسير قد أفرغ فيه مؤلفُه وسعَهُ، وبذلَ مجهوده، حتى أخرجه للناس كتاباً جامعاً لآراء السلف روايةً ودرايةً، مشتملاً على أقوال الخلف بكلِّ أمانةٍ وعناية، فهو جامعٌ لخلاصةِ كلِّ ما سبقه من التفاسير، فتراه ينقلُ لك عن تفسير ابن عطية، وتفسير أبي حيان، وتفسير الكشاف، وتفسير أبي السعود، وتفسير البيضاوي، وتفسير الفخر الرازي، وغيرها من كتب التفسير المعتبرة. .

وهو إذ ينقلُ عن هذه التفاسير يُنَصِّبُ نفسه حكماً عدلاً بينها، ويجعل من نفسه نقاداً مدقِّقاً، ثم يُبدي رأيَه حُرّاً فيما ينقل، فتراهُ كثيراً ما يعترضُ على ما ينقله عن أبي السعود أو عن البيضاوي، أو عن أبي حيان، أو عن غيرهم، كما تراه يتعقَّب الفخر الرازي في كثيرٍ من المسائل»[1].

قدَّم الإمام الآلوسي لتفسيره بمقدمة تحدث فيها عن سبع فوائد: معنى التفسير، وما يحتاجه التفسير والرأي وكلام الصوفية، وأسماءُ القرآن، وأنه كلام الله غيرُ مخلوق، وتقسيم الكلام إلى لفظيٍّ ونفسي، والمرادُ بالأحرف السبعة التي نزلَ بها القرآن، وجمعُ القرآن وترتيبه، وبيانُ وجْهِ إعجازِ القرآن[2].

ومما قالهُ الآلوسيُّ في مقدمةِ التفسير عن قصة تأليفه:

«أما بعد: فيقول عيبةُ العيوب، وذنوبُ الذنوب، أفقرُ العباد إليه عز شأنه، مدرسُ دارِ السلطنةِ العليّة، ومفتي بغداد المحمية، أبو الثناء: شهاب الدين: السيد محمود الآلوسي البغدادي، عفا الله عنه:

إنّ العلومَ وإنْ تبايَنَتْ أُصولها، وغرَّبتْ وشرَّقتْ فصولها. . فهي بأسرها مهمة، ومعرفتُها على العلات نعمة، إلاَّ أنَّ أعلاها قدراً، أو أغلاها مهراً. . العلومُ الدينية، والفهومُ اللّدنيّة. .

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٣٥٥-٣٥٦.
(٢) انظر مقدمة تفسير الآلوسي: ١/ ٤-٣٣.

علـى نَفْسِـهِ فلْيَبْـكِ مَـنْ ضـاعَ عُمْـرُهُ   ولَيْـسَ لَـهُ مِنْهـا نَصيـبٌ ولا سَهْـمُ

فـلا ينبغي لعاقلٍ أنْ يستغرقَ النهارَ والليل، إلاّ في غوصِ بحارها، أو يستنهضَ الرَّجِلَ والخيلَ إلاّ في سَبْرِ أغوارها، أو يصرفَ نفائسَ الأوقات إلاّ في مُهورِ أبكارها، أو ينفقَ بَذْرَ الأعمارِ إلا لتشوُّفِ بَذْرِ أسرارها:

إذا كـانَ هـذا الـدَّمْعُ يجري صبابـةً   علـى غَيْـر سلمـى فهـو دمْـعٌ مُضيَّـعُ

وإنّ من ذلك علمُ التفسير، الباحث عما أراده الله بكلامه المجيد. . .

وإنّي ـ ولله تعالى المنـة ـ مُـذْ ميطتْ عني التمائم، ونيطت على رأسـي العمائم، لم أزلْ متطلِّبـاً لاستكشاف سرِّه المكتوم، مترقباً لارتشـافِ رحيقـه المختوم، طالما فرَّقتُ نومي لجمعِ شواردِه، وفارقْتُ قومي لوصالِ فرائده. . فلو رأيتني وأنا أصافحُ بالجبين صفحاتِ الكتابِ من السهر، وأُطالعُ ـ إنْ أعوزَ الشمعُ يوماً ـ على نورِ القمر، في كثيرٍ من ليالي الشهر، وأمثالي إذْ ذاك يرفلونَ في مطارف اللهو، ويرْقُلون في ميادين الزهو، ويؤثرون مسراتِ الأشباح، على لذّاتِ الأرواح، ويهبونَ نفائسَ الأوقات، لنهب خسائس الشهوات. . وأنا مع حداثةِ سنّي، وضيقِ عَطَني، لا تغرني حالُهم، ولا تغيِّرني أفعالُهم، كأنَّ لبنى لبانتي، ووصالَ سعدى سـعادتي، حتى وقفْتُ على كثيرٍ من حقائقه، ووفقْتُ لحلِّ وفيرٍ من دقائقـه، وثقبتُ ـ والثناءُ لله تعالى ـ من دُرِّهِ بقلمِ فكري دراً مثمناً، ولا بدعَ فأنا من فضل الله الشهاب وأبو الثناء. .

وقبل أنْ يكملَ سِنّي عشرين جعلتُ أصدحُ به وأصدع، وشرعْتُ أدفعُ كثيراً من إشكالاتِ الإشكالِ وأدفع، وأتجاهرُ بما ألهمنيه ربي مما لم أظفرْ به في كتابٍ من دقائـقِ التفسـير، وطالما اقتطفْتُ من أزهـار ذوي العرفان، واقتبسـتُ من أنوارهم، وكم صدْرٌ منهم أودعتُ علْمَه صدري، وحبرٌ فيهم أفنيتُ في فوائده حبري. . ولم أزل مدةً على هذه الحال. . كتابُ الله لي أفضلُ مؤانس، وسميري إذا احلولكتْ ظلمةُ الحنادس.

. . وكانت كثيراً ما تحدثني في القديم نفسي، أنْ أحبسَ في قفص التحرير

ما اصطادهُ الذهنُ بشبكةِ الفكر، أو اختطفه بازُ الإلهام في جوِّ حدسي، فأتعلَّلُ تارةً بتشويشِ البالِ بضيق الحال، وأخرى بفرطِ الملالِ لسعةِ المجال. .

إلى أنْ رأيتُ في بعضِ ليالي الجمعة من رجب الأصم سنة الألف والمئتين والاثنتين والخمسين بعد هجرة النبي ﷺ رؤيا، لا أعدها أضغاث أحلام، ولا أحسبها خيالاتِ أوهام: إن الله جل شأنه وعَظُم سلطانُه، أمرني بطيِّ السماوات والأرض، ورتْقِ فتقيهما على الطول والعرض! فرفعْتُ يداً إلى السماء، وخفضتُ الأخرى إلى مستقرِّ الماء. .

ثم انتبهتُ من نومتي، وأنا مستعظمٌ رؤيتي، فجعلتُ أُفتشُ لها عن تعبير، فرأيتُ في بعض الكتب أنها إشارةٌ إلى تأليفِ تفسير. فرددتُ حينئذٍ على النفس تعلُّلها القديم، وشرعتُ مستعيناً بالله العظيم. .

وكان الشروعُ في الليلة السادسة عشرة من شعبان المبارك من السنة المذكورة سنة [١٢٥٢هـ] وهي السنة الرابعة والثلاثون من سني عمري. .

وقد تشرف الذهنُ المشتَّتُ بتأليفه، وأحكمتْ غرفُ مغاني المعاني بحكمِ ترصيفه، زمنَ خلافةِ خليفة الله الأعظم، وظلِّه المبسوط على خليقته في العالم، مجددِ نظام القواعد المحمدية، ومحدد جهات العدالة الإسلامية... حضرة مولانا السلطان ابن السلطان، سلطان الثقلين، وخادمِ الحرمين، المجدد الغازي (محمود خان العدلي ابن السلطان عبد الحميد خان).

ولما قرب ظهورُ طفلِ التفسير للعيان، جعلتُ أفكرُ ما اسمه وبماذا أدعوه، فلم يظهرْ لي اسم تهتشُّ له الضمائر، وتبتشُّ من سماعه الخواطر، فعرضتُ الحالَ لدى حضرة وزير الوزراء، ونورِ حديقة البهاء، ونورِ حدقة الوزراء... مولانا علي رضا باشا. . فسمّاه على الفور، وبديهةُ ذهنه تُغني عن الفور: (روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني)، فيا له اسمٌ ما أسماه، نسأل الله أن يطابقه مسماه. .»[1].

(١) روح المعاني للآلوسي: ١/ ٢ ـ ٥ باختصار.

وأتم الآلوسي تفسيره سنة ١٢٦٧هـ قبل وفاته بثلاث سنوات[1]، واستغرق تأليفه خمس عشرة سنة.

* * *

(١) روح المعاني للآلوسي: ٣٠/ ٢٨٨.

المبحث الثالث

الإمام فخر الدين الرازي ومنهجه في التفسير

ترجمة فخر الدين الرازي:

هو الإمام فخر الدين: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن علي، التَّيْميُّ، البكري، الطبرستاني، الرازي، المعروف بابن خطيب الرّيّ.

(التيمي): نسبة إلى (تيْم) من قريش، التي ينتسب لها أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

و(البكري): لأنه من ذرية أبي بكر رضي الله عنه.

و(الطبرستاني): نسبة إلى إقليم طبرستان، الذي تقعُ فيه مدينة (الرّيّ).

و(الرازي): نسبة إلى مدينة (الري)، المدينة التي وُلد فيها، وهي مدينةٌ قديمةٌ تقع جنوب غرب طهران حالياً.

ولد في مدينة (الري) سنة ٥٤٤هـ ونشأ نشأةً علميةً في أحضان والده، وكان والده (ضياء الدين عمر) عالماً من كبار علماء الراي، وخطيباً فيها، اشتهر بأنه خطيبُ الري، واشتُهر فخر الدين بلقب: ابن خطيب الري.

نشأ فخرُ الدين فقيراً، وكان قنوعاً زاهداً، وقام بعدةِ رحلاتٍ في طلب العلم، وتتلمذ على علماء عصره، حتى صار عالماً من كبار العلماء.

كان رحمه الله فريدَ عصره، ومتكلمَ زمانه، نبغَ في كثير من العلوم، فكان إماماً في التفسير والكلام، والعلوم العقلية، وعلوم اللغة، والفقه وأصوله.

ولفخر الدين شهرةٌ كبيرة في عصره وبعده، وكان يعظ بالعربية والفارسية،

ويبكي ويُبكي مَنْ معه، واتصل بسلاطين وحكام المناطق، ووعظهم ونصحهم، وكانت صلتُه وثيقةً بالسلطان شهاب الدين الغُوري سلطان غزْنَة، كما كانت صلتُه وثيقةً بالسلطان خوارْزِمْ شاه سلطان هراة، وبقي عنده مكرَّماً إلى وفاته.

توفي فخر الدين الرازي في هراة عند السلطان خوارزم شاه، يوم الإثنين، الأول من أيام عيد الفطر سنة ٦٠٦هـ، وعاش ثلاثاً وستين سنة.

وقيل: إن الكرَّاميّة ـ اتباعَ محمد بن كرَّام السجستاني، وهم فرقةٌ ضالةٌ في العقيدة يجسمون الله بجسم، ويشبهونه بخلقه ـ سقوه سماً فمات، لأنه كان شديداً عليهم.

واعتُبر الإمام الرازي مجدِّدَ القرن السادس، قال السيوطي في أرجوزته: «تحفة المهتدين بأخبار المجددين»:

والسادسُ الفخرُ الإمامُ الرازي والرافعيُّ مِثْلُهُ يوازي

كان الإمام الرازي مصلحاً، في الجانب الفكري والاجتماعي والأخلاقي، وكان يرى توثيقَ الصلة بالسلاطين، لوعظهم ونصحهم، وكانوا يأتونَ إلى بيته لسماع نصائحه، وكان جريئاً معهم.. أتاهُ السلطانُ الغوريُّ يوماً إلى منزله، فقال الرازي له: «أيها السلطان: لا سلطانك يبقى، ولا تلبيسُ الرازي يبقى!!» فبكى، وأبكى السلطان.

وجعل القرآن أساسَ طريقتِهِ ومنهجه في الإصلاح، وأراد ربط الناس بالقرآن، وكانت خطته في الإصلاح على أساس القرآن تقوم على أربعة أسس:

١ ـ وضعُ القرآن موضع الدراسة والبحث والتحليل، لأن طريقته أسمى من جميع الطرق الفلسفية والكلامية، ولذلك دعا الدارسين إلى الإقبال على القرآن للوقوف أمام الفلاسفة والماديين والملحدين.

٢ ـ اشتمالُ القرآن على مختلف العلوم والمعارف، مما جعله يسمو على كلِّ نتاجِ البشر.

٣ ـ دعوةُ أصحاب العلوم والثقافات الأخرى إلى الإقبال على القرآن،

وسوف يجدون فيه ما يريدون وزيادة.

٤ ـ إعادةُ الطمأنينة إلى القلوب، وبثُّ الثقة والأمل في النفوس، بالإقبال على القرآن، لأنَّ الناس كانوا يعيشون الخطر المغولي، وقد هجمَ المغول على خراسان واجتاحوها ودمروها بعد سنوات من وفاة الرازي.

قال عنه الصفدي: اجتمع للإمام الرازي خمسةُ أشياء: سعةُ العبارة في القدرة على الكلام، وصحةُ الذهن، والاطلاع الذي ما عليه مزيد، والحافظةُ المستوعبة، والذاكرة التي تعينه على ما يريد من تقرير الأدلة والبراهين...

وكان الإمامُ الرازي غزيرَ التأليف، حيثُ صنَّفَ العديد من الكتب والدراسات في مختلف الموضوعات، أوصلها بعضهم إلى أكثر من ثمانين كتاباً ورسالة[١].

من أشهرها: تفسيره الكبير، والمحصول في أصول الفقه، وأساسُ التقديس في علم الكلام، وشرحُ أسماء الله الحسنى، واعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، ومناقب الإمام الشافعي...

وقد صدرت عن الرازي وتفسيره عدةُ دراسات مطبوعة منها: (فخر الدين الرازي) للدكتور فتح الله خليف، و(فخر الدين الرازي) تمهيد لدراسة حياته ومؤلفاته) لجورج قنواتي، و(فخر الدين الرازي وآراؤه الفلسفية والكلامية) لمحمد صالح الزركان، و(الرازي من خلال تفسيره) لعبد المجيد المجذوب.

وأجود دراسةٍ عن الرازي وتفسيره كتاب (الرازي مفسراً) للدكتور محسن عبد الحميد، وهو رسالةٌ نالَ بها درجةَ الدكتوراه في التفسير سنة ١٩٧٢ من جامعة القاهرة.

وللإمام الرازي وصيةٌ قيمة نافعة، أملاها على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصفهاني في الحادي والعشرين من محرم سنة ٦٠٦هـ. وذلك لما مرض وشعر

---

(١) انظر أسماء مؤلفات الرازي في كتاب (الرازي مفسراً) للدكتور محسن عبد الحميد، ص٣٨ـ٤١.

بدنوِّ أجله، وقد عاش بعدها حوالي ثمانية أشهر.

ومما قاله في هذه الوصية النافعة:

«بسم الله الرحمن الرحيم: يقولُ العبدُ الراجي رحمةَ ربه، الواثقُ بكرمِ مولاه، محمد بن عمر بن الحسين الرازي، وهو في آخرِ عهدِه بالدنيا، وأولِ عهدِه بالآخرة، وهو الوقتُ الذي يلينُ فيه كلُّ قاسٍ، ويتوجَّهُ إلى مولاه كل آبق:

إني أحمدُ الله تعالى بالمحامد، التي ذكرها أعظمُ ملائكته، في أشرفِ أوقاتِ معارجهم، ونطق بهاأعظمُ أنبيائه، في أكمل أوقاتِ مشاهدتهم.. وأحمدُه بالمحامدِ التي تستحقها ألوهيتُه، ويستوجبُها لكمالِ الموهبة، عرفْتُها أم لم أعرفها.. وأصلّي على الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، وجميع عباد الله الصالحين.

ثم أقولُ بعد ذلك: اعلموا إخواني في الدين وفي طلب اليقين ـ أنَّ الناس يقولون: الإنسانُ إذا ماتَ انقطعَ تعلُّقُه عن الخلق.. وهذا العامُّ مخصوصٌ من وجهين:

الأول: أنّه إنْ بقيَ عملٌ صالح صارَ ذلك سبباً للدعاء، والدعاءُ له أثرٌ عند الله.

والثاني: ما يتعلقُ بمصالحِ الأطفال والأولاد والعورات، وأداءِ المظالم والجنايات...

واعلموا أنني كنتُ رجلاً محباً للعلم، فكنتُ أكتبُ في كلِّ شيء شيئاً، لا أقف على كميته وكيفيته، سواء كان حقاً أو باطلاً، غثاً أو سميناً!!.

إلاَّ أنَّ الذي نظرْتُه في الكتبِ المعتبرة لي: إنَّ هذا العالَمَ المحسوس تحت تدبير مدبِّر مُنَزَّهٌ عن مماثلة المتميزات والأعراض، وموصوفٌ بكمالِ القدرةِ والعلم والرحمة..

ولقد اختبرتُ الطرقَ الكلامية، فما رأيتُ فائدةً تساوي الفائدةَ التي وجدتها في القرآن العظيم، لأنه يسعى في تسليمِ العظمةِ والجلالِ بالكلية لله تعالى، ويمنعُ

عن التعمق في إيرادِ المعارضات والمتناقضات. . وما ذاك إلاّ للعلم بأنَّ العقولَ البشرية تتلاشى وتضمحلُّ في تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية. .

ولهذا أقول: كلُّ ما ثبتَ بالدلائلِ الظاهرة من وجوب وجودِه ووحدتِه وبراءته عن الشركاء في القدمِ والأزلية والتدبير والفاعلية، فذاكَ الذي أقولُ به، وألقى الله عليه. .

وأمّا ما انتهى الأمرُ فيه إلى الدقةِ والغموض، فكلُّ ما ورد في القرآن، والأخبارِ الصحيحةِ المتَّفقِ عليها بين الأئمةِ المتبعين للمعنى الواحد، فهو كما هو.

والذي لم يكن كذلك أقول: يا إلـٰهَ العالمين: إني أرى الخلق مُطبقينَ على أنك أكرمُ الأكرمين، وأرحمُ الراحمين، فلك ما مَرَّ به قلمي، أو خطرَ ببالي. . . وأستشهدُ علْمك وأقولَ: إنْ علمتَ منّي أني أردتُ تحقيق باطلٍ أو إبطالَ حق، فافعل بي ما أنا أهلُه، وإنْ علمتَ مني أني ما سعيت إلاّ في تقرير ما اعتقدتُ أنه الحق، وتصورتُ أنه الصدق، فلتكُنْ رحمتُك مع قصدي لا مع حاصلي. . فذاكَ جهدُ المقلِّ، وأنتَ أكرمُ منْ أنْ تُضايقَ الضعيف الواقعَ في الزلة، فأغثْني، وارحمني، واسترْ زلَّتي، وامحُ حوْبتي. . يا منْ لا يزيدُ ملكَه عرفانُ العارفين، ولا ينتقصُ بخطأ المجرمين. .

وأقول: ديني متابعةُ سنةِ محمدٍ سيد المرسلين، وكتابي هوالقرآنُ العظيم، وتعويلي في طلبِ الدينِ عليهما. .

اللهمَّ يا سامعَ الأصوات، ويا مجيب الدعوات، ويا مُقيلَ العثرات، ويا راحمَ العبرات، ويا قيومَ المحدَثات والممكنات: أنا كنتُ حَسَنَ الظنِّ بك، عظيمَ الرجاءِ في رحمتكَ، وأنتَ قلْتَ «أنا عند ظن عبدي بي». وأنت قلت: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: ٦٢]. وأنت قلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ١٨٦]. فهبْ أني ما جئتُ بشيء، فأنتَ الغنيُّ الكريم، وأنا المحتاج اللئيم. .

وأَعلمُ أنه ليس لي أحدٌ سواك، ولا أجدُ محسِناً سواك، وأنا معترفٌ بالزلةِ

والقصور، والعيب والفتور، فلا تُخيِّب رجائي، ولا تردّ دعائي، واجعلني آمناً من عقابك قبل الموت وعند الموت وبعد الموت، وسَهِّل عليَّ سكراتِ الموت، وخفِّفْ عليّ نزول الموت، ولا تضيِّقْ عليَّ بسببِ الآلام والأسقام، فأنتَ أرحمُ الراحمين..

وأما الكتب العلمية التي صنَّفتُها، واستكثرتُ من إيرادِ السؤالاتِ على المتقدمين فيها، فمنْ نظرَ في شيء منها، فإنْ طابَتْ له تلك السؤالات، فيذكُرْني في صالحِ دعائه، على سبيل التفضل والإنعام، وإلاّ فلْيحذف القولَ السيِّئ..

فإنّي ما أردتُ إلاّ تكثير البحث، وتشحيذَ الخاطر.. والاعتمادُ في الكلِّ على الله..

وأمرتُ كلَّ تلامذتي، وكلَّ منْ لي عليه حقّ، أني إذا متُّ يبالغونَ في إخفاءِ موتي، ولا يُخبرونَ أحداً به، ويكفِّنونني، ويدْفنونني على شرطِ الشرع، ويحْملونني إلى الجبلِ المصاقبِ لقرية (مزداخان)، ويدفنونني هناك.

.. وإذا وضعوني في اللَّحد قرؤوا عليَّ ما قدروا عليه من آيات القرآن، ثم ينثرون التراب عليَّ، وبعدَ الإتمام يقولون: يا كريم جاءكَ الفقيرُ المحتاج، فأحسنْ إليه، واعْطِفْ عليه، فأنتَ أكرمُ الأكرمين، وأرحم الراحمين...»[(١)].

وكان الإمام الرازي ينظمُ الجيِّد، ومن ذلك قوله:

ولا أرْمُقُ الدُّنيا بعينِ كرامةٍ	ولا أتَوَقَّى سُوءَها واختلالَها
وذاكَ لأنّي عارفٌ بفنائها	ومُستيقنٌ ترْحالها وانْحلالها
أرومُ أموراً يصغرُ الدهرُ عندها	وتستعظمُ الأفلاكَ فيَّ وصالَها

وعاتب أهلَ هراة ـ لما أساؤوا له مرة ـ قائلاً:

المرْءُ ما دامَ حيّاً يُستهانُ به	ويعْظمُ الرزْءُ فيه حين يُفتَقَدُ

---

(١) انظر وصيته كاملة في (الرازي مفسراً) ص١٦ ـ ١٨؛ ومقدمة تفسير الرازي: ١/ ل، م، ن.

وبعد ما خاضَ الإمام الرازي كثيراً في علم الكلام، وألَّفَ فيه كُتُباً كثيرة، تراجعَ عن ذلك في آخر أيامه، ورجعَ إلى طريقةِ السلفِ الصالح في العقيدة، واعتمد على القرآن والسنةِ في مسائل العقيدة، وأعلنَ على ندمهِ عن الاشتغالِ بعلمِ الكلام.

قال: لقد اختبرتُ الطرق الكلامية والمناهجَ الفلسفية، فلم أجدها تروي غليلاً، ولا تشفي عليلاً..

ورأيتُ أصحّ الطرق طريقةَ القرآن.. أقرأ في التنزيهِ قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨].

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١].

وأقرأ في الإثبات قوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥].

وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]. وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠].

واقرأ في أنَّ الكلَّ من عندِ الله قوله تعالى: ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[النساء ٧٨].

وأقولُ من صميم القلب ومن داخل الروح: إني مُقرٌّ بأنَّ كلّ ما هو الأكملُ الأفضلُ الأعظمُ الأجلُّ فهو لكَ يارب، وكلُّ ما هو عيبٌ ونقصٌ فأنتَ منزهٌ عنه!».

وقال القطبُ الطوغاني: سمعتُ فخر الدين الرازي أكثر من مرة يقول: يا ليتني لم أشتغلْ بعلم الكلام! ويبكي..[1].

ومن روائع ما قال في ذلك:

نِهـايَـةُ إقْـدامِ العقـولِ عِقـالُ ... وأكثـرُ سعـي العـالميـنَ ضـلالُ
وأرْواحُنـا فـي وحْشـةٍ مـنْ جُسـومِنا ... وحـاصـلُ دُنْيـانـا أذىً ووبـالُ

---

(١) مقدمة مصححي تفسير الرازي: ١/ ى.

ولمْ نستفدْ من بحْثنا طولَ عُمرنا سوى أنْ جمعْنا فيهِ قيلَ وقالوا
وكمْ قدْ رأينا منْ رجالٍ ودولةٍ فبادوا جميعاً مُسرعين وزالوا
وكمْ منْ جبالٍ قدْ علَتْ شرُفاتها رجالٌ فزالوا والجبالُ جبالُ

وبعد أنْ أنشدَ هذه الأبيات قال: واعلمْ أني بعدَ التوغل في هذه المضايق، والتعمق في الاستكثار عن أسرار هذه الحقائق، رأيتُ الأصوبَ والأصلحَ طريقةَ القرآن العظيم والفرقان الحكيم، وهو تركُ التعمق، والاستدلالُ بانتظامِ أجسامِ السموات والأرضين على وجودِ ربِّ العالمين، ثم المبالغةُ في التعظيم من غير خوضٍ في التفاصيل..»[1].

وكان في آخر عمره يُكثرُ من ذكْر الموت ويقول: إنني حصَّلْتُ من العلوم ما يمكن تحصيلُه بحسب الطاقة البشرية، وما بقيتُ أُؤثرُ إلاّ لقاءَ الله تعالى والنظرَ إلى وجهه!.

تعريف بتفسير الرازي (مفاتيح الغيب):

لتفسير الرازي اسمان:

الأول: (التفسير الكبير): وهو الاسمُ الذي اشتُهرَ به بين العلماء، وأطْلقوه على تفسيره.

الثاني: (مفاتيح الغيب): ويبدو أنَّ الرازي أطلقَ هذا الاسمَ على تفسيره.

وقد جمعَ بعضُ العلماء بين الاسمين، فقالوا: ألَّف الرازيُّ تفسيره الكبير المسمى (مفاتيح الغيب).

منهم القفطي (توفي سنة ٦٤٦هـ) الذي قال في كتابه (إخبارُ العلماء بأخبار الحكماء):

ومن تصانيفه: كتابُ تفسير القرآن الكبير، سماه (مفاتيح الغيب) ـ سوى

(١) الرازي مفسّراً، ص٢٩ ـ ٣٠، نقلاً عن مخطوطة للرازي في ذم الدنيا.

تفسير الفاتحة التي أفردَ لها تصنيفاً ـ في اثني عشر مجلداً بخطه الدقيق.

ومنهم ابن أبي أصيبعة (توفي سنة ٦٦٨هـ) الذي قال في كتابه (عيون الأنباء في طبقات الأطباء): «ولفخر الدين من الكتب: كتاب التفسير الكبير، المسمى (مفاتيح الغيب، اثنتا عشرة مجلدة بخطِّه الدقيق، سوى الفاتحة فإنه أفردَ لها مجلداً»[1].

وقد بدأ الإمامُ الرازيُّ كتابة تفسيره في وقت متأخر، بعد أنْ جاوز الخمسين من عمره، وبعد أن اكتملتْ أدواتُه ونضجَ عقْلُه.

وقد بدأ كتابةَ تفسيرِ سورة الفاتحة في مجلد كبير، ولم نعرفْ متى انتهى من تفسير سور الفاتحة ولا سورة البقرة.

ومن لطيف القول: إن الإمامَ الرازي كان يسجلُ تاريخ انتهائه من تفسير كثيرٍ من السور. فسورةُ آل عمران انتهى من تفسيرها في اليوم الأول من ربيع الثاني سنة ٥٩٥هـ، وانتهى من تفسير سورة الأحقاف في العشرين من ذي الحجة سنة ٦٠٣هـ، وهذا آخر تاريخ سجله.

والملاحظُ أن الرازي لم يفسر السورَ حسبَ ترتيب المصحف، فقد فسَّر سورة الأنفال في رمضان سنة ٦٠١هـ، بينما فسر سورتي التوبة ويونس في بداية شهر رجب من نفس السنة. وفسر سورة يوسف في السابع من شعبان سنة ٦٠١هـ، وفسر سورة الرعد في يوم واحد، وهو الثامن من شعبان سنة ٦٠١هـ.

ولعّل الرازي كتب تفسير المفصَّلَ من بعد سورة الأحقاف بعد سنة ٦٠٣هـ، أي في آخرِ أيام حياته. واستغرق تفسيره أكثر من عشر سنوات من عمره.

وقد سَرَتْ إشاعةٌ عند العلماء أنَّ الرازي توفي قبل إكمال تفسيره، وأنَّ الذين أكملوه تلاميذه. والشيخان اللذان قيلَ إنهما أتمّا التفسير هما: شمس الدين أحمد بن الخليل الخوئي، ونجم الدين أحمد بن محمد بن أبي الحزم المخزومي القمولي.

---

(١) الرازي مفسراً للدكتور محسن عبد الحميد، ص٥٣.

واضطرب الباحثون في هذا الموضوع كثيراً، ومنهم الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه (التفسير والمفسرون)، ومحمد الفاضل بن عاشور في كتابه: (التفسير ورجاله)، والدكتور علي محمد حسن العمادي في كتابه: (الإمام فخر الدين الرازي: حياته وآثاره).

وقد ناقش الدكتور محسن عبد الحميد الموضوعَ مناقشةً مستفيضة، وخرجَ بنتيجةٍ قاطعة قال فيها: «والذي انتهيتُ إليهِ بعد قراءتي التفسير كلَّه أن جميع هؤلاء قد أخطؤوا، نتيجةً لعدم قراءتهم جميعَ التفسير. إذْ لو فعلوا مثلما فعلتُ لكان من الممكن أنْ يصلوا إلى ما وصلْتُ إليه».

وهو أنَّ تفسير (مفاتيخ الغيب) اعتباراً من سورةِ الفاتحة، إلى نهاية سورة الناس، له وليس لغيره!.

وأنَّ ماوردَ فيه من عبارات تدلُّ على أنَّ شخصاً آخر اشترك في كتابتِه ليس إلاَّ تعليقاتٌ متناثرة من بعض تلامذتِه، أُضيفتْ إلى المتن، أو كُتبتْ في الحاشية، ودخلتْ في المتنِ في أثناء استنساخه..»[1].

وهي نتيجة صحيحةٌ أوافقُ الدكتور محسن عليها تمام الموافقة. وأذكرُ أني أعددْتُ بحثاً في هذه المسألة، أثناء دراستي لمادة (البحث) في مرحلة الماجستير سنة ١٩٧٧م بعنوان (هل أتمَّ الإمام الرازي تفسيره مفاتيح الغيب)، في أكثر من خمسين صفحة، نالَ إعجابَ مدرس المادة الدكتور محمد بلتاجي.

لم يكتب الإمام الرازي لتفسيره مقدمةً مفصلة، كما فعل كثيرٌ من المفسرين كالقرطبي وأبي حيان، وإنما كتبَ في بداية تفسير سورة الفاتحة مقدمةً مجملةً تدلُّ على طبيعةِ تفسيره.

ومما قاله في تفسير سورة الفاتحة التي خصَّص لها مجلَّداً: «أما بعد: فهذا كتابٌ مشتملٌ على شرحِ بعضِ ما رزقنا الله تعالى من علومِ سورة الفاتحة، ونسأل

---

(١) الرازي مفسراً، ص٥٦؛ وانظر الموضوع كاملاً فيه، ص٥٢ ـ ٦٣.

الله العظيم أنْ يوفقنا لإتمامه، وأنْ يجعلنا في الدارين أهلاً لإكرامه وإنعامه، إنه خير موفق ومعين، وبإسعافِ الطالبين قمين».

ثم قال: «اعلمْ أنه مرَّ على لساني في بعضِ الأوقاتِ أنَّ هذه السورة الكريمة يمكنُ أنْ يُستنبطَ من فوائدها ونفائسها عشرةُ آلاف مسألة، فاستبْعدَ هذا بعضُ الحُسّاد، وقومٌ من أهلِ الغيِّ والعِناد، وحملوا ذلك على ما ألفوهُ من أنفسهم من التعلُّقاتِ الفارغة عن المعاني، والكلماتِ الخالية عن تحقيق المعاقدِ والمباني. فلما شرعْتُ في تصنيفِ هذا الكتاب، قدَّمتُ هذه المقدمة لتصيرَ كالتنبيه على أنَّ ماذكرناه أمْرٌ ممكن الحصول، قريبُ الوصول..»[1].

ولقد هدفَ الإمامُ الرازي من تأليف تفسيره إلى تحقيق عدةِ أهداف منها:

١ ـ الدفاعُ عن القرآن، والاستشهادُ له بالعلوم والمعارف.

٢ ـ الدفاعُ عن العقيدة، والوقوفُ في وجهِ الماديين والملحدين، وردُّ الشبهات والمطاعن.

٣ ـ بيانُ التناسق بين السور والآيات، وتحقيقُ الوحدة الموضوعية للقرآن.

٤ ـ انتزاعُ زعامة التفسير من المعتزلة، فقد تزعَّم المعتزلةُ التفاسير العقليةَ فترة من الزمن، وظهر مفسرون كبارٌ من المعتزلة، من أمثال: الجبائي والأصم والأصفهاني والحاكم الجشمي والقاضي عبد الجبار والزمخشري.

وقد ردَّ عليهم في تفسيره، وأبطلَ استدلالَهم بالآيات، ونجح في تحقيق هذا الهدف، فلم يظهرْ مفسرون مشهورون من المعتزلة بعدَ الرازي، وفقدوا الريادة في التفاسير العقلية.

٥ ـ التوسُّعُ في التفسير البياني للقرآن، والتطبيق العمليُّ لنظرية عبد القاهر الجرجاني في (النظم القرآني)، فالجرجاني أرسى دعائم نظريته في كتابه (دلائل الإعجاز) ولكنه لم يتمكَّنْ من تطبيقها المفصل على القرآن، لأنه لم يكتبْ تفسيراً كاملاً للقرآن، فجعل الرازي تفسيره ميداناً عملياً تطبيقياً لنظرية عبد القاهر.

---

(١) تفسير الرازي: ١/ ٥.

وللإمام الرازي مصادرُ في التفسير رجعَ إليها وأخذ منها، من أشهر هذه المصادر التفسيرية: تفسيرُ الزمخشري، وتفسيرُ أبي مسلم الأصفهاني، وتفسير الأصم، وتفسير أبي علي الجبائي، وتفسير علي بن عيسى الرماني، وهذه تفاسير للمعتزلة.

ومن مصادره أيضاً: معاني القرآن للفراء، ومعاني القرآن للزجاج، وأحكام القرآن للجصاص الحنفي الرازي، وتفسير ابن جرير الطبري(١).

وقد أثَّرَ الإمام الرازي في المفسرين الذين جاؤوا بعده، وأخذوا ما أرادوا من تفسيره، ومن هؤلاء: البيضاوي، وأبو حيان الأندلسي، وابن كثير، والقمي النيسابوري، والآلوسي، ومحمد رشيد رضا(٢).

ونردِّدُ مع الدكتور محسن عبد الحميد قوله عن تفسير الرازي: «أستطيع أنْ أقول: إنَّ تفسير الرازي يمثلُ ذروةَ المحاولة العقلية لفهم القرآن، والذي يمثّل طريقة الأشعرية المتزنة في التفكير، والتي تضمُّ أمثال الإمام الأشعري والباقلاني وإمام الحرمين والغزالي، فتفسيرُ الرازي خيرُ وريثٍ لنتاجِ هذه المدرسة، كما يُعتبر تفسير الطبري خيرُ وريثٍ لمدرسة التفسير بالمأثور..»(٣).

منهج الرازي في التفسير:

تفسيرُ الرازي (مفاتيح الغيب) تفسيرٌ بالرأي المحمود، وهو ممثلٌ لهذه المدرسة، وعمدةُ التفاسير العقلية للقرآن. وكما كان تفسيرُ الإمام الطبري موسوعةً ومستودعاً للأقوال المأثورة في التفسير، كان تفسيرُ الإمام الرازي موسوعةً ومستودعاً للتوجيهاتِ العقلية، والأقوالِ النظريةِ في التفسير.

مما قاله عنه الدكتور محمد حسين الذهبي: «كان يكثرُ من الاستطراد إلى العلومِ الرياضية والطبيعية، وغيرها من العلوم الحادثةِ في الملة ـ على ما كانتْ

---

(١) تفسير الرازي، ص٨٧ ـ ١٢٢.
(٢) المرجع السابق، ص١٦٩ ـ ١٩٣.
(٣) المرجع السابق، ص١٩٣.

عليه في عهده ـ كالهيئة الفلكية وغيرها. . كما أنه يعرضُ كثيراً لأقوال الفلاسفة بالردِّ والتنفيذ، وإنْ كان يصوغُ أدلته في مباحثِ الإلـٰهيات على نمطِ استدلالاتِهم العقلية.

كما أنه لا يدعُ فرصة تمرُّ دونَ أنْ يعرضَ لمذهبِ المعتزلة بذكرِ أقوالهم والردِّ عليها. .

ولا يكادُ يمرُّ بآية من آياتِ الأحكام إلاّ ويذكرُ مذاهبَ الفقهاءِ فيها، مع ترويجه لمذهبِ الشافعي ـ الذي يقلدُه ـ بالأدلةِ والبراهين.

كذلك نجدهُ يستطردُ لذكرِ المسائلِ الأصوليةِ، والمسائلِ النحوية والبلاغية، وإنْ كانَ لا يتوسَّعُ في ذلك توسُّعه في مسائلِ العلوم الكونية والرياضية.

وبالجملة: فالكتابُ أشبهُ ما يكون بموسوعةٍ في علمِ الكلام، وفي علومِ الكونِ والطبيعة، إذْ أنَّ هذه الناحيةَ هي التي غلبتْ عليه. . .

ويظهرُ لنا أنّ الإمام فخر الدين الرازي كان مولعاً بكثرةِ الاستنباطاتِ والاستطراداتِ في تفسيره، ما دامَ يستطيعُ أنْ يجدَ صلةً ما بين المستَنْبَطِ أو المستَطْردِ إليه وبين اللفظِ القرآني.

ويدلُّ على ذلك قولُه في مقدمة تفسير سورة الفاتحة: «اعلم أنه مرَّ على لساني في بعضِ الأوقات، أنَّ هذه السورة الكريمة ـ سورة الفاتحة ـ يمكنُ أنْ يُستنبطَ من فوائدها ونفائسها عشرةُ آلاف مسألة!! فاستبعدَ هذا بعضُ الحسّاد، وقومٌ من أهل الجهلِ والغيِّ والعناد، وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التعلُّقاتِ الفارغةِ عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمباني، فلما شرعْتُ في تصنيفِ هذا الكتاب، قدمْتُ هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على أنَّ ما ذكَرْناه أمرٌ ممكنُ الحصول، قريبُ الوصول. . »[1].

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٢٩٤ ـ ٢٩٦ باختصار.

وقواعد منهج الإمام الرازي في التفسير هي:

١ ـ القرآن أصل العلوم كلها:

يرى الإمام الرازي أنَّ القرآن هو أصلُ العلوم كلِّها، الشرعيةِ والماديةِ، وألَّفَ تفسيره ليدلِّل على ذلك، ويستنبط مختلفَ العلومِ من القرآن، ويردَّ على الماديين والملحدين، ويبينَ التناسقَ بينَ كتاب الله المنظور ـ الكون ـ وكتاب الله المسطور.

وهذه نظريةُ الإمام الغزالي، أثبتها في كتابه (جواهر القرآن). وتفسيرُ الإمامِ الرازي في هذا الجانب تطبيقٌ لنظرية الغزالي في (جواهر القرآن).

من الأمثلة على هذا، تفسيره لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فسَّرَ هذه الآية في إحدى عشرة مسألة، استغرقتْ ثلاثين صفحة من تفسيره. واعتبرها دليلاً على وجودِ الله ووحدانيته، وتكلم عن خلق الأفلاكِ والكواكب، وعن بدايةِ خلقِ الليل والنهار والسماوات والأرض، وعن الأيام الستة التي خلق الله بها السموات والأرض، واستوائِه على العرش، وتسخير الشمس والقمر والنجوم بأمره، وعن العلومِ المستنبطة من هذه الآية.

وقالَ في تفسيرها: «وربما جاءَ بعضُ الجهال والحمقى وقال: إنكَ أكثرتَ في تفسيرِ كتابِ الله من علم الهيئة والنجوم، وذلك على خلافِ المعتاد!.

فيُقالُ لهذا المسكين: إنك لو تأملتَ في كتاب الله حقَّ التأمُّل لعرفْتَ فسادَ ما ذكرته.. وتقريرُه من وجوه..

الأول: أنَّ الله ملأ كتابه من الاستدلالِ على العلم والقدرةِ والحكمة بأحوالِ السماوات والأرض، وتعاقبِ الليل والنهار، وكيفيةِ أحوالِ الضياء والظلام،

وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وذكرَ هذه الأمورَ في أكثرِ السور، وكرَّرها وأعادَها مرةً بعد أخرى، فلو لم يكنِ البحثُ عنها والتأملُ في أحوالها جائزاً لما ملأ الله كتابه منها.

الثاني: أنه تعالى قال: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾ [سورة قٓ: ٦]. فهو تعالى حثَّ على التأمل في أنه كيف بناها، ولا معنى لعلم الهيئةِ إلاّ التأملُ في أنه كيفَ بناها، وكيفَ خلقَ كلَّ واحدٍ منها.

الثالث: أنه تعالى قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [غافر: ٥٧]. فبيَّن أنَّ عجائبَ الخلقة وبدائعَ الوجود في أجرام السماوات أكثر وأعظمُ وأكملُ مما في أبدانِ الناس. ثم إنه رغَّبَ في التأملِ في أبدانِ الناس، بقوله: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. فما كان أعلى شأناً وأعظمَ برهاناً منها، أولى بأنْ يجب التأملُ في أحوالها، ومعرفةُ ما أودعَ الله فيها من العجائب والغرائب.

الرابع: أنه تعالى مدحَ المتفكرين في خلق السماوات والأرض، فقال: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ﴾ [آل عمران: ١٩١].

الخامس: أنَّ منْ صنَّفَ كتاباً شريفاً مشتملاً على دقائق العلومِ العقلية والنقلية، بحيث لا يساويه كتابٌ في تلك الدقائق، فالمعتقدون في شرفهِ وفضيلتِه فريقان: منهم مَنْ يعتقدُ كونه كذلك على سبيل الجملة، من غير أنْ يقفَ على ما فيه من الدقائق واللطائفِ على سبيل التفصيلِ والتعيين، ومنهم مَنْ وقفَ على تلك الدقائق على سبيلِ التفصيل والتعيين. واعتقادُ الطائفةِ الأولى ـ وإن بلغَ إلى أقصى الدرجاتِ في القوة والكمالِ ـ إلاّ أنَّ اعتقادَ الطائفةِ الثانية يكونُ أكملَ وأقوى وأوفى. وكلُّ مَنْ كانَ وقوفُه على دقائقِ ذلك الكتاب ولطائفه أكثر كان اعتقاده في عظمة ذلك المصنف وجلالته أكملَ. .

إذا ثبتَ هذا فنقول: من الناسِ من اعتقدَ جملةً أن هذا العالمَ مُحْدث، وأنَّ

كلَّ مُحْدَثٍ فله مُحْدِثٌ، فحصل له بهذا الطريق إثباتُ الصانع، وصارَ من زمرةِ المستدلين.

ومنهم مَنْ ضمَّ إلى تلك الدرجةِ البحث عن أحوالِ العالم العلوي والعالم السفلي على وجه التفصيل، فيظهرُ له في كلِّ نوعٍ من أنواعِ هذا العالم حكمةٌ بالغةٌ وأسرارٌ عجيبة.

فيصيرُ ذلك جارياً مجرى البراهينِ المتواترة والدلائلِ المتوالية على عقلِه، فلا يزالُ ينتقلُ كلَّ لحظةٍ ولمحةٍ من برهانٍ إلى برهان آخر، ومن دليلٍ إلى دليل آخر، فلكثرةِ الدلائلِ وتواليها أثرٌ عظيمٌ في تقويةِ اليقين وإزالة الشبهات.

فإذا كان الأمْرُ كذلك، ظهر أنه تعالى إنما أنزلَ القرآن لهذه الفوائد والأسرار، لا لتكثيرِ النحو الغريب، والاشتقاقاتِ الخالية عن الفوائد والحكايات الفاسدة[1].

٢ ـ الاستطراد وتوليد المسائل وتكثيرها:

كان منهجُ الرازي في التفسير يقومُ على الاستطراد، والانتقالِ من موضوعٍ إلى موضوع، وتوليد المسائل وتكثيرها، وكان يرى أنَّ كل كلمةٍ قرآنية يمكنُ أنْ يؤخذَ منها عددٌ من المسائل والأحكام.

سورةُ الفاتحةِ مثلاً كان يرى أنها يمكنُ أنْ يؤخذَ منها عشرةُ آلافِ مسألة على وجهِ التقريب.

وقد فسَّرَ سورةَ الفاتحةِ تفسيراً مجملاً في عشر صفحات، أشارَ فيها إلى ما تحويه السورةُ من علومٍ ومعارف، وما يؤخَذُ منها من مسائلَ ومباحث. وقبلَ أنْ يشرعَ في تفصيلِ تلك المسائل والمعارف قال: «فما أجلَّ هذه المقامات، وأعظمَ مراتبِ هذه الدرجات! ومَنْ وقفَ على ما ذكرناه من البياناتِ أمكنَهُ أنْ

---

(١) تفسير الرازي: ١٤/ ١٢١ ـ ١٢٢.

يَطَّلِعَ على مبادئ هذه الحالات. فقد ظهرَ بالبيانِ الذي سبق أنَّ هذه السورة مشتملةٌ على مباحثَ لا نهاية لها، وأسرارٍ لا غايةَ لها. وإنَّ قولَ مَنْ يقول: هذه السورةُ مشتملةٌ على عشرةِ آلافِ مسألة، كلامٌ خرجَ على ما يليقُ بأفهام السامعين»[1].

وقد فسَّرَ سورةَ الفاتحة في مجلَّدٍ وقسَّمَ تفسيرها إلى كتب وأبواب:

الكتاب الأول: في العلومِ المستنبطة من قوله: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» وفيه أبواب:

الباب الأول فيه خمسون مسألة. والبابُ الثاني فيه أربع عشرة مسألة. والبابُ الثالث فيه اثنتا عشرة مسألة. والباب الرابع فيه عدةُ تقاسيم وأنواع. والباب الخامس فيه عدةُ أحكام. والباب السادس فيه ثلاث وثلاثون مسألة. والباب السابع فيه ثماني مسائل.

ولما تحدَّث عن التفسيرِ المفصَّلِ لسورة الفاتحة جعلَ تفسيرها في تسعةِ فصول، كلُّ فصلٍ فيه مجموعة من المسائل والحجج والأحكام والنكات والفوائد.

ولما تحدث على الأسرارِ العقليةِ المستنبطةِ من هذه السورة، جعلَ ذلك في تسعةِ فصولٍ أخرى، في كلِّ فصلٍ مجموعةٌ من المسائل والفوائد والنكات.

واستغرقَ تفسيرُ الفاتحةِ حوالي ثلاثمئة صفحة.

وبعدما انتهى من تفسيرِ سورةِ الفاتحة قَلَّلَ الاستطرادَ وتوليدَ المسائل، لكنه لم يتوقَّفْ عن ذلك. وسببُ ذلك التقليل أنَّه أقامَ الدليلَ من تفسيرِ سورة الفاتحة أنه يمكنُ أنْ يُستخرجَ من الفاتحةِ أكثرُ من عشرةِ آلاف مسألة، وأنَّ القرآنَ ضَمَّ مختلفَ أنواعِ العلومِ والمعارف، وأنه يمكنُ أنْ يؤخَذَ من كلِّ كلمةٍ قرآنية العديدُ من الأحكامِ والمسائل.

ولو سارَ على نفسِ الأسلوب الذي سلكه في تفسير سورة الفاتحة في تفسير باقي السور لجاء حجمُ تفسيرِه في مئات المجلدات!!.

---

(١) تفسير الرازي: ١/ ١٨.

وهو أولُ مفسِّرٍ اخترعَ هذا الترتيبَ في تفسيره، من بابِ تسهيلِ التفسيرِ على القارئ، وشحْذِ ذهنهِ إلى التفكير.

وبقيَ يفسرُ الآياتِ بتقسيمِ تفسيره إلى مسائل. وكلُّ تفسيرِه مثالٌ لهذا. من تفسيرِ سورةِ الفاتحةِ إلى تفسيرِ سورةِ الناس.

وكان الإمامُ الرازي يستطردُ استطراداتٍ عديدة، ويخرجُ من التفسيرِ إلى أيِّ موضوعٍ له صلةٌ بالآيةِ التي يفسِّرُها.

فلما فسَّرَ قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [البقرة: ٣١]. تحدَّثَ عن العلمِ وفضله، في حوالي ثلاثين صفحة(١).

ولما فسَّرَ قصةَ هاروت وماروت في سورة البقرة، وحديثَها عن سحرِ الشياطين، استطردَ للكلام على السحر وحقيقته وأثره والخلاف فيه، وجاء ذلك في حوالي عشرين صفحة(٢).

ولأجلِ هذا الاستطرادِ والمسائلِ العديدة كان تفسيرُ الرازي شبهَ موسوعةٍ علمية، فيه الفقهُ والفلسفةُ والكلامُ والعلمُ والفلكُ والكون، والأدبُ واللغة والنحو..

ولذلك قيل عنه: «فيه كلُّ شيءٍ إلاّ التفسير»!! وسنناقشُ هذا فيما بعد إن شاء الله.

٣ ـ الجدال والرد على أصحاب الفرق المختلفة:

كان من أهدافِ الرازي في تفسيره نقضُ الأفكارِ المخالفة، والردُّ على استدلالِ أصحابها بالآيات، والوقوفُ أمام المعتزلة وغيرهم من الفرق الإسلامية. ولذلك اتخذَ تفسيرَه معرضاً لذلك، وكان هذا الجدال والنقاش والردُّ قاعدةً من

---

(١) تفسير الرازي: ٢/ ١٧٥ ـ ٢٠٧.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ١٠٢ ـ ٢٢١.

قواعد منهجه في التفسير. والإمام الرازي مجادلٌ من الدرجة الأولى، وطريقتُه في الجدال تجمعُ بين العلميةِ والمنهجية والموضوعية.

وكان في جداله يثيرُ الأسئلةَ والشبهات، ثم يردُّها وينقضُها ويبطلُها. كما كـانَ يذكرُ قولَ الخصم مفصَّلاً، ويبسـطُ وجهةَ نظره، ويقـررُ وجوهَ احتجاجه واستدلالِه، ويطيلُ نفَسَه في ذلك، وقد يستغرقُ هذا منه عدةَ صفحات. وبعد ذلك يفنِّدُها.

فكان في نقاشِه محامياً للخصم! وأميناً في سَرْدِ أدلته واحتجاجه، بحيث لو أرادَ الخصمُ أنْ يعرضَ أدلتَه بنفسِه لما زادَ على ذلك!.

وهـذا دليلٌ على ثقافتِه الواسـعة، واطلاعه الكبير على أقوالِ المذاهبِ والفرق، ومعرفتِه بأدلتها وحججِها، فقد اطلعَ على المذاهبِ الباطلة، إضافةً إلى علمه بالقولِ الحق.

كما أن هذا دليلٌ على حيادِه وموضوعيتِه وأمانتِه العلمية، ليتعرف القارئ على القول الباطل واستدلالِه وحجته، قبلَ أنْ يَطَّلعَ على ردِّه ونقضِه.

والإمامُ الرازي تفرَّدَ في ذلك بين المفسرين، ولـم نجد مفسِّراً قبلَه ولا بعدَه فعَلَ مثلَ فعلِه، أو ارتقى إلى مستواه.

ومن أجل ذلك أُثيرت الشبهاتُ على تفسير الرازي، حيثُ اتُّهم الإمامُ الـرازي بأنه يتوسَّعُ في ذكرِ أدلةِ الخصم، وثم يقصرُ في الردِّ عليها، وهذا غيرُ مسَلَّم! واعتمدَ المغرضون على تفسيره في ذكر الشبهات، حيثُ كانوا يأخذونها منه، ويُحيلون عليه، ولا ينقلونَ نقْضَه لها، وفعْلهم هذا على طريقةِ (لاتقربوا الصلاة..).

ومثال ذلك تفسيره لقوله تعالى: ﴿ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

فسَّرَ هذه الآية في عدة مسائل:

المسألة الأولى: عرضَ فيها استدلالَ أهلِ السنة بهذه الآية على أن المؤمنين يرونَ الله في الجنةِ يومَ القيامة. وتحدثَ عن أربعةِ وجوهٍ لاستدلالهم بها، وبيَّنَ كلَّ وجهٍ منها بالتفصيل.

والمسألة الثانية: عَرَضَ فيها حكايةَ استدلالِ المعتزلة بهذه الآية في نفي رؤيةِ الله في الدنيا والآخرة. وذَكَرَ وجهيْن مفصَّليْنْ لاستدلالهم بها.

وبعد ذلك أبطلَ الوجهين في استدلالِ المعتزلة بها، وقد نقضَها وأبطلَهَا من ستةِ وجوه.

والمسألة الثالثة: خَصَّصها لنقاشِ القاضي عبد الجبار إمام المعتزلة، قال فيها: «اعلم أنَّ القاضي ذكرَ في تفسيره وجوهاً أُخرى تدلُّ على نفي الرؤية، وهي في الحقيقة خارجةٌ عن التمسك بهذه الآية، ومنفصلةٌ عن علم التفسير، وخوضٌ في علم الأصول، ولما فعلَ القاضي ذلك فنحنُ ننقلُها، ونجيبُ عليها، ثم نذكرُ لأصحابنا وجوهاً دالةً على صحة الرؤية. أماالقاضي فقد تمسَّك بوجوه عقلية».

وذكر أربعَ حججٍ للقاضي عبدِ الجبار في نفي الرؤية، ثم أبطلَها بأربعةِ وجوه.

والمسألة الرابعة: لاستدلالِ أهلِ السنةِ على الرؤية، قالَ فيها: «المسألة الرابعة: في تقريرِ الوجوهِ الدالةِ على أنَّ المؤمنين يرونَ الله تعالى. ونحن نعدُّها هنا عَدّاً، ونُحيلُ تقريرَها إلى المواضعِ اللائقة بها..».

والحججُ التي ذكرها إحدى عشرة حجة.

ثم أكملَ تفسيرَ الآيةِ في المسائل: الخامسة والسادسة والسابعة[1].

٤ ـ بيان جمال النظم القرآني:

كان من أهدافِ الإمام الرازي من تفسيره إظهارُ جمالِ النظم القرآني،

---

(١) انظر هذه المسائل في تفسير الرازي: ١٣/ ١٢٤ ـ ١٣٣.

وتحليلُ الآياتِ تحليلات بيانية، وتقديمُ روائعِ التعبير القرآني.

وقد جعلَ تفسيره تطبيقاً عملياً لنظرية النظم القرآني التي قررها الإمام عبد القاهر الجرجاني. حيث كان يهتمُّ بنظمِ الآيات، وترتيبها، والحكمةِ من اختيارِ لفظٍ على لفظٍ فيها، ويبينُ المناسباتِ بين كلمات الآية وجملها، وبين الآياتِ في السورة، وقد يذكرُ عدةَ مناسباتٍ للربط بين الآيات.

وإنَّ بيانَه للمناسبات بين الآيات يصلحُ أنْ يُفْرَدَ في رسالةٍ خاصة.

لقد وُفِّقَ الإمام الرازي توفيقاً ملحوظاً في بيانِ الإعجاز البياني القرآني، وتقديم التحليلات البيانية المختلفة، التي توضحُ جمالَ النظمِ القرآني.

ونكتفي لتحليلاته البيانيةِ التي ملأتْ تفسيرَه، وكانت من قواعدِ منهجهِ في التفسير بهذا المثال الكاشف:

تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ ۝١١ وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ وَٱلرَّيْحَانُ﴾ [الرحمن: ١٠ ـ ١٢].

ذهب إلى أنَّ قوله: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾: إشارةٌ إلى الأشجار، وقوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ إشارةٌ إلى النبات.

والتنكيرُ في (فاكهةٌ) للتكثير والتعظيم، فالفاكهةُ كثيرة، وهي نعمةٌ عظيمةٌ من الله و(النخلُ) معطوف على (فاكهةٌ). وحكمةُ العطفِ أنَّ الأشجارَ المثمرةَ نوعان:

الأول: ثمارٌ هي فواكه لا تصلحُ أنْ تكون قوتاً يُقتاتُ بها.

الثاني: ثمارٌ هي فواكه يتفكهُ بها الإنسانُ أحياناً، وهي قوتٌ قد يتقوَّتُ بها الإنسان، إذا لم يجد طعاماً آخر، فتكفيه عن كلِّ غذاء وقوت. وهذا في التمر فقط.

والحكمةُ من تقديمِ الفاكهة على النخل: «فيها فاكهةٌ والنخلُ» من بابِ الابتداءِ بالأدنى، ثم الارتقاءُ إلى الأعلى. فالفاكهةُ في النفعِ دون النخل الذي يثمرُ التمر، والتمرُ يصلحُ للتفكُّهِ ويصلحُ للقوت. ثم ذكر الحب الذي هو قوت،

وهو موجودٌ في جميع البلاد.

والحكمةُ من تنكير (فاكهةٌ) وتعريف (النخلُ):

أن القوتَ يَحتاجُ إليه الإنسانُ في كلِّ زمان، وموجودٌ في كلِّ حين، ولهذا ناسبَ أنْ يكون (النخلُ) معرفة. والفاكهةُ تكونُ في بعضِ الأزمان وعند بعضِ الأشخاص، ولهذا جاءت نكرة.

والفاكهةُ غيرُ متعيّنة، فهي مختلفةٌ عند الأشخاص، وباختلافِ الأوقات، فهناكَ مَنْ يتفكَّهُ بالحامض، وهناك منْ يتفكَّهُ بالحلو، وهناك مَنْ يتفكَّهُ في الشتاء، وآخرُ في الصيف، ولذلك جاءت (فاكهةٌ) نكرة.

أمّا (النخلُ والحبُّ) فهما معتادان لجميعِ الناس معلومان، وهما متعيِّنان، ولهذا جاءا معرفة.

وذُكرت الفاكهةُ باسمِها دونَ أَشجارها، بينما ذُكرَ النخلُ باسمِ الشجر لا باسم الثمر: فقال (فاكهةٌ) ولم يقل: العنبُ والخوخُ والتين. وقال (النخلُ) ولم يقل (والتمر): لأنَّ شجرةَ النخلِ بالنسبةِ إلى ثمرتِها عظيمة، وفيها فوائدُ كثيرة، وكلُّ ما فيها نافعٌ، لحاؤُها وليفُها ونواها وجُمارُها وأغصانُها، وثمرُها قد يكون بسراً أو رطباً أو تمراً أو عجوةً أو بلحاً، ولو قال (والتمر) ما أدى هذا المعنى.

والحكمةُ من وصفِ النخل بأنه ذاتُ الأكمام: «والنخلُ ذاتُ الأكمام»: للإشارةِ إلى إتمامِ الإنعام، حيث يسهلُ جمعُ التمر، فإنَّ النخلةَ شجرةٌ كبيرة، ولا بدَّ من قطفِ ثمرها قطفاً، وليس هزّها ليسقطَ ثمرُها، ولهذا كان ثمرُها في أكمامٍ وعناقيد!.

والحكمةُ من تأخيرِ الحبِّ على النخل (والحب ذو العصف): الترقّي من الأدنى إلى الأعلى، فالتمرُ يصلحُ فاكهة ويصلح قوتاً، أما الحَبُّ فهو قوتٌ لا يستغني عنه الإنسانُ.

واقتصرَ من الأشجارِ على النخلِ لأنه أَعظمُها، بينما شملَ الحَبُّ جميعَ

أنواعِ الحبوب، ودخلَ فيه القمح والشعير وغيرهما.

ووصفَ الحب بقوله: ﴿وَٱلْحَبُّ ذُو ٱلْعَصْفِ﴾ وهو التبن. فالحبَّ لنا قوتٌ نقتات به، والعصْفُ قوتٌ لدوابِّنا تقتاتُ به.

وجاء الريحانُ في الخاتمة: (والريحانُ)، وهو معطوف على (الحبُّ) مرفوع، والمرادُ به الشم، لأنه نباتٌ مشمومٌ طيبُ الرائحة.

والحكمةُ من تأخيرِ (الريحان) هي ختمُ هذه النعمِ به، لكونه أعَزَّ وأشرف، ويُرادُ لرائحته الطيبة.. [1]

٥ ـ التقليل من الموضوعات الأثرية والتوسع في المباحث العقلية:

كان من منهج الإمام الرازي في تفسيره التقليل من الموضوعاتِ الأثرية التي تحدَّثنا عنها في الفصولِ السابقة من هذه الدراسة، والاستعاضةُ عن ذلكِ بالمباحث والموضوعاتِ العقلية.

لم يُكثرْ من تفسيرِ القرآن بالقرآن، وبالسنة، وبأقوالِ الصحابة والتابعين، ولم يتوسَّعْ في اللغة والاشتقاق، ولا النحوِ والصرف، ولم يستطردْ إلى الإسرائيليات والحكايات.

وليس معنى هذا أنه لم يفسِّر القرآن بالقرآن والسنةِ وأقوال الصحابة، إنما معناه أنه قَلَّلَ من ذلك، ولم يذكُرْ منه إلاّ القليل، وهذا يتفقُ مع منهجه الذي اختاره للتفسير، وهو التفسيرُ بالرأي، والإكثارُ من المباحث العقلية.

كان أَحياناً يفسرُ القرآن بالقرآن، وَيجمعُ بين الآياتِ المختلفة في الموضوع الواحد. كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩].

فقد استحضرَ قوله تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ

---

(١) انظر تفسير الرازي: ٢٩/ ٩٢ ـ ٩٤.

﴿وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِيٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ۝١١ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَاۚ﴾ [فصلت: ٩ ـ ١٢].

كما استحضرَ قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٢٧ ـ ٣٠].

ثم جمعَ بين هذه الآيات، وأزالَ مابينها من تعارضٍ ظاهري، حول خلْقِ السمواتِ والأرض أيهما كان أولاً[١].

واعتمادُ الرازي على الحديث قليل، ولم يوردْ في تفسيره إلاّ القليلَ من الأحاديث المرفوعة للنبي ﷺ. وهو لم يحرصْ على تخريج الأحاديث التي يذكُرها، ولم يتَحَرَّ الصحيحَ منها، ولهذا كان في تفسيرِه أحاديثُ صحيحة وحسنة وضعيفة وموضوعة.

فلما فسَّرَ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾ [النساء: ٣]. قال: «في تفسير أن لا تعولوا» وجوه: الأول: معناه: لا تجوروا ولا تميلوا. وهذا هو المختارُ عند أكثرِ المفسرين. . وروي ذلك مرفوعاً: روتْ عائشةُ رضي الله عنها عن النبي ﷺ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ﴾: لا تجوروا. وفي رواية أخرى: لاتَميلوا. قال الواحدي رحمه الله: «كِلا اللفظين مرويٌّ.»[٢].

وذكرُه لأقوالِ الصحابة والتابعين قليلٌ أيضاً، وقد يذكرُ أكثرَ من قولٍ لهم في تفسير الآية، ويوجِّههُ ويبينُ معناه.

قال في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]: «اختلفتْ عباراتُ المفسرين في معنى (القيوم): فقالَ مجاهد: القيّوم: القائمُ على كلِّ شيء. وتأويلهُ أنه قائمٌ بتدبيرِ أمرِ الخلقِ في إيجادهم وأرزاقهم. .

(١) انظر تفسير الرازي: ٢/ ١٥٥ ـ ١٥٦.
(٢) المرجع السابق: ٩/ ١٧٦ ـ ١٧٧.

وقال الضحاك: القيّوم: الدائمُ الوجود، الذي يمتنعُ عليه التغير. وهذا القول يرجعُ معناه إلى كونه قائماً بنفسه في ذاتِه ووجوده. . .

وقال بعضُهم: (القيوم) الذي لا ينام، بالسريانية. وهذا القولُ بعيد. .»[1].

وبينما كان يقللُ من الموضوعاتِ الأثرية في تفسيره، كان يتوسَّعُ في الموضوعاتِ العقلية، والتحليلاتِ النظرية، لأن هذا يتفق مع عقليتِه وثقافته ومنهجه.

لقد كان الإمامُ الرازي صاحبَ عقلٍ كبير، وتثقفَ بثقافةٍ عقلية عالية، وانشغلَ بعلمِ الكلام والفلسفة، فصاغ تفسيره بهذا الأسلوبِ العقليِّ الفلسفي الكلامي.

وأدخل الرازي عقله في كل مباحثِه وتحليلاته في التفسير وكمثال على هذا:

علّل ولادةَ عيسى عليه السلام من غيرِ أبٍ تعليلاً عقلياً، وذلك في تفسيرِه لقوله تعالى: ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥].

قال: «فإن قيل: ولمَ قلتم: إنَّ حدوثَ الشخصِ من غيرِ نطفةِ الأبِ ممكن؟

قلنا: أمّا على أُصول المسلمين فالأمرُ فيه ظاهر، ويدلُّ عليه وجهان. . . وأمّا على أصول الفلاسفة، فالأمرُ في تجويزِه ظاهر، ويدلُّ عليه ثلاثةُ وجوه»[2].

أهم مميزات تفسير الرازي والمآخذ عليه:

أهمُّ الشبهات التي أُثيرتْ حولَ تفسيرِ الرازي اثنتان:

---

(١) تفسير الرازي: ٧/ ٩.

(٢) المرجع السابق: ٨/ ٤٨.

الأولى ـ فيه كلُّ شيء إلاّ التفسير :

أُثيرتْ هذه الشبهةُ ضد تفسيرِ الرازي بسببِ توسُّعِ الرازي في المباحثِ العقلية والمسائلِ الكونية، واستطراداتِه الكثيرة، وتوليدِه المسائلَ النظرية والكلامية .

قال فيه ابن خلكان : «جمعَ فخرُ الدين الرازي في تفسيره كلَّ غريبٍ وغريبة» .

وقال فيه اليافعي : «جمعَ في تفسيره من الغرائبِ والعجائبِ ما يُطربُ كلَّ طالب» .

وقال فيه ابن تيمية : «فيه كل شيء إلاّ التفسير» .

وردد أبو حيان الأندلسي كلامَ ابنِ تيمية، وقال عنه : «جمعَ الرازي في تفسيره أشياء كثيرةً لا حاجةَ بها في علم التفسير، ولذلك قال فيه بعضُ العلماء : فيه كلُّ شيء إلاّ التفسير . » .

وقال حاجي خليفة في كشفِ الظنون : «إن الإمامَ فخر الدين الرازي ملَأ تفسيرَه بأقوالِ الحكماءِ والفلاسفة، وخرج من شيء إلى شيء، حتى يقضيَ الناظرُ العجب ! »(١) .

وللردِّ على هذه الشبهة نقول : نعترفُ أنَّ في تفسيرِ الرازي كلَّ شيء، لكنَّ هذه الأشياءَ والمباحث والموضوعات موجودةٌ إضافةً إلى التفسير .

ويمكنُ أنْ تصحَّحَ العبارةُ السابقة، فيقال : فيه كلُّ شيء مع التفسير ! .

قال السبكي : فيه معَ التفسير كلُّ شيء .

وقال عبد العزيز المجدوب : يصحُّ أنْ يُقالَ فيه : كلُّ الصيد في جوفِ الفرا . .

---

(١) انظر التفسير والمفسرون للذهبي : ١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦ .

الثانية ـ التوسُّع في ذكرِ أدلةِ الخصم والتقصيرُ في الردِّ عليها :

رددَ كثيرون هذه الشبهة، واعتبروا الرازي ناشِراً للأقوالِ الباطلة، ومتوسِّعاً في الأدلة المخالفة، لكنه كان يقصِّرُ في تفسيرها والردِّ عليها، ولذلك قَوّى تلك الأقوال! .

وممن أَثارَ هذه الشبهة ضده :

أبو شامة المقدسي، حيث يقول: كان يقررُ في مسائل كثيرة مذاهبَ الخصومِ بأتمِّ عبارة، فإذا جاءَ إلى الأجوبةِ اقتنعَ بالإشارة . .

والحافظُ ابنُ حجر العسقلاني، حيث قال: وكان يُعابُ بإيرادِ الشبهةِ الشديدة، ويقصِّرُ في حلها، حتى قال بعضُ المغاربة: كان يوردُ الشُّبَهَ نقداً، ويحلُّها نسيئة .

ونجمُ الدين الطوفي حيث يقول: ما رأيتُ في التفاسير أجمعَ لغالبِ علمِ التفسير من القرطبي، ومن تفسيرِ الإمام فخر الدين، إلاّ أنه كان كثيرَ العيوب. وقال بعضُهم: كان يوردُ شُبَهَ المخالفين في المذهبِ والدين على غايةِ ما يكون التحقيق، ثم يوردُ مذهبَ أهلِ السنة والحق على غايةٍ من الوهاءِ والضعف. . ولَعمري هذا دأبُه في كتبه الكلامية والحكمية، حتى اتهمه بعضُ الناس، ولكنه خلافُ ظاهرِ حاله، لأنه لو كان اختارَ قولاً أو مذهباً، ما كان عندَه ما يخَافُ منه حتى يسترَ عنه . .

ولعلَّ سببه أنه كان يستفرغُ أقوالاً في تقريرِ دليل الخصم، فإذا انتهى إلى تقرير دليلِ نفسه لا يبقى عنده شيءٌ من القُوى، ولا شكَّ أَنَّ القُوى النفسانيةَ تابعةٌ للقوى البدنية . .

وقد صرحَ الرازي في مقدمةِ كتابه نهاية العقول: بأنه يقررُ مذهبَ خصمهِ تقريراً، لو أرادَ خصْمُه تقريرَه لم يقدرْ على الزيادةِ على ذلك . . »[1] .

---

(١) انظر التفسير والمفسرون: ١/ ٢٩٤ـ ٢٩٥ .

وقد استغلَّ المغرضون كلامَ الرازي في تقعيدِ وتحقيقِ قولِ الخصم، واعتمدوا عليه، ونسبوه له، لكنهم أَغفلوا عامدين قاصدين إبطالَ الرازي لها.

وفي الحقيقةِ لم يُقصر الرازي في إبطالِ أقوالِ الخصوم، فقد كان ينقضُها ويبطلُها في مواطنَ من تفسيره بتوسُّعٍ وتفصيل، وفي بعضِ المواطن كان يوجزُ ويختصرُ، اكتفاءً بتوسُّعِه في المواطن الأخرى!!.

إن أهمَّ مميزاتِ تفسيرِ الرازي هي:

١ - التركيز على التناسقِ والتناسبِ في التفسير، حيث كان الرازي يبينُ الصلةَ والربطَ بين جملِ الآية وبين آياتِ السورة، ويقدمُ السورةَ باعتبارها وحدةً موضوعية متكاملة. ويمكنُ أنْ تُفردَ مناسباتهُ في رسالة.

٢ - إظهارُ جمالِ النظم القرآني، وتطبيقُ نظريةِ عبد القاهر في النظم، والتحليلات البيانيةُ للآيات، ويمكنُ أنْ تُفردَ هذه التحليلاتُ في رسالة أيضاً.

٣ - الأمانة العلمية والحيادُ الموضوعي في تقريرِ أدلة المخالفين وحججِهم ومذاهبهم وبراهينهم. وهذه نقطةٌ تسجلُ له، وشهادةٌ لنزاهته وحياديته.

٤ - حصْرُ الآراءِ والأقوال في القضية الواحدة، مع أدلتها وبراهينها، وهذا يريحُ القارئ الراغبَ في معرفةِ الأقوالِ فيها.

٥ - إبطالُ المذاهبِ الباطلة، ونقضُ أقوالِها وأدلتِها، والردُّ على الملحدين والماديين، ودحضُ أقوالِ أهل الفرق، كالمعتزلة والشيعة والمرجئة.

٦ - الموهبةُ الفذةُ في توليد المسائل، وتسلسل المعاني والأفكار، والنَّفَسُ الطويلُ في المناقشةِ والجدال والرد، وهو متفردٌ في هذا بين المفسرين.

٧ - التركيزُ على التفسيرِ العلمي، والاستفادةُ من العلومِ والمعارف المختلفة، في تفسير الآياتِ وتوسيعِ معانيها وعلومها.

٨ - تركُ الإسرائيلياتِ والخرافات والأساطير، التي ملأتْ كتبَ التفسيرِ الأُخرى، لأنها لا تتفقُ مع تفكيره العلمي ونظره العقلي.

٩ ـ الأسلوب العلميُّ التقريري الذي صاغ به الرازيُّ تفسيره، رغم صعوبةِ ووعورة مسائله ومباحثه الفلسفية والعلمية والكلامية. وهذا بسببِ تمكنِه من اللغة.

أمّا أهمُّ المآخذِ على تفسيره فهي في النقاط التالية:

١ ـ عَرْضُ العقيدةِ في قالب فلسفي كلامي، وهذا يخالفُ طريقةَ القرآن.

٢ ـ الاستطرادُ في كثيرٍ من المباحث والقضايا المستقلة، التي لا علاقةَ لها بالتفسير.

٣ ـ المبالغةُ في الترجيحاتِ العقلية، حتى للمغيَّبات والقراءات واللغويات.

٤ ـ الإكثارُ من إيرادِ أقوالِ الفلاسفة والمتكلمين في تفسيرِ الآيات.

٥ ـ قلةُ معرفةِ الرازي بالحديث، وإيرادُ أحاديثَ ضعيفة أو موضوعة.

٦ ـ المجادلاتُ العقيمةُ الكثيرةُ للمعتزلة وغيرهم من الفرق، وكثرتها في التفسير.

٧ ـ التقصيرُ أَحياناً في الرد على شبه الخصوم.

٨ ـ الخروجُ عن المنهجِ السوي أحياناً، وتفسيرُ الآياتِ بالإشاراتِ الصوفية والروحانية.

٩ ـ تحويلُ التفسير إلى موسوعةٍ علميةٍ ثقافيةٍ ضخمة، لا صلةَ لها بالتفسير.

وهذا معناه أنَّ الحاجةَ ماسةٌ إلى (تهذيبِ تفسير الرازي) واستبعادِ كلِّ تلك المطولات، والإبقاء على المادةِ التفسيرية الصحيحة فقط!.

* * *

الفصل السّابع

الاتّجَاهَاتُ المُنْحَرِفَةُ في التَّفْسِيْرِ
أَسْبَابُهَا - فِرَقُهَا - أَشْهَرُ تَفَاسِيْرِهَا

المبحث الأول

أسباب الانحراف في التفسير ومظاهره

الانحرافُ في تفسيرِ القرآن هو تفسيرٌ بالرأيِ المذموم، القائمِ على الخطأ والهوى والمقرَّرِ المسبق.

لقد قلْنا في الفصلِ السابق: إنَّ التفسيرَ بالرأي نوعان:

الأول: تفسيرٌ بالرأي المحمود. وخصَّصْنا له الفصلَ السابق، الذي عرضنا فيه لشروطِ التفسير بالرأي ليكون محموداً صواباً مقبولاً. وعَرَّفْنا فيه بسبعةِ تفاسيرَ بالرأي المحمود، وخصَّصْنا مبحثاً خاصاً لإمامِ هذه التفاسير المحمودة، وهو مفاتيح الغيب للإمام الرازي.

الثاني: تفسيرٌ بالرأي المذموم، وهو الذي لم تتحققْ فيه الشروطُ المطلوبةُ للرأي المحمود، وهو المتمثلُ في «الاتجاهات المنحرفة في التفسير». الصادرةِ عن مختلف الفرق، والقائمةِ على الابتداعِ والتحريف.

وقبلَ أنْ نعرضَ للفرقِ المنحرفة وتفاسيرِهم المنحرفة نبينُ أَهمَّ أسبابِ الانحرافِ في التفسير ومظاهره.

وسبق أنْ خصَّصْنا المبحثَ الخامس من الفصلِ الثاني لأهم أخطاءِ المفسرين، وأسبابِ وقوعِهم فيها، ونرجو من القارئ أنْ يقفَ على كلامِنا في ذلك المبحث، ليتعرَّفَ على أسبابِ الانحراف في فهمِ القرآن ومظاهره..

ونلخصُ هنا الموضوعَ تلخيصاً في غاية الإجمال:

الأخطاءُ التي يقعُ فيها المفسرون ثلاثة أَصناف:

أ ـ خطأٌ في الهدفِ والقصد والباعث، كأخطاءِ غيرِ المسلمين في نظرهم في القرآن.

ب ـ خطأٌ في منهجِ النظرِ في القرآن، وهو خطأُ أصحابِ الفِرَقِ من أهل القبلة.

جـ ـ الخطأُ في بعضِ الجزئياتِ الفرعية، كأخطاءِ مفسّري أهل السنّة والجماعة.

وأهمُّ الأخطاءِ التي قد يقعُ بها المفسرون، والتي هي سببٌ لانحرافِ بعضهم في التفسير هي:

١ ـ دخولُ عالمِ القرآن بمقرَّراتٍ فكريةٍ سابقة: وهذا هو أساسُ الانحرافِ الذي وقع فيه مفسِّرو رجالِ الفرقِ الإسلامية، حيثُ دخلوا جميعاً عالمَ القرآن بمقررٍ فكريٍّ مسبق، وتعاملوا مع القرآن بالهوى والمزاج، وأَرادوا من القرآن أنْ يشهدَ لما عندهم من باطلٍ وضلال!.

٢ ـ الخطأُ في فهمِ بعض الآيات: ومن ثم الانحرافُ في تفسيرها، وتقويلُها ما لم تقلْ به، والخروجُ منها بنتائج خاطئة، بسبب الجهلِ واللبس.

٣ ـ عدمُ اتباعِ أحسنِ طرق التفسير، التي قررْناها فيما مضى.

٤ ـ عدمُ اعتمادِ الأحاديثِ الصحيحة في التفسير، وقبولُ أحاديث موضوعة أو ضعيفة.

٥ ـ التساهلُ في روايةِ الإسرائيليات، والحكاياتِ التي لم تصحّ ولم تثبت.

٦ ـ عدمُ البقاءِ مع القراءاتِ العشرِ الصحيحة.

٧ ـ التساهلُ عند أخذ أقوالِ الصحابةِ والتابعين، وعدم تحري صحيحها.

٨ ـ الخروجُ عن التفسير إلى مباحث لا داعي لها، والاستطرادُ في ذلك.

٩ ـ الانشغالُ بالمعاركِ الفكريةِ المختلفة، والمناقشاتِ العقيمة مع رجال الفرق.

١٠ ـ ذكرُ احتمالاتٍ عديدة في التفسير وبيانِ المعنى وإعرابِ الآيات.

ولما فسرَ رجالُ الفرقِ المختلفة القرآن بمقرراتِهم الفكرية السابقة، وقعوا في خطأ الدليلِ والمدلول معاً، أَو أَخطؤوا في الدليل لا في المدلول.

هذه هي أهمُّ أسبابِ الانحرافِ في التفسيرِ عند رجال الفرق، الذين قدموا تفاسير محرفة للقرآن.

أما مظاهر ذلك الانحراف في التفسير فهي أربعة:

١ ـ أن يكونَ المعنى الذي يريدُ المفسرُ نفيَه أو إثباتَه صواباً في نفسِه وليس خطأً، لكنَّ اللفظَ القرآني لا يدلُّ عليه. وحتى يجعلَ المفسرُ معناه قرآنياً، يحملُ عليه ذلك اللفظَ القرآني، ومع ذلك لا ينفي المعنى القرآنيَّ الظاهرَ الذي دلَّ عليه اللفظُ القرآنيُّ حقيقة.

وهذا نسميه: الخطأَ في الاستدلالِ بالقرآن، مع صوابِ المعنى، وعدمِ سلب المعنى الحقيقي القرآني.

مثالُ ذلك تفسيرُ الصوفيِّ «أبي عبد الرحمن السلمي» لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦].

حيث قال: (اقتلوا أنفسكم): وذلك بمخالفة هواها. «أو اخرجوا من دياركم»: «أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم!».

فالمعنى الذي ذكرهُ السُّلميّ صواب، وهو وجوبُ مخالفةِ الهوى، ووجوبُ إخراجِ حُبِّ الدنيا من القلب.

وهو لم يَسلب الأمريْن في الآية ﴿اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم﴾ معناهما الظاهريَّ المراد، وهو قتل النفس حقيقة بإزهاق الروح، والخروجُ من الديار بمغادرتها.

ولكنه أضاف إلى هذا المعنى الظاهريِّ المرادِ معنى آخر، وهو قتلُ الهوى،

وإخراجُ حبِّ الدنيا من القلب.

وهذا خطأٌ في الاستدلالِ لأنَّ اللفظين القرآنيَّيْن القتل والخروج لا يدلان عليه.

٢ ـ المظهر الثاني قريبٌ من الأول، لكنه ليس مثلَه: وهو: أنْ يكونَ المعنى الذي يريدُ المفسِّرُ نفيَه أَو إثباتَه صواباً في نفسه، واللفظُ القرآنيُّ لا يدلُّ عليه، فيسلبُ اللفظ القرآنيَّ معناه الظاهري الذي يدلُّ عليه، وينفيه، ويجعلُه غيرَ مرادٍ من اللفظ، ويحملُه على معناه هو الذي لا يدلُّ عليه اللفظُ القرآني.

وهو في هذه الحالة قد وقعَ في خطأين، وليس خطأً واحداً:

الأول: أنه سلب اللفظ القرآني معناه الصحيح، ونفى عنه المعنى الظاهري المراد منه.

والثاني: أَنه حملَه على معنى آخر لا يدلُّ عليه، ولا يرادُ منه.

مثال ذلك تفسيرُ الصوفيِّ (سهلِ بن عبد الله التَّستري) لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة: ٣٥].

حيث قال: «لم يرُدِ اللهُ معنى الأكل في الحقيقة، وإنما أَرادَ معنى مساكنةِ الهمة لشيء هو غيره».

فالتستريُّ نفى الأكلَ من النهي، مع أنَّ النهيَ يدلُّ عليه، وهذا سلْبٌ له عن معناه المراد، ثم حملَه على أنَّ المراد به الاهتمامُ بغيرِ الله، والإقبالُ على غيره. وهذا غيرُ مرادٍ من النهي، مع أن هذا المعنى صوابٌ في نفسه.

٣ ـ أن يكونَ المعنى الذي يريدُ المفسِّرُ نفيَه أَو إثباته خطأً في نفسه، واللفظُ القرآني لا يدلُّ عليه، فيحملُ المفسرُ اللفظَ القرآنيَّ عليه، ومع ذلك لا ينفي المعنى القرآنيَّ الحقيقي، الذي دلَّ عليه ظاهرُ اللفظ القرآني.

مثال ذلك تفسيرُ الصوفيِّ (ابنِ عربي) لقوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨].

حيث قال: اذكر اسمَ ربِّك الذي هو أنت. أي: اعرفْ نفسَك، ولا تَنْسَها فينساك الله!!.

فالمعنى الذي أرادَ الصوفيُّ ابنُ عربي إثباتَه خطأٌ في ذاته، وهو قولٌ بوحدةِ الوجود، فالربُّ والإنسان عنده شيءٌ واحد، و«اسم ربك» هو: أنت. وهذا ضلالٌ وباطل. وحتى يجعل هذاالمعنى الباطلَ صواباً حَمَلَ عليه الآية، وجعل معنى ذكرِ اسمِ الرّبِّ فيها ذكْرُ النفس وعدمُ نسيانها. وهذا المعنى مردودٌ باطل أيضاً.

ومع هذا التحريف من ابنِ عربي لمعنى الآية فإنه لم ينفِ ظاهراللفظِ المرادِ من الآية.

٤ ـ أنْ يكونَ المعنى الذي يريدُ المفسرُ نفيه أو إثباته خطأً في نفسه، واللفظ القرآني لا يدلُّ عليه، فيحملُ اللفظ القرآني عليه. وحتى يكونَ حمله عليه مقبولاً يسلبُ لفظ القرآن ما دلَّ عليه، وينفي عنه معناه المراد.

وبذلك يكون قد أخطأ في عدة جوانب:

الأول: اعتقادُه المعنى الخطأَ أساساً.

الثاني: بحثُه في القرآنِ عن دليلٍ لاعتقاده الخاطئ.

الثالث: حملُه اللفظ القرآنيَّ عليه مع أنه لا يدل عليه.

الرابع: سلبُ اللفظِ القرآنيِّ معناه الصحيح الذي يدلُّ عليه.

وهذا المظهرُ ينطبقُ على تفاسيرِ أهل البدعِ والمذاهبِ الباطلة.

إنهم يلوون أحياناً لفظ القرآن عن ظاهره المرادِ منه، إلى معنى آخر لا يدل عليه. وذلك كتفسير بعض غلاة الشيعة قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

حيث قالوا: الجبتُ والطاغوتُ هما: أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب!

وأحياناً يحتالون في صرفِ اللفظ القرآني عن ظاهره، إلى معنى آخر لا يدل عليه، وفيه تكلّفٌ وتحريف، وذلك لأنَّ اللفظَ القرآنيَّ يتعارضُ مع مذهبهم الباطل.

وذلك كتفسيرِ بعضِ المعتزلة لقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣].

حيثُ فسروا (إلى) في الآية بالنعمة، وقالوا: (إلى) مفردُ (آلاء) وفي الآية تقديم وتأخير. والتقدير: وجوهٌ ناضرةٌ ناظرةٌ إلى ربها. أي: تنظرُ نعمة ربها!!.

وهذا تحريفٌ لمعنى الآية بتكلفٍ مردودٍ، لأن الآية صريحةٌ في رؤية المؤمنين لربهم في الآخرة، والمعتزلةُ لا يؤمنون بالرؤية، ولذلك تكلَّفوا في صرفها[١].

* * *

(١) انظر هذه المظاهر الأربعة في: مقدمة في أصول التفسير لا بن تيمية، ص٧٩ ـ ٨٢؛ والتفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٢٨١ ـ ٢٨٤.

المبحث الثاني

أشهر الفرق المنحرفة في التفسير

سنعرِّفُ فيما يلي بأشهر الفرقِ التي انحرفَتْ في فهمِ القرآن وتفسيرِ آياته، ولو لم يكن لها تفاسيرُ كاملةٌ للقرآن.

ومن هذه الفرقِ فرقٌ كافرة خارجة من الإسلام نهائياً، ومنها فرقٌ من أهل القبلة، ليسوا كفاراً رغم انحرافاتهم العديدة في فهم القرآن وتفسيره.

من الفرق الكافرة الخارجة عن الإسلام، التي حرفت معاني القرآن:

الإسماعيلية:

وهي فرقةٌ باطنيةٌ كافرة، تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، ويرونَ أنَّ الإمامةَ انتقلتْ من جعفر الصادق إلى ابنه الأكبر إسماعيل، وليس إلى موسى الكاظم كما يقولُ الشيعة الإمامية.

ويسمّون (الباطنية) لقولهم بأن المرادَ من القرآن باطنُه دون ظاهره، وهم فرقةٌ كافرةٌ خارجةٌ من هذا الدين، وتنقسمُ إلى العديد من الطوائف والجماعات.

وليس لهم تفسيرٌ كاملٌ للقرآن، لأنهم لا يستطيعون أن يتمشوا مع القرآن بعقائدهم الباطلة، ولهم نصوصٌ في تحريفِ معاني الآيات، متفرقةٌ في ثنايا كتبهم[(١)].

ومن كتبِ الإسماعيليين في التفسير وتحريف القرآن:

أ ـ أساسُ التأويل: للداعي الإسماعيلي قاضي قضاة الدولة العبيدية في مصر: النعمان بن حيّون التميمي المغربي، المتوفى سنة ٣٦٣هـ.

---

(١) انظر كلام الدكتور الذهبي عن الإسماعيلية في التفسير والمفسرون: ٢/ ٢٣٥ ـ ٢٥٢.

وقد نشره الإسماعيلي عارف تامر، وصدرَ عن دار الثقافة في بيروت.

ب ـ مسائل مجموعة من الحقائق العالية والدقائق والأسرار السامية. لمؤلف إسماعيلي باطني مجهول. ونشره المستشرق الإيطالي (شترو طمان).

جـ ـ مزاج التسنيم في تفسير القرآن. لإسماعيل بن هبة الله بن إبراهيم الإسماعيلي. ونشره المستشرق الإيطالي (شتروطمان)[1].

وقد نجح الباطنيون في إقامةِ الدولة الباطنية العبيدية في مصر، التي أسموها (الدولة الفاطمية)، واستمرت أكثر من قرنين، إلى أن قضى عليها صلاح الدين الأيوبي.

وللإسماعيليين الباطنيين الكفرة فرقٌ معاصرة، قال عنها الدكتور الذهبي: «الباطنية يُعرفون بأسماء عدة، ولا تزالُ منهم بقيةٌ إلى يومنا هذا، في كثيرٍ من بلاد المسلمين:

يوجدون في الهند، ويُعرفون باسم (البُهَرَة) أو الإسماعيلية. وزعيمهم (آغا خان) الزعيمُ الإسماعيلي المعروف.

ويوجدون في تركيا، ويعرفون بالبكداشية. وفي مصر جماعة من البكداشية.

ويوجدون في بلاد العجم، ويعرفون بالبابية.

ويوجدون في فلسطين ويعرفون بالبهائية.

ويوجدون في الهند ويعرفون بالقاديانية![2].

---

(١) انظر تعريف الذهبي بهذه التفاسير وعرضه نماذج من تحريفاتها في التفسير والمفسرون: ٣/ ١٣٧ ـ ١٧٧.

(٢) التفسير والمفسرون: ٢/ ٢٥٣.

وتحريفات القاديانيين لآياتِ القرآن كثيرة، وهم منتشرون في الهند والباكستان، وفي كثير من بلاد الغرب.

و (البابية والبهائية) فرقةٌ باطنيةٌ إسماعيلية كافرة، محرفة لكتاب الله، ظهروا في إيران أولاً، وانتشروا في بلادِ العالمِ بعد ذلك، ومقرُّهم الآن في منطقة جبل الكرمل وحيفا في فلسطين، ومدعومون من اليهود دعماً مباشراً.

وليس للبهائيين الباطنيين تفسيرٌ كامل للقرآن، لكن لهم بعضُ الكتب والرسائل والمقالات في تفسيرِ بعض السور والآيات، تقومُ على تحريف معاني الآيات، وتشهدُ على أصحابها بالكفر.

وقد عرض الدكتور محمد حسين الذهبي نماذجَ من تحريفات البهائيين، وسجَّلَ عبارات لزعمائهم في ذلك، مثل: ميرزا حسين علي الملقب ببهاء الله، المتوفى سنة ١٣٠٩هـ، والمدفون في عكا في فلسطين، وهو مؤسس هذه الطائفة الكافرة. وابنه الميرزا عباس، وداعيتهم أبو الفضائل الإيراني[(١)].

والبهائيون منتشرون في أمريكا وأوروبة، ولهم مراكز عديدة هناك، مدعومة من اليهود والنصارى!.

أمّا الفِرقُ الإسلامية من أهل القبلة التي حرَّفتْ معاني القرآن في تفسيراتها، فمن أشهرها:

١ ـ المعتزلة:

كانت نشأةُ هذه الفرقة في بداية القرن الثاني، ومؤسِّسُها واصل بن عطاء، وكان يجلس في حلقة الحسن البصري العلمية في البصرة، فتكلَّمَ واصلٌ يوماً أمامَ الحسن بكلامٍ خاطئ، فقال له الحسن: اعتزلْ عَنّا يا واصل! فقام من مجلس الحسن مع أصحابه، وجلس في مكانٍ آخر في المسجد، فسمُّوا (المعتزلة) من ذلك اليوم.

---

(١) انظر هذه النماذج في التفسير والمفسرون: ٢/ ٢٥٣ ـ ٢٦٣.

وانتشر مذهب المعتزلة في العصر العباسي الأول، حتى اعتنقه بعض الخلفاء العباسيين، مثل: المأمون والمعتصم والواثق.

ويُلقَّبون بالقَدَرية، لأنهم يُسندون أفعالَ العباد إلى قدرتهم. كما يلقَّبون بالمعطِّلة أيضاً، لأنهم يعطِّلون وينفون بعضَ صفات الله.

وقام فكرُ المعتزلة على أصولٍ خمسة، هي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقد أقامَ المعتزلةُ تفاسيرهم للقرآن على أصولهم الخمسة، أي أنهم تعاملوا مع القرآن بالمقرَّر الفكري المسبق، وهذا أساسُ انحرافهم في تفسير القرآن، الذي نتجت عنه أخطاء عديدة، ولذلك كان خطؤُهم في «الدليل والمدلول معاً».

وهم لا يُحسنون الظنَّ بالأحاديث النبوية، ولا بأقوال الصحابة والتابعين، ويلوون الآياتِ لتشهدَ لآرائهم وأقوالهم الباطلة، ويتحايلون في صرفها عن معناها الصحيح بتكلُّفٍ مرذول إذا كان ظاهرُها ضدَّهم، ويقولون بالمجاز ليأوِّلوا القرآن ويَصرفوه عن ظاهره إذا لم يشهدْ لهم.

ومن أخطر ما ينادون به: أنهم يجعلون العقلَ البشريَّ هو المقياس في قَبول حقائق القرآن وفهم آياته، فالعقلُ عندهم فوق النص، والنصُّ تابعٌ له، وإذا تعارضَ النصُّ القرآنيُّ والعقلُ البشري فيجب تأويلُ النصِّ ليتوافق مع العقل.

وقد أنكر علماء أهل السنَّة على المعتزلة انحرافَهم في تفسير القرآن، وتأويلهم لآياته، وصرْفِ معانيها عن ظاهرها، إلى أمورٍ لا تدلُّ عليها.

قال الإمام عبد الله بن قتيبة: «وفسَّرَ المعتزلةُ القرآن بأعجب تفسير، يريدون أن يردُّوه إلى مذهبهم، ويحملوا التأويلَ على نِحَلِهم..»[1].

وقال الإمام أبو الحسن الأشعري عن تفاسير المعتزلة: «أمّا بعد: فإنَّ أهلَ

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٣٧٩.

الزيغ والتضليل تأوَّلوا القرآنَ على آرائهم، وفسَّروه على أهوائهم، تفسيراً لم يُنزل اللهُ به سلطاناً، ولا أوضحَ به برهاناً، ولا رووه عن رسول رب العالمين، ولا عن أهل بيته الطيبين، ولا عن السلف المتقدمين، من الصحابة والتابعين، افتراءً على الله، قد ضلُّوا وما كانوا مهتدين. . .

وإنما أخذوا تفسيرهم عن أبي الهذيل بيَّاع العَلَف ومُتَّبعيه، وعن إبراهيم نظّام الخرز ومقلِّديه، وعن الفوطيِّ وناصريه، وعن المنسوب إلى قرية (جُبى) ومنتحليه، وعن الأشجِّ جعفر بن حرب ومجتبييه، وعن جعفر بن مبشر القصبي ومتعصبيه، وعن الإسكافيِّ الجاهل ومعظِّميه، وعن الفَرَوي المنسوب إلى مدينة بلخ وذويه. . .

فإنهم قادةُ الضلال، من المعتزلة الجهّال، الذين قلَّدوهم في دينهم، وجعلوهم معولهم الذي عليه يَعولون، وركنهم الذي إليه يستندون. .

ورأيتُ الجُبائيَّ ألَّف في تفسير القرآن كتاباً، أَوَّلَه على خلاف ما أنزل الله، وعلى لغة أهل قريته المعروفة بجُبىٰ، وليس من أهل اللسان الذي نزل به القرآن، وما روىٰ في كتابه حرفاً عن أحدٍ من المفسرين، وإنما اعتمد على ما وسوسَ به صدرُه وشيطانُه. . »[1].

وقال الإمام ابن تيمية عن تفاسيرهم أيضاً: «إنَّ مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً، ثم حملوا ألفاظَ القرآن عليه، وليس لهم سلفٌ من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم.

وما من تفسيرٍ من تفاسيرهم الباطلة إلاّ وبطلانُه يظهرُ من وجوهٍ كثيرة. وذلك من جهتين: تارةً من العلم بفساد قولهم، وتارةً من العلم بفساد ما فسَّروا به القرآن، إمّا دليلاً على قولهم، أو جواباً على المعارض لهم. .

ومن هؤلاء من يكون حسنَ العبارة، فصيحاً، ويدسُّ البدعَ في كلامه،

---

(١) التفسير والمفسرون: ١/ ٣٨٥ـ٣٨٦.

وأكثرُ الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف . . »[1].

ومن علماء المعتزلة الذين كتبوا تفاسير كاملة للقرآن: أبو بكر عبد الرحمن ابن كيسان الأصم، المتوفى سنة ٢٤٠هـ. وأبو علي محمد بن عبد الوهاب الجُبائي المتوفى سنة ٣٠٣هـ. وأبو القاسم عبد الله بن أحمد البلخي المعروف بالكعبي، المتوفى سنة ٣١٩هـ. وأبو مسلم محمد بن بحر الأصفهاني، المتوفى سنة ٣٢٢هـ، وتفسيره (جامع التأويل لمحكم التنزيل) من أشهر تفاسير المعتزلة، وأبو الحسن علي بن عيسى الرماني، المتوفى سنة ٣٨٤هـ، وتفسيره (الجامع لعلم القرآن). والقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني المتوفى سنة ٤١٥هـ، وتفسيرُه (التفسير الكبير) معتمدٌ عند المعتزلة. وأبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، المتوفى سنة ٥٣٨هـ.

ولم يصلْنا من تفاسير هؤلاء الأعلام السبعة إلا تفسير (الكشاف) للزمخشري[2]، وسنتحدث عنه في مبحثٍ قادم إن شاء الله.

٢ ـ الشيعة:

الشيعةُ في الأصل هم الذين شايعوا وناصروا عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه، واعتبروه هو الإمام بعدَ رسول الله ﷺ، والخلافةُ حقٌّ له ولذريته من بعده.

وانقسمَ الشيعةُ إلى عددٍ كبير من الطوائف والمذاهب. من أشهرها:

أ ـ الزيدية: أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، حيث خرج على الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، ولكنَّ أتباعه خذلوه فقُتل وصُلب.

والزيديةُ موجودون في شمال اليمن، وهم أقربُ فرقِ الشيعة إلى أهل السنّة، وهم متأثِّرون كثيراً بالمعتزلة في أفكارهم.

---

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية، ص٨٥ـ٨٦.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي: ١/ ٣٨٧ ـ ٣٩١؛ وانظر كلام الذهبي عن المعتزلة: ١/ ٣٦٨ـ٤٢٩.

ولهم عدةُ تفاسـير للقرآن الكريم، لكنها مفقودةٌ أو مخطوطـة. واعتبرَ الدكتـورُ الذهبي (فتح القدير) للشـوكاني من تفاسـير الزيدية، لكننا لا نعتبره كذلك، لأنه عادَ إلى مذهب أهل السنة، وعَدَدْنا تفسيرَه من كتب التفسير الأثري النظري[١].

ب ـ الإماميـة الإثنا عشرية: وهم جمهورُ الشـيعة، موجودون في إيران والعراق. يُسَمَّوْن (الإمامية) لأنهم يقولون بوجوب الإمام، وأنه معيَّنٌ من عند الله، وأنَّ الإمامةَ محصورةٌ في نسل الحسين بن علي رضي الله عنه.

ويُسمَّون (الإثناعشرية) لأنَّ الأئمةَ عندهم اثنا عشر إماماً، وهم: عليُّ بن أبي طالب، ثم ابنُه الحسن، ثم أخوه الحسين، ثم ابنُه علي زين العابدين، ثم ابنُه محمد الباقر، ثم ابنُه جعفر الصادق، ثم ابنُه موسى الكاظم، ثم ابنُه علي الرضا، ثم ابنُه محمد الجواد، ثم ابنُه علي الهادي، ثم ابنُه الحسن العسكري، وأخيراً ابنُه محمد المهدي المنتظر، الإمام الثاني عشر، الذي يزعمون أنه دخل سرداباً في دار أبيه، وأنه سيخرج في آخر الزمان.

ويُسـمَّوْن (الجعفرية): نسبةً إلى جعفر الصادق، الذي يتَّبعون مذهبـه الفقهي.

وأشهرُ تعاليم الشيعة الإمامية الإثني عشرية: عصمةُ الأئمة، وخروجُ المهدي المنتظر الإمام الثاني عشر.

---

(١) انظر تعريف الذهبي بالشيعة وتفاسيرهم في: التفسير والمفسرون: ٢/ ٢٨٠ ـ ٢٩٩.

وقد أوردَ الدكتور محمد حسين الذهبي نماذجَ لتحريف الشيعة لمعاني الآيات من كتابهم الأساسيِّ الذي يرجعون إليه، ويؤمنون بكلِّ ما فيه، هو كتاب (الكافي) لأبي جعفر: محمد بن يعقوب بن إسحاق الكليني الرازي، المتوفى سنة: ٣٢٨هـ.

من الأمثلة على ذلك: قال الكليني في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] الميت: الذي لا يَعرفُ شيئاً. والنورُ الذي يمشي به في الناس: الإمامُ الذي يُؤتَمُّ به. والذي هو في الظلمات ليس بخارجٍ منها: هو الذي لا يعرفُ الإمام»[٢].

وقال الكليني عن أبي عبد الله جعفر الصادق: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ﴾: هي فاطمةُ عليها السلام. ﴿فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾: الحسينُ عليه السلام. ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾: الحسينُ عليه السلام. ﴿ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ﴾: فاطمةُ كوكبٌ دريٌّ بين نساء أهل الدنيا. ﴿يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾: إبراهيم عليه السلام. ﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾: لا يهودية ولا نصرانية. ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ﴾: يكادُ العلمُ ينفجرُ بها. ﴿وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾: إمامٌ من الأئمة بعدَ إمام. ﴿يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾: يهدي الله للأئمة مَنْ يشاء.

﴿ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾: معاويةُ لعنه الله، وفِتَنُ بني أمية. ﴿إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا﴾: المؤمنُ في ظلمة فتنة بني أمية. ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا﴾: مَنْ

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ٢/ ٧ـ ٤١.

(٢) المرجع السابق: ٣/ ١٨٣.

ليس له إمامٌ من ولد فاطمة عليها السلام. ﴿فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾: ليس له إمامٌ يومَ القيامة[1].

ونُحيلُ على تلك النماذج العجيبة الغريبة التي نقلها الدكتور الذهبي عن كتاب الكليني[2].

وللشيعة الإمامية تفاسير عديدةٌ، قديمة وحديثة، ذكر الدكتور محمد حسين الذهبي ثلاثةَ عشر منها: تفسيرُ الحسن العسكري، المتوفى سنة ٢٥٤هـ. وتفسير محمد بن عياش السلمي المشهور بالعياشي، من علماء القرن الثالث. وتفسير علي القمي، من علماء القرن الثالث أيضاً. وتفسير التبيان لأبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي، المتوفى سنة ٤٦٠هـ. وتفسير مجمع البيان لأبي علي الفضل ابن الحسن الطبرسي، المتوفى سنة ٥٣٨هـ. وتفسير الصافي لملا محسن الكاشي، من علماء القرن الحادي عشر. وتفسير الأصفى للمؤلف السابق، وهو اختصار الصافي. وتفسير البرهان لهاشم بن سليمان البحراني، المتوفى سنة ١١٠٧هـ. وتفسير مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار لأبي الحسن العاملي، المتوفى سنة ١١٣٨هـ. وتفسير المولى السيد عبد الله العلوي، المتوفى سنة ١٢٤٢هـ. وتفسير آلاء الرحمن في تفسير القرآن لمحمد جواد النجفي، المتوفى سنة ١٣٥٢هـ[3].

وسنتحدث عن بعض هذه التفاسير في المبحث القادم إن شاء الله.

٣ ـ الخوارج:

الخوارج هم الفرقة المغاليةُ المقابلةُ للشيعة، والمناقضةُ لها، فإذا كان الشيعةُ قد غالوا في حبِّ وولاية عليٍّ رضي الله عنه وذريته، فإنَّ الخوارجَ قد غالوا في كره عليٍّ وذريته وتكفيره.

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ٣/ ١٨٤. نقلاً عن الكافي للكليني: ١/ ١٨٥.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ١٨٧ ـ ١٨٨ نقلاً عن الكافي للكليني: ١/ ١٩٥.
(٣) المرجع السابق: ٢/ ٤٢ ـ ٤٤.

وكانت بدايةُ الخوارج إنكارَهم على عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه، عندما رضي بالتحكيم في قتاله مع معاوية رضي الله عنه في معركة صفين، وكانوا في جيش علي، فخرجوا عليه، وانفصلوا عن جيشه، وبعد ذلك كفَّروه، وأدَّى بهم الأمر إلى قتله، حيث قتله الخارجيُّ عبد الرحمن بن ملجم قاتله الله!.

وانقسم الخوارجُ إلى طوائف عديدة، وخرجوا على الخلفاء الأمويين والعباسيين، وقتلوا المسلمين، وكفَّروا مرتكبَ الكبيرة.

وأهمُّ فرق الخوارج هي: الأزارقة، والنجدات، والصفرية، والإباضية.

وإذا كان الشيعةُ الزيدية أقربَ فرق الشيعة إلى أهل السنة، فإنَّ الإباضية ـ أتباع عبد الله بن إباض ـ هم أقربُ فرق الخوارج إلى أهل السنة.

ولم يبقَ من فرق الخوارج إلاّ (الإباضية)، وهم موجودون في وسط الجزائر وتونس، وفي زنجبار، وفي سلطنة عمان، وسلطنة عمان تتبع مذهب الإباضية في الفقه والعقيدة!.

ومن الطبيعيّ أن يلجأَ الخوارجُ إلى القرآن، لتدعيم آرائهم والاستدلال لها، والردِّ على الأفكار المخالفة لهم، وبهذا كانوا يُخطئون في تفسير الآيات، ويَحملونها على ما يريدون، ويَصرفونها عن ظاهرها.

قال الدكتور الذهبي: «إنَّ الخوارجَ عندما ينظرون إلى القرآن لا يتعمَّقون في التأويل، ولا يغوصون وراءَ المعاني الدقيقة، ولا يكلِّفون أنفسَهم عناءَ البحث عن أهداف القرآن وأسراره، بل يقفون عند حرفية ألفاظه، وينظرون إلى الآيات نظرةً سطحية، وربما كانت الآيةُ لا تنطبقُ على ما يقصدون إليه، ولا تتصل بالموضوع الذي يستدلّون بها عليه..

ولقد يعجبُ الإنسانُ ويُدهش عندما يقرأُ ما للقوم من سخافاتٍ في فهمهم لبعض نصوص القرآن، أوقعَهم فيها التنطُّع، والتمسُّك بظواهر النصوص».

روى المبردُ في (الكامل) أنَّ واصل بن عطاء مؤسِّس المعتزلة وقعَ هو

وأصحابُـه في يد الخوارج، وهم سـيقتلونهم لأنهم ليسوا معهم. فقال واصلٌ لأصحابه: دَعوني وإياهم!.

فخرج واصلٌ إلى الخوارج. فقالوا له: ما أنتَ وأصحابُك؟

قال: نحن مشركون مستجيرون بكم لنسمعَ منكم كلامَ الله!!

فقالوا له: قد أجرناكم!! ولو كنتم من الآخرين لقتلناكم.

وصاروا يعلِّمونهم أحكامَهم، وهو يقول لهم: قد قبلتُ أنا ومن معي ما عندكم! ثم قالوا لهم: امضوا آمنين فأنتم إخوانُنا! فقال لهم واصل: ليس ذلك لكم، بل عليكم أن تبلِّغونا مأمننا، لأنَّ الله قال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦].

قالوا: صدقت. فساروا معهم حتى بَلَغوا مأمنَهم!![١].

ونتاجُ الخوارج في التفسير قليل، بعكس المعتزلة والشيعة الإمامية، الذين خلَّفوا عشرات التفاسير.

من التفاسير التي ذُكرت للخوارج: تفسيرُ عبد الرحمن بن رستم الفارسي، من علماء القرن الثالث. وتفسيرُ يوسف بن إبراهيم الورجلاني، من علماء القرن السادس. وتفسير محمد بن يوسف أَطَّفَيِّشْ من علماء العصر الحاضر، وهو الوحيد الموجود، وسنعرِّف به في المبحث القادم إن شاء الله[٢].

٤ ـ المتصوفة:

المتصوفةُ من الفرق التي لها تأويلاتٌ بعيدة في تفسير القرآن، صَرفت اللفظَ القرآنيَّ عن ظاهره المراد، ونقلتْه عن معناه الحقيقي، وانحرفت به إلى معانٍ أخرى ليست مرادةً من اللفظ، ولا يدلُّ عليه، ولهذا تصنَّفُ ضمن الاتجاهات المنحرفة في التفسير.

(١) التفسير والمفسرون: ٢/ ٣١٠ ـ ٣١١.

(٢) انظر تعريف الذهبي للخوارج وتفاسيرهم في: التفسير والمفسرون: ٢/ ٣٠٠ ـ ٣١٨.

والتصوُّفُ بمعناه النظريِّ الفلسفيِّ وافدٌ على التصور الإسلامي، ولم يكن بين الصحابة والتابعين وتابعيهم. وإن كان بمعناه العمليّ موجوداً في تعاليم الإسلام وحياة السلف الصالح.

إنَّ المعنى العمليَّ للتصوف قائمٌ على الزهد في الدنيا، وتزكية النفس، والإقبال على الله، والاشتغال بالعبادة والعمل الصالح، وتوجيهاتُ القرآن والسنّة كثيرةٌ حول هذه المعاني، وحياةُ الصحابة والتابعين قامت عليها.

ولا نرى استخدامَ مصطلح (التصوف) و(الصوفية) لأنه مصطلحٌ وافدٌ غريب، ولأنَّ معناه النظريَّ دخيلٌ أيضاً، ونفضِّل استخدامَ مصطلحات الكتاب والسنّة، مثل: التربية، والتزكية، والزهد، والقناعة..

والفِرقُ الصوفية كثيرة، وهي عديدةُ الطرق، فهذه طريقة كذا، وهذه فرقة كذا، تتبعُ الشيخَ فلان. وبينها كثيرٌ من الخلاف!.

وقد دخل الصوفيةُ عالمَ القرآن بالمقرَّر الفكري المسبق ـ كما فعلَ المعتزلةُ والشيعة والخوارج ـ ووظَّفوا آيات القرآن لتشهدَ لآرائهم وأفكارهم وأقوالهم، وذهبوا إلى أنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً، وفسَّروه بالتفسيرات الإشارية والتأويلات الباطنية، وهي تحريفٌ لحقائقه ومعانيه.

قال الدكتور الذهبي: «وُجِدَ من المتصوفة مَنْ بنى تصوُّفَه على مباحث نظرية، وتعاليمَ فلسفية، فكان من البدهيِّ أن ينظر هؤلاء المتصوفةُ إلى القرآن نظرةً تتمشَّى مع نظرياتهم، وتتفق مع تعاليمهم.

وليس من السهل أن يجدَ الصوفيُّ في القرآن ما يتفقُ صراحةً مع تعاليمه، ولا ما يتمشَّى بوضوحٍ مع نظرياته التي يقول بها.. وحرصاً منه على أن تَسْلمَ له تعاليمُه ونظرياته، يحاول أن يجدَ في القرآن ما يشهدُ له أو يستند عليه.. فتراه من أجل هذا يتعسَّفُ في فهمه للآيات القرآنية، ويشرحها شرحاً يخرجُ به عن ظاهرها الذي يؤيِّدُه الشرع، وتشهدُ له اللغة..

ونستطيع أن نعتبرَ الأستاذ الأكبر (محيي الدين بن عربي) شيخَ هذه الطريقة في التفسير، إذ أنه أظهرُ مَنْ خَبَّ فيها ووَضَع، وأكثرُ أصحابه معالجةً للقرآن على طريقـة التصوُّف النظري، وإن كان له من التفسير الإشاري ما يجعلُه في عداد المفسّرين الإشاريين، إن لم يكن شيخَهم أيضاً . . »[1].

ولشـيخ الصوفيـة محيي الدين بن عربي تفسيرٌ، اسمه (تفسير ابن عربي) يشـكِّكُ كثيرون في نسبتهم إليه، لِما فيه من تحريفٍ لمعاني القرآن يصلُ إلى حدِّ الكفر.

ولـه كتبٌ ثابتـةٌ له، لم يشـكّ أحدٌ في نسبتها إليه، ومن أشهرها اثنـان: (فصوص الحكم) و(الفتوحات المكية) وفي هذين الكتابَين تفسيراتٌ كثيرة لآيات القرآن هي انحرافٌ في التفسير، وتحريفٌ له.

وقد كان (ابنُ عربي) ممَّن يدينُ بنظرية وحدة الوجود الكافرة، التي ترى أنَّ الوجودَ كلَّه وحدةٌ واحدة، اتَّحدَ فيها الخالقُ والمخلوق، واجتمع فيها الربُّ والعبد، وصارا شيئاً واحداً، الإنسانُ هو مظهرٌ ماديٌّ للربِّ وانعكاسٌ له. وهذا كفرٌ صريح.

ولذلك ألَّفَ الإمامُ المفسّر برهان الدين البقاعي كتاباً سمَّاه (تنبيهُ الغبيِّ إلى تكفير ابن عربي).

ونكتفي بذكر هذا المثال من تحريفات ابن عربي لمعاني الآيات:

قال في كتابه (فصوص الحكم) في تفسير قوله تعالى: ﴿فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ۝٢٩ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٩ ـ ٣٠]:

«ادخلي جنَّتي التي هي سِتْري، وليست جنتي سواك، فأنتَ تستُرني بذاتِك الإنسانية، فلا أُعْرَفُ إلاّ بك، كما أنك لا تكون إلا بي، فمنْ عرفَك عرفَني، وأنا لا أُعرفُ فأنتَ لا تُعرَفُ، فإذا دخلْتَ جنتي دخلْتَ نفسَك، فتعرفَ نفسَك معرفةً

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ٢/ ٣٤٠.

أخرى، غيرَ المعرفة التي عرفْتها حين عرفتَ ربَّك بمعرفتك إياها. . فتكون صاحبَ معرفتين: معرفة به من حيثُ أنت، ومعرفة به بك، من حيث هو، لا من حيث أنت. . فأنتَ عبدٌ رأيتَ ربّاً، وأنتَ ربٌّ لمن له فيه أنتَ عبد، وأنتَ ربٌّ وأنتَ عبدٌ لمن له في الخطاب عهد!!»(١).

ومن تفاسير الصوفية المنحرفة تفسيراتهم الإشارية.

وقد عرَّفَ الدكتور الذهبي التفسيرَ الإشاريَّ بقوله: «التفسيرُ الفيضي أو الإشاري هو: تأويلُ آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهرُ منها، بمقتضى إشاراتٍ خفيّة تظهر لأرباب السلوك، ويمكن التوفيقُ بينها وبين الظواهر المرادة»(٢).

ووضع الذهبيُّ شروطاً لابدَّ من توفُّرها في التفسير الإشاري ليكون مقبولاً:

١ ـ أن لا يكون التفسيرُ الإشاريُّ منافياً للظاهر من النظم القرآني.

٢ ـ أن يكون له شاهدٌ شرعيٌّ يؤيده.

٣ ـ أن لا يكون له مُعارضٌ شرعيٌّ أو عقلي.

٤ ـ أن لا يدَّعيَ أنَّ التفسيرَ الإشاريَّ هو المراد وحدَه دون الظاهر. فلابدَّ أن نعترفَ بالظاهر أولاً(٣).

ومن كتب التفسير الإشاريِّ الصوفي:

١ ـ تفسير القرآن العظيم لأبي محمد: سهل بن عبد الله التُّسْتري، المتوفى سنة ٢٧٣ هـ.

٢ ـ حقائقُ التفسير، لأبي عبد الرحمن: محمد بن الحسين السلمي، المتوفى سنة ٤١٢ هـ.

---

(١) التفسير والمفسرون: ٢/ ٣٤٢. نقلاً عن فصوص الحكم لابن عربي: ١/ ١٩١ ـ ١٩٣.
(٢) المرجع السابق: ٢/ ٣٥٢.
(٣) المرجع السابق، ص٣٧٧.

٣ ـ عرائس البيان في حقائق القرآن، لأبي محمد روزبهان بن أبي النصر البقلي الشيرازي الصوفي، المتوفى سنة ٦٠٦هـ.

٤ ـ التأويلات النجمية، لنجم الدين داية وعلاء الدولة السمناني.

ابتدأ تأليفَه نجمُ الدين: عبد الله بن محمد بن شاهاور الرازي المعروف بداية. ومات سنة ٦٥٤هـ قبل إكماله، فأكملَه من بعده علاءُ الدولة: أحمد بن محمد السمناني، المتوفى سنة ٧٣٦هـ.

٥ ـ تأويلات القرآن، المشهور بتفسير ابنِ عربي. مطبوعٌ على هامش عرائس البيان لأبي محمد الشيرازي.

وهو منسوبٌ لابن عربي: محيي الدين: محمد بن علي بن محمد الحاتمي الطائي الأندلسي، المولود بمرسية في الأندلس سنة ٥٦٠هـ والمتوفى في دمشق سنة ٦٣٨هـ.

ويرجِّحُ كثيرون أنه ليس من تأليف ابن عربي وإنما هو من تأليف أبي الغنائم عبد الرزاق الكاشاني السمرقندي، المتوفى سنة ٧٣٠هـ، ونسبَهُ هذا الباطنيُّ لابنِ عربي ليضمن له الذيوعَ والانتشار![1].

٥ ـ مُدَّعو التجديد:

ظهرَ مُدَّعو التجديد في العصر الحديث، وأدرجْناهم ضمن الفرق المنحرفة في التفسير، لأنهم يَدْعون إلى التجديد المفتوح في تفسير القرآن، التجديد غير المنضبط بالضوابط والشروط المنهجية لمن يريد أن يفهمَ القرآن ويفسّرَه، بحيث يقول مَن شاءَ ما شاء في تفسير القرآن، بدون علمٍ أو معرفة، وإنما بالجهل والهوى والمزاج، ويقدِّمُ كلاماً في التفسير ما أنزلَ اللهُ به من سلطان، وهو تحريفٌ لمعاني القرآن، وانحرافٌ بعلم التفسير!.

---

(١) انظر كلام الدكتور الذهبي عن الصوفية وتفاسيرهم في: التفسير والمفسرون: ٢/ ٣٣٧ ـ ٤١٦.

وهؤلاء الدعاةُ إلى التجديد غير المنضبط متأثِّرون بالفرق السابقة المنحرفة في تفسير القرآن، فمنهم مَن هو استمرارٌ لفكر المعتزلة المبالغ في تقدير العقل، ومنهم من هو استمرارٌ لفهم الصوفية المغرق في التأويل والتحريف والإشارات البعيدة غير المقبولة، ومنهم من هو امتدادٌ لفهم الشيعة الإمامية الغريب، أو للتأويل الباطني العجيب.. ومنهم المبالغُ في التفسير العلمي، اللاهثُ وراءَ النظريات العلمية الغريبة التي لم تثبت، ومنهم المتأثرُ بالمذاهب الفكرية الغريبة الجاهلية المعاصرة، ويريدُ إسقاطَها على القرآن، لتحريف حقائق القرآن ومعانيه، ومنهم المعجَبُ بالقيم والحياة الغربية الجاهلية الكافرة المخالفة لحقائق القرآن، ومنهم المتأثرُ بالدعايات اليهودية أو النصرانية أو الماركسية أو الرأسمالية أو الوجودية أو العالمية أو الماسونية ويريد أنْ يوفِّقَ بينها وبين حقائق القرآن المخالفة لها... ومنهم ومنهم..

ومعظم هؤلاء لم يفسّروا القرآن كاملاً، إنما أصدروا دراساتٍ وألَّفوا كتباً، فسَّروا بها بعضَ الآيات تفسيراً منحرفاً، وصَرَفُوا معاني الآيات إلى الباطل.

من التفاسير المعاصرة التي انحرفَ فيها مؤلِّفوها قليلاً أو كثيراً، وحرَّفوا الكثيرَ من معاني الآيات، وصَرَفوها وأوَّلوها، وقَوَّلوها ما لم تقل، واستنبطوا منها ما ليس منها:

١ ـ الهدايةُ والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن. لأبي زيد الدمنهوري. طبع سنة ١٣٤٩هـ.

٢ ـ الجواهرُ في تفسير القرآن. للشيخ طنطاوي جوهري. طبع سنة ١٣٥١هـ.

٣ ـ التفسيرُ القرآني للقرآن. لعبد الكريم الخطيب. طبع سنة ١٩٦٧م.

وليست هذه التفاسيرُ الثلاثة على مستوى واحد من الانحراف، فانحرافُ الدمنهوريِّ صاحب التفسير الأول كان بعيداً، وكان الرجلُ خبيثاً مغرضاً، وقد

صودرَ تفسيرُه من قِبَل المحكمة في مصر لانحرافه وضلاله[1].

أما الشيخ طنطاوي جوهري فقد كان عالماً فاضلاً، صادقَ النية، ولكنَّ الانحرافَ في تفسيره (الجواهر) كان في خروجه عن النص القرآني الذي يفسّره، إلى المباحث العلمية المعاصرة، واستطراداته العلمية العديدة، وغلوِّه ومبالغته في ذلك، بحيث يصحُّ أن يقال عنه: فيه كلُّ شيءٍ إلا التفسير[2]..

وعبدُ الكريم الخطيب يبالغُ في تفسيره في اعتماد دور العقل، وجعلِه حاكماً على النص القرآني، وهو متأثرٌ بالأفكار المعاصرة حول: المرأة، والغيبيات، والجهاد، واليهود والنصارى، والتشريع، والنسخ[3].

ومن الكتب والدراسات المعاصرة المنحرفة، التي انحرفَ فيها أصحابُها في فهم القرآن وتفسيره:

١ ـ الفنّ القصصي في القرآن للدكتور محمد أحمد خلف الله.

٢ ـ القرآن محاولةٌ لفهمٍ عصري. للدكتور مصطفى محمود.

٣ ـ مفهوم النص. للدكتور نصر حامد أبو زيد.

٤ ـ الكتاب والقرآن. دراسة معاصرة. للدكتور محمد شحرور.

* * *

---

(١) انظر حديث الذهبي عن تفسير الدمنهوري في: التفسير والمفسرون: ٢/ ٥٣٢ ـ ٥٤٦.

(٢) انظر المرجع السابق: ٢/ ٥٠٥ ـ ٥١٧.

(٣) انظر حديث الدكتور عبد المجيد المحتسب عن تفسير الخطيب في كتابه: اتجاهات التفسير في العصر الحديث، ص٧١ ـ ٩٩.

المبحث الثالث

أشهر التفاسير المنحرفة

كان كلامُنا في المبحث السابق عن أشهر الفرق المنحرفة في فهمها للقرآن وتفسيره، وعرَّفْنا بكلِّ فرقةٍ تعريفاً مجملاً لا يعدو أن يكون رؤوس أقلام.

والفِرقُ التي تحدَّثنا عنها هي: الإسماعيلية الباطنية، والمعتزلة، والشيعة الإمامية، والخوارج، والصوفية، ومُدَّعو التجديد.

وسنعرِّفُ في هذا المبحث تعريفاً مجملاً بأشهر التفاسير المنحرفة، التي فسَّر أصحابُها فيها القرآن على مناهج تلك الفرق المنحرفة.

وسنختارُ أشهرَ التفاسير المعتمدة عند تلك الفرق، بشرط أن تكونَ تفاسيرَ كاملة للقرآن كلِّه، حسبَ ترتيب المصحف، وأن تكونَ تفاسير مطبوعة، ليست مخطوطةً ولا مفقودة.

أمّا الإسماعيليون الباطنيون الكافرون فليس لهم تفاسير كاملةٌ مطبوعة على اختلاف طوائفهم: البهرة الآغاخانيون، والبهائيون، والدروز، والنصيريون.

وأمّا المعتزلةُ فأشهر تفاسيرهم المطبوعة تفسيرُ الكشاف للزمخشري، وسنخصصُ له المبحثَ القادم إن شاء الله.

١ ـ تفسير مجمع البيان للطَّبْرَسيّ:

هذا التفسيرُ من أهمِّ تفاسير الشيعة الإمامية الإثني عشرية، وهو من التفاسير المعتمدة عندهم.

اسمه (مجمع البيان لعلوم القرآن).

ومؤلفه هو: أبو علي الفضلُ بن الحسن بن الفضل، الطَّبْرَسيّ، المشهدي، المتوفى ليلة عيد الأضحى، سنة ٥٣٨هـ.

واستمدَّ الطبرسيُّ تفسيرَه من كتاب (التبيان في تفسير القرآن) للشيخ أبي جعفر: محمد بن الحسن بن علي الطوسي، المتوفى سنة ٤٦٠هـ. وهو من أمهات كتب التفسير عن الشيعة الإمامية.

فرغَ الطبرسيُّ من تفسيره (مجمع البيان) سنة ٥٣٤هـ. قبلَ وفاته بأربع سنوات.

وقدَّم الطبرسيُّ لكتابه بمقدمة، تحدَّث فيها عن أهمية التفسير، وعن رغبته في تأليف تفسيرٍ للقرآن منذ الشباب، ومَدَحَ تفسير (التبيان) للطوسي، وذكرَ في المقدمة سبعة علومٍ من علوم القرآن.

ومما قاله في المقدمة عن تفسيره: «وقدَّمتُ في مطلع كلِّ سورةٍ ذكْرَ مكيِّها ومدنيِّها، ثم ذكْرَ الاختلاف في عدد آياتها، ثم ذكرتُ تلاوتَها، ثم أقدِّمُ في كلِّ آيةٍ الاختلافَ في القراءات، ثم أذكر العللَ والاحتجاجات، ثم أذكر العربية واللغات، ثم أذكر الإعراب والمشكلات، ثم أذكر الأسباب والنزولات، ثم أذكر المعاني والأحكام والتأويلات، والقصصَ والجهات، ثم أذكر انتظام الآيات. . على أني جمعْتُ في عربيته كلَّ غرَّةٍ لائحة، وفي إعرابه كلَّ حجةٍ واضحة، وفي معانيه كلَّ قولٍ متين، وفي مشكلاته كلَّ برهانٍ مبين. فهو بحمدِ الله للأديب عمدة، وللنحويِّ عدَّة، وللمقرئ بصيرة، وللناسك ذخيرة، وللمتكلم حجة، وللمحدِّث محجة، وللفقيه دلالة، وللواعظ آلة . .

وسمَّيتُه (مجمعَ البيان لعلوم القرآن)»[1].

وقد عرَّفَ الدكتور الذهبي بتفسير الطبرسي، ونقل منه نقولاً تدلَّ على تشيُّع الطبرسي، ونظرته إلى: إمامة علي رضي الله عنه، وعصمة الأئمة، والرجعة،

---

(١) التفسير والمفسرون: ٢/ ١٠٣.

والمهدي، والتقية، ونكاح المتعة، وفرْض الرجلين في الوضوء، ونكاح الكتابيات، والغنائم[1] . .

كما نقلَ نقولاً أخرى تدلُّ على تأثره بالمعتزلة في مسائل: الهدى والضلال، ورؤية الله، والسحر، والشفاعة، وحقيقة الإيمان.

وقوَّمَ الدكتور الذهبي تفسيرَ الطبرسي ـ أهمَّ تفاسير الشيعة عندهم ـ بقوله: «والحقُّ أنَّ تفسيرَ الطبرسي ـ بصرف النظر عمَّا فيه من نزعاتٍ تشيُّعيَّةٍ وآراء اعتزالية ـ كتابٌ عظيم في بابه، يدلُّ على تبحُّر صاحبه في فنونٍ مختلفة من العلم والمعرفة، والكتابُ يجري على الطريقة التي أوضحَها لنا صاحبُه، في تناسقٍ تام، وترتيبٍ جميل.

وهو يجيدُ في كلِّ ناحيةٍ من النواحي التي يتكلَّمُ عنها: فإذا تكلَّمَ عن القراءات ووجوهها أجاد، وإذا تكلمَ عن المعاني اللغوية للمفردات أجاد، وإذا تكلمَ عن وجوه الإعراب أجاد، وإذا شرحَ المعنى الإجمالي أوضحَ المراد، وإذا تكلمَ عن أسباب النزول وشرح القصص استوفى الأقوال وأفاض، وإذا تكلمَ عن الأحكام تعرَّضَ لمذاهب الفقهاء، وجهرَ بمذهبه ونصرَهُ إنْ كانت منه مخالفة للفقهاء، وإذا ربطَ بين الآيات آخى بين الجمل، وأوضحَ لنا عن حسنِ السبك وجمالِ النظم، وإذا عرضَ لمشكلات القرآن أذهبَ الإشكالَ وأراحَ البال، وهو ينقلُ أقوالَ مَنْ تقدَّمَهُ من المفسِّرين معزوَّةً لأصحابها، ويرجِّحُ ويوجِّه ما يختار منها . . .

وإذا كان لنا بعضُ المآخذ عليه فهي: تشيُّعُه لمذهبه، وانتصارُه له، وحملُه لكتاب الله على ما يتفقُ وعقيدتَه، وتنزيلَه لآيات الأحكام على ما يتناسب مع الاجتهادات التي خالفَ فيها هو ومَنْ على شاكلته، وروايته لكثيرٍ من الأحاديث الموضوعة . .

غير أنه ـ والحق يقال ـ ليس مغالياً في تشيُّعه، ولا متطرِّفاً في عقيدته . . .

---

(١) انظر دراسة الدكتور الذهبي عن تفسير الطبرسي في: التفسير والمفسرون: ٢/ ٩٩ـ١٤٤ .

إنه يميلُ بالآيات القرآنية إلى المعاني التي تتفقُ ومذهبَه، ويحاولُ بكلِّ قواه الجدلية العنيفة أن يُقيمَ مذهبَه على أسسٍ من القرآن الكريم، وأنْ يَرُدَّ ما يصادمه من ظواهر النصوص القرآنية، ويدفَعُ بها في وجهِ خصمه...»[1].

٢ ـ البرهان في تفسير القرآن لهاشم البحراني:

إذا كان تفسيرُ مجمع البيان للطبرسي من التفاسير المتقدمة للشيعة الإمامية، وهو من أجود تفاسيرهم وأكثرها اعتدالاً ـ على ما فيه من تشيُّع ـ فإنَّ تفسيرَ البرهان للبحراني من التفاسير المتأخرة للشيعة الإمامية.

مؤلِّفُه هو: هاشمُ بن سليمان بن إسماعيل، الحسيني، البحراني. ولد في قريـة (كتكان)، من قرى بلدة (توبَلى)، في البحرين، الإمارة العربية المعروفـة ـ ومعروفٌ أنَّ عدداً من سكان البحرين من الشيعة الإمامية ـ.

لم يذكر مترجموه سنةَ ولادته، وذكروا أنَّه توفي في البحرين سنة ١١٠٧هـ، أو سنة ١١٠٩هـ.

وكتابه (البرهان في تفسير القرآن) طبعَ في طهران سنة ١٣٧٥هـ في أربعة مجلدات.

وألَّفَ هاشمُ البحراني أكثر من أربعين كتاباً في التفسير والفقه والتاريخ، على أساس المذهب الشيعي الإمامي.

قدَّمَ هاشم البحراني لتفسيره بمقدمةٍ ذكر فيها قصةَ تأليفه، وأهداه للسلطان الشيعي شاه بهادرخان، وتحدَّثَ عن تفاسير الشيعة، وعن الرواية عنهم.

ومما قالَه في مقدمة تفسيره: «.. يقولُ مؤلفُه فقيراً إلى الله الغني، عبده: هاشم بن سليمان بن إسماعيل الحسيني البحراني: إني جعلْتُ قبلَ المقصودِ مقدمةً فيهاأبوابٌ تشتمل في الكتاب، وسمَّيتُه (البرهان في تفسير القرآن)، وهو

---

(١) التفسير والمفسرون: ٢/ ١٠٤ ـ ١٠٥.

قد اشتملَ على كثيرٍ من أهل البيت عليهم السلام، الذين نزلَ القرآنُ في منازلهم، فمرجعُ تنزيله وتأويله إليهم . . .

وكتابي هذا يُطلعُكَ على كثيرٍ من أسرار علم القرآن، ويرشدُكَ إلى ما جهله متعاطي التفسير من أهل الزمان، ويوضِّحُ لك ما ذكرَه من العلوم الشرعية، والقصص والأخبار النبوية، وفضائل أهل البيت الإمامية، إذْ صار كتاباً شافياً، ودستوراً وافياً، ومرجعاً كافياً، حجةً في الزمان، وعيناً من الأعيان، إذ هو مأخوذٌ من تأويل أهل التنزيل والتأويل، الذين نزل الوحيُ في دارهم عن جبريل عن الجليل، أهل بيت الرحمة، ومنبع العلم والحكمة، ﷺ . . »[1].

وفرغَ البحرانيُّ من تفسيره سنة ١٠٩٥هـ.

وهو في جملته تفسيرٌ بالرواية عن آل البيت وأئمة الشيعة الإمامية، وهو متحاملٌ على أهل السنة، ويعتمدُ على الروايات الموضوعة والباطلة.

وقد عرضَ الدكتور الذهبي نماذجَ من تفسير البحراني، يظهرُ منها اعتمادُه على الروايات الموضوعة، المنسوبة لآل البيت، وتعصُّبُه للشيعة الإمامية، وتحريفُه لمعاني الآيات لتشهدَ لمذهب الشيعة، فهو تفسيرٌ مذهبيٌّ منحازٌ مُحَرِّفٌ لمعاني القرآن[2].

٣ ـ تفسير (هميان الزاد) لمحمد يوسف أَطَّفَيِّشْ:

هذا هو أشهرُ تفسير للإباضية، أتباع عبد الله بن إباض. ويرى أهلُ السنّة أنَّ (الإباضية) فرقةٌ من فرق الخوارج، وأنها أقربُ فرقِ الخوارج إلى أهل السنّة، وأنهم لا يرونَ الخروجَ المسلَّح ولا قتْلَ المسلمين، وأنَّ خلافَهم مع أهل السنّة خلافٌ في بعض الفرعيات في الفقه والعقيدة والتاريخ.

ومؤلفُ التفسير هو: محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح، أَطَّفَيِّشْ،

---

(١) التفسير والمفسرون: ٣/ ٢٨٧. نقلاً عن تفسير البرهان للبحراني.

(٢) انظر دراسة الدكتور الذهبي لتفسير البحراني في: التفسير والمفسرون: ٣/ ٢٨١ ـ ٣٢٨.

الحفصي، الوَهْبي، الإباضي، المصعبي، اليَسْجُني.

وُلد في بلدة (يَسْجُنْ) الواقعة في وادي (ميزاب) في جنوب الجزائر، وأقامَ فيها، وبقي فيها إلى أن توفي.

وكانت ولادتُه سنة ١٢٣٦هـ، ووفاتُه سنة ١٣٣٢هـ، حيث عاش ستاً وتسعين سنة، وكان من المعمِّرين.

نشأ بين قومه في وادي ميزاب نشأةً علمية، وعُرِفَ عندهم بالزهد والورع، واشتغلَ بالتدريس والتأليف وهو شابٌّ لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره.

وذكرَ ابنُ أخيه إبراهيم أَطَّفَيِّشْ ـ الموظَّف في دار الكتب المصرية ـ للدكتور محمد حسين الذهبي أنَّ عمَّه بدأ التأليف وهو في السادسة عشرة من عمره، وأنه أمضى ليلَه ونهاره في التأليف والعلم، وأنه لم ينم في ليلةٍ أكثر من أربع ساعات! وأنه تركَ مؤلفاتٍ مختلفة، تزيد على الثلاثمئة كتاب[١].

ذكر الذهبيُّ بعضَها، وذكر الزركليُّ عند ترجمته في (الأعلام) بعضَها أيضاً[٢].

أَلَّفَ أَطَّفَيِّشْ ثلاثة تفاسير.

الأول: أسماه (هميان الزاد إلى دار المعاد): وهو الذي بدأ به، وتوسَّع فيه، وجاءَ كبيرَ الحجم، وقد ألَّفَه في شبابه، وكان يرجعُ فيه إلى تفسير الكشاف لجارِ الله الزمخشري المعتزلي، وتفسير أنوار التنزيل للبيضاوي الأشعري، مع أنَّ المؤلِّفَ إباضي!!.

قال في مقدمة تفسيره: «.. والحمدُ لله على كل حال، والشكرُ له على هدايته إيَّاي لدين الإسلام، وتعليمه إيّايَ ما لم أعلم، ورفعِه إيايَ درجةً اجتهادية، لم أكن أظنني أصِلُها، وعلى تيسيره لي ما صَعُبَ على كثيرٍ من السلف

---

(١) التفسير والمفسرون: ٢/ ٣١٩.

(٢) الأعلام للزركلي: ٧/ ١٥٦ـ١٥٧.

والخلف، وعلى جميع نعمه الدينية والدنيوية، التي أنعمَ بها عليَّ. والصلاة والسلام على رسوله، وآل رسوله وصحبه. .

وبعد: فهذا تفسيرُ رجلٍ يَسْجُني إباضيٍ وهبي، يعتمدُ فيه على الله سبحانه وتعالى، ثم على ما يظهر لفكره بعد إفراغ وُسعه، ولا يقلِّدُ فيه أحداً، إلاّ إذا حكى قولاً أو قراءةً أو حديثاً أو قصةً أو أثراً لسلف. . وأما نفسُ تفسير الآية والردُّ على بعض المفسّرين والجواب، فمنه، إلاّ ما تراه منسوباً. .

وكان ينظرُ بفكره في الآية أولاً، ثم تارةً يوافقُ نظرَ جار الله والقاضي (جار الله الزمخشري والقاضي البيضاوي) وهو الغالبُ والحمد لله، وتارةً يخالفُهما، ويوافقُ وجهاً أحسنَ مما أثبتاه أو مثله. وذلك من فضل الله الكريم.

وسمَّاه (هميان الزاد إلى دار المعاد)، والله المستعان على وجوده بعد العدم، والمأمولُ فيه قبوله.

ويتضمنُ إن شاء الله الكفايةَ في الردِّ على المخالفين فيما زاغوا فيه، وإيضاح مذهب الإباضية الوهبية واعتقادهم، وذلك بحججٍ نقلية وعقلية. والله أعلم»[1].

وقد فرغ أَطَّفَيِّشْ من (هميان الزاد) وقت الظهر، من يوم السبت، لستٍّ مضينَ من شهر رمضان، عام ألف ومئتين وواحد وسبعين»[2].

وقد طُبعَ (هميان الزاد) لأول مرةٍ في زنجبار ـ الجزيرة المعروفة شرق تنزانيا ـ في نهاية القرن الثاني عشر الهجري (١٢٩٦هـ) في حياة المؤلف، في خمسة عشر جزءاً.

ثم طُبع في سلطنة عمان في خمسة عشر مجلداً، واستغرقت طباعتُه عشر سنوات: ١٤٠١ ـ ١٤١١هـ الموافق ١٩٨٠ ـ ١٩٩١م.

ومما قالَه الدكتورُ الذهبي عن هذا التفسير: «. . إنَّ هذا الرجلَ ـ وقد قرأَ الكثيرَ من كتب التفسير ـ تأثَّر بما جاء فيها، واستفادَ الكثير من معانيها، مما يدعونا

---

(١) هميان الزاد إلى دار المعاد: ١/ ٥.
(٢) المرجع السابق: ١٥/ ٥٢٢.

إلى القول بأنَّ تفسيرَه يمثِّل التفسيرَ المذهبيَّ للخوارج الإباضية، في أواخر عصورهم. . . ».

. . . وهو لا يكاد يمرُّ بآيةٍ يمكن أن يجعلَها في جانبه إلاّ مالَ بها إلى مذهبه، وجعلَها دليلاً عليه، ولا بآيةٍ تصارحُه بالمخالفة إلاّ تلمَّسَ لها كلَّ ما في طاقته من تأويلٍ ليتخلَّصَ من معارضتها. . وقد يكون تأويلاً متكلِّفاً وفاسداً، لا يُنجيه من معارضة الآية له، ولكنه التعصبُ الأعمى. . »(1).

التفسير الثاني: أسماه (داعي العمل ليوم الأمل). شرعَ فيه بعدما أكمل (هميان الزاد). لكنه لم يكملْه. وصرفَ النظر عنه.

التفسير الثالث: (تيسير التفسير): اختصرَ فيه تفسيرَه الأول، لتيسير فهمه على الدارسين، وألَّفه في آخر عمره، بعدما نضجَ فكرُه، وتخلَّى فيه عن الكثير من الأخطاء التي وقع فيها في (هميان الزاد).

قال في مقدمته: « . . أما بعد: فإنه لمَّا تقاصرت الهممُ عن أن تُهيمَ بهميان الزاد إلى دار المعاد، الذي أَلَّفتُه في صغر السنّ، وتكاسلوا عن تفسيري داعي العمل ليوم الأمل أنشطْتُ همَّتي إلى تفسيرٍ يُضبَطُ ولا يُملّ، فإن شاء اللهُ قَبِلَه بفضله وأتمَّه قبل الأجل.

وأنا مقتصرٌ على حرفِ نافع، ولمصحف عثمان تابع، وأسألُ ذا الجلال أن يُنعمَ عليَّ بالقبول والإكمال. . »(2).

وقد طُبع تيسيرُ التفسير في حياة مؤلفه، وكانت طباعتُه في الجزائر سنة ١٣٢٦هـ، أي قبل وفاة مؤلِّفه بخمس سنوات.

ثم طُبعَ الطبعةَ الثانية في سلطنة عمان، في خمسة عشر مجلداً، وكانت طباعته سنة ١٤٠٩هـ ـ وفق ١٩٨٨م.

و(تيسير التفسير) أفضلُ وأجودُ من (هميان الزاد) بكثير، وهو المعتمدُ عند

---

(١) انظر دراسة الذهبي لهميان الزاد في: التفسير والمفسرون: ٢/ ٣١٩ ـ ٣٣٦.
(٢) تيسير التفسير لأطفيش: ١/ ٧.

الإبـاضية في عمان والجزائر وغيرهما. لكنه تفسيرٌ مذهبيّ، فسَّرَ فيه أطَّفَيِّش القرآنَ على أصول مذهب الإباضية الفقهي والفكري والكلامي.

٤ ـ (حقائق التفسير) لأبي عبد الرحمن السلمي:

هذا التفسـير من تفاسـير الصوفية، الذين صَرَفـوا الآيات عن ظاهرها، وانحرفوا بها عن المراد بها.

مؤلِّفه هو: أبو عبد الرحمن: محمدُ بن الحسين بن موسى، الأزدي، السلمي، النيسابوري.

وُلد في نيسابور سنة ٣٣٠هـ، وتوفي فيها سنة ٤١٢هـ.

كان أبو عبد الرحمن السلمي شيخَ الصوفية وعالِمَهم في خراسان، وألَّفَ العديدَ من الكتب في التفسير وغيره.

قال محمدُ بن يوسف النيسابوري القطان: كان السلميُّ غير ثقة، يضعُ الحديثَ للصوفية!. وكأنَّ الخطيبَ البغدادي لم يرضَ هذا الطعنَ فيه، فردَّ عليه قائلاً: قَدْرُ أبي عبد الرحمن عند أهل بلده جليل، وكان مع ذلك محموداً صاحبَ حديث..

ونقلَ ابـنُ الصلاح عن أبي الحسـن الواحدي المفسِّر قولَه: صنَّـفَ أبو عبد الرحمن السلمي حقائقَ التفسير، فإنْ كان اعتقدَ أنَّ ذلك تفسيرٌ فقد كفر!!.

قال ابن الصلاح: وأنا أقول: الظنُّ بمن يوثَقُ به منهم، أنه إذا قالَ شيئاً من أمثال ذلك، أنه لم يذكره تفسيراً، ولا ذهبَ به مذهبَ الشرحِ للكلمة المذكورة من القرآن، فإنه لو كان كذلك لكانوا قد سلكوا مسلكَ الباطنية.. وإنما ذلك ذِكْرٌ لنظيرِ ما وردَ به القرآن، فإنَّ النظيرَ يُذكَرُ بالنظير.. ومع ذلك فيا ليتَهم لم يتساهلوا في مثل ذلك، لما فيه من الإبهام والإلباس..»[1].

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي: ٢/ ٣٦٨.

وقال أبو عبد الله الذهبي المؤرخ: وللسُّلَمي كتابُ (حقائق التفسير) ليتَه لم يصنِّفْه، فإنه تحريفٌ وقرمطة، فدونَك الكتاب، فسترى العجب!!.

وردَّ السبكيُّ على شيخه الذهبي، ولكنه اعترفَ أنَّ تأويلات السلمي في كتابه لا تتفقُ مع ظاهر القرآن، فقال: «لا ينبغي أن تصفَ بالجلالة مَنْ تدَّعي فيه التحريف والقرمطة!. وحقائقُ التفسير المشار إليه قد كثُرَ الكلام فيه، من قِبَلِ أنه اقتصرَ فيه على ذِكر تأويلات، ومحاملَ للصوفية، ينبو عنها ظاهر اللفظ..»[1].

وقال ابن تيمية: «.. وما يُنقَلُ في حقائق السلمي عن جعفر الصادق عامَّتُه كذبٌ على جعفر الصادق..».

وقال ابن تيمية أيضاً في مقدمته في أصول التفسير: «وأمّا الذين يخطئون في الدليل والمدلول معاً، فمثلُ كثيرٍ من الصوفية والوعاظ والفقهاء وغيرهم، فإنهم يفسِّرون القرآنَ بمعانٍ هي صحيحة. لكنَّ القرآنَ لا يدلُّ عليها، مثل كثيرٍ مما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي في حقائق التفسير».

وعلَّقَ محققُ المقدمة الدكتورُ عدنان زرزور بعباراتٍ شديدة، فقال: «كتابُه حقائقُ التفسير كان يجب أن يسمَّى أباطيلَ التفسير، أو أضاليلَ التفسير. قال فيه الذهبي بحقّ: إنه تحريفٌ وقرمطة!.. والذي نستغربُه نحن أن يقولَ فيه السبكي: كان شيخَ المتصوفة وعالمَهم بخراسان.. وأنَّ له اليدَ الطولى في التصوُّف والعلم الغزير والسير على سنن السلف!!.

لأننا لا ندري ما هو العلمُ الغزير، وما هي سننُ السلف، بعد هذه التأويلات القرمطية التي في الكتاب! كما أنَّ التصوفَ الذي فيه لا يمتُّ إلى السنَّة والشريعة بصلة. ولكنه من ذلك النوع الفلسفيِّ الذي كان غالباً في القرنين الرابع والخامس، والذي كان متأثراً بالحركات الباطنية التي اجتاحت العالمَ الإسلامي..»[2].

ومما قاله السلميُّ في مقدمته: «لَمّا رأيتُ المتوسِّمين بالعلومِ الظواهر

---

(١) طبقات المفسرين للداوودي: ٢/١٣٨ ـ ١٣٩.

(٢) مقدمة في أصول التفسير، ص٩٢، حاشية رقم: (٣).

سَبَقوا في أنواع فوائد القرآن: من قراءات، وتفاسير، ومشكلات، وأحكام، وإعراب، ولغة، ومجمل، ومفسر، وناسخ، ومنسوخ. . ولم يشتغل أحدٌ منهم بجمع فهمِ خطابه على لسان الحقيقة، إلاّ آياتٌ متفرقة نُسبَتْ إلى أبي العباس بن عطاء، وآياتٌ ذُكِرَ أنها عن جعفر بن محمد، على غير ترتيب. .

وكنتُ قد سمعتُ منهم في ذلك حروفاً استحسنتُها. . أحببتُ أن أضمَّ ذلك إلى مقالتهم، وأضمُّ أقوالَ مشايخ أهل الحقيقة إلى ذلك، وأرتبُه على السور حسب وُسعي وطاقتي. . »[١].

قال في تأويل قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ [الرحمن: ١١]: «قال جعفر: جعلَ الحقُّ تعالى في قلوب أوليائه رياضَ أُنْسِه، فغرسَ فيها أشجارَ المعرفة، أصولُها ثابتةٌ في أسرارهم، وفروعُها قائمةٌ بالحضرة في المشهد، فهم يَجنونَ ثمارَ الأُنس في كلِّ أوان، وهو قوله تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَٱلنَّخْلُ ذَاتُ ٱلْأَكْمَامِ﴾ أي: ذاتُ الألوان، كلٌّ يجتني منه لوناً على قدرِ سَعَتِه، وما كوشفَ له من بوادي المعرفة وآثار الولاية!!».

وقال في تحريف معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ [الانفطار: ١٣ ـ ١٤]: «قال جعفر: النعيم: المعرفةُ والمشاهدة. والجحيم: النفوسُ فإنَّ لها نيراناً تتَّقد!!».

وقال في تحريفه لمعنى قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: ١]: «قال ابنُ عطاء الله: إذا شغلَك به عمَّا دونَه، فقد جاءكَ الفتحُ من الله تعالى، والفتحُ هو النجاةُ من السجن البشريِّ بلقاءِ الله تعالى!!»[٢].

٥ ـ التأويلات النجمية لنجم الدين داية:

هذا تفسيرٌ صوفيّ، من تفاسير الصوفية المغرقين في التأويل الإشاري، وصرفِ الآيات عن ظاهرها، إلى إشاراتٍ بعيدة.

---

(١) انظر هذه التحريفات في: التفسير والمفسرون: ٢/ ٣٨٧ ـ ٣٨٩.

(٢) المرجع السابق نفسه.

أَلَّفَهُ نجمُ الدين: أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن شاهادر الأسدي الرازي، المعروف بداية. المتوفى سنة ٦٥٤هـ.

كان من كبار الصوفية بخراسان، وكان مقيماً في خوارزم، ولمّا هاجمها جنكيزخان خرجَ منها إلى بلاد الروم ـ تركية حالياً ـ وهناك لقيَ صدرَ الدين القونوي وأخذَ عنه.

وألَّفَ نجمُ الدين داية معظمَ تفسيره الذي أسماه (التأويلات النجمية). ولكنه توفيَ قبل إكماله، حيث وصلَ إلى تفسير قوله تعالى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧ ـ ١٨].

وأكملَ تفسيرَه علاءُ الدولة: أحمد بن محمد بن أحمد السّمناني، المتوفى سنة ٧٣٦هـ. وكانت تكملةُ السمناني على منهج الداية الصوفي الإشاري، مع الإغراق في التفسير الفلسفي الصوفي.

من الأمثلة على تأويلات نجم الدين داية، تأويلُه الإشاريُّ لقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

قال: «إنَّ اللهَ ابتلى الخلْقَ بنهرِ الدنيا، وماءِ زينتها، وما زيَّنَ للخلق فيها، من النساء والبنين.. ليظهرَ المُحسنُ من المسيء، وليَميزَ الخبيثُ من الطيب، والمقبولُ من المردود... ثم امتحنَهم وقال: فمن شربَ من نهر الدنيا فليس مني، ومن لمْ يطعَمْه فإنه مني ومن أوليائي ومحبّي وطُلابي، وله اختصاصٌ بقربي، وقبولي، والتخلُّق بأخلاقي، ونيلُ الكرامة مني... إلاّ من اغترفَ غرفةً بيده، وقنعَ من متاع الدنيا على ما لابدَّ منه، من المأكول والمشروب والملبوس والمسكن وصحبة الخلق، على حدِّ الاضطرار بمقدار القوام..».

إنَّ ما قدَّمَه نجمُ الدين داية في تفسير الآية الإشاري قد يكون صحيحاً في نفسه، لكنه ليس هو المرادُ من الآية قطعاً، لأنها تتحدثُ عن قصة طالوت، وعن نهرٍ حقيقيٍّ مرَّ به هو وجيشُه في طريقهم لحرب جالوت!.

ومن الأمثلة على تأويلات ـ أو تحريفات ـ السمناني في تكملته لتفسير داية، ما قاله في تأويل قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ﴿١١﴾ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١١ ـ ١٥].

«انبعثتْ اللطيفة، وأسرعتْ إلى الطاغية. انبعثَ أَشقى قوى النفس على أثرِ اللطيفة الصالحة، ليعقرَ نارَ شوقها! ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ﴾: أي اللطيفة! ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾: أي: احذروا عقْرَ ناقةِ الشوق وشربِها من عين الذكر! ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا﴾: بتكذيبهم صالح اللطيفة النفسية، وعقروا ناقةَ الشوق! ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ﴾: أهلكهم الله. ﴿فَسَوَّىٰهَا﴾: عَمَّهم بذلك العذاب. ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾: لا يخاف القُوى العاقرة في عقر ناقةِ الشوق عاقبة الأمر...»[1].

ولا يقبلُ أيُّ منصفٍ أن يعتبرَ هذا التحريف تفسيراً لكلام الله تعالى!.

تفسير (الهداية والعرفان) لأبي زيد الدمنهوري:

هذا التفسيرُ يمثِّلُ التفاسيرَ المنحرفة المعاصرة، مؤلِّفه هو (أبو زيد الدمنهوري) ولم يُعرِّفْ به الدكتورُ محمد حسين الذهبي في حديثه عن تفسيره.

وسمَّى الدمنهوريُّ تفسيرَه (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن)، وليس فيه هدايةٌ ولا عرفان، إنما فيه تحريفٌ لمعاني القرآن.

وصدرَ تفسيرُه في القاهرة سنة ١٣٤٩هـ ـ ١٩٣٠م.

وأحدثَ التفسيرُ ضجةً كبرى في مصر، لجرأته على القرآن وأحكامه، وشكَّلَ شيخُ الأزهر لجنةً من كبار العلماء لدراسته والحكم عليه. فحكمت اللجنةُ عليه بالضلال والانحراف، فصودرَ التفسيرُ ومُنِعَ من التداول بين الناس.

---

(١) انظر حديث الدكتور الذهبي عن تفسير التأويلات النجمية في: التفسير والمفسرون: ٢/ ٣٩٣ـ٣٩٩.

وكان مما قالتْه اللجنـةُ عنه: «إنه أفَّاكٌ خَرَّاص، اشـتهى أن يُعرفَ، فلم يرَ وسيلةً أهونَ عليه وأوفى بغرضه من الإلحاد في الدين، بتحريف كلام الله عن مواضعه، ليستفزَّ الكثيرَ من الناس إلى الحديث في شأنه وترديد سيرته..

وذكرَ الدكتور الذهبي نماذجَ من تحريف الدمنهوري لمعاني القرآن، منها: إنكارُه للسـنَّة إطلاقاً، وعـدمُ قبول أيِّ حديـثٍ حتى لو كان في الصحيحين. وهجومُه على المفسِّرين من الصحابة والتابعين ومَنْ بعدَهم. وإنكارُه لمعجزات الأنبياء، وتفسيرُها تفسيراً مادياً محسوساً، وتفسيرُه معجزةَ الإسراء بالرسول ﷺ بهجرته إلى المدينة. وإنكارُه لوجود الملائكة أو الجن أو الشياطين، وتفسيرُ الآيات التي تتحدَّثُ عنه تفسيراً مادياً محرَّفاً. وتفسيرُه حَدَّ السرقة والزنا بالهوى والمزاجية. ومطالبتُه بعدم تعدد الزوجات، والطلاق، وإباحتُه للربا.. وغير ذلك[1]!!.

* * *

(١) انظر تعريف الذهبي بانحرافات الدمنهوري في المرجع السابق: ٢/ ٥٣٢ ـ ٥٤٦.

المبحث الرابع

جار الله الزمخشري ومنهجه في التفسير

ترجمة جار الله الزمخشري:

هو الإمام: أبو القاسم: جارُ الله: محمود بن عمر بن محمد بن عمر، الخوارزمي، الزمخشري.

لُقِّبَ بالخوارزمي لأنه وُلِدَ في منطقة خوارزم في خراسان، ولُقِّبَ بالزمخشري لأنه وُلد في قرية (زَمَخْشَر) في إقليم خوارزم. ولُقِّبَ بجار الله لأنه جاورَ في مكة المكرمة عند البيت الحرام سنوات عديدة.

وُلد في (زمخشر) يوم الأربعاء السابع والعشرين من شهر رجب سنة ٤٦٧هـ. وتوفيَ في (جِرْجانية) عاصمة خوارزم ليلة عرفة سنة ٥٣٨هـ. وعاشَ إحدى وسبعين سنة[١].

نشأَ في (زمخشر) وسطَ أبوين صالحين، وتلقَّى العلمَ على أبيه عمر أولاً، وحفظَ عليه القرآن، وتلقى العلمَ على كبار علماء عصره، في خوارزم وبخارى وغير ذلك.

وقُطعتْ رجلُه وهو في سنِّ الصِّبا، قيلَ: بسبب الثلج والبرد، وقيل: بسبب جرحٍ أصابَه، وقيل: إنه سقط عن الدابة فقُطعت رجلُه، وقيل: كان ذلك بسبب دعاء والدته:

روى ابنُ خلكان عن ابن القفطي أنه لما دخلَ الزمخشري بغداد، واجتمعَ

---

(١) مقدمة تفسير الكشاف: ١/ هـ؛ ووفيات الأعيان لابن خلكان: ٥/١٦٨ ـ ١٧٠.

بالفقيه الدامغاني الحنفي سأله عن سبب قطْع رجله؟ فقال: دعاءُ الوالدة! وذلك أني في صبايَ أمسكتُ عصفوراً، وربطتُه بخيطٍ في رجله، وأفلتَ من يدي، فأدركْتُه وقد دخلَ في خرْق، فجذبْتُه، فانقطعت رجلُه في الخيط، فتألَّمتْ والدتي لذلك، وقالت: قطعَ اللهُ رجلَ الأبعد كما قطعتَ رجلَه، فلما وصلتُ إلى سنِّ الطلب رحلتُ إلى بخارى لطلب العلم، فسقطتُ عن الدابة، فانكسرتْ رجلي، وعملَتْ عليَّ عملاً، أَوْجَبَ قطعَها!!..»[1].

وصار عالماً معروفاً في خوارزم وخراسان وهو في الثلاثين من عمره، واشتهر بعلمه في التفسير والنحو والعقيدة والأدب.

وفي مطلع القرن السادس رحل إلى مكة لأداء فريضة الحج، وجاورَ في بيت الله الحرام، ولُقِّبَ بجار الله، واجتمعَ بشريف مكة وأميرها (علي بن حمزة ابن وهاس)، وهو من آل البيت وعلى مذهب المعتزلة، فأكرمه غايةَ الإكرام، وألَّفَ عند الحرم معظمَ كتبه، ومنها تفسيرُ الكشاف، وتجوَّلَ في كلِّ أنحاء جزيرة العرب من اليمن وعُمان ونجد وغيرها، واستمرَّت مجاورتُه في الحرم سنواتٍ عديدة، ثم زارَ خوارزم وأقام بها فترةً قصيرة، وعاد وجاورَ في الحرم سنواتٍ أخرى، ثم غادرها عائداً إلى خوارزم، وتوفي فيها بعد أن جاوزَ السبعين عاماً[2].

وألَّفَ الإمامُ الزمخشريُّ مجموعةً من الكتب، بلغتْ حوالي خمسين كتاباً، في التفسير واللغة والأدب والبلاغة والفقه. من أشهرها: تفسيرُه الكشاف. وأساس البلاغة: معجمٌ يهتمُّ بالاستعارة والمجاز. وأطواق الذهب: في الوعظ والنصائح والحكم. وأعجبُ العجب في شرح لامية العرب. والأمكنة والجبال المشهورة في شعر العرب. والمفصَّل في النحو. والمستقصى في أمثال العرب، والفائق في غريب الحديث، وشرحُ مقامات الزمخشري سمَّاه النصائح الكبار. والأحاجي النحوية، وربيعُ الأبرار ونصوص الأخبار في الأدب والتاريخ والعلوم. ورؤوس المسائل في الفقه الخلافي بين الحنفي والشافعي.

---

(١) المرجع السابق نفسه.

(٢) انظر مقدمة عبد الله نذير أحمد لكتاب الزمخشري (رؤوس المسائل)، ص٣٠ ـ ٤٦.

وهذه الكتب كلُّها مطبوعة. وغيرها من كتبه مطبوعٌ أيضاً.

وكان الزمخشريُّ أبيَّ النفس، معتزّاً بها، يرفضُ الضيم، ويأنفُ الذل، وكان شديدَ الاعتداد برأيه، والثقة بنفسه، والصلابة فيما يذهب إليه من الحق.

وكان على حظٍّ كبير من التديُّن والزهد والبعد عن الشبهات والعزوف عن الدنيا، ولم يجدْ مؤرِّخوه فيه مطعناً إلا الاعتزال. قال عنه الإمامُ ابن حجر: إنه صالح، لكنه داعيةٌ إلى الاعتزال.

وكان يتصلُ بالسلاطين والأمراء ويمدحُهم ويدعوهم إلى العدل وينصحهم، وفي الخامسة والأربعين من عمره مرضَ مرضاً شديداً أشرفَ على الموت، ولمّا عافاهُ الله انقطعَ عن المجتمع، وآثرَ العزلةَ والاعتكاف على العلم والتأليف والتصنيف، وقال: أخذتُ على نفسي الميثاق أنْ لا أطأَ بأخْمصي عتبةَ السلطان، وأنْ أربأَ بنفسي عن مديحهم، وأنْ أعكفَ على العلم تعليماً وتعلماً وتأليفاً.

وكان الزمخشريُّ متواضعاً شديدَ التواضع.

كتبَ إليه الحافظُ أبو الطاهر أحمد بن محمد السِّلَفيِّ من الإسكندرية رسالة، يطلبُ منه الإجازةَ في مسموعاته ومصنفاته، وأثنى عليه ثناءً كبيراً، ووصفَه بالعلاّمة.

فردَّ عليه الزمخشريُّ متواضعاً هاضماً لنفسه، ومما جاء في ردِّه قولُه: «ما مَثَلي مع أعلام العلماء إلاّ كمَثَلِ السُّها مع مصابيح السماء، والجَهام الصُّفْر من الرِّهام مع الغوادي الغامرة للقيعان والآكام، والسُّكَيْتُ المُخْلَفُ مع خيل السباق، والبُغاثُ مع الطير العِتاق، وما التلقيبُ بالعلاّمة إلاّ شِبْهُ الرَّقْمِ بالعلامة.. والعلمُ مدينةٌ أحدُ بابيها الدراية والثاني الرواية، وأنا في كلا البابين ذو بضاعةٍ مزجاة، ظِلّي فيه أقلصُ من ظِلِّ حصاة!! فلا يغرَّنّكم قولُ فلانٍ فيَّ، ولا قولُ فلان... فإنَّ ذلك اغترارٌ منهم بالظاهر المموَّه، وجهلٌ بالباطن المشوَّه.. ولعلَّ الذي غرَّهم مني، ما رأوا من حُسْنِ منصحٍ للمسلمين وبليغِ الشفقة على المستفيدين، وقطع المطامع عنهم، وإفادةِ المبارِّ والصنائع عليهم، وعزة النفس، والرَّبء بها

عن الإسفاف للدنيات، والإقبال على خُوَيْصَتي، والإعراض عمّا لا يعنيني . . . فجللْتُ في عيونهم، وغلطوا فيَّ، ونسبوني إلى ما لستُ منه في قبيلٍ ولادَبير . . . وما أنا فيما أقولُ بهاضمٍ لنفسي، كما قال الحسنُ البصري رحمه الله تعالى، في أبي بكر الصدّيق رضوان الله عليه بقوله: «وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم»: إنَّ المؤمنَ ليهضمُ نفسَه . . .

وأما المولد: فقريةٌ مجهولةٌ من قرى خوارزم تسمَّى (زمخشر). وسمعتُ أبي رحمه الله يقول: اجتازَ بها أعرابي، فسألَ عن اسمها واسم كبيرها، فقيلَ له: زمخشر والرّدّاد! فقال: لا خيرَ في شرٍّ وَرَد. ولم يُلْمم بها!.. ووقتُ الميلاد شهرُ الله الأصم (رجب) في عام سبع وستين وأربعمئة . . .»(١).

وكان الزمخشريُّ شاعراً مبدعاً، وله ديوانُ شعر، ما زال مخطوطاً.

ومن روائع شعره:

قال في الشبهات التي تُثارُ على كلِّ مذهبٍ فقهي:

إذا سألوا عن مَذهبي لم أبُحْ بهِ ... وأكتمُه كتمانُه ليَ أَسْلَمُ
فإنْ حنفيّاً قلتُ قالوا بأنَّني ... أُبيحُ الطِّلا وهو الشرابُ المحرَّمُ
وإنْ مالكيّاً قلتُ قالوا بأنَّني ... أُبيحُ لهم أكْلَ الكلابِ وهُمْ هُمُ
وإنْ شافعيّاً قلتُ قالوا بأنَّني ... أُبيحُ نكاحَ البنتِ والبنتُ تَحْرُمُ
وإنْ حنبليّاً قلتُ قالوا بأنَّني ... ثقيلٌ حُلوليٌّ بغيضٌ مُجسِّمُ
وإنْ قلتُ من أهلِ الحديثِ وحِزبه ... يقولون تيسٌ ليس يدري ويفهمُ
تعجَّبْتُ من هذا الزمانِ وأهلِه ... فما أحدٌ من أَلْسُنِ الناسِ يسْلَمُ
وأخَّرَني دهري وقدَّمَ مَعْشراً ... على أنهم لا يفهمونَ وأفهَمُ

وقال عن استمتاعه بطلب العلم، وحرصه عليه، وإيثاره له على كلِّ ما سواه:

سَهَري لتنقيحِ العلومِ أَلَذُّ لي ... من وَصْلِ غانيةٍ وطيبِ عناقِ

---

(١) انظر مقتطفات من الرسالة في: وفيات الأعيان. لابن خلكان: ٥/ ١٧٠ ـ ١٧١.

وتمـايُلـي طَـرَبـاً لِحَـلِّ عُـويصَـةٍ | أشهـى وأحلـى مـن مُـدامـةِ سـاقـي
وصـريـرُ أقـلامـي علـى أوراقِهـا | أحلـى مـن الـدُّوكـاهِ والعشَّـاقِ
وألـذُّ مـن نَقْـرِ الفتـاةِ لِـدُفِّهـا | نَقْـري لأُلْقـي الـرمـلَ عـن أوراقـي
أَأَبيـتُ سهـرانَ الـدُّجـى وتبيتُـهُ | نَـوْمـاً، وتَبْغـي بعـدَ ذاكَ لِحـاقِـي

وقال عن تفضيل ما يقومُ به من علمٍ على ما عند ملوك الأرض من الملك:

إذا التَصَقَتْ بالبحثِ في العلمِ رُكْبَتي | بـركبـةِ نِحْـريـرٍ علـى الجـدِّ دَآبِ
فـإنْ دامَ لي عـونُ الإلـهِ على الـذي | أعـانيـهِ مـن فضـلٍ وبـرٍّ وآدابِ
وإنْ نظـرَتْ عيني على الـودِّ والصفا | مـع البـرِّ والتقـوى نـواظـرَ أحبـابِ
فقل لملـوكِ الأرضِ: يلهوا ويلعبوا | فـذلـكَ لَهْـوي مـا حييـتُ وتَلْعـابي

وقال في تبرير إيثاره العزوبية على الزواج، وعزوفه عن الزواج وإنجاب الأولاد:

تصفَّحْـتُ أولادَ الـرجـالِ فلـم أكـدْ | أُصـادفُ مَـنْ لا يفضـحُ الأمَّ والأبـا
رأيـتُ أبـاً يشقـى لتـربيـةِ ابنِـهِ | ويسعى لكي يُدْعَى مَكيساً ومُنْجِباً
أرادَ بـه النَّشـىءَ الأغـرَّ فمـا درى | أيـوليـهِ حجـراً أم يُعلِّيـهِ مَنْكِبـا
أخـو شقـوةٍ مـا زالَ مـركـبَ طِفلِهِ | فـأصبـحَ ذاكَ الطفـلُ للنـاسِ مـركبـا
لذاك تـركتُ النّسـلَ واخترتُ سيرةً | مسيحيَّـةً أَحْسِـنْ بـذلـك مَـذهبـا

ولا نُقرُّ الزمخشريَّ على هذا التبرير والاعتذار، وهذا خطأٌ من أخطائه، ولا نرضى منه حياةَ الرهبانية، وإشادتَه بها وقوله عنها: أحسنْ بذلك مذهباً.

وقال عن عدم زواجه أيضاً:

كـأنَّكـم لـم تسمعـوا أنَّ مَـنْ لـه | عيـالٌ شقـيٌّ دهـرَهُ ليـس يُفلـحُ
قبيـحٌ بمثلـي والبنـونُ كمـا أرى | جنودُ فسادٍ ليس في الألف مُصْلِحُ
إذا ارتكـبَ الابـنُ الخليـعُ فضيحـةً | فـذاكَ لعمـرُ الله لـلأبِ أفْضـحْ
وكـلُّ صنيـعٍ ليـس للنفـعِ جـالبـاً | وجـرَّ وجـوهَ الضُّـرِّ فـالتَّـرْكُ أَرْوَحْ

وقد اعتبر الزمخشريُّ مؤلفاته التي صنَّفها أبرَّ عليه من الأبناء، وأفضلَ له من الذرية والأولاد. فقال:

وحَسْبي تصانيفي وحَسْبي رُواتُها ... بنينٌ بهم سيقَتْ إليَّ مطالِبي
إذا الأبُ لم يأمنْ من ابنٍ عُقوقَهُ ... ولا أن يعقَّ الابنَ بعضُ النوائبِ
فإنِّيَ منهمُ آمنٌ وعليهمُ ... وأعقابَهُمْ أرجوهُمْ للنوائبِ

وشكا الزمخشريُّ فسادَ الناس في زمانه، فقال:

زمانٌ كلُّ حِبٍّ فيه خَبٌّ ... وطَعْمُ الخِلِّ خَلٌّ لو يُذاقُ
لهم سوقٌ بضاعتُه نفاقٌ ... فنافقْ فالنفاقُ له نَفاقُ

وشكا فقرَه وضيقَ يده وابتعادَ الناس عنه، فقال:

وممّا شجاني أنَّ غَرَّ مَناقبي ... يغَنّي بها الركبانُ بين القوافلِ
وطارتْ إلى أقصى البلادِ قصائدي ... وسارتْ مسيرَ النَّيِّرانِ رسائلي
وكَمْ من أَمالٍ لي وكم من مصنَّفٍ ... أصابَ بها ذِهني مَحَزَّ المفاصلِ
غنيٌّ من الآدابِ لكنني إذا ... نظرتُ فما في الكفِّ غيرُ الأناملِ
فيا ليتني أصبحتُ مُستغنياً ولمْ ... أكنْ في خوارزمَ رئيسَ الأفاضلِ
ويا ليتني مُرْضٍ صديقي ومُسْخِطٌ ... عدوِّي وأنّي في فَهاهَةِ باقلِ

ومن روائع شعره قولُه في مناجاة الله:

يا مَنْ يرى مَدَّ البعوضِ جناحَها ... في ظُلمةِ الليلِ البهيمِ الأَلْيَلِ
ويرى عروقَ نياطها في نحْرِها ... والمخَّ في تلك العظامِ النُّحَّلِ
اغْفرْ لعبدٍ تابَ من فَرَطاتِه ... ما كان منه في الزمانِ الأولِ[1]

---

(١) انظر هذه الأشعار وغيرها في: وفيات الأعيان لابن خلكان: ٥/ ١٧١ ـ ١٧٣؛ ومقدمة مصحح تفسير الكشاف: ١/ ز، ح، ط؛ والعلماء العزاب للشيخ أبي غدة رحمه الله، ص١١٢ ـ ١١٥؛ ومقدمة عبد الله نذير أحمد لكتاب الزمخشري (رؤوس المسائل): ٣٢ـ٥٥.

وقد صدرتْ عن الإمام الزمخشري عدةُ دراسات. منها: الزمخشري. للدكتور أحمد محمد الحوفي، الذي طبع في مصر سنة ١٩٦٦. ومنهجُ الزمخشري في التفسير للدكتور مصطفى الصاوي الجويني، الذي طُبع في مصر. والزمخشريُّ لغوياً ومفسِّراً لمرتضى آية الله زادة الشيرازي، الذي طبع في مصر سنة ١٩٧٧.

وعقدَ له ترجمةً طيبة الشيخ عبد الفتاح أبو غدّة رحمه الله في كتابه (العلماء العزاب الذين آثروا العلمَ على الزواج). والسيد عبد الله نذير أحمد في تقديمه لكتابه (رؤوس المسائل).

تعريف بتفسير (الكشاف):

ألّفَ الإمامُ الزمخشريُّ تفسيرَه (الكشاف) وهو مجاورٌ في مكة، بعد أن جاوزَ الستين من عمره، وأتمَّهُ في سنتين وبضعة أشهر.

وقدَّم لتفسيره بمقدمةٍ مختصرة مفيدة جداً، ذكرَ فيها أهميةَ علم التفسير، وتفاوُتَ الناس فيه، وحدَّدَ الشروط التي لا بدَّ منها لمن يفسِّرُ كتابَ الله، ثم ذكر قصةَ تأليفه للتفسير، منذ أن كان دروساً يلقيها على طلاب العلم في خوارزم وبغداد، إلى أن أصبحَ كتاباً مؤلَّفاً في مكة.

ونأخذُ من مقدمته القيّمة النافعة هذه الفقرات:

«اعْلَمْ أنَّ متنَ كلِّ علم، وعمودَ كلِّ صناعة ـ طبقاتُ العلماء فيه متدانية، وأقدامُ الصناع فيه متقاربةٌ أو متساوية. إنْ سبقَ العالِمُ العالِمَ لم يسبقه إلا بخطا يسيرة، أو تقدَّمَ الصانعُ الصانعَ، لم يتقدَّمْهُ إلا بمسافةٍ قصيرة.. وإنّما الذي تباينت فيه الرُّتَب، وتحاكَّت فيه الركب، ووقعَ فيه الاستباقُ والتناضل، وعَظُمَ فيه التفاوتُ والتفاضل، حتى انتهى الأمرُ إلى أَمَدٍ من الوهم متباعد، وترقَّى إلى أن عُدَّ ألفٌ بواحد ـ ما في العلوم والصناعات من محاسن الفِكَر والفِقَر، ومن لطائفِ معانٍ يَدِقُّ فيها مباحث للفكر، ومن غوامضِ أسرار، محتجبةٍ وراء أستار، لا يكشفُ عنها من الخاصة إلا أوحدُهم وأخصُّهم، وإلا واسطتُهم وفَصُّهم،

وعامَّتُهم عُماةٌ عن إدراك حقائقها بأحداقهم، عُناةٌ في يد التقليد، لا يُمَنُّ عليهم بجزِّ نواصيهم وإطلاقهم . .

ثم إنَّ أملأ العلوم بما يغمر القرائح، وأنهضَها بما يُبهر الألبابَ القوارح، من غرائب نُكَتٍ يلطفُ مسلكُها، ومستودعاتُ أسرارٍ يَدِقُّ سلكُها، علمُ التفسير، الذي لا يتمُّ لتعاطيه وإجالة النظر فيه كلُّ ذي علم، كما ذكر الجاحظ في نظم القرآن. . .

فالفقيهُ، وإنْ برزَ على الأقران في علم الفتاوى والأحكام، والمتكلمُ، وإنْ بزَّ أهلَ الدنيا في صناعة الكلام، وحافظُ القصص والأخبار، وإنْ كان من ابن القِرِّيَّةِ أحفظ، والواعظُ، وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحويُّ، وإن كان أنحى من سيبويه، واللغويُّ، وإن علكَ اللغات بقوةِ لِحْيَيْه؛ لا يتصدَّى منهم أحدٌ لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شيءٍ من تلك الحقائق؛ إلا رجلٌ قد برعَ في علمين مختصَّين بالقرآن، وهما علمُ المعاني وعلمُ البيان؛ وتمهَّلَ في ارتيادهما آونة، وتعبَ في التنقير عنهما أزمنة، وبعثَتْهُ على تتبُّع مظانِّهما همَّةٌ في معرفة لطائف حجة الله، وحرصٌ على استيضاح معجزة رسول الله، بعد أن يكون آخذاً من سائر العلوم بحظّ، جامعاً بين أمرين: تحقيقٍ وحفظ، كثيرَ المطالعات، طويلَ المراجعات، قد رجعَ زماناً، ورُجِعَ إليه، ورَدَّ ورُدَّ عليه، فارساً في علم الإعراب، مقدَّماً في حملة الكتاب. . وكان مع ذلك مسترسلَ الطبيعة منقادَها، مشتعلَ القريحة وقَّادها. . يقظانَ النفس، درَّاكاً للَّمحة، وإنْ لَطُفَ شأنها، منتبهاً على الرَّمزة، وإنْ خفيَ مكانها. . لا كَزّاً جاسياً، ولا غليظاً جافياً؛ متصرفاً ذا درايةٍ بأساليب النظم والنثر، مُرتاضاً غير ريضٍ بتلقيح بنات الفكر، قد علمَ كيف يُرتَّبُ الكلامُ ويؤلَّف، وكيف يُنظم ويُرصف. . طالما دُفعَ إلى مضايقه، ووقع في مداحضه ومزالقه. . .

ولقد رأيتُ إخواننا في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية (أراد فرقةَ المعتزلة التي هو أحد أفردها)، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلَّما رجعوا إليَّ في تفسير آية، فأبرزتُ لهم بعضَ الحقائق من الحُجُب، أفاضوا في

الاستحسان والتعجب. . واستُطيروا شوقاً إلى مصنَّف، يضمُّ أطرافاً من ذلك. . حتى اجتمعوا إليّ، مقترحين أن أملي عليهم (الكشفَ عن حقائق التنزيل، وعيون الأقاويل في وجوه التأويل). .

فاستعفيتُ، فأبَوا إلا المراجعة، والاستشفاعَ بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد (أراد علماء المعتزلة). . والذي حداني على الاستعفاء ـ على علمي أنهم طلبوا ما الإجابةُ إليه عليّ واجبة، لأنَّ الخوضَ فيه كفرض عين ـ ما أرى عليه الزمانَ من رثاثة أحواله، وركاكة رجاله، وتقاصُر هممهم عن أدنى عُدَد هذا العلم، فضلاً عن أن تترقَّى إلى الكلام المؤسَّس على علمي المعاني والبيان. .

فأمليتُ عليهم مسألةً في الفواتح، وطائفةً من الكلام في حقائق سورة البقرة، وكان كلاماً مبسوطاً، كثيرَ السؤال والجواب، طويل الذيول والأذناب. . وإنما حاولتُ به التنبيهَ على غزارة نكتِ هذا العلم، وأن يكونَ لهم مناراً ينتحونه، ومثالاً يحتذونه.

فلما صمَّمَ العزمُ على معاودة جوار الله، والإناخة بحرم الله، فتوجهتُ تلقاء مكة، وجدتُ في مجتازي بكلِّ بلد، مَنْ فيه مسكةٌ من أهلها ـ وقليلٌ ما هم ـ عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المُمْلى، متطلِّعين إلى إيناسه، حِراصاً على اقتباسه. . . فهزَّ ما رأيتُ من عطفيَّ، وحرَّكَ الساكنَ من نفسي. .

فلما حططتُ الرحلَ بمكة، إذا أنا بالشعبة السَّنيَّة، من الدوحة الحَسَنية: الأمير الشريف الإمام: شرفِ آلِ رسول الله ﷺ، أبي الحسن: عليِّ بن حمزة بن وَهّاس، أدامَ الله مجدَه ـ وهو النكتةُ والشامةُ في بني الحسن، مع كثرة محاسنهم وجُموم مناقبهم ـ أعطشَ الناس كبداً، وألهبَهم حشى، وأوفاهم رغبة، حتى ذكرَ أنه كان يحدِّثُ نفسَه ـ في مدة غيبتي عن الحجاز، مع تزاحمِ ما هو فيه من حسن المشاده ـ بقطْعِ الفيافي، وطيِّ المهامِه، والوفادة علينا بخوارزم، ليتوصَّل إلى إصابة هذا الغرض. .

فقلت: قد ضاقت على المستعفي الحيل، وعيَتْ به العلل، ورأيتني قد

أخذتْ مني السـنّ، وتقعقعَ الشـنّ، وناهزتُ العشرَ التي سمَّتها العرب: دقاقةَ الرقاب. .

فـأخذتُ في طريقةٍ أخصر من الأولى، مع ضمان التكثيـر من الفوائـد، والفحص عن السرائر. .

ووفَّق الله وسدَّد، ففُرغَ منه في مقدار مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه. وكان يقدَّرُ إتمامُه في أكثر من ثلاثين سنة. . وما هي إلا آيةٌ من آيات هذا البيت المحرَّم، وبركةٌ أُفيضت عليَّ من بركات هذا الحرم المعظَّم. . .(1)

ويمكن للناظر في المقدمة أن يستنبطَ منها إشاراتٍ دالة على نظرة الإمام الزمخشري للتفسير، والمراحل التي مرَّ بها وهو ينظر في القرآن، حتى انتهى إلى تفسير الكشاف، وندعو القارئ إلى أن يلاحظ هذا وغيرَه منها.

ولما فرغَ الزمخشريُّ من تفسيره أطلق عليه اسماً دالاً على منهجه وطبيعته، هو: (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل).

وأُعجبَ به جداً ومدحه ببيتين عجيبين. قال:

إنَّ التفـاسيـرَ فـي الـدنيـا بـلا عـددٍ ... وليـس فيهـا لعمـري مثـلُ كشـافـي
إنْ كنـتَ تبغي الهدى فـالْزَمْ قراءتَهُ ... فـالجهلُ كالداءِ والكشَّـافُ كالشافي

وهو في هذا يستخدم فنَّ (الجناس) ـ والزمخشري موهوبٌ في استخدام فنّ الجناس كما لاحظنا من أبياته الشعرية السابقة ـ وذلك في قوله: «الكشاف كالشافي» أي: الكشّاف هو الشافي من الجهل.

و(الكشّاف): مبالغةٌ من الكشف عن لطائف القرآن البيانية والبلاغية.

والزمخشريُّ لا يريد من كشّافه أن يكشفَ عن المعاني الظاهرة، وإنما المعاني البعيدة، والحقائق الغامضة: «الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل».

---

(1) تفسير الكشاف: 1/ن، س، ع.

وهو في كشّافه يريد أن يذكرَ «عيون الأقاويل»، ويختار أفضلَ وأنفسَ تلك الأقوال، المتعلقة بوجوه تأويل القرآن: «في وجوه التأويل».

ولا ننسى الجمالَ بين عيون الأقاويل ووجوه التأويل، فالعيونُ إنما تكون في الوجوه! فالزمخشريُّ كان مبدعاً في تفسيره، وموهوباً في اختياره لاسم ذلك التفسير..

وألَّفَ تفسيرَه بعد أن جاوزَ الستين من عمره، حيث نضجَ في العلم والمعرفة، واللغة والمعاني والبيان، وتدبُّر القرآن، والوقوف على تعبيره وإعجازه.

وكتابهُ الكشاف هو عمدةُ التفاسير البيانية للقرآن، رغم ما فيه من اعتزالياتٍ واضحة وخفية.

وقد اعتمدَ على تفسير الكشاف المفسِّرون الذين جاؤوا بعده، وأخذوا منه، ومنهم من ناقشَهُ وردَّ عليه تأويلَه للآيات بما يتفق ومذهبه الاعتزالي.

لقد كان أثرُ الكشاف واضحاً في التفاسير التالية:

١ ـ تفسيرُ مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي. حيث كان يأخذُ من الكشاف بعضَ توجيهاته البيانية ولطائفه البلاغية، وغالباً ما كان يقفُ له مناقشاً مجادلاً ومحاوراً مفنِّداً، يرفضُ انحرافَه بالآيات لتوافقَ مذهبَه الاعتزالي.

٢ ـ تفسيرُ غرائب القرآن ورغائب الفرقان للقمي النيسابوري: كانت مهمةُ القميّ أن يجمعَ بين التفسيرين الجليلين: الكشاف للزمخشري، ومفاتيح الغيب للرازي، ويأخذَ أجودَ ما فيهما، ويضيفَ لهما بعضَ ما عنده. فخلاصةُ تفسير الكشاف موجودةٌ في تفسير القمي.

٣ ـ تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي: وقد أشادَ أبو حيان كثيراً بالإمام الزمخشري والإمام ابن عطية، واعتبرَ تفسيريهما ـ الكشاف والمحرر الوجيز ـ أفضلَ التفاسير على الإطلاق.

ورغم ثناء أبي حيان على الزمخشري كثيراً وأخْذِهِ منه كثيراً، إلا أنه كثيراً

ما كان يتعقَّبُـه وينتقدُه، ويهاجمـه بعباراتٍ حادَّة قاسـية. وهذا جزاءَ ما فعله الزمخشـريُّ بأهل السنَّة، حيث كان يطيلُ لسانَه عليهم بعباراتٍ حادَّةٍ قاسـية، فسـخَّرَ اللهُ له أبا حيان يخاطبُه بنفـس اللغة، ويسقيه من نفس الكأس! والبادئ أظلم!!.

٤ ـ تفسيرُ الدرِّ المصون في علوم الكتاب المكنون للسمين الحلبي ـ أحمد ابن يوسف ـ وهو أفضلُ تفسيرٍ في إعراب القرآن وتوجيه قراءاته. وقد اعتمد السمينُ على تفسير الكشاف كثيراً، ونصَّبَ نفسَه حاكماً وقاضياً على الخلاف بين الزمخشري وأبي حيان، وكثيراً ما كان ينتصرُ للزمخشري، ويردُّ هجومَ أبي حيان العنيف عليه!.

٥ ـ تفسير أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي ناصر الدين البيضاوي. وقد جعلَ البيضاويُّ هدفَه اختصارَ تفسير الكشاف، وإبعادَ اعتزاليات الزمخشري عنه، والإبقاءَ على تحليلاته وتوجيهاته البيانية والبلاغية.

٦ ـ تفسير مدارك التنزيل وحقائق التأويل لأبي البركات النسفي: لقد كان النسفيُّ مختصِراً لكلٍّ من تفسير الزمخشري وتفسير البيضاوي، وقد أقامَ النفسيُّ تفسيرَه على الكشاف، وتخلَّى عن ما فيه من اعتزاليات.

٧ ـ تفسـيرُ إرشاد العقل السـليم إلى مزايـا القرآن الكريم لأبي السـعود العمادي، وهو مختصَرٌ آخر للكشاف.

بالإضافة إلى التفاسير الأخرى التي فسَّرت القرآن بالرأي كتفسير روح المعاني للآلوسي، ومحاسن التأويل للقاسمي، والمنار لرشيد رضا، والتحرير والتنوير لابن عاشور.

أي أنَّ تفسيرَ الكشاف كان مرجعَ التفاسير البيانية والعقلية التي جاءت بعده، سواء كان أصحابُها من أهل السنّة أو المعتزلة أو الشيعة.

وقد وضعَ علماءٌ من أهل السنّة حواشيَ على تفسير الكشاف من أشهرها:

١ ـ حاشيةُ (فتوح الغيب في الكف عن قناع الريب) للعلامة شرف الدين:

الحسن بن محمد الطيبي، المتوفَّى سنة ٧٤٣. وهي أشهرُ وأفضلُ الحواشي على الكشاف، تكفَّلَ الطيبي بردِّ وتفنيد اعتزاليات الكشاف، وتوضيح وشرح تحليلاته ولطائفه البيانية!.

٢ ـ الانتصافُ من الكشاف: حاشيةٌ للقاضي أحمد بن محمد بن منصور المنير المالكي الإسكندري: تابعَ فيها اعتزاليات الزمخشري، وفنَّدَ أقوالَه وناقشَه مناقشةً حادةً شديدة قاسية، وبيَّنَ تحريفَه لمعاني الآيات لتشهدَ لمذهبه الاعتزالي.

وكان ابنُ المنير يشيدُ بالزمخشري أحياناً، عندما يقدِّم تحليلاً بيانياً عالياً.

٣ ـ حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي: التي بيَّنَ فيها اعتزاليات الزمخشري، التي فاتَ ابنَ المنير بيانُها، وشرحَ فيها معاني بعض الكلمات الغريبة في الكشاف. وعرضَ الشيخُ المرزوقي هذا بمنتهى الإيجاز والاختصار والأدب والتوقير.

٤ ـ حاشيةُ (مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف) للشيخ محمد عليان المرزوقي نفسه: شرحَ فيها شواهدَ الكشاف الشعرية، وبيَّنَ وجْهَ الاستشهاد في كلٍّ منها. وقد لخَّصَ حاشيةَ محبِّ الدين أفندي التي شرحَ فيها شواهد الكشاف، وزاد عليها ما أسقطَه محبُّ الدين منها.

٥ ـ حاشيةُ (الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) للحافظ ابن حجر العسقلاني، وهي التي خرَّجَ فيها أحاديثَ الكشاف، وكان تخريجُه مختصراً من تخريج الإمام أبي محمد الزيلعي لأحاديث الكشاف.

وما كثرةُ الحواشي اللغوية والحديثية والتفسيرية والعقيدية على تفسير الكشاف إلاّ دليلٌ على منزلة هذا التفسير الجليل عند العلماء من البيانيين والمحدّثين والمفسّرين والمتكلّمين.

والكشافُ في الحقيقة تفسيرٌ جليل رائد، لا يَعيبُه إلاّ اعتزالياتُ الزمخشري وانتصاره لمذهب المعتزلة، حيث كان يحرِّفُ الآيات ويؤوِّلُها لتشهدَ لمذهبه

الاعتزالي في مسائل العقيدة ومباحث علم الكلام، ويصرفُها عن معناها الحقيقي، ويردُّ استدلالَ أهل السنّة بها.

ولهذا السبب أدرجْنا تفسيرَ الكشاف ضمن التفاسير المنحرفة، لأنَّ الزمخشريَّ انحرفَ بالآيات إلى مذهبه الاعتزالي الكلامي.

وإنَّ تفسيرَ الكشاف لهو الممثلُ الرسميُّ الواضح لتفاسير فرقة المعتزلة، وهو خيرُ مرجعٍ لمن يريدُ أن يتعرَّفَ على فكر المعتزلة، وعلى فهمهم للآيات، وعلى تأويلِهم لها وصرفِها عن ظاهرها، والانحراف بها لتشهدَ لأفهامهم الخاطئة.

وهو فيما عدا هذا الأمر تفسيرٌ جليلٌ عظيم قيّم، وهو رائدُ التفاسير البيانية التي قدَّمت تحليلاتٍ ولطائفَ رفيعة جداً.

هذا وقد طُبعَ تفسيرُ الكشاف عدةَ طبعات. وأجودُ طبعاته الطبعةُ التي أشرفَ عليها الشيخ مصطفى حسين أحمد، وأصدرَها في القاهرة سنة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م. فهي طبعةٌ متقنةٌ مصححة مضبوطة، روعيتْ فيها علاماتُ الترقيم من الفواصل والنقط والفقرات.

وطبع بهامش تفسير الكشاف أربعُ حواشي:

الأولى: حاشيةُ ابن المنير السكندري: الانتصاف من الكشاف.

الثانية: حاشيةُ ابن حجر: الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف.

الثالثة: حاشية (مشاهد الإنصاف على شواهد الكشاف) لمحمد عليان المرزوقي.

الرابعة: حاشية الشيخ محمد عليان المرزوقي في بيان اعتزاليات الكشاف.

وصُوِّرتْ عن هذه الطبعة طبعاتٌ أخرى في بيروت وغيرها.

منهج الزمخشري في التفسير:

تفسيرُ الكشاف تفسيرٌ بياني، بل هو رائدُ التفاسير البيانية، ولولا غلوُّ

الزمخشري في اعتزالياته وصرفِ الآيات لأصول مذهبه الاعتزالي لَعُدَّ تفسيرُه إماماً للتفاسير!.

ومنهجُ الزمخشري في التفسير منهجٌ لغويٌّ بيانيٌّ بلاغيٌّ اعتزالي. ويمكن أن نأخذَ منه القواعدَ التالية:

١ ـ الأخذُ بالمفهوم اللغوي للَّفظ القرآني:

كان الزمخشريُّ يفسِّرُ القرآنَ باللغة العربية، ويأخذُ معاني الألفاظ القرآنية من لغة العرب، لأنَّ القرآنَ نزلَ بلغة العرب، ولا يجوزُ مخالفةُ قواعد لغتهم في فهم القرآن وتفسير ألفاظه.

مثالُ ذلك تفسيرُه للبسملة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾.

بيَّنَ معنى كلٍّ من (اسم) و(الله) و(الرحمن الرحيم) وفقَ قواعد اللغة العربية.

قال في (اسم): هو أحدُ الأسماء العشرة التي بَنَوْا أوائلَها على السكون (سْمٌ) فإذا نطقوا بها مبتدئين زادوا همزة (اسم)، لئلا يقعَ ابتداؤهم بالساكن، إذْ كان دأبُهم أن يبتدئوا بالمتحرِّك، ويقفوا على الساكن، لسلامةِ لغتهم من كلِّ لُكْنَةٍ وبشاعة.. ولوضْعِها على غايةٍ من الإحكام والرصانة.. وإذا وقعت (اسْم) في الدَّرْج ـ وسط الجملة ـ لم تفتقر إلى زيادة شيء...

و(اسم) من الأسماء المحذوفةِ الأعجاز ـ الحرف الثالث ـ كيدٍ ودَمٍ. وأصلُه (سَمْوٌ). بدليل تصريفه: كأسماء، وسُمَيّ، وسُمَيْتْ.

واشتقاقُه من السّمو. لأنَّ التسميةَ تنويهٌ بالمسمى. وإشادةٌ بذكره. ومنه قيلَ للّقب: النَّبز بمعنى النَّبر، وهو رفعُ الصوت. والنَّبْزُ قشرُ النخلة الأعلى.

و(الله) أصله: إلـه. فحُذفتْ همزةُ (إلـه)، وعُوِّضَ منها أَلُّ التعريف، فصارت: (الله).. والإلـه من أسماء الأجناس كالرَّجُل والفَرَس، يقعُ على كلِّ

معبودٍ بحقٍّ أو باطل، ثم غلبَ على المعبود بحقّ. وأمّا (الله) فمختصٌّ بالمعبود بحق، لم يُطلَقْ على غيره.

ومن هذا الاسم اشتُقَّ: تَأَلَّهَ، وأَلَّه، واسْتَأْلَه.. كما قيل: استَنْوقَ واستَحْجَرَ في الاشتقاق من الناقة والحجر...

.. و(الله) اسمٌ غيرُ صفة، وأنتَ تصفُه ولا تصفُ به. فتقول: إلـهٌ واحد، ولا تقول: شيءٌ إلـه.

و(الله) مشتقٌّ من (أَلَه): إذا تحيَّر. ومن أخواته: دَلَه، وعَلَه. ينتظمهما معنى التحيُّر والدهشة.. وذلك أنَّ الأوهامَ والعقولَ تتحيَّر في معرفة المعبود، وتدهشُ الفطن، ولذلك كَثُرَ الضلال، وفشا الباطل، وقلَّ النظرُ الصحيح..

و(الرحمن) فَعْلان من (رَحِم) كغضبان وسكران، من غَضِبَ وسَكِر. وكذلك الرحيم فعيلٌ منه. كمريض وسقيم، من مَرِضَ وسَقِم. وفي (الرحمن) من المبالغة ما ليس في (الرحيم) ولذلك قالوا: رحمنُ الدنيا والآخرة، ورحيمُ الآخرة.

ويقول العرب: إنَّ الزيادة في البناء لزيادة المعنى.. وممَّا طَنَّ على أُذني من مِلَح العرب أنهم يسمُّون مركباً من مراكبهم بالشُّقْدُف. وهو مركبٌ خفيف، ليس في ثِقَل محامل العراق. فقلتُ في طريق الطائف لرجلٍ منهم: ما اسمُ هذا المحمل؟ أردتُ المحملَ العراقي. فقال: أليسَ ذاك اسْمُه الشُّقْدُف؟ قلت: بلى. فقال: هذا اسمُه الشُّقُنْداف! فزادَ في بناء الاسم لزيادة المسمى!!.»[1].

فالزمخشريُّ في تفسير الكلمات الثلاثة: اسم، الله، الرحمن، يحتكمُ إلى لغة العرب، ويفسِّرُها على أساس معانيها في اللغة، ويبينُ اشتقاقَها، ومعنى اشتقاق كلٍّ واحدة، ويربطُ بين معنى الجذر الثلاثيِّ للكلمة ومعنى الصيغ المشتقة منها.

والمادةُ الاشتقاقية للألفاظ القرآنية كثيرةٌ جداً في تفسير الكشاف!!.

---

(١) الكشاف: ١/ ٥ـ٦ باختصار وتصرف.

٢ ـ بيان جمال النظم القرآني والتحليل البياني له :

من قواعد منهج الزمخشري في التفسير تحليلُ الأسلوب القرآني تحليلاً بيانياً بلاغياً، واستخراجُ روائع اللطائف والنكات البيانية منه. كما أنه كان يحرصُ على بيان جمال النظم القرآني، القائم على علمَيْ المعاني والبيان، وتطبيق نظرية إمام البلاغة عبد القاهر الجرجاني حول (النظم القرآني). وتحليل إعجاز القرآن تحليلاً قوياً.

والتحليلاتُ البيانية البلاغية للآيات القرآنية تملأُ الكشاف، وتدلُّ دلالةً واضحة على ما تمتَّعَ به الزمخشري من موهبةٍ عالية، وحسٍّ بلاغيٍّ رائع، أحسنَ به تذوُّقَ آيات القرآن، وتقديمَ بعضِ ما يجده من ذلك للقارئ.

ومن روائع تحليلاته البيانية للتعبير القرآني ما قالَه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾[الأنعام ٨]. حيث وقفَ يبيِّنُ حكمةَ التعبير بحرف (ثم) في قوله: (لقضي الأمر ثم لا ينظرون).

قال: «ومعنى (ثُمَّ) بُعْدُ ما بين الأمرين: قضاء الأمر، وعدم الإنظار. جعلَ عدمَ الإنظار أشدَّ من قضاء الأمر (لأنه عطفَ عدمَ الإنظار على قضاء الأمر، وأخَّرَهُ في الجملة، مع أنه هو المتقدِّمُ في الواقع، فالإنسانُ لا يُنْظَرُ ولذلك يُقضى فيه الأمر) لأنَّ مفاجأةَ الشدَّة أشدُّ من نفس الشدَّة»[١].

ونظراً لهذا التحليل البيانيِّ الرائع، فقد اضطرَّ خصمُ الزمخشريِّ اللدود ابنُ المنير الإسكندري إلى الاعتراف بروعة هذا التحليل. فقال في الحاشية: وهذه النكتةُ من محاسن تنبيهات الزمخشري.

ومن هذه الروائع أيضاً ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١].

---

(١) الكشاف: ٢/ ٧ بتصرف.

حيث وقفَ يبيِّنُ الفرقَ بين قوله: (سيروا في الأرض فانظروا)، وقوله: سيروا في الأرض ثم انظروا). أي الفرقُ بين العطف بحرف الفاء، والعطف بحرف (ثم).

ذَكَرَ أنَّ قولَه: (سيروا في الأرض فانظروا) جعلَ النظر في عاقبة المكذبين مسبَّباً ناتجاً عن السير في الأرض، أي أنَّ السيرَ في الأرض لا يكونُ إلاّ لأجل النظر، ولا يجوز لأيِّ غرضٍ آخر، لأنَّ الفاءَ فاءُ السببية.

أمّا قولُه: (سيروا في الأرض ثم انظروا) فمعناه إباحةُ السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع، وإيجابُ النظر في آثار الهالكين. ونبَّهَ على ذلك بحرف (ثُمَّ) لتباعُدِ ما بين الواجب وهو النظرُ في آثار الهالكين، والمباح وهو السيرُ في الأرض[1].

ومن روائع نظراته التي بيَّنَ فيها جمالَ النظم القرآني، وارتباطَ كلمات وجُمل الآية ما قاله في تفسير قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١ ـ ٢].

قال: «والذي هو أرسخُ عِرْقاً في البلاغة أن يُقال: إنَّ قولَه: «ألم»: جملةٌ برأسها، أو طائفةٌ من حروف المعجم مستقلةٌ بنفسها. و«ذلك الكتاب» جملةٌ ثانية. و«لا ريب فيه» ثالثةٌ. و«هدى للمتقين» رابعة.

وقد أُصيبَ بترتيبها مفصَلُ البلاغة، وموجبُ حسنِ النظم، حيث جيءَ بها هكذا من غير حرف عطف، وذلك لمجيئها متآخية، آخذاً بعضُها بعنق بعض. . فالثانيةُ متحدةٌ بالأولى، معتنقةٌ لها، وهلمَّ جَرّاً إلى الثالثة والرابعة.

بيانُ ذلك: أنه نبَّهَ أولاً على أنَّ القرآن هو الكلامُ المتحدَّى به: «ألم». ثم أُشيرَ إليه في قوله: «ذلك الكتاب» بأنه الكتابُ المنعوت بغاية الكمال، فكان تقريراً لجهة التحدّي، وشدّاً من أعضادِه. ثم نفى عنه في قوله: «لا ريب فيه» أنْ

---

(١) الكشاف للزمخشري: ٢/ ٨ بتصرف.

يتشبَّثَ به طرفٌ من الريب، فكان شهادةً وتسجيلاً بكماله، لأنه لا كمالَ أكملُ ممّا للحقِّ واليقين، ولا نقْصَ أنقصُ مما للباطل والشبهة!.. وقيلَ لبعض العلماء: فيمَ لَذَّتُك؟ قال: في حجةٍ تتبختَرُ اتِّضاحاً، وفي شبهةٍ تتضاءل افتضاحاً!.. ثم أخبرَ عنه بأنه «هدى للمتقين»، فقرَّر بذلك كونَه يقيناً لا يحومُ الشكُّ حولَه، وحقاً لا يأتيهُ الباطلُ من بين يديه ولا من خلفه..

ثم لم تخلُ كـلُّ واحدةٍ من الأربع ـ بعدَ أنْ رُتِّبت هذا الترتيـبَ الأنيـق، ونُظمت هذا النظمَ السَّرِيّ ـ من نكتةٍ ذات جزالة: ففي الأولى: «ألم» الحذف، والـرمز إلى الغرضِ بألطفِ وجهٍ وأرشقه. وفي الثانية: «ذلك الكتاب» ما في التعريف من الفخامة. وفي الثالثة: «لا ريب فيه» ما في تقديم الريب على الظرف «فيه». وفي الرابعة: «هدى للمتقين» الحذف، ووضْع المصدر الذي هو «هدى» موضعَ الوصف الذي هو «هادٍ» وإيراده مُنكَّراً، والإيجازَ في ذكر المتقين.

زادَنا اللهُ اطِّلاعاً على أسرار كلامه، وتبييناً لنكَتِ تنزيله، وتوفيقاً للعمل به..»[1].

٣ـ الاستشهاد بالشعر العربي:

كان الإمامُ الزمخشريُّ حريصاً على الاستشهاد بالشعر العربي في تفسيره، حيث يأتي بالشعر شاهداً على معنى كلمةٍ قرآنية، أو توجيـهٍ في البيان القرآني، وساعدَ الزمخشريَّ على ذلك شاعريتُه أولاً، فهو شاعرٌ مبدع، وثقافتُه الشعرية ثانياً، فهو يحفظُ الكثيرَ من أشعار العرب في الجاهلية والإسلام.

وكان الزمخشـريُّ يكثرُ من الشواهد الشعرية، وقد يوردُ أكثرَ من ثلاثـة شواهدَ في الموطن الواحد. أوردَ شواهدَ لشعراء جاهليين، مثل: امرئ القيس، والنابغة الذبياني، وعمرو بن كلثوم، وعنترة بن شداد، وطرفة بن العبد، وزهير ابن أبي سلمى.

---

(١) المرجع السابق: ١/ ٣٦ـ٣٧.

كما أوردَ شواهدَ لشعراء مسلمين، مثل: حسان بن ثابت، والفرزدق، وجرير، والمتنبي، وأبي نواس، وأبي تمام.

من الأمثلة على ذِكره أكثرَ من شاهدٍ شعري، ما ذكره من الاختلاف في إعراب الحروف الأولى المقطَّعة في أوائل السور، مثل «ألم» و«كهيعص».

فمن الوجوه الصحيحة في إعرابها، أنها معربةٌ على الحكاية. فقوله: «ألم» جملةٌ محكيةٌ في محلٍّ رفع خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: هذه «ألم».

قال الزمخشري: «والحكايةُ: أنْ تجيء بالقول بعد نقلِه على استبقاء صورته الأولى. كقولك: دَعْني من «تمرتان». وبدأتُ بـ«الحمد لله». و: قرأتُ «سورةٌ أنزلناها».

فالجملُ الثلاثة مرفوعة على الحكاية:

تمرتان. و: الحمد لله. و: سورةٌ أنزلناها.

وأورد الزمخشريُّ ثلاثةَ شواهد شعرية على الحكاية:

الأول: قولُ الشاعر بشر بن أبي خازم الأسدي:

وجدْنا في كتابِ بني تميم «أَحَقُّ الخيلِ بالركضِ المُعارُ»

الحكايةُ في البيت الشطرةُ الثانية كاملة، فهي جملةٌ اسمية مكوَّنةٌ من مبتدأ وخبر محكية، وهي في محلٍّ نصب مفعول به لفعل «وجدنا».

الثاني: قولُ الشاعر ذي الرمة يمدحُ أبا بردة (بلال) بن أبي موسى الأشعري:

سمعْتُ: «الناسُ يَنْتَجِعونَ غَيْثاً» فقلتُ لِصَيْدَحَ: انْتَجِعي بلالا

الحكاية في البيت جملة: «الناسُ ينتجعون غيثاً»، فهي جملةٌ اسمية مكوَّنةٌ من مبتدأ وخبر. وهي في محلٍّ نصب مفعول به لفعل «سمعتُ» قبلها.

الثالث: قول الشاعر:

تَنَادَوْا بِـ: «الرحيلُ غداً» وفي تِرْحالِهم نَفْسي

الحكايةُ جملة: «الرحيلُ غداً»، وهي جملةٌ اسمية مكونة من مبتدأ وخبر، وهي جملةٌ محكية في محلِّ جرٍّ بحرف الجر قبلها: الباء[1].

وإيرادُه لشواهدَ شعرية ثلاثة في الموطن الواحد دليلٌ على حرصِه على الإكثار من الشواهد في تفسيره، وعلى ثقافته الشعرية العالية.

٤ ـ التقليل من التفسير بالمأثور:

كان من قواعد منهج الزمخشري في التفسير التقليلُ من التفسير بالمأثور، بعكسِ منهج المفسرين بالمأثور، أو المفسِّرين بالمنهج الأثري النظري.

كان قليلاً ما يفسِّرُ القرآنَ بالقرآن، وإذا ذكرَ آيةً أخرى أثناء التفسير فمن أجل توضيح معنًى لغويٍّ أو بياني أو بلاغي، وليس من باب تفسير القرآن بالقرآن كما فعلَ المفسِّرون بالمأثور.

فلمّا فسَّرَ قوله تعالى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِ إِيمَانُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٣].

قال: «في قلوبهم» بيانٌ لمكان الإشراب. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا﴾ [النساء: ١٠].

وقال: «بئسما يأمركم به إيمانكم»: بالتوراة. لأنه ليس في التوراة عبادةُ العجاجيل. وإضافةُ الأمر إلى إيمانهم تهكُّمٌ «بئسما يأمركم به إيمانكم». كما تهكَّمَ قومُ مدين على شعيب في قولهم: ﴿يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ [هود: ٨٧][2].

وأحياناً كان يفسِّرُ القرآنَ بحديث رسول الله ﷺ، ولم يكن عالماً بالحديث،

---

(١) الكشاف: ١/ ٢١ـ٢٣.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٦٦.

ولذلـك أوردَ في تفسـيره أحاديثَ كثيرة ضعيفـة أو موضوعة، وفيه أحاديـثُ صحيحة.

وقد خَرَّجَ أحاديثَه الإمامُ الحافظ الزيلعي، واختصرَ تخريجَه الإمامُ الحافظ ابن حجر العسقلاني في رسالة: الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف.

في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

أوردَ حديثين عن رسول الله ﷺ. قال: «عن النبي ﷺ قال: ما أصرَّ من استغفر، وإنْ عاد في اليوم سبعين مرة». وروي عنه قولُه: «لا كبيرةَ مع الاستغفار، ولا صغيرةَ مع الإصرار»[(١)].

وحكمَ ابنُ حجر على الحديثين بالضعف، فهما لم يسلَما له:

قال ابنُ حجر عن الأول: أخرجَه أبو داود والترمذي وأبو يعلى والبزار عن أبي نصيرة.

قال الترمذي: غريب، وليس إسنادُه بالقوي.

وقال ابنُ حجر عن الثاني: أخرجه إسحاق بن بشر في المبتدأ، عن عائشة. وإسـحاقُ حديثُـه منكَر، ورواه الطبراني عن أبي هريـرة، وفي إسناده بشر بن عبد الوارث. وهو متروك[(٢)].

ولعدم علمِ الزمخشري بالحديث فقد اغترَّ بالحديث الذي رُويَ عن أُبَيٍّ بن كعب رضي الله عنه، يرفعُه للنبي ﷺ، والذي ينصُّ على فضلٍ خاصٍّ لكلِّ سورة، ويُحدِّدُ أجراً خاصّاً لمن قرأ كلَّ سورة. فقد قبلَ الزمخشريُّ هذا الحديث، وكان يذكرُ في خاتمة تفسيره لكلِّ سورة فضلاً خاصاً بها.

وهذا الحديث موضوعٌ باتفاق المحدثين. قال عنه ابن حجر العسقلاني:

---

(١) الكشاف للزمخشري: ١/ ٤١٦.
(٢) المرجع السابق: ١/ ٤١٦ حاشية (٤) و(٥).

«أخرجه ابنُ الجوزي في الموضوعات عن أبيّ بن كعب. ورواه ابن مردويه والواحدي»[1].

وكان ذكرُه لأقوال الصحابة والتابعين في تفسيره قليلاً. كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠١] فلمّا فسَّرها قال: «قال الشعبي: كتابُ الله بين أيديهم يقرؤونه، ولكنهم نبذوا العملَ به. وقال سفيان: أَدْرجوه في الديباج والحرير، وحَلّوه بالذهب، ولم يُحلُّوا حلالَه، ولم يحرِّموا حرامَه»[2].

ولأنه يتبعُ المنهجَ العقليَّ في التفسير فإنه لم يَغْرَقْ في ذكر الإسرائيليات، ولم يُكثر من إيراد الروايات والأخبار غير الصحيحة، التي تتعلّق بقصص الأنبياء، كما فعلَ كثيرٌ من المفسرين بالمأثور، وهذه مزيةٌ تُسجَّلُ له. وليس معنى هذا أنَّ تفسيرَ الكشاف سلمَ من الإسرائيليات تماماً، فقد وردَ فيه بعضُها، ولكن تلك الروايات الإسرائيلية قليلةٌ في الكشاف، إذا ما قورنَ بالتفاسير الأخرى![3].

٥ ـ تفسير القرآن على أصول مذهب المعتزلة:

الزمخشريُّ إمامٌ من أئمةِ المعتزلة، وكان مغالياً في اعتناقِ مذهبِ المعتزلة، في العقيدةِ والكلام، وكان مفاخِراً مجاهِراً بذلك.

وقد جعلَ من أهدافِه في التفسير الانتصارَ لمذهبِ المعتزلة، والاستدلالَ له، والاستشهادَ له بآياتِ القرآن، وتفنيدَ أقوالِ المخالفين للمعتزلة، وعلى رأسِهم أهلُ السنة.

ولذلك كان من قواعدِ منهجِ الزمخشري في التفسير: تفسيرُ القرآنِ على أصولِ مذهبِ المعتزلة، فهو قد دخلَ عالمَ القرآنِ بالمقرَّرِ الفكريِّ الاعتزالي

---

(١) الكشاف للزمخشري: ١/ ٤٦٠.
(٢) المرجع السابق: ١/ ١٧٧.
(٣) انظر ـ على سبيل المثال ـ تفسير الزمخشري لقصة هاروت وماروت في سورة البقرة. الكشاف: ١/ ١٧٢ ـ ١٧٣.

المسبق، وأرادَ من الآياتِ أنْ تشهدَ لما يقول به المعتزلة في مسائلِ العقيدة، ولذلك كان يَصرفُ الآيات عن ظاهرها، ويقوم بتأويلها لما يريد، وينحرفُ بها إلى ما يريد!.

وقد استخدمَ الزمخشريُّ موهبتَه العقليةَ في هذا التأويلِ والصرفِ والتحريف، حيث كان يُتقنُ ذلك إتقاناً عجيباً، ويوظفُ ثقافتَه البيانية والبلاغية والنحوية واللغوية لهذه الغاية.

وإذا مرَّ على آيةٍ استشهدَ بها خصومُ المعتزلة من أهلِ السنة كان يصرفُها ويؤولُها، كما كان (طويلَ اللسان) على خصومِه، شديدَ الوطأةِ عليهم، يصفُهم بأوصافٍ قبيحة، ويشتمُهم بألفاظٍ جارحة، بينما يصفُ إخوانَه المعتزلة بأسمى عباراتِ الثناء!.

يذهبُ المعتزلةُ إلى أنَّ اللهَ لا يُرى في الدنيا ولا في الآخرة، والمؤمنون لا يرونَ الله في الجنة، والزمخشريُّ يدين بهذا القول الاعتزالي!.

ولما فسَّرَ الزمخشريُّ قولَه تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢ ـ ٢٣] نفى رؤيةَ المؤمنين لربهم في الآخرة، وحملَ النظرَ في الآية على: التوقّع والرجاء.

قال: «فاختصاصُه بنظرِهم إليه ـ لو كان منظوراً إليه ـ مُحال. فوجبَ حملُه على معنى يصحُّ معه الاختصاص، والذي يصحُّ معه أنْ يكونَ من قولِ الناس: أنا إلى فلانٍ ناظرٌ ما يصنعُ بي. تريدُ معنى: التوقّع والرجاء.

ومنه قولُ القائل:

وَإذا نَظَرْتُ إليْكَ مِنْ رَجُلٍ ... وَالبَحْرُ دونَكَ زِدْتَني نِعما

وسمعتُ (سرويةً) مستجديةً بمكة وقتَ الظهر، حين يُغلقُ الناسُ أبوابَهم، ويأوونَ إلى مقائلهم تقول: عُيَيْنَتي نويظرةٌ إلى الله وإليكم!.

ومعنى الآية: أنهم لا يتوقَّعون النعمةَ والكرامةَ إلاّ من ربهم، كما كانوا في

الدنيا لا يخشون ولا يرجونَ إلا إياه. . »[1].

وهذا التفسيرُ من الزمخشري على أُصولِ المذهب الاعتزالي، وهو صرفٌ للآيةِ عن ظاهرها، وتأويلٌ لها، وتحريفٌ لمعناها لتشهدَ للمعتزلةِ في نفي الرؤية.

وأصولُ المعتزلة خمسة ـ كما يزعمون ـ وهي: التوحيد، والعدل، والوعد والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكان الزمخشريُّ يفسِّرُ آياتِ القرآن على هذه الأصولِ الخمسةِ الاعتزالية.

التوحيدُ عند المعتزلة يقومُ على نفي صفاتِ الله، وإنْ ذُكِرَتْ في الآيات، لأنها تتنافى مع التوحيد.

والزمخشريُّ يفسِّرُ الوجهَ بالذات. وذلك في تفسيره لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] قال: (إلا وجهه): إلا إياه. . والوجه يعبر به عن الذات[2].

والعدلُ عند المعتزلة أن الله يجبُ أنْ يكونَ عادلاً، وهذا معناه أنه سبحانه لم يخلقْ أفعالَ العباد، وأنهم هم الذين يخلقون أفعالهم بأنفسهم!.

والزمخشريُّ يقول بهذا. قال في تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ٨٨]. (غُلْف: جمعُ أغلف، أي: هي خلْقَةً وجبلَّة مغشّاةٌ بأغطية، لا يتوصَّلُ إليها الحق. .

ثم ردَّ الله أنْ تكونَ قلوبُهم مخلوقةً كذلك، لأنها خُلقَتْ على الفطرة، والتمكنِ من قبول الحق، بأن الله لعنهم وخذلَهم بسببِ كفرهم. . فهم الذين غَلَّفوا قلوبَهم بما أحدثوا من الكفرِ الزائغِ عن الفطرة، وتسببوا بذلك، لمنع الألطافِ التي تكونُ للمتوقَّع إيمانهم[3]. .).

---

(١) الكشاف: ٤/ ٦٦٢.
(٢) المرجع السابق: ٣/ ٤٣٧.
(٣) المرجع السابق: ١/ ١٦٣ ـ ١٦٤؛ وانظر حديث الدكتور الذهبي عن الكشاف في، التفسير والمفسرون: ١/ ٤٢٩ ـ ٤٨٢.

وهكذا كان يفعلُ الزمخشري دائماً، ويحرصُ على تفسيرِ الآيات بأصولِ المذهب الاعتزالي.

وهذا جرَّ عليه غضبَ المفسِّرين من أهل السنة، الذين اختصروا تفسيره، أو الذين عملوا عليه الحواشي، كابنِ المنيِّرِ والطيبي وأبي حيان والبيضاوي.

وتبقى لتفسيرِ الكشاف منزلةٌ عاليةٌ بين كتبِ التفسيرِ البياني، مع رفْضِنا لما فيه من تفسيراتٍ اعتزالية تقومُ على تحريفِ معاني الآيات، لكن اعتزالياتِه قليلة بالنسبة إلى فضائلِ وحسناتِ تفسيره..

* * *

الفصل الثامن

التَّفْسِيرُ في العَصْرِ الحَدِيْثِ
طَبِيْعَتُهُ - اِتِّجَاهَاتُهُ - أَعْلَامُهُ

المبحث الأول

طبيعة العصر الحديث

العصرُ الحديثُ يبدأُ منذُ نهايةِ القرنِ التاسع عشر الميلادي، أو بدايةِ القرنِ العشرين، وكان هذا العصرُ شديداً على المسلمين!.

شـهدَ العصرُ الحديثُ تحكُّمَ الماديـةِ الجاهلية الغربية في العالم، حيث تقدمتْ أوروبا وأمريكا كثيراً في العلمِ والماديـة والتكنولوجيا، وبـالغتْ في الجاهليـةِ والابتعاد عن الله، وانتشارِ الأفكارِ والفلسفاتِ المادية الإلحاديـة، والآراءِ التي تهاجمُ الدينَ والإيمان، وتدعو إلى اللادينية والنظرياتِ العلمية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والنفسية.

ظهر في العصرِ الحديثِ فلاسفةٌ ومفكرون لا دينيون كفار، مثل: هيجل وماركس ودوركايم وداروِن وفرويـد ونيتشه وسارتر. وظهرت: الماركسـية والوجودية والداروينية والقومية والرأسمالية والاشتراكية وغيرها.

وتحكمت دولُ أوروبا الجاهلية الكافرة في العالم، ظهرتْ إسبانيا وهولندة وبلجيكا والبرتغال، ثم ظهرت ألمانيا، ثم ظهرت فرنسا وبريطانيا، ثم ظهرت روسيا وأمريكا. وغزتْ هذه الدولُ باقي البلدان واستعمرتْها، ونشرتْ فيها أفكارها وقيمها وتصوراتها..

وبينما شهدَ العصرُ الحديثُ تقدُّمَ وتحكُّمَ الجاهليةِ الأوروبية، فقد شهدَ تأخُّرَ وانحطاطَ المسلمين، حيث ابتعدَ المسلمونَ كثيراً عن إسلامهم، وتأخَّروا عن ركبِ العلمِ والحضارةِ والتقدم، وقامَ الغربيون بغزوِ واستعمارِ بلاد المسلمين، وامتصاصِ مواردِهم وخيراتهم، ونشْرِ الأفكارِ والمذاهب الجاهلية الكافرة بينهم.

استُعمرتْ جميعُ بلدانِ المسلمين بعد الحرب العالمية الأولى، استعمرتها

دول: إنجلترا وفرنسا وروسيا وإسبانيا وإيطاليا وهولندا، ونجحَ الكفارُ في إزالةِ آخرَ رمزٍ للحكم الإسلامي، وهو الخلافة، حيث ألغى مصطفى كمال أتاتورك ـ ربيب الغرب ـ الخلافة العثمانيةَ في الربعِ الأولِ من القرن العشرين!.

ووجَّـهَ اليهودُ جهودَهم لإقامـةِ دولةٍ يهوديـة لهم على أرض فلسطين، ودعمتْها دولُ الكفرِ دعماً مطلقاً، وتمكَّنَ اليهودُ من احتلالِ كلِّ فلسطين، وأجزاء من دولٍ عربية مجاورة وصاروا أقوى دولة في المنطقة!.

وقامتْ أنظمةُ الحكمِ في بلادِ المسـلمين بعد أنْ نالت البلادُ استقلالَها الظاهري، ولكنَّ هذه الأنظمةَ حرصتْ على إقصاءِ الإسلام عن الحكمِ والتوجيه، والحكمِ بغيرِ ما أنزلَ الله، واستعارةِ مناهجِ الحكمِ الغربية والشرقية.

وانتشرتْ في بلادِ المسلمين الأفكارُ والمذاهبُ الجاهلية، ونشأتْ أجيالٌ جديدة من المسلمين متأثرةٌ تأثراً كبيراً بالمذاهب الجاهلية الغربية، ومقلدةٌ للآخرين في حياتهم وممارساتهم وسلوكهم، وكانت بعيدةً عن إسلامِها ودينها..

وقامتْ حركاتٌ إسلامية في بلادِ المسلمين تدعو الأمةَ إلى العودةِ لإسلامها، وتطبيق شـريعتها، والتخلّي عن تبعيتها للأعداء، واسـتقطبت هذه الحركـاتُ الإسـلاميةُ كثيراً من فئات وطبقات الأمـة، لكنَّ الأعداءَ خشوا أن تنجحَ هذه الحركاتُ في إعادةِ الأمة إلى إسلامِها وقوتها ووجودِها وهويتها، فشنوا عليها حرباً شعواء شديدة شرسة، واستعانوا برجالِهم وأعوانِهم المتنفذين في بلاد المسلمين في القضاء على هذه الحركات!.

هذه هي الطبيعـةُ الغريبةُ للعصرِ الحديث، نلحظُها له ونحنُ نودعُ الأيـامَ الأخيرةَ للقرن العشرين.

ونحيلُ على كتابيْن في بيان طبيعةِ العصر الحديث من وجهة نظر إسلامية، وهما: كتاب (جاهلية القرن العشرين) وكتاب (واقعنا المعاصر)، كلاهما للأستاذ محمد قطب.

ودعا هذا الواقعُ المؤلمُ للمسلمين في العصر الحديث الدعاةَ والمصلحين

إلى الإقبالِ على القرآن، يدرسونَه ويتدبرونَه ويفسرونه، ويستلهمونَه في جهودِهم في الدعوة والحركة والتربية والإصلاح.

وظهرتْ مدارسُ فكريةٌ إسلامية، انطلقتْ من تفسيرِ القرآن في إصلاح المجتمع، وأشهرُ هذه المدارس اثنتان:

الأولى - مدرسة الشيخ محمد عبده:

أسَّسَ هذه المدرسةَ التفسيريةَ الشيخ محمد عبده، الذي يطلقُ عليه تلاميذُه (الأستاذ الإمام). وقد وُلد محمد عبده سنة١٨٤٨م. وتوفي سنة ١٩٠٥م.

ومحمد عبده كان شيخاً للأزهر، ومفتياً لمصر، وهو تلميذٌ للرجلِ المشهور جمال الدين الأفغاني، وقامَ بجهودٍ كبيرةٍ في الدعوة والإصلاح.

وقد اختلفَتْ أحكامُ الباحثين في الحكم على محمد عبده:

فهو في نظرِ كبيرِ تلاميذِه الشيخ محمد رشيد رضا: أستاذُ الإسلامِ الأكبر. وحكيمُ الإسلام في هذا العصر، وإمامُ المسلمين في كلِّ باديةٍ ومصر، ومولانا الأستاذ الأكبر.

وصدرت عدةُ كتبٍ عن تلاميذه تحدثوا فيها عن حياته، من أشهرها كتاب: تاريخ الأستاذ الإمام لمحمد رشيد رضا. وعدّه الأستاذُ أحمد أمين رائد الإصلاح، والدكتور عثمان أمين اعتبره رائد الفكر المصري، والأستاذ عباس العقاد عده عبقري الإصلاح والتعليم، الأستاذ محمد حسين الذهبي اعتبره رائد اللون الأدبي الاجتماعي للتفسير في العصر الحديث.

بينما يراه المحققونَ من الباحثين مؤسساً للمدرسة العقلية التوفيقية في التفسير، وهي التي تعتمدُ على دعامتين: تحكيمِ العقل تحكيماً مبالَغاً فيه في فهمِ مرادِ الله تعالى، والتوفيق بين الإسلام وبين الحضارة الغربية[1].

---

(١) اتجاهات التفسير في العصر الحديث للدكتور عبد المجيد المحتسب، ص١٠٣ ـ ١٠٤.

وللشيخ محمد عبده تلاميذ في التفسير، من أشهرهم الشيخ محمد رشيد رضا، والشيخ محمد مصطفى المراغي، وشقيقه الشيخ أحمد مصطفى المراغي.

وممن ينتمي إلى هذه المدرسة التفسيرية من المفسرين: جمال الدين القاسمي وعبد الكريم الخطيب ومحمد عزة دروزة وغيرهم.

الثانية ـ مدرسة الإخوان المسلمين:

أسَّسَ جماعةَ الإخوان المسلمين في مصر الإمامُ الشهيدُ حسن البنا، سنة ١٩٢٨م، وهي أولُ حركةٍ إسلاميةٍ شاملة تؤسَّسُ بعدَ القضاءِ على الخلافة، وهي كبرى الحركاتِ الإسلامية العالمية المعاصرة. وقد امتدت امتداداً كبيراً، وانتشرت انتشاراً واسعاً، في مختلفِ بلدانِ العالم الإسلامي، ورغم عنفِ الضربات التي وُجِّهَتْ لهذه الحركةِ الإسلامية إلاّ أنها بقيت موجودة، وتركتْ آثاراً واضحة في الحياةِ الفكرية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية في المجتمع.

ويهمُّنا هنا الإشارة إلى أثرِ هذه الحركة في تفسير القرآن، فقد ظهر مفكرون إسلاميون عديدون منتمون لهذه الحركة، كانوا أعضاء فيها في فترات من حياتهم، ولهم دراساتٌ قرآنية عديدة.

وفي مقدمةِ المفسِّرين المنتمين لحركة الإخوان: سيد قطب، وسعيد حوى، رحمهما الله.

ومن الباحثين الذين أصدروا دراسات قرآنية: محمد الغزالي، والبهي الخولي، ومحمد قطب، ويوسف القرضاوي، وعلي عبد الحليم محمود، والدكتور أحمد حسن فرحات، والدكتور محمد لطفي الصباغ، والدكتور عدنان زرزور، وغيرهم كثيرون.

وقد أثرى المفكرون والمؤلفون المنتمون لحركة الإخوان المسلمين المكتبة القرآنية إثراءً كبيراً، فأصدروا العديدَ من الدراساتِ القرآنيةِ الضرورية النافعة.

* * *

المبحث الثاني

اتجاهات التفسير في العصر الحديث

كانَ التركيزُ على التفسيرِ في العصر الحديث كبيراً، لحرصِ المفسرين على إصلاحِ أحوالِ المجتمع على أساس القرآن، والوقوفِ أمام الأفكارِ والمذاهب الجاهلية الغازية على أساس القرآن.

وظهرت اتجاهاتٌ عديدةٌ للتفسير في العصر الحديث، وأُلِّفَت العديدُ من التفاسير المختلفة، منها ما هو أصيلٌ أبدعَ فيه صاحبه، ومنها ما هو تكرارٌ لما قيلَ في التفاسير السابقة، ومنها ما لم يُضِفْ إلى عالم التفسير شيئاً يكاد يُذكر.

وأُعدتْ دراساتٌ عن اتجاهاتِ التفسير في العصر الحديث. منها دراسة: (تيارات التفسير في مصر والشام في العصر الحديث) للدكتور فضل عباس. ودراسة (اتجاهات التفسير في العصر الحديث) للدكتور عبد المجيد المحتسب.

وقد رصدَ الدكتور المحتسب ثلاثة اتجاهات للتفسير في العصر الحديث:

الاتجاه السلفي: ومَثَّلَ له بتفسير القاسمي، وتفسير دروزه، وتفسير عبد الكريم الخطيب.

الاتجاه التوفيقي مع الحضارة الغربية، الذي قاده محمد عبده، ومثل له بتفسير رشيد رضا، وأحمد مصطفى المراغي.

الاتجاه العلمي: ومثل له بتفسير الجواهر لطنطاوي جوهري.

والاتجاهاتُ المعاصرة في التفسير أكثر من ثلاثة، وسنُعرفُ فيما يلي بأهمِّ هذه الاتجاهات، ونمثل لها بأشهر التفاسير:

١ ـ الاتجاه الأثري:

وهو الاتجاهُ الذي يركزُ على المأثور، وهذا المأثورُ يشملُ تفسيرَ القرآن بالقرآن، والقرآن بالسنة، وأقوال الصحابة والتابعين.

لا نجدُ تفاسيرَ معاصرة فَسَّرَت القرآنَ وفق قواعدِ التفسير بالمأثور، أو وفق قواعدِ التفسير الأثري النظري، كما ظهر في تفسير الطبري وتفسير ابن كثير وغيرهما.

أهمُّ ما ركزتْ عليه التفاسير التي اتجهت هذا الاتجاه هو تفسيرُ القرآن بالقرآن، فكانوا يوردون آيات عديدة في تفسير الآية.

من أشهرِ التفاسير التي حرصت على تفسير القرآن بالقرآن: تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، ومحاسن التأويل لجمال الدين القاسمي، وأضواءُ البيان في تفسير القرآن بالقرآن لمحمد الأمين الشنقيطي، والتفسير الحديث لمحمد عزة دروزة.

٢ ـ الاتجاه العقلي:

يركزُ هذا الاتجاه على إعمال العقل، وعلى التحليلاتِ العقليةِ النظرية، وعلى تقديم الرأي المحمود.

ومن أشهر التفاسير التي برز فيها هذا الاتجاه: تفسير التحرير والتنوير لمحمد الطاهر بن عاشور، وتفسير المراغي لأحمد مصطفى المراغي، والتفسير الواضح لمحمد محمود حجازي، والتفسير القرآني للقرآن لعبد الكريم الخطيب.

٣ ـ الاتجاه العلمي:

يقومُ أصحابُ هذا الاتجاه على تفسيرِ الآياتِ تفسيراً علمياً، وفقَ قواعدِ العلم الحديث، ويُبينون المضامينَ العلمية للآيات، وفقَ مقرراتِ وتحليلاتِ العلمِ الحديث.

وقد تعمق هذا الاتجاهُ في العصر الحديث بسببِ التقدمِ العلميِّ الكبيرِ

المذهل الذي تمَّ في هذا العصر، وحدوثِ نظرياتٍ وكشوفٍ علمية عديدة، في مختلفِ مجالات وميادين العلوم الحديثة: مثل: علم الفلك، وعلم طبقات الأرض، وعلم الفضاء، والنجوم والكواكب، علم النفس الإنساني، وجسم الإنسان، علم النبات، وعلم الحيوان، وهكذا..

وقد وردت آياتٌ عديدةٌ في القرآن، ذاتُ مضامين علمية، تشيرُ إلى هذه الميادين العلمية المختلفة، فكان لابدَّ للمفسرين المركِّزين على الاتجاهِ العلمي من تفسير تلك الآيات بتلك الميادين العلمية.

ومن أشهر التفاسير التي تمثل الاتجاه العلمي:

أ ـ تفسير الجواهر في تفسير القرآن للشيخ طنطاوي جوهري، وسمى الجوهريُّ تفسيرَه: (الجواهر في تفسير القرآن الكريم، المشتمل على عجائب بدائع المكونات، وغرائب الآيات الباهرات.) وقد بالغَ الجوهري كثيراً في التفسيرِ العلمي، وخرجَ من التفسير إلى شرح لمسائل علمية عديدة في مختلف الميادين.

ويصحُّ أنْ يُقالَ عنه: فيه كل شيء إلا التفسير[1].

ب ـ التفسيرُ الفريد للقرآن المجيد: للدكتور محمد عبد المنعم الجمّال. وقد فَسَّرَ الجمّال القرآن على ضوء العلم الحديث، ليكون خطاباً لذوي الاتجاهِ العلمي من المسلمين وغيرهم ليزدادوا قناعة بهذا القرآن وأنه من عند الله.

وظهرت في الفترةِ الأخيرةِ كتبٌ كثيرة، تقدمُ تفسيرات علمية لكثيرٍ من الآيات، على ضوء نظريات العلم الحديث.

من هذه الكتب: التفسير العلمي للآيات الكونية لحنفي أحمد. وما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القويمة البرهان لمحمود شكري الآلوسي - حفيد الإمام الآلوسي صاحب تفسير روح المعاني ـ. والإسلام والطب الحديث

(١) انظر دراسة الدكتور الذهبي لتفسير طنطاوي جوهري في: التفسير والمفسرون: ٢/ ٤٩٧ ـ ٥١٧؛ واتجاهات التفسير في العصر الحديث للمحتسب، ص٢٧٢ـ ٢٧٧.

للدكتور عبد العزيز إسماعيل. والقرآن والعلم الحديث للدكتور عبد الرزاق نوفل. والكتب المقدسة على ضوء العلم الحديث للدكتور موريس بوكاي.. وغيرها كثير!.

٤ ـ الاتجاه الاجتماعي:

يركزُ صاحبُ التفسيرِ ذي الاتجاه الاجتماعي على مجتمعات المسلمين، ويحرصُ على إصلاحِ تلك المجتمعات على أساسِ القرآن، ويعالجُ أمراضَ ومشكلات المجتمع المختلفة، ويقدمُ السننَ الاجتماعية الكفيلةَ برقيِّ المجتمعات وتقدمِها.

وأشهر التفاسير التي بدا فيها الاتجاه الاجتماعي واضحاً تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا، وتفسير المراغي، والتفسير المنير للدكتور وهبة الزحيلي.

٥ ـ الاتجاه البياني:

ظهرتْ تفاسيرُ حديثة تركز على بيان القرآن وبلاغته ونحوه وصرفه. من أشهرها: التفسير البياني للقرآن للدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطئ ـ.

ومن أشهر التفاسير النحوية التي قام أصحابها بإعراب القرآن وتقديم بعض فنون البلاغة فيه: إعراب القرآن وبيانه لمحيي الدين الدرويش. والجدول في إعراب القرآن لمحمود صافي.

٦ ـ الاتجاه الدعوي الحركي:

هذا الاتجاهُ يركزُ على الدعوةِ والحركة، وعلى التربية والتزكية، والجهاد والمجاهدة، ودعوةِ المسلمين للحركة بالقرآن، ومجاهدةِ الكافرين على أساسه، وتقديم دروس في الدعوة والجهاد والمواجهة.

وأشهرُ التفاسيرِ الدعوية الحركية: في ظلال القرآن لسيد قطب، والأساس في التفسير لسعيد حوى!.

* * *

المبحث الثالث

أعلام المفسرين في العصر الحديث

الذين فسَّروا القرآنَ في تفاسير مطبوعة في العصر الحديث كثيرون، من أشهرهم: محمد رشيد رضا صاحب تفسير (المنار)، وأحمد مصطفى المراغي صاحب (تفسير المراغي)، وطنطاوي جوهري صاحب تفسير (الجواهر)، ومحمد محمد عبد اللطيف ـ ابن الخطيب صاحب (أوضح التفاسير)، ومحمد فريد وجدي صاحب (المصحف المفسر)، وحسنين محمد مخلوف صاحب (صفوة البيان لمعاني القرآن)، ومحمد محمود حجازي صاحب (التفسير الواضح)، وعبد الجليل عيسى صاحب (تيسير القرآن الكريم للقراءة والفهم المستقيم)، وعبد الكريم الخطيب صاحب (التفسير القرآني للقرآن)، والدكتور محمد عبد المنعم الجمال صاحب (التفسير الفريد للقرآن المجيد)، ومحمد عبد المنعم خفاجي صاحب (تفسير خفاجي)، والدكتور محمد سيد طنطاوي صاحب (التفسير الوسيط)، ومحمود شلتوت صاحب (تفسير القرآن الكريم) الذي لم يتمه، والدكتور محمد البهي الذي فسر معظم سور القرآن كل سورة في كتاب.

وفي مقدمة هؤلاء سيد قطب صاحب تفسير (في ظلال القرآن).

ومِن أشهر مَنْ ألَّفوا تفاسيرَ من خارج مصر: جمال الدين القاسمي في تفسيره (محاسن التأويل)، ومحمد عزة دروزة في تفسيره (التفسير الحديث)، ومحمد الطاهر بن عاشور في تفسير (التحرير والتنوير)، وعبد الرحمن بن ناصر ابن سعدي في تفسير(تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان)، ومحمد الأمين الشنقيطي في تفسير (أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن)، وسعيد حوى في (الأساس في التفسير)، وأبو بكر الجزائري في (أيسر التفاسير)، ومحمد علي

الصابوني في (صفوة التفاسير)، وإبراهيم يسن القطان في (تيسير التفسير)، وعبد الودود يوسف في (تفسير المؤمنين)، وعبد الحميد طهماز في (من موضوعات سور القرآن).

وسنعرِّفُ فيما يلي تعريفاً مجملاً بأهمِّ هذه التفاسير وأصحابِها أعلام المفسرين في العصر الحديث: ونخصص لسيد قطب وتفسيره الظلال المبحث القادم إن شاء الله.

١ ـ محمد رشيد رضا وتفسيره (المنار):

هو محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين القلموني الطرابلسي الحسيني، وُلدَ في القلمون في طرابلس الشام سنة ١٢٨٢هـ وفق ١٨٦٥م. وتوفيَ في القاهرة في حادثِ سيارة سنة ١٣٥٤هـ وفق ١٩٣٥م. وعاش سبعين عاماً.

تعلمَ في طرابلس الشام، ودَرَسَ العلم في مساجد الشام، وكتبَ في بعضِ صحفها، وبعدَ أنْ جاوزَ الثلاثين من عمره توجَّه إلى مصر، والتقى بالشيخ محمد عبده سنة ١٣١٥هـ، وأُعجبَ به وبعلمِه وإصلاحِه، ومنهجه في تفسير القرآن. وكان قد قرأَ وهو في الشام أعداداً من صحيفةِ (العروة الوثقى) التي أصدرها محمد عبده وجمال الدين الأفغاني في فرنسا، وأُعجبَ بما كتبه فيها محمد عبده من التفسير.

وأَقنعَ رشيد رضا شيخَه محمد عبده بأنْ يلقيَ دروساً في التفسير في الجامع الأزهر، فاستجابَ الشيخُ محمد عبده وبدأَ دروسَ التفسير في الأزهر، والشيخ رشيد ملازمٌ له يسجلُ ما يلقيه ويقولُه.

نشطَ الشيخُ رشيد رضا في الدعوة والإصلاح والتعليم، فأنشأَ في القاهرة مدرسة (الدعوة والإرشاد) لتخريج المرشدين والوعاظ، وأصدرَ من القاهرة مجلة (المنار) التي استمرتْ عدةَ سنوات، وكانت مجلةً إسلامية متكاملة، وكانت المجلةَ الأُولى في العالم الإسلامي. وللشيخ رشيد رضا فيها مقالٌ دائم في التفسير.

وأنشأَ مطبعةَ المنار في القاهرة، وأَصدرَ منها عدداً من الكتبِ والدراساتِ الإسلامية النافعة، سواء كانتْ من تأليفه أو من تأليف غيره.

ومن أشهرِ آثارِ الشيخ رشيد رضا تفسيره (تفسير القرآن الحكيم) الذي اشتهرَ بتفسيرِ المنار. ومن كتبه: تاريخ الأستاذ الإمام، الذي أَرخَ فيه لحياةِ شيخه محمد عبده، وأصدرَه في ثلاثةِ مجلدات. ومنها: الوحي المحمدي، ونداء للجنس اللطيف، ويسرُ الإسلام وأصولُ التشريع العام، وشبهاتُ النصارى وحجج الإسلام[1].

والشيخ رشيد رضا من أكبرِ تلاميذِ الشيخ محمد عبده، وهو الوارثُ له ولعلمه، وكان محمد عبده يشيدُ به، ويقولُ عنه: «صاحبُ المنار ترجمانُ أَفكاري» ويقول: «أنا متحدٌ معه في العقيدة، والفكر، والرأي، والخلق، والعمل»[2].

بدأَ الشيخ محمد رشيد رضا يكتبُ في التفسير عندما أصدرَ مجلةَ المنار، ثم أَشارَ عليه شيخُه محمد عبده بتأليفِ تفسيرِ للقرآن، فاستجابَ لرغبةِ شيخه وشرعَ في تأليف تفسيره، الذي سَمّاه (تفسير القرآن الحكيم)، واشتهر باسم تفسير (المنار).

كتبَ أولَ جزءيْن من التفسيرِ في حياةِ شيخه محمد عبده، وهذا معناه أَنه بدأَ بتفسيرِ القرآن قبل سنة: ١٩٠٥م ـ السنة التي توفيَ فيها محمد عبده. وكان يصدر أَجزاءَ التفسيرِ على تجزئةِ القرآن.

وأصدرَ محمد رشيد رضا اثنا عشر جزءاً من أجزاءِ تفسيره، ووصلَ في تفسيرِه المطبوعِ إلى نهايةِ الجزء الثاني عشر من أجزاء القرآن، وهو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعۡلَمَ أَنِّي لَمۡ أَخُنۡهُ بِٱلۡغَيۡبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي كَيۡدَ ٱلۡخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

---

(١) الأعلام للزركلي: ٦/ ١٢٦.
(٢) التفسير والمفسرون للذهبي: ٢/ ٥٧٧.

وقالَ في خاتمةِ الجزء الثاني عشر من التفسير: «تم الجزء الثاني عشر في العشر الأخير من المحرم سنة ١٣٥٤هـ. وكان البدء به في صفر سنة ١٣٥٣هـ. والله نسأل توفيقنا لإتمام سائر هذا التفسير بما يرضاه»[(١)].

وبعدَ إصدارِه الجزءَ الثاني عشر شرعَ في تفسيرِ الجزء الثالث عشر وكان هذا سنة ١٣٥٤هـ ـ ١٩٣٥م. وبعدما فسَّرَ معظمَ آياتِ سورة يوسف توفّاهُ اللهُ في تلك السنة.

واللطيفُ أنَّ آخرَ آيةٍ فسرَها هي قولُه تعالى إخباراً عن دعاء نبي الله يوسف عليه السلام: ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾ [يوسف: ١٠١].

وكأنَّ الإمامَ محمد رشيد رضا يدعو اللهَ بهذا الدعاء الذي دعا به يوسف عليه السلام، ويخبرُ فيه عن فضلِ اللهِ عليه بأنه علَّمه من تأويلِ الأحاديث وتفسيرِ القرآن، فقد فَسَّرَ حوالي نصف القرآن، وهو يطلبُ من الله أنْ يتوفّاه مسلماً وأنْ يُلحقَه بالصالحين.

وكان تقديرُ اللهِ الحكيم أنْ يتوقَّفَ قلمُ الإمامِ عند هذا الموضع، ولعل هذا دليلَ استجابةِ الله، حيث توفّاهُ مسلماً وألحقه بالصالحين.

وأكملَ تفسيرَ سورة يوسف الشيخُ محمد بهجت البيطار ـ تلميذُ الشيخ رشيد رضا ـ وطُبع تفسيرُ السورةِ كاملة في جزء مستقل[(٢)].

وخيْرُ مَنْ يعرفُنا على طبيعةِ تفسير المنار صاحبُه، حيث وصفَه في صفحةِ العنوان بقوله: «تفسيرُ القرآنِ الحكيم: المشتهرُ باسم تفسير المنار: هذا هو التفسيرُ الوحيد، الجامعُ بين صحيحِ المأثور وصريح المعقول، الذي يبينُ حِكَمَ التشريع، وسننَ اللهِ في الإنسان، وكونَ القرآنِ هدايةً للبشر في كل زمان ومكان،

---

(١) تفسير المنار: ١٢/ ٣٢٤.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي: ٢/ ٥٧٧.

ويوازنُ بين هدايته وما عليه المسلمون في هذا العصر وقد أَعرضوا عنها، وما كان عليه سلفُهم المعتصمون بحبلها، مراعى فيه السهولةُ في التعبير، مجتنباً مزْجَ الكلامِ باصطلاحات العلوم والفنون، بحيث يفهمه العامة، ولا يَستغني عنه الخاصة.. وهذه هي الطريقةُ التي جرى عليها في دروسه في الأزهر حكيمُ الإسلام، الأستاذ الإمام، الشيخ محمد عبده، رضي الله عنه»[1].

وهذه الصفاتُ تجعلُ تفسيرَ المنار قريباً من المنهجِ الجامع في التفسير، الذي يجمعُ بين المأثورِ والمعقول، ويفسرُ القرآنَ بالقرآن والحديث وأقوالِ الصحابة والتابعين.

وقد ذكرَ الإمامُ محمد رشيد رضا في مقدمة تفسيره صلتَه بالشيخِ محمد عبده، وقصةَ تأليفِه لتفسير المنار، والمنهج الذي سلكه في التفسير. ونقتطفُ من مقدمته هذه الفقرات:

انتقدَ التوسعَ والاستطرادَ في معظمِ التفاسير السابقة، الذي يصرفُهم عن تدبرِ القرآنِ نفسِه واستنباطِ أحكامه: «كانَ من سوءِ حظِّ المسلمين أنَّ أكثرَ ما في كتبِ التفسير يُشغلُ قارئه عن هذهِ المقاصد العالية، والهدايةِ السامية، فمنها ما يشغلُه عن القرآن بمباحثِ الإعراب، وقواعدِ النحو، ونكت المعاني، ومصطلحاتِ البيان، ومنها ما يصرفُه عنه بجدلِ المتكلمين، وتخريجات الأصوليين، واستنباطاتِ الفقهاء المقلدين، وتأويلاتِ المتصوفين، وتعصبِ الفرق والمذاهب بعضها على بعض، وبعضُها يلفتُه عنه بكثرةِ الروايات، وما مُزجتْ به من خرافات الإسرائيليات، وقد زادَ الفخرُ الرازي صارفاً آخر عن القرآن، هو ما يوردُه في تفسيره من العلومِ الرياضية والطبيعية، وغيرها من العلوم الحادثة في الملة.. وقلّده بعضُ المعاصرين بإيرادِ مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه...».

... فكانت الحاجةُ شديدةً إلى تفسيرٍ تتوجّه العنايةُ الأُولى فيه إلى هدايةِ

---

(١) تفسير المنار: ١/١.

القرآن على الوجه الذي يتفقُ مع الآياتِ الكريمة المنزَّلة في وصفه. . . ثم العنايةُ إلى مقتضى حال هذا العصر، في سهولةِ التعبير، ومراعاة أفهامِ صنوف القارئين، وكشفِ شبهاتِ المشتغلين بالفلسفة والعلوم الطبيعية وغيرها. . إلى غير ذلك مما تراه قريباً، وهو ما يسَّرَهُ اللهُ بفضله لهذا العاجز. . . »[1].

اعتبرَ الإمامُ رشيد رضا نفسَه ميسَّراً لتحقيقِ مايحتاجه المسلمون المعاصرون من تفسيرِ القرآن، ثم ذكرَ قصتَه مع القرآنِ والتفسير والعلم منذَ أنْ كانَ في طرابلس الشام في شبابه، إلى أن قرأَ في طرابلس أَعداداً من جريدة (العُروة الوثقى) التي أَصدرَها جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده في باريس، فأُعجبَ بها، وكان إعجابُه أكثرَ بتفسيرِ القرآن في الجريدة، وهذا دفعَهُ إلى السفر إلى مصر للالتقاء بمحمد عبده، لأنَّ الأفغانيَّ توفيَ في الآستانة في ذلك الوقت.

وصلَ القاهرة في رجب سنة ١٣١٥هـ بعد أن جاوزَ الثلاثين من عمره، وأنشأَ فيها صحيفةَ المنارِ للدعوة إلى الإصلاح، وكان اتصالُه بالشيخ محمد عبده في صباحِ اليومِ التالي لليلةِ وصولِه إلى القاهرة، وهذا من محبتِه له، وحرصِه على اللقاءِ به.

اقترحَ رشيد على عبده تأليفَ تفسيرٍ على غرارِ المنهج الذي سارَ عليه في جريدة العروة الوثقى. فردَّ عليه عبده قائلاً: «إنَّ القرآنَ لا يحتاجُ إلى تفسير كامل من كلِّ وجه، فله تفاسيرُ كثيرة، أَتقنَ بعضُها ما لم يتقنْه بعض. . ولكنَّ الحاجةَ شديدة إلى تفسيرِ بعضِ الآيات، ولعلَّ العمرَ لا يتسعُ لتفسيرٍ كامل!.

«فاقترحتُ عليه أنْ يقرأَ درساً في التفسير، وكان ذلك في شعبان ١٣١٥هـ، ثم كررتُ عليه الاقتراحَ في رمضان. . فاعتذر.

. . قلت له: لو كتبتَ تفسيراً على هذا النحو، تقتصرُ فيه على حاجةِ العصر، وتتركُ كلَّ ما هو موجودٌ في كتب التفسير، وتبين ما أَهملوه!

قال: إنَّ الكتبَ لا تفيدُ القلوبَ العميَ. . لا تفيدُ الكتبُ إلاّ إذا صادَفَتْ

---

(١) تفسير المنار: ١/٧-١٠.

قلوباً متيقظة، عالمةً بوجهِ الحاجةِ إليها، وتسعى في نشرها. . .

ثم قـال: . . إنَّ الكلامَ المسـموع يؤثرُ في النفس أكثر ممايؤثرُ الكلامُ المقروء، لأنَّ نظرَ المتكلم وحركاتِه وإشاراتِه ولهجتَه في الكلام، كلُّ ذلك يساعدُ على فهمِ مرادِه من كلامه. . . إنَّ السامعَ يفهم (٨٠٪) من مراد المتكلم، والقارئ لكلامه يفهمُ منه (٢٠٪)!! . . ومع ذلك كنت أَقرأُ التفسير، وكان يحضرُهُ بعضُ طلبة الأزهر، وبعضُ طلبةِ المدارس الأميرية، وكنتُ أذكرُ كثيراً من الفوائد، التي تحتاجُ لها حالةُ العصر، فما اهتمَّ لها أحد فيما أعلم!! مع أنها كان من حقِّها أنْ تُكتب! وما علمتُ أَحداً كتبَ منها شيئاً خلا تلميذيْن قبطييْن من مدرسة الحقوق! كانا يراجعاني في بعض ما يكتبان!

قرأتُ تفسيرَ سورةِ العصر في سبعة أيام، وكلُّ درسٍ لا يقلُّ عن ساعتين أو ساعةٍ ونصف، بينتُ فيها وجْهَ كونِ نوعِ الإنسان في خسر، إلاّ من استثنى الله، وما المرادُ بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر، مما لو جُمعَ لكان رسالةً حسنةً في تفسير السورة!

ثم ذكرَ الشيخ محمد عبده طبيعتَه التي لا تنشرحُ للكلامِ إلاّ إذا رأى مَنْ أَمامَه أهلاً لكلامه، فإن كان مَنْ أَمامه خاملاً بليداً تكلمَ بكلامٍ مجمل موجز، وإن كان منتبهاً يقظاً، تكلم بكلامٍ عميق نافذ. . .

وما زالَ محمد رشيد رضا يُقنعُ شيخَه محمد عبده بإلقاءِ درسٍ في التفسير في الجامع الأزهر، حتى اقتنع بذلك!

قـال: «ولم أزلْ به حتى أَقنعتُـه بقراءةِ التفسير في الأزهر، فاقتنع، وبدأَ بالدرس في غرة المحرم سنة ١٣١٧هـ، وانتهى منه في منتصفِ المحرم سـنة ١٣٢٣هـ، فقرأَ زهاءَ خمسةِ أجزاء في ستِّ سنين، حيث وقفَ عند تفسيرِ قولِه تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾[النساء: ١٢٦] وتوفيَ في الثامن من جمادى الأولى سنة ١٣٢٣هـ رحمه الله وأثابه. .

كانت طريقتُه في قراءةِ الدرس على مقربة مما ارتآه في كتابةِ التفسير، وهو

أنْ يتوسَّعَ فيما أَغفلَه أو قصَّرَ فيه المفسرون، ويختصرَ فيما بَرَّزوا فيه من مباحثِ الألفاظ والإعراب ونكتِ البلاغة، وفي الروايات التي لا تدلُّ عليها ولا تتوقفُ على فهمها الآيات، ويتوكأُ في ذلك على عبارةِ تفسيرِ الجلالَيْن، الذي هو أوجزُ التفاسير، فكان يقرأ عبارتَه فيقرُّها أو ينتقدُ منها ما يراه منتقداً، ثم يتكلمُ في الآية أو الآياتِ المنزلة في معنى واحد، بما فتحَ اللهُ عليه..

وكنتُ أكتبُ في أثناءِ إلقاءِ الدرس مذكّرات، أودعُها ما أَراه أهمَّ ما قالَه، وأحفظُ ما أكتب لأجلِ أنْ أبيضَه، وأمدُّه بكلِّ ما أَتذكَّرُه في وقتِ الفراغ.

واقترحَ عليَّ بعضُ الإخوة أن أنشرَه في (المنار) فشرعْتُ في ذلك في أولِ المحرم سنة ١٣١٨هـ، في المجلد الثالث من المنار. وكنت أوَّلاً أُطلعُ الأستاذَ الإمامَ على ما أُعِدُّهُ للطبع كلَّما تيسرَ ذلك، بعدَ جمعِ حروفه في المطبعة قبلَ طبعه. فكان ربما ينقحُ فيه بزيادةٍ قليلة أو حذفِ كلمةٍ أو كلمات..

ولا أَذكرُ أَنه انتقدَ شيئاً مما لم يرهُ قبل الطبع، بل كان راضياً بالمكتوب، بل معجباً به! على أنه لم يكن كلُّه نقلاً عنه ومعزوّاً إليه، بل كان تفسيراً للكاتب (محمد رشيد رضا) من إنشائه، اقتبسَ فيه من تلك الدروسِ العاليةِ جُلَّ ما استفاده منها..

... ولما كانَ رحمه الله يقرأُ كلَّ ما أكتبُه، إمّا قبلَ طبعه ـ وهو الغالب ـ وإمّا بعدَه ـ وهو الأقل ـ لم أكنْ أَرى حرجاً فيما أَعزوه إليه، مما فهمتُه منه، وإنْ لم أكنْ كتبتُه عنه في مذكراتِ الدرس، لأنَّ إقرارَه إياه يؤكدُ صحةَ الفهمِ وصدقَ العَزْوِ..

وبعدَ أنْ توفّاهُ اللهُ صرتُ أَرى من الأمانةِ أنْ لا أَعزوَ إليه إلاّ ما كتبتُه عنه أو حفظتُه حفظاً، وصرْتُ أُكثرُ أنْ أقول: قال ما معناه، أو مثالُه، أو ما ملخصُه، على أَنني أعتقدُ أَنه لو بقي حياً واطلعَ عليه لأَقَرَّهُ كلَّه!

وقد بـدأتُ في حياته بتجريدِ تفسـير الجزءِ الثاني من المنار، وطبْعِه على حدته، وتوفيَ قبلَ طبْعِ نصفِه، فهو قد قرأ ما طُبعَ منه مرتين.

وقد اشتدَّ شعوري بعد ذلك بأنَّ عليَّ وحدي تبعةَ تأليفِ تفسيرٍ مستقل، وتبعةَ إيداعِه ما تلقيتُه عن هذا العالِمِ الكبيرِ المشرق البصيرة. . . .

هذا وإنني لما استقللْتُ بالعملِ بعد وفاتِه خالفْتُ منهجَه رحمه الله، بالتوسُّعِ فيما يتعلَّقُ بالآية من السنةِ الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعضِ المفردات، أو الجمل اللغوية، والمسائلِ الخلافية بين العلماء، وفي الإكثارِ من شواهدِ الآيات في السور المختلفة، وفي بعضِ الاستطرادات، لتحقيقِ مسائلَ تشتدُّ حاجةُ المسلمين إلى تحقيقها، بما يثبتُهم بهدايةِ دينهم في هذا العصر، أو يقوِّي حجتَهم على خصومِهم من الكفار والمبتدعة، أو يحلُّ بعضَ المشكلات التي أَعيا حلُّها، بما يطمئنُّ به القلب، وتسكنُ إليه النفس. .

وأَستحسنُ للقارئ أنْ يقرأَ الفصولَ الاستطراديةَ الطويلةَ وحْدَها، في غيرِ الوقت الذي يقرأُ فيه التفسير، لتدبُّرِ القرآن والاهتداءِ به في نفسه. . . »[1].

إن هذه الفقرةَ الأخيرةَ من مقدمةِ الإمام رشيد رضا تشيرُ إلى منهجه الذي اعتمده في التفسير، وندعو إلى استخراجِ ملامحِ ذلك المنهج منها.

وبعدما ذكرَ رشيد رضا قصةَ تفسيرِه ومنهجه فيه ذكرَ مقدمةً في علم التفسير، تحدثَ فيها عن أهميةِ علم التفسير، وبيانِ الحاجة إليه، وخطواته، والعلومِ التي يحتاجُها المفسر. وذكرَ أَنه اقتبسَ هذه المقدمة من دروسِ شيخِه محمد عبده، وأنه توسَّعَ في بسطِها وشرحِها وتوضيحها[2].

وأعلنَ الشيخ رشيد رضا في خاتمةِ الجزء الثاني من الطبعةِ الثانية من تفسيرِ المنار أن الشيخَ محمد عبده قرأَ الجزءَ الأول من تفسير المنار وأجازَه، وكأنَّ ذلك التفسير منه، حتى تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١].

وبعدَ ذلك ثقلَ عليه المرض، وتوفيَ في جمادى الأولى سنة ١٣٢٣هـ،

---

(١) تفسير المنار: ١/ ١٠ ـ ١٦ بتصرف واختصار.

(٢) المرجع السابق: ١/ ١٧ ـ ٣١.

فما بعد تفسيرِ تلك الآية من سورة البقرة من تأليفِ وكلامِ رشيد رضا، وليس من كلامِ محمد عبده، وإن كان المعنى والأفكار من محمد عبده[١].

وأعلنَ في خاتمةِ تفسير الجزء الخامس من المنار انتهاءَ دروسِ التفسير التي كان يُلقيها محمد عبده في الجامع الأزهر، حيث توقفَ عن إعطاءِ دروسِ التفسير في منتصف شهر محرم سنة ١٣٢٣هـ، ووصلَ إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٖ مُّحِيطٗا﴾ [النساء: ١٢٦].

قال الشيخ رشيد رضا: «وفي أثناءِ هذا الجزء انتهتْ دروسُ الأستاذِ الإمام عليه الرحمةُ والرضوان، وسنسيرُ في تتمةِ التفسير إنْ شاءَ الله، على الطريقةِ التي أخذناها عنه، ونهتدي بهديه فيها إن شاء الله..»[٢].

وهذا الإعلانُ من الشيخ رشيد رضا معناهُ أنَّ الأجزاءَ الإثني عشر من تفسير المنار يمكنُ تقسيمُها إلا ثلاثةِ أقسام:

القسم الأول: التفسيرُ للشيخ محمد عبده نصّاً وروحاً تقريباً، حيث كان الشيخ محمد رشيد رضا ينقلُ ما قالَه شيخُه في دروسه، وينشره في مجلة المنار، ولما أعدَّهُ للطبع عرضَه على شيخه فأجازَه واعتمدَه. وهذا في الجزءِ الأول من تفسير المنار.

القســم الثاني: التفسيرُ لمحمد رشيد رضا نصاً، ولمحمد عبده روحاً، وهذا في الأجزاءِ الأربعة التاليةِ من تفسيرِ المنار، حيث كان رشيد رضا يؤلِّفُ التفسير، وهو متأثرٌ بما ألقاه شيخُه محمد عبده في دروسه، وهناكَ فرقٌ بين الجزءِ الأول من تفسير المنار، وبين الأجزاءِ الأربعة التي تَلَتْه، حيث كان رشيد رضا يتوسَّعُ في التفسيرِ الأثري النظري في تلك الأجزاء الأربعة.

القسم الثالث: التفسيرُ لمحمد رشيد رضا نصّاً وروحاً وفكراً ومنهجاً، وهذا في الأجزاءِ السبعة الباقية من التفسير، من نهايةِ سورة النساء حتى نهايةِ

---

(١) تفسير المنار: ١/ ٤٩٨.

(٢) المرجع السابق: ٥/ ٤٧٦.

سورة يوسف، حيث كانت شخصيةُ الشيخِ رشيد أوضحَ ظهوراً في تلك الأجزاء، وبـدأ يتجهُ نحو المنهج الجامع للتفسير، ويُكثرُ من التفسـيرِ بالمأثور واللغـة والتوجيه. والأجـزاءُ الأخيرةُ من تفسيرِ المنار أكثرُ نضوجاً ومنهجية وعلميـة وسلفية وموضوعية.

ولذلك عدَّلَ الإمامُ رشيد رضا في صفحة العنوان، وقد سبقَ أنْ سجَّلنا كلامه في عنوان الجزء الأول من تفسير المنار. أما كلامُه في عنوان الجزء الثاني عشـر فهو: «تفسـير القرآن الحكيم: تفسير سلفي، أثري، مدني، عصري، إرشادي، اجتماعي، سياسي.

هذا هو التفسيرُ الوحيدُ الجامعُ بين صحيحِ المأثور، وصريح المعقول، وتحقيقِ الفروع والأصول، وحلِّ جميعِ مشـكلات الدين، ودحضِ شـبهات الماديين والجاحدين، وإقامةِ حجج الإسلام، وبيانِ سياستهِ المثلى في إصلاح الأنام، مع حِكَمِ التشريع وسننِ الله في الاجتماع، وكونِ القرآن هدايةً عامة للبشر في كلِّ زمان ومكان، وحجةُ الله البالغة، وآيته المعجزة الخالدة، ويوازنُ بين هدايته وما عليه المسـلمون في هذا العصر من الضعف والعجـز، وقد أعرضَ أكثرُهم عنها، وما كان عليه سـلفهم من السـيادةِ والعزة، إذ كانوا معتصمين بحبلِها، بما يثبتُ أنها هي السبيلُ لسعادة الدنيا والدين.

مراعى فيه السـهولةُ في التعبير، مجتنبـاً كثرة مزجِ الكلام باصطلاحات العلوم والفنون، بحيثُ تهتدي به العامة، وهو منتهى طلبة الخاصة..

وهذه هي الطريقـةُ التي توخّاها في دروسه في الأزهر حكيم الإسـلام، الأستاذ الإمام، الشيخ محمد عبده، قدس الله روحه»[1].

٢ ـ جمال الدين القاسمي وتفسيره (محاسن التأويل):

هو محمد جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم، القاسمي، الشامي،

---

(١) تفسير المنار: ١٢/١.

الحسني. وُلد في دمشق في جمادى الأولى سنة ١٢٨٣هـ، الموافق لشهر أيلول سنة ١٨٦٦م[١]. وتوفيَ في دمشق في جمادى الأولى سنة ١٣٣٢هـ، الموافق لشهر نيسان سنة ١٩١٤م، بعد أنْ أُصيبَ بمرضِ الحمى، فحاول صديقهُ الدكتور عبد الرحمن شهبندر علاجَه، ولكنه عجزَ عن ذلك، لأنه حانَ أجلُه، ولم يكملْ خمسين عاماً من عمره[٢].

عاش القاسميُّ حياةً قصيرة، لم تصلْ إلى الخمسين عاماً، لكنها كانت حياةً مليئةً بالعلم والعمل، والجهاد والإصلاح، والتأليف والتصنيف.

كان القاسميُّ إماماً وخطيباً في دمشق، وكان يُلقي عدةَ دروسٍ في اليوم الواحد، للعامة والخاصة، ويشاركُ في الحياة الاجتماعية، ويأمرُ بالمعروف وينهى عن المنكر، ويقومُ بواجبهِ في الدعوة والإصلاح والنصح والتذكير، والنقاش والحوار، ومواجهة البدع والخرافات، والانحرافات والضلالات.

وارتقى القاسمي في الفضلِ والمنزلة، حتى صارَ من كبارِ علماء دمشق، وكان الشيخ محمد رشيد رضا يسميه (علاّمَةَ الشام).

وكان القاسميُّ حريصاً على وقته، ينظمُ ساعاتِ يومه أحسنَ تنظيم، ويُحسنُ الاستفادةَ من كلِّ ساعة من وقته، لا يُضيعُ شيئاً منها.

وقد خلَّفَ جمالُ الدين القاسمي أكثرَ من مئة رسالة وكتاب، رغم أنه عاشَ أقلَّ من خمسين عاماً.

ومن أشهر كتبه المطبوعة: تفسيره (محاسن التأويل)، وقواعد التحديث، وإصلاح المساجد من البدع والعوائد، وتاريخ الجهمية والمعتزلة، وموعظة المؤمنين من إحياء علوم الدين، والمسح على الجوربين، والفضل المبين على عقد الجوهر الثمين.

---

(١) جمال الدين القاسمي لنزار أباظة، ص٩٣.

(٢) المرجع السابق، ص١٤٨.

وصدرتْ عن جمال الدين القاسمي عدةُ دراسات، منها كتاب (جمال الدين القاسمي وعصره)، لابنه الأستاذ ظافر القاسمي الذي توفي سنة ١٩٨٣م. وكتاب (شيخ الشام جمال الدين القاسمي) تأليف محمود مهدي الاستانبولي.

ومن أحدثِ الدراسات عنه كتاب (جمال الدين القاسمي) للدكتور نزار أباظة. وقد صدر في الحلقة رقم (٦٦) من سلسلة أعلام المسلمين، وصدرت طبعته الأولى سنة ١٩٩٧م.

وقد أَلَّفَ القاسميُّ تفسيرَه (محاسن التأويل) في شبابه، حيث ابتدأ تفسيرَه في شوال سنة ١٣١٦، وهو في الثالثة والثلاثين من عمره، وراجعه سنة ١٣٢٩هـ، قبل وفاته بثلاث سنوات.

وقدَّمَ لتفسيرِه بمقدمة طويلة، استغرقت الجزءَ الأولَ كاملاً، وعرضَ فيها مجموعةً من القواعدِ الضرورية لعلم التفسير، والعلومِ التي يحتاجُها المفسر، وطبيعةِ التعبير القرآني، والصلة بين القرآن و السنة، وغير ذلك.

وأحسنُ طبعاتِ (محاسن التأويل) تلك التي أشرفَ عليها الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي رحمه الله، حيث صحَّحَ التفسيرَ ورقَّمَه وخَرَّجَ آياته وأحاديثَه وعَلَّقَ عليه.

أشارَ القاسميُّ في مقدمةِ تفسيرِه إلى فضلِ العلم على العموم، وعلمِ تفسيرِ القرآن على الخصوص، وفضلِ تدبرِ القرآن وفهمِه. ثم تحدَّث عن صلتِه بالقرآن وتفسيره، فقال: «وإني كنتُ حركْتُ الهمةَ إلى تحصيلِ ما فيه من الفنون، والاكتحال بإثمدِ مطالبه لتنوير العيون، فأكببتُ على النظرِ فيه وشغفْتُ بتدبُّرِ لآلئ عقودِه ودراريه، وتصفحتُ ما قُدِّرَ لي من تفاسير السابقين، وتعرفتُ ـ حين درستُ ـ ما تخللَها من الغثِّ والسمين ـ ورأيتُ كُلاًّ ـ بقدرِ وسْعِه ـ حامَ حولَ مقاصده، وبمقدارِ طاقتِه جالَ في ميدانِ دلائلِه وشواهدِه.

وبعدَ أنْ صرفْتُ في الكشفِ عن حقائقِه شطراً من عمري، ووقفْتُ على الفحصِ عن دقائقِه قدْراً من دهري، أردتُ أنْ أنخرطَ في سلكِ مفسِّريه الأكابر،

قبلَ أنْ تُبلى السرائر، وتفنى العناصر، وأكونَ بخدمتِه موسوماً، وفي حملتِه منظوماً. . فشحذْتُ كليلَ العزم، وأيقظتُ نائم الهمّ. . واستخرْتُ الله تعالى في تقريرِ قواعدِه، وتفسيرِ مقاصده، في كتاب اسمُه بعون الله الجليل: (محاسن التأويل).

أُودعُه ما صفا من التحقيقات، وأُوشحُه بمباحثَ هي المهمات، وأُوضحُ فيه خزائنَ الأسرار، وأنقدُ فيه نتائج الأفكار، وأَسوقُ إليه فوائدَ التقطتُها من تفاسير السلفِ الغابر، وفرائد عثرتُ عليها في غضونِ الدفاتر، وزوائدَ استنبطتُها بفكري القاصر، مما قادني الدليلُ إليه، وقوّى اعتمادي عليه.

وسيحمدُ السابحُ في لُججِه، والسانحُ في حُججه، ما أودعْتُه من نفائِسه الغريبة البرهان، وأَودعْتُه من أحاديثه الصحاح والحسان، وبدائعِه الباهرة للأذهان. . فإنها لبُّ اللُّباب، ومهتدى أُولي الألباب! ولم أُطِلْ ذُيولَ الأبحاثِ بغرائب التدقيقات بل اخترتُ حُسنَ الإيجازِ في حلِّ المشكلات!.

ولا يخفى أنَّ من القضايا المسلَّمة، والمقدماتِ الضرورية، أنه مهما تأنَّقه الخبيرُ في تحريرِ دقائِقه السنية، فما هو إلاّ كالشرحِ لشذرةٍ من معانيه الظاهرة، وكالكشفِ للمعةٍ يسيرة من أنوارِه الباهرة، إذ لا قدرة لأحدٍ على استيفاءِ جميع ما اشتملَ عليه الكتاب، وما تضمنهُ من لبِّ اللّباب، لأنه منطوٍ على أسرارٍ مصونة، وجواهرَ حِكَمٍ مكنونة، لايكشفُها بالتحقيق إلاّ من اجتباه مولاه، ولاتتبينُ حقائقُها إلاّ بالتلقي عن خيرتِه ومصطفاه!.

. . وكان شُروعي في هذه النية الحميدة، بعد استخارتِه تعالى أياماً عديدة، في العشرِ الأُوَلِ من شوال في الحول السادس عشر بعد الثلاثمئة وألف»[١].

٣ ـ محمد الأمين الشنقيطي وتفسيره (أضواء البيان):

هو محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي. وُلد

---

(١) محاسن التأويل: ١/ ٤ ـ ٦ باختصار.

سـنة ١٣٠٥ عند ماءٍ يُسـمّى (تَنْبَهْ) من أعمال مديرية (كِيفا) في شنقيط ، وهي موريتانية الإسلامية حالياً .

توفي يومَ الخميس ١٧/ ١٢/ ١٣٩٣هـ بعد موسم الحج مباشرة، ودُفنَ في مقبرةِ المعلاة في مكة. وعاشَ تسعاً وثمانين سنة .

توفيَ أَبوهُ وهو صغير، وتركَ له ثروةً من الحيونِ والمال، وكفلَه أَخوالُه، حيث حفظَ القرآنَ عندهم، ثم طلبَ العلم في منطقتِه حتى أَتقنه، وصارَ عالماً بالقرآنِ والتفسيرِ والفقه والنحوِ والسيرة والتاريخ، وكان من كبار علماء بلده .

ودَرَّسَ وعَلَّمَ في بلاده شنقيط، وصارَ قاضياً فيها، وبقي يُدَرِّسُ ويعلِّمُ ويقضي ويُفتي فترةً من الزمن .

ثم خرجَ من شنقيط إلى الحجاز لأَداءِ فريضة الحج، والتقى بعلماءِ مكة والمدينة، وأُعجبوا بعلمه، وطلبوا منه البقاءَ في المدينة، ووافق هذا نيةً طيبةً في نفسه، لأنه كان يرغبُ بجوار رسول الله ﷺ، فأقامَ فيها .

وكان يُدرِّسُ التفسيرَ في المسجد النبوي سنواتٍ عديدة، ويحضرُ درسَه تلاميذٌ كثيرون، وانتفعَ بعلمه في التفسير المقيمُ والقادم، والداني والقاصي .

وفي عام ١٣٧١هـ افتُتِحَ المعهدُ العلمي ثم كلية الشريعة في الرياض، فانتُدب الشيخ محمد الأمين الشنقيطي للتدريس فيها، فأقام مدرساً فيها عشر سنوات .

وفي عـام ١٣٨١هـ افتُتحت الجامعـةُ الإسـلامية في المدينـة، فانتُدب للتدريس فيها، حيث درَّسَ التفسير وأصولَ الفقه، واستمر يُدرِّسُ التفسير في المسجد النبوي، كما كان يلقي دروساً لطلبة العلم في بيته .

وفي عام ١٣٨٦هـ افتُتح المعهدُ العالي للقضاء في الرياض فكان الشيخُ يُدرِّسُ فيه التفسير والأصولَ إضافةً إلى تدريسه في الجامعة الإسلامية، وكان قد جاوزَ الثمانين من عمره .

وكان عضواً في المجلس التأسيسي لرابطة العالم الإسلامي في مكة.

واستمرَّ على نشاطِه العلمي حتى آخر عمره، وكان من المعمِّرين حيث عاش تسعاً وثمانين سنة.

وتركَ محمد الأمين الشنقيطي عدداً من المؤلفات، من أشهرِها تفسيره الذي توفي قبلَ إتمامه.

ومن مؤلفاته: منعُ جوازِ المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز. ودفعُ إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب. وقد طُبع الكتابان في المجلد العاشر من (أضواء البيان) ومنها مذكرةٌ في أُصولِ الفقه، ومذكرةٌ في آداب البحث والمناظرة، ورسالةٌ في آيات الصفات[١].

سمّى الإمامُ الشنقيطي تفسيره (أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن)، وهذا الاسمُ يشيرُ إلى طبيعةِ التفسير، حيث سيفسِّرُ القرآنَ بالقرآن في المقام الأول، ثم بالسنة وأقوال الصحابة.

وطُبَع الجزءُ الأول من تفسيره سنة ١٣٨٠هـ ـ ١٩٦٠م. ووالى الشيخُ إصدارَ تفسيره، حتى وصلَ إلى نهاية تفسير سورة المجادلة.

وصدرَ الجزءُ السابع من (أضواء البيان) في شهر شوال من سنة ١٣٩٦هـ، الذي توقف فيه عند نهاية تفسير سورة المجادلة[٢]. بعد وفاة الشيخ بثلاث سنوات.

وقد أتمَّ (أضواء البيان) وكتب تفسير أجزاء القرآن الثلاثة الأخيرة، الشيخُ عطية محمد سالم، تلميذُ الشنقيطي، الملازمُ له طيلة إقامته في السعودية، والقاضي في المحكمة الشرعية في المدينة المنورة. وفرغَ الشيخُ عطية من تتمة الأضواء في رمضان سنة ١٣٩٦هـ.

---

(١) انظر ترجمة الشيخ الشنقيطي في آخر الجزء العاشر من أضواء البيان: ١/ ١٨ ـ ٥٥.

(٢) أضواء البيان: ٧/ ٨٢٦.

وقد طُبع تفسير (أضواء البيان) كاملاً بعد وفاةِ الشيخ محمد الأمين الشنقيطي في عشرةِ مجلدات، ويمكن تقسيمُه إلى ثلاثة أقسام:

الأول: الأجزاءُ السبعةُ الأُولى: تفسير الشيخ الشنقيطي. الذي وصلَ فيه إلى نهاية سورة المجادلة.

الثاني: الجزءان الثامن والتاسع: تتمةُ التفسير التي كتبها تلميذُ الشيخ القاضي عطية محمد سالم.

الثالث: الجزء العاشر: يضمُّ ثلاثة كتب: دفعُ إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، ومنعُ جواز المجاز في المنزل للتعبد والإعجاز، للشيخ الشنقيطي. وترجمةُ الشيخ الشنقيطي بقلم تلميذه الشيخ عطية محمد سالم.

وقد كتب الشيخُ الشنقيطي لتفسيره مقدمةً مطوَّلة، تحدَّث فيها عن أنواعِ بيان القرآن للقرآن، وعن هدفِه من كتابة تفسيره، ومنهجه فيه.

أوردَ في المقدمة المطوَّلة أكثر من ثلاثين نوعاً من أنواع بيان القرآن للقرآن، وأوردَ على كل نوع عدةَ نماذج من آيات القرآن[1].

ثم عرَّفَ في المقدمة الإجمالَ والبيان في اصطلاح أهل أصول الفقه، وعرضَ أربعَ مسائل تتعلقُ بالبيان[2].

ويهمُّنا هنا أنْ نسجِّلَ الفقرةَ التي تحدث فيها الشنقيطي عن منهجه في التفسير. قال: «أمّا بعد: فإنّا عرَفنا إعراضَ أكثرِ المتسمّين باسم الإسلام اليوم عن كتاب ربهم، ونبذَهم له وراء ظهورهم، وعدم رغبتِهم في وعده، وعدم خوفِهم من وعيده؛ وعلمْنا أنَّ ذلك مما يُعَيِّنُ على مَنْ أعطاهُ الله علماً بكتابه، أن يجعلَ همتَه في خدمتِه، من بيان معانيه، وإظهار محاسنه، وإزالة الإشكال عما أشكل

(١) انظر مقدمة أضواء البيان: ١/ ٥ ـ ٣٠.
(٢) انظر المقدمة السابقة: ١/ ٣١ ـ ٣٧.

منه، وبيان أحكامه، والدعوة إلى العمل به، وترك كلٍّ ما يخالفه.

واعلم أنَّ السنة كلَّها تندرجُ في آيةٍ واحدة من بحره الزاخر، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾ [الحشر: ٧].

ومن أهمِّ المقاصد في ذلك، هذا الكتاب المبارك (تفسير أضواء البيان) الذي هذه ترجمته.

واعلمْ أنَّ من أهمِّ المقصود بتأليفه أمران:

أحدُهما: بيانُ القرآن بالقرآن. لإجماع العلماء على أنَّ أشرفَ أنواعِ التفسير وأجلَّها تفسيرُ كتاب الله بكتاب الله، إذ لا أحدَ أعلمُ بمعنى كلامِ الله جلَّ وعلا من الله جلَّ وعلا.

وقد التزمنا أن لانبينَ القرآن إلاّ بقراءةٍ سبعية، سواء كانت قراءةً أُخرى في الآية المبينة نفسها، أو آيةً أُخرى غيرها، ولا نعتمدُ على البيان بالقراءات الشاذة. وربَّما ذكرنا القراءة الشاذة استشهاداً للبيان بقراءةٍ سبعية..

الثاني: بيانُ الأحكامِ الفقهية في جميع الآيات المبيَّنة ـ بالفتح ـ في هذا الكتاب.

فإننا نبينُ ما فيها من الأحكام، وأدلتَها من السنة، وأقوالَ العلماء في ذلك، ونرجحُ ما ظهرَ لنا أنه الراجح، بالدليل، من غير تعصبٍ لمذهب معين، ولا لقولِ قائلٍ معين، لأننا ننظرُ إلى ذاتِ القول لا إلى قائِله، لأنَّ كلَّ كلامٍ فيه مقبولٌ ومردود، إلاّ كلامُه ﷺ، ومعلومٌ أنَّ الحقَّ حق، ولو كان قائله حقيراً!.

وقد تضمن هذا الكتاب أُموراً زائدة على ذلك، كتحقيق بعض المسائل اللغوية، ومايُحتاج إليه فيه من المسائل الأصولية، والكلام على أسانيد الأحاديث.

واعلم أنَّ أنواع البيان المذكورة في هذا الكتاب المبارك كثيرةٌ جداً. وقد أردنا أن نذكر في هذه الترجمة جُمَلاً من ذلك، ليَعلمَ بها الناظرُ كثرة ما تضمنَهُ هذا الكتابُ المبارك من أنواع بيان القرآن بالقرآن. ويكون على بصيرةٍ في الجملة من

فائدته، قبل الوقوف على جميع ما فيه...»[1].

وبما أنَّ منهجَ الإمامِ الشنقيطي في تفسيره هو بيان القرآن بالقرآن والسنة، واستخراجُ الأحكام الفقهية في الآيات، وإزالةُ الإشكال عنها، فإنه لم يفسِّر آيات القرآن آيةً آية، كما فعل معظمُ المفسرين، وإنما فسَّر الآيات التي تحتاجُ إلى بيان، وفي معناها آياتٌ أُخرى وأحاديث صحيحة.

ونحنُ مع تلميذِه الشيخ عطية محمد سالم في قوله في مقدمة تتمةِ أضواء البيان: «... ينبغي أن يُعلمَ أنَّ أضواءَ البيان ليسَ تفسيراً شاملاً لجميع القرآن كما يظنُّهُ البعض، ويتطلبُ فيه تفسير كلِّ ما أشكل عليه.

بل هو تفسيرٌ خاص، على منهج مختصٍّ به، وهو تفسيرُ ما أُجمل من الآيات، أيّاً كان سببُ إجمالِه، من حيث اللفظ أو من حيث المعنى. وبيان هذا الإجمال من آيات أخر، سواء كان بالمنطوق أو المفهوم أو الفحوى، أو بسنةٍ ثابتة، ثم استتباعُ ذلك ببيان الأحكام التي تؤخذُ من الآية، فهو تفسيرٌ خاص، وبمنهج مختصٍّ به..»[2].

٤ ـ محمد الطاهر بن عاشور وتفسيره: (التحرير والتنوير):

هو الإمامُ محمد الطاهر بن عاشور، وُلد في تونس سنة ١٢٩٦هـ الموافق لسنة ١٨٧٩م. وتوفي في تونس سنة ١٣٩٣هـ، الموافق لسنة ١٩٧٣م. وقد عَمَّرَ طويلاً، حيث عاشَ أكثر من خمسٍ وتسعين سنة.

قال عنه خيرُ الدين الزركلي: «محمد الطاهر بن عاشور: رئيسُ المفتين المالكيّين بتونس. مولدُه ووفاتُه ودراستُه بها. عين سنة ١٩٣٢ شيخاً للإسلام مالكياً، وهو من أعضاءِ المجمعيْن العربييْن، في دمشق والقاهرة.

له مؤلفاتٌ مطبوعة. من أشهرها: (مقاصد الشريعة الإسلامية) و(أصول

---

(١) أضواء البيان: ١/ ٥ ـ ٧.
(٢) المرجع السابق: ٨/ ٥.

النظام الاجتماعي في الإسلام) و(التحرير والتنوير) في تفسير القرآن و(الوقف وآثاره في الإسلام) و(أصول الإنشاء والخطابة) و(موجز البلاغة) و(تحقيق ديوان بشار بن برد) في أربعة أجزاء. وكتب كثيراً في المجلات.. وهو والد الشيخ محمد الفاضل..)[1].

أُسندَ إليه منصبُ القضاء في تونس سنة ١٣٣١، وهو في الخامسةِ والثلاثين من عمره، واستمرَّ فيه عشرَ سنوات.

وفي سنة ١٣٤١هـ نُقل من منصب القضاء إلى منصب الإفتاء، وعُيِّنَ رئيساً للمفتين في تونس، وهو في الخامسة والأربعين من عمره.

ابتدأ الإمامُ ابنُ عاشور كتابة تفسيره في سنة ١٣٤١هـ، وهو في الخامسة والأربعين من عمره، واستمرَّ يفسرُ القرآن حوالي أَربعين سنة!.

قال في خاتمة تفسيره: «وكان تمامُ هذا التفسير عصرَ يومِ الجمعة، الثاني عشر من شهر رجب عام ثمانين وثلاثمئة وألف، فكانت مدة تأليفه تسعاً وثلاثين سنة وستة أشهر...»[2].

وكان إتمامُه للتفسير قبلَ موتِه بثلاث عشرة سنة.

وأَطلقَ على تفسيره اسم: (تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، في تفسير الكتاب المجيد). واختصره باسم (التحرير والتنوير من التفسير)[3].

ومما قاله ابنُ عاشور في مقدمةِ تفسيره: «أما بعد: فقد كانَ أكبر أُمنيتي منذُ أمدٍ بعيد، تفسيرَ الكتاب المجيد، الجامعِ لمصالحِ الدنيا والدين، وموثقٍ شديدِ العُرى من الحقِّ المتين، والحاوي لكلياتِ العلوم ومعاقد استنباطها، والآخذِ قوس البلاغة من محلٍّ نياطها.

... ولكني كنتُ على كَلَفي بذلك أتجهَّمُ التقحُمَ على هذا المجال،

---

(١) الأعلام للزركلي: ٦/ ١٧٤.

(٢) تفسير التحرير والتنوير: ٢٠/٦٣٦.

(٣) المرجع السابق: ١/ ٨-٩.

وأُحجمُ عن الزَّجِّ بسيةِ قوسي في هذا النضال . . .

فبقيتُ أُسَوِّفُ النفسَ مرةً ومرة، أَسومُها زجراً، فإنْ رأيتُ منها تصميماً أَحلْتُها على فرصةٍ أُخرى، وأَنا آملُ أنْ يُمنحَ من التيسير ما يشجعُ على قصدِ هذا الغرضِ العسير.

وفيما أنا بين إقدامٍ وإحجام، أتخيلُ هذا الحقل مرةً القتاد وأُخرى الثَّمام، إذا أنا بأملي قد خُيِّلَ إليَّ أنه تباعد أو انقضى، إذ قُدِّرَ أن تُسندَ إليَّ خطةُ القضاء . .

. . ولم أزل كلَّما مضتْ مدةٌ يزدادُ التمني، وأرجو إنجازَه، إلى أن أوشك أن تمضي عليه مدةُ الحيازة، فإذا الله قد منَّ بالنقلة إلى خطةِ الفتيا . . .

. . . هنالك عقدتُ العزمَ على تحقيق ما كنتُ أضمرتُه، واستعنتُ بالله تعالى واستخرتُه . . وجعلتُ حقاً عليَّ أن أُبدي في تفسير القرآن نُكتاً، لم أرَ منْ سبقني إليها، وأنْ أقفَ موقف الحكم بين طوائف المفسرين، تارةً لها، وآونةً عليها . . فإنَّ الاقتصار على الحديث المُعادِ تعطيلٌ لفيضِ القرآن الذي ما له من نفاد . . .

ولقد رأيتُ الناس حول كلام الأقدمين أحد رجلين: رجلٍ معتكفٍ فيما شادَه الأقدمون. وآخر آخذٌ بمعولِه في هدمِ ما مضتْ به القرون . . وفي كلتا الحالتين ضُرٌّ كثير . . وهناك حالةٌ أُخرى ينجبرُ بها الجناحُ الكسير، وهي: أن نعمدَ إلى ما شادَهُ الأقدمون فنهذِّبه ونزيده، وحاشا أن ننقضَه أو نبيده، عالماً بأنَّ غَمْضَ فضلِهم كُفرانٌ للنعمة . . .

. . . والتفاسيرُ وإن كانت كثيرة، فإنك لا تجدُ الكثير منها إلاّ عالةً على كلامٍ سابق، بحيث لا حَظَّ لمؤلفه إلاّ الجمع، على تفاوتٍ بين اختصارٍ وتطويل.

وإنَّ أهمَّ التفاسير: تفسير (الكشاف) و(المحرر الوجيز) لابن عطية، و(مفاتيح الغيب) لفخر الدين الرازي، وتفسير البيضاوي الملخص من مفاتيح الغيب والكشاف بتحقيق بديع، وتفسير الشهاب الآلوسي. وما كتبه الطيبي والقزويني والتفتازاني على الكشاف، وما كتبه الخفاجي على تفسير البيضاوي،

وتفسير أبي السعود، وتفسير القرطبي، والموجود من تفسير الشيخ محمد بن عرفة التونسي، من تقييد تلميذه الأبّي، وهو بكونه تعليقاً على تفسير ابن عطية أشبه منه بالتفسير، لذلك لا يأتي على جميع آي القرآن وتفاسير الأحكام، وتفسير الإمام محمد بن جرير الطبري، وكتاب (درة التنزيل) المنسوب لفخر الدين الرازي، وربما ينسب للراغب الأصفهاني. . ولقصدِ الاختصار أُعرض عن العَزو إليها. .

وقد ميَّزتُ ما يفتحُ اللهُ لي من فهمٍ في معاني كتابه، وما أجلُبُه من المسائل العلمية، مما لا يذكُره المفسرون، وإنما حسبي من ذلك عدمُ عثوري عليه فيما بين يديَّ من التفاسير في تلك الآية خاصة. . .

ولستُ أدّعي انفرادي به في نفسِ الأمر، فكم من كلامٍ تُنشئُه تجدُك قد سبقكَ إليه متكلم، وكم من فهمٍ تستظهره، وقد تقدمك إليه متفهم.

إنّ معاني القرآن ومقاصده ذاتُ أفانين كثيرة، بعيدة المدى، مترامية الأطراف، موزعةً على آياته، فالأحكامُ مبيَّنة في آيات الأحكام، والأدبُ في آياتها، والقصصُ في مواقعها، وربما اشتملت الآيةُ الواحدةُ على فنَّين من ذلك أو أكثر.

وقد نحا كثيرٌ من المفسرين بعض تلك الأفنان، ولكنَّ فنّاً من فنون القرآن لا تخلو عن دقائِقه ونكتِه آيةٌ من آياتِ القرآن، وهو فنُّ دقائِق البلاغة، وهو الذي لم يخصّه أحدٌ من المفسرين بكتاب، كما خصّوا الأفانينَ الأخرى. .

من أجل ذلك التزمتُ أنْ لا أُغفلَ التنبيه على ما يلوحُ لي من هذا الفنِّ العظيم في آيةٍ من أي القرآن كلَّما أُلهمْتُه، بحسب مبلغِ الفهم وطاقةِ التدبر.

وقد اهتممتُ في تفسيري هذا ببيان وجوهِ الإعجاز، ونُكَتِ البلاغة، وأساليب الاستعمال، واهتممتُ أيضاً ببيان اتصال الآي بعضها ببعض، وهو منزعٌ جليل، قد عنى به فخرُ الدين الرازي، وألَّف فيه برهانُ الدين البقاعي كتابه، المسمى (نظم الدرر في تناسب الآي والسور)، إلاّ أنهما لم يأتيا في كثيرٍ من الآي

بما فيه مقنع، فلم تزل أنظارُ المتأمِّلين لفصل القول تتطلع، أما البحثُ عن تناسب مواقعِ السور بعضها إثرَ بعض، فلا أراه حقاً على المفسر.

ولم أُغادر سورةً إلاّ بينتُ ما أُحيطُ به من أغراضِها، لئلا يكون الناظرُ في تفسير القرآن مقصوراً على بيان مفرداته ومعاني جمله، كأنها فِقَرٌ متفرقة، تصرفه عن روعةِ انسجامه، وتحجبُ عنه روائع جمله.

واهتممتُ بتبيينِ معاني المفردات في اللغة العربية بضبطٍ وتحقيق، مما خلتْ عن ضبطِ كثيرٍ قواميسُ اللغة.

وعسى أن يجدَ فيه المطالعُ تحقيقَ مراده، ويتناولَ منه فوائدَ ونكتاً على قدر استعداده. فإني بذلتُ الجهدَ في الكشف عن نُكتٍ من معاني القرآن وإعجازه، خلت عنها التفاسير، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه هممُ النحارير، بحيثُ ساوى هذا التفسير ـ على اختصارِه ـ مطولات القماطير، ففيه أحسنُ ما في التفاسير، وفيه أَحْسَنُ مِنْ ما في التفاسير!!»[1].

نَدعو إلى إمعانِ النظر في هذه المقدمة، واستخراج قواعدِ منهج ابن عاشور في التفسير، وطبيعة تفسيره، ونظرتِه إلى التفاسير الأخرى.

وبعد تلك المقدمة التمهيدية ذكر ابنُ عاشور عشر مقدماتٍ ضرورية، تتعلقُ بالقرآن وعلومه وتفسيره.

المقدمة الأولى: في التفسير والتأويل وكون التفسير علماً. والثانية: في استمداد علم التفسير. والثالثة: في صحة التفسير بغير المأثور ومعنى التفسير بالرأي. والرابعة: فيما يحق أن يكون غرض المفسر. والخامسة: في أسباب النزول. والسادسة: في القراءات. والسابعة: في قصص القرآن. والثامنة: في اسم القرآن وآياته وسوره وترتيبها وأسمائها. والتاسعة: في أن المعاني التي تتحملها جمل القرآن تعتبر مرادة بها. والعاشرة: في إعجاز القرآن[2].

---

(١) التحرير والتنوير: ١/ ٥ ـ ٨ باختصار.

(٢) انظر هذه المقدمات في (التحرير والتنوير): ١/ ١٠ ـ ١٣٠.

وقد صدرَ تفسيرُ (التحرير والتنوير) عن الدار التونسية للنشر في تونس في عشرين مجلداً كبيراً.

٥ ـ الدكتور وهبة الزحيلي وتفسيره: (التفسير المنير):

نختمُ تعريفنا بأشهرِ التفاسير المعاصرة بأحدث تفسير، صاحبُه ما زال حياً ـ حتى تاريخه ١/ ١/ ١٤٢٠هـ ـ ١٧/ ٤/ ١٩٩٩م ـ إنه التفسيرُ المنير للدكتور وهبة الزحيلي.

وُلدَ الدكتور وهبة مصطفى الزحيلي في بلدة (دير عطية) القريبة من دمشق سنة ١٩٣٢م ـ ١٣٥٢هـ.

دَرَسَ في كلية الشريعة في جامعة دمشق. وأكملَ دراستَه العالية في جامعة الأزهر، وحصلَ على الدكتوراه في الفقه الإسلامي سنة ١٩٦٢، وكان عنوانُ رسالتِه للدكتوراه (آثارُ الحرب في الفقه الإسلامي).

وعمل مدرساً في جامعة دمشق والجامعاتِ الأخرى ـ كجامعة العين في الإمارات العربية المتحدة ـ أكثر من ثلاثين سنة. وأصدرَ أكثر من ثلاثين كتاباً، منها كتبٌ موسوعية[(١)].

من أشهر كتبه: (الفقه الإسلامي وأدلتُه) في ثمانية مجلدات، و(أصول الفقه الإسلامي) في مجلدين، وتحقيق (تحفة الفقهاء) للسمرقندي، بالاشتراك، و(المصطفى من أحاديث المصطفى ﷺ).

وقد استغرقَ تأليفُ تفسيره (التفسير المنير) عدة سنوات، وفرغَ منه في ١٣ ذو القعدة ١٤٠٨ الموافق ٢٧/ ٦/ ١٩٨٨.

وصدرَ تفسيرُه عن دار الفكر بدمشق سنة ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م. في ستة عشر مجلداً كبيراً. وسمّى تفسيره: (التفسير المنير: في العقيدة والشريعة والمنهج).

---

(١) التفسير المنير للدكتور الزحيلي: ٣٠/ ٤٨٤.

ومما قاله عن تفسيره: « . . وهذا كتابٌ اصطفيتُ فيه من العلومِ والمعارف والثقافات المستقاة من مَعينِ القرآن الكريم الذي لا يَنضب، ما هو لصيقٌ بحاجاتِ العصر، ومتطلبات التثقيف. بأسلوبٍ جليٍّ مبسَّط، وتحليلٍ علميٍّ شامل، وتركيزٍ على الغايات والأهداف المنشودة من تنزيل القرآن المجيد، ومنهجٍ بعيدٍ عن الإطالةِ المملة، والإيجازِ المخل، الذي لا يكاد يُفهمُ منه شيء . . .

. . وهدفي الأصيلُ من هذا المؤلَّف هو: ربطُ المسلم بكتاب الله عز وجل ربطاً علمياً وثيقاً، لأنَّ القرآن الكريم هو دستورُ الحياة البشرية العامة والخاصة، للناسِ قاطبة وللمسلمين خاصة. . لذا لم أقتصر على بيانِ الأحكام الفقهية للمسائل بالمعنى الضيق المعروف عند الفقهاء، وإنما أردتُ إيضاحَ الأحكام المستنبطة من آي القرآن الكريم بالمعنى الأعم، الذي هو أعمقُ إدراكاً من مجرد الفهم العام، والذي يشملُ العقيدة والأخلاق، والمنهج والسلوك، والدستور العام، والفوائد المجنية من الآية القرآنية تصريحاً أو تلميحاً أو إشارة، سواء في البنية الاجتماعية لكلِّ مجتمعٍ متقدمٍ متطور، أم في الحياة الشخصية لكلِّ إنسان.

. . والمهمُّ من التفسير والبيان مساعدةُ المسلم على تدبر القرآن الكريم، المأمور به في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة صٓ: ٢٩].

. . . وسيكونُ تفسيري تفسيراً يجمعُ بين المأثورِ والمعقول. مستمدّاً من أوثقِ التفاسير القديمة والحديثة، ومن الكتابات حول القرآن: تأريخاً، وبيان أسباب النزول، وإعراباً يساعدُ في توضيح كثيرٍ من الآيات. . ولستُ بحاجةٍ إلى كثرة الاستشهاد بأقوالِ المفسرين، وإنما سأذكرُ أَوْلى الأقوال بالصواب، بحسب قرب اللفظ من طبيعة لغة العرب وسياقِ الآية.

ولستُ في كلِّ ما أكتبُ متأثراً بأيِّ نزعةٍ معينة، أو مذهب محدد، أو إرثٍ اعتقاديٍّ سابق لاتجاهٍ قديم، وإنما رائدي هو الحق الذي يهدي إليه القرآن. .

. . . وينحصرُ منهجي أو خطةُ بحثي فيما يأتي:

١ ـ قسمةُ الآياتِ القرآنية إلى وحداتٍ موضوعية بعناوينَ موضحة.

٢ ـ بيانُ ما اشتملتْ عليه كلُ سورة إجمالاً.

٣ ـ توضيحُ اللغويات.

٤ ـ إيرادُ أسباب نزول الآيات في أصحِّ ما وردَ فيها، ونبذُ الضعيف منها، وتسليطُ الأضواءِ على قصصِ الأنبياء، وأحداث الإسلام الكبرى.

٥ ـ التفسيرُ والبيان.

٦ ـ الأحكامُ المستنبطةُ من الآيات.

٧ ـ البلاغة، وإعرابُ كثيرٍ من الآيات، ليكون ذلك عوناً على توضيح المعاني.

وسأحرصُ بقدرِ الإمكانِ على التفسير الموضوعي: وهو إيرادُ تفسير مختلف الآيات القرآنية الواردة في موضوع واحد، كالجهاد والحدود والإرث...»[1].

وذكر في خاتمة تفسيره المطوَّل أهمَّ المصادر التي رجعَ إليها: تفسير إمام المفسرين ابن جرير الطبري في الآثار والمعقول وأسباب النزول، وبعض التصويبات والترجيحات، وتفسير الكشاف للزمخشري، والبحر المحيط لأبي حيان، وغرائب القرآن للنظام النيسابوري، وتفاسير البيضاوي والنسفي وأبي السعود والجلالين، في اللغويات والمعاني الدقيقة والمناسبات، والتفسير الكبير للفخر الرازي في الإلـهيات والعقائد والكونيات والأخلاق وبعض الأحكام.. وأسباب النزول للواحدي النيسابوري، وأسباب النزول للسيوطي.. وتفسير القرطبي، وأحكام القرآن لابن العربي، وأحكام القرآن للجصاص الرازي. وتفسير الحافظ ابن كثير، وفتح القدير للشوكاني، والتسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي، وتفسير البغوي، وتفسير الخازن.

---

(١) التفسير المنير: ١/ ٥ ـ ٩ مقتطفات.

واستأنستُ أحياناً بعبارات بعض المفسرين الجدد الجميلة والمفيدة: كتفسير المنار للشيخ رشيد رضا، ومحاسن التأويل للقاسمي، وتفسير المراغي، وفي ظلال القرآن..

وأمّا الإعرابُ فمرجعي الأصلي كتاب (البيان في إعراب القرآن) لأبي البركات بن الأنباري، ومرجعي في البلاغة (صفوة التفاسير) لمحمد علي الصابوني[1].

* * *

(١) التفسير المنير: ٣٠/ ٤٨٧.

المبحث الرابع

سيد قطب ومنهجه في تفسير (الظلال)

سيد قطب: الرائد المجاهد الشهيد:

سيد قطب هو رائدُ الفكر الإسلامي المعاصر، وهو الباحثُ الإسلاميُّ الكبير، وهو إمامٌ في الدعوة والفكر، وإمامٌ في الجهاد والمواجهة، وإمامٌ في التفسير.

ولسيد قطب منزلةٌ عاليةٌ مرموقةٌ عند المثقفين المسلمين المعاصرين، وعند الدعاةِ الإسلاميين، وقد كتب الله لكتبِه ومؤلفاته القبولَ في الساحةِ الإسلامية والدعوية، وهذا من فضلِ الله عليه.

وصلتي بسيد قطب ومؤلفاتِه وتفسيره وفكره وثيقةٌ ولله الحمد، ورغم أنَّ الله لم يقدِّر لي الالتقاء بسيد قطب ـ لأنني سافرتُ للدراسة في جامعة الأزهر بعد أن اعتُقل سيد قطب بشهرين، سنة ١٩٦٥م، ولكني نشأتُ على كتبه الإسلامية وتفسيره الرائد (في ظلال القرآن).

وقدَّر الله لي أن أكمل دراساتي الأكاديمية في تراث سيد قطب القرآني:

حصلت على شهادة الماجستير في التفسير، وكان موضوعُ الرسالة: (سيد قطب والتصوير الفني في القرآن)، وكان ذلك سنة ١٤٠٠هـ ـ ١٩٨٠م.

وحصلتُ على شهادة الدكتوراه في التفسير سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٤م. وكان موضوعُ الرسالة: (في ظلال القرآن: دراسة وتقويم).

وطبعْتُ رسالتي الماجستير والدكتوراه في خمسة كتب: سيد قطب الشهيد

الحي، ونظرية التصوير الفني في القرآن عند سيد قطب، ومدخل في ظلال القرآن، والمنهج الحركي في ظلال القرآن، وفي ظلال القرآن في الميزان.

وأصدرتُ دراسةً شاملةً عن حياة سيد قطب سنة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢ بعنوان: (سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد). ولله الحمد.

وأُقدمُ فيما يلي بطاقةَ تعريفٍ بسيد قطب، لا تخرجُ عن كونِها رؤوسَ أقلام، وأُحيلُ على كتابي (سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد) لمعرفةِ تفاصيلِ حياته:

هو: سيد قطب إبراهيم حسين شاذلي.

وُلد في قرية (موشة) في منطقة أسيوط، في صعيدِ مصر، في ٩/ ١٠/ ١٩٠٦م. درسَ في قريته، ثم في القاهرة، وتخرجَ من كلية دار العلوم سنة ١٩٣٣ حاملاً شهادة البكالوريوس في الآداب. وعمل في وزارة المعارف مدرساً، ثم مفتشاً، ثم خبيراً تربوياً، من سنة ١٩٣٣ حتى سنة ١٩٥٢ حيث استقال من الوزارة لخلافاتٍ أكاديمية بينه وبين رجال الوزارة.

كان في شبابه مقبلاً على الأدب والنقد والشعر، والكتابة الأدبية في الصحف والمجلات، كما كان من تلاميذ الأديب عباس العقاد ومريديه، وترقّى سيد في عالم النقد الأدبي حتى صارَ في مقدمة رواد النقدِ الأدبي في مصر والعالم العربي في الأربعينيات.

وتمَّ إيفادُه في جولةٍ تربوية ميدانية إلى أمريكا، مبعوثاً من قِبل وزارة المعارف، للاطلاعِ على مناهج التدريس والتعليم في أمريكا، عام ١٩٤٨م، ومكث فيها أقلَّ من سنتين، حيث عاد إلى مصر سنة ١٩٥٠م.

وتحوَّل من الاهتماماتِ الأدبية إلى الاهتمامات الإصلاحية على أساسٍ إسلامي، حيث صار له كتاباتٌ وندواتٌ ونشاطاتٌ اجتماعية وسياسية واقتصادية وأدبية وفكرية حتى قيام الثورة في مصر بزعامة جمال عبد الناصر سنة ١٩٥٢م.

وفي هذا الوقت كانت جماعة الإخوان المسلمين في قمة نشاطها وقوتها

ونفوذها في مصر، وكان سيد قطب معروفاً باهتماماتِه الإسلامية، وكان صديقاً للإخوان، وكان له دورٌ في الإعدادِ للثورة، وكان ضباطُ الثورة يتَّصلون به وينسِّقون معه قبل قيامها.

وعملَ فترةً مع رجال الثورة، وكان يحسنُ الظنَّ بهم، ويهدفُ إلى التعاون معهم لإصلاحِ أوضاعِ مصر، ولما بدأت الخلافاتُ بين رجال الثورة والإخوان المسلمين حاول سيد قطب الإصلاح بينهم، باعتباره صديقاً للطرفين، ولكنَّ رجال الثورة كانوا مصمِّمين في القضاء على الإخوان، تنفيذاً لأوامرَ من جهاتٍ خارجية، يهودية وصليبية!!.

عند ذلك انضمَّ سيد قطب إلى الإخوان المسلمين، وكان هذا سنة ١٩٥٣، ونشط في الواجبات الدعوية والإعلامية والثقافية معهم.

ووقعَ الصدامُ بين عبد الناصر والإخوان المسلمين سنة ١٩٥٤م، واعتُقل أعضاءُ الجماعة، وعُذِّبوا تعذيباً رهيباً، وحوكم العشراتُ منهم، وحُكم بالإعدامِ على ستةٍ منهم، وحُكمَ بالسجنِ على آخرين فتراتٍ مختلفة.

وكان سيد قطب في مقدمة مَنْ عُذِّبوا تعذيباً شديداً، وحوكم وحُكم عليه بالسجن خمس عشرة سنة! أمضاها في سجن (ليمان طرة) القريب من القاهرة، وبما أنه كان مصاباً بأمراض كثيرة فقد أمضى مدة الحكم في مستشفى السجن!.

وبسبب سوءِ حالته الصحية أُفرجَ عنه بعفوٍ صحي سنة ١٩٦٤م. ولكنه لم ينعم طويلاً بالحرية خارج السجن، بل أُعيد إليه في صيف سنة ١٩٦٥م، بتهمة الإعداد لمؤامرةٍ لقلب نظام الحكم، وتخريب البلاد، وتدمير مؤسساتها ومرافقها، واعتُقل معه المئاتُ من أفرادِ جماعة الإخوان المسلمين، وكان سيد قطب يقودُ التنظيمَ الجديد للإخوان المسلمين، بإذنٍ وموافقةٍ من حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين.

وصُبَّ على سيد قطب من العذاب الشيءُ الكثير، وحوكم محاكمةً عسكرية هو وقادةُ تنظيم الإخوان الذين معه، وأصدر قاضي المحكمة العسكرية الفريق

فؤادُ الدجوي الحكم على سيد قطب وأخَوَيْه عبد الفتاح إسماعيل ومحمد يوسف هواش بالإعدام.

وبعد أُسبوعٍ من إصدار الحكم تمَّ تنفيذُه فيهم. وأُعدمَ سيد قطب قبيلَ فجر يوم الإثنين: ١٣ جمادى الأولى ١٣٨٦هـ، الموافق ٢٩/ ٨/ ١٩٦٦م!! وكان عمره ليلةَ إعدامه ستين سنة إلا شهراً وبعض الشهر!.

ونرجو أنْ يكون قد نال الشهادة في سبيل الله، لأنه وقف داعياً مجاهداً في سبيل الله، وأنكر المنكر، وواجَهَ الباطل، ورفضَ أفعال الظالمين من الحاكمين، ولهذا حقدوا عليه، وحكموا بإعدامه.

وكان إيمانُ سيد قطب بالله كبيراً، وتوكُّلُه عليه كاملاً، فبعد أن حُكِمَ عليه بالإعدام، وقُبيل تنفيذِ الحكم، بعث رسالتين إلى صديقه الأديب السعودي أحمد عبد الغفور عطار رحمه الله.

مما قاله في رسالتِه الأولى: «.. أمّا أنا فأجدُني خيراً من أيِّ وقت مضى، في عقيدتي وإيماني، وفي وضوحِ هذه العقيدة وهذا الإيمان في نفسي.. وفي وضوح إدراكي وتصوري لهذا الأمر ومقتضياته، ووضوحِ الهدف والوسيلة والطريق والغاية.. وكلُّ هذا خيرٌ جزيلٌ جميل، يرجحُ كلَّ ما أديتُه ثمناً له، من راحتي وصحتي.. والحمد لله».

ومما قاله في الرسالة الثانية: «.. أهمُّ من أنْ أشكرك ـ فيما أعتقد ـ أن أطمئنك عليّ، وأنا في وضعي الذي تعلمه.. لقد وجدتُ الله كما لم أجدْه من قبلُ قط.. لقد عرفتُ منهجه وطريقه كما لم أعرفْه من قبلُ قط.. ولقد اطمأننتُ إلى رعايته ووثقتُ بوعدِه للمؤمنين كما لم أطمئنّ من قبلُ قط.. وأنا بعد ذلك ـ على ما عهدتني ـ مرفوعُ الرأس لا أُحنيه إلى لله.. واللهُ يفعل ما يشاء.. واللهُ غالبٌ على أمره، ولكن أكثرَ الناس لا يعلمون...»[١].

---

(١) انظر الرسالتين في كتابنا (سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد)، ص٤٦٥ ـ ٤٦٦.

ومن أجودِ ما رثاه أحدُ إخوانِه بعد استشهاده قولُه:

يـــا شهيـــداً رفـــعَ اللهُ بـــهِ	جَبهَـةَ الحـقِّ علـى طـولِ المـدى
سـوفَ تبقـى فـي الحَنـايـا عَلَمـاً	حـاديـاً للـرَّكـبِ رمـزاً لِلفِـدى
مـا نسينـا أنـتَ قـد علّمتنـا	بسمـة المُـؤمـن فـي وجـه الـرَّدى
غـالَـكَ الحِقـدُ بليـلٍ حـالِـكٍ	كُنـت فيـه البـدرَ يهـدي لِلْـدُّجـى
نَسِـيَ الفُجّـارُ فـي نشـوتِهِـم	أنَّ نـورَ الحـقِّ لا لـنْ يُخمـدا[١]

وقد ألَّف سيد قطب ستةً وعشرين كتاباً، منها ثلاثة عشر كتاباً أدبياً هي: مهمة الشاعر في الحياة، والشاطئ المجهول، ونقد كتاب مستقبل الثقافة في مصر، والأطياف الأربعة، وطفل من القرية، والمدينة المسحورة، وكتب وشخصيات، وأشواك، وروضة الطفل، والجديد في اللغة العربية، والجديد في المحفوظات، والنقد الأدبي أصوله ومناهجه.

وثلاثة عشر كتاباً إسلامياً، وها هي مرتبة ترتيباً تاريخياً حسب صدور طبعاتها الأُولى: التصوير الفني في القرآن، ومشاهد القيامة في القرآن، والعدالة الاجتماعية في الإسلام، ومعركة الإسلام والرأسمالية، والسلام العالمي والإسلام، وفي ظلال القرآن، ودراسات إسلامية، وهذا الدين، والمستقبل لهذا الدين، وخصائص التصور الإسلامي، والإسلام ومشكلات الحضارة، ومعالم في الطريق، ومقومات التصور الإسلامي[٢].

وأشهرُ كتبه الإسلامية ثلاثة: في ظلال القرآن، ومعالم في الطريق، وخصائص التصور الإسلامي.

وقد كتب الله لكتب سيد قطب الإسلامية الذيوعَ والانتشار، ولا يكادُ يخلو بيتُ مثقفٍ إسلامي من تفسير (الظلال) وهو أشهرُ التفاسير انتشاراً في بلاد المسلمين.

---

(١) انظر: سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، ص٥.

(٢) انظر: تعريفنا بهذه الدراسات وغيرها في كتابنا السابق، ص٥٢١ ـ ٥٦١.

ومن لطيف ما يُقالُ في هذا الأمر: رؤيا مبشِّرة رآها سيد قطب بعدما أُفرجَ عنه بعفوٍ صحي عام ١٩٦٤، وقصَّها على إخوانه، ورواها الأخ أحمد عبد المجيد أحدُ قادةِ الإخوان: قال لهم سيد قطب: رأيتُ الليلة الماضية أنني جالسٌ في البيت، ومعلّقٌ فوق رأسي وعاءٌ مملوءٌ بالعسل. ولما امتلأَ الوعاءُ بالعسل بدأ العسلُ يسقطُ منه على الأرض، وأنا أنظرُ إليه، فملأ العسلُ الغرفةَ التي أنا فيها، ثم خرجَ منها إلى باقي غرف المنزل فملأها، ثم خرج من المنزل إلى الشارع المجاور فملأه، ثم ملأ العسلُ الشوارعَ المجاورة، فطلب الناس الإطفائية لإيقاف تدفُّقِ العسل، فجاءت الإطفائيةُ وحاولتْ ولكنها لم تستطعْ ذلك!! واستيقظت!!.

فسأله إخوانه: بما أوَّلتَ تلك الرؤيا؟.

أجاب بتواضع: لعلَّها كتبي ومؤلفاتي تنتشرُ بين الناس!!.

تفسير (في ظلال القرآن) ومراحل تأليفه:

أصدر سيد قطب أول كتابٍ إسلاميٍّ قرآني هو (التصوير الفني في القرآن) سنة ١٩٤٥، وسجل فيه نظريتَه التي تعرَّف عليها في التعبير القرآني، وهي نظريةُ التصوير، حيث شرح معنى التصوير، وتحدث عن خصائِصه، وعرضَ مجالاته وآفاقه، وكانت تحليلاتُه في الكتاب لطيفةً أُعجب بها الأدباءُ والباحثون.

وما قاله في التحليل الجمالي للتعبير القرآني في هذه النظرية، لم يقلْه أحدٌ من دارسي القرآن دراسةً بيانية من قبل، وبذلك تفرَّد في معرفة (المفتاح الجمالي) الذي فتح فيه كنوز القرآن الجمالية ـ وهو التصوير الفني ـ.

وجعل كتابه (التصوير الفني في القرآن) أساسَ سلسلةٍ من كتبٍ، يدرسُ فيها القرآن دراسةً بيانيةً أدبية جمالية، أطلقَ عليها اسم (مكتبة القرآن الجديدة).

ولم يُصدر من تلك السلسلة إلا كتاباً آخر، هو (مشاهد القيامة في القرآن). حيث تحدَّث فيه عن التصوير في مشاهد القيامة.

وقادهُ تدبُّرُ القرآن تدبُّراً بيانياً إلى الوقوف على بعض حقائق القرآن الفكرية

والإصلاحية، فدرس القرآن دراسةً فكريةً إصلاحية، وأصدر كتابه الإسلاميَّ الفكريَّ الأول (العدالة الاجتماعية في الإسلام)، وأتبعه ببعض الدراسات الفكرية الإسلامية، وكان هذا بعد عودتِه من أمريكا سنة ١٩٥٠م.

وكانت إحدى أمنيات سيد قطب أن يفسِّر القرآن ويعرضَه على أساسِ نظريةِ التصوير الفني.

وفي نهاية عام ١٩٥١ أصدرَ سعيد رمضان ـ رحمه الله ـ أحدُ قادةِ الإخوان المسلمين مجلة (المسلمون)، وكانت مجلةً فكريةً إسلامية شهرية، يكتبُ فيها قادةُ الفكر الإسلامي من الإخوان المسلمين وغيرهم. وطلب سعيد رمضان من سيد قطب أن يشترك في المجلة بمقالٍ شهري، وفضَّلَ لو كان المقالُ في موضوعٍ متسلسل، أو تحت عنوان دائم.

وهنا ظهرتْ رغبةُ سيد قطب الكامنة، فألَهمه الله أن يختار عنوان (في ظلال القرآن) عنواناً دائماً لمقالاته التفسيرية التي سينشرُها في المجلة!.

نَشَرَ الحلقة الأُولى من سلسلة (في ظلال القرآن) في العددِ الثالثِ من مجلة (المسلمون) الذي صدرَ في شباط (فبراير) سنة ١٩٥٢.

أصدرَ في المجلة سبعَ حلقات من (في ظلال القرآن) في سبعة أعداد متتابعة: من الثالث إلى التاسع، وكان يفسرُ آياتِ القرآن حسبَ تسلسلِ المصحف. ووصلَ في نهاية الحلقة السابعة إلى تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ١٠٣].

عند ذلك بدا لسيد قطب أنْ يكتبَ تفسير القرآن في كتاب، وليس في مقالاتٍ في مجلة المسلمون.

قال في نهاية الحلقة السابعة التي نُشرتْ في العدد التاسع من مجلة (المسلمون) الصادرِ في شهر تموز (يوليو) ١٩٥٢: (بهذا الدرس ينتهي ما قُدِّرَ له أن يُنشر من هذه السلسلة في (المسلمون). ذلك أنَّ (في ظلال القرآن) ستُنشرُ مستقلةً في ثلاثين جزءاً على التتابع، تظهرُ كلُّ حلقةٍ على رأس كلِّ شهرين، ابتداءً

من شهر سبتمبر (أيلول) القادم بإذن الله. تنشرُها دارُ إحياءِ الكتب العربية، لعيسى الحلبي. أمّا (المسلمون) فتأخذُ في نشرِ بحثٍ آخر تحت عنوان: (نحو مجتمع إسلامي).

وظهر الجزءُ الأولُ من تفسير (في ظلال القرآن) في شهر أكتوبر (تشرين أول) سنة ١٩٥٢م. وكان على تجزئةِ القرآن الكريم.

وفي الفترة ما بين تشرين أول ١٩٥٢ إلى كانون ثاني ١٩٥٤م أصدرَ سيد قطب ستة عشر جزءاً من الظلال، على تجزئة القرآن، حتى نهاية سورة طٰه.

وفي بداية سنة ١٩٥٤ بدأت المحنُ والابتلاءاتُ تحدقُ بسيد قطب وإخوانه من الإخوان المسلمين، فاعتُقل فترةً مع بعض قادة الإخوان في مطلع سنة ١٩٥٤م، ثم اعتُقل الاعتقال الطويل في نهاية تلك السنة، وتوقَّف عن كتابةِ تفسير الظلال، بسبب ما مَرَّ به من تعذيب وتحقيقٍ وسجنٍ واضطهادٍ وأذى، وبقي متوقِّفاً عن الكتابة إلى أنْ حُكِمَ عليه بالسجن خمسة عشر عاماً.

ويسَّرَ الله لسيد قطب الكتابة في السجن، وللناشر طبْعَ (الظلال). رغم أنَّ لوائحِ السجون تمنعُ السجين من الكتابة داخلها، ولا تسمحُ للسجين امتلاكَ أَدواتِ الكتابة!.

وذلك أنَّ سيد قطب كان قد تعاقدَ مع الناشر ـ دار إحياء الكتب العربية ـ على كتابة تفسيرٍ كاملٍ للقرآن. فلما منعتْهُ الحكومةُ من الكتابة في السجن، رفعَ الناشرُ على الحكومة دعوى. يطالبها فيها بدفعِ تعويضٍ ماليٍّ كبير له، بسببِ الضرر الذي وقع عليه لمنع سيد قطب من إكمال تفسير (الظلال). واختارت الحكومة السماح لسيد قطب بالكتابة وإكمالِ التفسير بدل أنْ تدفع آلاف الجنيهات تعويضاً للناشر.

وادّعى جمال عبد الناصر للعلماء الباكستانيين أنَّ سيد قطب ليس سجيناً، بل هو حُرٌّ طليق، بدليل نشر الظلال في القاهرة! وصارَ الموظَّفون الرسميون في الخارج يُجيبون بجواب الرئيس عبد الناصر إذا سُئلوا عن سجن سيد قطب!!.

وعينت الحكومـة الشيخ محمد الغزالي ـ وكـان من كبار موظفي وزارة الأوقـاف يومها ـ رقيباً دينياً على الظلال، يَطَّلعُ على أصولِه قبل صدورها من المطبعـة. وقد أجاز الشـيخُ الغزالي رحمه الله كلَّ أجزاء وملازمِ الظلال، ولم يحذفْ منها إلاّ تعقيبَ سيد قطب على تفسير سورة البروج. وقد نشر سيد قطب ذلك التعليق فيما بعد، في فصلِ (هذا هو الطريق)، آخر فصول كتاب (معالم في الطريق).

أكملَ سيد قطب الطبعة الأولى من تفسيره في نهاية الخمسينيات!.

وقد طالتْ حياةُ سيد قطب في سجنه مع القرآن، وتعرَّف على طبيعة القرآن ومنهجه ومقاصدِه ومهمتِه الحركية الدعوية التربوية.

ودعاهُ هذا إلى أنْ يُعيد كتابة (في ظلال القرآن) من جديد، على هَدْيِ فهمِه الحركي الدعوي التربوي للقرآن. فبدأ بإصدار الطبعة المنقحة من الظلال عام ١٩٦٠.

وإذا كان كتابُ (التصوير الفني في القرآن) بياناً للمفتاح الجمالي الذي وقف سيد قطب به على كنوزِ القرآنِ البيانية الجمالية، فإنَّ تفسير (في ظلال القرآن) هو أسـاسُ المفتاحِ الحركي، الذي وقف سيد قطب به على كنوزِ القرآن الحركيـة الدعوية التربوية، ونعني به الظلال في طبعتِه الجديدة المنقَّحة!!.

وجاءت الطبعةُ المنقَّحة من الظلال بمنهج يختلفُ قليلاً عن الطبعة الأولى، حيث صار سيد قطب يركزُ في الطبعة المنقحة على المعاني واللفتات والتوجيهات الحركية والدعوية والجهادية في القرآن. وكان حجمُ الجزء من الطبعة المنقَّحةِ ضعفَ حجمِ الجزء من الطبعة الأولى.

في الخمس سنوات الأخيرة ـ ما بين ١٩٦١ و١٩٦٥ ـ أكملَ تفسير ثلاثة عشر جزءاً من القرآن، وأصدرَ ثلاثةَ عشر جزءاً من الظلال. وتوقف عند بداية تفسير سورة الحجر. وكان ينوي متابعة تفسيرِ الأجزاء الثمانية عشرة الباقية، على هدي منهجه الحركي التربوي الجديد.

ولكنَّ الطغـاةَ اعتقلوه في صيف عام ١٩٦٥م. وأَعدموه في صيف عـام ١٩٦٦م. وبذلك توقَّف إكمال الظلال في الطبعة الجديدة المنقَّحة!.

وبعد استشهاد سيد قطب كتبَ اللهُ لكتبه الانتشار ـ ولا ننسى رؤياهُ في تدفُّقِ العسل وفيضانه ـ وازدادَ الطلبُ على كتبه.. وهنا سارعت دورُ النشر اللبنانية إلى المتاجرة بكتب سيد قطب وشقيقه محمد، وحققتْ من ذلك أرباحاً طائلة.

ولما أرادَ الناشرون اللبنانيون نشر (الظلال) أخذوا الأجزاءَ الثلاثة عشر الأُولى من الطبعة المنقحة، ثم أخذوا الأجزاءَ الباقية من الطبعة الأولى غير المنقَّحة

وظهر الظلالُ في ثمانية مجلدات عن دار إحياء التراث العربي بلبنان.

ولما خرج الأستاذ محمد قطب من السجن، وتوجَّه للتدريس في جامعة أم القرى في مكة المكرمة سنة ١٩٧٣ أرادَ أن تصدرَ كتبُه وكتبُ شقيقه الشهيد بطبعةٍ قانونية جيدة، فعهدَ إلى دار الشروق بنشر كتبهما. وصدرتْ طبعةُ دارِ الشروقِ للظلال في ستِّ مجلدات كبيرة، وهي أجودُ طبعات الظلال.

وقد تُرجم تفسيرُ الظلال ـ كباقي كتب سيد قطب ـ إلى عدة لغاتٍ أجنبية: مثل: الإنكليزية والفرنسية والتركية والأردية والأندونيسية[١].

منهج سيد قطب الحركي في تفسير (الظلال):

لاحظنا تطوُّر اهتماماتِ سيد قطب في نظرتِه إلى القرآن:

فقد كانت اهتماماتُه بيانيةً أدبيةً بلاغيةً جمالية، وهو يحللُ البيان القرآني على هدي نظريته (التصوير الفني في القرآن).

ثم كانت اهتماماتُه فكريةً ثقافيةً تفسيريةً نظرية، وهو يفسِّرُ الأجزاءَ الستة عشر الأولى من الظلال، قبل إدخاله السجن عام ١٩٥٤.

---

(١) انظر كلامنا المفصل على الظلال ومراحل تأليفه والجو الذي ألفه فيه في كتابنا (مدخل إلى الظلال)، ص٣٣ـ٥٥.

وصارتْ أخيراً اهتماماتٍ دعويةً حركيةً تربوية، وهو يُخرجُ الطبعة المنقحة من الظلال بعد عام ١٩٦٠، في السنوات الخمس الأخيرة من عمره.

ونستطيعُ أن نقول: منهجُ سيد قطب في التفسير (منهجٌ حركيٌّ دعويٌّ تربويّ).

منهجٌ حركيّ: لأنه يدعو المسلمين إلى حسنِ فهمِ القرآن وتدبره، ثم حسنِ الحركةِ به في عالم الواقع، وليس الاكتفاء بدراسته دارسةً تفسيرية نظرية.

ومنهجٌ دعويّ: لأنه يريدُ منّا أن نجعل القرآن منطلقَنا في الدعوة إلى الله، ومعرفة حقائقه وتوجيهاته الدعوية، ومواجهة الأعداء به، وردِّ مؤامراتهم ضد الأمة.

ومنهجٌ تربويّ: لأنه يريدُ من المسلمين أن يتربَّوا على القرآن، ويتخلَّقوا بأخلاقه ويلتزموا بتوجيهاته، وأن يصوغوا أنفسهم صياغةً قرآنية، ليكونوا قرآنين ربانيين، ويريدُ أن يتربّى المجتمع الإسلاميُّ على القرآن، وأنْ تنشأ مؤسساتُه عليه، وأن يكون القرآنُ هو المهيمن على كلِّ مجالاتِ الحياة فيه.

وقدَّم سيد قطب نظريتَه الحركية في فهم القرآن وتفسيره بكلماتٍ محدَّدة، يحددُ فيها نظرتَه إلى التفسير: «إن المسألة ـ في إدراكِ مدلولات هذا القرآن وإيحاءاته ـ ليست هي فهم ألفاظِه وعباراته. ليست هي (تفسيرَ) القرآن ـ كما اعتدْنا أنْ نقول! ـ المسألةُ ليس هذه، إنما هي استعداد النفسِ برصيدٍ من المشاعر والمدركات والتجارب، تُشابهُ المشاعرَ والمدركاتِ والتجارب التي صاحبت نزولَه، وصاحبَتْ حياة الجماعةِ المسلمة وهي تتلقّاه في خضمِّ المعترك.. معترك الجهاد.. جهاد النفس وجهاد الناس.. جهاد الشهواتِ وجهادِ الأعداء، والبذلِ والتضحية، والخوفِ والرجاء، والضعف والقوة، والعثرة والنهوض... جوِّ مكة، والدعوة الناشئة، والقلة والضعف، والغربة بين الناس.. جوِّ الشِّعبِ والحصار، والجوع والخوف، والاضطهاد والمطاردة، والانقطاع إلاّ عن الله.. ثم جوِّ المدينة.. جوِّ النشأةِ الأولى للمجتمع المسلم، بين الكيدِ والنفاق والتنظيم

والكفاح.. جوٌّ بدرٍ وأُحُد والخندق والحديبية، وجوٌّ الفتح وحنين وتبوك.. وجـوٌّ نشأةِ الأمة المسـلمة، ونشـأةِ نظامِها الاجتماعي، والاحتكاكِ الحيِّ بين المشاعر والمصالح والمبادئ في ثنايا النشأة وفي ظلالِ التنظيم.

في هذا الجوِّ الذي نزلتْ فيه آياتُ القرآن حيةً نابضةً واقعية. كان للكلماتِ وللعبارات دلالاتُها وإيحاءاتُها.. وفي مثل هذا الجو الذي يصاحب محاولـة استئنافِ الحياة الإسلامية من جديد يفتحُ القرآن كنوزَه للقلوب، ويمنحُ أسرارَه، ويُشيعُ عطرَه، ويكونُ فيه هدى نور»[1].

«ومنهجُنا في استلهامِ القرآنِ الكريم، ألاّ نواجهَه بمقرَّراتٍ سابقةٍ إطلاقاً، لا مقرراتٍ عقلية ولا مقرراتٍ شعورية ـ من رواسبِ الثقافات التي لم نَسْتَقِها من القرآنِ ذاتِه ـ نحاكمُ إليها نصوصَه، أو نستلهمُ معاني هذه النصوص، وفقَ تلك المقرراتِ السابقة.

لقد جاءَ النصُّ القرآني ـ ابتداءً ـ لينشئ المقرَّراتِ الصحيحة، التي يريدُ الله أنْ تقومَ عليها تصوراتُ البشر...»[2].

وقـال في موطنٍ آخر عنها: «إنَّ النصوصَ القرآنيةَ لا تُدْرَكُ حـقَّ إدراكها بالتعاملِ مع مدلولاتِها البيانية واللغوية فحسب.. إنما تُدرك أولاً وقبلَ كلِّ شيء بالحياةِ في جوِّها التاريخي الحركي، وفي واقعيتها الإيجابية، وتعاملِها مع الواقعِ الحي.. وهي لاتتكشَّفُ عن هذا المدى البعيدِ إلاّ في ضوءِ ذلك الواقع التاريخي، ثم يبقى لها إيحاؤها الدائم، وفاعليتُها المستمرة، ولكن بالنسبةِ للذين يتحرَّكون بهذا الدين وحدهم، ويزاولون منه شبهَ ما كان يزاولُه الذين تنزلتْ هذه النصوصُ عليهم أولَ مرة، ويواجِهون من الظروفِ والأحوالِ شبهَ ما كان أولئك يواجهون.

ولن تتكشَّفَ أسرارُ هذا القرآنِ قطّ للقاعدين، الذين يعالجون نصوصَه في ضوءِ مدلولاتها اللغوية والبيانية فحسب.. وهم قاعدون»[3].

---

(١) خصائص التصور الإسلامي، ص٧ـ٨.
(٢) المرجع السابق، ص١٦ ـ ١٧.
(٣) الظلال: ٣/ ١٤٥٣.

وقال أيضاً: «ونحن نؤكِّدُ على هذه السمةِ في هذا القرآن. . سمةِ الواقعيةِ الحركية. . لأنها في نظرنا مفتاحُ التعاملِ مع هذا الكتاب، وفهمِه وفقهِه، وإدراكِ مراميه وأهدافه. . »[1].

إنَّ هذه النظرةَ الحركيةَ للقرآن، والمنهجَ الحركي الدعوي التربوي في تفسير سيد قطب له، جعلتْ له أهدافاً حركيةً تربوية من التفسير، فهو لم يجعل تفسيرَه (في ظلال القرآن) مجرَّدَ تفسيرٍ تقليدي، يركِّزُ على المعاني النظريةِ العلمية المجردة، من مأثورٍ ولغةٍ وبلاغة وأحكام.

ونسجلُ فيما يلي أهمَّ الأهدافِ التي يمكنُ أن نلحظَها في الظلال:

١ ـ إزالةُ الفجوةِ بين المسلمين وبين القرآن.

٢ ـ تعريفُ المسلمين على المهمة العملية الحركية للقرآن.

٣ ـ تزويدُ المسلم بدليلٍ عملي مكتوب إلى سماتِ الشخصيةِ الإسلامية.

٤ ـ تربيةُ المسلم تربيةً قرآنية إسلامية متكاملة.

٥ ـ بيانُ ملامحِ وسمات المجتمع الإسلامي.

٦ ـ بيانُ معالمِ الطريق إلى الله.

٧ ـ بيانُ الوحدةِ الموضوعية للقرآن.

٨ ـ الوقوفُ في وجهِ المادية الجاهلية.

٩ ـ ربطُ الآياتِ القرآنية بالواقع المعاصر.

١٠ ـ ربطُ أحكامِ القرآن وتشريعاته بالعقيدة.

١١ ـ التركيزُ على معالجةِ المسائل والقضايا الأساسية في: العقيدة والدعوة والحركة والمواجهة.

---

(١) الظلال: ٤/ ٢١٢١.

نسجلُ هذه الأهدافَ تسجيلاً فقط، ولا نقدِّمُ عليها أمثلةً من (الظلال)، ونحيلُ على الظلالِ للوقـوف عليها، كما نُحيلُ على كتابنـا (مدخل إلى ظـلال القرآن)، لمعرفةِ تفصيلاتها[1].

أما منهجُ سـيد قطب الحركيُّ الدعـويُّ التربويُّ في التفسـير، فقد برزَ في القواعدِ المنهجية التالية:

١ ـ النظرةُ الكلية الشاملة للقرآن.

٢ ـ التأكيدُ على المقاصد الأساسية للقرآن.

٣ ـ بيانُ المهمة العملية الحركية للقرآن.

٤ ـ استبعادُ المطَوَّلات التي تحجبُ نورَ القرآن.

٥ ـ تسجيلُ إيحاءات النصِّ وظلاله ولطائفه.

٦ ـ دخولُ عالمِ القرآن بدون مقررات سابقة.

٧ ـ الثقةُ المطلقة بالنص القرآني والتسليمُ التامُّ بدلالته.

٨ ـ غنى النصوص بالمعاني والدلالات.

٩ ـ بيانُ أهميةِ العقيدة وأثرها.

١٠ ـ إزالةُ التعارض الموهوم بين النصوص القرآنية.

١١ ـ الوحدةُ الموضوعية للقرآن.

١٢ ـ البعدُ الواقعي للنصوص القرآنية وعموم دلالتها.

١٣ ـ بيانُ حكمة التشريعات وتعليل الأحكام.

١٤ ـ المحافظةُ على جوِّ النص القرآني.

---

(١) مدخل إلى ظلال القرآن، ص٩٣ ـ ١٢٨.

ونكتفي هنا بذكْرِ هذه القواعدِ المنهجية، التي شكلتْ منهجَ سيد قطب الحركيَّ في التفسير، وندعو القارىءَ إلى ملاحظةِ النماذج والأمثلةِ عليها في الظلال، ويمكنُ الرجوعُ إلى كتابنا (المنهج الحركي في ظلال القرآن) لشرحِ تلك القواعد، ومعرفةِ الأمثلةِ عليها. .[١]

وقد اختار سيد قطب لتفسيره اسم (في ظلال القرآن). وقال عن سببِ اختيارِه لهذا الاسم في الطبعة الأولى: «في ظلال القرآن: عنوانٌ لم أتكلّفه، فهو حقيقةٌ عشتُها في الحياة. . فبينَ الحينِ والحين كنت أجدُ في نفسي رغبةً خفيةً في أنْ أعيشَ في ظلِّ القرآنِ فترة، أستروحُ فيها ما لا أستروحُه في ظلٍّ سواه»[٢].

إنه يريدُ أنْ يقولَ لنا من خلالِ عنوانِ تفسيرِه (في ظلال القرآن): إنَّ آياتِ القرآن لها ظلالٌ وارفةٌ وراءَ معانيها، وهذه الظلالُ فيها كثيرٌ من إيحاءاتِ القرآنِ ودلالاتِه وتوجيهاتِه، وهي لاتُدرَكُ ولا تلاحَظُ إلاّ من خلالِ ملاحظةِ ومعايشةِ ظلالِ الآيات، ولا يلحظُها إلاّ باحثٌ متذوق، يُحسنُ العيشَ في ظلالِ القرآن.

ويريدُ سيد قطب أنْ يقومَ بهذه المهمةِ الجليلة، وأنْ يتعرضَ لهذه الإيحاءات والدلالات والتوجيهات، وأنْ يعيشَ بهذه الظلال، وأنْ يقدمَ للناس بعضَ ما يجدُه منها!![٣].

ومما قالَه في مقدمةِ الطبعةِ الأولى من الظلال: «وبعد: فقد يرى فريقٌ من قراءِ هذه الظلالِ أنها لونٌ من تفسيرِ القرآن. وقد يرى فريقٌ آخر أنها عرضٌ للمبادئ العامةِ كما جاءِ بها القرآن، وقد يرى فريقٌ ثالثٌ أنها محاولةٌ لشرح ذلك الدستور الإلـٰهيِّ في الحياةِ والمجتمع، وبيانُ الحكمة في ذلك الدستور. . أمّا أنا فلم أتعمَّدْ شيئاً من هذا كلِّه. . وما جاوزْتُ أنْ أسجلَ خواطري وأنا أحيا في تلك الظلال. .

---

(١) انظر كتابنا (المنهج الحركي في الظلال)، ص٥١ ـ ١٨٠.

(٢) في ظلال القرآن ـ الطبعة الأولى ـ: ١/ ٥.

(٣) انظر مبحث (في ظلال القرآن لماذا هذا العنوان؟) في كتابنا (مدخل إلى ظلال القرآن)، ص٨٣ ـ ٩٢.

. . . وكذلك حاولتُ أنْ أعبِّرَ عما خالجَ نفسي من إحساسٍ بالجمالِ الفنيِّ العجيبِ في هذا الكتاب المعجز، ومن شعورٍ بالتناسقِ في التعبيرِ والتصوير»[1].

ويلاحَظُ أنَّ مقدمتَهُ للطبعةِ الأولى من الظلال كانت مختصرةً جداً، بينما مقدمتهُ للطبعةِ المنقَّحة كانت مطوَّلة، تتفقُ مع منهجه الحركيِّ الدعوي التربوي الذي استقر عليه.

وسجَّلَ في مقدمتهِ شعورَه بنعمةِ الله، الذي مَنَّ عليه بالحياة في ظلال القرآن، كما سجَّلَ مكاسبه من الحياةِ في ظلالِ القرآن، والنتائجَ اليقينية التي خرجَ بها من هذه الحياة.

وأولُ فقرةٍ افتتحَ بها الظلالَ هي قوله: «الحياةُ في ظلال القرآن نعمة. نعمةٌ لا يعرفُها إلاّ مَنْ ذاقَها. نعمةٌ ترفعُ العمر وتباركُه وتزكِّيه. .

والحمدُ لله. . لقد مَنَّ عَلَيَّ بالحياةِ في ظلال القرآن فترةً من الزمان، ذقتُ فيها من نعمتِه ما لم أذقْ قط في حياتي. . ذقتُ فيها هذه النعمة، التي ترفعُ العمرَ وتباركُه وتزكِّيه. .

١ ـ لقد عشتُ أسمعُ الله ـ سبحانه ـ يتحدثُ إليَّ بهذا القرآن. . أنا العبدُ القليلُ الصغير. . أيُّ تكريم للإنسان هذا التكريمٌ العلويُّ الجليل؟ أيُّ رفعةٍ للعمرِ يرفعُها هذا التنزيل؟ أيُّ مقامٍ كريمٍ يتكرَّمُ به على الإنسان خالقُه الكريم؟.

٢ ـ وعشتُ ـ في ظلال القرآن ـ أنظرُ من عُلُوٍّ إلى الجاهلية التي تموجُ في الأرض. . .

٣ ـ وعشتُ ـ في ظلال القرآن ـ أتملّى ذلك التصورَ الكاملَ الشاملَ الرفيعَ النظيفَ للوجود. . .

٤ ـ وعشتُ ـ في ظلال القرآن ـ أحسُّ التناسقَ الجميلَ بين حركةِ الإنسان كما يريدُها الله، وحركةِ هذا الكونِ الذي أبدعَه الله. . .

---

(١) في ظلال القرآن، الطبعة الأولى: ١/ ٦.

٥ ـ وعشتُ ـ في ظلال القرآن ـ أرى الوجودَ أكبرَ بكثيرٍ من ظاهرِه المشهود.. أكبرَ في حقيقته، وأكبرَ في تعدُّدِ جوانبه..

٦ ـ وعشتُ ـ في ظلال القرآن ـ أرى الإنسانَ أكثرَ بكثيرٍ من كلِّ تقديرٍ عرفتْه البشريةُ من قبلُ للإنسان ومن بعد...

٧ ـ وفي ظلال القرآن تعلمتُ أنه لا مكانَ في هذا الوجود للمصادفةِ العمياء، ولا للفلتةِ العارضة..

٨ ـ ومن ثَمَّ عشتُ ـ في ظلال القرآن ـ هادئ النفس، مطمئنَّ السريرة، قريرَ الضمير.. عشتُ أرى يدَ الله في كل حادث، وفي كل أمر.. عشتُ في كنفِ الله وفي رعايته.. عشتُ أستشعرُ إيجابيةَ صفاته تعالى وفاعليتَها..

٩ ـ وانتهيتُ من فترةِ الحياة ـ في ظلال القرآن ـ إلى يقينٍ جازمٍ حاسم: إنه لا صلاحَ لهذه الأرض، ولا راحةَ لهذه البشرية، ولا طمأنينة لهذا الإنسان، ولا رفعةَ ولا بركةَ ولا طهارة، ولا تناسقَ مع سنن الكون وفطرةِ الحياة.. إلاّ بالرجوعِ إلى الله[1].

وقدمَ سيد ما تذوّقَه للحياة في ظلال القرآن، وما خرجَ به من هذه الحياة المباركة إلى القُراء، ليعيشوا كما عاش، ويتذوّقوا كما تذوّق، ويتحركوا بالقرآن كما تحرك!!.

في ظلال القرآن: نقلة بعيدة في التفسير:

في ظلال القرآن تفسيرٌ حركيٌّ دعويٌّ تربوي رائد، من أهمِّ وأشهرِ التفاسير المعاصرة، بل من أهمِّ وأشهرِ التفاسير على الإطلاق، لا يُغني عنه أيُّ تفسيرٍ آخر.

وانتقلَ سيد قطب بالتفسيرِ في الظلال نقلةً جديدةً بعيدة، وسارَ فيها على منهجٍ خاصٍّ وطريقةٍ فريدة، وتوجَّهَ به إلى عالمِ القرآن الرحيب، وإلى سيرةِ رسول الله ﷺ وحياةِ أصحابه الكرام.

---

(١) مقتطفات من مقدمة الظلال: ١/ ١١ ـ ١٨.

لقد حققَ سيد قطب في الظلال ما يحتاجُه المسلمُ المعاصرُ من القرآن، فقدَّمَ له مادةً تفسيرية ـ بطريقةٍ خاصة ـ وقدَّمَ له زيادةً عليها مادةً حركيةً تربوية.

ورجعَ سيد قطب إلى مجموعةٍ من المصادرِ والمواردِ التفسيرية وغيرها. وقد يستغربُ بعضُ الناسِ عودةَ سيد قطب إلى كتبِ التفسير وغيرها، لأنه سجين، وكيفَ يقرأُ هذه الكتبَ في السجن؟.

لقد وافقت الحكومةُ له على كتابةِ التفسير في السجن، بناءً على قرارِ المحكمةِ الذي أشرنا له من قبل، ومن لوازمِ هذا القرار إدخالُ الكتبِ والمراجعِ له في السجن، وقد سمحت الحكومةُ له بإدخالِ المراجع المختلفة، ليأخذَ منها ما يريد!.

ومن أهم كتب التفسير التي رجعَ إليها وأخذَ منها:

١ ـ تفسيرُ القرآن العظيم لابن كثير. وكان هو مرجعَه الأساسيَّ في التفسير بالمأثور.

٢ ـ جامعُ البيان عن تأويل آي القرآن. لابن جرير الطبري.

٣ ـ الجامع لأحكام القرآن للقرطبي.

٤ ـ الكشاف للزمخشري.

٥ ـ روح المعاني للآلوسي.

٦ ـ تفسير القرآن الحكيم ـ تفسير المنار ـ لمحمد رشيد رضا.

٧ ـ التفسير الحديث لمحمد عزة دروزة.

٨ ـ أحكام القرآن للجصاص الرازي.

٩ ـ أحكام القرآن للقاضي ابن العربي.

ومن مراجعِه الأخرى: السيرة النبوية لابن هشام. وإمتاعُ الأسماع للمقريزي، وجوامعُ السيرة لابن حزم، وزادُ المعاد في هدي خير العباد لابن القيم،

وسيرةُ الرسول ﷺ لمحمد عزة دروزة. إضافةً إلى عشراتِ المراجع في الموضوعات الإسلامية المختلفة[1].

وكان سيد قطب يعودُ إلى المراجعِ بعد أنْ يكتبَ تفسيرَ الآياتِ التي بين يديه، ليستوثق من صحةِ كلامه، ويصوِّبَ ما قد يقعُ فيه من خطأ، أو ليأخذَ منها قولاً أو فكرةً أو فقرةً للاستشهاد.

يقول الدكتور عدنان زرزور عن طريقة سيد قطب في التفسير والعودة إلى المراجع: «نحبُّ أن نؤكِّدَ ذلك بالإشارةِ إلى طريقةِ سيد قطب في التفسير، والتي كانت تقومُ على مرحلتين:

الأولى: قراءته للسورةِ القرآنية كاملةً عدةَ مرات، وربما عاودَ قراءتَها والنظرَ فيها يوماً بعد يوم، حتى يهتدي ـ رحمه الله ـ إلى موضوعِها الرئيس، ومحورِها العامِّ الذي تدورُ حولَه آياتُها، وسائرُ موضوعاتِها الفرعية الأخرى.. حتى إذا اهتدى إلى ذلك، وفتحَ اللهُ عليه به، عكَفَ على تفسيرِها بأقلِّ قدرٍ ممكن من الجلسات، ولو أمكنه أنْ يفعلَ ذلك في مقامٍ واحدٍ لفعل..».

المرحلة الثانية: بعدَ أنْ يفرغَ من تفسيرِ السورة أو الآيات ينظرُ في كتب التفسير، يستدركُ بها سبباً من أسبابِ النزول، أو يوضحُ من خلالها مسألةً من مسائل الفقه، أو يستشهدُ منها بحديثٍ أو رواية صحيحة وردتْ في تفسيرِ بعض الآيات، وربما مالَ إلى ترجيحِ روايةٍ على أخرى مساويةٍ أو مقاربةٍ لها في درجة الصحة، من خلالِ آفاقِ النصِّ ونظمه، أو لارتباطِه الأوثقِ ببعضِ مواقفِ السيرة.

وهذا يدلُّ على حرصِ سيد ـ رحمه الله ـ على عدمِ التأثرِ المسبَقِ بأيِّ لونٍ من ألوانِ التفسيرِ والتأويل، من جهة، كما يدلُّ في الوقتِ ذاته على عدمِ الخروجِ عن الرواياتِ الصحيحة في التفسير بالمأثور..

وأذكرُ ـ والله أعلم ـ أنَّ هذه الإضافاتِ والتوضيحاتِ قلَّما بنى عليها تعديلاً

---

(١) انظر كتابنا (مدخل إلى ظلال القرآن)، ص١٣٧ ـ ١٧٩.

أو تغييراً واسعاً لتفسيرِ بعضِ الآيات، على النحو الذي سبقَ له تدوينُه وكتابتُه»[(١)].

الظلالُ نقلةٌ جديدةٌ بعيدة في التفسير لأنه حققَ شروطاً ثلاثةً منهجية جوهرية، لابدَّ من توفُّرها في تفسير معاصر، يحتاجُ إليه المسلمون المعاصرون حاجة ماسة.

ونحنُ مع الدكتور عدنان زرزور في حديثِه عن تلك الشروط:

الأول: انطلاقُه ـ أو ملاحظتُه ـ للغرضِ الأساسي الذي نزلَ القرآنُ من أجله، والمتمثلُ في إنشاءِ أمةٍ لها خصائصُها ومميزاتها، وتربيةِ جيلٍ على قواعد من التربيةِ الربانية، بما يتناسبُ في هذا العصرِ مع غيابِ المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية... بل بما يذكِّرُ بظروفِ نشأةِ الإسلامِ الأولى.. وبحيث لا يكون الانطلاقُ من فكرةِ تقديمِ زادٍ ثقافيٍّ للمسلم، بل إعادةُ صياغته ـ وفقاً لمنهجِ كتابِ الله ـ من جديد..

الثاني: تسجيلُه لمعاني القرآنِ التي فهمَها الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ واستلهموها، وعاشوا تطبيقَها العمليَّ الواقعي، الذي لم يَعرفْ تفريقاً بين النظريةِ والتطبيق.

الثالث: محاولتُه تجاوزَ عصرِ الخلاف المذهبي، أو عصرِ المذهبيةِ الفكرية في تفسير القرآن، التي وقعتْ في خطأ المقررِ الفكريِّ المسبق.. وذلك خضوعاً للمدلولاتِ القرآنيةِ المباشرة، أو بصورةٍ مباشرة.. على ما يحتاجُ إليه هذا الأمرُ من ثقافةٍ واسعة، وحسٍّ مرهف، وتمكُّنٍ علمي، وتجربةٍ عملية، أو نهوضٍ بأعباءِ الدعوة.. يؤهِّلُ صاحبَه لمثلِ هذا الفهمِ المتكامل، الذي يتخلَّصُ من التجزئ، أو من أخذِ الصورةِ القرآنية تفاريق!.

... وعندنا أنَّ (في ظلال القرآن) امتازَ بهذه الأمورِ الثلاثة، فلم يكن بذلك من أهمِّ المعالمِ الرئيسة في تاريخِ التفسير، فحسب، بل كان كذلك تفسيرَ العصرِ الذي لا يُغني عنه تفسيرٌ آخر من تفاسير علمائنا الأوائل..

---

(١) مدخل إلى تفسير القرآن للدكتور عدنان زرزور، ص٢٦٨ ـ ٢٧٠.

الظلال ـ إذن ـ دليلٌ عمليٌّ مكتوب ـ إنْ صحَّ مثلُ هذا التعبير ـ إلى المجتمعِ الإسلامي والأمةِ المسلمة، وليس دليلاً ثقافياً لعلومِ القرآن، أو علومِ التفسير، أو علومِ الثقافة الإسلامية، من فقه وأصول وتاريخِ جدلٍ أو خلاف!.

ومَنْ ظنَّ أن هذا هو تعريفُ التفسير، أو أنَّ تقديمَ ذلك الدليلِ الثقافيِّ يجبُ أن يكونَ مهمةَ جميعِ المفسرين في جميع العصور، فلْيَعُدْ على معلوماتِه بالمراجعة والتحليل».

ومن مظاهرِ اعتبارِ الظلال نقلةً بعيدةً في التفسير:

١ ـ دخولُ سيد قطب عالمَ القرآنِ بدونِ مقرراتٍ مسبقة، وتَرْكُه الأمْرَ لنصوصِ القرآن لتشكِّلَ له خلفيتَه الفكرية، ولتوحي له بإيحاءاتِها ودلالاتها، فكانتْ أفكارُه قرآنية.

٢ ـ التسليمُ بمدلولِ النص القرآني، والثقةُ بمقرراته، والاستشهادُ له، وإخضاعُ الظواهرِ المخالفةِ له، واعتبارُ النصِّ هو الأساس، وكلُّ ما سواه تَبَعٌ له.

٣ ـ العلميةُ والجديةُ في البحث وإدراكُ منهجِ الإسلام في المعرفة.

٤ ـ نجاحُه في إبرازِ الوحدةِ الموضوعية للقرآن الكريم، وتطبيقُها على سورِ القرآن وآياتِه، وبيانُ التناسبِ الموضوعي في موضوعات السورة، والتناسقِ الفنيِّ في صياغتها.

٥ ـ تجاوزُهُ عصْرَ الخلافِ المذهبيِّ والكلاميِّ بين الفرق الإسلامية المختلفة، من معتزلةٍ وخوارج وشيعة ومرجئة وأشاعرة وغير ذلك، وعودتُه إلى معينِ القرآنِ مباشرة، وتلقِّي حقائقِه ومقرراته حولَ المسائلِ المختلفِ عليها بين تلك الفرق.

٦ ـ تحقيقُه الأغراضَ الأساسيةَ للقرآن، المتمثلةَ في هدايةِ الناسِ إلى الله، وتربيةِ المسلمين تربية متكاملة، وإيجادِ المجتمعِ الإسلامي الرباني، ومواجهةِ أَعداءِ الله..

٧ ـ معايشتُه لحياةِ الرسول ﷺ بالقرآن، وحياةِ أَصحابِه به، وإدراكُه لجوٍّ

نزولِ القرآن في حياتهم، وتسجيلُه المعاني التي استلهَمها الصحابةُ من القرآن وعاشوها في حياتهم.

٨ ـ معايشتُه العمليةُ الحركيةُ لنصوصِ القرآن، وحركتُه الجهاديةُ بالقرآن، وحياتُه الطويلة في ظلال القرآن، ومرورُه بتجربةٍ عمليةٍ قاسية، دفعَ فيها الكثيرَ من راحته وصحته، ونالَ فيها ما نالَ من الابتلاءِ والأذى، والتعذيب والسجن، ثم دَفَعَ روحَه ثمناً لها، حيث لقيَ اللهَ شهيداً ـ إن شاء الله ـ.

والخلاصةُ التي نخرج بها هي: إن (في ظلال القرآن) تفسير، وإنه لونٌ جديدٌ في التفسير، وإنه نقلةٌ بعيدةٌ جديدةٌ في التفسير، وإنَّ سيد قطب يقفُ في طليعةِ المفسرين، ويُعتبرُ رائداً من روادِ التفسير، ومؤسساً لمنهجٍ من أهمِّ مناهجِ التفسير، هو منهج (التفسير الحركي الدعوي التربوي)[1].

ونختمُ هذا المبحث بقولِ أُستاذنا الدكتور أحمد حسن فرحات: «.. إني لأشفقُ على الظلال أنْ يكونَ كتاباً في التفسير.. ذلك أنَّ الغايةَ التي يهدفُ إليها أكبرُ بكثيرٍ من مجردِ المعرفة النظرية الباردة لمعاني القرآن... إنَّ الغايةَ التي يهدف إليها الظلال هي: أنْ يُعيدَ القرآنَ حياً في نفوس الناس، يصوغُهم صياغةً جديدة، وينقلُهم من مجتمعِ الجاهليةِ إلى مجتمعِ الإسلام...».

ونختمُه بقولِ الأستاذ الدكتور عدنان زرزور: «ومَنْ يدري؟ فلعلَّ هذا القبولَ الذي كتبه المولى سبحانه لهذا التفسير يعودُ إلى ما ذكرنا، وإلى أنَّ سيداً رحمه الله قد كتبَ تفسيرَه مرتين: مرةً بِمِدادِ العالم، وأُخرى بدماءِ الشهيد!

حروفُ القرآن نور.. ودماءُ الشهداء نور.. و(في ظلال القرآن) نورٌ على نور!»[2].

* * *

---

(١) انظر شرح هذه النقاط في فصل (الظلال نقلة بعيدة في التفسير) من كتابنا (مدخل إلى ظلال القرآن)، ص٢١٧ ـ ٢٦٣.

(٢) مدخل إلى تفسير القرآن للدكتور عدنان زرزور، ص٢٧٠.

الخاتمة

وهكذا ينتهي ما قَدَّرَ اللهُ لنا أنْ نكتبَه حولَ مناهج المفسرين. والحمد لله رب العالمين.

لقد سرْنا مع الدارسين مع حركةِ التفسيرِ ومناهج المفسرين سَيْراً مرحلياً موضوعياً، عَرَّفْنا فيه بأهمِّ المناهج المختلفة في التفسير، كما عَرَّفْنا بأشهرِ التفاسيرِ التي تَتبعُ ذلك المنهج.

قَدَّمنا للدارسين مقدماتٍ تمهيدية في معرفةِ مناهجِ المفسرين.

ثم تحدَّثْنا عن الشروطِ والضوابطِ والآدابِ والصفاتِ التي لا بدَّ أنْ تتوفَّرَ في المفسِّرِ ليكون تفسيرُه صواباً، والعلومِ التي لا بدَّ أنْ يُحَصِّلَها ليحسنَ فهمَ القرآن وتفسيره.

ثم تحدَّثْنا عن تفسيرِ القرآن بالقرآن، وصورِ بيانِ القرآنِ للقرآن، وتفسيرِ القرآن بالسنة الصحيحة، وأوجهِ تفسيرِ السنة للقرآن.

وانتقلنا بعد ذلك للحديث عن التفسير بالمأثور، حيث بَيَّنّا مفهومَه، وعَرَضْنا قواعدَه، ثم رصَدْنا خطواتِه ومراحلَه، زمن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين.

وتوجَّهْنا للحديثِ عن منهجِ التفسيرِ الأثري النظري، أَهَمِّ مناهج التفسير، وتحدَّثْنا عن قواعدِه وأُسسه، ثم عَرَّفْنا بأشهرِ التفاسير التي تمثلُه، ووقفنا وقفةً مفصلةً قليلاً مع أشهرِ تفسيريْن يمثّلان هذا المنهج: تفسير الطبري، وتفسير ابن كثير.

ووقفْنا بعد ذلك مع التفسيرِ بالرأيِ المحمود، تحدَّثْنا عن مفهومِه وشروطه،

ثم عَرَّفْنا بأشهرِ التفاسير التي تمثله، وعلى رأسِها تفسير الرازي.

وعَرَّفْنا على الاتجاهاتِ المنحرفة في التفسير، أسبابِها، وفرقِها، وأشهرِ التفاسير التي تمثلها.

وختمْنا رحلَتَنا مع مناهج المفسرين بالوقوفِ مع التفسير في العصر الحديث، تحدَّثْنا عن أهمِّ الاتجاهات المعاصرة في التفسير. وختَمْنا هذه الوقفةَ بالحديثِ عن التفسير الرائد (في ظلال القرآن) لسيد قطب رحمه الله. ونرجو أنْ يكونَ ختامُ الدراسة به مسكاً!!

ونحمدُ اللهَ على ما وَفَّقَ وأعان، ونرجوه سبحانه أن ينفعَ بهذه الدراسة، وأنْ يتقبَّلَها بقبولٍ حسن، ويكتب لنا عنده جزيلَ الأجر والثواب.

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

* * *

المراجع

١ ـ ابن كثير الحافظ المفسر، للدكتور محمد الزحيلي سلسلة أعلام المسلمين، دار القلم ـ دمشق.

٢ ـ اتجاهات التفسير في العصر الحديث، للدكتور عبد المجيد المحتسب، دار الفكر ـ عمان ـ الأردن.

٣ ـ الإتقان في علوم القرآن، للحافظ جلال الدين السيوطي، تحقيق الدكتور مصطفى البغا، دار ابن كثير ـ دمشق.

٤ ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ـ تفسير أبي السعود ـ لأبي السعود العمادي، مصورة عن الطبعة المصرية، دار الكتاب العربي.

٥ ـ أصول التفسير وقواعده، لخالد العك، دار النفائس ـ دمشق.

٦ ـ أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن، لمحمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب ـ بيروت.

٧ ـ الإعجاز البياني للقرآن، للدكتورة عائشة عبد الرحمن ـ بنت الشاطئ، دار المعارف ـ مصر.

٨ ـ الأعلام، لخير الدين الزركلي، دار العلم للملايين ـ بيروت.

٩ ـ الإمام الطبري، للدكتور محمد الزحيلي سلسلة أعلام المسلمين، دار القلم ـ دمشق.

١٠ ـ الإمام القرطبي، لمشهور حسن سلمان، سلسلة أعلام المسلمين، دار القلم ـ دمشق.

١١ ـ أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـ للبيضاوي ـ تفسير البيضاوي ـ وبهامشه حاشية الكازروني، دار الفكر ـ بيروت.

١٢ ـ البحر المحيط، لأبي حيان الأندلسي (تفسير أبي حيان)، دار الفكر ـ بيروت.

١٣ ـ البرهان في علوم القرآن، للزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مصورة عن الطبعة المصرية.

١٤ ـ البغوي ومنهجه في التفسير، لعفاف حميد، دار الفرقان ـ عمان.

١٥ ـ بقي بن مخلد ومقدمة مسنده، لأكرم ضياء العمري ـ بيروت: ١٩٨٤، بدون ناشر.

١٦ ـ التصاريف، ليحيى بن سلام البصري، تحقيق الدكتورة هند شلبي، الدار التونسية ـ تونس.

١٧ ـ التحرير والتنوير، لمحمد الطاهر بن عاشور ـ تفسير ابن عاشور ـ الدار التونسية للنشر ـ تونس.

١٨ ـ تفسير ابن عباس، المسمى بصحيفة علي بن أبي طلحة، تحقيق الدكتور راشد الرجال، المؤسسة الثقافية ـ بيروت.

١٩ ـ التفسير والتأويل في القرآن، للدكتور صلاح الخالدي، دار النفائس ـ عمان.

٢٠ ـ تفسير الحسن البصري، جمع الدكتور محمد عبد الرحيم، دار الحديث ـ القاهرة.

٢١ ـ التفسير ورجاله، لمحمد الفاضل بن عاشور، الدار التونسية للنشر ـ تونس.

٢٢ ـ تفسير السدي الكبير، جمع الدكتور محمد عطا يوسف، دار الحديث ـ القاهرة.

٢٣ ـ تفسير سفيان الثوري، جمع امتياز علي عرشي، دار الكتب العلمية ـ بيروت، مصورة عن الطبعة الهندية.

٢٤ ـ تفسير الطبري تقريب وتهذيب، للدكتور صلاح الخالدي، دار القلم ـ دمشق.

٢٥ ـ تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير (تفسير ابن كثير)، دار الحديث ـ القاهرة.

٢٦ ـ تفسير القرآن الكريم، لهود بن محكم الهواري، تحقيق بالحاج شريفي، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت.

٢٧ ـ تفسير مجاهد، تحقيق عبد الرحمن السورتي، نشر إدارة الشؤون الدينية ـ قطر.

٢٨ ـ التفسير والمفسرون، للدكتور محمد حسين الذهبي، دار الكتب الحديثة ـ القاهرة.

٢٩ ـ التفسير المنير، للدكتور وهبة الزحيلي، دار الفكر ـ دمشق.

٣٠ ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن، لابن جرير الطبري، تحقيق محمود شاكر، دار المعارف.

٣١ ـ الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد الله القرطبي، مصورة عن طبعة، دار الكتب المصرية.

٣٢ ـ جمال الدين القاسمي، لنزار أباظة سلسلة أعلام المسلمين، دار القلم ـ دمشق.

٣٣ ـ الحافظ جلال الدين السيوطي، لإياد الطباع، سلسلة أعلام المسلمين، دار القلم ـ دمشق.

٣٤ ـ حجة القراءات، لابن زنجلة، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة.

٣٥ ـ خصائص التصور الإسلامي، لسيد قطب، دار الشروق ـ بيروت.

٣٦ ـ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر العسقلاني، دار الكتب الحديثة، القاهرة.

٣٧ ـ دلائل النبوة، للبيهقي، تحقيق عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العربية.

٣٨ ـ رؤوس المسائل الفقهية، للزمخشري، تحقيق عبد الله نذير أحمد، دار البشائر الإسلامية ـ بيروت.

٣٩ ـ الرازي مفسراً، للدكتور محسن عبد الحميد، دار الرشيد ـ بغداد.

٤٠ ـ روح المعاني، لشهاب الدين الآلوسي ـ تفسير الآلوسي، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٤١ ـ زاد المسير لابن الجوزي ـ تفسير ابن الجوزي ـ المكتب الإسلامي ـ بيروت

٤٢ ـ سفيان الثوري وأثره في التفسير، لهاشم المشهداني ـ بغداد، بدون ناشر.

٤٣ ـ سنن ابن ماجه، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي.

٤٤ ـ سنن أبي داود، بعناية محمد محيي الدين عبد الحميد.

٤٥ ـ سنن الترمذي، بعناية أحمد شاكر.

٤٦ ـ سنن النسائي، بعناية عبد الفتاح أبو غدة.

٤٧ ـ سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، للدكتور صلاح الخالدي، دار القلم ـ دمشق.

٤٨ ـ سير أعلام النبلاء، للذهبي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة.

٤٩ ـ صحيح البخاري، بعناية محمد نزار تميم، دار الأرقم ـ بيروت

٥٠ ـ صحيح مسلم، بعناية محمد فؤاد عبد الباقي، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٥١ ـ الطبقات الكبرى، لابن سعد تحقيق أحمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٥٢ ـ طبقات المفسرين، للداوودي تحقيق أنور محمد عمر، مكتبة وهبة ـ القاهرة.

٥٣ ـ العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج، لعبد الفتاح أبو غدة، دار نشر المطبوعات الإسلامية ـ حلب.

٥٤ ـ عمدة التفسير عن الحافظ ابن كثير، لأحمد شاكر، دار المعارف ـ مصر.

٥٥ ـ غرائب القرآن ورغائب الفرقان، للقمي النيسابوري، تحقيق إبراهيم عطوة عوض، مكتبة مصطفى الحلبي ـ مصر.

٥٦ ـ فتح الباري بشرح البخاري، لابن حجر العسقلاني، المكتبة السلفية.

٥٧ ـ فتح القدير، لمحمد علي الشوكاني (تفسير الشوكاني)، مصورة عن الطبعة المصرية.

٥٨ ـ في ظلال القرآن، لسيد قطب، دار الشروق ـ بيروت.

٥٩ ـ القاضي البيضاوي، للدكتور محمد الزحيلي، سلسلة أعلام المسلمين، دار القلم ـ دمشق.

٦٠ ـ قتادة: دراسة للمفسر والتفسير، لعبد الله أبو السعود بدر، طبعة مصر.

٦١ ـ القراءات الشاذة وتوجيهها، لعبد الفتاح القاضي، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٦٢ ـ القصص القرآني: عرض وقائع وتحليل أحداث، للدكتور صلاح الخالدي، دار القلم ـ دمشق.

٦٣ ـ قواعد التفسير، لخالد السبت، دار عثمان بن عفان ـ الرياض.

٦٤ ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، للزمخشري، بعناية مصطفى حسين أحمد، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٦٥ ـ كشف الخفاء ومزيل الإلباس، للعجلوني، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٦٦ ـ الكليات، لأبي البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٦٧ ـ لسان العرب، لابن منظور الأفريقي، دار صادر ـ بيروت.

٦٨ ـ المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، لابن عطية الأندلسي، طبعة المغرب.

٦٩ ـ مدارك التنزيل، للنسفي، تحقيق مروان الشعار، دار النفائس ـ دمشق.

٧٠ ـ مدخل إلى تفسير القرآن وعلومه، للدكتور عدنان زرزور، دار القلم ـ دمشق.

٧١ ـ مدخل إلى (في ظلال القرآن)، للدكتور صلاح الخالدي، دار المنارة ـ جدة.

٧٢ ـ مرويات الإمام أحمد بن حنبل في التفسير، للدكتور حكمت بشير مكتبة المؤيد ـ الرياض

٧٣ ـ المستدرك على الصحيحين، للحاكم النيسابوري، دار الكتاب العربي ـ بيروت.

٧٤ ـ مسند أحمد بن حنبل، بتحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة ـ بيروت.

٧٥ ـ مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور للبقاعي تحقيق عبد السميع حسنين، مكتبة المعارف ـ الرياض.

٧٦ ـ معالم التنزيل، للبغوي ـ تفسير البغوي ـ تحقيق خالد العك ومروان سوار، دار المعرفة ـ دمشق.

٧٧ ـ معالم في الطريق، لسيد قطب، دار الشروق ـ بيروت.

٧٨ ـ معجم مقاييس اللغة، لابن فارس طبعة دار الفكر ـ دمشق.

٧٩ ـ المعجم الوسيط، أحمد حسن الزيات وفريقه، مصورة عن طبعة مجمع اللغة العربية في القاهرة.

٨٠ ـ مفاتيح الغيب، للرازي ـ تفسير الرازي ـ مصورة عن الطبعة المصرية.

٨١ ـ مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة، لجلال الدين السيوطي مكتبة الفتح ـ القاهرة.

٨٢ ـ مفردات ألفاظ القرآن، للراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان داوودي ـ دار القلم ـ دمشق.

٨٣ ـ مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية، تحقيق الدكتور عدنان زرزور، طبع دار القرآن الكريم.

٨٤ ـ مناهج المفسرين، للدكتور مصطفى مسلم، دار المسلم ـ الرياض.

٨٥ ـ المنهج الحركي في ظلال القرآن، للدكتور صلاح الخالدي، دار المنارة ـ جدة.

٨٦ ـ الميسر في القراءات الأربع عشر، لمحمد فهد الخاروف، دار ابن كثير ـ دمشق.

٨٧ ـ نظم الدرر في تناسب الآي والسور، للبقاعي ـ تفسير البقاعي ـ طبعة دائرة المعارف العثمانية ـ حيدر آباد ـ الهند.

٨٨ ـ نواسخ القرآن، لابن الجوزي طبعة الجامعة الإسلامية ـ المدينة المنورة.

٨٩ ـ هميان الزاد إلى دار المعاد، لمحمد يوسف أطفيش، طبع سلطنة عمان.

٩٠ ـ الوسيط في تفسير القرآن المجيد للواحدي ـ تفسير الواحدي ـ تحقيق عادل أحمد عبد الموجود وإخوانه، دار الكتب العلمية ـ بيروت.

٩١ ـ وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق الدكتور إحسان عباس. دار صادر ـ بيروت.

* * *

الفهرس

الموضوع | الصفحة

* * *